

تقرير
اقتصادي
(استراتيجي)
سنوي
يصدر عن

مجلة
البيان

العالم الإسلامي

عوامل النهضة وآفاق البناء

الإصدار الرابع
١٤٢٨ هـ

المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد
وتوعية الجاليات بالفيضة بريدة



كثريكتيفي الدعوة

الرعي الرسمي

العالم الإسلامي

عوامل النهضة وآفاق البناء

رئيس مجلس الإدارة

د. عادل بن محمد السليم

رئيس التحرير

أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@gmail.com

هيئة التحرير

د. باسم خفاجي
د. يوسف بن صالح الصغير
جهد الأســتــاذ
د. ضيف الله بن محمد الضعيفان
عامر عبد المنعم
أحمد فهمي

سكرتارية التحرير

محمد عادل

تقرير
ارتيادي
(استراتيجي)
يصدر عن

مجلة
البيان

أعد هذا التقرير بالتعاون بين مجلة البيان
والمركز العربي للدراسات الإنسانية في القاهرة

الإصدار الرابع
١٤٢٨ هـ

ردمك : 1658 - 127X ISSN

جميع الحقوق محفوظة

مجلة البيان

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

مجلة البيان : ص . ب : ٢٦٩٧٠ - الرياض ١١٤٩٦

هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - ٠٠٩٦٦١ - فاكس : ٤٥٣٢١٢١ - ٠٠٩٦٦١

www.albayan-magazine.com

- مكتب قطر : الدوحة : هاتف : ٤٤٤١٠٤٤ - ٠٠٩٧٤ - فاكس : ٤٣٢٧١٦٧ - ٠٠٩٧٤
- مكتب السودان : الخرطوم : هاتف وفاكس : ٢٢٧٨٢٦ - ٠٠٢٤٩١٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

العالم الإسلامي عوامل النهضة وآفاق البناء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَانْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَاءَمُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،

فإن الأمة الإسلامية تحتاج في سعيها للقيام بالدور الذي ائتمنها الخالق جل وعلا عليه، وفي سبيل استعادتها لمكانتها الحضارية، ومواجهتها مع الذات ومع الآخر، أن يكون لديها الرصيد العقدي والفكري والسياسي المناسب لحمل أمانة هذه الرسالة، وخدمة الدعوة والمساهمة في نهضة البشرية بالشكل الصحيح شرعاً والمعاصر منهجاً، واللائق بتاريخ وقيمة هذه الأمة بين الأمم. وفي هذا الإطار تأتي أهمية التقارير الارتياضية (الاستراتيجية)؛ لتعين صنّاع القرار على أداء أعمالهم، وتساهم في خدمة النخب الفكرية والسياسية، وتقدم للقارئ المسلم المهتم بأمور الأمة رؤية متوازنة لأحداث عام مضى، وتأثير ذلك على الرؤى المستقبلية للأعوام القادمة.

ولهذا يصدر تقرير «البيان» الارتياضي لهذا العام؛ ليتوج مسيرة الأعوام الأربعة الماضية في مجال إصدار تقرير استراتيجي سنوي، يساهم في ترشيد الرؤى، وخدمة صنّاع القرار الإسلامي في المجالات الفكرية والسياسية.

وقد حرصنا في تقرير هذا العام على توسيع دائرة المشاركة في كتابة الأبحاث والدراسات؛ لتشمل عدداً أكبر من الباحثين والمفكرين من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وأن تكون الموضوعات المختارة للبحث أقرب إلى اهتمامات صنّاع القرار الإسلامي، مع عدم إغفال أهمية التعرض للقضايا المستقبلية والهامة، والتي قد لا تكون مثارة على مستوى الاهتمام الإعلامي، ولكنها ذات أهمية استراتيجية مستقبلية.

كما انتهج هذا الإصدار نهج سابقه في مقام الوسائل المساعدة للقراء للاستفادة من التقرير بأفضل شكل ممكن، وتضمن ذلك وجود «ملخص» في أول الدراسة يوضح أهم ما جاء فيها من أفكار وعناصر، مع الاستعانة برسوم توضيحية وبيانية تساعد على تلخيص الفكرة وإظهارها بشكل مشوق.

مقدمة

كما تم الاهتمام بإبراز وتقريب أهم المعاني من خلال «المقتطفات»، التي تُقدم في ثنايا كل دراسة؛ لتظهر أهم أفكارها وعناصرها. كما زُوِّلت كل دراسة بـ«معلومات إضافية»؛ لتبين بعض ما أُجمل فيها بشكل معلوماتي موثوق ما أمكن.

وقد جاء التقرير الارتياذي في هذا العام ليعالج الكثير من القضايا والتحديات التي برزت للأمة الإسلامية في الآونة الأخيرة؛ متضمنًا لخمسة أبواب رئيسية، تم تقسيمها تبعًا للاهتمامات الخاصة بصناع القرار في العالم الإسلامي، وهي أولاً:

-الباب الأول: باب «النظرية والفكر» الذي قدم فيه الباحثان قضايا فكرية وسياسية هامة، بدءًا «بالنقد الغربي للفكرة الديمقراطية»؛ منتقدًا دأب البعض على الانطلاق من المفهوم الديمقراطي الغربي للحكم؛ باعتباره مفهومًا مثاليًا يسمو على كل نقد، وينظر إليها كأفضل شكل من أشكال الحكم المختلفة التي عرفتها البشرية، وتحوله إلى مفهوم سلطوي يخشى الباحثون التعرض له بالنقد، رغم أن رجال الفكر الغربيين يدركون حقيقة الديمقراطية كشكل من أشكال الحكم الذي قد لا يناسب كل المجتمعات الإنسانية، أو كل الحقب الزمنية.

ويشتمل الباب الأول على دراسة «رؤى شرعية في الدراسات المستقبلية»، وهي محاولة لتقديم رؤية تأصيلية للدراسات المستقبلية، التي لم تُعْطَ بعدُ الاهتمام المناسب في أدبيات الفكر الإسلامي، في الوقت الذي تبذل فيه مجتمعات ودول أخرى أموالاً وإمكانات هائلة في سبيل صياغة رؤى أفضل لشعوبها في المستقبل.

أما الباب الثاني للتقرير فيتناول الملف الرئيسي لهذا العام، وهو موضوع «المقاومة»، ويركز الملف على أهم قضايا المقاومة في العالم الإسلامي، ويشمل ست دراسات، الأولى بعنوان «أفغانستان وصعود طالبان»، وهي دراسة ترصد فشل الاحتلال الأمريكي في أفغانستان في تحقيق أهدافه، وتتناول حقيقة الصعود الطالباني في الساحة الأفغانية، كما تناقش إشكالات عودة طالبان من جديد للسلطة.

ثم يناقش التقرير في دراسة «المقاومة العراقية وتحولات المستقبل» الواقع الجديد الذي أفرزته نتائج المقاومة في الساحة العراقية، وي طرح العديد من الأفكار والتساؤلات التي تحتاج لإجابات واعية حول المتغيرات المنتظرة على الأرض في حال استمرار الاحتلال وفي حال انسحابه.

ثم ينتقل الملف إلى واحدة من أهم قضايا العالم الإسلامي، تحت عنوان «المقاومة الفلسطينية مراحل التطور وآفاق المستقبل» ليقدم قراءة للواقع الفلسطيني والمقاومة على وجه التحديد تاريخًا وتطورًا، ومؤكدًا على أن الصراع في فلسطين صراع طويل، وأن الشعب الفلسطيني ليس وحده المعني بمواجهة المشروع الصهيوني.

وفي دراسة تالية يناقش الملف أحد الموضوعات الساخنة التي تخضع لنقاشات جادة في العالم العربي والإسلامي، وهو بحث «حزب الله والمشروع الإيراني»، ويكشف هذا البحث حقيقة المشروع الإيراني الإقليمي، وعلاقة حزب الله اللبناني بإيران، والدور الذي يؤديه لخدمة هذا المشروع.

يُختتم هذا الباب من أبواب التقرير بدراسة قضية «الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية، وآفاق الفعل الشعبي»، وهي دراسة تلقي الضوء على بعض دروس الأزمة، كالحاجة إلى مزيد من التأصيل ومزيد بناء

مقدمة

في مجال فقه الاحتجاج الحضاري عند ضحايا الأزمة، مرورًا بأهمية فكرة «الجهاد المدني» التي زادت بها الأزمة وضوحًا.

ويتعرض التقرير في الباب الثالث إلى مجموعة من قضايا «العالم الإسلامي»، وي طرح من خلال تناوله لتلك القضايا مجموعة من الرؤى المتضمنة للخيارات والبدائل الاستراتيجية في التعامل مع إشكالاتها.

بدأ الباب بدراسة «هل تراجع مشروع إسرائيل الكبرى؟»، والتي جمع فيه الباحث شواهد متعددة تشير في مجملها إلى أن الكيان الصهيوني يعيش مرحلة من أسوأ مراحلها، وأكثرها تراجعًا وانكسارًا.

كما كشفت دراسة «العلاقات الأمريكية الإيرانية» عن الوجه الآخر في العلاقات بين الأمريكيين والإيرانيين، وأنه برغم التصريحات العدائية المتبادلة بين أمريكا وإيران إلا أن الأكمة تخفي وراءها تاريخًا طويلًا من التعاون بين «الشیطان الأكبر» كما تسميه إيران، وبين جمهورية الخميني. ومؤكدة أن إيران الخميني تنطلق في تحالفاتها وعلاقاتها الدولية من مصالحها القومية والطائفية.

أما بحث «التدخل الدولي في السودان وأثره عربيًا وإفريقيًا»، فهو يلقي الضوء على أهم اللاعبين المؤثرين في الوضع السوداني المتأزم، وأثر التدخل الخارجي في قضايا السودان على الجوار العربي والمحيط الإقليمي الإفريقي.

ويلي ذلك دراسة تبين أسباب الصعود المبهر، والسقوط السريع للمحاكم الإسلامية في الصومال، وهي بعنوان «المحاكم الإسلامية في الصومال ومستقبل القرن الإفريقي»، وتجمع رؤية تحليلية لتجربة المحاكم القصيرة، وتأثير تلك التغيرات التي طرأت على الأوضاع الصومالية على القرن الإفريقي.

ويتضمن هذا الباب من أبواب التقرير كذلك دراسة «استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي»، وهي دراسة تلامس حقيقة الدور الغربي في استغلال الأقليات ضد بلدانها، وتؤكد أن تلك المشكلة مستحدثة أو مفتعلة؛ ولم تظهر إلا في إطار الصراع مع الغرب، وتحديدًا بعد مرحلة الاحتلال والنفوذ الأجنبي.

أما دراسة «ظاهرة الهجوم على الحجاب» فهي تهدف إلى توثيق الظاهرة، ومتابعة القضية من أبعادها السياسية، وجذورها الثقافية وتأثيراتها الاجتماعية، وتزامنها مع صعود الهجوم الغربي على الحجاب.

ونتيجة للتأثير الواسع لبورصات الأوراق المالية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للدول العربية؛ ناقشت دراسة «الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات الأوراق المالية-التجربة العربية» مخاطر التعاملات غير المدروسة داخل البورصات العربية، وإمكانية وجود دور إيجابي للبورصات؛ رغم الممارسات التي أضرت بصغار المستثمرين وألحقت كوارث مادية بهم.

وتختتم دراسات الباب بدراسة «المغرب العربي: التفاعلات المحلية والإقليمية والإسلامية»، في محاولة للوقوف عند عناصر التكامل والاندماج في بلاد المغرب العربي، وكذا عناصر الإخفاق والضعف.

وتضمن التقرير في بابه الرابع مراجعة لعدد من قضايا «العمل الإسلامي» وإشكالاته وهمومه؛ وافتتح الباب بدراسة حول «دور العلماء في قيادة الأمة»، وبيان خطر غياب دورهم أو تغيبه على مستوى الأمة، والدور المنتظر منهم، وما يسعهم فعله غير بيان الحكم الشرعي.

مقدمة

وفي دراسة تالية لمخاطر «ما بعد الحزبية» جاءت الدراسة لتقدم تصورًا عمليًا لتجاوز الحزبية السلبية المقيتة، مما يمكن معه تطوير العمل الجماعي القائم، والسير به نحو الترشيد والتكامل.

كما أن الباب يشتمل على دراسة هامة تسعى إلى تجاوز الكثير من مشاكل العمل السياسي الإسلامي، من خلال بحث «الإسلاميون والطريق إلى السلطة» المعني بإبراز ملامح مسيرة الإسلاميين إلى السلطة؛ من خلال استلهاهم تجارب الحركات الإسلامية في عدد من البلاد العربية في السنوات الأخيرة، متناولة إياها بعرض موضوعي لمحاولة تجنّب سلبيات هذه التجارب مرة أخرى.

أما الباب الخامس للتقرير فقد ركز على «العلاقات الدولية»، وتضمن دراسة حول ملامح «الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي»؛ لتبرهن على أن الغرب كيان يميل بطبيعته إلى الصراع، فهو يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدته.

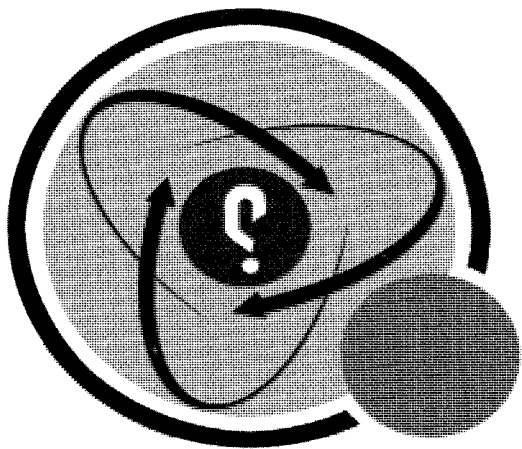
كما يشمل الباب على دراسة هامة بعنوان «التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية»، موضحة أن محاولة الإدارة الأمريكية بسط هيمنتها على العالم قد قوبلت بموجة عاتية من الرفض الدولي على الصعيدين الرسمي والشعبي، على نحو يمكن وصفه بالتمرد على المساعي الأمريكية لرفض تلك الهيمنة.

نأمل أن يكون هذا التقرير -وهو الإصدار الرابع من التقرير الارتياذي الصادر عن مجلة «البيان»- متممًا ومكملاً للأهداف والأولويات التي استنتجها التقرير لنفسه منذ إصداره الأول، ومحققًا لأهداف متعددة، من بينها:

- إبراز جانب النظرية السياسية في المنهج الإسلامي.
 - تربية وتدريب كوادر العمل الإسلامي على التحليل السياسي.
 - وإحياء الحس الارتياذي لدى النخبة من قادة وعلماء وأبناء الأمة الإسلامية.
 - والمساهمة في تقديم طرح مميز يساعد في خدمة صانع القرار في العالم العربي والإسلامي.
- نسأل المولى عز وجل أن ينفع أمتنا بهذا العمل، وأن يساهم في دفع مسيرتها على المستويين العربي والإسلامي، وأن يعين على تعميق الرؤى وتقديم البدائل، وترشيد التصورات لدى النخب الفكرية والسياسية والقيادات الدعوية والشعبية؛ حتى تستعيد الأمة مكانتها اللائقة برسالتها ودينها وتاريخها.
- وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

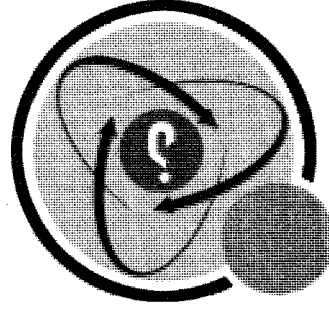
الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفهرس	٩
الباب الأول : النظرية والفكر	١١
النقد الغربي للفكرة الديمقراطية- النظرية والتطبيق	١٣
رؤى شرعية في الدراسات المستقبلية	٤١
الباب الثاني: ملف التقرير - المقاومة	٧٩
أفغانستان وصعود طالبان	٨١
المقاومة العراقية وتحولات المستقبل	١٠٧
المقاومة الفلسطينية: مراحل التطور، وآفاق المستقبل	١٣٥
حزب الله والمشروع الإقليمي الإيراني	١٥٩
الرسوم الدانماركية.. أزمات القيم والهوية	١٨٣
الباب الثالث: العالم الإسلامي	٢٠٣
هل تراجع مشروع إسرائيل الكبرى؟	٢٠٥
العلاقات الأمريكية الإيرانية «الوجه الآخر»	٢٢٧
التدخل الدولي في السودان وأثره «عربيًا وإفريقيًا»	٢٥١
المحاكم الإسلامية في الصومال، ومستقبل القرن الإفريقي	٢٧٥
استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي	٢٩٩
ظاهرة الهجوم على الحجاب	٣٢٧
الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات الأوراق المالية «التجربة العربية»	٣٤٩
المغرب العربي التفاعلات المحلية والإقليمية والإسلامية	٣٧١
الباب الرابع: قضايا العمل الإسلامي	٣٩٥
دور العلماء في قيادة الأمة	٣٩٧
ما بعد الحزبية	٤١٥
الإسلاميون والطريق إلى السلطة	٤٤٣
الباب الخامس: العلاقات الدولية	٤٦٧
الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي	٤٦٩
التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية	٥٠١



الباب الأول النظرية والفكر

د/ عبد العزيز صقر النقد الغربي للفكرة الديمقراطية

د/ هاني الجبير رؤى شرعية في الدراسات المستقبلية



النقد الغربي للفكرة الديمقراطية (النظرية والتطبيق)

د/عبدالعزیز صقر - مصر

رئيس جمعية العلم للجميع العربية لنشر العلم ورعاية الموهبين - القاهرة

ملخص البحث:

قد يبدو لكثير من الشرقيين أن مناهضة أو نقد الديمقراطية معناه رفض كل ما له صلة بالحرية والمساواة والعدالة، وتأييد كل مظاهر القهر والبطش. لقد تحولت الديمقراطية عندنا إلى مفهوم سلطوي، يخشى الباحثون التعرض له بالدراسة والنقد، والغريب أن هذا ليس هو موقف الغربيين أنفسهم؛ فالديمقراطية عندهم كغيرها من أشكال الحكم الأخرى، وهي ليست النظام الأمثل دائماً.

الأصول التاريخية للمفهوم الديمقراطي للحكم يرجع للفكر اليوناني، فهو نقطة الانطلاق في دراسة تاريخ الفكر والتطبيق الديمقراطي الغربي، ومع ذلك فإن المفهوم الديمقراطي للحكم في التقاليد اليونانية جاء متبايناً بين مؤيد ومعارض، ولو نظرنا إلى الديمقراطية في الخبرة الرومانية سنجد أنها تقدم معارضة ثابتة للديمقراطية كنظام وحيد للحكم.

لم تعرف أوروبا في العصر الوسيط المفهوم الديمقراطي للحكم، فالظلام الذي عاشت فيه آنذاك حجب عنها النور الذي كان يشع من الشرق الإسلامي.

لقد انبثق عصر النهضة في أوروبا فقط عندما تم استبعاد تدخلات الكنيسة الكاثوليكية في نطاق العلم، وفي مجال السياسة على السواء. وقد وجد الأوروبيون في الديمقراطية ملجأً من تعسف الكنيسة واضطهادها، لذا عادت أوروبا من جديد تناقش المسألة الديمقراطية - التي اختفت طوال فترة العصر الوسيط - وتطبق الديمقراطية كأسلوب للحكم، وتصدّره كأمثل نظام من أنظمة الحكم.

ومن حينها والديمقراطية حلت محل المسيحية، وتحولت إلى دين أوروبا الجديد، فسعت الحكومات لنشرها وفرضها، منذ حملات نابليون إلى حملات بوش وجيوشه «للجهاد» في سبيل نشر الديمقراطية الأمريكية، وإبادة كل من يقف في طريقها.

وبات واضحاً أنه في ظل الحكم الديمقراطي أصبح كل شيء مباحاً، وممكنًا شراؤه، ومن الناحية الواقعية فإن الكثرة لا تستطيع أن تحكم، فإن قلة من محترفي العمل السياسي في أوروبا هي التي تضطلع بها، وإن عامة الشعب بعيدة تماماً عن شدة الحكم، ولذلك بدت الديمقراطية للكثيرين من المفكرين الغربيين كمجرد وهم وخيال.

الشواهد تبرهن على أن الديمقراطية - في النظرية وفي التطبيق - لم تعبر دائماً عن حقيقة الإدراك، أو الواقع السياسي الغربي، وأنها ومنذ عُرفت في التقاليد اليونانية القديمة، وحتى هذه اللحظة لم تَزُق إلى مستوى المثالية في التنظير، أو الاستمرارية والمصدقية في التطبيق.

أفكار ومقتطفات

- لقد أضحيت الديمقراطية مفهوماً مثاليًا يسمو على كل نقد، وينظر إليها كأفضل شكل من أشكال الحكم المختلفة التي عرفتها البشرية.

- الغريب أن هذا ليس هو موقف الغربيين أنفسهم الذين ابتدعوا هذا المفهوم، وطوّروه عبر تاريخهم الممتد من العصر اليوناني وحتى هذه اللحظة! فالديمقراطية عندهم - كغيرها من أشكال الحكم الأخرى - لها ما لها وعليها ما عليها، وهي ليست النظام الأمثل دائمًا أو في كل الحالات.

- اعتبر أوتانس Otnes (القرن الخامس ق.م) أن معيار الحكم المثالي يكمن في العَدَد. وعلى هذا الأساس اعتبر الملكية أسوأ أشكال الحكم؛ لأنها تقوم على سلطة الفرد الواحد، وفضل الديمقراطية باعتبارها سلطة الأكثرية التي تحافظ على ملكية الشعب، وتستند إلى إرادته، وتساوي بين الجميع أمام القانون، وتُخضع الحكومة ذاتها لرقابة الشعب.

- الديمقراطية الرومانية لم تكن تعني أكثر من رفض نظام توارث السلطة، وضرورة حماية كرامة الفرد بحد أدنى من الحقوق والضمانات. والحضارة الرومانية بطبيعتها حضارة أرسقراطية ترفض المبدأ الديمقراطي في الحكم، وتقوم على تقديس الأوضاع القائمة، وعدم توفير مناخ الحرية اللازم حتى لعملية تقييم الأوضاع السياسية.

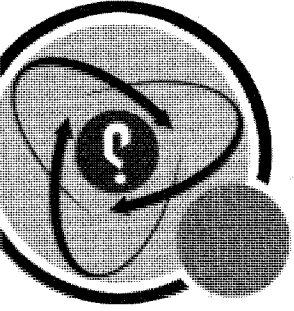
- إن الظلام الذي عاشت فيه أوروبا في هذا العصر حجب عنها النور الذي كان يشع من الشرق الإسلامي، سواء فيما يتعلق بالممارسات السياسية القائمة على الشورى، أو بحركة الترجمة التي نقلت الخبرة الديمقراطية اليونانية إلى اللغة العربية. فقط عندما تمكّن الفكر الإسلامي من العبور عبر الحدود الأوروبية من خلال ألبرتوس الكبير وتوماس الأكويني، بدأت أوروبا تتعرف على تراثها اليوناني المرتبط بأشكال الحكم.

- انبثق عصر النهضة في أوروبا فقط عندما تم استبعاد تدخلات الكنيسة الكاثوليكية في نطاق العلم، وفي مجال السياسة على السواء. وقد وجد الأوروبيون في الديمقراطية بالذات ملجأً من تعسف الكنيسة واضطهادها ومسوغًا لمقاومة الطغيان، لذا عادت أوروبا من جديد تناقش المسألة الديمقراطية - التي اختفت طوال فترة العصر الوسيط - وتطبق الديمقراطية كأسلوب للحكم وتنتقده وتطوره، بل وتصدره كأمثل نظام من أنظمة الحكم، و«تجاهد» في سبيله كما كانت تجاهد من قبل في سبيل المسيحية.

- لا شك أن الديمقراطية الغربية - من الناحية النظرية - تستمد قوتها وجاذبيتها من تلك المفردات الإيجابية التي تتضمنها عملية التعريف، من قبيل الحرية والكرامة والحقوق والضمانات وأمثالها.

- على الرغم من ادعاء باقي الحكومات الغربية إيمانها بالفكرة الديمقراطية (التي تُفترض: تداول السلطة، وعدم التمييز بسبب الدين أو الجنس، والحقوق المتساوية للأغلبية والأقلية، وعدم الانتقاص من حقوق الأقليات) فإن واقع سائر الدول التي تنتمي إلى الإطار الحضاري الغربي يؤكد تعصب وطغيان الأغلبية في هذه الدول، وحرصها على إصدار القرارات والقوانين، ودعم الممارسات التي من شأنها أن تنقص من حقوق الأقليات وتحول دون استيلائها على السلطة، أو حتى المشاركة فيها.
- إذا كانت السلطة بطبيعتها مفسدة لأصحابها ومتدلية بهم دومًا إلى التعسف، فما حال أصحاب السلطة في النظم الديمقراطية، وهم في الأساس «انتهازيون محتمون في مجالس (برلمانات) تتسلط باسم كائن خيالي لا وجود له هو «الأمة»، وتدعي أنها إنما تعبر عن إرادته، ومن ثم تنطلق في تسلطها من غير قيد أو مسئولية؛ تبعًا لضياح المسئولية بتعدد المسئولين.
- أثبتت الدراسات أن ثلث المحرّرين الغربيين تقريبًا لا يقبلون الفكرة الديمقراطية أو الترويج لها في كتاباتهم. وتمثل نسبة ٦٩٪ من البريطانيين و٦٨٪ من الفرنسيين و٦٣٪ من الأمريكيين أعلى نسبة أمكن التوصل إليها لأولئك المحرّرين الذين يفضلون استخدام هذه الكلمة في العالم الغربي. ولم تكن هذه النسبة تزيد عن ٤٠٪ في ألمانيا عند منتصف القرن الماضي.
- إن متابعة العملية الانتخابية الأمريكية - الديمقراطية - تظهر بوضوح أن ثمة هبات كبيرة تقدمها الشركات والمنظمات الأمريكية المختلفة للمرشحين للرئاسة وعضوية الكونجرس؛ مقابل حق الدخول إلى واشنطن والتأثير في القرارات الصادرة بحقها.
- الديمقراطية - في النظرية وفي التطبيق - لم تعبر دائمًا عن حقيقة الإدراك أو الواقع السياسي الغربي، وإنها ومنذ عُرفت في التقاليد اليونانية القديمة وحتى هذه اللحظة لم ترقّ إلى مستوى المثالية في التنظير؛ أو الاستمرارية والمصادقية في التطبيق.
- دأب بعض الحكام والمفكرين في عالما العربي والإسلامي على الانطلاق من المفهوم الديمقراطي الغربي للحكم؛ باعتباره مفهومًا مثاليًا وعالميًا وصالحًا للتطبيق على كافة الخبرات، وفي كل الظروف، وأنه صياغة أمينة لواقع الحضارة الغربية «المتقدمة».
- حتى لو تخلينا عن قناعتنا بضرورة أن نتصدى لمشاكلنا ونختار أساليب الحكم لبلادنا من منطلق التصور الإسلامي، وفي ضوء تقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الحضارية وظروفنا الراهنة، وحتى لو قبلنا إمكانية استيراد وتطبيق النظريات والتطبيقات الغربية في واقعنا المحلي، بغض النظر عن اختلاف الطبيعة الحضارية، وخصائص الواقع القائم والإدراك الجماعي، فكيف نقبل تصورات غربية ثبت تجريبيًا أن الواقع الغربي ذاته قد لفظها؛ لاصطدامها مع إدراكه السياسي ووعيه الجماعي، بسبب المشكلات الضخمة التي ترتبت على تطبيقها؟!!

- ليس من العلمية ولا من الواقعية في شيء أن تنقل نظريات أو تصورات أو تطبيقات لا تتعارض فقط مع واقعنا الحضاري وإدراكنا السياسي، بل ومع الإدراك الغربي ذاته، الذي أوجدها في ظروف تاريخية معينة، ثم بات يتنكر لها بعدما اختلف الواقع المعاصر في طبيعته وخصائصه عن ذلك الواقع الذي أفرزها ودعا إلى تطبيقها.



النقد الغربي للفكرة الديمقراطية (النظرية والتطبيق)

د/عبد العزيز صقر - مصر

رئيس جمعية العلم للجميع العربية لنشر العلم ورعاية الموهبين - القاهرة

الديمقراطية هو الخيار الوحيد أمام كل دول العالم، فلا يزال علماء السياسة ورجال الفكر الغربيون يدركون حقيقة الديمقراطية كشكل من أشكال الحكم، الذي قد يكون وقد لا يكون الأمثل لمجتمع ما أو في وقت ما. (١)

والحقيقة أن عملية تقييم المفهوم الديمقراطي للحكم بدأت في التقاليد الغربية منذ لحظة ولادته كفكرة، وتطبيقه كنظام للحكم في آئيننا. (٢)

الأصول التاريخية للمفهوم الديمقراطي

للحكم:

يمثل الفكر اليوناني إذن نقطة الانطلاق في دراسة تاريخ الفكر والتطبيق الديمقراطي الغربي. وقد نشأ الفكر السياسي اليوناني عامة في واقع تاريخي، أو إطار حضاري معين، متأثرًا به ومؤثرًا فيه، وبالتالي فإن مجمل الآراء والأفكار السياسية التي طرحها فلاسفة الإغريق القدماء عامة، أو بخصوص أشكال الحكم على وجه الخصوص، أو فيما يتعلق بالديمقراطية على وجه أخص، هي في الحقيقة وليدة تلك البيئة بأوضاعها الاجتماعية والسياسية والجغرافية والدينية والاقتصادية وغيرها.

قد يبدو لكثير من الشرقيين أن مناهضة أو نقد الديمقراطية معناه رفض كل ما له صلة بالحرية والمساواة والعدالة، وتأييد كل مظاهر القهر والبطش. لقد تحولت الديمقراطية عندنا إلى مفهوم سلطوي، يخشى الباحثون التعرض له بالدراسة والنقد. إن نقد الديمقراطية معناه - عندنا - دعم الديكتاتورية ونظام الحكم الشمولي.

لقد أوضحت الديمقراطية مفهومًا مثاليًا يسمو على كل نقد، ويُنظر إليها كأفضل شكل من أشكال الحكم المختلفة التي عرفتها البشرية.

الغريب أن هذا ليس هو موقف الغربيين أنفسهم الذين ابتدعوا هذا المفهوم، وطوّروه عبر تاريخهم الممتد من العصر اليوناني وحتى هذه اللحظة!

فالديمقراطية عندهم - كغيرها من أشكال الحكم الأخرى - لها ما لها وعليها ما عليها، وهي ليست النظام الأمثل دائمًا أو في كل الحالات. ورغم أن متعاطي السياسة الغربيين الآن يتعمدون تجاهل هذه الحقيقة، ويسعون لرفض الاعتقاد بأن خيار

تنتمي الحُبث؛ ولأن المؤامرات بين الخبثاء تقود إلى انحراف النظام وانهاياره.

أما «الشيخ الأوليجاركي»، وفي مقاله المنسوب إلى إكسينوفون Xenophon «دستور الآثينيين» فقد أظهر عداؤه الشديد للمفهوم الديمقراطي للحكم واصفًا إياه بحكم الأشرار؛ يعني الشعب الذي يتميز - عنده - بأقصى درجات الجهل والفوضى والفساد.

أما ألد أعداء الديمقراطية في هذه الفترة فهو أرسطوفانيس Aristophanes الذي جاهر بالتعبير عن استيائه الشديد من الديمقراطية التي أعطت السلطة للشعب الديماجوجي، وزعزت القيم الموروثة، وأفسدت المواطن الآثيني، وحولته من مواطن قوي ومحارب ورياضي وجاد إلى مواطن مريض ومنحل ونفعي وغير سوي^(٣).

وفي خطبته الشهيرة في رثاء شهداء أثينا في حروب البيلوبونيس، أكد بركليس أن أثينا هي مدرسة اليونان، وأن نظامها الديمقراطي هو أفضل النظم؛ لأنه لا يعمل لصالح أقلية أوليجاركية (كما في إسبرطة)، ولكنه يعمل لصالح الأكثرية؛ ولأنه لا يقوم على ما يقوم عليه النظام الأوليجاركي في إسبرطة من تميز وتوجيه، وإنما يقوم على المساواة والحرية؛ ولأنه نظام طبيعي يسمح لكل فرد بأداء العمل الذي تؤهله له طبيعته، على خلاف النظام الإسبرطي الذي يُخضع الجميع لتدريبات شاقة بهدف خلق محاربين شجعان بعَضَ النظر عن المؤهلات أو الميول الطبيعية لرعاياه؛ ولأنه أخيراً النظام الذي يسمح لمواطنيه بممارسة اللهو والتسلية في أوقات الفراغ، وليس النظام الذي لا يراعي مثل هذه المطالب الروحية كالنظام الإسبرطي^(٤).

يأتي بروتاجوراس Protagoras - زعيم السوفسطائيين - ليدعم صديقه بركليس في موقفه المؤيد للديمقراطية، والمعارض لتطلعات الحزب الأرستقراطي أو الأوليجاركي الآثيني. وعلى الرغم

المفهوم الديمقراطي للحكم بين خصومه وأنصاره في التقاليد اليونانية:

ابتداءً تجدر الإشارة إلى أن ثراسيماخوس Thrasymachus - السوفسطائي الراديكالي - قد رفض الديمقراطية كنظام أفضل من غيره، بل ورفض كلية فكرة نظام الحكم الأفضل؛ مؤكداً أنه لا يوجد نظام أمثل بذاته وصالح لكل زمان؛ لأن نظم الحكم - في رأيه - هي وسيلة يضعها الأقوياء لإشباع غرائزهم في السيطرة، ولإشباع حاجاتهم الطبيعية بدافع من أنانيتهم.

على أن هذا الرفض السوفسطائي للفكر المثالي عن أشكال الحكم بصفة عامة؛ لم يحل دون إيناع هذا الفكر في تلك المسألة بالذات، والتي أصبحت تشكّل المحور الثاني الذي دار حوله الفكر الهيليني، بالإضافة إلى المحور الأول، والذي تمثل في ظاهرة دولة المدينة City - State (Polis).

فقد اعتبر أوتانس Otanes (القرن الخامس ق.م) أن معيار الحكم المثالي يكمن في العَدَد. وعلى هذا الأساس اعتبر الملكية أسوأ أشكال الحكم؛ لأنها تقوم على سلطة الفرد الواحد، وفضل الديمقراطية باعتبارها سلطة الأكثرية التي تحافظ على ملكية الشعب، وتستند إلى إرادته وتساوي بين الجميع أمام القانون، وتُخضع الحكومة ذاتها لرقابة الشعب.

وعلى العكس من ذلك، فقد رفض ميغابيس Megabyse (القرن الخامس ق.م) المعيار العددي كأساس للحكم المثالي؛ معتبراً أن سلطة الشعب لا تصلح للحكم الشديد؛ لأن الجمهور يفتقد عادة للمؤهلات التي تجعله من أهل التفكير والرأي، وهو في جموحه وسفاهته أخطر من مغالاة وفساد الحاكم الطاغية، على الأقل؛ لأن هذا الأخير يعرف كيف يفكر قبل أن يقوم بعمل ما، وهو ما يفتقده العمل الشعبي. أما أفضل معيار للحكم المثالي عنده فهو «الأفضلية» التي تتأتى لبعض الأفراد، والتي تؤهلهم دائماً لإبداء الرأي السديد ومن ثمّ للقيادة.

داريوس Darius بدوره يرفض الديمقراطية؛ لأنها

البيبلونيين التي انهزمت فيها آثينا بربع قرن تقريباً، وقبل إعدام معلمه سقراط بحوالي ٢٨ عاماً. وقد كان لهذين الحداث أثرهما البالغ في تشكيل موقف أفلاطون من النظام الديمقراطي الآثيني الذي انهزم من إسبرطة الأوليغاركية عام ٤٠٤ ق.م، وأعدم معلمه الكبير سقراط عام ٣٩٩ ق.م.

وقد ربط أفلاطون بين هذه «المصائب»، وبين النظام الديمقراطي، وأكد أنها لن تتوقف طالما استمر هذا النظام الذي يقوم على الجهل والأنانية، والفتن والاضطرابات، وعدم الكفاءة والسلبية والرشوة واحتقار المبادئ، والمساواة بين غير المتساويين، وغيرها من الصفات الشريفة التي تزدهر في ظل هذا النظام. (٦)

وقد عارض أفلاطون بصراحة وقوة النظام الديمقراطي - كما عرفته آثينا - ووصفه بأنه نظام ديماجوجي غير أخلاقي، بل وجزده من وصف النظام السياسي حين اعتبره معرضاً للفساد، على أساس أن الحرية الكاملة التي يقوم عليها قادت إلى حالة من الفوضى والغرور، حتى بات كل فرد يمتلك دستور الخاص، ويعتقد في قدرته على عمل كل شيء.

تأسيساً على ذلك أعلن أفلاطون رفضه لشكل الحكم الديمقراطي، وقدم شكل الحكم الفكروقراتي كبديل أفضل، وكشكل كامل من أشكال الحكم، وذلك في كتابه «الجمهورية» (٧)، أما الديمقراطية فقد صنفها ضمن نظم الحكم الفاسدة التي ذكرها في «الجمهورية» في سياق عرضه للتطور المنطقي لنظم الحكم، أو الانحطاط المنطقي للنظام الفكروقراتي الكامل. وهو لم يجعل الديمقراطية نظاماً فاسداً فحسب، ولكنه جعله في مرتبة متردية بين النظم الفاسدة؛ إذ جعله في المرتبة قبل الأخيرة في سلم الانحطاط، وهي المرحلة التي تسبق

من أن بروتاجوراس لم يسهم بشكل مباشر في هذا الجدل الدستوري إلا أنه زعم - في الأسطورة المعروفة باسمه - أن الإله زيوس قد منح الجميع الفن السياسي، أو فن الحكم The Art of Ruling، وبالتالي فإن ممارسة العمل السياسي لا يجب أن تكون حكراً على فئة دون سائر الشعب.

أما كليكليز Callicles - السوفسطائي الراديكالي الأرستقراطي الآثيني - فقد هاجم الديمقراطية بشدة، واعتبرها ضد الطبيعة؛ لأنها تُخضع الأفضل والأقوى - يعني الأرستقراط Aristocrats، للأدنى والأضعف - يعني الشعب، وتفرض المساواة بين غير المتساويين. ولم يقف كليكليز عند هذا الحد، ولكنه جاهر بدعوة أفراد الأقلية «الأفضل» The Best للأخذ بثأرهم من الشعب، وتحطيم هذا النظام الديمقراطي «المخالف للطبيعة».

سقراط Socrates (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) أيضاً رفض فكرة بروتاجوراس عن امتلاك الجميع لفن السياسة، ومن ثم حق الجميع في العمل السياسي، وحصر معرفة فن السياسة في قلة تتميز بالفضيلة؛ لأن الفضيلة - عنده - هي المعرفة، وطالب بأن تتركز السلطة في يد هذه القلة التي تتميز بالمعرفة. (٥)

وعلى هذا الأساس هاجم سقراط المفهوم الديمقراطي

للحكم كما جسّدته آثينا؛ لأنه يجعل الحكم من نصيب أغلبية من «الإسكافيين والبائسين والباعة المتجولين والأفاقين» الذين لا معرفة عندهم بمعنى السياسة، ولا دراية لديهم بفن السياسة.

وفى عام ٤٢٧ ق.م - تقريباً - ولد عدو جديد للديمقراطية، وتوفرت لديه الأسباب التي تدعوه لبغض هذا الشكل من أشكال الحكم بالذات، إنه أفلاطون Plato الذي ولد قبل نهاية حروب

أعلن أفلاطون رفضه لشكل الحكم الديمقراطي. وقدم شكل الحكم الفكروقراتي كبديل أفضل وكشكل كامل من أشكال الحكم، وذلك في كتابه «الجمهورية»

النظرية والفكر

لذلك أم لا، بل تكتفون بمجرد اختياركم إياهم! (٩) وأخيرًا نصل لأرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) الذي -بدوره- يرفض الديمقراطية، وبخاصة تلك التي لا تحترم القانون، والتي يسميها الديماغوجية، ويصفها بالفساد والانحراف؛ بسبب ما تتميز به الطبقة الحاكمة فيها من جهل وحسد وانحطاط، وبسبب عدم امتلاك هذه الطبقة لمؤهلات القيادة (١٠)، وحين

يصبح الشعب هو الملك - كما يقول أرسطو - ويفقد القانون سيادته، تتحول الديمقراطية إلى الديماغوجية التي تستبدل الأوامر الشعبية بسيادة القانون (١١)، وبطبيعة الحال فإن ارتكاز الحكم على هذه الطبقة

لم يكن ليرضي كبار الفلاسفة كسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم.

وفي تصنيفه السداسي لأشكال الحكم الذي قدّمه في كتابه «السياسة» وضع أرسطو الديمقراطية ضمن أشكال الحكم المنحرفة، أو الفاسدة التي لا تسعى لتحقيق المنفعة العامة. (١٢)

موضع الديمقراطية في الخبرة الرومانية:

تأتي الحضارة الرومانية لتقدم معارضة ثابتة للديمقراطية كنظام وحيد للحكم. فالديمقراطية الرومانية لم تكن تعني أكثر من رفض نظام توارث السلطة، وضرورة حماية كرامة الفرد بحد أدنى من الحقوق والضمانات. والحضارة الرومانية بطبيعتها حضارة أرسطقراطية، ترفض المبدأ الديمقراطي في الحكم، وتقوم على تقديس الأوضاع القائمة، وعدم توفير مناخ الحرية اللازم حتى لعملية تقييم الأوضاع السياسية، ويكفي أن نتذكر بهذا الخصوص مصير كل من شيشرون، وسينيك، وإبيكتيتوس.

كان طبيعيًا في ظل واقع الدولة الرومانية أن يرفض المفكرون والفلاسفة كل ما له صلة بالمفهوم

المرحلة الاستبدادية مباشرة. أي أن أفلاطون يريد بذلك أن يقول: إنه إذا كان حكم الطغيان هو أسوأ أشكال الحكم - بالنسبة له - فإن الحكم الديمقراطي يسبقه مباشرة في المرتبة. وعلى الرغم من أنه يجعل الحكومة التيموقراطية والحكومة الأوليجاركية أيضًا ضمن الحكومات الفاسدة؛ إلا أنه يجعلهما في مرتبة أفضل وأرقى من الحكومة الديمقراطية. (٨)

وكذلك فقد انتقد إكسينوفون Xenophon (٤٢٦-٣٥٤ ق.م) بشدة الديمقراطية الآثينية التي تتميز - برأيه - بالانقسام والفوضى وعدم الكفاءة، والتي تفتقد مقومات القيادة (الكفاءة والجدارة والمعرفة). كما رفض عملية

الانتخاب أو القرعة كأسلوب لاختيار الحكام، معتبرًا أن العامل الوحيد المؤهل للقيادة هو امتلاك صفاتها أو مقوماتها.

أما إيسوقراط Isocrates (٤٣٦ - ٣٣٨ ق.م) فينتهي إلى أولئك المصلحين الذين طالبوا بإدخال بعض الإصلاحات على النظام الديمقراطي كما طبقتة آثينا. فالديمقراطية الآثينية قادت - برأيه - إلى العديد من مظاهر الفوضى والفساد والانحراف، وأنها لذلك في حاجة إلى بعض الإصلاحات، أو التعديلات التي تضمن العدل والنظام.

وأما ديموستينيس Demosthenes (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) فقد فضل الديمقراطية، واعتبرها النظام الذي يهتم بمصلحة المدينة، ويوليها اهتمامه الأول.

على العكس من ذلك، فقد سخر أنتستينيس Antisthenes - الكلبى - من الديمقراطية الآثينية؛ وعبر عن سخريته هذه بدعوته الآثينيين يومًا إلى حراثة الأرض باستخدام الخيل والحمير، على خلاف المعهود عندهم، فقالوا له: إن هذا غير مناسب، والحمير لا يمكنها ذلك، فقال لهم: لا ضرر، أو ليس أنكم تختارون للحكم رجالاً لم تعرفوا هل يصلحون

في تصنيفه السداسي لأشكال الحكم الذي قدّمه في كتابه «السياسة» وضع أرسطو الديمقراطية ضمن أشكال الحكم المنحرفة، أو الفاسدة التي لا تسعى لتحقيق المنفعة العامة

شيخرون بدوره لم يقدم جديدًا في هذا الشأن، ولكنه كرّر ما سبق وصاغه بوليبيوس بخصوص دورة أشكال الحكم وانحطاطها، وضرورة وجود نظام مختلط يقوم على الجمع بين عناصر ملكية وأرستقراطية وديمقراطية، متأثرًا في كل ذلك ليس فقط بمضمون الفلسفة اليونانية، ولكن أيضًا بعباراتها وكلماتها، وليس أدل على ذلك من أنه قدّم هذه الأفكار من خلال مؤلفين أطلق على الأول اسم «في الجمهورية»، وعلى الثاني اسم «في القوانين»، وهما الاسمان اللذان كان أفلاطون قد أطلقهما على أهم مؤلفاته السياسية.

وهكذا يمكننا النظر إلى أفكار كل من بوليبيوس وشيخرون حول أشكال الحكم عامة، والشكل الديمقراطي خاصة؛ باعتبارها المقابل اللاتيني للأفكار اليونانية، وبصفة خاصة أفكار أفلاطون وأرسطو.

غياب الديمقراطية في العصر الوسيط:

فترة العصر الوسيط لم تعرف المفهوم الديمقراطي للحكم، لا على مستوى الفكر، ولا على مستوى الممارسة^(١٤). إن الظلام الذي عاشت فيه أوروبا في هذا العصر حجب عنها النور الذي كان يشع من الشرق الإسلامي، سواء فيما يتعلق بالممارسات السياسية القائمة على الشورى، أو بحركة الترجمة التي نقلت الخبرة الديمقراطية اليونانية إلى اللغة العربية. فقط عندما تمكّن الفكر الإسلامي من العبور عبر الحدود الأوروبية من خلال ألبرتوس الكبير وتوماس الأكويني، بدأت أوروبا تتعرف على تراثها اليوناني المرتبط بأشكال الحكم، كما بدأت تمارس - لأول مرة في تاريخها - المنطق العلمي والتفكير الموضوعي.^(١٥) النتيجة المنطقية لهذا التحول ارتبطت بفصل الكنيسة عن الدولة؛ باعتبارها المسؤولة عما آلت إليه أوروبا من تخلف علمي وتدهور سياسي. لقد انبثق عصر النهضة في أوروبا فقط عندما تم استبعاد تدخلات الكنيسة الكاثوليكية في نطاق العلم، وفي مجال السياسة على السواء. وقد وجد الأوروبيون في الديمقراطية

الديمقراطي للحكم، وأن يفضلوا عليه النظام الملكي، ثم النظام الأرستقراطي. بل اعتبر سينيكا أن حكم الطغيان أفضل من الحكم الديمقراطي؛ لأن الجماهير أكثر ظلمًا وفسادًا من الحاكم الفرد. رغم ذلك فقد أعلن كل من بوليبيوس وشيخرون تفضيلهما للحكم المختلط؛ متأثرين في ذلك بأفكار أفلاطون وأرسطو من جهة وبالواقع الروماني من جهة أخرى.

لقد أعاد بوليبيوس ترديد ما سبق وصاغه كل من أفلاطون وأرسطو بخصوص التدهور الحتمي للدساتير، وهو ما أطلق عليه بوليبيوس «دورة الدساتير»، والذي يفرض تعاقب الدساتير كالتالي:

الملكي - الطغيان - الأرستقراطي - الأوليجاركي الديمقراطي - الدهماء - الملكي.... وهكذا تعود الدورة من جديد عندما يدب الفساد في النظام الملكي، الذي هو أفضل هذه الأشكال بحكم موقعه في الدورة.

وبعد هذا العرض لدورة الدساتير (بمعنى نظم الحكم) يقترح بوليبيوس الدستور المختلط، باعتباره الدستور الوحيد غير القابل للانحطاط، والذي يحول دون تعاقب الدساتير، بما يفرضه ذلك من عدم استقرار. ويقوم هذا النظام المقترح على مزج العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية (باعتبارها الأشكال الثلاثة الصالحة، أي التي تعمل لصالح المحكومين، وإن كانت تحمل في ذاتها بذور فنائها؛ بسبب ما يعتريها من فساد)، أي جمع ومزج سلطة الفرد وسلطة القلة وسلطة الكثرة.

وقد اعتبر بوليبيوس هذا الدستور المختلط أفضل الدساتير وأكثرها كمالاً، واستشهد على ذلك بتجربة إسبرطة وتجربة روما. وقد أرجع بوليبيوس إلى هذا النظام الفضل في قوة روما واستقرارها؛ حتى إنها أخضعت في نصف قرن كل العالم القديم تقريبًا.^(١٣) إن تفسير ذلك - عنده - يكمن في دستورها المختلط الذي يجمع بين عناصر ملكية (القناصل) وأرستقراطية (مجلس الشيوخ) وديمقراطية (الجمعيات العامة).

النظرية والفكر

يطول أيضًا الحيوان والزرع والمأوى والماء (راجع الكتاب المقدس).

وقد حلت الديمقراطية محل الدين كهدف لهذا «الجهاد»، كما حل «الإرهاب» محل المعارضة والمقاومة، فلم يعد ثمة تصنيف إلى مؤمن وكافر، وإنما التصنيف المتداول الآن في ظل هيمنة الفكرة الديمقراطية هو التمييز بين الديمقراطي والإرهابي!!

الديمقراطية الغربية بين المفهوم المثالي والمفهوم الواقعي:

لا يوجد تعريف معاصر جامع مانع لمعنى الديمقراطية، وقد قدمت التقاليد الغربية المعاصرة العديد من المفاهيم عن الديمقراطية، ولعل ذلك يرجع إلى الخلط بين مفهوم أو جوهر المفهوم الديمقراطي للحكم من جهة، وآليات أو تطبيقات هذا المفهوم في الواقع الاجتماعي؛ ارتباطًا بخصائص كل مجتمع وسماته الخاصة من جهة أخرى. فهناك الديمقراطية الليبرالية، والديمقراطية الاشتراكية، والديمقراطية المسيحية، والديمقراطية الملكية، والديمقراطية الجمهورية والديمقراطية النيابية، وديمقراطية الحزب الواحد..... إلخ.

جميع هذه التطبيقات تنطلق من أن جوهر الديمقراطية لا يتعدى حرية التعبير وحرية المناقشة، أو هو الحكومة النيابية، والحرية والتوجه الجماهيري. وحسب توكفيل Tocqueville فإن الديمقراطية هي الحكم الذاتي، حيث يحكم المجتمع ذاته، ومن أجل مصالحه الخاصة. أما لاسويل Lasswell فيحدد ثلاث خصائص للممارسة الديمقراطية:

- (١) المسؤولية الذاتية، بمعنى عدم تركيز المسؤولية.
- (٢) تشتيت السلطة، بمعنى عدم انفراد فرد أو جهة بسلطة اتخاذ القرار.

بالذات ملجأً من تعسف الكنيسة واضطهادها، ومسوغًا لمقاومة الطغيان؛ لذا عادت أوروبا من جديد تناقش المسألة الديمقراطية، التي اختفت طوال فترة العصر الوسيط، وتطبق الديمقراطية كأسلوب للحكم وتتقده وتطوره، بل وتصدره كأمثل نظام من أنظمة الحكم، و«تجاهد» في سبيله كما كانت تجاهد من قبل في سبيل المسيحية.

الجهاد في سبيل الديمقراطية:

لقد حلت الديمقراطية محل المسيحية، وتحولت إلى دين أوروبا الجديد الذي تبني الدول على أساسه، وتدين له الشعوب بالولاء، ويضحي الأفراد بحياتهم في الذود عنه، وتسعى الحكومات لنشر دعوته وفرض رسالته! هكذا خرجت جيوش نابليون تنشر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة في ربوع أوروبا، وتجبر شعوبها على اعتناقها بالقوة، مما حدا بالدول الأوروبية إلى عقد مؤتمر فيينا (١٨١٤-١٨١٥) لمواجهة «الجهاد» الفرنسي، وإعاقه الديمقراطية النابليونية. (١٦)

وها هي الجيوش الأمريكية تحمل تفويضًا من الكونجرس الأمريكي «للجهاد» في سبيل نشر الديمقراطية الأمريكية، وإبادة كل من يقف في طريقها، مهما تكلف ذلك من أموال وأرواح الأمريكيين. وما بين نابليون وبوش العشرات من حكام الغرب الذين أرسلوا الجيوش وشنوا الحروب، واستعمروا الأراضي في إطار ما أسموه «بالبعثة الحضارية»، التي ترمي إلى نشر الديمقراطية، وتحقيق «التنمية السياسية»، ولا يهم في سبيل ذلك ما ترتكبه هذه الجيوش من أعمال قتل ونهب وتدمير، وهتك أعراض، «فالجهاد» في كتابهم المقدس يتضمن كل ذلك وأكثر، ولا يقف عند حدود الإنسان، ولكنه

إن سوء استخدام الأغلبية للسلطة لا يمكن إنكاره في ظل الديمقراطيات المعاصرة التي تمارس الطغيان ضد الأقليات

مثلما حدث للديمقراطية الآثينية، فقد تعرضت الديمقراطية الغربية في تطبيقاتها المعاصرة للعديد من الانتقادات؛ من جانب الغربيين أنفسهم، أهمها وأكثرها موضوعية ثلاثة (١٨):

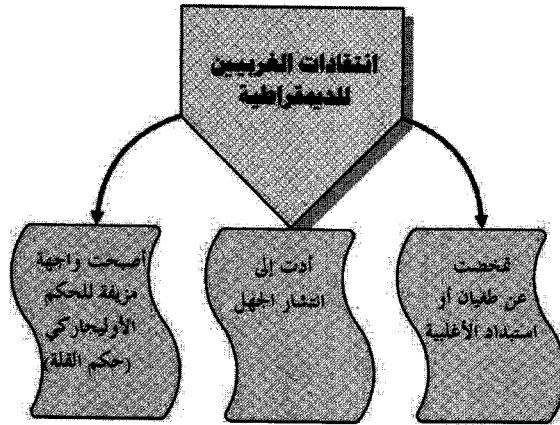
- (١) أنها تمخضت عن طغيان أو استبداد الأغلبية.
- (٢) أنها أدت إلى انتشار الجهل.
- (٣) أنها أصبحت واجهة مزيفة للحكم الأوليغاركسي (حكم القلة).

الديمقراطية الغربية وطغيان الأغلبية:

إن سوء استخدام الأغلبية للسلطة لا يمكن إنكاره في ظل الديمقراطيات المعاصرة التي تمارس الطغيان ضد الأقليات (١٩):

(٣) الإنصاف وعدم المحاباة، بمعنى غياب الامتيازات والاستثناءات.

ويتوسع ماكس ليرنر Max Lerner حين يقول: إن الديمقراطية في المقام الأول تعني الحريات المدنية والسياسية، وحماية حقوق الأغلبية والأقلية من خلال الضمانات الدستورية. وهي ثانيًا ليست فقط سياسية، ولكن أيضًا اقتصادية، بمعنى حرية العمل، وتملك الأعمال، وحرية الفرص الاقتصادية. وهي ثالثًا تعني حكم الأغلبية عن طريق نواب يتم اختيارهم بالانتخاب. وهي رابعًا؛ وترتيبًا على ما سبق، تعني حرية التغيير الاجتماعي بناء على إرادة الأغلبية. وخامسًا -وأخيرًا- هي تعني الإحساس بكرامة ومسئولية الإنسان العادي، وقدرته على صياغة مصيره السياسي. (١٧)



ففي فرنسا لا يسمح بإبناح أي قوى دينية غير كاثوليكية، وتدخل الحكومات في صراعات سياسية وعدوانية مع أي قوى دينية تختلف عقيدتها عن عقيدة الأغلبية، مثلما حدث مع اليعاقبة في القرن التاسع عشر، ومثلما يحدث مع القوى الإسلامية ابتداءً من الربع الأخير من القرن العشرين، وحتى هذه اللحظة. (٢٠)

وفي بريطانيا، حيث ترتبط الشرعية السياسية بالشرعية الدينية، ترتبط الحقوق المدنية بالانتماء الديني، ويحتل غير الأنجليكان من المواطنين البريطانيين مرتبة أدنى، ويحصلون على حقوق

ولا شك أن الديمقراطية الغربية - من الناحية النظرية - تستمد قوتها وجاذبيتها من تلك المفردات الإيجابية التي تتضمنها عملية التعريف من قبيل الحرية والكرامة والحقوق والضمانات وأمثالها، ولا شك أيضًا أن التطبيق الديمقراطي المثالي - في ضوء التعريفات السابقة - يؤدي إلى ارتقاء مستوى التعليم، وتحسّن الكرامة الإنسانية؛ بحيث تصبح الحياة أكثر تحضرًا، ولكن هل سلكت الديمقراطية الغربية طريق الصواب، وتمخضت عن احترام الكرامة الإنسانية، وضمن التعليم، وتوفير حياة كريمة ومتحضرة لمواطنيها؟

النظرية والفكر

إيطاليا، لمنع وصول أي قوى غير كاثوليكية إلى السلطة في إيطاليا. ولعل هذا يفسر لماذا ظل الحزب الديمقراطي المسيحي - (الحزب الشعبي فيما بعد) الذي تدعمه الكنيسة - يسيطر على الحياة السياسية في إيطاليا؛ حتى في تلك الفترات التي فشل فيها في قيادة البلاد، وفي حل الكثير من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي واجهت إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية (٢١)، ولماذا كان الحزب الشيوعي الإيطالي (الديمقراطي اليساري فيما بعد) - الذي كان يحتل المرتبة

وفي أسبانيا يعلن الدستور - في تحدٍّ صريح للمفهوم الديمقراطي للحكم - أن أسبانيا دولة كاثوليكية، وأن حق الانتخاب محصور في الأسبان الكاثوليك

الثانية كأكثر حزب إيطالي - يُحرم من الوصول إلى السلطة؛ رغم التفويض الشعبي، وملايين الأصوات الانتخابية، ورغم ما كان يقدمه من ضمانات لتحقيق الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، هذا في الوقت الذي كان يُسمح فيه لأحزاب صغيرة لا تمثل قطاعات عريضة من الرأي العام الإيطالي بالاشتراك في الحكم، كالحزب الجمهوري، والليبرالي، والاشتراكي، والاشتراكي الديمقراطي؛ لمجرد أنها لا ترفض تلك الوصاية التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على الحياة السياسية؛ وذلك الارتباط بين الشرعية السياسية والشرعية الدينية في إيطاليا أيضًا. وفي ألمانيا تخبو الديمقراطية أمام الألمانية Germanness، والحقوق المدنية أمام الاستعلاء الآري، وحقوق الأقليات الدينية أمام طغيان الأغلبية المسيحية. فهناك توحد بين المسيحية والألمانية، واعتقاد بأن المسيحي وحده هو الذي يستطيع أن يكون ألمانيًا، وأن أتباع الديانات الأخرى قد يمكنهم الانتماء إلى الدولة الألمانية، والتجنس بجنسيتها، ولكن لا يمكنهم أن يُستَوْعَبُوا في الأمة الألمانية. هذا الشعور بالتفوق العنصري، والاستعلاء الديني يتعارض كلية مع الفكرة الديمقراطية، ولا يقود إلى

مدنية أقل مما يحصل عليه المواطنون من القطاع الأنجليكاني. ومن ذلك أن بعض الوظائف لا تزال قاصرة على الأنجليكان من أتباع كنيسة إنجلترا ومحظورة على غيرهم، مثل وظيفة رئيس القضاة، والقس العام Chaplain General في القوات المسلحة، وبعض عمداء الكليات وأساتذة اللاهوت، كما أن المدارس والمعاهد والكليات الكنسية Chaplaincies جميعها قاصرة على الأنجليكان، كما أن المدارس الثانوية كلها أنجليكانية، ولا يسمح مطلقًا بممارسة أي عبادة غير أنجليكانية في دور العبادة الملحقة بالمدارس والكليات، وبصفة خاصة في أكسفورد وكمبرج.

بل والمدقق في قسم الإعلان عن الوظائف الخالية في الصحف البريطانية يكشف لأول وهلة، كيف أن معظم الوظائف في مجال البحوث والدراسات الدينية هي فقط لأتباع الديانة الأنجليكانية. وفي الواقع فإن الالتحاق بأي عمل آخر في بريطانيا بالنسبة لأتباع أي مذهب غير أنجليكاني لا تزال تقف أمامه عوائق كبيرة؛ في إطار يغلب عليه الشعور بالتميز والتفوق من جانب الأنجليكان، الذين يعتقدون أنهم وحدهم «شعب الله المختار». والحقيقة أن كنيسة إنجلترا لها تاريخ طويل في اضطهاد معارضيه في المذهب، وهو الاضطهاد الذي تمارسه الدولة باسم الكنيسة، فأين الديمقراطية في ظل هذا التصور وتلك الممارسات؟!

وفي إيطاليا فإن الكتلثة Catholicism تأتي دائمًا قبل الديمقراطية، ولا موضع للحديث عن الديمقراطية إذا تعلق الأمر بإقصاء الوصاية الكنسية على الحياة السياسية، وحتى لو أدى ذلك إلى مصادرة ملايين الأصوات التي يُدلي بها الناخبون لصالح حزب يعارض القيم الكاثوليكية، بل وحتى لو تطلّب الأمر التحالف مع قوى أجنبية من خارج

استيلائها على السلطة، أو حتى المشاركة فيها: ففي النرويج - حيث الأغلبية الكبيرة من البروتستانت - يجب أن يكون الملك ونصف عدد الوزراء على الأقل من أتباع لوثر.

وفي سويسرا أيضًا التي يدين معظم سكانها بالعقيدة البروتستانتية، يتضمن الدستور كل الاحتياطات والقيود التي تحول دون نمو سلطة رجال الدين الكاثوليك، ودون إجابة كل مطالب الأقلية الكاثوليكية التي تشكل ما يقارب ٤٠٪ من الشعب السويسري، بل والتي تشكل أغلبية سكانية في بعض الولايات، كما يمارس الدستور الاضطهاد ضد بعض الطوائف البروتستانتية التي تختلف مع مذهب الأغلبية؛ مثل تحريم تكوين جمعيات للجزويت. (٢٤)

وتكتظ هذه الدول وغيرها بالأحزاب المسيحية ذات الصلة بالكنيسة والقيم الدينية، والتي تمارس الاضطهاد وفرض التصورات الدينية على الأقليات (٢٥)، وهل يخفى على أحد ما يقوم به الحزب الجمهوري وجماعة المحافظين البروتستانت الأمريكيين من فرض تصورهما للقيم والأخلاقيات والأنماط السلوكية على كل الأمريكيين، واستخدام سلطة الدولة في فرض هذا التصور.

الديمقراطية وانتشار الجهل:

ومن جانب آخر فقد أظهرت الشواهد أن الكثرة الحاكمة - كما توقع فلاسفة اليونان - يغلب عليها الغباء وقلة المعرفة، والجموح بشكل يؤثر بالسلب على عملية اتخاذ القرار السليم. فليس هناك سبب معقول يبرر الحرب العالمية الأولى، ولا ملايين الضحايا الذين قُتلوا وجرحوا فيها. وهل هناك سبب لكل القتل والدمار الذي وقع - ولا يزال - في أفغانستان والعراق؟، وهل شهدت الإنسانية جموحًا وسفاهة أكثر من تلك التي تمخضت عنها الممارسات الخارجية للديمقراطيات الغربية في فلسطين ولبنان، والعراق والصومال وأفغانستان، ومن قبل في فيتنام واليابان وجنوب إفريقيا (العنصرية)؟ (٢٦)

ممارسة ديمقراطية سليمة؛ فرجال الدين المسيحيون يُعَيَّنُونَ في المجالس والجمعيات التشريعية؛ والأحزاب السياسية المسيحية تكاد تحتكر السلطة، وتعتبر دائمًا عن مصالح الأغلبية المسيحية وحدها (الحزب المسيحي الديمقراطي - حزب الوسط الكاثوليكي - الحزب المسيحي الاجتماعي - الحزب المسيحي الاشتراكي - الحزب الاشتراكي الديمقراطي البروتستانتية). (٢٢)

وفى أسبانيا يعلن الدستور - في تَحَدُّ صريح للمفهوم الديمقراطي للحكم - أن أسبانيا دولة كاثوليكية، وأن حق الانتخاب محصور في الأسبان الكاثوليك، كما تحتفظ الكنيسة ببعض النفوذ والامتيازات في مجال الحياة السياسية؛ بموجب اتفاق عُقد بين أسبانيا والفاتيكان، وتكاد الفلسفة والتعاليم الكاثوليكية - وليست الفلسفة والتعاليم الديمقراطية - تغلّف الطابع الاجتماعي للدولة، وترفض الحكومة مطالب أغلبية السكان في إقليم الباسك وإقليم قطلونية بالانفصال، وتحول دون تمثُّع سكان الإقليمين بحرية الاجتماع والمناقشة وتقرير المصير.

كل ذلك يبدو طبيعيًا في دولة سارعت منذ اللحظة الأولى بإعلان رفضها لمبادئ الثورة الفرنسية، ونظرت بكل ازدراء لمبادئ الحرية والعدالة والمساواة، وبالنسبة لها لم تكن مبادئ حقوق الإنسان تعني شيئًا ذا وزن أمام مبادئ الكاثوليكية ومقام البابوية. (٢٣)

وعلى الرغم من ادعاء باقي الحكومات الغربية إيمانها بالفكرة الديمقراطية التي تفترض: تداول السلطة، وعدم التمييز بسبب الدين أو الجنس، والحقوق المتساوية للأغلبية والأقلية، وعدم الانتقاص من حقوق الأقليات، فإن واقع سائر الدول التي تنتمي إلى الإطار الحضاري الغربي يؤكد تعصب وطغيان الأغلبية في هذه الدول، وحرصها على إصدار القرارات والقوانين، ودعم الممارسات التي من شأنها أن تنقص من حقوق الأقليات، وتحول دون

مرة كل عدة سنوات؛ كإجراء لإضفاء الشرعية على حكم الأقلية، ولو أخصينا متعاطي السياسة في الديمقراطيات الغربية ما وجدنا نسبتهم تتجاوز جزءاً صغيراً من واحد في الألف من عامة الشعب.

هذه القلة - وسواء كانت في الحكومة أو المجالس النيابية - تنفرد بعملية الحكم، وتقطع صلتها بالناخبين بمجرد انتهاء عملية التصويت، فأين حكم الأغلبية في ذلك! كما أن ارتكاز هذه الأقلية في تبرير طغيانها واستبدادها إلى واجهات كالديمقراطية، وسلطة الشعب، والإرادة العامة وغيرها لا يختلف في كثير من الواجهات التي ارتكز عليها الاستبداد القديم من قبيل الحق الإلهي والنبالة وغيرها، أو واجهات النظم الشمولية، الشيوعية الفاشية والنازية، مثل سيادة الشعب والاشتراكية الاجتماعية وغيرها، فالاستبداد هو الاستبداد، مهما اختلف سنده وطريقة ممارسته، وعدد الذين يمارسونه.

وَهُم الديمقراطية:

لعله لذلك بدت الديمقراطية للكثيرين من المفكرين الغربيين كمجرد خيال Fiction، أو هي وهم Illusion كما سبق ووصفها أفلاطون. هذا ما انتهت إليه كتابات باريتو Pareto في مؤلفيه الشهيرين The Mind and Society (١٩٣٥) و Sociology، وثورمان أرنولد Thurman Arnold في كتابيه Symbols of Government (١٩٣٥)، و The Folklore of Capitalism (١٩٣٧)، وكذلك Mosca في كتابه «The Ruling Class» (١٩٣٩). فعند هؤلاء فإن المواطن المفكر Thinking Man القادر على العمل السياسي لم يوجد بعد، وإنه في جميع المجتمعات التي تزعم الديمقراطية فإن قلة فقط هي التي تحكم، وتتخذ القرارات، وتسيطر على مقاليد الأمور في ضوء نظرتها ومصالحها؛ دون أن تكون السلطة الفعلية للجماهير ولا حتى للأغلبية. (٢٩) وقد عبر هارولد لاسكي منذ حوالي ثلاثة أرباع القرن

وهل شهد العالم دماراً وخراباً كذلك الذي خَلَفْتَهُ الحربان العالميتان الأولى والثانية، وغيرهما بين الديمقراطيات الغربية؟ (٢٧)

وهل نستطيع أن نجد في صفحات التاريخ الإنساني - غير الديمقراطي - ما يشير إلى تدني مستوى الحكام والمشرّعين إلى هذه الدرجة التي شهدناها في التقاليد الديمقراطية المعاصرة (راجع خلفية الرؤساء الأمريكيين على سبيل المثال)؟!

وإذا كانت السلطة بطبيعتها مُفسدة لأصحابها ومتدلّية بهم دوماً إلى التعسف، فما حال أصحاب السلطة في النظم الديمقراطية، وهم في الأساس «انتهازيون مجمّعون في مجالس (برلمانات) تتسلط باسم كائن خيالي لا وجود له هو «الأمة»، وتدعي أنها إنما تعبر عن إرادته، ومن ثم تنطلق في تسلطها من غير قيد أو مسؤولية؛ تبعاً لضياح المسؤولية بتعدد المسؤولين، وتعتبر نفسها الممثل الوحيد لسلطة الشعب والمصدر الأوح للقانون، الذي لا يملك «الرعايا» إلا طاعته والانصياع له. وهكذا انتهى الأمر إلى طاغية رهيب بمئات الرؤوس كبديل لطاغية برأس واحد» (٢٨)، أو على حد تعبير أرسطو في وصفه المتقدم للنظام الديمقراطي: «حكم طغياني مُقسّم على عدة أفراد».

الديمقراطية وحكم القلة:

ومن جانب ثالث، فإنه من الناحية الواقعية لا تستطيع الكثرة أن تحكم، ولذلك فالحقيقة أنه في كل حالات الديمقراطية القلة هي التي تحكم، وكما قال روسو في «العقد الاجتماعي»: إنه لا يمكن تصور أن الكثرة تحكم والقلة تُحكم. إن هناك دائماً قلة مؤهلة للحكم، وتملك المهارات اللازمة.

ولننظر إلى وظيفة الحكم في الواقع الغربي لنجد أن قلة من محترفي العمل السياسي هي التي تضطلع بها، وأن عامة الشعب بعيدة تماماً عن سدة الحكم، وأقصى ما يمكنها عمله هو التوجه إلى صناديق الانتخابات

الديمقراطيات الغربية بين الأغنياء والفقراء، لتدنت إلى أدنى حد، وبشكل غير مسبوق نسبة أولئك الذين لا يزالون يعتقدون في جدوى التطبيق الديمقراطي.

لقد بات واضحًا أنه في ظل الحكم الديمقراطي أصبح كل شيء مباحًا وممكنًا شراؤه؛ المناصب السياسية، القرارات السياسية، الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري لقوى خارجية، ولو على حساب المصلحة القومية،

إثارة الحروب وقتل الأنفس التي حَرَمَ الله قتلها إلا بالحق؛ من أجل الترويج لمنتجات شركات الأسلحة، التغاضي عن النشاطات الاقتصادية المدمرة للبيئة أو الملوثة للهواء، سرقة وبيع الأعضاء البشرية، العري والبغاء

لقد بات واضحًا أنه في ظل الحكم الديمقراطي أصبح كل شيء مباحًا وممكنًا شراؤه؛ المناصب السياسية، القرارات السياسية، الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري لقوى خارجية، ولو على حساب المصلحة القومية

والشذوذ الجنسي،... وغير ذلك كثير، حتى إن جريج بالاست Greg Palast المراسل والمحقق الصحفي الأمريكي الشهير وضع كتابًا أُعتبر الأكثر مبيعًا على قائمة النيويورك تايمز بعنوان «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» *The best democracy money can buy* استطاع من خلاله أن يثبت بالوقائع والأرقام فساد السلطة في أمريكا، ووحشية الأساليب السياسية التي ينتهجها الاقتصاد العالمي، بقيادة الدول الديمقراطية الصناعية الكبرى.

لقد روى جريج -فيما روي- كيف سرقت عائلة الرئيس الأمريكي بوش الانتخابات في ولاية فلوريدا عام ٢٠٠٠؛ حين طالب حاكمها «جيب بوش» من المشرفين على الانتخابات محو ٥٧,٧٠٠ صوتًا من سجلات المصوّتين؛ باعتبار أنهم مجرمون لا يملكون الحق في التصويت، رغم أن ٩٠,٢٪ من هؤلاء المشطوبين كانوا أبرياء! وقد فقد آل جور ٢٢٠٠٠ صوت على الأقل، نتيجة هذه العملية، في حين فاز بوش عن هذه الولاية بزيادة ٥٣٧

عن أبعاد هذه الأزمة في التطبيق الديمقراطي؛ راصدًا العديد من مظاهر «انحطاط» الممارسة الديمقراطية الغربية في مختلف صورها وتطبيقاتها. (٣٠)

الديمقراطية بين القبول والرفض والتحفظ:

وهذا ما انتهت إليه أيضًا آراء كتاب ومحرّري الصحف الغربية الذين أبدوا تحفظًا إزاء الفكرة الديمقراطية، والممارسة الديمقراطية على حد السواء، إلى حد امتناع بعضهم عن استخدام كلمة «الديمقراطية» في تحقيقاتهم وبحوثهم. لقد أثبتت الدراسات أن ثلث المحرّرين الغربيين تقريبًا لا يقبلون الفكرة الديمقراطية، أو الترويج لها في كتاباتهم.

وتمثل نسبة ٦٩٪ من البريطانيين و٦٨٪ من الفرنسيين و٦٣٪ من الأمريكيين أعلى نسبة أمكن التوصل إليها لأولئك المحرّرين الذين يفضّلون استخدام هذه الكلمة في العالم الغربي. ولم تكن هذه النسبة تزيد عن ٤٠٪ في ألمانيا عند منتصف القرن الماضي.

أما دراسات قياس موقف الكتاب والمحررين الغربيين من الممارسات الديمقراطية فقد تمخضت عن نتائج تعكس عدم التقبل الغربي لهذه الممارسات؛ فخلال فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك فقط ٢٨٪ من الأمريكيين، و٣٩٪ من الفرنسيين و٤٠٪ من البريطانيين ممن يؤيدون هذه الممارسات. وقد زادت هذه النسبة بعد الحرب العالمية الثانية لتصل إلى ٨٨٪ في أمريكا و٥٠٪ في فرنسا و٦٢٪ في بريطانيا. (٣١) ولو أجريت دراسة معاصرة لقياس التوجه الديمقراطي عند الغربيين، بعد معاناتهم من نتائج سياسة «الثور الهائج» التي باتت تنتهجها حكوماتهم الديمقراطية في العراق وأفغانستان والصومال وغيرها؛ فضلًا عن اتساع الهوة داخل هذه

النظرية والفكر

فقد توقع صاحب كتاب «الحلم الأمريكي» أن تتحول أمريكا إلى إحدى دول العالم الثالث؛ حيث تشهد تغييرات في خصائص المجتمع ترتبط بتدهور الظروف المعيشية وتقاربها من ظروف العالم الثالث، من قبيل: تزايد نسبة الأمريكيين الفقراء، وتركز الثراء في أيدي ١٪ من أثرى الأثرياء، وتقلص أعداد الفئة الواقعة ما بين هاتين الفئتين من الذين لديهم ما يكفي من الأملاك والعائدات لكي ينتموا للطبقة الوسطى. (٣٤)

**إن الديمقراطية - في النظرية
وفي التطبيق - لم تعبر دائماً
عن حقيقة الإدراك أو الواقع
السياسي الغربي**

خاتمة:

الشواهد التي قدمناها تبرهن على أن الديمقراطية - في النظرية وفي التطبيق - لم تعبر دائماً عن حقيقة الإدراك أو الواقع السياسي الغربي، وأنها ومنذ عُرفت في التقاليد اليونانية القديمة، وحتى هذه اللحظة لم ترقَ إلى مستوى المثالية في التنظير، أو الاستمرارية والمصادقية في التطبيق، وأنها كانت ولا تزال موضع تساؤل ومناقشة، وتكتنفها العديد من المشكلات، الأمر الذي يدعو للحيطه والحذر من جانب أولئك الذين يصرون على استيراد الحلول الغربية، ويعتقدون - على خلاف الغربيين أنفسهم - أنها تعبير عن المثالية والكمال!

لقد دأب بعض الحكام والمفكرين في عالمنا العربي والإسلامي على الانطلاق من المفهوم الديمقراطي الغربي للحكم؛ باعتباره مفهوماً مثاليًا وعالميًا وصالحًا للتطبيق على كافة الخبرات، وفي كل الظروف، وأنه صياغة أمينة لواقع الحضارة الغربية «المتقدمة». (٣٥)

وإذا كنا قد ناقشنا في موضع آخر خطأ هذه النظرة، وخطورة عملية النقل الحرفي للمدركات والتجريدات والنظريات والمناهج الغربية، ومحاولة استخدامها وتطبيقها في واقعنا الإسلامي دون إخضاعها لعملية

صوتًا فقط عن آل جور، ولو لم تتم هذه العملية لتغيرت نتيجة الانتخابات الأمريكية، وربما التاريخ المعاصر كله! (٣٢)

ورغم أن القانون الأمريكي يحظر على الشركات دفع أموال من أجل مساندة الحملات الانتخابية، ويجعل المصدر الوحيد للهبات - من الناحية الرسمية - هو الأفراد،

وما يسمى بلجان العمل السياسي PACs، إلا أن متابعة العملية الانتخابية الأمريكية - الديمقراطية - تظهر بوضوح أن ثمة هبات كبيرة تقدمها الشركات، والمنظمات الأمريكية المختلفة للمرشحين للرئاسة وعضوية الكونجرس؛ مقابل حق الدخول إلى واشنطن، والتأثير في القرارات الصادرة بحقها. (٣٣)

لقد أثبت جريج في كتابه سالف الذكر على سبيل المثال أن شركات الطاقة «التي تستخدم أقدّر وقود يمكنك حرقه»، قد مؤلت حملة بوش بملايين الدولارات، في مقابل أن لا تتعقب الحكومة نشاطاتها المدمرة للبيئة والملوثة للهواء؛ إلى درجة نشر الأمراض وقتل الأطفال في المناطق المحيطة بتلك الشركات، أو بمناطق دفن نفاياتها الكيميائية الخطرة.

وكدليل على الظلم الاجتماعي الذي خلّفته الديمقراطية الأمريكية نقل صاحب كتاب «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» عن الدكتور إدوارد وولف - مدير مشروع دراسات الدخل في معهد جيروم ليفي في نيويورك - أن ٥, ٨٥٪ من النمو في ثروة أمريكا بين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٧ قد استولى عليها أغنى ١٪ من الأمريكيين. فرغم أن إجمالي الدخل الأمريكي قد ارتفع في ذلك الوقت بشكل هائل، إلا أن ٨٠٪ من العائلات الأمريكية لم تتلق منه شيئًا، بينما ربحت طبقة الواحد بالمائة ٩, ٢ تريليون من أصل ٥, ٣ تريليون دولار، هي القيمة الإجمالية لسندات وأسهم الشعب الأمريكي، وكنتيجة لذلك

لقد أثبتت هذه الدراسة أنه لا المعطيات الفكرية ولا المعطيات الواقعية الغربية، بخصوص المفهوم الديمقراطي للحكم، تؤيد إدراكنا «المشوّه» لهذا المفهوم كتعبير عن المثالية السياسية، بل على العكس فالنصوص والشواهد تؤكد تعرض الديمقراطية كقيمة وكنظام للحكم للنقد، بعدما قاد تطبيقها إلى طغيان الأكثرية، واستقطاب أقلية انتهازية وُصُولية في دوائر صنع القرار، وظهور طبقة من الحكام تتسم بالجهل، وسرعان ما تتدلى إلى الفساد والطغيان، وممارسة «أحط النشاطات الذهنية»؛ على حد تعبير الفيلسوف Alain في مؤلفه المنشور عام ١٩٢٥ بعنوان «عناصر الفكر الراديكالي». (٣٧)

وأخيراً فإن تجاهل تراثنا الرائع وخبرتنا المتميزة، وفقهنا السياسي المرتبط بالسياسة والحكم، ثم اللهث خلف خبرات اعتادت أن تأخذ عن تراثنا، وأن تتفجع بإسهاماتنا في مختلف المجالات، لهو أمر يحتاج إلى وقفة، وإنه لحري بنا أن نبحث عن حلول لمشاكلنا السياسية على مقتضى نظامنا الفكري وقيمنا الحضارية، وما أكثرها. ولماذا يستورد الخنزير من عندهم الشاة والضأن والغزال، ولحم طير مما يشتهون!!

تحليل نقدي، أو على الأقل لعملية إعادة صياغة تسمح بربطها بالإطار الفكري والحضاري الذي ننتمي إليه، وبحقيقة الإدراك الجماعي لعناصر مجتمعتنا السياسي الإسلامي^(٣٦)، فإن ما أوردناه هنا في هذه الدراسة يضيف إلى محددات عملية أو ضوابط عملية نقل التجريدات والتطبيقات الغربية متغيراً جديداً، يرتبط بمدى مصداقية هذه التجريدات في التعبير عن الواقع الغربي ذاته الذي أفرزها وطبّقها، أو مدى مطابقتها لحقيقة هذا الواقع الغربي؛ ذلك أننا حتى لو تخلينا عن قناعتنا بضرورة أن نتصدى لمشاكلنا، ونختار أساليب الحكم لبلادنا من منطلق التصور الإسلامي، وفي ضوء تقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الحضارية وظروفنا الراهنة، وحتى لو قبلنا إمكانية استيراد وتطبيق النظريات والتطبيقات الغربية في واقعنا المحلي بغض النظر عن اختلاف الطبيعة الحضارية وخصائص الواقع القائم والإدراك الجماعي، فكيف نقبل تصورات غربية ثبت تجريبيّاً أن الواقع الغربي ذاته قد لفظها؛ لاصطدامها مع إدراكه السياسي ووعيه الجماعي، بسبب المشكلات الضخمة التي ترتبت على تطبيقها!؟

إن عملية التحليل النقدي للديمقراطية كقيمة وكنظام للحكم يجب أن تتطرق للتساؤل عن مدى ارتباط الديمقراطية بالواقع السياسي الغربي، ومدى استمرارية تطبيقها في هذا الواقع، تلك الاستمرارية التي تسمح وحدها بإضفاء الصلاحية والواقعية على المفهوم الديمقراطي للحكم، ومن ثم تبرر صلاحيته للتطبيق في كل مجتمع تتوافر فيه خصائص الواقع السياسي الغربي. وليس من العلمية ولا من الواقعية في شيء أن ننقل نظريات أو تصورات أو تطبيقات لا تتعارض فقط مع واقعنا الحضاري وإدراكنا السياسي، بل ومع الإدراك الغربي ذاته الذي أوجدها في ظروف تاريخية معينة، ثم بات يتنكر لها بعدما اختلف الواقع المعاصر في طبيعته وخصائصه عن ذلك الواقع الذي أفرزها ودعا إلى تطبيقها.

الهوامش:

- (١) يجب أن نؤكد ابتداءً أنه لا يعنينا هنا إلا الديمقراطية كما يراها الغربيون أنفسهم، لا كما نراها نحن ولا غيرنا من غير الغربيين.
- (٢) راجع نقد اليونانيين القدماء للديمقراطيتهم في:
Lipson, Leslie: The Democratic Civilization, 1964, p21-33.
- (٣) راجع أيضًا: ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، مجلد ٤، الكتاب السابع، ٢٠٠١، ص ٣١٧.
- (٤) راجع: هامرتن: تاريخ العالم، مجلد ٢ ص ٤١٤:
Lipson, Leslie: The Democratic Civilization, 1964, p24-25.
- (٥) راجع: أفلاطون: آخر أيام سقراط، ص ٨، ١٥.
- (٦) راجع: هامرتن: تاريخ العالم، مجلد ٢ ص ٤٣٥، مجلد ٣ عدد ٢٦ ص ٧٠:
Lipson, Leslie: The Democratic Civilization, 1964, p28.
- (٧) راجع: جمهورية أفلاطون، مرجع سابق، ص ٢٨٧.
- (٨) نفس المرجع السابق، ص ٣٠٣ وما بعدها.
- (٩) تاريخ الفلاسفة، مرجع سابق، ص ٩٧ - ٩٨.
- (١٠) راجع:
Leyden: Aristotle on Equality and Justice, 1985, p.24; Kiernan: Aristotle Dictionary, 1962, p.418; Lipson, Leslie: The Democratic Civilization, 1964, p.30.
- (١١) أرسطو: السياسة ١٩٤٧، ص ٢٠٠، ٢٠١، ٣٢١، ٣٢٢: ٢٢٧-٢٢٨. Ibid. pp
- (١٢) أرسطو: السياسة، ١٩٤٧، ص ١٩٨ وما بعدها.
- (١٣) الحقيقة أن الدولة الرومانية - وعلى عكس الدولة اليونانية - استطاعت أن تبني إمبراطوريتها الكبرى بفضل تفوقها العسكري وقدرتها القتالية، وليس بفضل قيمها أو نظامها السياسي، وهو نفس الأساس الذي يبني على أساسه القياصرة الجدد في الولايات المتحدة اليوم إمبراطوريتهم.
- (١٤) قارن وجهة نظر أخرى في:
Livingston, William S. (ed.): A Prospect of Liberal Democracy, 1979, pp.218-220.
- (١٥) حول تفاصيل العلاقة المباشرة بين عصر النهضة الأوروبية وجهود العلماء المسلمين، ودور هؤلاء العلماء في نقل التراث اليوناني والمنهج العلمي إلى أوروبا، راجع: د. حامد ربيع (محقق): سلوك المالك في تدبير المالك لابن أبي الربيع، ج ١، ١٩٩٦، ص ٣٣ - ٣٥.
- (١٦) لمزيد من التفاصيل راجع:
Rosenberg, Arthur: Democracy and Socialism, 1939, p.105 ff.
- (١٧) راجع حول كل ذلك:
Pool, Ithiel de sola, et al: Symbols of Democracy, 1981, pp. 67-69; Livingston, William S.: A Prospect of Liberal Democracy, 1979, p. 215; Ostrom, Vincent: The Meaning of Democracy and the Vulnerability of Democracies, 1997, pp. 47-48, 83; Lerner, Max: It is Later Than You Think- The Need for a Militant Democracy, 1938, pp.96-100; Bratton, Michael & Van de walle, Nicolas: Democratic experiments in Africa, 1997, pp. 10-13.
- (١٨) لمزيد من التفاصيل راجع:
Lipson, Leslie: The Democratic Civilization, 1964, pp. 589-591; Thorson, Thomas Landon: The Logic of Democracy, 1962, pp.151-162; Downing, David: Democracy, 2002, p. 44.
- (١٩) تفاصيل المناقشات حول أبعاد مشكلة طغيان الأغلبية في النظم الديمقراطية تجدها في:
Spitz, David: Democracy and the Challenge of Power, 1958, pp.149 ff; Sartori, Giovanni: The Theory of Democracy Revisited, 1987, p.133; Ostrom, Vincent: The Meaning of Democracy and the Vulnerability of Democracies, 1997, pp.3, 23, 101, 150, 212.
- (٢٠) راجع لمزيد من التفاصيل حول مظاهر اضطهاد الأقلية المسلمة في فرنسا (قانون التجنس - إخضاع مسجد باريس للإشراف الحكومي - الحجاب - رفض بناء المساجد - الاستفزاز الإعلامي..... وغير ذلك) عبدالعزيز صقر: الدين والدولة في الواقع الغربي، ١٩٩٥، ص ٧٥ وما بعدها.
- (٢١) حول فلسفة ونشأة وتطور المسيحية الديمقراطية في الغرب، ودور الأحزاب المسيحية الديمقراطية في الحياة السياسية الغربية انظر:
Ball, Terence & Bellamy, Richard (eds.): Twentieth-Century Political Thought, 2003, pp. 165-180.

(٢٢) راجع:

Merkel and Smart (eds.): Religion and Politics in the Modern World, 1985, pp. 72, 73, 78; Ball and Millard: op.cit. pp. 219,229; Hagopian: Regimes, Movements, and Ideologies, 1978, p. 467.

(٢٣) راجع: فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ١٩٤٦، ص ٨٦-٨٨: Alpher (ed.): Nationalism and Modernity ١٩٨٦. p. ١٩٥٩. Graham: Vatican Diplomacy; ٢٥. p. ٢٥٠. ball and Millard op. cit. p; ٢٠.

(٢٤) راجع: ميشيل ستيوارت: نظم الحكم الحديثة، ترجمة أحمد كامل، ١٩٦٢، ص ١٩٤-٢٠٧، ٢٥٩-٢٦٠.

(٢٥) راجع نهاج لبعض هذه الأحزاب في: Day and Degenhardt. op. cit. pp. ٣٩٥ - ٣٩٧، Macridis: Modern Political Regimes ١٩٨٦. p. ٩٠.

(٢٦) راجع: مصطفى الدباغ: إمبراطورية تطفو على سطح الإرهاب، ٢٠٠٤، ص ٤٣ وما بعدها؛ مايكل هاردرت وأنطونيو نيغري: الإمبراطورية، تعريب فاضل جتكر، ٢٠٠٢، ص ٢٦٦ وما بعدها، ٣٤٦، ٣٦١.

(٢٧) راجع:

Russett, Bruce: Grasping the Democratic Peace, 1993, pp.11, 16, 54,120; Rosenberg, Arthur: Democracy and Socialism, 1939, p.361.

(٢٨) لمزيد من التفاصيل حول الطبيعة الأوليغارشية للنظم الديمقراطية، راجع: د. طه بدوي: النظرية السياسية، ١٩٨٦، ص ١٢٣-١٣٢.

(٢٩) راجع: د. طه بدوي: النظرية السياسية، ١٩٨٦، ص ١٢٣ وما بعدها:

Hallowell, John H.: The Moral Foundation of Democracy, 1965, pp.1, 7; Rosenberg, Arthur: Democracy and Socialism, 1939, p.362; Sartori, Giovanni: The Theory of Democracy Revisited, 1987, pp. 137,139, 145, 148,225, 227, 230, 231, 235, 236, 238, 239; Ball, Terence & Bellamy, Richard (eds.): Twentieth-Century Political Thought, 2003, p. 87.

(30) Laski, Harold J.: Democracy in Crisis, 1933, pp.61ff.

(٣١) راجع تفاصيل ونتائج الدراسات واستطلاعات الرأي حول الموقف من الديمقراطية في الدول الغربية في: Przeworski, Adam: Sustainable Democracy, 1995, p.57ff; Pool, Ithiel de Sola: op. cit., 13, 40-42, 67ff.

(٣٢) تبين أن بعض المشطويين . وعددهم ٣٢٦. قد كُتب قرين أسائهم أنهم أدينوا بجرائم مستقبلية بعضها في القرن القادم؛ فكتب قرين أحدهم مثلاً أنه أدين بجريمة في ٣٠ يناير عام ٢٠٠٧، رغم أن القائمة أعدت عام ١٢٠٠!! ، والحقيقة أن قائمة المشطويين كانت لمواطنين أمريكيين من السود والأسبان، غاليبتهم من الديمقراطيين الذين كان من المتوقع أن يصوتوا لآل جور الديمقراطي، وليس لجورج بوش الجمهوري. ولا شك أن نتيجة هذه الواقعة لم تؤثر فقط على الأوضاع الداخلية في أمريكا؛ حيث كلفت آل جور منصب الرئاسة، بل وكان لها تأثيرها أيضاً على العالم الخارجي، وبالذات العالم الإسلامي، الذي بات بالنسبة لجورج بوش وسائر الجمهوريين كالعلم الأحمر بالنسبة لثور هائج!

(٣٣) حول أبعاد ظاهرة تمويل الشركات والمنظمات للأحزاب الأمريكية، وخطورة هذه العملية وأثرها في تحويل النظام الأمريكي «الديمقراطي» من نظام قائم لخدمة مصالح الشعب إلى مجرد نظام يخدم المصالح الخاصة لرأس المال، راجع التفاصيل والمصادر في : عبدالعزيز صقر: الدين والدولة في الواقع الغربي، ١٩٩٥، ص ٢٣٢-٢٣٤، ٢٤٥.

(٣٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الوقائع وغيرها راجع: جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها، ٢٠٠٤، ص ٧، ٩، ١٧، ٩٤، ١١١، ٢٤٥؛ إدوارد ليتواك: الحلم الأمريكي إلى أين؟ ، تعريب ليلى غانم ، ١٩٩٨، ص ١٦، ٢١٩، رامزي كلارك وآخرون: الإمبراطورية الأمريكية، ٢٠٠١، ج ١، ص ١٩٠-١٩٥.

(٣٥) راجع التفاصيل والمصادر في: شاكر النابلسي: الفكر العربي في القرن العشرين، ٢٠٠١، ص ٩ وما بعدها، وص ١٦٣ وما بعدها.

(٣٦) راجع: عبدالعزيز صقر: دور الدين في الحياة السياسية في الدولة القومية، تحليل تجريبي، رسالة دكتوراه، ١٩٩٠، ص ١٠-١٦، ٤١-٤٢، ٧٦، ٧٩، ٩٦، ٩٨، ١٠٣، ١٠٥-١٠٦، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٥؛ عبدالعزيز صقر: الدين والدولة في الواقع الغربي، دراسة لموقع ودور الدين في الدولة القومية، ١٩٩٥، ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٣٧) طه بدوي: النظرية السياسية، ١٩٨٦، ص ١٣٠.

النظرية والفكر

- د/ محمد طه بدوي: النظرية السياسية - النظرية العامة للمعرفة السياسية (القاهرة والإسكندرية: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٦).

- مصطفى الدباغ: إمبراطورية تطفو على السطح الإرهاب (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤).

(ب) كتب مترجمة إلى العربية:

- تاريخ الفلاسفة، ترجمه من الفرنسية إلى العربية: عبدالله أفندي حسين المصري (القاهرة: بدون دار نشر، ١٩١٠).

- إدوارد ليتواك: الحلم الأمريكي إلى أين؟، تعريب ليلي غانم (بيروت: دار الأزمنا الحديثة، ١٩٩٨).

- جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها، ترجمة مركز التعريب والبرمجة (بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٤).

- جون أ. هامرتن: تاريخ العالم، ترجمة: إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ت).

- مايكل هاردي وأنطونيو نيغري: الإمبراطورية إمبراطورية العولمة الجديدة، تعريب فاضل جتكر (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢).

- ميشيل ستوارت: نظم الحكم الحديثة، ترجمة أحمد كامل (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٢).

- ه.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٦-١٩٥٣).

- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد الرابع: حياة اليونان: الكتاب ٨، ٧، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١).

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: مصادر:

- أرسطو: السياسة، ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية وقدم له وعلق عليه: بارتلمي سانتهيلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧).

- أفلاطون: آخر أيام سقراط، نقله إلى العربية: أحمد الشيباني (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت).

- أفلاطون: الجمهورية، ترجمة د. فؤاد زكريا، راجعها على الأصل اليوناني: د. محمد سليم سالم (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، د.ت).

ثانياً: رسائل علمية:

- عبدالعزيز صقر: دور الدين في الحياة السياسية في الدولة القومية، تحليل تجريبي - رسالة دكتوراه (كلية التجارة، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٠).

ثالثاً: مراجع:

(أ) كتب باللغة العربية:

- حامد عبدالله ربيع (محقق): سلوك المالك في تدبير الممالك، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (القاهرة: دار الشعب، ج ١ سنة ١٩٨٠، ج ٢ سنة ١٩٨٣).

- شاعر النابلسي: الفكر العربي في القرن العشرين، ج ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١).

- د. عبدالعزيز عبدالغني صقر: الدين والدولة في الواقع العربي، دراسة لموقع ودور الدين في الدولة القومية (القاهرة: دار العلم للجميع، ١٩٩٥).

Regimes (Canada: Little, Brown & company, 1986).

- Merkl, P.H. and Smart, N. (eds.): Religion and Politics in the Modern World (N.Y.: N.Y. University Press, 1985).
- Ostrom, Vincent: The Meaning of Democracy and the Vulnerability of Democracies (USA: The University of Michigan Press, 1997).
- Przeworski, Adam: Sustainable Democracy (U.K. & N.Y.: Cambridge University Press, 1995).
- Rosenberg, Arthur: Democracy and Socialism (N.Y.: Alfred. A. Knopf, 1939).
- Pool, Ithiel de Sola et al: Symbols of Democracy (USA: Greenwood Press, 1981).
- Russett, Bruce: Grasping the Democratic Peace (Princeton University Press, 1993).
- Sartori, Giovanni: The Theory of Democracy Revisited (New Jersey: Chatham House Publishers, 1987).
- Spitz, David: Democracy and the Challenge of Power (N.Y.: Columbia University Press, 1958).
- Thorson, Thomas Landon: The Logic of Democracy (N.Y.: Holt, Rinehart & Winston, 1962).

(د) مجلات:

- مجلة السياسة الدولية.
- مجلة دراسات اشتراكية.

(ج) كتب باللغة الإنجليزية:

- Alpher, Joseph (ed.): Nationalism and Modernity (N.Y.: Praeger Publishers, 1973).
- Ball, A.R. and Millard, F.: Pressure Politics in Industrial Societies (London: MacMillan Education Ltd., 1986).
- Ball, Terence & Bellamy, Richard (eds.): Twentieth-Century Political Thought, (UK & N.Y.: Cambridge University Press, 2003).
- Bratton, Michael & Van de walle, Nicolas: Democratic experiments in Africa (United Kingdom & N.Y.: Cambridge University Press, 1997).
- Day, A.J. and Degenhardt, H.W. (eds.): Political Parties of the World (United Kingdom: Longman Group Limited, 1980).
- Downing, David: Democracy (Britain: Heinemann Library, 2002).
- Graham, Robert A.: Vatican Diplomacy - A Study of Church and State on the International Plane (N.J.: Princeton University Press, 1959).
- -Hagopian, mark N.: Regimes, Movements and Ideologies (N.Y.: Longman Inc., 1978).
- -Hallowell, john H.: the Moral Foundation of Democracy (Chicago and London: the University of Chicago Press, 1965).
- Laski, Harold J.: Democracy in Crisis (USA: The University of North Carolina Press, 1933).
- Lerner, Max: It is Later than You Think, the Need for a Militant Democracy (N.Y.: the Viking Press, 1938).
- Leyden, W. Von: Aristotle on Equality and Justice (London: The Macmillan Press Ltd., 1985).
- Lipson, Leslie: The Democratic Civilization (N.Y.: Oxford University Press, 1964).
- Livingston, William S.: A Prospect of Liberal Democracy (USA: The University of Texas Press, 1979).
- Macridis, Roy C.: Modern Political

معلومات إضافية

تعريفات الديمقراطية

لا يوجد تعريف معاصر جامع مانع لمعنى الديمقراطية، وقد قدمت التقاليد الغربية المعاصرة العديد من المفاهيم عن الديمقراطية، ولعل ذلك يرجع إلى الخلط بين مفهوم أو جوهر المفهوم الديمقراطي للحكم من جهة، وآليات أو تطبيقات هذا المفهوم في الواقع الاجتماعي، ارتباطاً بخصائص كل مجتمع وسماته الخاصة من جهة أخرى.

ويعرفها أبراهام لنكولن بأنها «حكم الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب»، أما بورديو فيعرفها «بأنها نظام حكم يهدف إلى إدخال الحرية في العلاقات السياسية»، وهناك عشرات التعريفات الأخرى، نستطيع من خلالها القول: إنه لا يوجد تعريف جامع مانع للديمقراطية صالح لكل زمان ومكان، لكن ذلك لا ينفي أن للديمقراطية قوانين وقيماً لا بد من مراعاتها وهي: الحرية، المساواة، العدل، التسامح، الرفاهية.

ويعرفها الأستاذ محمد عبد الحبار الشيرط بأنها «خيار سياسي إجرائي لتنظيم عملية تداول السلطة في المجتمع الإنساني، كونه مجتمعاً مستقراً من الناحية السياسية.. هذا على أساس أن الديمقراطية في معناها المعاصر تعني: تلك المنظومة من الآليات المحايدة الهادفة إلى تنظيم عملية تبادل السلطة بطريقة سلمية ودورية، وعلى أساس الاختيار الشعبي المتمثل بالانتخابات، وهي بهذا حل سلمي لمسألة الصراع، أو التدافع في المجتمع الإنساني على السلطة والنفوذ والحكم، وهي بهذا تفرق عن الحلول الأخرى لهذه المسألة، التي تنصف بالعتف والدموية».

فإن كل أشكال الديمقراطية هذه، تعتمد لبعض المدى على المفهوم اليوناني القديم «ديمقراطيا»، والذي يعني «حكم الشعب» المشتق من الكلمتين «ديموس»، «شعب» و«كراتوس»، «حكم».

هذه الجزء المركزي من المفهوم، لا يزال يشكل نقطة أساسية في تعريفات الديمقراطية الحديثة، ويتضمن ذلك إعلان فيينا سنة ١٩٩٣، الذي جاء فيه أن:

«الديمقراطية تركز على تعبير الشعب عن رغبته في تقرير نظامه السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي، ومشاركته الكاملة في جميع نواحي الحياة».

ولكن بالحديث عن المجتمع الحر فإن الديمقراطية تعني حكم الشعب لنفسه بصورة منفردة من خلال حق الملكية الخاصة، والحقوق والواجبات المدنية (الحرية والمسؤوليات الفردية)، وهو ما يعني توزيع السلطات من القمة إلى الأفراد المواطنين، والسيادة بالفعل في المجتمع الحر هي للشعب، ومنه تنتقل للحكومة وليس العكس.

إن مصطلح الديمقراطية بشكله الإغريقي القديم قد تم نحتته في آثينا القديمة في القرن

الخامس ق.م، والديمقراطية الآثينية عموماً يُنظر لها على أنها من أولى الأمثلة التي تتطابق مع المفاهيم المعاصرة للحكم الديمقراطي.

إلا أن أولى أشكال الديمقراطية ظهرت في جمهوريات الهند القديمة، والتي وُجدت في فترة القرن السادس ق.م، ووفقاً للمؤرخين اليونانيين فإن دولتي ساباركايي وسامباستاي، وذلك في القرن الرابع ق.م، واللذان تعرفان اليوم بباكستان وأفغانستان كان شكل الحكم فيهما ديمقراطيًا وليس ملكيًا.

أنواع الديمقراطية:

- الديمقراطية المباشرة: وتسمى عادة بالديمقراطية النقية، وهي نظام يُصوّت فيه الشعب على قرارات الحكومة، مثل المصادقة على القوانين أو رفضها، وتسمى بالمباشرة؛ لأن الناس يمارسون بشكل مباشر سلطة صنع القرار من دون وسطاء أو نواب ينوبون عنهم.

- الديمقراطية النيابية: وهي نظام سياسي يصوّت فيه أفراد الشعب على اختيار أعضاء الحكومة الذين بدورهم يتخذون القرارات التي تتفق ومصالح الناخبين، وتسمى بالنيابية؛ لأن الشعب لا يصوت على قرارات الحكومة، بل ينتخب نوابًا يقررون عنهم ذلك.

- الديمقراطية الليبرالية (الحرّة): في الاستخدام الشائع يتم الخلط خطأً بين الديمقراطية والديمقراطية الليبرالية، ولكن الديمقراطية الليبرالية هي بالتحديد شكل من أشكال الديمقراطية النيابية؛ حيث السلطة السياسية للحكومة مقيدة بدستور يحدد بدوره حقوق وحرّيات الأفراد والأقليات، (وتسمى كذلك الليبرالية الدستورية). ولهذا يضع الدستور قيودًا على ممارسة إرادة الأغلبية. أما الديمقراطية غير الليبرالية فهي التي لا يتم فيها احترام هذه الحقوق والحرّيات الفردية. ويجب أن نلاحظ أن بعض الديمقراطيات الليبرالية لديها صلاحيات لأوقات الطوارئ، والتي تجعل هذه الأنظمة الليبرالية أقل ليبرالية مؤقتًا؛ إذا ما طبقت تلك الصلاحيات (سواء كان من قبل الحكومة أو البرلمان أو عبر الاستفتاء).

- الديمقراطية غير الليبرالية (غير الحرّة): هي نظام حكم توجد فيه انتخابات ديمقراطية، وفيه تنتخب الأغلبية الديمقراطية الحكومة، ولكنها غير مقيدة من انتهاك حرمة حرّيات الأفراد أو الأقليات. وقد يعود سبب ذلك إلى انعدام القيود الدستورية على سلطات الهيئة التنفيذية المنتخبة، أو إلى انتهاك قيود موجودة أصلاً. إن تجربة بعض دول الاتحاد السوفييتي السابق هي التي جلبت الأنظار إلى هذه الظاهرة، رغم أن أصلها أقدم من ذلك. بعض المنتقدين لنظام الديمقراطية غير الليبرالية يقترحون الآن بأسبقية سيادة القانون على الديمقراطية، وهو ما يتضمن القبول الغربي بالأمر الواقع بما يسمى «الديمقراطيات غير الليبرالية».

- الديمقراطية الاشتراكية: يمكن القول بأن الديمقراطية الاشتراكية مشتقة من الأفكار الاشتراكية والشيوعية في إطار تقدمي وتدرجي ودستوري. العديد من الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية

في العالم توصلت - لأسباب أيديولوجية أو براغماتية- تبنت استراتيجية التغيير التدريجي من خلال المؤسسات الموجودة، أو من خلال مياسة العمل على تحقيق الإصلاحات عوضاً عن التغيير الثوري المفاجئ.

- أخيراً هناك الديمقراطية المسيحية والديمقراطية الملكية والديمقراطية الجمهورية والديمقراطية النيابية وديمقراطية الحزب الواحد.....إلخ.

خلفية تاريخية:

الديمقراطية كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Δῆμος أو Demos، وتعني عامة الناس، والنصف الثاني Kratia أو kratia وتعني حكم، Demoacratia حكم عامة الناس، الديمقراطية بمفهومها العام هي العملية السلمية لتداول السلطة بين الأفراد أو الجماعات، التي تؤدي إلى إيجاد نظام اجتماعي مميز يؤمن به، ويسير عليه المجتمع ككل على شكل أخلاقيات اجتماعية. يمكن استخدام مصطلح الديمقراطية بمعنى ضيق لوصف دولة- قومية، أو بمعنى أوسع لوصف مجتمع حر. والديمقراطية كشكل من أشكال الحكم هي حكم الشعب لنفسه بصورة جماعية، وعادة ما يكون ذلك عبر حكم الأغلبية، عن طريق نظام للتصويت والتمثيل النيابي. ولكن بالحديث عن المجتمع الحر فإن الديمقراطية تعني حكم الشعب لنفسه بصورة منفردة من خلال حق الملكية الخاصة، والحقوق والواجبات المدنية (الحريات والمسؤوليات الفردية)، وهو ما يعني توسيع مفهوم توزيع السلطات من القمة إلى الأفراد المواطنين. والسيادة بالفعل في المجتمع الحر هي للشعب، ومنه تنتقل إلى الحكومة وليس العكس.

ومصطلح الديمقراطية بشكله الإغريقي القديم تم نحته في أثينا القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد، والديمقراطية الأثينية عموماً يُنظر إليها على أنها من أولى الأمثلة التي تنطبق عليها المفاهيم المعاصرة للحكم الديمقراطي. كان نصف أو ربع سكان أثينا الذكور فقط لهم حق التصويت، ولكن هذا الحاجز لم يكن حاجزاً قومياً، ولا علاقة له بالمكانة الاقتصادية، فبغض النظر عن درجة فقرهم كان كل مواطني أثينا أحراراً في التصويت والتحدث في الجمعية العمومية. وكان مواطنو أثينا القديمة يتخذون قراراتهم مباشرة بدلاً من التصويت على اختيار نواب ينوبون عنهم في اتخاذها. وهذا الشكل من الحكم الديمقراطي الذي كان معمولاً به في أثينا القديمة يسمى بالديمقراطية المباشرة أو الديمقراطية النقية. وبمرور الزمن تغير معنى «الديمقراطية» وارتقى تعريفها الحديث كثيراً منذ القرن الثامن عشر مع ظهور الأنظمة «الديمقراطية» المتعاقبة في العديد من دول العالم.

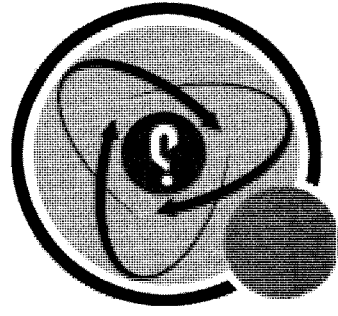
أهم المصادر: بين الأنظمة الشمولية والديمقراطية، د. هادي حسن عليوي، جريمة الصباح

مادة بحثية تحت عنوان الديمقراطية وحقوق الإنسان، للباحثة حولي نورمن

الموسوعة العربية العالمية Global Arabic

<http://arabic.tharwaproject.com/node/6158>

<http://ar.wikipedia.org/wiki/...>



رؤى شرعية في الدراسات المستقبلية

د/ هاني بن عبد الله الجبير - السعودية

قاضٍ شرعي في المحكمة الكبرى بجدة

ملخص البحث:

لم تُغطِّ الدراسات المستقبلية في العالم الإسلامي الاهتمام الذي تستحقه، ولم يُنظر إليها كقاعدة للتقدم والإصلاح؛ نتيجة لما أصيبت به الأمة في هذا العصر من عدم تبنّيها مشروعًا واضحًا لإصلاح عام، ينهض بها على كافة الأضعدة يتفق مع رؤاها، وهذا نابع من ضعف التخطيط، وقلة الاهتمام به. كما لم تحظ الدراسات المستقبلية بدراسة فقهية تُعنى ببيان مشروعيتها، ومنهجية البحث فيها، على الرغم من تزايد الاهتمام بهذه الدراسات، وتحولها مع الوقت من مجرد فروض واجتهادات فكرية إلى جهود علمية منظمة.

ولقد تنوعت مصادر التعرف على المستقبل واستكشافه إلى أنواع وطرق متعددة، بعضها غير صحيح كالاعتماد على الكتب السابقة، والنجوم وسيرها، والكتب القديمة، وحساب الجُمَّل، أو الرؤى والسناسات، وطريق آخر هو الطريق المقطوع بصحته، وهو كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

ولاشك أن الإسلام أولى المستقبل عناية بارزة، فالمسلم ينتظر جزاء مستقبلًا وعده الله به، وجعل الإيمان به ركناً من أركان الإيمان، والقرآن الكريم مليء بالدعوة إلى التفكّر في الأرض والسماء والأحياء، والاعتبار بالسنة الكونية لمعرفة المستقبل.

والظاهر أن حكم هذه الدراسات في عصرنا هذا أنها فرض كفاية؛ لذا يجب على الأمة بمجموعها إعداد دراسات مستقبلية، توجّه القوى الفاعلة فيها لما يجب عليها، وبذل جهدها في إعداد الكوادر القادرة على ذلك.

ومتى توفرت الإرادة الجازمة والنتيجة الحسنة فإن الأمة يمكنها أن تتدرج في الوصول إلى مستقبلها المرغوب، مهما كان بيتها وبيته، مستعينة بدراسات مستقبلية مصوغة صياغة إسلامية، ومنضبطة بضوابط الشريعة.

أفكار ومقتطفات

- المطبوعات التي تتناول دراسة المستقبل - على كثرتها - تحظى بانتشار كبير، ويقبل عليها القراء، ويُعنى بدراستها نقدًا أو تأييدًا.

- إن من الأشياء ما يغيب عن حس بعض البشر ويدركه بعضهم، ومنه ما يغيب عن الحس ويدرك بالعقل، كالعلم بحصول الكسوف والخسوف ونحوهما مما يستنبط من استقرار السنن الكونية، فهذا ليس من علم الغيب - مع غيابه عن الحس - لأنه يمكن إدراكه، وهو ما يسمى بالغيب النسبي أو المقيد.

- لو عرف الإنسان الغيب لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به، وهو يترقب الموت، والأوجاع، والمصائب وغيرها من الحوادث، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالأمال.

- لو كان الإنسان طويل العمر سالم المستقبل - وقد علم بذلك - ووثق ببقاء حاله لانهمك في الشر وأنواع الفساد، وهذا أمر لا تصلح عليه أحوال العالم؛ بل لا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمة الله وسبق في علمه.

- إن البشرية في غيابها عن سبيل الحق، لبس عليها الشيطان، وسلك بها في سبيل إشباع غريزة حب الاطلاع على المغيبات مسالك شتى، وأغراها بأنواع من المصادر لاستكشاف المستقبل.

- ما كان في الكتب السابقة من الأخبار فإنه إن وافق ما جاء في شرعنا قبلنا، وإن خالفه علمنا أنه كذب، وإن لم يتضمن موافقة ولا مخالفة فلا نؤمن به ولا نكذبه.

- يستغل الكذابين الطرق الباطلة لمعرفة تشوّف الناس لذلك؛ فهم ينوعون في طرق الكذب في ذلك، ويتمدون الكذب فيه نارة بالإحالة على الحركات والأشكال الجسمانية من حركات الأفلاك والكواكب، والشهب والرمود، والبروق والرياح، وغير ذلك، ونارة بما يحدثونه هم من الحركات والأشكال.

- الأخبار الواردة عن نبينا عليه الصلاة والسلام بالأسانيد الصحيحة مصدر تؤمن بصدقه وصحته لمعرفة الغيب واستشراف المستقبل، لكنه خاضع في فهمه لقواعد فهم النصوص الشرعية، لا لتلاعب الأهواء والظنون.

- إن الإنسان قُتِرَ عبر تاريخه الطويل بالتطلع إلى المستقبل، وحاول ذلك بوسائل متنوعة متعددة، وإن سعيه هذا سمي بتوافق مع الغريزة الإنسانية، ومع طبيعة الأشياء من حوله، والتي تحتم عليه أن يتطلع لمستقبله، باذلاً جهده في تطبُّب مصالحة، والتحرز من الشرور التي قد تعرض له.

- في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ونتيجة لسرعة التغير في هذه الحياة المعاصرة، واشتداد

التنافس بين المجتمعات، ظهرت بدايات لدراسة المستقبل على أسس خاصة، وكانت تهدف للسيطرة على الصور الممكنة للمستقبل، عن طريق توجيهها، باتخاذ الأساليب الملائمة لتحفيز الاحتمالات المرغوبة، ومنع أو عرقلة الاحتمالات غير المرغوب فيها.

- (الدراسات المستقبلية) هي مجموعة من الدراسات والبحوث التي تهدف إلى تحديد اتجاهات الأحداث، وتحليل مختلف المتغيرات التي يمكن أن تؤثر في إيجاد هذه الاتجاهات أو حركة مسارها.

- (الدراسة المستقبلية) دراسة تتفادى الأزمات وتقدم الحلول، وإذا لم تهتم الأمة بقضايا المستقبل، ولم ترسم المسار الصائب الذي عليها سلوكه؛ فإنها قد جانبت الحكمة والاتزان، ووقعت في ضرب من الخلل.

- إن الأحداث والوقائع التي يفاجأ بها المجتمع العالمي ليست أموراً طارئة أو مبهمة، مهما كانت مجالاتها وغرابتها، وإنما هي أحداث متصلة الحلقات يستوعب ترابطها من لديه القدرة على الربط والاستنباط.

- من التفكير والنظر في سنن الله تعالى في الخلق يستفيد الإنسان أن معظم التحولات التي تتم في هذه الحياة قائمة على معطيات الماضي والحاضر، وهذا يدعو لدراستها والاستعداد لها.

- لأجل أن تحقق الأمة المصلحة من هذا العلم (علم المستقبل) فلا بد أن تُصاغ هذه الدراسات على أساس التصور الذي ينسجم مع هوية الأمة وتطلعاتها.

- الإسلام لا يجد غضاضة في الاستفادة من جهود الآخرين، وما يتفق مع أساليبه وأدواته وتطلعاته وأصالته الفريدة التي تتبنى ما هو خير، وتقلع عن كل ما فيه دمار وشر.

- إن الإنسان لن يرتقي بحياته الإنسانية والحضارية إلا بتعرفه على السنن التي أجرى الله عليها حركة الحياة البشرية من أجل أن يستثمرها ويحسن التعامل معها لتستقيم حياته.

- إذا كنا نطلب أن نلاحظ السنن الربانية الكونية التي يستقرؤها المعبرون في أحوال المجتمعات، مع ما قد يعرض لها، فإن السنن الشرعية التي تحمل الصدق المطلق لا بد أن تُعتبر وتُلاحظ، بل وأن تُجعل المعيار الذي يُقاس به صدق استنباط الباحثين للسنن الربانية.

- إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة، ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الأفق ما يدل على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزيئات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر.

- لا يمكن حدوث تغيير في أوضاع الأمة العامة إلا إذا حدث تغيير في أفرادها. قَالَ تَمَّانُ: ﴿لَقَدْ مَعَّقَيْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

- غزو الأجنبي للبلاد ودخولهم إليها يدمر أخلاقها، ويقلب أوضاعها الاجتماعية. قال تعالى على لسان ملكة سبا ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا نَكَحُوا قُرْبَنًا أَفْسَدُوا وَجَمَلُوا أُمَّةً أَهْلَهَا أُوْلَاءُ﴾ [النمل: ٢٤].

- فإذا أريد قياس ومعرفة مدى قبول دراسة أو رأي فإنه ينظر إلى ما استند إليه، وما استمد منه فإن كان دليلاً معتبراً وإلا فلا يُعابأ به.

- يمكن إدراك الخطورة في الدراسات المستقبلية حين ندرك التسبب الحاصل في هذا المجال من طرف المستعملين لمصطلحات اللغة الأجنبية المؤدى إلى إسقاط مصطلحات أعجمية لم يدركوا معانيها من جميع أبعادها وهذه الفوضى ليست فقط فوضى لغوية فقط، ولكنها فلسفية أيضاً.

- إن كثيراً ممن تأمل سبب فشل كثير من النظريات الوضعية في معالجة المشاكل البشرية، وتحقيق التوازن المطلوب للإنسان رآه إلى الجهل بحقيقة الإنسان وطبيعة تكوينه.

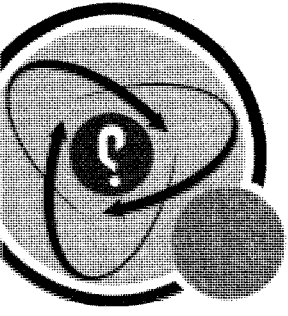
- إن كل ما في هذا الكون إنما يجري بأمر الله تعالى؛ فما كان فيه من أمور تجري على خلاف مراد العبد ومصالحته، فإنه بإيمانه بالقضاء والقدر يدرك أن في هذا الابتلاء حكماً عظيمة وتمحيصاً للمؤمنين.

- إذا شرع المسلم في دراسة جامعاً رضى الله تعالى هدفه، والإخلاص له مقصده تحقق له التوفيق بإذن الله، وإن للاتجاه إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار بالحاح وتضرع وذلة ومسكنة أثراً عظيماً في تذليل الصعاب والتوفيق والنتائج.

- لدراسات المستقبل جملة من قواعد البحث يعرفها المختصون، لا بد من مراعاتها؛ لتكون النتائج مقبولة في ضوء هذا النوع من الدراسة. من أبرزها الشمول، والنظرة الكلية للأمور، وتفادي الإفراط في التبسيط والتجريد للظواهر المدروسة، والتعمق في فهم ما يؤخذ به الواقع من علاقات، والحيادية، وعدم الانحياز، والمزج بين الأساليب والمزاوجة بينها، والرصد الجيد للماضي والحاضر باتجاهاته وتجاربه.

- عند صياغة المستقبل المأمول لا بد أن يراعى أن يكون التحول متدرجاً متواكباً مع سنن الله تعالى الكونية، ميثاقاً على إدراك مستوى الواقع ومفردات ظروفه، والمدة اللازمة لتجاوزها، وإلصاقاً ضرورياً من الخيال والأمانى المجردة.

- متى توفرت الإرادة الجازمة والثقة الحسنة فإن الأمة يمكنها - بتوفيق الله تعالى - مستعينة بدراسات مستقبلية مصوغة بصياغة إسلامية، ومنضبطة بضوابط الشريعة؛ أن تتدرج في الوصول إلى مستقبلها المرغوب مهما كان بينها وبينه.



رؤى شرعية في الدراسات المستقبلية

د/ هاني بن عبد الله الجبير - السعودية

قاضٍ شرعي في المحكمة الكبرى بجدة

ولذا فقد تحفّز الغيورون من أبناء هذه الأمة على تلافى مثل هذا الأمر؛ ببذل ما يمكنهم في صعيد الاهتمام والإنشاء، وفي مجال المعالجة والبحث في دراسة المستقبل، وهو وإن كان على المستوى الشعبي أبرز منه على المستوى الرسمي؛ إلا أنه يبقى أمرًا يبشّر بالخير ويدعو للتفاؤل.

ولمّا كانت هذه الدراسات تحتاج لتأصيل وتأطير يبين الضوابط والموجّهات التي تضبط حركته، وتوجهه نحو الإنتاج المنسجم مع كليات الإسلام ومقاصده. فإنها مع كونها ليست حديثة النشأة، ولا جديدة البروز؛ إلا أنها لم تحظ بدراسة فقهية شرعية تُعنى ببيان مشروعيّتها، ومنهجية البحث فيها.

ولذا فقد جاءت هذه الكتابة الموجزة بين يديك مُحاوِلةً لتقديم نظرات شرعية حول دراسات المستقبل، مما أرجو أن يفيد قارئه، وأن يكون تقدمةً لدراسات أكثر جِدًا وأعمق طرحًا.

وقد جاءت هذه الأكتوبة في:

تمهيد عن تشوِّف الإنسان لمعرفة الغيب، والطرق المسلوكة لذلك، وثلاثة مباحث:

إن مما أصيبت به الأمة الإسلامية في هذا العصر أنّها لا تتبى مشروعيًا واطحًا لإصلاح عام ينهض بها على كافة الأصعدة، يتفق مع رؤاها، وينسجم مع واقعها، ويراعي خصائصها الثقافية والعقدية؛ كما أنّها لا تتمكن من استغلال إمكاناتها المتاحة لها على الوجه الأمثل.

وهذا نابع من ضعف التخطيط، وقلة الاهتمام به. ولذا لا يُستغرب أن لا تُعطى الدراسات المستقبلية الاهتمام الذي تستحقّه، وأن لا يُنظر إليها كقاعدة للتقدم والإصلاح، في الوقت الذي يبذل فيه الغرب أموالاً وإمكانات هائلة في سبيل دراسة المستقبل، ويجعل للدراسات المستقبلية دورًا بارزًا في رسم الخطط وإعداد الكوادر، وتعبئة الموارد والطاقات على المستوى الرسمي، وكذلك على المستوى الشعبي؛ فإنّ المطبوعات التي تتناول دراسة المستقبل - على كثرتها - تحظى بانتشار كبير، ويقبل عليها القراء، ويُعتنى بدراستها نقدًا أو تأييدًا.

أولها: في مفهوم الدراسات المستقبلية.

وثانيها: في مشروعية الدراسات المستقبلية.

وثالثها: في المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية.

ثم خاتمة موجزة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً يوم العرض عليه؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد: في تشؤف الإنسان لمعرفة الغيب

والطرق المسلوكة لذلك

من قواعد العقيدة الإسلامية وأصولها التي أجمع عليها المسلمون أنّ الله سبحانه وتعالى استأثر بعلم الغيب دون خلقه، فلا يعلم الغيب أحد سواه، فهو المنفرد بذلك وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد أخبرنا تعالى أنّه المتفرد بعلم ما كان، وما يكون، ولم يُطلع على ذلك إلا من شاء من عباده فقال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١) ﴿إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، فالنبي لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أطلعه عليه رب العالمين ﴿ذَلِكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ولذا أمر الأنبياء بالاعتراف بذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال عن لسان عيسى ﴿تَعْلَمُ

مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾

[المائدة: ١١٦]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أن النبي ﷺ يعلم ما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]» (١). ولما سأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن وقت الساعة؛ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» (٢). أي تساوى في العجز عن إدراك ذلك علم المسئول والسائل. (٣)

مع أن الله تعالى أطلع بعض أنبيائه على شيء من الغيب ليكون دليل نبوته كما قال تعالى: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨]. وكما ورد عن إخبار نبينا عليه الصلاة والسلام عن كثير مما يكون في زمنه وبعده، ومما يكون في الآخرة.

والغيب الذي تفرّد به الله بعلمه هو ما لا يدرك بالحس، ولا بالتجربة والمقايسة، فإنّ من الأشياء ما يغيب عن حسّ بعض البشر ويدركه بعضهم، ومنه ما يغيب عن الحس ويدرك بالعقل، كالعلم بحصول الكسوف والخسوف ونحوهما مما يُستنبط من استقراء السنن الكونية، فهذا ليس من علم الغيب - مع غيابه عن الحس - لأنه يمكن إدراكه، وهو ما يسمّى بالغيب النسبي أو المقيّد.

مع أنّ الإدراك المستقبلي ظنيّ وليس قطعياً؛ لجواز تخلف الأسباب، أو الخطأ في التقدير مثلاً، ولذا لا يجوز به الإنسان، قال في فتح الباري (٤): «إنّ لبعض الغيوب أسباباً قد يُستدلّ بها عليها لكن ليس ذلك حقيقياً».

قال ابن تيمية: «.. لا يعلم أحد الغيب إلا الله، وهذا هو الغيب المطلق عن جميع المخلوقين، الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾».

سيكون، وهذا أمر مركب في النفوس لا ينكره أحد، ومن هنا جاء الادخار، بل التجارة والحرق والزراعة كلها مبنية على تطلع الإنسان للمستقبل، وسعيه ليكون مستقبلاً مناسباً له، ولذا تنوعت طرق الناس في محاولة معرفة الغيب، كما سيأتي إن شاء الله.

ومن حكمة الله تعالى ورحمته أن حجب الغيب عن عباده، ومنعهم من العلم بأكثره، وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان ذلك لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت والأوجاع والمصائب وغيرها من الحوادث، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وإنما عمارتها بالأمال.

وكذلك لو كان طويل العمر سالم المستقبل، وقد علم بذلك ووثق ببقاء حاله لانهمك في الشر وأنواع الفساد، وهذا أمر لا تصلح عليه أحوال العالم؛ بل لا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه. (٨)

ولذا منع الله تعالى عباده من علم الغيب؛ لأنه

ليس من شأنهم، ولا فيه مصلحة لهم. ولم يُظهر لهم سبحانه منه إلا ما اقتضت حكمته أن يطلعوا عليه؛ بخبر منه في كتابه، أو ببيان من نبيه ﷺ.

إِنَّ الْإِدْرَاكَ الْمُسْتَقْبَلِي ظَنِّي،
وَلَيْسَ قَطْعِيًّا؛ لِجَوَازِ تَخَلُّفِ
الْأَسْبَابِ، أَوْ الْخَطَأِ فِي التَّقْدِيرِ
مَثَلًا، وَلِذَا لَا يَجْرُمُ بِهِ الْإِنْسَانُ

ولكن البشرية في غيابها عن

سبيل الحق، لبس عليها الشيطان، وسلك بها في سبيل إشباع غريزة حب الاطلاع على المغيبات مسالك شتى، وأغراها بأنواع من المصادر لاستكشاف المستقبل، وقد جرت سنة الله تعالى أن من تكلفها ظلم نفسه، وبخس من التوفيق حظّه، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره، وجرت سنة الله تعالى وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم

والغيب المقيّد: ما علمه بعض المخلوقات، من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمّن غاب عنه، ليس غيباً عمّن شهدوه، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا. (٥)

وما يقع في المستقبل مما لا يرتبط بالتجربة والمقايسة ونحوها من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]». (٦) وقال قتادة: أشياء استأثر الله بهن فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار، ﴿وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه. (٧)

التطلع إلى المستقبل:

إن من الفطر المركوزة في بني البشر تطلّعهم إلى معرفة المجهول، وتشوقهم إلى معرفة المستقبل، وتشوقهم إلى إدراك ما سيصير إليه حالهم، فليس من البشر أحدًا إلا وهو يتطلع ويشتاق إلى معرفة ماذا

النظرية والفكر

تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بواقعه» (١٢).

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحذرون رواية الأخبار الإسرائيلية، وينهون عن سؤال أهل الكتاب عن شيء مما عندهم من الأخبار، قال ابن عباس: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضاً لم يُسب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً» (١٣).

٢- الاعتماد على النجوم وسيرها في معرفة ما يكون في المستقبل مما يتعلق بالإنسان حياة وموتاً وسعداً ونحساً، ونحو ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد» (١٤).

قال ابن تيمية: «فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَحَ﴾ [سورة طه: ٦٩]. (١٥)

٣- الاعتماد على الكتب القديمة المزعوم تضمنها لعلم الغيب أو لشفرات تدلّ عليه وكذلك الأحاديث الضعيفة والباطلة؛ كالجداول والجفر والجامعة، وغيرها من الكتب التي يدّعي أصحابها أنها تضمنت خبر ما سيكون إلى قيام الساعة صراحة أو ترميزاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ونحن نعلم أنه أضيف إلى جعفر الصادق من جنس هذه الأمور ما يعلم كل عالم بحال جعفر - رضي الله عنه - أن ذلك كذب عليه، والعلماء يعلمون أنه بريء من ذلك كله... وكذلك نسب إليه «الجداول» الذي بنى عليه الضلال طائفة من الرافضة، وهو كذب مفتعل عليه.. وكذلك أضيف إليه كتاب «الجفر، والبطاقة، والهفت»، وكل ذلك كذب عليه باتفاق أهل العلم به» (١٦).

والجفر: ولد الماعز، يزعمون أنه كتب ذلك في جلده (١٧).

صواباً، ولا يعرف هذا إلا من أطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال وضروب المحال وفنون الوسواس والهوى والهوس والخطب، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، فالحمد لله الذي منّ على المؤمنين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. (٩)

الطرق المسلوكة لمعرفة المستقبل:

تنوعت مصادر التعرف على المستقبل واستكشافه التي سلكها البشر إلى أنواع وطرق متعددة يصعب حصرها وتعدادها، إلا أننا يمكننا أن نفرزها باعتبار صحة الاستدلال بها، وسلامة استعمالها لبلوغ المقصود منها، إلى طريقتين إجماليتين:

الطريق الأولى: الاعتماد على الطرق غير الصحيحة، وهي الطرق غير المشروعة، والتي لا يظهر لها ارتباط بالإدراك المحسوس أو المعقول، بل مبناهما على الحدس والتخمين، أو استعمال الجن ونحو ذلك. ومنها:

١- الاعتماد على الكتب السابقة: فإن الكتب السابقة، وإن كانت مأخوذة عن الأنبياء؛ فمن المعلوم قطعاً أن أهل الكتاب حَرَفُوا وبتَّلُوا وكذبوا وكتبوا. ولذا فما كان في هذه الكتب من الأخبار فإنه إن وافق ما جاء في شرعنا قبلناه، وإن خالفه علمنا أنه كذب، وإن لم يتضمن موافقة ولا مخالفة فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه. (١٠)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم». (١١)

قال ابن حجر: «أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً؛ لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا في الحرج، ولم يُرد النهي عن

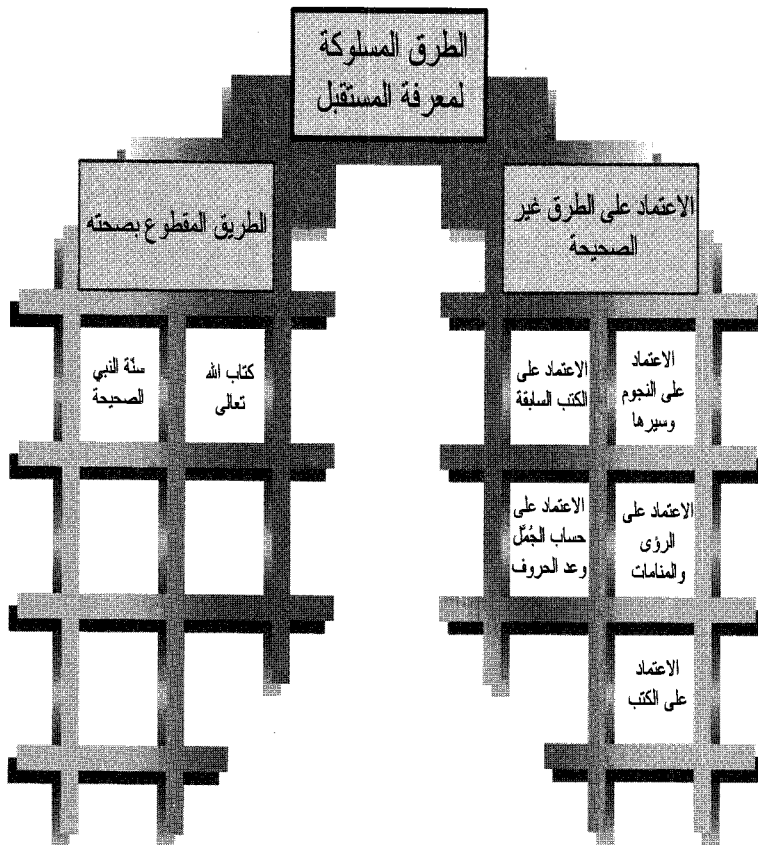
وذلك بحساب عدد حروف، أو كلمات لفظ أو ألفاظ في القرآن الكريم، أو في الكتب السابقة، أو اسم الشخص وغير ذلك. (٢٠)

فمن ذلك الاستدلال على معرفة المَدَد وأوقات الحوادث والفتن من الحروف المقطعة أول السور. (٢١)

ومنها استدلال اليهود على مدة بقاء ملك الإسلام وأمه من ذلك، وأنه سبعمائة وأربع سنين. (٢٢)

وعلم الجفر والجامعة هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان، وما يكون كليًا وجزئيًا.

وقد ادّعى طائفة أنه يُستخرج منهما بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظٌ تدل على ما في لوح القضاء والقدر، وقد اختلف الناس في طرق استخراج وتحليل رموزه، وفك أسراره على طرق كثيرة، قيل: كلها توصل إلى المطلوب! (١٨)



وذلك لأن اليهود يستعملون ذلك في معرفة المستقبل بقراءات خاصة للأسفار القديمة في علم يسمّى (الكبالة).

ومثل هذا ما صنع بعضهم من أنّ الرقم (١٩) يستفاد منه من خلال حساب حروف وكلمات في

٤- الاعتماد على حساب الجُمَّل (١٩) وعد الحروف:

وهو يعتمد على ما يسمّى بأسرار الحروف، ويكثر استعماله لدى المتصوّفة، وكان أصله من علوم اليهود.

النظرية والفكر

كالضرب بالرمل والحصى والشعير، والقرعة باليد ونحو ذلك، مما هو من جنس الاستقسام بالأزلام؛ فإنهم يطلبون علم الحوادث بما يفعلونه من هذا الاستقسام بها». (٢٧)

ولذا يصدر عن هذه الطرق: كثير من الخرافات والأساطير والاعتقادات الفاسدة والأوهام، كما يشاهد عند من يعتمد على مثل: تنبؤات نوستراداموس، ورؤيا كوهين اللاهوتي ونحوها.

الطريق الثاني: الطريق المقطوع بصحته:

وهو ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن أوحى إلى نبيه بخر ما يحتاج إليه مما سيكون؛ إما على سبيل الإجمال أو التفصيل، وكل ما أخبر به عليه الصلاة والسلام فلا مجال للشك فيه، فإنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]. وهذا من تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله.

والوارد عن النبي ﷺ من أمور المستقبل شيء كثير. (٢٨)

وقد نقل الصحابة إخبار النبي ﷺ لهم بذلك. فمن ذلك ما رواه عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلى رسول الله ﷺ

يومًا الفجر، وصعد على المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس،

فأخبرنا بما كان، وبما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا». (٢٩)

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فما ترك شيئًا يكون من مقامه ذلك

القرآن وأرقام الآيات إلى معرفة (موعد نهاية العالم وقيام الساعة). (٢٣)

وهذه الطرق المستعملة مبناها التلاعب والتحكم والدجل؛ ولذا فإن مستعملها «لا تزال أحكامهم كاذبة متهافتة، حتى إن كبير الفلاسفة: يعقوب بن إسحاق الكندي (٢٤) عمل تسييرًا لهذه الملة، زعم أنها تنقضي عام ثلاثة وتسعين وستمئة، وأخذ ذلك منه من أخرج (مخرج الاستخراج) من حروف كلام ظهر في الكشف لبعض من أعاده... فهذه الأمور التي توجد في ضلال اليهود والنصارى، وضلال المشركين والصابئين من المتفلسفة والمنجمين: مشتملة من الباطل على ما لا يعلمه إلا الله». (٢٥)

٥- الاعتماد على الرؤى والمنامات:

وهي طرق قد تستعمل لاستشراف المستقبل، وهي وإن كانت قد يقبل بها مبدئيًا، لكن لا يسلم بها واقعيًا؛ لما يرد عليها من الاحتمالات، ولما قد يعرض في تعبيرها من تخليطات، ولذا فليست طريقًا يعتمد عليه. (٢٦)

إن كل هذه الطرق المذكورة طرق باطلة ومصادر لا تُعتمد في استكشاف المستقبل، وتبين الغيب، وإن كان لا يجزم بكذبها أيضًا، إلا إذا وجد ما يكذبها.

وهذه الطرق الباطلة يستغلها الكذابون لعلمهم لتسوّف الناس لذلك؛ كما «ينوعون طرق الكذب في ذلك، ويتعمدون الكذب فيه تارة

بالإحالة على الحركات والأشكال

الجسمانية من حركات الأفلاك والكواكب، والشهب والرعود، والبروق والرياح، وغير ذلك، وتارة بما يحدثونه هم من الحركات والأشكال،

من رحمة الله تعالى بعباده أن أوحى إلى نبيه بخر ما يحتاج إليه مما سيكون؛ إما على سبيل الإجمال أو التفصيل

الدراسات والمقالات والمؤلفات، وبرز فيها عدد من المتخصصين.

وقد تأخر العالم الإسلامي في هذا المجال فلم تُعرف فيه هذا النوع من الدراسات إلا قبل ثلاثين عامًا تقريبًا. (٣٢)

ويلاحظ المتتبع لحركة الدراسات المستقبلية أنّ الاهتمام بها قد بدأ بالمؤسسات العسكرية وشؤون الحرب والأمن، ثم انضم إليها بعد ذلك عالم المال ورجال الأعمال، ثم مجالات الصناعة؛ ليظهر بعد ذلك الاهتمام بالمجتمعات قيمًا وثقافة. (٣٣)

تعريف الدراسات المستقبلية (Future Studies):

دراسة المستقبل قد تكون للأفراد والمؤسسات الصغرى، كدراسات الجدوى الاقتصادية مثلاً، والتي يتم فيها إجراء مجموعة من الاختبارات والتقديرات للحكم على صلاحية مشروع استثماري مقترح، أو قرار استثماري.

وكدراسة الاحتياجات الخدمية -مثلاً- لبلد أو قطاع محدد، وكدراسة الخطط العسكرية والأمنية في معركة معينة مثلاً.

وكلها دراسات تتناول أمورًا تحصل في المستقبل، ولكنها ليست موطن بحثنا، بل يختص بحثنا بدراسة مستقبل المجتمعات. (٣٤)

ونحتاج لتعريف الدراسات المستقبلية إلى تحليل مفرداته أولاً، ثم تعريفه جملة بعد ذلك.

فالدراصة: هي فهم الشيء، وتعاهده حتى يسهل ويتمهد. (٣٥)

والمستقبل: هو ما واجهك، فما تستقبله من أيام هو مستقبلك؛ لأنك تواجهه. (٣٦)

ويسمى كل ما يأتي من الزمان: بالمستقبل. (٣٧)

إلى قيام الساعة إلا حدّته، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنّه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه، فأذكر، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه». (٣٠)

وهذه الأخبار الواردة عن نبينا عليه الصلاة والسلام بالأسانيد الصحيحة مصدر نؤمّن بصدقه وصحته لمعرفة الغيب واستشراف المستقبل، لكنه خاضع في فهمه لقواعد فهم النصوص الشرعية، لا لتلاعب الأهواء والظنون.

المبحث الأول

مفهوم الدراسات المستقبلية:

تقدّم أنّفاً أن الإنسان فتنّ عبر تاريخه الطويل بالتطلّع إلى المستقبل، وحاول ذلك بوسائل متنوّعة متعدّدة، وأنّ سعيه هذا سعي يتوافق مع الغريزة الإنسانية، ومع طبيعة الأشياء من حوله، والتي تحثّم عليه أن يتطلّع لمستقبله، باذلاً جهده في تطلّب مصالحه، والتحرز من الشرور التي قد تعرض له.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ونتيجة لسرعة التغيّر في هذه الحياة المعاصرة، واشتداد التنافس بين المجتمعات، ظهرت بدايات لدراسة المستقبل على أسس خاصّة، وكانت تهدف للسيطرة على الصّور الممكنة للمستقبل، عن طريق توجيهها، باتخاذ الأساليب الملائمة لتحفيز الاحتمالات المرغوبة، ومنع أو عرقلة الاحتمالات غير المرغوب فيها. (٣١)

وبمرور الوقت تزايد الاهتمام بهذه الدراسات فتحوّلت من مجرد فروض واجتهادات فكرية إلى جهود علمية منظمة، حتى أنشئت من أجلها معاهد ومؤسسات علمية، ووضعت فيها عشرات

من ذلك كله إلى استشراف المستقبل، وصولاً إلى طرح رؤية له، تتضمن توقعات يُحتمل حدوثها وبدائل وخيارات وأحلاماً يُجرى التطلع لتحقيقها. (٤١)

«فلاستشراف إذًا ليس مجرد رسم تخیلات مستقبلية يضيف بها الإنسان إلى معارفه، ويرضي بها النزعة البشرية التوّاقّة إلى كشف ستر الغيب، وهو لا يقف عند حد إعمال الفكر والخيال، واستخدام الحساب والقياس لبرامج المستقبل وآفاقه كافة، وبلورة نقاط الالتقاء التي تميز بين الأساسي والثانوي، والتي تتشغل ما هو علمي مما هو دون ذلك، والتي تغلب نظرات تتسم بالشمول والإحاطة على تلك التي تتصف بالجزئية ويشوبها القصور... إن الاستشراف يتجاوز ذلك إلى تناول مشاهد المستقبل وتوقعاته المطروحة في أذهاننا، وإلى إعادة قراءة الواقع بكل جوانبه: الحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، بالقدر الذي يخدم إمكانية التعرف على ما يقدر أنه «وضع مرغوب»، وعلى آليات الوصول إلى ذلك». (٤٢)

وهذه الدراسات قد تكون بهدف توعية المجتمع وتوجيهه، وذلك بإطلاع القوى الفاعلة في المجتمع على متطلبات تحقيق إحدى الصور المأمولة فيه. وقد تكون مقدمة لجهة رسمية لتبني على ضوءها قرارات وتوجيهات معينة.

تسميات الدراسات المستقبلية:

لما كانت بداية هذه الدراسات غير عربية فإنها تُرجمت بعدة ترجمات تحاول أن تأتي باللفظ المعبر عن المراد بدقة.

والاسم الذي شاع لهذه الدراسات في اللغة الإنجليزية هو: «Futurology» وترجمتها النصية: علم المستقبل.

وقد عرّفت هذه الدراسات بعدة تعريفات تدور حول كونها محاولة للتنبؤ بما ستكون عليه حالة المجتمع الإنساني، ومصير الإنسان فيه، عن طريق دراسة الماضي وتناج الحاضر، والظواهر والبدائل الممكنة.

وعرفت بأنها: مجموعة من الدراسات والبحوث التي تهدف إلى تحديد اتجاهات الأحداث، وتحليل مختلف المتغيرات التي يمكن أن تؤثر في إيجاد هذه الاتجاهات، أو حركة مسارها. (٣٨)

وعرفت بأنها: اجتهاد علمي منظم، يرمي إلى صوغ مجموعة من التنبؤات المشروطة، والتي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع، أو مجموعة من المجتمعات، وعبر فترة مقبلة تمتد قليلاً لأبعد من عشرين عامًا، وتنطلق من بعض الافتراضات حول الماضي والحاضر، ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع، ونوعية وحجم التغيرات الأساسية الواجب حدوثها في مجتمع ما، حتى يتشكّل مستقبله على نحو معين منشود. (٣٩)

وقد عرّفها معجم أكسفورد الموجز على أنّها: التكهّن المُنّهج للمستقبل، وخاصّة من منطلق الاتجاهات الحالية في المجتمع.

وعرفت بأنها: العلم الخاص بالتنبؤ بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المستقبل، ويستند في دراستها على الاستقراء والاستنباط بجمع الوقائع المتعددة ليستخلص منها المبادئ التي تحكمها، ويخرج بعد ذلك بالصور التي سيكون عليها المجتمع في الأجيال القادمة. (٤٠)

كما عرّفت بأنها: محاولة علمية متكامل فيها الدراسات؛ لمعرفة جوانب صورة الحاضر وتحليلها، والتعرّف على مجرى الحركة التاريخية من خلال دراسة الماضي، وملاحظة سنن الكون، والانطلاق

ويطلق على هذين النوعين: الدراسات الاستكشافية، أو الاستطلاعية.

أما المستقبل المرغوب فيه: فهو المصير الذي تأمل الأمة أن تصير إليه بعد إحداث تغييرات في ظروف الواقع ومعطياته العامة.

والبحث فيه ينطلق من ترتيب الأهداف الأساسية؛ وفقاً لأهميتها ترتيباً تسلسلياً، وهنا تتدخل القيم والاعتقادات في تحديدها، ثم تحدد الأعمال المطلوبة لتحقيق كل هذه الأهداف.

ويطلق عليها الدراسات الاستهدافية أو المعيارية. (٤٥)

ولكل نوع من هذه الأنواع أساليب في البحث توصل له، فبينما تبدأ الدراسة في البحوث الاستطلاعية، أو الاستكشافية من الحاضر؛ لتصوغ منه صورة المستقبل المتوقعة أو الممكن تحقيقها، نجد أنّ البحوث المعيارية أو الاستهدافية تبدأ أولاً برسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه، ومنها تنتقل إلى الحاضر لتحديد التغييرات المطلوبة.

المبحث الثاني

مشروعية الدراسات المستقبلية:

الدراسات المستقبلية علم يعتمد الواقع، ويتعامل مع المعلومات في إطارٍ منهجيٍّ علميٍّ، فليست هروباً من الواقع للخوض في واقعٍ محتملٍ، بل هي دراسة تتفادي الأزمات وتقدم الحلول، وإذا لم تهتم الأمة بقضايا المستقبل، ولم ترسم المسار الصائب الذي عليها سلوكه فإنها قد جانبت الحكمة والاتزان ووقعت في ضرب من الخلل.

ويتأكد هذا عندما نعلم أنّ الأحداث والوقائع التي يفاجأ بها المجتمع العالمي ليست أموراً طارئة أو مبهمة، مهما كانت مجالاتها وغرايتها، وإنما هي

وقد انتقد بعض الباحثين تسميته بالعلم، كما انتقد ترجمة هذا الفن إلى الدراسات المستقبلية، ويبنّ تعدد المصطلحات العربية الدالة على هذا المفهوم، كاستشراف المستقبل، وكالدراسات الارتدادية، (٤٣) وتشوّف المستقبل، ورؤية المستقبل، وصنع المستقبل.

وحاول بعض الباحثين أن يجعل الدراسة المستقبلية على مراحل، ويطلق على كل مرحلة منها لقباً من الألقاب السابقة؛ أخذاً من دلالاته اللغوية. (٤٤)

ومهما يكن فإن تسمية هذا النوع من البحوث بالدراسات المستقبلية صار من أشهر الألقاب عليه، ولا يرد عليه محذور إطلاق العلم على ما لا يمكن العلم به قطعاً.

حاول بعض الباحثين أن يجعل الدراسة المستقبلية على مراحل، ويطلق على كل مرحلة منها لقباً من الألقاب السابقة أخذاً من دلالاته اللغوية

أنواع الدراسات المستقبلية:

يميّز الباحثون في مجال الدراسات المستقبلية بين ثلاث صور من المستقبل: مستقبل متوقع، ومستقبل ممكن، ومستقبل مرغوب فيه.

فالمستقبل المتوقع: هو المصير الذي يُتوقع أن يؤول إليه واقع معين؛ في ظل ظروف ومعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

وفيه يكون سؤال الباحث: ما هي صورة المستقبل المتوقع؟ أو: أين سنذهب؟

والبحث فيه ودراسته يعتمد الاستقراء؛ إذ يعتمد الباحث إلى جمع البيانات والمعلومات وتحليل اتجاهات المتغيرات ونحوها؛ ليتوصل بها إلى تتبؤات مستقبلية باستعمال التحليل الإحصائي وتكوين النماذج.

والمستقبل الممكن: هو المصير الذي يمكن أن يؤول إليه هذا الواقع في حال التدخل لتغيير الظروف والمعطيات التي يعيشها. وهو يمثل البدائل التي يمكن حصولها في المستقبل في حال تدخل معين. وهو كذلك يعتمد الاستقراء.

مستقبلًا وعده الله به، وجعل الإيمان به ركنًا من أركان الإيمان، لا يصح إيمانه بدون، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]

والقرآن الكريم مليء بالدعوة إلى التفكر في الأرض والسماء، والأحياء والأنفس ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَآذًا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]

ومن هذا التفكر والنظر في سنن الله تعالى في الخلق، يستفيد الإنسان أن معظم التحولات التي تتم في هذه الحياة قائمة على معطيات الماضي والحاضر، وهذا يدعو لدراستها والاستعداد لها. والله تعالى أمر بالاستعداد لما سيأتي ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تَرَاهُمْ بِهٖ عَدُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّا لَكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

[الأنفال: ٦٠]

ودراسة المستقبل ليست من أجل رؤيته بصورة محددة ودقيقة، فهذا مما استأثر الله بعلمه، وإنما هو لأجل تقديم احتمالات مشروطة يستفيد منها الإنسان؛ «لأنه إذا علم ما يكون من حادث في المستقبل أو كائن بعد الأيام، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها، لا بأن يمنع ويدفع كونها، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها، كما يفعل سائر الناس، حين يستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار، ولحر الصيف بأخذ الكِنِّ،

أحداث متصلة الحلقات يستوعب ترابطها من لديه القدرة على الربط والاستنباط. وإذا تأملنا السعي الحثيث والتنافس بين الأمم في تحقيق أهدافها، والسيطرة على الآخرين وفرض نفوذها وتوجهاتها الفكرية وأنماطها الاجتماعية؛ أدركنا أهمية رسم خطط المواجهة، وطرق النهوض. ويكفي الاطلاع على شبكة المعلومات (الإنترنت) للتأكد من الانتشار الواسع للمراكز والمراصد والمعاهد، والمؤسسات التي تُعنى بالدراسات المستقبلية، بل إن دول العالم تعتمد على هذا النوع من الدراسات في وضع خططها في مختلف القطاعات، وتحديد علاقاتها مع مختلف الدول وكيفية التعامل معها. (٤٦)

ومع أن الدراسات المستقبلية ليست إلا علمًا ظنيًا، محتملاً الصواب والخطأ، فإنها مع ذلك مفيدة حتى في حال خطئها؛ ولذا يقول أحد رواد هذه الدراسات: «في معالجة أمور المستقبل.. فإن النظريات لا تحتاج لأن تكون صحيحة مائة في المائة؛ لتكون مفيدة إلى أبعد الحدود، حتى الأخطاء لها فوائدها... إن الخرائط التي رسمها للعالم جغرافيو العصور الوسطى كانت أبعد ما تكون عن الدقة، وكانت مليئة بالأخطاء.. ولكن من دونها لم يكن من الممكن لعظماء المكتشفين أن يكتشفوا الدنيا الجديدة، بل لم يكن من الممكن أن تُرسم الخرائط الحديثة والأكثر دقة». (٤٧)

وإذا أردنا بيان مشروعية الدراسات المستقبلية وحكمها التكليفي؛ فإننا نحتاج لتقسيمها كما يلي:

أولاً: نظرة الإسلام للمستقبل:

لا شك أن الإسلام أولى المستقبل عناية بارزة جدًّا، بل تجاوز هذه الدنيا إلى ما بعدها، فالمسلم ينتظر جزاء

ولسني الغلاء بالادخار، ولمواضع الفتن بالهرب منها، والبعد عنها وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم وعليهم» (٤٨)

ولست هنا بصدد الرد على أعداء الدين الذين يروجون لمقالة أنّ الحضارة الإسلامية لا اعتبارها حضارة دينية، فهي حضارة «ماضوية» ليست قادرة على إرساء قواعد علمية لدراسة المستقبل؛ لأن بطلانه ظاهر لكل

منصف درس حضارية الإسلام وعقيدته، لكنني سأسرد أمثلة قليلة تبين عناية الإسلام بالمستقبل واهتمامه به، وسأجملها في الأنواع التالية، والتي يندرج تحت كل نوع منها أدلة وشواهد:

١- ما ورد من الاعتبار بالسنن الكونية لمعرفة المستقبل:

ومن أمثلة هذا الاعتبار ما وقع في أول البعثة فإنّ النبي ﷺ رجع لخديجة بعدما جاءه المَلَكُ يرجف فؤاده، وأخبرها خبر ما حصل له، فقالت خديجة رضي الله عنها: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرّحِم. وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق؛ فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وكان امرءاً تنصّر في الجاهليّة، وكان يكتب الكتاب العبراني، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ بمثل ما جئت به إلا عودي» (٤٩)

فورقة قد استدل بالسنن الكونية التي لا تتبدّل

على إيذاء المبلّغ لدين الله والناصح للناس.

ومثله ما ورد في قصّة الغلام الذي انتدبه ملك ممن كان قبلنا ليعلمه الساحر السحر، وكان على طريقه إذا سلك راهب، فلما قعد للراهب وسمع منه أعجبه،

فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب

وقعد إليه، فبينما هو كذلك إذ أتى

على دابة عظيمة قد حبست الناس،

فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم

الراهب: فأخذ حجراً فقال: اللهم

إن كان أمر الراهب أحب إليك

من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس،

فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره،

فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد

بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت

فلا تدلّ عليّ. (٥٠)

قال القرطبي في شرحه للحديث: «نبينا ﷺ ذكر

هذا الحديث كله في معرض الثناء على الراهب

والغلام على جهة الاستحسان؛ لما صدر عنهما،

فلو كان شيء مما صدر عنهما من أفعالهما محرماً أو

غير جائز في شرع لبيّنه لأمته، ولا استثناه من جملة ما

صدر عنهما، ولم يفعل ذلك، فكلّ ما أخبر به عنهما

حجّة ومسوّغ الفعل» (٥١)

٢- اجتهادات الصحابة المبينة على استشراف

المستقبل:

ومن أمثلة هذا أنه لما فتح المسلمون أرض

السواد (٥٢) أراد عمر رضي الله عنه أن يقسمها بين

الفاحين غنيمّة لهم، كما قسم النبي ﷺ خيبر لما

فتحت، باعتبارها قد فتحت عنوة، ثم إنه رأى أن قسمة

تلك الأراضي العظيمة وما يأتي بعدها والتي تُدرّ دخلاً

عظيماً بخلاف مصلحة المسلمين في المستقبل؛ إذ

يفضي ذلك إلى انتفاع قلة من المسلمين بها - وهم

القدر المحتوم باختيار أحد الممكنات، فإن للواقع الواحد مستقبلات ممكنة، ومثال هذا قصة يوسف عليه السلام، فإن رؤيا الملك للبقرات السمان والسنبلات الخضرة أولها بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع السمان بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة. (٥٦)

هذا تعبير الرؤيا ومضمونها أن الملك سيواجه مستقبلًا يهلك فيه الناس جوعًا، فأمامه خياران الأول: أن ينتظر حصول ذلك، والثاني: أن يتخذ تدابير لهذا القحط المقبل.

فكان موقف يوسف عليه السلام تحديد التدابير لمواجهة القحط بترك ما حُصِد في سنين الخصب في سنبله؛ لئلا يأكله السوس، وهذه نصيحة منه وليست من تعبير الرؤيا. (٥٧)

فهنا تدخل يوسف عليه السلام لاختيار بديل مستقبلي، وهذا نوع من استشراف المستقبل، بتحديد بديل مناسب يسعى للاستعداد له.

٤- أن باب سد الذرائع مبناه التطلع للمستقبل: وحقبة سد الذرائع تحريم أمر مباح لما يفضي إليه من مفسدة (٥٨)، والإفشاء أمر غيبي، وقد لا يعلم تحققه قطعًا، وإنما هو نظر لمآلات الأمور بحسب العادة الجارية، وهذا نوع من الاجتهاد المبني على التطلع لما سيكون.

ويقرب من هذا ما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم، لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم». (٥٩)

فقد بين النبي ﷺ أن تركه لهذا العمل، للمفاسد التي تترتب عليه، فاختر إبقاء الكعبة دون تغييرها،

الفاتحون وذرياتهم - ويبقى من يأتي من المسلمين معدمًا، فأوقفها وضرب عليها الخراج ليكون موردًا من موارد بيت المال، ووافقه على ذلك علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

روى البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها كما قسم النبي ﷺ خيبر». (٥٣)

وروى أبو عبيد قال: لما فتح المسلمون السواد قالوا لعمر: اقسمة بيننا فإننا افتتحناه عنوة قال: فأبى، وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ وقال:

تريدون أن يأتي آخر الناس ليس لهم شيء؟ (٥٤)

قال ابن حجر: «عمر رضي الله عنه.. عارض عنده حسن الظن لآخر المسلمين فيما يتعلّق بالأرض خاصة، فوقفها

على المسلمين وضرب عليها الخراج الذي يجمع مصلحتهم.. وروى أبو عبيد أن عمر أراد قسمة الأرض، فقال معاذ: إن قسمتها صار الرّيع العظيم في أيدي القوم فيتبدرون - أي يهلكون - فيصير إلى الرجل الواحد أو المرأة، ويأتي القوم يسدون من الإسلام مسدًا فلا يجدون شيئًا، فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم، فاقتضى رأي عمر تأخير قسم الأرض، وضرب الخراج عليها لمن يجيء بعدهم». (٥٥)

وهذا الفعل من عمر رضي الله عنه فيه استشراف ظاهر لمستقبل الأمة، ورعاية لحق الأجيال القادمة في ثرواتها بعدم استنزافها من قبل أول جيل.

٣- ما ورد من الاستعداد لما عُلم حصوله بالرؤى الصادقة:

وهذا يفيدنا بتحديد المواقف المطلوبة لمواجهة

نصّ شرعيّ، كتحرير المصاحف، ووضع الديوان، والسجن وغير ذلك. (٦٢)

ثانياً: الحكم التكليفي لدراسات المستقبل:

تبيّن مما تقدّم أنّ النظر للمستقبل ودراسته ليس أمراً غريباً عن الإسلام، كما ظهر مما قدمناه أنّ الدراسة المستقبلية أمر مشروع في الجملة. وكل أمر مشروع فإنّه يتفاوت حكمه التكليفي بحسب الحاجة إليه. والظاهر لي أن حكم الدراسات المستقبلية في هذا العصر أنّه: فرض كفاية، كسائر ما تحتاجه الأمة.

ومعنى كونه فرض كفاية أنّه يجب على الدولة المسلمة إعداد دراسات مستقبلية، أو تكليف جهة موثوقة تتولاها؛ بحيث تحصل الكفاية بعملها، كما يجب على الأمة بمجموعها إعداد دراسات مستقبلية توجه القوى الفاعلة فيها لما يجب عليها، وبذل جهدها في إعداد الكوادر القادرة على ذلك. فإنّ فرض الكفاية هو كل ما يكون المقصود منه حاصلًا بفعل البعض، وهو منوط بغلبة الظن، فإن غلب على ظن المكلف أنّ غيره لم يقم به، وجب عليه أن يفعله، وإن غلب على ظنه قيام غيره بذلك الفعل سقط عنه التكليف. (٦٣)

ويدل على هذا الحكم ما يلي:

١- أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب: ولا إشكال أنّ في الدراسات المستقبلية حماية للأمة، وحسن تديير لها، وإعداد العدة لمواجهة ما تحتاجه، وكل واحد منها واجب بنفسه، ولا يتم على أحسن حال إلا بمثل هذه الدراسات. وإذا علمنا أنّ «الأمة مُجمعة على إطلاق القول بوجود تحصيل ما أوجبه الشارع، وتحصيله إنّما

وهذا تدخل في اختيار بديل مستقبلي مناسب بعد دراسة المستقبلات الممكنة.

٥- إخبار الشارع عن المستقبل وما يجب فيه تنبيه على استشرافه والاستعداد له:

فقد جاء في الشرع أنواع كثيرة من الإخبار عن المستقبل؛ كأن عثمان رضي الله عنه تصيبه بلوى، وأن عماراً رضي الله عنه تقتله الفئة الباغية، وكيف يفعل الدجال في آخر الزمان، وأنه في أيامه تختلف بعض الأيام في طولها، وأخبرهم بكيفية صلاتهم إذا أدركوا ذلك الأوان إلى غير ذلك من الأخبار.

فهذه أخبار كثيرة صادقة لورودها على لسان الشارع، وهي ترسم مستقبلاً معيناً، وتنبئ بحصول أمور خاصة، وإنما جاءت بذلك ليستعد المؤمن لها بما يجب عليه في حينها، مع أن بعضها تضمن -أيضاً- واجب الوقت، وهذا من رحمة الله بعباده.

٦- أنّ هذه الدراسات تتضمن مصلحة، والشرع يأمر بكل ما فيه مصلحة:

فالشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقول الجامع أنّ الشريعة لا تهمل مصلحة قط». (٦٠)

قال ابن القيم: «ومن له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالاتها، وأنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها.. قال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي..». (٦١)

ومن تأمل كثيراً من أفعال الصحابة وجدوا عملت لمصلحة الأمة، ولم يكن في خصوصها

النظرية والفكر

للحج أفتاه بحرمة خروجه له، وقال له: «أجمع المسلمون قاطبة على أن من غلب على الظن إفضاء خروجه إلى الحج إلى تعرضه، أو تعرض طوائف من المسلمين للغرر والخطر لم يجز له أن يغزّر بنفسه وبذويه». (٦٨)

٣- أنّ فيها مصلحة مهمّة، والشرع جاء بتحصيل المصالح:

فالله تعالى إنّما بعث الرُّسُلَ لتحصيل مصالح العباد فإذا وجدنا مصلحةً، غلب على الظن أنها مطلوبة شرعاً؛ لكونها فرداً من أفرادها، والعمل بالظن المعتبر واجب.

قال العز بن عبد السلام: «إذا عظمت المصلحة أوجبها الرب في كل شريعة، وكذلك إذا عظمت المفسدة حرّمها في كل شريعة». (٦٩)

٤- أنّ شواهد الشرع -مما سبق عرضه- تدل على الاهتمام بمثل هذه الدراسات، ورعايتها، وقد ذكر أهل العلم أنّ الاستعداد لما غلب على الظن حصوله مثاب عليه، قال ابن تيمية عن العلم بالكسوف والخسوف بالحساب: «وإذا جَوَّزَ الإنسان صدق المخبر بذلك، أو غلب على ظنّه، فنوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند ذلك، واستعد ذلك الوقت لرؤية ذلك، كان هذا من باب المسارعة إلى طاعة الله وعبادته». (٧٠)

فكيف بالاستعداد للواجبات من تحقيق المصالح المهمة، ودفع المفسدات الكبيرة، والله أعلم.

هو بتعاطي الأمور الممكنة من الإتيان به» (٦٤) اتضح جلياً وجوب تحصيل هذه الدراسات.

قال ابن تيمية رحمه الله: «.. يجب السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه من أمور الولايات والإمارات ونحوها؛ كما يجب على المعسر السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يُطلب منه إلا ما يقدر عليه، وكما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز، فإنّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب». (٦٥)

ولما بين الجويني ما يجب على السولة من النظر في أمور الرعايا، والاطلاع على الغوامض والخفايا، ووجوب التيقظ والخبرة قال: «وليس من الحزم الثقة

بمواتة الأقدار، والاستئمان إلى مدار الفلك الدّوار، فقد يثور المحذور من مكمّنه، وتؤتّى الوادع الآمن من مأمّنه». (٦٦)

٢- أنّ في هذه الدراسات دفع ضرر عن الأئمة، ودفع الضرر واجب:

ومعلوم أنّ من أصول الإسلام ومقرراته وقواعده: دفع الضرر، وقد قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». (٦٧)، ويدخل في عموم هذا اللفظ أنّ الله يوجب على عباده دفع الضرر عن أنفسهم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وهذا من محاسن الشريعة وعدلها وقيامها بمصالح العباد، ولما علم إمام الحرمين بأن نظام الملك خارج

المبحث الثالث

المنهجية الإسلامية للدراسات المستقبلية:

إن الدراسات المستقبلية علم حديث، وهو مع حداثة ينضوي تحت العلوم التي صيغت صياغةً غربية، في إطار ثقافة الغرب العلمانية، ولأجل أن تحقق الأمة المصلحة من هذا العلم فلا بد أن تُصاغ هذه الدراسات على أساس التصور الذي ينسجم مع هوية الأمة وتطلعاتها، كما لا بد أن تنضبط بضوابط الشريعة الإسلامية.

والقاعدة الشرعية أن الحق والحكمة يؤخذان أين وجدا، «فليس في الإسلام معاداة للواقع، أو محاولة للبدء من نقطة الصفر، لذا فإن المنهج الإسلامي الحضاري منهج واقعي، يعتمد على ما أنجزه الآخرون، والإسلام لا يجد غضاضة في الاستفادة من جهود الآخرين وما يتفق مع أساليبه وأدواته وتطلعاته وأصالته الفريدة التي تبني كل ما هو خير، وتقلع عن كل ما فيه دمار وشر.

وأسلمة حصاد الغرب والشرق أفضل من البدء من نقطة الصفر؛ لأن هذا سيمثل تواصلًا مع العصر، ويتجاوز المرحلة البدائية» (٧١)، ما دام أنه غير متعارض مع عقيدة الإسلام ومنهجه. ولما كانت الدراسات المستقبلية تقع في ميدان الثقافة الاجتماعية، فإن دور الشرع فيها هو النقد والتهديب وبيان الضوابط.

وسأحاول في هذه الأوراق القادمة أن أعرض اجتهادات يسيرة في جمع ضوابط وموجهات، أرجو أن تفيد في هذا الباب، أو تقدم - على الأقل - تصورًا لبعض ما ينبغي التنبه له عند إعداد الدراسات المستقبلية وفق التصور الشرعي من خلال ثلاث مجموعات من الضوابط.

أولاً: ضوابط وموجهات للدراسات المستقبلية

عموماً:

وهي ضوابط تشمل جميع أنواع الدراسات المستقبلية، سواء منها الاستطلاعية أو المعيارية.

١- ملاحظة السنن الكونية:

«من حكمة الله تعالى أن أجرى الكون والحياة الإنسانية على سنن ونواميس تتمثل في قوانين مطردة تجعل الأحداث مرتبطة ببعضها ارتباطاً مسبباً أو نتيجة بمقدمة.

وإذا كان الإنسان لم يستطع أن يحقق صور الاستثمار الكثيرة - التي حققها - في مجال الكون إلا بمعرفته بالسنن التي فطر الله الكون عليها - كقوانين الحركة والضوء ونحوها - مما ارتقى بحياته المادية إلى آفاق لم تخطر على بال السابقين؛ وكذلك فإنه لن يرتقي بحياته الإنسانية والحضارية إلا بتعرفه على السنن التي أجرى الله عليها حركة الحياة البشرية من أجل أن يستثمرها، ويحسن التعامل معها لتستقيم حياته». (٧٢)

ولذا فقد أمر الله تعالى بالنظر والتفكير في مسيرة الماضين - وهذا تنبيه على وجود السنن الكونية - وعدم انخرامها، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢]. وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وبالجمله فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمريّة على الأسباب... ومن

النظرية والفكر

القرآن والسُّنَّة، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلُّك على أنَّ القرآن حقٌّ وأنَّ الرسول حقٌّ، وأنَّ الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزيئات ما عرَّفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر». (٧٤)

وبهذه السنن الشرعية، وبميزان الشرع يحكم الإنسان في اختلاف الباحثين في تفسير الظواهر وأسبابها، أو توقع نتائجها ومعطياتها.

الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر.. لكن يبقى عليه.. أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير «ابن القيم»

وهذا من أفراد معنى أن المصدر الأساس للباحث المسلم في كل علم هو الكتاب والسنة، وأنَّ كل مصدر إنما يُعتبر بهما، وإن من أمثلة السنن الشرعية المتعلقة بما نحن فيه ما يلي:

١- أنه لا يمكن حدوث تغيير في أوضاع الأمة العاتية إلا إذا حدث تغيير في أفرادها. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

٢- أنه لا يتم الاستخلاف في الأرض والتمكين للإسلام وحصول الأمن إلا بتحقيق العبودية لله على الوجه المطلوب. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٣- أن عاقبة الظلم ونهايته: الهلاك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

٤- استشراف الانحراف والبعد عن منهج الله تعالى

تفقّه في هذه المسألة، وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتَّكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلًا، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر.. لكن يبقى عليه أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك؛ بما شهدته في العالم وما جرَّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا». (٧٣)

٢- ملاحظة السنن الشرعية:

فقد جاءت النصوص الشرعية مبينة لقوانين ونواميس وقواعد في حياة البشر؛ يجب اعتمادها في كل دراسة مستقبلية، كما يجب أن تُجعل ثوابت الشرع بُعدًا أساسيًا في كل نتيجة يتوصل إليها.

وإذا كنا نطلب أن نلاحظ السنن الربانية الكونية التي يستقرؤها المعبرون في أحوال المجتمعات مع ما قد يعرض لها، فإن السنن الشرعية التي تحمل الصدق المطلق لا بد أن تُعتبر وتُلاحظ، بل وأن تُجعل المعيار الذي يُقاس به صدق استنباط الباحثين للسنن الربانية.

يقول ابن القيم في بقية كلام نقلت بعضه قريبًا: «ومن أنفع ذلك تدبُّر القرآن؛ فإنه كفيْل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفضّلة مبيّنة، ثم السنة فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى تعابن ذلك، فإذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من

٣- لا بُدَّ أن تكون الدراسة مبنية على قرائن ودلائل يمكن الاعتماد عليهما:

وذلك أنها بدون ذلك تكون محض خيال لا اعتبار به، وقد قيل: لا عبرة بالتوهم.

قال الشاطبي: «الاجتهاد في الشريعة ضربان: أحدهما: المعتمد شرعاً، والثاني: غير المعتمد، وهو الصادر عن من ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه؛ لأن حقيقته أنه رأي بمجرد التشهي والأغراض، وخطب في عماية، واتباع للهوى، فكل رأي صدر على هذا الوجه فلا مزية في عدم اعتباره؛ لأنه ضد الحق الذي أنزل الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَن أٰحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. (٧٧)

فإذا أريد قياس ومعرفة مدى قبول دراسة أو رأي فإنه يُنظر إلى ما استند إليه، وما استمد منه، فإن كان دليلاً معتبراً وإلا فلا يُعَبَّأ به.

ومن الدلائل والقرائن: مراعاة إنتاجات العلم، وخصائص الأشياء، وتفاوت القوة والقدرة بينها، ومثل النظر في الدراسات السابقة، ومراعاة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والصحية، والتحالفات العالمية والعلاقات، والظواهر الموجودة في الواقع، ونحو ذلك مما يرصده ويهتم به كثير من خبراء الدراسات المستقبلية المحايدين.

ومن أهم ما يُعتنى به: التثبت من الواقع والتعمق في فهمه، وهذا يمكن إفراده ضابطاً مستقلاً لأهميته، لكنه مندرج في أدلة الدراسة، وهو مما لا بد من توافره فيها.

٤- الحذر عند استعمال المصطلحات:

ويمكن إدراك الخطورة في الدراسات المستقبلية «حين ندرك التسبب الحاصل في هذا المجال من

نتيجته عقوبة وفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٥- أن غزو الأجنب للبلاد ودخولهم إليها يدمر أخلاقها، ويقلب أوضاعها الاجتماعية. قال تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذْآ دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعْرَآهَآ إِذْلَةً﴾ [النمل: ٣٤]. قال ابن عباس: ﴿وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قاله الرب عز وجل. (٧٥)

٦- أن عداة اليهود والنصارى للمسلمين لا يتغير ما داموا على دينهم. قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٧- الأصل أن النصر لا يأتي إلا بعد الابتلاء. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَآسَآءُ وَٱلضَّرَآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ٱلآ إِنَّا نَصْرُ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]

٨- لا بد من بقاء جماعة من المسلمين على الحق، مستمرين على جهاد أعدائهم، ينتصرون عليهم في كل زمن. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك». (٧٦)

٩- أن العاقبة في كل الأحوال والظروف النصر للمتمسكين بشرع الله تعالى، ولو تأخر ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَآ لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

النظرية والفكر

بلغتهم، وترجمها بالعربية، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له، ويكتب له؛ حيث لم يأمن من اليهود عليه.

فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة؛ بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة

والأحكام ما يجب النهي عنه؛ لاشتغال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النفي والإثبات.

فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنة: بحيث يثبت الحق الذي أثبتته الكتاب والسنة، وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو الحق، بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً في الوسائل والمسائل، من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم... فإذا عرف المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة، وعبر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء، وما خالفه. فهذا عظيم المنفعة، وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ﴾

[البقرة: ٢١٣]

وهو مثل الحكم بين سائر الأمم فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم. وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والسنة، ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم، ثم اعتبار هذه المعاني بهذه المعاني ليظهر الموافق والمخالف». (٧٩)

طرف المستعملين لمصطلحات اللغة الأجنبية، المؤدي إلى إسقاط مصطلحات أعجمية لم يدركوا معانيها من جميع أبعادها، وهذه الفوضى ليست فقط فوضى لغوية فقط، ولكنها فلسفية أيضاً». (٧٨)

فالمصطلح كلمة تعبر عن حقيقة اجتماعية وسياسية واقعة؛ إذ مصطلحات كل علم تنتمي إلى أصول يبنيها التي ترعرعت فيها وانطلقت منها.

والأصل في المصطلحات ثلاثة أمور:

- ١- أن تفهم دلالتها بما تتضمنه من فلسفات وحضارات راعية ومغذية لها.
- ٢- وأن تستعمل عوضاً عنها المصطلحات العربية واضحة الدلالة متى أمكن، ولم يحتج لاستعمال تلك المصطلحات.
- ٣- وإذا احتيج لاستعمالها فيجب أن يحدد المراد بالمصطلح قبل استعماله.

قال ابن تيمية: «وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه - إذا احتج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة - كمخاطبة العجم من الروم والفرس، والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسنٌ للحاجة.

وإنما كرهه الأئمة إذا لم يُحتج إليه، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص - وكانت صغيرةً قد ولدت بأرض الحبشة -: «يا أم خالد هذا سنا»، والسنا بلسان الحبشة: الحسن؛ لأنها كانت من أهل هذه اللغة. وكذلك يُترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم

٥- عدم الجزم بنتيجة الدراسة:

ويدل على ذلك قصة غزوة أحد، فإن النبي ﷺ مع أنه استشرف أن بقاءه في المدينة خير له، خرج لقتال المشركين؛ لأنه قد قام في مقابل استشرافه رأي أهل المشورة، الذين أمر بالاستعانة برأيهم ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأنني في درع حصينة، ورأيت بقراً منحرة، فأولت أن الدرع الحصينة: المدينة، وأن البقر هو والله خير. قال فقال لأصحابه: لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم. فقالوا: يا رسول الله والله ما دخل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟ فقال: شأنكم إذا، قال: فليس لأمته. قال: فقالت الأنصار: ردنا على رسول الله ﷺ رأيته، فجاءوا فقالوا: يا نبي الله شأنك إذا. فقال: إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل». (٨٠)

وإن توقف فلم يغلب على ظنه شيء، فلعل الأقرب أنه لا يلزمه العمل بنتيجة الدراسة، ومبنى ذلك أن الأصل إناطة الحكم التكليفي بالوجود، وبغلبة الظن وكلاهما معدوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأصول الشريعة كلها مستقرة على أن الاحتياط ليس بواجب ولا محرم». (٨١)

٧- أن الواجبات الشرعية لا تُترك ولا تُؤخر ولو كان المستقبل سيئاً:

فالمسلم مُطالب بما أوجب الله عليه، مأمور بما جاء في الشرع إيجاباً أو ندباً، سواء كان ينتظر نتيجة لعمله، أو كان المستقبل لا يدعو لمثل هذا العمل. وقد قال النبي ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها». (٨٢)

وهذا متبع في كل أمر لا نص للشرع فيه، ولا إجماع قطعي. فالباحث عليه أن يستند لما يعضد رأيه من دلائل وقرائن وبيانات، أما الجزم بنتيجتها فلا يكون في غير القطعيات المأمور بالجزم بها. أما الطرق الظنية كدراسات المستقبل فإنها وإن جاز استعمالها، إلا أنه لا يجزم بنتيجتها؛ لثلا يخالف المقطوع به من عدم إدراك الغيب. ويقرب من هذا أنه لكونه دليلاً ظنيّاً فإنه -أيضاً لا يسوغ الإلزام به، فكل رأي لم يستند لقاطع في الشريعة فإنه لا يسوغ لقائله أن يستبد به ويحتكر الصواب، بل الخطأ عليه وارد والخلاف سائغ، ولهذا مزيد بيان فيما يلي.

٦- هل يلزم العمل بنتيجة الدراسة؟

الدراسة المستقبلية إنما توجه لأهل الحل والعقد في الأمة، وللقوى الفاعلة في المجتمع، ولا توجه للعامة.

وعليه فإن من يقرأ الدراسة ويطلع على نتائجها مؤهّل للاقتناع بما تضمنته، أو معارضته بما يقتنع به. وإذا اقتنع -من تقع عليه تبعّة الأخذ بالدراسة- بنتيجتها، أو غلب على ظنه صحتها، فإنه يلزمه العمل على وفقها؛ لأنه قد غلب على ظنه صدقها، والإنسان مطالب بالعمل وفق غلبة ظنه، ولو ترك ذلك لكان تاركاً لما يجب عليه.

وأما إن لم يقتنع بها؛ لوجود ما يعارضها معارضة تمنعه من الأخذ بها، أو تجعلها محل شك لديه، فهذا لا حرج عليه في عدم العمل بنتيجة الدراسة؛ لأنها قد قام في مقابلها ما يمنع اعتبارها ظناً يطالب بالعمل على وفقه، كما أنه سترك اجتهاده لاجتهاد غيره، وهذا غير سائغ.

ولذا فإن كل دراسة تجعل من التصور الإسلامي معياراً لها لا بد أن تراعي هذا المنهج؛ فتصون الإنسان عن الوقوع في المعالجات الخاطئة.

فمثلاً نجد أن عددًا ممن فُتِنُوا بالتقدّم والتطور العلمي يدعون أن المستقبل هو لمن له تقدّم واضح في المجال الاقتصادي والميدان التقني، وربما قرروا أن سبب التخلف هو الضعف العلمي؛ دون أن يعالجوا ظواهر النسيج الاجتماعي الذي يتبلور فيه الاقتصاد، ولا المناخ الثقافي الذي تتطور فيه التقنية؛ فيغفلون عن الجانب العقدي الديني، ودور غياب الإيمان والعلم الشرعي والوعي الحضاري في مصادرة واضحة لتوازن الإنسان الفطرية. (٨٤)

٩- الإيمان بالقضاء والقدر:

وهذا ضابط من ضوابط كل ناظر لواقعه أو مستقبله، فإن كل ما في هذا الكون إنما يجري بأمر الله تعالى، فما كان فيه من أمور تجري على خلاف مراد العبد ومصالحته، فإنه بإيمانه بالقضاء والقدر يدرك أن في هذا الابتلاء حكمًا عظيمًا من تمحيص للمؤمنين، ورجوع لله تعالى، ورجوع للنفس بالبحث عن أسباب التقصير لتلافيها، فالله تعالى حكيم عليم.

فليتلمس الباحث النعم التي هي في طي المحن والمصائب؛ في ضوء قوله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- بعضًا من الحكم والغايات التي كانت في وقعة أحد، وما أصاب المسلمين فيها فقال: «فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن ما أصابهم إنما هو بشؤم ذلك؛ فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول

وقد أمرنا بالعمل، ولم يجعل لذلك أمداً إلا بانقضاء الأجل قال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

وإن من الواجب على المسلم أن يدافع قدر الله تعالى بقدره، فإن عمل الأسباب لا يعارض القدر بل هو منه.

ولما خرج عمر رضي الله عنه إلى الشام، فأخبر أن الوباء قد وقع بأرض الشام، فأجمع أمره على أن يرجع بالناس، ولا يقدمهم على الوباء ونادى في الناس: «إني مصبّح على ظهر فأصبحوا عليه. قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله». (٨٣)

فإن تحقق مراده كونه، وإلا فقد حقق ما أمر به شرعًا.

٨- المعرفة بالطبيعة الإنسانية، ومراعاة التوازن في حاجات النفس عند تقديم الحلول ومعالجة المشكلات:

إن كثيرًا ممن تأملوا سبب فشل كثير من النظريات الوضعية في معالجة المشاكل البشرية، وتحقيق التوازن المطلوب للإنسان رُدُّوه إلى الجهل بحقيقة الإنسان وطبيعة تكوينه.

فالله تعالى ركب الإنسان من غرائز تحفز صاحبها لإشباعها؛ كغريزة الأكل والشرب والجماع والتملك، كما ركب فيه نوازع روحية توجه صاحبها نحو الارتقاء بإنسانيته.

والمنهج الذي يلبي تلك الغرائز والنوازع فلا يلغي شيئًا منها، ولا يضحمه على حساب غيره هو الدين الإسلامي؛ لأنه من عند الله تعالى، الذي خلق الإنسان فهو أعلم بما يصلحه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

١٠- أن يكون دافع الدراسة رضى الله

تعالى:

فإن كل عمل لا يكون دافعه الرغبة في رضى الله تعالى ونيل ما عنده لا يصاحبه التوفيق، ولا تقارنه المباركة، ولذا افتتح كثير من المحدثين كتبهم بحديث: «إنما الأعمال بالنيات» (٨٦)؛ تنبيها لهذا المعنى، وهو مراعاة الإخلاص في العلم والعمل.
قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْتُ أَمْثُورًا إِن تَشَاءُ اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٨].

قال ابن القيم: «متى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية، وطهرت الأنفاس من علائق الدنيا؛ أنبتت من كل زوج كريم من علم، وفائدة وتعريف، فاجتنى منها صاحبها: أنواع الطُرف والفوائد». (٨٧)

وإذا شرع في دراسة جاعلاً رضى الله تعالى هدفه، والإخلاص له مقصده تحقق له التوفيق بإذن الله، وإن للالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار بالحاح وتضرع وذلة ومسكنة أئسراً عظيماً في تذليل الصعاب والتوفيق والنتائج.

وإن للالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء
والاستغفار بالحاح وتضرع وذلة
ومسكنة أئسراً عظيماً في تذليل
الصعاب والتوفيق والنتائج

١١- مراعاة أدبيات منهج البحث العلمي

في دراسات المستقبل:

فإن لكل علم ودراسة منهجاً يتضمن قواعد للبحث والملاحظة والاستنتاج، لا بد لكل باحث أن يراعيها، ما لم يكن فيها محظور.

ولدراسات المستقبل جملة من قواعد البحث يعرفها المختصون لا بد من مراعاتها؛ لتكون النتائج مقبولة في ضوء هذا النوع من الدراسة.

ومن أبرزها: الشمول، والنظرة الكلية للأمور، وتفادي الإفراط في التبسيط والتجريد للظواهر

وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذراً ويقظةً وتحرزاً من أسباب الخذلان.

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دُورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم في كل موطن؛ لطغت نفوسهم، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبّر لعباده كما يليق بحكمته.

ومنها: أنهم يذلون وينكسرون فيتوجبون العز والنصر، فإن خلقة النصر إنما تكون مع الذل والانكسار؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾

[آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيثَ﴾ [التوبة: ٢٥].

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد

أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قتيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم: بغيتهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائهم، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم.

فمن أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها.. فقد ظن بربه

ظن السوء». (٨٥)

النظرية والفكر

الله قد بعثني إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً». (٩٠)

ثالثاً: ضوابط خاصة بالدراسات المعيارية:

وهي المتعلقة بالمستقبل المأمول، وهذه الضوابط تضاف لما سبق من ضوابط عامة:

١- العدل والإحسان:

أمر الله تعالى بالعدل والإحسان فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فالعدل: هو القسط والموازنة، والإحسان: أحسن من ذلك وفوقه.

فإذا صُبِغَت المستقبلات المأمولة على مقتضى العدل والإحسان، كانت موافقةً لأمر الله تعالى، فلا يُفرض فيها مستقبل يُظلم فيها أحد، أو تُهدر فيه إنسانية مجتمع أو كرامته، لتحقيق مصالح مجتمع معين، بل يبقى العدل ويبقى الإحسان مطلبين في الواقع، وفي الأمل.

٢- عقلانية التعامل مع التحوّلات المستقبلية:

فعند صياغة المستقبل المأمول لا بد أن يراعى أن يكون التحوّل متدرجاً متواكباً مع سنن الله تعالى الكونية، مبنياً على إدراك مستوى الواقع ومفرزات ظروفه، والمدة اللازمة لتجاوزها، وإلا صار ضرباً من الخيال والأمني المجردة.

المدروسة، والتعمّق في فهم ما يؤخذ به الواقع من علاقات، والحيادية، وعدم الانحياز (٨٨) والمزج بين الأساليب والمزاوجة بينها، والرصد الجيد للماضي والحاضر باتجاهاته وتجاربه. (٨٩)

ثانياً: ضوابط خاصة بالدراسات الاستطلاعية:

وهي ضوابط تضاف لما سبق من ضوابط وموجّهات لكل أنواع الدراسات المستقبلية:

١- التفاؤل:

فالتفاؤل وترك اليأس خُلِقَ فاضل يستصعبه المسلم حتى في أحلك الظروف؛ لأنّه من إحسان الظنّ بالله تعالى الذي جعل مع العسر يسراً. والتفاؤل من موجّهات

الدراسات الاستطلاعية، فيبقى في الدراسة - مهما كانت الظروف - مكاناً للتفاؤل بحسن العاقبة، والاستبشار بنصر الله تعالى ووعد الصادق، مع إعطاء هذا التفاؤل حظه الذي لا يبالغ فيه حتى يتحول حلمًا أو أمنية مجردة.

وقد تمثّل النبي ﷺ هذا الخُلُق في موقف من أصعب المواقف. وهو ما حكاه عائشة رضي الله عنها بقوله: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجني إلي ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إنّ

الهوامش:

- (١) صحيح مسلم (١١٧).
- (٢) صحيح مسلم (٨).
- (٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٢٦/١٠)، دار عالم الكتب؛ تفسير القرطبي (٢٨٩/٩).
- (٤) (٣٦٥/١٣).
- (٥) مجموع الفتاوى (١١٠/١٦). وانظر أيضًا (٢٥٧/٢٤، ٢٥٨) و(١٨١/٣٥).
- (٦) صحيح البخاري (٤٦٢٧).
- (٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨٦/١١).
- (٨) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٢٥/١).
- (٩) تضمين من مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٢٥، ٤٢٤/١).
- (١٠) مقدمة تفسير ابن كثير (١٠/١).
- (١١) صحيح البخاري (٧٣٦٢).
- (١٢) فتح الباري (١٧٠/٨).
- (١٣) صحيح البخاري (٧٣٦٣).
- (١٤) سنن أبي داود (٣٩٠٥)، سنن ابن ماجه (٣٧٢٦)، مسند أحمد (٢٧٧/١)، سنن البيهقي (١٣٨/٨)، وإسناده صحيح.
- (١٥) مجموع الفتاوى (١٩٣/٣٥).
- (١٦) مجموع الفتاوى (١٨٣/٣٥).
- (١٧) مجموع الفتاوى (٧٩/٤).
- (١٨) أبجد العلوم (١٨١/٢، ١٨٢)، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٢، دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي (١٢٥/٥).
- (١٩) هو استخدام الحروف العربية المرتبة بالطريقة الأبجدية للدلالة على أرقام حسابية. انظر: الموسوعة العربية العالمية (٦٠/١).
- (٢٠) مجموع الفتاوى (٨٠/٤)، أبجد العلوم (١٩٩/٢)، مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٣.
- (٢١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٥٧/١).
- (٢٢) تفسير الطبري (٢١٦/١)، سيرة ابن هشام (١٩٤/٢)، تفسير ابن كثير (٢٥٧/١).
- (٢٣) في موقع إسلام أون لاين نقل لنص افتراء المدعو: رشاد خليفة ودعواه المذكورة. وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٤١٥/١).
- (٢٤) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي فيلسوف معروف، له مصنفات في المنطق والنجوم والفلسفة، كان متهمًا في دينه، توفي عام ٢٦٠ هـ. انظر: لسان الميزان (٣٧٣/٦)، الأعلام (١٩٥/٨).
- (٢٥) تضمين من مجموع الفتاوى (١٨٩/٣٥، ١٩٠).

ومن تأمل تدرج التشريع في أنواع من الواجبات والمحرمات تبين له أن ملاحظة هذه العقلانية في التغيير لا بد منها. وقد وجه النبي ﷺ إلى مراعاة ذلك فقال: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع». (٩١)

خاتمة:

وبعد، فهذه عجالة حاولت فيها أن أقدم تصورات ونظرات يسيرة لبعض ما يمكن أن يتنبه له من يعالج هذا العلم، مما أرجو أن يكون محاولة نظرية لتأصيله إسلاميًا، ومتى توفرت الإرادة الجازمة والنية الحسنة فإن الأمة يمكنها - بتوفيق الله تعالى - مستعينة بدراسات مستقبلية مصوغة صياغة إسلامية، ومنضبطة بضوابط الشريعة؛ أن تتدرج في الوصول إلى مستقبلها المرغوب مهما كان بينها وبينه.

ومما ينبغي أن يُهتم له، ويمكن أن يُذكر في هذا الموضوع:

- ضرورة العناية بدراسات مستقبلية دعوية، يطلع عليها القائمون على المحاضن والأساليب الدعوية؛ ليستفيدوا منها، وبنوا عليها نشاطهم وتوجهاتهم.

- إعداد ضوابط لفقهِ ارتيادي يدرس الأمور المتوقعة مما يحتاج لمعرفة حكمه، استعدادًا له، متلافياً تأخير البيان عن وقت الحاجة، ومتلافياً أيضاً ما نهى عنه السلف من السؤال عما لم يقع، بضبط هذا الباب بالضوابط الشرعية المناسبة.

اللهم ألهمنا رشدنا، وقنا شر أنفسنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين.

النظرية والفكر

- (٤٥) الواقع والمستقبل: من المفرد إلى الجمع، للدكتور عز الدين البوشيخي، بحث مطبوع ضمن ندوة (نحو فقه سديد لواقع أمتنا المعاصر) (٢/٢٩١، ٢٩٠)، الدراسات المستقبلية للدكتور طارق عامر، ص ٩٦، ٩٥.
- (٤٦) انظر: إطلالة على دراسات المستقبل، ص ٢١، ٦٤؛ والدراسات المستقبلية، ص ٣٠ - ٣٥؛ محاضرة ندوة نحو فقه سديد لواقع أمتنا المعاصر (٢/٢٨٩).
- (٤٧) كتاب: صدمة المستقبل، ألفين توفلر، ترجمه محمد علي ناصف، ص ٦.
- (٤٨) تضمين من: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء (٣/١٦٩) بواسطة المستقبلية (١/٤٠).
- (٤٩) صحيح البخاري (٣)، صحيح مسلم (١٦١).
- (٥٠) صحيح مسلم (٣٠٠٥).
- (٥١) المفهوم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٤٢٤).
- (٥٢) هي قرى العراق وضياعها، سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار، وهم يسمون الأخضر سوادًا. معجم البلدان (٣/٢٧٢).
- (٥٣) صحيح البخاري (٣١٢٥).
- (٥٤) الأموال لأبي عبيد، ص ٥٩؛ المحلى لابن حزم (٧/٥٦٠).
- (٥٥) فتح الباري (٦/٢٥٩).
- (٥٦) تفسير البيضاوي (١/٤٨٦).
- (٥٧) انظر: المرجع السابق.
- (٥٨) الموافقات للشاطبي (٣/٢٥٧). وانظر: شرح الكواكب المنير (٤/٤٣٤).
- (٥٩) صحيح البخاري (١٥٨٤)، صحيح مسلم (١٣٣٣).
- (٦٠) مجموع الفتاوى (١١/٣٤٤).
- (٦١) الطرق الحكمية، ص ١٠، ٢٠.
- (٦٢) انظر: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للشنيطي، ص ١٧٥، ١٧٦؛ المصلحة العامة من منظور إسلامي لفوزي خليل.
- (٦٣) نهاية الوصول في دراية الأصول لصفي الدين الأرموي (٢/٥٧٢).
- (٦٤) المرجع السابق (٢/٥٨٠).
- (٦٥) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٥٩).
- (٦٦) غياث الأمم، ص ١٦٩.
- (٦٧) سنن ابن ماجه (٢٣٤٠)، مسند أحمد (٥/٣٢٦)، سنن الدارقطني (٤/٢٢٨) عن عبادة بن الصامت وابن عباس وأبي هريرة، وهو بمجموعه حسن. انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/٢٠٧)، إرواء الغليل (٨٩٦).
- (٦٨) غياث الأمم، ص ١٦٤.
- (٦٩) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٦١).
- (٧٠) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٥٨).
- (٧١) تضمين من: تأملات في منهج المستقبلية الإسلامية، د/ وهبة الزحيلي. المستقبلية (١/١٥٩).
- (٢٦) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/٤٥٧)، فتح الباري (٨/٣٧٤)، (١٢/٣٦٢).
- (٢٧) مجموع الفتاوى (٤/٨٠).
- (٢٨) انظر: إتخاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة لحمود التويجري؛ الصحيح المسند من دلائل النبوة لمقبل الوادعي.
- (٢٩) صحيح مسلم (٢٨٩٢).
- (٣٠) صحيح البخاري (٤/٦٦٠)، صحيح مسلم (٢٨٩١).
- (٣١) الطريق إلى اكتشاف المستقبل، مقال بمجلة المستقبلية، العدد الأول، ص ٢١٣.
- (٣٢) المصدر السابق.
- (٣٣) انظر: الدراسات المستقبلية مفهومها، أساليبها، أهدافها، للدكتور طارق عبد الرؤوف عامر، ص ٢١، ٢٧، وفيه تتبع لنشأة وتطور الدراسات المستقبلية؛ إطلالة على دراسات المستقبل لعبد الرحمن المشيقح، ص ٩، فما بعدها. وانظر في البدايات الأولى لنشأة وتطور الدراسات المستقبلية، وارتباطها براويات الخيال العلمي والنظريات والمذاهب الفكرية: مجلة المستقبلية العدد الأول، ص ٣٧؛ كيف نكتشف مستقبلنا في عالم متغير، زكي الميلاد.
- (٣٤) إن دراسة الجدوى الاقتصادية ومماثلاتها، مع وجود مقدار من الاحتمالية فيها، إلا أنها تظل رصدًا لواقع محدد، ومشاريع مماثلة، وهي بهذا أدق في النتائج من دراسة المستقبل، وأحسب أن الضوابط التي سترد في بحثنا يمكن تطبيقها عليها في الجملة.
- (٣٥) لسان العرب (٦/٧٩)، المعجم الوسيط (١/٢٧٩).
- (٣٦) معجم مقاييس اللغة (٥/٥١)، لسان العرب (١١/٥٤٥).
- (٣٧) المنجد، ص ٩٤٨.
- (٣٨) الدراسات المستقبلية للدكتور طارق عامر، ص ٢٩.
- (٣٩) صور المستقبل العربي للدكتور إبراهيم سعد الدين وآخرون، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٢٥.
- (٤٠) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د/ أحمد زكي بدوي، ص ١٧١.
- (٤١) الدراسات المستقبلية وخصائص المنهج الإسلامي، د/ أحمد صدقي الدجاني، مقال بمجلة المستقبلية، العدد ٢، ص ١٧.
- (٤٢) مستقبل الأمة العربية التحديات والخيارات، خير الدين حسيب وآخرون، ص ٤٠.
- (٤٣) انظر: مفهوم وموضوع مصطلح المستقبلية، للدكتور محمد بريش، مجلة المستقبل العربي، عدد ٤٤؛ وندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية (٢/٧١٨).
- (٤٤) الدراسات المستقبلية وخصائص المنهج الإسلامي، مقال بمجلة المستقبلية، العدد ٢، ص ٣٦.

- (٧٢) تضمين من بحث بعنوان: حقيقة فقه الواقع، مطبوع ضمن ندوة: نحو فقه سديد لواقع أمتنا المعاصر (٣٣٨/١) الدكتور عبد الرحمن الزنيدي.
- (٧٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص ١٤.
- (٧٤) المرجع السابق.
- (٧٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٠٥/١٠).
- (٧٦) صحيح مسلم (١٩٢٤).
- (٧٧) الموافقات (١٦٧/٤).
- (٧٨) نحو صياغة معاصرة للمصطلح المستقبلي، محمد بريش، مطبوع ضمن ندوة الدراسات المصطلحية (٧٢١/٢) وانظر: مناهج البحث في العلوم الإنسانية للدكتور مصطفى حلمي، ص ١٩٨.
- (٧٩) مجموع الفتاوى (٣/٣٠٦-٣٠٨). وموضوع المصطلح وما يتعلق به من أحكام وضوابط موضوع مهم، ولعل الله تعالى أن يُبَيِّنَ من يتناوله بسطاً وإيضاحاً.
- (٨٠) مجموع الفتاوى (١٠٠/٢٥).
- (٨١) مسند أحمد (٣/٣٥١)، سنن الدارمي (٢/١٢٩)، مصنف عبد الرزاق (٥/٣٦٤)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٠٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٠٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
- (٨٢) مسند أحمد (٣/١٨٣)، الطيالسي (٢٠٦٨)، الأدب المفرد للبخاري (٤٧٩)، بسند صحيح، السلسلة الصحيحة (٩).
- (٨٣) صحيح البخاري (٥٧٢٩)، صحيح مسلم (٢٢١٩).
- (٨٤) انظر: نحو صياغة معاصرة للمصطلح المستقبلي (٧٢٥/٢)، حقيقة فقه الواقع وبعض إشكالياته (٣٣٥/١) زاد المعاد (٣/١٩٦، ٢٠٦) باختصار.
- (٨٥) صحيح البخاري (١)، صحيح مسلم (١٩٠٧).
- (٨٧) مدارج السالكين (٢/٤٧٣).
- (٨٨) العرب والعالم. د/ علي هلال وآخرون، ص ٣٧٤.
- (٨٩) انظر: الدراسات المستقبلية. د/ طارق عامر، ص ١٢٧.
- (٩٠) صحيح البخاري (٣٢٣١)، صحيح مسلم (١٧٩٥).
- (٩١) سنن أبي داود (٤٩٥)، سنن الترمذي (٤٠٧) وسنده حسن.

معلومات إضافية

بدايات علم المستقبل في الغرب:

بدأ علم المستقبليات بالظهور والتبلور في الغرب، في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، حينما شرع علم «التفكير من خلال النظم Systems Thinking»، يأخذ طريقه إلى الدراسات السياسية والإنسانية. ثم تطور فأُسمى علم «ديناميكية النظم Dynamics System»، الذي طبقته، أول مرة، الأمم المتحدة، في «نادي روما Club of Rome» لدراسة نمو الموارد العالمية، في أوائل الستينيات؛ وظهرت أهميته، آنذ، في التحديات التي يفرضها على نماذج التفكير المعتادة لدى الفرد أو المجموعة؛ وفي مواجهة القصور، الذي تعانیه السياسات، في كافة المجالات، بالمقارنة بالتقدم في المجالات العلمية الأخرى. وهذا العلم يُعدّ، اليوم، النظام الخامس لما يسمّى «المؤسسات الذكية Fifth Discipline of Learning Organi»

وقد شهدت فترة الستينيات من القرن الماضي تطورًا ملحوظًا في علم المستقبليات بعد انتهاء ما يسمى أزمة الصواريخ السوفييتية في كوبا، وقد أعلن روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي، وقتئذٍ، «أن هذه الأزمة، أذنت بنهاية عصر الاستعدادات العسكرية، وبداية عهد جديد، يسمى إدارة الأزمات» مما حفّز الاستعدادات إلى الاعتماد على الدراسات الاستراتيجية، لرسم تصور كامل للأزمات والحوادث المستقبلية.

نحو دراسات مستقبلية إسلامية، بحث في علوم المستقبل، زهير الأسدي

http://www.kitabat.com/alasadi_5.htm

الدراسات المستقبلية:

تقوم الدراسات المستقبلية على متابعة عدد من المتغيرات، وتتبع اتجاهاتها الحالية فيما يخص مختلف المجالات، واعتمادًا على هذه البيانات يتم خلق سيناريوهات مختلفة للأحداث المستقبلية المحتملة، والتي يتم إدراجها في التخطيط الاستراتيجي الخاص بأيّ من تلك المجالات.

السيناريو:

وصف لوضع مستقبلي ممكن أو محتمل أو مرغوب فيه، مع توضيح لملامح المسار أو المسارات التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الوضع المستقبلي، ويتم ذلك انطلاقاً من الوضع الراهن أو من وضع ابتدائي مفترض.

ظهور علم المستقبليات:

ظهر مجال الدراسات المستقبلية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها، حيث تزايد معدل تغير كثير من مجالات الحياة؛ بسبب التغيرات التكنولوجية، مما دفع الحكومات والمؤسسات والأفراد إلى محاولة فهم هذا التغير وإسقاطاته على المستقبل الذي سيعيشون فيه.

الدراسات المستقبلية بين التجارب والتطبيق، ١٠ أغسطس ٢٠٠٣،

مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، مجلس الوزراء المصري

خصائص الدراسات المستقبلية

- ١- لا تعني مجرد التنبؤ «Predicting» بالمستقبل.
- ٢- تساعد في خلق خيارات متعددة للمستقبلات؛ من خلال تقديم احتمالات مختلفة.
- ٣- أساس للتخطيط.
- ٤- عابرة للتخصصات «Interdisciplinary».
- ٥- تعتمد غالباً على كل من التخيل والمعرفة التاريخية.
- ٦- تهدف غالباً لصياغة المستقبل من خلال تصرف ما في الحاضر.

نبذة عن قواعد المعرفة الخاصة بالدراسات المستقبلية:

بدأت في التطور منذ منتصف التسعينيات نتيجة لما يلي:

- التطور المستمر في الدراسات المستقبلية.
- الزيادة المستمرة في تعقد المنهجيات المستخدمة.
- النمو المتزايد في حجم الأدبيات التي تهتم بهذا الموضوع.

- ظهور عدد كبير من المؤسسات التي تهتم بالمستقبل في العالم كله.
- القيود التي تواجه المعرفة، وعدم القدرة على رؤية كل النتائج المترتبة على تصرف معين أو عدم التيقن.

أهمية قواعد المعرفة المستقبلية:

- ١- إطار مرجعي وخريطة أساسية Meta-map يتم من خلالها تنظيم العناصر الأساسية في الدراسات المستقبلية.
- ٢- تساهم في تطوير مجال الدراسات المستقبلية نفسه من خلال المساهمة في بناء هيكل واضح.

٣- تجعل عمل المستقبليين في العالم كله سهل الوصول إليه More Accessible.

الدراسات المستقبلية وإدارة المعرفة،

مركز الدراسات المستقبلية، يناير ٢٠٠٥،

مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، مجلس الوزراء المصري

الفرق بين الدراسات المستقبلية والتنبؤ التقليدي:

يمكن التفرقة بينهم في أربع نقاط رئيسية هي:

- ١- المدى الزمني: تتعامل الدراسات المستقبلية مع مدى زمني أطول من ذلك الذي يتناوله التنبؤ التقليدي.
- ٢- معدلات التغير: تتعامل الدراسات المستقبلية مع درجات من التغير أعلى من تلك التي يعتمد عليها التنبؤ التقليدي.
- ٣- البدائل: تتعامل الدراسات المستقبلية مع بدائل مختلفة للموضوع محل البحث؛ نتيجة لعدم القدرة على معرفة التغيرات في الأجل الطويل.
- ٤- أساليب التحليل: تستخدم الدراسات المستقبلية أساليب للتحليل الكمي والكيفي، بينما يعتمد التنبؤ التقليدي على أساليب كمية فقط.

تقنيات الدراسات المستقبلية:

ينطوي استشراف المستقبل على عناصر ثلاثة رئيسية للبحث، وهي: الشق المعملي، والوصفي، والتاريخي.

ويمكن حصر أهم التقنيات المستخدمة في الدراسات المستقبلية في:

- استبيان «ديلفي» Delphi Surveys، واستطلاعات الرأي، والمسوح الميدانية.
- المنهجيات الإحصائية: كالاستقراء، والانحدار، والارتباط، والتباين.
- التحليل المقارن، والسيناريوهات.
- نماذج المحاكاة والمناظرات، وحلقات النقاش.. وغيرها من آليات ديناميكية المجموعة Group Dynamics Techniques.
- النمذجة، والنظم الديناميكية (Dynamic systems and computer modeling): توضح كيف يتفاعل عدد كبير من المتغيرات مع بعضها البعض عبر الزمن.
- Cross impact analysis: توضح كيف تتفاعل الاختيارات الخاصة بمتغير ما بالاختيارات الخاصة بباقي المتغيرات، وهي في ذلك تقوم بخلق جدول يتضمن كافة البدائل الممكنة، وتحديد ما هو المقبول وغير المقبول منها.
- التخطيط قصير، ومتوسط، وطويل الأجل.
- (Relevance Trees): وهو أسلوب لاستعراض تسلسل الأحداث وتحديد الموقف اليوم، وما يمكن أن يكون عليه في المستقبل.
- التنبؤ (Forecasting): ويعمل على التنبؤ بالتطورات والاتجاهات المستقبلية ووقت حدوثها، ويُعد هذا الأسلوب غاية في الأهمية؛ خاصة في ظل التقدم التكنولوجي.
- تقييم الأثر التكنولوجي (Technological impact assessment): تهتم بالكيفية التي تؤثر بها التكنولوجيات الحديثة على كل من البيئة والمجتمع.
- الخيال العلمي (science fiction): ويقوم على أساس السرد لما يمكن أن يحدث في المستقبل الاجتماعي، أو على الساحة العالمية؛ على أساس سيناريو محدد يتم فيه التفاعل بين الشخصيات المختلفة وتلك الأحداث.

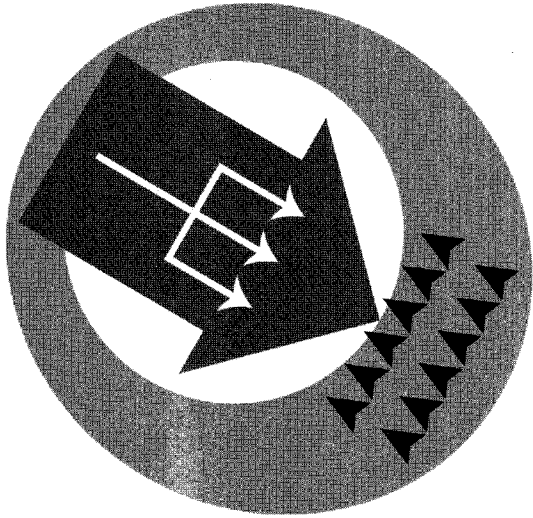
تجارب دولية في مجال الدراسات المستقبلية:

- مؤسسة فيوتشر بلز للدراسات المستقبلية.
- معهد الدراسات المستقبلية بكونهاجن.
- معهد الألفية.
- المعهد الأسترالي لاستشراف المستقبل.
- مركز فنلندا للدراسات المستقبلية.
- وحدة الرؤى/ الاستطلاعات المستقبلية بمركز الدراسات الفنلندي.
- مركز المستقبليات البديلة.
- معهد دراسات المستقبل.
- معهد فلوريدا للتنمية المستدامة.
- لجنة المستقبل بالبرلمان الفنلندي.

الدراسات المستقبلية بين التجارب والتطبيق،

مجلس الوزراء المصري،

مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، ١٠ أغسطس ٢٠٠٣



الباب الثاني ملف التقرير «المقاومة»

محمد عادل أفغانستان وصعود طالبان

أحمد محمود المقاومة العراقية وتحولات المستقبل

فرج شلهوب المقاومة الفلسطينية: مراحل التطور،

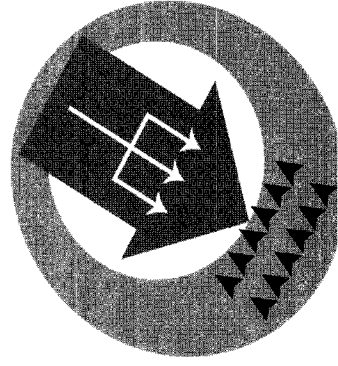
وآفاق المستقبل

علي حسين باكير حزب الله والمشروع الإقليمي الإيراني

مركز الدراسات - وجدة - المغرب الرسوم الدانماركية..

د/ سمير بو دينار

أزمات القيم والهوية، وآفاق الفعل الشعبي



أفغانستان وصعود طالبان

محمد عادل - مصر

كاتب وباحث سياسي - سكرتير تحرير التقرير الارتياحي للبيان

ملخص البحث:

سارع الاحتلال الأمريكي لأفغانستان منذ اليوم الأول -منطلقًا من مصالحه الاستراتيجية- في تنفيذ المخططات المقررة لعلمنة البلاد، والسير بها بعيدًا عن هويتها المحافظة. وفي المقابل تشكّلت فصائل المقاومة الأفغانية من مجموعات متباينة الدوافع والتوجهات، جاء على رأسها المجموعات الجهادية التي تحركت من منطلقات ودوافع شرعية. وشهدت السنة الخامسة للاحتلال عددًا من التحركات الهامة لطالبان، عكست رغبة قوية من الحركة في تغيير كفة الميزان العسكري لصالحها، مما أدى لتصاعد مشروع المقاومة بصورة لافتة. وبالنظر في الأهداف التي تم تحديدها للحملة الأمريكية على أفغانستان، وعلى رأسها القضاء على طالبان وتنظيم القاعدة؛ فلم يتحقق منها بعد خمس سنوات ما يمكن أن يشير لأي نوع من النجاح. ولم يقتصر الفشل على عدم تحقيق الهدف الأكبر للحملة من القضاء على طالبان والقاعدة، بل تعدى ذلك لصور متنوعة من الفشل؛ ترجع في أساسها إلى فشل الاستراتيجية الأمريكية والحكومة الأفغانية العميلة في تحقيق أي استقرار سياسي، أو تقدم اقتصادي أو أمني. ومع ارتفاع الخسائر في صفوف قوات الاحتلال -وضمنها قوات الناتو التي بدأت تتواجد في الأماكن الساخنة في الجنوب- فإن القدرة على الاستمرار في تحمّل المزيد من الخسائر سيضعف. كما تقوّي العديد من العوامل التوقع بتصاعد المقاومة، وترتبط تلك العوامل -في غالبيتها- ببنية الحركة وتكوينها الداخلي، تدعمهما العديد من العوامل الخارجية. وتواجه الحركة إشكالات عدة قبل وصولها للدرجة التي تنجح معها في إجبار الاحتلال على الانسحاب، يأتي على رأس تلك الإشكاليات الارتباط بالقاعدة، ونشرذم فصائل المقاومة. وإذا كان من الصعب على طالبان عسكريًا تحقيق نصر كبير يُجبر قوات الاحتلال في ظل الوضع الحالي على انسحاب قريب، إلا أنه من الصعب أيضًا على الاحتلال أن يتحمل مزيدًا من الخسائر إلى ما لا نهاية.

أفكار ومقتطفات

- تشكلت فصائل المقاومة الأفغانية من أطياف متنوعة، تتباين دوافعها وتوجهاتها، يأتي على رأسها المجموعات الجهادية التي تنطلق من منطلق شرعي بضرورة مقاومة المحتل، وطرده، وإعادة الحكم الإسلامي، ويأتي على رأس هذه المجموعات: طالبان، والحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار، وبجانب هؤلاء يوجد مجموعات أخرى تحركت ضد الاحتلال؛ لدوافع وطنية أو قَبَلِيَّة من منطلق مقاومة المحتل، ورد الاحتلال الذي خرج على أعراف المجتمع المحافظ، بما يسعى إليه من تغريب المجتمع، ونشر الرذيلة بين أبنائه؛ إضافة لمن انضم للمقاومة بسبب تردّي الأوضاع في البلاد.

- إن ما يحدث في أفغانستان بعد خمس سنوات من الاحتلال لا يمكن بحال وصفه بأنه مجرد عمليات عسكرية محدودة، بل الأمر يبدو تعدى ذلك إلى ما يمكن أن نصفه بأنه انطلاق عسكري قوي وصعود منظم لطالبان في الساحة الأفغانية.

- وسّعت طالبان نفوذها خارج مناطق نفوذها المعتادة في الجنوب، ومددت نشاطها من الجنوب إلى الغرب والشرق والشمال الأفغاني؛ بقصد إضافة المزيد من الهشاشة على الوضع الأمني المتردي، كي تمثل عبئًا إضافيًا تتحمل تبعاته حكومة قرضاي، فضلاً عن أن الضغط على قوات الاحتلال بتوسيع دائرة العمليات العسكرية يعني مزيدًا من الخسائر التي يصعب تحملها.

- بالنظر في الأهداف التي تم تحديدها للحملة الأمريكية على أفغانستان، وعلى رأسها القضاء على طالبان وتنظيم القاعدة، والقبض على الملا عمر، وأسامة بن لادن، فلم يتحقق منها بعد خمس سنوات ما يمكن أن يشير لأي نوع من النجاح.

- حالّت هشاشة الوضع السياسي الراهن دون إحراز تقدّم كافٍ في العلمية الديمقراطية والإصلاح؛ لأن الحكومة المركزية لازالت تفتقد الشرعية في ظل غياب جيش وطني قوي، فضلاً عن فشلها في القيام بوظائفها الرئيسية: في تحقيق الاستقرار، وتقديم الخدمات الأساسية للأفغان؛ بسبب نقص الموارد المالية، وعدم القدرة على فرض السيطرة الأمنية.

- رغم وعود التغيير ومؤتمرات إعادة الإعمار التي منحت أفغانستان على الورق عدة مليارات لإعادة الإعمار، إلا أن عملية إعمار حقيقي - تشمل تأسيس بنية اقتصادية قوية، وتنوع مصادر الدخل الوطني، ورفع مستوى المعيشة - لم تبدأ بعد.

- الوضع العسكري لقوات الاحتلال في أفغانستان يؤكد صعوبة القضاء على المقاومة، أو تحقيق انتصار عسكري حقيقي؛ خاصة في ظل الوضع الشعبي الذي تحول بقوة تجاه المقاومة، فضلاً عن أن الوضع الجغرافي، وما يحويه من تضاريس جبلية، يشكل عائقًا كبيرًا لا يسمح بتحقيق النصر لقوات نظامية

تواجه مجموعات مسلحة تستخدم أسلوب حرب العصابات، وتتواجد في الكهوف والجبال، ولا تتحرك عادة من مواقع ثابتة.

- المشروع الأمريكي يقوم على فكرة أساسية تصطدم بثقافة المجتمع الأفغاني وتراثه؛ ولذا فقد حمل المشروع الأمريكي في طياته عوامل فشله، فمحاولة استنبات المفاهيم الأمريكية، وغرس النموذج الغربي - بما يحمله من أفكار ليبرالية وأفكار تحررية - داخل المجتمع الأفغاني المحافظ، الذي تحكمه معتقداته الدينية وأعرافه القبلية، هي محاولة فاشلة؛ لأنها نبتت من خارج ثقافة المجتمع، حتى وإن كانت المحفزات التي ساقتها لتلميع تلك الأفكار مغرية.

- ينتمي غالبية عناصر طالبان لقبائل الباشتون ذات الأغلبية والنفوذ القوي في أفغانستان. والقبائل الباشتونية المسلحة بصورة جيدة من فترة الجهاد الأفغاني، كما أن هذه القبائل معروفة بالشراسة في القتال، وساعدت هذه القبائل التي يسكن الكثير منها على الحدود مع باكستان في إشعال الجبهة الحدودية، ومنع إرساء القواعد الأمريكية بقرب الحدود الأفغانية داخل باكستان.

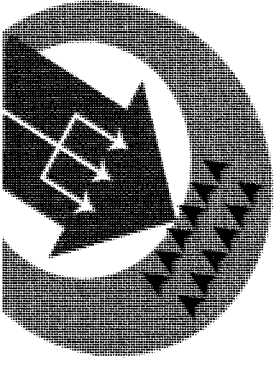
- برغم الصعود العسكري القوي للمقاومة، وتحول وضع طالبان من مجرد مجموعات مسلحة ملاحقة من قبل الاحتلال، يسهل القضاء عليها - حسب تصريحات المسؤولين الغربيين في بداية الغزو - إلى فضيل عسكري مقاوم، تمكن من بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أفغانستان، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك فإن وصول هذه المقاومة إلى الدرجة التي تنجح معها في إجبار الاحتلال على الانسحاب تواجهه إشكاليات عدة، تحول دون إمكانية التنبؤ بانسحاب قريب للاحتلال.

- إن عودة طالبان للسلطة بصورة أو بأخرى قد يكون مقبولاً أمريكياً، في ظل سيناريو محتمل للانسحاب تحت واقع الخسائر المتزايدة، والفشل في تحقيق أهداف تُذكر، وتغير محتمل في سياسات بعض الحكومات المشاركة بقوات في أفغانستان؛ نتيجة الضغط الشعبي، لكن بقاء الارتباط القوي بين طالبان والقاعدة يمثل إشكالية كبيرة للطرفين.

- رغم مساحة الاختلاف الكبيرة التي ميّزت معالم خمس مراحل رئيسية مرت بها أفغانستان في العقود الثلاثة الأخيرة: (الغزو السوفييتي - الحكم الشيوعي - الحرب الأهلية - حكم طالبان - الاحتلال وما بعد طالبان)، إلا أن السمة الأغلب في تلك المراحل جميعها هي التشرذم، والنزاعات الدموية بين الفصائل على الساحة الأفغانية.

- يصعب على مجموعات مقاومة عسكرية مسلحة تسليحاً بدائياً في مجمله كطالبان أن تهزم الطرف المعتدي، في حال كون هذا الطرف يملك أضخم ترسانة عسكرية، كتلك التي تملكها أمريكا، وبالتالي فالبدليل هو إيقاع أكبر عدد من الخسائر البشرية والمادية في صفوف الاحتلال، عملاً بقاعدة «النصر ليس للأقوى، بل هو للأقدر على التسبب في الأذى».

- ولمواجهة عملية التغريب التي بدأها الاحتلال، تبرز أهمية تنشيط العمل الاجتماعي والدعوي العام؛ لمنع انتشار الفساد الخُلقي والاجتماعي في أوساط الناس، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق الأنشطة الاجتماعية، وعن طريق تفعيل دور المساجد وإيجاد الجمعيات الصغيرة المحلية.
- تحتاج المرحلة المقبلة للمواجهة جاهزية فصائل المقاومة لتكون على مستوى عالٍ من الواقعية والعملية؛ إذ من الصعوبة بمكان قيام فصيل واحد من فصائل المقاومة بمفرده بمواجهة كامل التحديات التي أفرزها واقع الاحتلال؛ لضخامتها.
- ربما أدت طريقة عمل طالبان المنفردة لعملية حشد للأعداء ضدها، وهو خطأ كبير من حيث فتح العديد من الجبهات المعادية، والحكمة تقتضي تحديد الأولويات في ظل محدودية الإمكانيات وكثرة التحديات، ما يستدعي العمل على تبني استراتيجيات تعكس ترتيباً صحيحاً للأولويات، وتضمن تماسك الجبهة المقاومة، وحصر دائرة الصراع مع الاحتلال.



أفغانستان وصعود طالبان

محمد عادل - مصر

كاتب وباحث سياسي - سكرتير تحرير التقرير الارتيادي للبيان

لمواجهة المحتل الذي خرج على أعراف المجتمع المحافظ، إضافة لمن انضم للمقاومة بسبب تردّي الأوضاع في البلاد.

وفي الآونة الأخيرة تصاعد مشروع المقاومة في أفغانستان بصورة لافتة بقيادة طالبان، ما أدى لتحقيق نجاحات عسكرية غيّرت من طبيعة الصراع، وحالت دون تحقيق مشاريع الاحتلال على أرض الواقع.

يرصد التقرير فشل الاحتلال الأمريكي في أفغانستان في تحقيق أهدافه وتراجع نفوذه، مما يؤشر لحتمية زواله، ويتناول حقيقة الصعود الطالباني في الساحة الأفغانية، كما يناقش إشكالات عودة طالبان من جديد للسلطة، فضلاً عن استشراف مستقبل المقاومة مع صعود طالبان القوي، وقيادتها لحركة الجهاد ضد الاحتلال.

تصاعد مشروع المقاومة وحقيقة صعود

طالبان:

تعاني طالبان ضعفاً شديداً في قدراتها العسكرية والمادية؛ إذا ما قُورنت بقدرات قوات الاحتلال الذي يتفوق عليها بصورة لا يمكن معها إجراء مقارنة بين الطرفين، ما يفترض معه حسم أي معركة مبكراً لصالح الاحتلال، إلا أن خمس سنوات منذ الغزو

مقدمة:

حشدت أمريكا قدراتها العسكرية والسياسية لغزو أفغانستان تحت دعاوى الحرية والديمقراطية، والقضاء على «الإرهابيين»، وجلب الأمن والاستقرار لأفغانستان.

ومنذ اليوم الأول سارع الاحتلال -منطلقاً من مصالحه الاستراتيجية في المنطقة، وبمساعدة من بعض دول الجوار والدول الغربية- في تنفيذ المخططات المقررة لعلمنة البلاد، والسير بها بعيداً عن هويتها الإسلامية المحافظة، وإخضاعها للهيمنة الأمريكية.

في المقابل تشكلت فصائل المقاومة الأفغانية من أطياف منوعة، تتباين دوافعها وتوجهاتها، وعلى رأسها المجموعات الجهادية؛ التي تنطلق من ثواب شرعية بضرورة مقاومة المحتل وطرده، وإعادة الحكم الإسلامي، وتأتي طالبان والحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار على رأس هذه الفصائل، فضلاً عن مجموعات أخرى تحركت لدوافع وطنية أو قبلية

والناطقين باسمها، بل لم تنجح أمريكا في القضاء على زعيمها الملا محمد عمر.

إن ما يحدث في أفغانستان - بعد خمس سنوات من الاحتلال - لا يمكن بحالٍ وصفه بأنه مجرد عمليات عسكرية محدودة، بل الأمر يبدو تعدى ذلك إلى ما يمكن أن نصفه بأنه انطلاق عسكري قوي، وصعود منظم لطالبان في الساحة الأفغانية.

وبرغم تحول طالبان من مرحلة القدرة على البقاء إلى مرحلة القدرة على المواجهة، وإنزال ضربات موجعة بالخصم، حتى باتت تصريحات المسئولين الغربيين تؤكد أن المرحلة القادمة من المواجهة، تمثل مرحلة فاصلة في الصراع، إلا أن كل ذلك لا يصح أن يدفعنا للاعتقاد بقرب انسحاب الاحتلال أو عودة «سريعة» لطالبان إلى السلطة، فما زالت التحديات الداخلية التي تواجهها طالبان أكبر من إمكانية التنبؤ معها «بقرب» انسحاب الاحتلال، خاصة مع استمرار المساعي الأمريكية الحثيثة لتحقيق أي انتصار على أي صعيد معلن؛ لترميم الصدع في جدار التحالف الدولي لمحاربة «الإرهاب».

وشهدت السنة الخامسة للاحتلال عددًا من التحركات الهامة لطالبان، تعكس رغبة قوية من الحركة في تشكيل وضع عسكري وسياسي جديد، واستمرار بناء قدرات تنظيمية وقاتلية فعالة.

تحركات طالبان للعودة والتغلب على الفارق

العسكري:

- فتح جبهات جديدة وتوسيع دائرة الصراع: وسّعت طالبان نفوذها خارج مناطق نفوذها المعتادة في الجنوب، ومددت نشاطها إلى الغرب والشرق والشمال الأفغاني؛ بقصد إضافة المزيد من الهشاشة على الوضع الأمني المتردي، كي تمثل عبئًا إضافيًا تتحمل تبعاته حكومة قرصاي، فضلًا عن أن الضغط على قوات الاحتلال بتوسيع دائرة العمليات العسكرية يعني مزيدًا من الخسائر التي يصعب تحملها.

لم تنجح بشهادة القوات الأمريكية نفسها في القضاء على طالبان، أو التقليل من خطورة هجماتها.

إن الحركة - وباعتراف قوات الاحتلال نفسها - انتقلت إلى موقع الهجوم، وفوجئ المراقبون بحجم العمليات التي نفذها مقاتلو طالبان.

«في عام ٢٠٠٤ قُتل ٥٤ جنديًا أمريكيًا، وفي عام ٢٠٠٥ قُتل ١٠٤ جنود أمريكيين؛ بحسب الإحصائيات الأمريكية، .. وبعد أربعة أشهر من هذا العام قتل ما يقرب من ستين إلى سبعين للقوات الأجنبية» (١).

ورجّح تقرير نشره المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية تصاعد هجمات مقاتلي حركة طالبان ضد قوات الاحتلال الدولية «الناو»، قال التقرير الذي صدر بعنوان «التوازن العسكري ٢٠٠٦»: إن هذا العام سيكون حاسمًا بالنسبة لأفغانستان، وكذلك بالنسبة لقوات الناو هناك.

وأوضح أنه من المرجح أن يواصل مقاتلو طالبان وتيرة عملياتهم؛ خاصة مع استبدال القوات الأمريكية بقوات الناو؛ نظرًا لأن وقوع قتلى بين صفوف قوات الدول الأوروبية الأعضاء في الناو ستحرك الرأي العام في تلك البلدان ضد الحرب. (٢)

ووصف الأمين العام للناو «ياب دي هووب شيفر» القتال الدائر مع طالبان جنوب أفغانستان بأنه «المعركة الأكثر شدة التي يخوضها الناو في تاريخه». (٣)

ف ضربات طالبان باتت أكثر قوة وخطورة، والخسائر المادية والبشرية تتزايد، وقوات الاحتلال تتعرض لهجمات متصاعدة، حتى تلك التي لا تنتشر في أكثر المناطق خطرًا بالجنوب، بل عجزت قوات الاحتلال عن منع وصول تلك الهجمات للعاصمة كابول، وهي المنطقة الأكثر تحصينًا.

طالبان إذًا لا تزال موجودة على ساحة التأثير الأفغاني، ولا تزال محتفظة بقدر كبير من التنظيم، يؤكد ذلك قوة عملياتها، والتواجد القوي لقادتها

ووسائل المقاومة العراقية؛ فلجأت إلى العبوات الناسفة وعمليات الاغتيال للعملاء، إضافة لعمليات التفجيرات عن بُعد.

- الحصول على أسلحة حديثة:

مثل حصول طالبان على أسلحة متطورة، خاصة صواريخ (أرض - جو) ومعدات أخرى متطورة، نقلة تدعم قدرات طالبان المتواضعة،

وأعطتها قدرات جديدة في توسيع دائرة التهديدات ضد الاحتلال.

«ويؤكد المراقبون على أن الأسلحة المتوفرة لدى حركة طالبان هي أسلحة متطورة نسبياً، وباهظة الثمن في الوقت نفسه، وهو ما أشار إليه شريط بثته قناة

«العربية»، وتضمن صوراً للمقاتلين عرب وأفغان وأجانب يتهيئون لقصف مواقع أمريكية، ومزودين بأسلحة متطورة لا يمكن أن تكون متاحة بسهولة في أفغانستان» (٤).

- البث الإذاعي:

جاء نجاح طالبان في إعادة بث إذاعة الشريعة- التي كانت تعتبر وسيلة الإعلام الرسمية الوحيدة إبان سنوات حكم الحركة- كملمح قوي لتزايد نفوذ طالبان، وإضعافها للنفوذ الحكومي، وكموشر لسعي الحركة لتجاوز مساحة المقاومة المسلحة إلى دوائر جديدة للتأثير، كفرصة لكسب مزيد من الدعم على المستوى الشعبي.

تراجع مشروع الاحتلال:

إن مقياس الفشل أو النجاح في أي عمل عسكري يتحدد في الأساس بمدى تحقيق هذا الفعل العسكري لأهدافه. وبالنظر في الأهداف التي تم تحديدها للحملة الأمريكية على أفغانستان، وعلى رأسها القضاء على طالبان وتنظيم القاعدة، والقبض على الملا عمر وأسامة بن لادن، فلم يتحقق منها

في خطوة أخرى لتوسيع دائرة الصراع استغلت طالبان منطقة القبائل الباكستانية الحدودية في جنوبي وشرقي أفغانستان كعمق لها في عملياتها ضد الاحتلال؛ اعتماداً على مناصرة القبائل الموالية «لطالبان»، والتي تُحكّم سيطرتها على المنطقة. وقامت الحركة بتأسيس قواعد ثابتة لها في وزيرستان؛ لتكون منطلقاً للعمليات ضد الاحتلال

الأمريكي وقوات التحالف، شجّعها على ذلك ما تميزت به المنطقة من طبيعة جبلية وعرة، فضلاً عن طبيعة أهلها من القبائل البشتونية المحافظة وتعصبهم القومي والديني، ودفاعهم المستميت عن خصوصياتهم، ما يمثل ضمان

الحماية الشعبية للمقاومة، كما أن المنطقة فضلاً عن كونها منطقة حدودية فهي تشكل منذ حقبة الجهاد الأفغاني مستودعاً هائلاً للأسلحة المختلفة المحلية والمهربة.

- تحييد بعض الأسلحة:

تمكنت طالبان من تقليل فاعلية سلاح الجو الأمريكي؛ إذ إن استراتيجية طالبان في البداية بالتحرك في مجموعات صغيرة العدد فوّتت الفرصة على توجيه ضربات كبيرة للحركة، وأصبحت الطلعات الجوية التي تقوم بها القوات الأمريكية ضعيفة التأثير؛ لعدم وجود قوات كبيرة تتحرك على الأرض.

- اللجوء للعمليات النوعية:

العمليات النوعية لها نتائج عسكرية كبيرة، فضلاً عن المكاسب المعنوية التي تصاحب مثل تلك العمليات، ومن هنا اهتمت المقاومة - بقيادة طالبان- بتنفيذ عدد من العمليات النوعية ضد أهداف أرضية كالقواعد العسكرية، وأهداف متحركة كالدروريات، وأهداف جوية كطائرات الهليكوبتر، كما يُلاحظ على صعيد التطوير النوعي في العمليات العسكرية أن المقاومة الأفغانية قد تأثرت بأساليب

مثل حصول حركة طالبان على أسلحة متطورة، وخاصة صواريخ (أرض - جو) ومعدات أخرى متطورة، نقلة تدعم قدرات طالبان المتواضعة

بعد خمس سنوات ما يمكن أن يشير لأي نوع من النجاح.

لم تَسِرْ أفغانستان خلال أعوام الاحتلال باتجاه الدولة المستقرة المتشربة للديمقراطية الغربية، على ذلك النحو الذي أعلنته أمريكا عند غزوها لأفغانستان، بل سارعت نحو دوامة من العنف والتوتر لم يسلم منها حتى المدنيين، بل لم تتمكن معها الحكومة المتعاونة مع الاحتلال من بسط نفوذها

وسيطرتها الأمنية حتى داخل العاصمة كابول.

ولم يقتصر الفشل على عدم تحقيق الهدف الأكبر للحملة من القضاء على طالبان والقاعدة، بل تعدى ذلك لصور متنوعة من الفشل، ترجع في أساسها إلى فشل الاستراتيجية الأمريكية والحكومة الأفغانية العميلة في تحقيق أي استقرار سياسي، أو تقدم اقتصادي، أو أمني، كما هو مُفْتَرَض من خلال أهداف الاحتلال المعلنة.

صور فشل الاستراتيجية الأمريكية في أفغانستان:

- فشل سياسي:

لم تتمكن المحاولات الأمريكية بعد خمس سنوات من الاحتلال من التوصل لعملية سياسية مقبولة من القوى الأفغانية الرئيسية، مما أدى لتجاوز الواقع السياسي الهش لأفغانستان، وضعف الحكومة العميلة؛ التي أتت نتيجة انتخابات مشكوك في نزاهتها، إلى مشاكل أخرى تعوق وجود استقرار سياسي، وأهمها كثرة مراكز القوى الداخلية المؤثرة على الساحة الأفغانية، والتنازع داخل هذه المراكز، مما عرَّض العملية السياسية للانتقاد حتى من قبل بعض قادة المجاهدين السابقين الذين صمتوا على الاحتلال الأمريكي.

ومما أكَّد ضعف الوضع السياسي لحكومة قرضاي انتخاب يونس قانوني -منافسه في الانتخابات الرئاسية- رئيسًا لمجلس النواب بغالبية الأصوات، فضلًا عن تمكن بعض قدامى المجاهدين من الفوز في الانتخابات البرلمانية ٢٠٠٥.

وحالت هشاشة الوضع السياسي الراهن دون إحراز تقدُّم كافٍ في العملية الديمقراطية والإصلاح؛ لأن الحكومة المركزية لازالت تفتقد الشرعية في ظل غياب جيش

وطني قوي، فضلًا عن فشلها في القيام بوظائفها الرئيسية: في تحقيق الاستقرار، وتقديم الخدمات الأساسية للأفغان؛ بسبب نقص الموارد المالية، وعدم القدرة على فرض السيطرة الأمنية.

- فشل أمني:

فشلت قوات الاحتلال الأمريكية في بناء جيش أفغاني، وقوات شرطة أفغانية قادرة على القيام بالأعباء الأمنية المضطربة؛ بسبب عمليات المقاومة من جهة، والعصابات المسلحة وأمرء الحرب من جهة أخرى، فضلًا عما مثَّلَهُ سحب القوات الأمريكية بعض وحداتها من أفغانستان، وتأثير ذلك على معنويات جيش أفغاني ضعيف، وفتح الطريق للمزيد من الاضطرابات الأمنية.

كما أن «المتعاونين مع الحكومة يشعرون بقلق كبير من الأوضاع، ولا يرون سوى إشارات سلبية على مستقبل قاتم...»، فالكثير من المناطق الأفغانية بدأت تظهر بألوان حمراء على الخرائط العسكرية الأمريكية، ولا تزال الألوان الحمراء تزايد عاكسة تدهور الوضع الأمني»^(٥).

- فشل اقتصادي:

رغم وعود التغيير ومؤتمرات إعادة الإعمار التي منحت أفغانستان على الورق عدة مليارات، إلا أن عملية إعمار حقيقي -تشمّل تأسيس بنية اقتصادية

من أهمية أمريكا في حسم السيطرة على هذه المنطقة الهامة من العالم، بتحديد المستقبل الأمني والاقتصادي لآسيا الوسطى وما حولها. مع هذا فإن احتمالية بقاء الاحتلال في المستقبل الأفغاني يصطدم بعدد من الحقائق، والمؤشرات تؤكد صعوبة بل استحالة استمراره لفترة طويلة، ما يعني أن عملية انسحاب قوات الاحتلال، في حال استمرار الوضع على ما هو عليه، ما هي إلا مسألة وقت.

حقائق ومؤشرات تؤكد صعوبة استمرار الاحتلال:

- فشل الحكومة الموالية للاحتلال:

عجزت الحكومة الأفغانية الموالية للاحتلال - التي كان يُفترض أن لها دورًا كبيرًا في الدفع بالمشروع الأمريكي إلى الأمام - في الوفاء بما وعدت به الشعب من تحسين الأوضاع الاقتصادية والأمنية، والقضاء على البطالة.

كما أنه «لا يتاح للمنح والمخصصات المالية التي تتلقاها أفغانستان أن تصل إلى أهدافها؛ بسبب الفساد المالي والإداري، وتضخم دور البيروقراطية، والنتيجة هي نقص الخدمات الأساسية»^(٧)، مما ساهم في تصاعد المقاومة، وانضم العديد من أبناء الشعب الأفغاني للمقاومة بعدما تأكدوا من عدم جدية الحكومة في تنفيذ وعودها.

كما مثَّل عودة قُطَاع الطرق والمجرمين السابقين، وأمراء الحرب إلى سيرتهم الأولى من النهب والسلب وهتك الأعراض باعثًا آخر للقتال ضد الحكومة.

- سحق شعبي وفقدان التأييد الجماهيري:

لا يمكن لقوات التحالف تحقيق إنجازات سياسية، أو تقدم عسكري، أو أمني مستديم بدون ضمان دعم محلي قوي؛ تستطيع معه التحرك بحرية لتحقيق مصالحها الاستراتيجية، والقضاء على طالبان والقاعدة. وفشل الاحتلال في تحقيق شيء من

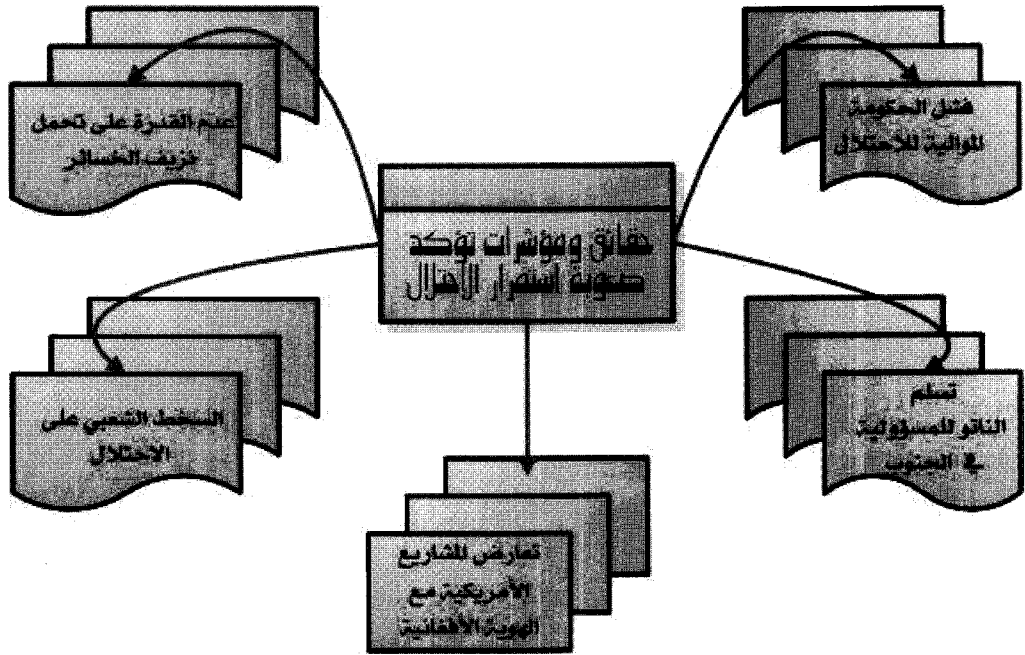
قوية، وتنوع مصادر الدخل الوطني، ورفع مستوى المعيشة - لم تبدأ بعد.

المتأمل في الوضع الأفغاني يلحظ بسهولة حقيقة الوضع الاقتصادي الهش الناتج عن السياسة الأمريكية في أفغانستان، والمتمثلة في اعتماد الاقتصاد الأفغاني بالأساس على المعونات الخارجية، إضافة لعودة اعتماده خلال سنوات الاحتلال على زراعة المخدرات، و«تعتبر أفغانستان أكبر مصدر للأفيون والهيروين في العالم؛ حيث باتت منذ الغزو الأمريكي مصدرًا لنحو ٩٠٪ من هاتين المادتين في العالم، وتعتبر هذه التجارة غير المشروعة مصدرًا لثلث اقتصاد أفغانستان تقريبًا»^(٦)، فضلًا عن انتشار الفساد الإداري في الدوائر الحكومية، ومُعانة الشعب الأفغاني، نتيجة ضعف النشاط التجاري، وعدم تشييط الموارد الاقتصادية.

مستقبل الاحتلال:

على الرغم من مؤشرات التراجع والفشل الذي مُنيت به قوات الاحتلال في أفغانستان إلى الآن، إلا أنه يبدو أن أمريكا «وعلى المدى القريب» لن تقبل بفشل المهمة، كما أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن إمكانية انسحاب «قريب» لأمريكا من أفغانستان؛ تاركة الطريق لطالبان والقاعدة للعودة وامتلاك زمام الأمور؛ بسبب ما يعنيه هذا من ضربة كبيرة للتحالف ضد «الإرهاب»، خاصة مع ما تمثله أفغانستان من كونها المحطة الأولى في تلك الحرب، وكونها منطلق تنظيم القاعدة المستهدف الأول بالحملة.

من هنا كان استمرار المحاولات الأمريكية الحثيثة لتحقيق بعض النجاحات، وتغيير الصورة التي بدأت تتكشف للمجتمع الدولي بفشل الاحتلال في أفغانستان. كما أن تأييد ودعم الدول الغربية لأمريكا لحربها في أفغانستان، وإن بدأ يهتز بصورة قابلة للتزايد، إلا أنه لم يصل بعد للدرجة التي تؤثر بقوة على قوات الاحتلال، فضلًا عما تمثله نتائج معركة أفغانستان



الحوادث، وكشفت عن مدى السيخط الشعبي على قوات الاحتلال. (٩)

- صعوبة القضاء على المقاومة وعدم القدرة على تحمل خريف الخسائر:

الوضع العسكري لقوات الاحتلال في أفغانستان يؤكد صعوبة القضاء على المقاومة، أو تحقيق انتصار عسكري حقيقي، خاصة في ظل الوضع الشعبي الذي تحول بقوة تجاه المقاومة، فضلاً عن أن الوضع الجغرافي، وما يحويه من تضاريس جبلية يشكل عائقاً كبيراً لا يسمح بتحقيق النصر لقوات نظامية تواجه مجموعات مسلحة تستخدم أسلوب حرب العصابات، وتتواجد في الكهوف والجبال، ولا تتحرك عادة من مواقع ثابتة، مما يصبح من المستحيل معه القضاء عليها، إضافة لقلّة عدد قوات الاحتلال المتواجدة على الأراضي الأفغانية؛ قياساً بما تحتاجه قوات غازية للسيطرة على بلد يزيد عدد سكانه على ٢٥ مليون، فجيّش الاتحاد السوفيتي البالغ عدده ١٢٠ ألف جندي بما يميزون به من كفاءة قتالية؛ خاصة على مستوى قوات المشاة، لم يتمكن من

وعوده عن المساعدات المالية، وإعادة بناء أفغانستان بعدما أحدثه الغزو من تدمير نشأ عنه حالات واسعة من التدمير والسيخط الشعبي.

زاد من تأزم الأوضاع الطريقة الهمجية التي تعاملت بها قوات الاحتلال مع الشعب الأفغاني من قصف القرى، وقتل النساء والأطفال، وعدم مراعاة التقاليد والأعراف التي تحكم الأفغان، ولم يسلم من التطاول الأمريكي حتى المساجد، ما دفع قطاعاً عريضاً من الشعب الأفغاني إلى الانتقال لجهة المقاومة.

وكان الجنرال البريطاني ديفيد ريتشاردز قائد قوات الناتو في أفغانستان قد حدّر من «أن الدولة تمر بلحظة فارقة، وأن ٧٠٪ من الأفغان قد يتحولون لمساندة طالبان ما لم يشعروا بأي تحسن في ظروف حياتهم خلال الأشهر الستة المقبلة». (٨)

وأظهرت أعمال الشغب الواسعة التي وقعت بكابول (مايو ٢٠٠٦) إلى أي مدى بلغ السيخط الشعبي من الاحتلال، حتى داخل العاصمة كابول، فبرغم أن الحادث بدا عرضياً إلا أن ردود الأفعال تجاوزت نطاق ردود الأفعال الطبيعية على مثل هذه

مشاكل كبيرة؛ بسبب صعوبة إقناع بقية قوات الحلف بالمشاركة في عمليات الجنوب الساخن. (١١) وقالت صحيفة واشنطن بوست الأمريكية: «إن الدعوة لمزيد من القوات والمعدات لمواجهة انبعاث مقاتلي طالبان، يأتي في وقت يعاني فيه حلف شمال الأطلسي من أعلى نسب للخسائر لخمس سنوات من الصراع في أفغانستان؛ بينما تشعر الحكومات الأوروبية بالإنهاك، بسبب المطالب بإرسال قوات في أفغانستان والعراق ولبنان والبلقان، وفي العديد من الدول الإفريقية». (١٢)

كما «اعترف وزير الدفاع البريطاني «ديس براون» أن مقاومة طالبان لقوات الناتو بأفغانستان فاقت التوقعات التي كانت لدى الحلف عندما نشر في البداية قواته؛ للمساعدة فيما يسمى بأعمال إعادة البناء». (١٣)

«وتواجه الولايات المتحدة وشركاؤها في الحلف تحديات كبيرة في مجال قابلية العمل المشترك، مع افتقار الأوروبيين إلى العديد من الأسلحة والتقنيات والوسائل المتقدمة التي تملكها القوات الأمريكية. فهناك فجوات كبيرة بين القدرات الأمريكية والأوروبية». (١٤)

- تعارض المشاريع الأمريكية مع الهوية الأفغانية: المشروع الأمريكي يقوم على فكرة أساسية تصطدم بثقافة المجتمع الأفغاني وتراثه، ولذا فقد حمل المشروع الأمريكي في طياته عوامل فشله، فمحاولة استنبات المفاهيم الأمريكية، وغرس النموذج الغربي - بما يحمله من أفكار ليبرالية وأفكار تحريرية - داخل المجتمع الأفغاني المحافظ الذي تحكمه معتقداته الدينية وأعرافه القبلية، هي محاولة فاشلة؛ لأنها نبتت من خارج ثقافة المجتمع، حتى وإن كانت المحفزات التي ساقته لتلميع تلك الأفكار مغرية؛ (مثل بناء دولة المؤسسات، وإنعاش الاقتصاد

فرض سيطرته على هذه المناطق النائية، فكيف يمكن لأمريكا بأقل من نصف ذلك العدد أن تسيطر عليها. ومع ارتفاع الخسائر في صفوف قوات الاحتلال، وضمها قوات الناتو التي بدأت تتواجد في الأماكن الساخنة في الجنوب؛ فإن القدرة على الاستمرار في تحمّل المزيد من الخسائر سيضعف، ويتوقع تزايد الضغوط الشعبية على الحكومات التي تشارك بقوات ضمن الناتو بأفغانستان لسحب تلك القوات.

- تسلم الناتو للمسؤولية في الجنوب:

يبنى الأمريكيون آمالاً كبيرة على قوات الحلف

الأطلسي؛ لتقليص عبء عمليات حفظ الأمن عن القوات الأمريكية، وتمكينها من خفض قواتها العاملة بأفغانستان، ما يشير لعجز القيادة الأمريكية على تحمل المسؤولية الأمنية منفردة،

وأن التحديات التي تواجهها في العراق تصب إيجاباً لصالح المقاومة الأفغانية.

كما أن خفض أعداد القوات الأمريكية شجّع على مزيد من التصاعد في عمليات المقاومة ضد القوات الغير أمريكية (كقوات كندا التي قتل منها ٤٢ قتيلاً، والقوات البريطانية التي قُتل منها ٤١ قتيلاً)، وزاد الوضع سوءاً وجود بعض الانقسامات المرشحة للتصاعد داخل الناتو حول طبيعة مهام القوات وأماكن تمركزها، ويرى الجنرال الأمريكي المتقاعد «باري ماكفيرى»، الذي زار أفغانستان في أغسطس الماضي، أن قوات الناتو التي يُراد إحلالها محل القوات الأمريكية لن يمكنها التصدي لأعمال المقاومة الأفغانية الشرسة؛ لكونها أقل كفاءة وقدرة قتالية». (١٥)

وتواجه قوات الناتو في جنوب أفغانستان والمشكلة من الجنود البريطانيين والكنديين والهولنديين

قوات الناتو التي يُراد إحلالها محل القوات الأمريكية لن يمكنها التصدي لأعمال المقاومة الأفغانية الشرسة؛ لكونها أقل كفاءة وقدرة قتالية (الجنرال الأمريكي المتقاعد باري ماكفيرى)

ذلك إلى التفكير جديدًا في الانسحاب، وعدم الاستمرار في تحمل الخسائر إلى ما لا نهاية.

عودة طالبان:

عودة الحركة للتأثير في مجريات الأمور وبسط نفوذها على مناطق واسعة من أفغانستان يكذب الدعاية التي روج لها الاحتلال من أن الحركة ليس لديها ما يكفي من الإمكانيات للاستمرار، أو أنها مجرد صنعة لأيدٍ خارجية اعتمدت عليها في الوصول للسلطة.

كما أن صعودها القوي وسط تحديات منوعة يثبت أنها تمتلك من مقومات التأثير وعوامل القوة ما يمكن معه التنبؤ في حال تفعيله بعودة ممكنة لطالبان.

ويؤكد صعود المقاومة وتراجع الاحتلال تصريحات قادة طالبان برفض محاولات المصالحة المتكررة من جانب الحكومة، والإصرار على استمرار المقاومة، وردها على المزاعم التي يروج لها الاحتلال من أن لآخر بشأن محادثات تجري بين طالبان والنايو «من أجل انضمام الحركة

لتوجهات المصالحة التي ترغب بها كابول؛ تمهيدًا لإلقاء سلاحها جنوب البلاد، مشددة على أن هذه التقارير ليست سوى دعاية تطلقها القوات الأجنبية بأفغانستان». (١٥)

مواطن قوة طالبان:

مرت طالبان بثلاث مراحل أساسية في مسار نشأتها وتطورها: (حرب أهلية- الوصول للسلطة- مقاومة الاحتلال)؛ ولكل مرحلة طبيعتها الخاصة، وإشكالاتها المختلفة، وعلى مدار سنوات تجاوزت العشر تنوعت أدوار طالبان، واختلفت صور التحديات التي واجهتها، إلا أن ثبات طالبان ونجاحها في استيعاب تلك التحديات، ومواجهتها مع ما يستلزمه

الأفغاني، ونشر الأمن، ..) إلا أن الشعب الأفغاني في ظل الاحتلال لم يشهد في واقعه مؤشرات تؤيد صحة تلك المحفزات، كما أن مراجعة سريعة لتاريخ أفغانستان تؤكد صعوبة نجاح مثل تلك التجربة في هذه البيئة المحافظة.

- تصاعد المقاومة العراقية وصعود الديمقراطيين: يبدو أن تداعيات تدهور أوضاع قوات الاحتلال الأمريكي في العراق، وتمركز ساحة عمليات الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في منطقة الشرق الأوسط، سيكون لها تأثيرات تذهب إلى أبعد مما يمكن توقعه خلال المرحلة الحالية، إلا أنه يبدو أنها تصب إيجابًا لصالح المقاومة الأفغانية، خاصة بعد إعلان نتائج الانتخابات التشريعية النصفية في أمريكا

وفوز الديمقراطيين، والذي بدا كأنه رفض شعبي لسياسات بوش في العراق، وإعلان الرئيس الأمريكي استقالة وزير الدفاع رامسفيلد، فمن المتوقع أن تنعكس هذه النتائج سلبيًا على وضع الاحتلال في أفغانستان، لترتكز أمريكا الحالي لمعظم جهودها العسكرية والسياسية لتحقيق أي

نجاحات في العراق- الذي بات المحطة الأهم في سياسة أمريكا الخارجية- في محاولة لتخطي الإشكالات الضخمة التي تواجهها هناك، فضلًا عن فداحة الثمن الذي يمكن أن تدفعه في حال استمرار فشل مخططاتها بالعراق.

والرهان الحقيقي ليس على الديمقراطيين، أو الجمهوريين؛ بل على المقاومة الأفغانية، وقدرتها على استثمار هذه المتغيرات لصالحها؛ لأن القضايا الاستراتيجية للولايات المتحدة لا يوجد في الحقيقة خلاف حولها بين الديمقراطيين والجمهوريين، وبرغم ذلك فهناك قلق متزايد من جانب الديمقراطيين من تزايد أعمال المقاومة وزيادة العنف، وقد يدفعهم

قدرة عناصر طالبان على الصمود أمام الخسائر الفادحة التي تكبدوها كانت مفاجأة حقيقية، مما يستدعي بذل جهود إضافية أكثر مما توقعنا (وزير الدفاع البريطاني ديس براون)

عناصر طالبان على الصمود أمام الخسائر الفادحة التي تكبدوها كانت مفاجأة حقيقية، مما يستدعي بذل جهود إضافية أكثر مما توقعنا». (١٦)

عوامل قوة من خارج الحركة:

- الدعم القبلي: ينتمي غالبية عناصر طالبان لقبائل الباشتون ذات الأغلبية والنفوذ القوي في أفغانستان. والقبائل الباشتونية متسلحة بصورة جيدة من فترة الجهاد الأفغاني، كما أن هذه القبائل معروفة بالشراسة في القتال، وساعدت هذه القبائل التي يسكن الكثير منها على الحدود مع باكستان في إشعال الجبهة الحدودية، ومنع إرساء القواعد الأمريكية بقرب الحدود الأفغانية داخل باكستان.

وتمكنت طالبان من الاستفادة من النظام القبلي الذي يسود أفغانستان، فقوّت علاقاتها العشائرية مع القبائل الأفغانية - مستغلة خطأ الاحتلال في تجاوز الأعراف القبلية - مما أتاح لها الحصول على المؤن والإمدادات.

- دعم بعض الفصائل لطالبان: مثال ذلك ما أعلنه زعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار من دعم وإشادة بطالبان وقادتها، ويعد حكمتيار أحد أقوى وأهم الزعماء الأفغان، وتأتي أهمية دعمه لطالبان في ضوء القدرات المالية، والتسلح القوي والخبرة التي تتمتع بها قواته، والتي تكونت خلال فترة الجهاد الأفغاني ضد السوفييت. فضلاً عن الدعم المتاح لحركة طالبان من الجماعات الإسلامية الباكستانية، المتعاطفة مع طالبان، خاصة حزب الجماعة الإسلامية، وجمعية علماء الإسلام.

- البيئة الدولية: اشتعال الموقف في العراق يتوقع أن يكون محور الاهتمام الأمريكي الفترة القادمة؛ حيث سحبت أحداث العراق الاهتمام الأمريكي بعيداً عن أفغانستان، الأمر الذي يمثل فرصة لطالبان لتوسيع نفوذها، وتثبيت صعودها.

يُضاف لذلك ما قد يترتب على تدهور العلاقات

ذلك من مرونة تنظيمية أثبت أنها قادرة على التكيف مع المتغيرات، وعلى تعظيم مكتسباتها.

وتقوّي العديد من العوامل التوقع بتصاعد طالبان، وترتبط تلك العوامل في بنية الحركة وتكوينها الداخلي، تدعمهما العديد من العوامل الخارجية.

ويشار فيما يلي إلى أهم تلك العوامل:

عوامل قوة ذاتية:

- تماسك داخلي: مثل الرباط العقدي القوي الذي يجمع عناصر طالبان إضافة للخلفية الفكرية الموحدة - حيث تلقى الكثير منهم التعليم الديني في المدارس الدينية بباكستان - صمام أمان لوحد الصف الطالباني، فضلاً عن إخلاصهم الشديد لأهدافهم والتضحية من أجلها، إضافة للسيطرة الكبيرة للملا عمر على عناصر الحركة وولائهم الشديد له، وهيبة الحركة في قلوب الأفراد، فضلاً عن الترابط العرقي القوي؛ إذ يجمعهم العرق البشتوني الذي يُشكّل غالبية الأفغان.

- ديناميكية مرنة: استطاعت الحركة الثبات في المقاومة وامتصاص الضربات العنيفة التي تلقتها على مدار خمس سنوات منذ بداية الغزو، وفشلت في تمزيق أوصالها، بل تمكنت وسط أجواء بالغة الصعوبة من تطوير قدراتها، وتوسيع دائرة نفوذها خارج الحدود الجنوبية للدرجة التي باتت تشكل بها خطورة حقيقية على قوات الاحتلال، ما يؤكد قدرتها على تطوير حركتها وآليات عملها، الأمر الذي قد يرجع في أحد جوانبه لطبيعة نشأتها وسط ظروف بيئية متوترة تشبه المناخ الحالي (تعدد ولاءات - تدخل خارجي - فصائل متناحرة - تدهور وضع أمني)، ورغم ذلك تمكنت من الوصول للسلطة والحفاظ عليها خمس سنوات.

واعترف وزير الدفاع البريطاني ديس براون بأن المقاومة التي تبديها عناصر حركة طالبان في جنوب أفغانستان كانت «أقوى من المتوقع»، وقال: إن «قدرة

لظهور بوادر توتر بين باكستان من جهة وأمريكا والدول الغربية الرئيسية المشاركة بقوات في أفغانستان؛ حيث كشفت صحيفة ديلي تليجراف البريطانية عن «أن قادة قوات حلف الناتو في أفغانستان طالبوا حكومات بلادهم باتباع أسلوب أكثر صرامة مع باكستان؛ حيث اتهموها بدعم ميليشيات حركة طالبان». (١٨)

إشكاليات عودة طالبان:

على الرغم من الصعود العسكري القوي للمقاومة، وتحول وضع طالبان من مجرد مجموعات مسلحة ملاحقة من قِبَل الاحتلال يسهل القضاء عليها - حسب تصريحات المسؤولين الغربيين في بداية الغزو - إلى الفصيل الأساسي للمقاومة، والذي تمكن من بسط نفوذه على مساحات كبيرة من أفغانستان، إلا أن وصول هذه المقاومة إلى الدرجة التي تنجح معها في إجبار الاحتلال على الانسحاب تواجهه إشكاليات عدة تحول دون إمكانية التنبؤ بانسحاب «قريب» للاحتلال.

ويأتي على رأس تلك الإشكاليات:

- الحرب على الإرهاب والارتباط بالقاعدة: برغم الاختلاف في توجه مشروع طالبان عن مشروع القاعدة التي أعلنت عنه عام ١٩٨٨ تحت عنوان «الجهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والنصارى»؛ حيث إن ذلك التوجه العالمي لم يكن ضمن برنامج إمارة أفغانستان حينها، إلا أن ارتباط طالبان بالقاعدة كان قويًا لدرجة التلاحم؛ حيث الاتفاق الكامل على فكرة إقامة الإمارة الإسلامية التي تطبق شرع الله، فضلاً عن الارتباط «المبدئي» لطالبان تجاه تنظيم القاعدة الذي دعم الحركة أثناء فترة حكمها، وبيع «ابن لادن» «الملا عمر» أميرًا للمؤمنين، كما ساعد ابن لادن الحركة ضد معارضيها «الأمر الذي أدى إلى ثقة نظام طالبان الكبيرة في أسامة، ورفع مكانة أسامة من مجرد الضيف لدى طالبان إلى صانع القرار أو مشارك في صنعه في نظام طالبان». (١٩)

الإيرانية الأمريكية من تأثيرات سلبية على الاستقرار الإقليمي، وفتح جبهة مواجهة جديدة تضعف من الموقف الأمريكي في أفغانستان، وتوفر بيئة ملائمة لتصعد طالبان من عملياتها، كما أن إقدام أمريكا على مهاجمة إيران - إن حدث - قد يمثل فرصة لربط جبهات المواجهة العسكرية ضد أمريكا، مما قد يعني فتح ممر آمن لانتقال الأسلحة والمقاتلين بين العراق وأفغانستان.

وعلى الجانب الباكستاني فإن اهتمام باكستان بدأ يتجه مجددًا لطالبان التي وقرت حين وصولها للحكم نوعًا من الاستقرار بين البلدين، ووفرت لها بعدًا أمنيًا هامًا، ثم أصبح ما يحدث في أفغانستان من عدم استقرار يؤثر على استقرار باكستان نفسها، خاصة التوترات القبلية على الحدود بين البلدين، وهى منطقة ترتفع بها الاحتمالات لاندلاع ثورة ضد باكستان، ونتيجة للضغوط الأمريكية على باكستان استجاب الرئيس مشرف للمطالب الأمريكية بالقيام بحملات مدمامة لمناطق القبائل الحدودية؛ التي تأوي الجماعات المسلحة المتعاطفة مع المقاومة، لكن حملاته المتكررة فشلت في القضاء على المقاومة؛ بسبب الطبيعة الجبلية الوعرة للمنطقة، والسيطرة التامة عليها من جانب القبائل البشتونية، واشتعلت المناطق الحدودية بالعمليات العسكرية، الأمر الذي أدى إلى مصرع المئات من الجنود الباكستانيين خلال المواجهات، وآل الأمر في النهاية لعقد اتفاقية بين الحكومة وبين تلك القبائل لوقف العمليات العسكرية.

يضاف لذلك زيادة قلق باكستان؛ بسبب تنامي علاقات أفغانستان تحت الاحتلال مع الهند العدو الاستراتيجي لباكستان.

ويبدو أن باكستان قد بدأت تستشعر الأهمية المستقبلية لتجديد فتح قنوات اتصال مع طالبان بعد تغير الوضع كثيرًا لصالح المقاومة (١٧)، مما أدى

ويبقى أن هذا الارتباط الذي جمع لفترة بين مصيري طالبان والقاعدة يمثل العقبة الأكبر التي ربما تؤخر عودة ممكنة لطالبان إلى السلطة، أو على الأقل انسحاباً محتملاً للاحتلال في مدى غير بعيد.

- الإشكالية الثانية: النزاعات بين فصائل المقاومة: رغم مساحة الاختلاف الكبيرة التي ميزت معالم خمس مراحل رئيسية مرت بها أفغانستان في العقود الثلاثة الأخيرة (الغزو السوفييتي - الحكم الشيوعي - الحرب الأهلية - حكم طالبان - الاحتلال وما بعد طالبان)، إلا أن السمة الأغلب في تلك المراحل جميعها هي التشرذم، والنزاعات الدموية بين الفصائل على الساحة الأفغانية، سواء أكانت جهادية أم شيوعية، أم عصابات مسلحة، وما يعيننا هنا هو التشرذم داخل الصف

إن عودة طالبان للسلطة بصورة أو بأخرى قد يكون مقبولاً أمريكياً في ظل سيناريو محتمل للانسحاب تحت واقع الخسائر المتزايدة، والفشل في تحقيق

المقاوم، والذي لم يتوقف على مدار عقود. الاحتلال الأمريكي لأفغانستان وما خلفه من دمار لم يكن سبباً كافياً لتوحيد جهود الفصائل التي لا تزال تتبنى خيار المقاومة؛ إذ ما زالت تعاني من مساحة اختلاف تظهر في أحسن الأحوال في صور من التشتت وعدم التنسيق الناشئ عن فقدان الثقة، ويصل للاقتتال في أحيان كثيرة.

ويضم التيار المناوئ لحركة طالبان كثيراً من الأحزاب الجهادية، ومن أبرزهم الاتحاد الإسلامي بقيادة الأستاذ سياف، والجمعية الإسلامية بقيادة الأستاذ برهان الدين رباني، .. وجبهة الإنقاذ لصبغة الله المجددي، وغيرها ممن كوّن تحالف الشمال للوقوف ضد طالبان؛ حيث «شاركت الأحزاب التي ضمها تحالف الشمال في الهجوم العسكري لأمريكا لإسقاط نظام طالبان،... ومنها الأحزاب التي شاركت في التسوية السياسية فقط دون المشاركة في

وما قام به الملا عمر بربط مصيره ومصير الدولة بمصير القاعدة وزعيمها عندما رفض - لأسباب دينية- تسليم ابن لادن لأمريكا لمحاكمته؛ رغم التهديد بضرب أفغانستان، يدل على طبيعة تلك الحركة والعلاقة الخاصة بينها وبين تنظيم القاعدة.

فضلاً عن التنسيق العسكري القوي بين الطرفين على مدار سنوات الاحتلال، فقد أكد مسئول طالباني رفيع أن «الحركة بالتعاون مع أيمن الظواهري الرجل الثاني في تنظيم القاعدة قد انتهت من وضع الاستراتيجية التي ترى أنها كفيلة

بإنهاء الاحتلال الغربي لأفغانستان وعودتها من جديد للحكم». (٢٠)

إن عودة طالبان للسلطة بصورة أو بأخرى قد يكون مقبولاً أمريكياً في ظل سيناريو محتمل للانسحاب تحت واقع الخسائر المتزايدة، والفشل في تحقيق

أهداف تذكر، وتغير محتمل في سياسات بعض الحكومات المشاركة بقوات في أفغانستان؛ نتيجة الضغط الشعبي، لكن بقاء الارتباط القوي بين طالبان والقاعدة يمثل إشكالية كبيرة للطرفين، حيث من غير المتوقع أن تقبل أمريكا بالانسحاب وقبول عودة طالبان للسلطة، أو حتى وجودها كفاعل مؤثر في الساحة الأفغانية مع بقاء ارتباطها القوي بالقاعدة، خاصة بعد أن حصرت الإدارة الأمريكية مفهوم الحرب على الإرهاب - حسب وزارة الخارجية الأمريكية - في الحرب على القاعدة، وأصبح «التعريف» (القانوني) للحرب على الإرهاب بالنسبة للولايات المتحدة هو الحرب على شبكة القاعدة وتشعباتها، التي ستتهي مع إلقاء هذا التنظيم سلاحه». (٢١)

فضلاً عن ذلك فإن بعض القوى المؤثرة في أفغانستان حتى داخل طالبان كانت تعارض وجود ابن لادن على أراضيها؛ لما كان يسببه من مشاكل في علاقة أفغانستان بالدول الأخرى.

تهدف في المقام الأول لإجبار الاحتلال على الرحيل من جانب، وتهيئة الوضع لعودة ممكنة للحركة إلى السلطة مرة أخرى، وتبرز أهم معالم تلك الاستراتيجية وفقاً لمعطيات الواقع فيما يلي:

- تبني استراتيجية الاستنزاف وتضخيم تكاليف البقاء: يصعب على مجموعات مقاومة عسكرية مسلحة تسليحاً بدائياً في مجمله كطالبان أن تهزم الطرف المعتدي؛ في حال كون هذا الطرف يملك أضخم ترسانة عسكرية كتلك التي تملكها أمريكا، وبالتالي فالبديل هو تضخيم الخسائر البشرية والمادية في صفوف الاحتلال؛ عملاً

بقاعدة: «النصر ليس للأقوى، بل هو للأقدر على التسبب في الأذى»، ومن هنا تبدو أهمية استخدام استراتيجية الاستنزاف التي تقوم على إطالة أمد الحرب مع زيادة تكاليف البقاء، إلى الدرجة التي تصبح فيها تكلفة

البقاء أكبر من مصلحة البقاء، فاستخدام أسلوب حرب العصابات والكر والفر يُحدث عملية الاستنزاف للآلة العسكرية الضخمة للاحتلال، لتتمكن من تجاوز عقبة التفاوت في القدرة العسكرية، وتحول محور الحرب من حرب يعتمد النصر فيها على الأقوى عسكرياً وتقنياً إلى حرب إرادات؛ يعتمد النصر فيها على الصمود وإقناع الطرف الآخر بحتمية الهزيمة، ودفعه للاستسلام، فيما يمكن تسميته بعمليات لي الذراع، أو العَضّ المتبادل لكسر إرادة الخصم.

- تنويع محاور المواجهة: لا يمكن التصدي للمشروع الأمريكي المتعدد الأهداف في أفغانستان بمجرد المقاومة العسكرية وحدها، بل لا بد من التحرك على محاور مواجهة متعددة يكون العمل العسكري دعماً لها؛ بحيث تُستثمر نتائج الفعل العسكري على المستوى السياسي والاجتماعي والدعوي والإعلامي، حتى تتضافر الجهود لإفشال

القتال ضد طالبان، مثل الجبهة الوطنية بقيادة أحمد جيلاني، والأحزاب التي انضمت إلى المشروع بعد ذلك كحركة الانقلاب الإسلامي.

وتُسوّغ هذه الأحزاب مشاركتها مع الأمريكيين في القتال ضد طالبان بالمصالح المشتركة بين أمريكا وبين تحالف الشمال، فكان الطرفان يريدان التخلص من نظام طالبان... ولم يكن التخلص من نظامها ممكناً إلا بمساعدة الجهات الخارجية.

ويقول المعارضون لهذا التوجه: «إنه لا شك أن نظام طالبان كان يعتمد على بعض الجهات الخارجية

إلى حد كبير، وكان تصورهم لحل المشكلة مع الأطراف الأفغانية الأخرى عسكرياً بحثاً، ومبنيًا على استسلام تلك الجهات لهم، لكن مع ذلك لم يكن يصح في العرف الشرعي، ولا في العرف الأفغاني أن يتعاون التحالف الشمالي مع الأمريكيان لإسقاط

نظام طالبان؛ لأن المستفيد في مثل هذه الحالة هو الطرف الأقوى.

وتُسوّغ تلك الأحزاب مشاركتها في العملية السياسية بأن عدم المشاركة في السلطة كان يعتبر ترغماً للساحة للعلمانيين والمفسدين.

إن المفسدة التي تترتب على مشاركة هذه الأحزاب بقيادة الشخصيات التي قادت الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي في السلطة في ظل الاحتلال الأمريكي، في ظل الجهود التي تبذلها أمريكا لتغريب أفغانستان-كل هذا يعطي الشرعية للاحتلال الأمريكي لأفغانستان، وإعطاء الشرعية للاحتلال مفسدة لا تساويها مصلحة». (٢٢)

استراتيجية طالبان للعودة والسيطرة :

وفقاً لمعطيات الوضع في أفغانستان فإن الحاجة تشتد لدى طالبان لوضع استراتيجية واضحة المعالم

لا يمكن التصدي للمشروع الأمريكي المتعدد الأهداف في أفغانستان بمجرد المقاومة العسكرية وحدها، بل لا بد من التحرك على محاور مواجهة متعددة يكون العمل العسكري دعماً لها

تتراوح بين التحالف والحياد والردع وغيرها للوصول إلى تحييد بعض الأعداء، والتعاون مع ذوي التوجهات المقاومة لتعظيم نتائج المقاومة، وحصر دائرة الصراع الأساسية مع الاحتلال.

وربما أدت طريقة عمل طالبان المنفردة لعملية حشد للأعداء ضدها، وهو خطأ كبير من حيث فتح العديد من الجبهات المعادية، والحكمة تقتضي تحديد الأولويات في ظل محدودية الإمكانيات وكثرة التحديات، ما يستدعي العمل على تبني استراتيجيات تعكس ترتيباً صحيحاً للأولويات، وتضمن تماسك الجبهة المقاومة، وحصر دائرة الصراع مع الاحتلال. كما أن الدخول في توافق استراتيجي مع الفصائل المقاومة يقلل من احتمالات نجاح عمليات اختراق المقاومة أو إضعافها.

ويحتاج توحيد الصف ضرورة ألا تتحول الاختلافات بين الفصائل إلى ألوان من الصراعات التي تستنزف ثمار المقاومة، ما يستلزم الاستعداد لفتح قنوات اتصال مع القوى الأفغانية المؤثرة، والسعي لتكوين جبهة موحدة تضم الفئات المعارضة للاحتلال، وتوزيع أعمال المقاومة الشاملة عليها. وهي بهذا تضمن تجاوز أحد أهم العقبات التي واجهتها مسبقاً المتمثلة في الاتهام بالانعزال.

- تنشيط الجانب الإعلامي:

يمثل الإعلام في المرحلة القادمة للمواجهة أهمية خاصة للمقاومة على المستوى الداخلي والخارجي، وتمثل هذه الأهمية في محورين أساسيين:

الأول: دعم ما حققته طالبان والمقاومة من إنجازات، وضمنان تجدد روافد الدعم للمحافظة على مؤشر الصعود، وتقديم غطاء شعبي للمقاومة، خاصة في حال توسع تحركاتها عسكرياً وسياسياً، والذي يتطلب نوعاً من التأييد الجماهيري، مع التأكيد الإعلامي على أهمية المقاومة، والحرص على رسم صورة جيدة للمقاومين في أذهان الشعب.

الثاني: كشف الاحتلال ومخططاته التي تهدف

المشروع الأمريكي في أفغانستان، والذي يتحرك أيضاً على عدة محاور عسكرية وسياسية وإعلامية.

والتحرك الواعي الذي يتجاوز بشمولية مجرد الفعل العسكري يتحقق عن طريق تشكيل هيئات وطنية في المناطق التي تقع تحت سيطرة طالبان تشرف عليها كوادر من الحركة، وتضم عناصر ورموز من تيارات شتى تحظى بوجاهة قبلية أو جهادية يجمعها رفض الاحتلال، وتتولى -في ظل غياب تأثير الحكومة العميلة- إدارة شؤون تلك المناطق التي تقع تحت سيطرتها أمميًا واجتماعيًا وتعليميًا، وتمثل غطاءً شعبيًا مؤيداً لطالبان من جهة، وضمناً لاستقرار متدرج للأوضاع في الأراضي التي تسيطر عليها الحركة، كما أن تلك التجربة عند نجاحها قد تمثل نموذجاً يُعري بقية المناطق بقبول سيطرة طالبان، أو التعاون معها لتجاوز مرحلة عدم الاستقرار الذي تعاني منه.

ولمواجهة عملية التغريب التي بدأها الاحتلال، تبرز أهمية تنشيط العمل الاجتماعي والدعوي العام لمنع انتشار الفساد الخلقي والاجتماعي في أوساط الناس، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق الأنشطة الاجتماعية، وعن طريق تفعيل دور المساجد، وإيجاد الجمعيات الصغيرة المحلية.

وهذا الدور قريب الشبه بما قامت به طالبان بنجاح، وهي في طريقها للاستيلاء على السلطة عام ١٩٩٦، وهي بهذا التنسيق تضمن التوازن بين الصعود العسكري، والصعود السياسي والدعم الشعبي بما يقلل من احتمالية نشوب حرب أهلية في حال انسحاب الاحتلال.

- **توحيد الصف وحصر دائرة الصراع:** تحتاج المرحلة المقبلة للمواجهة جاهزية فصائل المقاومة لتكون على مستوى عالٍ من الواقعية والعملية؛ إذ من الصعوبة بمكان قيام فصائل واحدة من فصائل المقاومة بمفرده بمواجهة كامل التحديات التي أفرزها واقع الاحتلال لضخامتها، ما يستدعي من طالبان العمل على استخدام تكتيكات متنوعة مع الفصائل الأفغانية،

قوة الترابط بين عناصرها، وقد يكون من المناسب حينها إتاحة الفرصة لباكستان ذات العلاقات القديمة مع طالبان - والتي أضر سقوط طالبان بمصالحها الاستراتيجية في أفغانستان - للقيام بدور الوسيط أو المهندس لعملية الاحتواء لبعض قادة طالبان لكسبهم وضمّان ولائهم، في مقابل عرض يسمح بعودة طالبانية، ولكن هذه المرة بوجه مختلف أكثر مرونة، يضمن الحد الأدنى من المصالح الأمريكية بأفغانستان، ويقبل بإبعاد خطر القاعدة.

ورغم أن هذا السيناريو صعب التنفيذ؛ لتماسك الصف الطالباني، وصعوبة اختراقه للدرجة التي أفشلت محاولات شبيهة سابقة، إلا أن هذا السيناريو يبقى مطروحًا كخيار للخروج من هذه الأزمة المعقدة التي تواجه الحكومة العميلة، التي لا تستطيع أن تتجاوز طالبان في أي تسوية مقبلة؛ بسبب الوضع القبلي والعسكري المتميز لطالبان.

ويقوّي هذا السيناريو المحتمل رفض بعض قادة طالبان - أثناء فترة حكمها - لتحركات ابن لادن وأنشطته؛ حيث كانوا يرون «أن نشاط أسامة المعادي للقوى الدولية والإقليمية سيؤدي إلى عزلة نظام طالبان سياسيًا، وانقطاعه عن المجتمع الدولي». (٢٣)

خاتمة:

إن كان ميزان القوة العسكرية يميل بوضوح لصالح قوات الاحتلال في أفغانستان، إلا أن مفهوم القوة التي من شأنها حسم الصراعات والحروب يتعدى دائرة القوة العسكرية إلى الكثير من دوائر القوة الأخرى، التي لو وُضعت في الاعتبار ربما غيّرت الموازين بين الأطراف المتصارعة، وعلى رأسها قوة الإرادة ومدى القدرة على الصمود والتحمل، والاستعداد للتضحية، ورسوخ القناعة لدى أطراف الصراع بسلامة أهدافهم من جانب، والقدرة على تحقيقها من جانب آخر، وهو ما يبدو أنه يرجح كفة طالبان.

وإذا كان من الصعب عسكريًا على طالبان تحقيق

لتغريب المجتمع الأفغاني؛ وتسليط الضوء على حصاد سنوات الاحتلال، وما أدى إليه من تدهور الأوضاع الاقتصادية والأمنية والاجتماعية، وتسليط الضوء على الممارسات الخاطئة للاحتلال، وتصحيح الصورة السلبية لدى الرأي العام العالمي المتأثر بزيغ الدعاية الأمريكية السيئة عن طالبان.

سيناريوهات أمريكية محتملة لمستقبل أفغانستان:

١- سيناريو الحرب الأهلية:

مع تصاعد خسائر الاحتلال، وعدم تمكن أمريكا من وقف نزيف خسائرها في أفغانستان مع عدم القدرة على تحقيق إنجازات مما سبق وأعلنته، يكون من المتوقع أمريكيًا للخروج من الأزمة الأفغانية بإصالح الوضع إلى حالة من الفوضى، وإشعال فتيل الاقتتال الداخلي لإعادة البلاد للحرب الأهلية عن طريق دعم الفصائل المتناحرة عسكريًا، وإثارة النزعات الطائفية، وإدخال البلاد مارشون «طويل المدى» بين زعماء الفصائل المسلحة للحصول على مناطق نفوذ، ليصل الوضع في النهاية إلى حالة من عدم الاستقرار لفترة طويلة، يصعب معها على طالبان السيطرة على مجريات الأحداث أو الوصول للسلطة؛ مما قد يمثل متفلسًا لأمريكا، وضمانة مستقبلية لتجنب خطر صعود طالبان وعودتها للسلطة، ولو إلى حين. ويزر في هذا السيناريو أهمية الدور المتوقع لبعض حلفاء أمريكا في المنطقة المحيطة بأفغانستان، والذين من مصلحتهم إدخال أفغانستان في دوامة من العنف ووقف التمدد الأصولي.

٢- سيناريو الاختراق:

اختراق الصف الطالباني عن طريق اجتذاب «المعتدلين» من طالبان، ودمجهم في العملية السياسية لخلق الصف، وإضعاف المقاومة الطالبانية بإفقادها واحدًا من أهم عوامل ثباتها؛ والمتمثل في

الهوامش:

- (١) تصاعد العمليات المسلحة لحركة طالبان، الجزيرة «بتصرف»، تاريخ الحلقة: ٢٨/٤/٢٠٠٦.
- (٢) تقرير دولي يتوقع تزايد هجمات «طالبان» ضد قوات «الناتو» صحيفة البيان، الإثنين ٥ يونيو ٢٠٠٦، ٩ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ.
- (٣) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/09/17/AR2006091700570_pf.html
- (٤) في خضم المواجهة: طالبان تضرب بقوة في أفغانستان: بقلم علي عبد العال: مجلة العصر ٩/٢/٢٠٠٦.
- (٥) لماذا استعادت «طالبان» سطوتها القتالية؟ أنتوني دايلان، المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب ٢٣/٣/٢٠٠٦.
- (٦) الدول المانحة تعهد بتقديم ملياري دولار إلى أفغانستان، بي بي سي عربي، ٣١/١/٢٠٠٦.
- (٧) تقرير لمعهد الولايات المتحدة للسلام، نوفمبر ٢٠٠٦ (www.usip.org).
- (٨) قائد قوات الناتو في أفغانستان: ٧٠٪ من الأفغان سيتحولون لمساندة طالبان ما لم تحسن ظروف معيشتهم خلال الشتاء، الأهرام، ٩/١٠/٢٠٠٦.
- (٩) أضرمت النيران بعدد من مراكز الشرطة وساحة البرلمان، ورفع المتظاهرون شعارات منددة بالوجود الأمريكي «الموت لأمريكا» وحكومة قرضاي، وهو مؤشر خطير ضد قوات «التحالف» والحكومة الأفغانية.
- (١٠) المهمة الفاشلة للسيطرة على المقاومة الأفغانية (٢-٢)، مجلة العصر، ٢١/١١/٢٠٠٥.
- (١١) لكل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا قوات منتشرة في المناطق التي تقل فيها سخونة العمليات العسكرية في شمال وغرب أفغانستان، إضافة إلى بعض المناطق حول كابول. غير أن هذه الدول عبرت خلال قمة حلف «الناتو» التي عقدت في العاصمة اللاتفية ريجا، عن ترددها في نشر قواتها في المناطق الجنوبية الأشد خطراً.
- (١٢) http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/09/17/AR2006091700570_pf.html
- (١٣) <http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2006/09/19/utaliban.xml>
- (١٤) التحول في استراتيجيات حلف الناتو، مجلة الحرس الوطني.
- (١٥) طالبان تنفي إجراء محادثات سرية مع قوات الناتو، الجزيرة نت، الجمعة ١/٨/١٤٢٧ هـ - الموافق ٢٥/٨/٢٠٠٦ م.
- (١٦) وزير الدفاع البريطاني يعترف بشراسة المقاومة بأفغانستان، الجزيرة نت، الثلاثاء ٢٦/٨/١٤٢٧ هـ - الموافق ١٩/٩/٢٠٠٦ م.

نصر كبير يجبر قوات الاحتلال في ظل الوضع الحالي على انسحاب قريب، إلا أنه من الصعب أيضاً على الاحتلال أن يتحمل مزيداً من الخسائر إلى ما لا نهاية.

وبالنظر في المعطيات السابقة وما آل إليه المشهد الأفغاني يمكن أن نستشف ما قد يؤول إليه الحال في أفغانستان، من تزايد هجمات رجال المقاومة، واستمرار تصاعد النفوذ الطالباني سياسياً وعسكرياً، وزيادة الخسائر في قوات الاحتلال ما يعني اهتزاز الوضع الأمني الرخو في الأساس، وتراجع قوي لمخططات الاحتلال وفشل أهدافه، وزيادة اعتماده على القوات الحليفة التي لا تستطيع تقديم تضحيات كبيرة، وتحمل مزيد من الخسائر دون وجود نجاحات تذكر؛ يمكن بها إقناع شعوب تلك الدول بإطالة فترة البقاء في أفغانستان، ما يعني حتمية الانسحاب في مدى زمني يصعب التنبؤ بقربه في ظل خطورة النتائج المتوقعة لمثل هذا الانسحاب، وتأثيره على تماسك الجبهة الدولية لمحاربة الإرهاب، وتأثيره على وضعية أمريكا الدولية وخططها للهيمنة.

ومع بقاء معطيات المشهد الأفغاني كما هي تصب في غالبها في صالح المقاومة، يمكن التأكيد على فشل المشروع الأمريكي في أفغانستان؛ لتجاوزه معطيات الثقافة والتاريخ والجغرافيا الأفغانية، ومحاولته الالتفاف على واقع أفغانستان لاستنبات مفاهيم تصطدم بالبيئة الأفغانية المحافظة.

ويبقى أن مسألة انسحاب قوات الاحتلال أصبحت حتمية، لا يمنع منها سوى محاولات يائسة للاحتلال قد تستغرق بعض الوقت لتحسين الصورة أو تحقيق أية مكسبات.

- (١٧) في حديث لقناة تليفزيونية خاصة قال «فضل الرحمن» النائب البرلماني الباكستاني: إن «المجتمع الدولي يجب أن يعترف أن طالبان هي القوة الكبرى في أفغانستان، وأن أي تحرك من أجل استعادة الهدوء سيكون بلا جدوى ما لم يتم ضم طالبان إليه». فضل الرحمن: لا سلام بأفغانستان دون محادثات مع طالبان، مفكرة الإسلام، ٢٢/١١/٢٠٠٦ م.
- (١٨) قوات الناتو في أفغانستان تتهم المخابرات الباكستانية بدعم طالبان، الأهرام، السنة ١٣١، العدد ٤٣٧٦٩، ١٤ رمضان ١٤٢٧ هـ، ٧/١٠/٢٠٠٦ م.
- (١٩) حقيقة الغزو الأمريكي لأفغانستان، د. مصباح الله عبد الباقي، الفصل الثاني، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- (٢٠) استراتيجية التنسيق بين طالبان والقاعدة، الوطن العربي، العدد ١٥٢٢.
- (٢١) واشنطن تحصر الحرب على الإرهاب في مكافحة القاعدة، الجزيرة نت، ٤/٧/١٤٢٧ هـ - ٢٩/٧/٢٠٠٦ م.
- (٢٢) حقيقة الغزو الأمريكي لأفغانستان، بتصرف، د. مصباح الله عبد الباقي، الفصل الخامس، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- (٢٣) المرجع السابق.

معلومات إضافية

أفغانستان تاريخ طويل:

- الاسم الرسمي: دولة أفغانستان الإسلامية.
- العاصمة: كابول، ٢٠٢٩، ٢ مليون نسمة.
- المدن الرئيسية: كانداهار، حيرات، مزار الشريف، جلال آباد.
- المساحة: ٢٥٠ ألف ميل مربع (٦٤٧٥٠٠ كم^٢).
- السكان: ٢٥,٨٢٥ مليون نسمة.
- اللغات: البوشتو، داري الفارسية، الأفغانية، ولغات أخرى.
- الديانة: الإسلام (٨٥٪ سنيون، ١٥٪ شيعة).
- معرفة القراءة والكتابة: ٣١,٥٪.
- التقسيمات الإدارية: ٣٢ مقاطعة.
- الاقتصاد: العملة: أفغاني، ويساوي ١٠٠ بل.
- إجمالي الناتج المحلي: ١٩,٣ مليار دولار.
- الأراضي الزراعية: ١٢٪.
- المنتجات الرئيسية: القمح، القطن، الفواكه، الياقوت، الصوف.
- الثروة الحيوانية: الضأن ١٤,٣، الماعز ٢,٢ مليون، الأبقار ١,٥ مليون، الدواجن ٧,٢ مليون.
- موارد أخرى: صوف، جلود كراكون، لحم الضأن.
- إنتاج الكهرباء: ٤٨٥ مليون.
- الصادرات: الفواكه الطازجة والمجففة، الغاز الطبيعي، السجاد.
- الواردات: المنتجات البترولية والمواد الغذائية.
- الشركاء التجاريون: أوروبا الشرقية، رابطة الدول المستقلة، اليابان، الصين.

• جغرافيا البلاد: بلد داخلي: تحدها من الشمال جمهورية تركمنستان وأوزبكستان وطاجكستان، وفي أقصى الشمال الشرقي الصين، وفي الشرق والجنوب باكستان، وفي الغرب إيران. وهي بلد جبلي تقسمه جبال هندوكوش الممتدة من الشرق إلى الغرب. والجنوب الغربي صحراء، وتغطي الجبال معظم البلاد، وتعلو قممها الجليد، وتقطعها الوديان العميقة، وفي الشمال الغربي وادي حيرات الخصب.

• المناخ: قاري، الشتاء قارص يزيد الارتفاع من حدة برودته، والصيف دافئ، ومعظم الأمطار تسقط في الربيع والخريف.

• التاريخ: تحتل البلاد موقعًا استراتيجيًا بين رابطة الدول المستقلة (CIS) والصين وكشمير وباكستان وإيران؛ ولذا تلقت مساعدات كثيرة للتنمية من الولايات المتحدة، ومن الاتحاد السوفيتي، وكانت إنجلترا تنظر إليها على أنها الجسر الذي يربط بين الهند والشرق الأوسط، لكنها فشلت في السيطرة عليها؛ رغم قيامها بسلسلة من الحروب الأفغانية كان آخرها عام ١٩١٩م.

كان داريوس الأول والإسكندر الأكبر أول الغزاة الذين استخدموا أفغانستان كبوابة للهند، وفي القرن السابع وصل إليها الفاتحون المسلمون، وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر جاء إليها جنكيز خان وتيمور لنك.

وفي القرن التاسع عشر كانت أفغانستان مسرحًا للعمليات الحربية في الصراع بين الإمبراطورية البريطانية وروسيا القيصرية من أجل السيطرة على آسيا الوسطى، وقاد دوست محمد، ومن بعده ابنه، ثم حفيده حربين ضد بريطانيا في النصف الأول، وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، لكن أفغانستان استردت الحكم الذاتي بمقتضى الاتفاقية الإنجليزية الروسية في عام ١٩٠٧، ثم حصلت على استقلالها التام بمقتضى معاهدة روالبندي في عام ١٩١٩، وفي عام ١٩٢٦ قام الأمير أمان الله بتأسيس المملكة الأفغانية وراح يعمل على تحديثها.

كان آخر ملوكها محمد ظاهر شاه الذي ظل يحكم البلاد من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٧٣، عندما أطاح به انقلاب عسكري بقيادة الفريق محمد داود خان، الذي حوّل البلاد إلى جمهورية، ونصّب نفسه رئيسًا لها، لكن أُطيح به في انقلاب ١٩٧٨ بقيادة نور تركي الذي حاول إقامة دولة ماركسية في أفغانستان بمساعدة الاتحاد السوفيتي، لكن ذلك لقي مقاومة مسلحة من المعارضة الإسلامية.

وفي النهاية تولى بيرك كرمل الحكم خلفًا لتركي، ودعا كرمل القوات السوفيتية إلى دخول البلاد في ظل معاهدة دفاع مشترك.

وفي ديسمبر ١٩٧٩ قام الاتحاد السوفيتي بغزو البلاد، لكنه لقي من أهلها مقاومة شرسة لم يكن يتوقعها أحد، ونتج عنها حرب دموية، كان على الجنود السوفيت أن يقاتلوا رجال

القبائل الذين سموا أنفسهم «المجاهدين»، وفي بداية القتال كان كثير من المجاهدين مسلحين بالبنادق، لكنهم حصلوا فيما بعد على أسلحة حديثة، ومنها الصواريخ التي استخدموها في مهاجمة المنشآت السوفيتية.

وفي أبريل ١٩٨٨ وقّع الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وأفغانستان وباكستان اتفاقيات تدعو إلى وقف المساعدات الخارجية إلى الطوائف المتحاربة؛ وذلك في مقابل انسحاب السوفيت من البلاد بحلول عام ١٩٨٩، وهو ما تم في فبراير ١٩٨٩، وتركت القوات السوفيتية وراءها القوات الحكومية عُرضة لهجمات المجاهدين المتزايدة.

وفي عام ١٩٩٢ أطاحت قوات المجاهدين بالحكومة، وأقام المجاهدون حكومة جديدة في كابول، لكن اندلع القتال بين طوائف المجاهدين مما تعذر معه قيام حكومة فعالة في البلاد؛ وتفتت البلاد إلى أقاليم قبلية، إلى أن تمكنت «طالبان»، وهي طائفة إسلامية سلفية أصولية، وفرضت على البلاد أعراف وتقاليد الحكم الإسلامي، وفي شمال البلاد يوجد زعماء متوافنون لحرية طالبان.

حققت طالبان الانتصارات في المدن الشمالية: في مزار الشريف وطلوقان في أغسطس ١٩٩٨، مما أعطى لطالبان السيطرة على أكثر من ٩٠٪ من البلاد، وأثناء الاستيلاء على مزار الشريف قتل عدد من الدبلوماسيين الإيرانيين مما زاد من حدة التوتر مع إيران، وفي ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ ضربت الصواريخ الأمريكية الموجهة جنوب شرق مدينة كابول؛ حيث زعمت الولايات المتحدة وجود معسكرات لتدريب المجاهدين يديرها رجل الأعمال السعودي الشهير أسامة بن لادن.

• أفغانستان عضو في الأمم المتحدة.

أفغانستان، معجم بلدان العالم (بصرف)،
محمد عترس، الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٢، ص ٣٣، ٣٢.

تقرير لمعهد الولايات المتحدة للسلام عن الوضع في أفغانستان

• عندما دخلت الولايات المتحدة أفغانستان منذ خمس سنوات من عام ٢٠٠١، تركز هدفها على العمليات العسكرية، وضرب تنظيم القاعدة، ولم يكن لديها خطط تهدف إلى إعادة البناء، وفي عام ٢٠٠٤ وضعت خطة مشتركة بين وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) بهدف إعادة بناء أفغانستان، لكن ظلت الخطوات العملية محدودة للغاية، وعلى سبيل المثال، بالمقارنة مع إنفاق ١٣٠ مليون دولار لإجراء الانتخابات، فإن من ٨ إلى ١٠ ملايين دولار المخصصة حالياً لا تكفي بالمرّة لتطبيق الديمقراطية في شعب تعداده ٣٠ مليون.

* بعد مرور خمس سنوات على احتلال أفغانستان، وسقوط حكومة طالبان، يبدو أن حكومة قرضاي والمجتمع الدولي يخسران معركة الثقة مع الشعب الأفغاني، وهناك عدة مؤشرات مهمة على هذا التقييم:

- زيادة كبيرة في العمليات «الانتحارية» (حسب تعبير التقرير).

- تصاعد الكراهية لدى المواطن الأفغاني تجاه الغربيين.

- تضاعف أعداد المواطنين الأفغان المترددين بين تأييد طالبان أو تأييد الحكومة.

إزاء هذه المؤشرات على الولايات المتحدة أن تدفع بقوة نحو تثبيت وضع الحكومة الأفغانية ومنحها الشرعية، وذلك بضخ موارد، وبناء مؤسسات يمكنها تقوية حكومة قرضاي واكتساب ثقة الشعب الأفغاني.

* الوسائل العسكرية والأمنية ليست هي الحل في التعامل مع الوضع في أفغانستان، وإنما يتجسد الحل الأساسي في إيجاد مناخ مستقر سياسيًا وأمنيًا، وذلك أولاً بآتاحة الفرصة أمام التطور السياسي والتنمية الاقتصادية، وأن تمتلك حكومة قرضاي الشرعية، ثم بتوجيه الاهتمام الكافي إلى المؤسسات والأجهزة المعنية بالحفاظ على الأمن، مثل القضاء والشرطة، وأبرز هذه الأطراف كل من باكستان وإيران؛ إضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

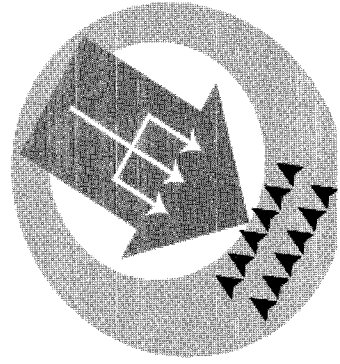
من أبرز الاحتياجات التي ينبغي توفيرها في أفغانستان، أن يصل الدعم المادي والعيني إلى مختلف المناطق الأفغانية، فمن ناحية لم تتمكن حكومة حامد قرضاي بعد من فرض سيطرتها على كافة المناطق الأفغانية، ومن ناحية أخرى لا يتاح للمنح والمخصصات المالية التي تتلقاها أفغانستان أن تصل إلى أهدافها؛ وذلك بسبب الفساد المالي والإداري، وتضخم دور البيروقراطية، والنتيجة هي نقص الخدمات الأساسية، وغيابها أحياناً عن كثير من المناطق الأفغانية.

تقرير لمعهد الولايات المتحدة للسلام:

UNITED STATES INSTITUTE OF PEACE

<http://www.usip.org>

نوفمبر ٢٠٠٦



المقاومة العراقية وتحولات المستقبل

أحمد محمود - مصر

باحث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص البحث:

لقد نبين عجز القوة العسكرية الأمريكية والعربية عن تحقيق الانتصار أمام مجموعات المقاومة الإسلامية في العراق، ووقعت أمريكا في فخ يبدو أنها لا تجد لها مخرجاً منه، وأغلقت الطرق أمام الخروج من هذا المستقع الذي أوقعت نفسها فيه منذ أربع سنوات.

كان انكسار العسكرية الأمريكية، وما لحق ذلك من توابيع من أكبر الإنجازات التي حققتها المقاومة الإسلامية في العراق؛ ومن ثم ألقى هذا الانكسار بظلاله على رفقاء السلاح من قوات التحالف الدولية في العراق؛ فاضطر الكثير منها للانسحاب.

وتمثل التساؤلات حول استراتيجيات المقاومة للمرحلة القادمة، والخطط المعدة لمواجهة التطورات، ومدى قدرة المقاومة على التعامل مع المتغيرات التي يمكن أن يتم عنها انسحاب الاحتلال، ملمحاً هاماً يجب على المقاومة العراقية الاستعداد له بما يناسب خطورته، كما تحتاج التساؤلات حول جاهزية المقاومة لمواجهة السيناريوهات الأمريكية للحرب الأهلية، إلى إجابة واعية ومدركة لطبيعة الواقع العراقي الحالي، وأبعاده المستقبلية، وعلاقاته بالمحتل الأمريكي ودول الجوار.

إن التحديات المستقبلية للمقاومة العراقية فيما يتعلق بتصوراتها للتعامل مع دول الجوار، ومراجعة أوضاعها مع تلك الدول - في ظل تخوف الأنظمة العربية لدول الجوار من فكر المقاومة العراقية - تحتاج إلى التفكير المنهجي والواقعي، والتخطيط على أسس علمية، بما يحقق المصلحة ويؤمن المستقبل، ولا يمكن لحركة تحرير أن تحاصر نفسها بافتعال عداوات مع دول الجوار، التي تعد العمق الاستراتيجي لها، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع سياساتها. وليس من مصلحة المقاومة العراقية صنع عداوات مع حكومات دول الجوار التي تساند شعوبها المقاومة.

ولطبيعة السيناريوهات القادمة، والتي سبترتب عليها تغيرات استراتيجية بالمنطقة والعالم؛ فإن المقاومة مطالبة بتطوير أساليب تفكيرها؛ كي تحافظ على حجم الإنجاز الذي تحققت على ساحة الجهاد، والاستعداد بخطط واستراتيجيات مدروسة لإفشال التخطيط المعادي.

أفكار ومقتطفات

- لا تريد الإدارة الأمريكية الاعتراف رسميًا بالهزيمة؛ لما لذلك الاعتراف من دلالات تتجاوز الإطار العسكري، وفي نفس الوقت فهي غير قادرة على الصمود فترة طويلة وسط الاستنزاف العسكري اليومي في العراق، وبسبب تنامي الضغط الداخلي الشعبي والسياسي من الديمقراطيين الذين يريدون الإطاحة بحكم المحافظين.

- نحن أمام معركة أخرى لا تقل أهمية عن المعركة العسكرية في غرب العراق على الأرض، وهذه المعركة ستكون أشد ضراوة وأكثر ذكاء. سينزل فيها الغرب بثقله السياسي والدبلوماسي، وهذه المعركة تفرس على المقاومة العراقية الاستعداد لمواجهة التحركات القادمة بأفكار تتناسب مع ما سيأتي مع الأيام.

- ارتفع عدد قتلى الجنود الأمريكيين إلى ١٥٠٠٠ قتيل، وبلغ عدد الجرحى ٢٧٠٠٠ جريح، وبلغ عدد القتلى المتعاقدين مع الجيش الأمريكي ٦٤٧ قتيلًا، وعدد جرحى المتعاقدين ٩٣٦ جريحًا (يبلغ إجمالي المتعاقدين المدنيين الموجودين في العراق ١٠٠ ألف شخص).

- اعترف الأدميرال فالون، أكبر قائد عسكري أمريكي في منطقة الشرق الأوسط، بأن بلاده أخطأت في تقدير حجم قدرات القوات العراقية والمقاتلين العراقيين، وأخطأت في حساباتها بشأن قدرة القوات العراقية على تولي مهمة الأمن في العراق، وأخطأت في الوقت نفسه فيما أسماه «صمود الأعداء».

- لقد جاء الوقت الذي يتحدث فيه بوش كرئيس منكسر ومنهزم، ففي العام الماضي وقف بوش أمام الكونجرس كرجل يرفض التنازل عن أي موقف له حول العراق؛ متهمًا الديمقراطيين باتخاذ موقف انهزامي إزاء الحرب، أما هذه المرة فقد كانت المسألة مختلفة؛ حيث استجدي بوش الديمقراطيين والكثير من الجمهوريين ليتفقوا معه حول خطته الرامية إلى إرسال المزيد من الجنود إلى العراق. (الصحافة الأمريكية).

- ارتكزت الحملة العسكرية لاحتلال العراق في مارس ٢٠٠٣ بشكل أساسي إلى حملة تعبوية إعلامية مضللة؛ بدعوى امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل، واستمراره في تطوير تلك البرامج بعد حرب ١٩٩١. وقد أعلن الكونجرس فيما بعد كذب هذه الادعاءات، وثبت أن حملة الخداع الشامل التي ساقتها الإدارة الأمريكية لم تكن إلا لتسويق حربها على العراق وتقديم تبرير منطقي لاحتلاله.

- من المؤشرات على انعكاس الحرب سلبيًا على الاقتصاد الأمريكي أن العجز السنوي في الميزانية زاد عن ٤٠٠ مليار دولار. وزادت ديون أمريكا عن ٤,٥ تريليون دولار، وانخفض الدولار الأمريكي نسبة ٣٠٪: ٣٥٪ منذ بداية الحرب.

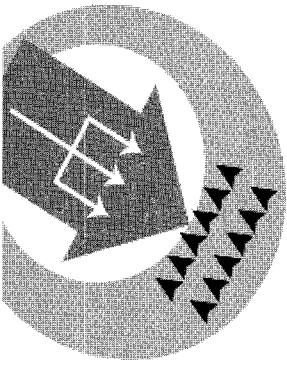
- عجزت الإدارة الأمريكية عن الوفاء بتعهداتها لشركات النفط الأمريكية؛ وذلك بسبب انعدام الأمن حول آبار البترول العراقية، فعندما أدركت المقاومة ما للنفط من دور في أهداف الغزو الأمريكي، قامت بعمليات هدفها الأساسي تدمير أنابيب ومصافي النفط، حتى أصبح الاحتلال يستورد احتياجات جنوده من الخارج.
- هذا الفشل الأمريكي لا يعني أن المعركة انتهت، أو قاربت على الانتهاء، ما هو قادم ربما يكون أخطر من الذي مضى. ومن هنا فإن هذا البحث يطرح بعض السيناريوهات المتوقعة، ويلفت الانتباه إلى علامات استفهام تقتضي البحث لها عن إجابات.
- تسير استراتيجية الاحتلال في اتجاهين. الأول: يعتمد على الشبعة كأساس لحكم العراق، وتوسيع دائرة المتعاونين من السنة. وفي الاتجاه الآخر، العمل على تفكيك جبهة المقاومة، وبذر الشقاق بين الفصائل المجاهدة السنة.
- استطاعت المقاومة أن تُفشل فكرة الحكم المستقر بعملياتها التي استنزفت الاحتلال والمتعاونين معه، وفي ذات الاتجاه وبسبب التعصب المذهبي فشل الشبعة المتعاونون مع الاحتلال في تقديم صورة مرضية عن حكومة عراقية تحظى باحترام العراقيين، فضلاً عن باقي العالم.
- إن إعداد جناح سياسي يحمل تصورات ومبادئ وأفكار المقاومة، لن يقل بحال من الأحوال عن دور جناحها العسكري، بل سيسهم بقوة في تحقيق أهدافها إلى جانب أنه سيقود مسيرة الانتصارات العسكرية ويوظفها التوظيف الصحيح، فضلاً عن توزيع الأدوار في الجناح السياسي بما يتفق والأهداف القريبة والبعيدة.
- ليس من مصلحة المقاومة العراقية صنع عداوات مع حكومات دول الجوار التي تساند شعوبها المقاومة، ولا يمكن أن تضع المقاومة دول الجوار السنة في خندق مُعادٍ، وتساوي بينها وبين إيران في موقفها من العراق.
- استغل الأمريكيون التعصب الطائفي عند الشيعة، ورغبتهم في إقامة حكم طائفي يرضي نزعتهم الانتهازية.
- من أهم أهداف الحرب على العراق تفكيك الدولة العراقية وإضعافها؛ بحل مؤسساتها العسكرية والأمنية، وتذويب هويتها العربية بدفع المجتمع للتمسك بهويات تجزئية تقسيمية مذهبية أو دينية، أو إثنية أو عشائرية على حساب الوحدة الوطنية العراقية.

- إن جيش مقتدى الصدر ارتكب جرائم بشعة لتشجيع بغداد، ومارس القتل والتعذيب لطرده السنة من العاصمة ليوجد لنفسه «فيدرالية الوسط» ليحكمها؛ بعد أن شعر أن الجنوب تسيطر عليه قوى شيعية أخرى.

- قد يصبح التقسيم المذموم والمرفوض الآن أحسن الحلول السيئة - إن جاز التعبير - وأقلها ضرراً على حياة الناس ومستقبلهم؛ إذا استمرت الحرب الطائفية، وانعدمت وسائل الانفكاك عنها.

- إذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي وجود تعاهدات أو تحالفات مع الطوائف المتناقضة مع الإسلام أو المتباينة في داخله، فلا بأس بذلك؛ تأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم.

- لطبيعة السيناريوهات القادمة، والتي سيشترتب عليها تغيرات استراتيجية بالمنطقة والعالم فإن المقاومة مطالببة بتطوير أساليب تفكيرها؛ كي تحافظ على حجم الإنجاز الذي تحقق على ساحة الجهاد، والاستعداد بخطط واستراتيجيات مدروسة لإفشال التخطيط المعادي.



المقاومة العراقية وتحولات المستقبل

أحمد محمود - مصر

باحث بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

الشعبي، والسياسي من الديمقراطيين الذين يريدون الإطاحة بحكم المحافظين.

إن الاعتراف بالهزيمة له انعكاساته التي لن تقتصر على العراق، وإنما ستمتد إلى وجود أمريكا في المنطقة والعالم.

يقول هنري كسنجر: «إن خسارة أمريكا في العراق معناها خسارة الغرب كله لكل ما حققه في الخمسة قرون الماضية»، ويقول توني بلير: «إن هزيمة أمريكا في العراق هزيمة للغرب كله»، ويحدد «رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة» قيمة انتصار أمريكا على المقاومة العراقية بأنه يساوي أو يزيد في أهميته عن الانتصار في الحرب العالمية. (١)

ونظرًا للنتائج المترتبة على الانكسار الأمريكي في العراق فإن الدول الغربية، حتى تلك التي تقف ضد الحرب، ستسعى لإخراج أمريكا من أزمتها بما يحفظ لها ماء الوجه، وبما يشوّش على حجم الإنجاز الذي حققته المقاومة، والذي سيُحسب للمسلمين ضد الغرب.

نحن أمام معركة أخرى لا تقل أهمية عن المعركة العسكرية في غرب العراق على الأرض، وهذه المعركة ستكون أشد ضراوة وأكثر ذكاء. سينزل فيها الغرب بثقله السياسي والدبلوماسي، وهذه المعركة

تمثل المسألة العراقية في واقعها الحالي، القضية الأبرز على ساحة العلاقات الدولية والصراعات العسكرية؛ نظرًا لما سترتب عليها من تداعيات إقليمية وتغيرات دولية؛ لا يُنتظر أن تتأثر به دول المنطقة فحسب، بل ليس من المبالغة أن نقول: إن تأثيرها قد يغيّر كثيرًا من طبيعة الصراعات المستقبلية، فضلًا عن تأثيرها الكبير على وضعية الهيمنة الأمريكية في العالم.

أصيب الغرب بقيادة الولايات المتحدة بصدمة؛ بسبب النتائج العسكرية الكارثية لغزو العراق طوال ٤ سنوات. لقد عجزت القوة العسكرية الأمريكية والغربية عن تحقيق الانتصار أمام مجموعات المقاومة الإسلامية في أرض الرافدين، ووقعت أمريكا في فخ لا يبدو أنها تجد مخرجًا منه.

لا تريد الإدارة الأمريكية الاعتراف رسميًا بالهزيمة؛ لما لذلك الاعتراف من دلالات تتجاوز الإطار العسكري، وفي نفس الوقت فهي غير قادرة على الصمود فترة طويلة وسط الاستنزاف العسكري اليومي في العراق؛ وبسبب تنامي الضغط الداخلي

والجرحى والمرضى النفسيين، وبين من يهربون من الخدمة العسكرية، إلى جانب التقارير الخاصة بالتقييم العام للحالة العسكرية؛ ولارتباط العمليات بالأهداف المعلنة والمرجوة، ولذلك تسعى وزارة الدفاع والإدارة الأمريكية إلى التزوير والتقليل من شأن عمليات المقاومة، وادعاء أنها موجهة بشكل كبير إلى الطائفية. يؤكد الخبراء العسكريون أن الأرقام المعلنة عن خسائر أمريكا البشرية مجافية للحقيقة، ولا تتفق وحجم العمليات التي تعلنها وزارة الدفاع الأمريكية؛ فضلاً عن الموقف العسكري على الأرض الذي يؤكد عجز الجيش الأمريكي عن السيطرة على الساحة أمنياً وعسكرياً، وأن المقاومة تحقق مكاسب على المستوى الشعبي والعسكري.

وفقاً للأرقام الرسمية من قبل الإدارة الأمريكية حتى أول فبراير ٢٠٠٧م فإنها تشير إلى مقتل ٣٠٢٧ عسكرياً و٢٧٩٠ جريحاً. (٤)

وباستقصاء التقارير الإخبارية الأمريكية والغربية والعربية يمكن الوصول إلى أرقام تزيد عن المعلن أضعاف المرات، وتعبّر بجلاء عن إنجاز المقاومة. يمكن استخلاص الإحصائيات ذات الدلالة من المواقع الإخبارية الأمريكية وتحليلات الخبراء العسكريين الغربيين بوجه عام - حتى فبراير - ٢٠٠٧ على النحو التالي: (٥)

ارتفع عدد قتلى الجنود الأمريكيين إلى ١٥٠٠٠ قتيل، وبلغ عدد الجرحى ٢٧٠٠٠ جريح، وبلغ عدد القتلى المتعاقدين مع الجيش الأمريكي ٦٤٧ قتيلاً، وعدد جرحى المتعاقدين ٩٣٦ جريحاً (يبلغ إجمالي المتعاقدين المدنيين الموجودين في العراق ١٠٠ ألف شخص).

وبلغ عدد المرضى النفسيين من الجنود الأمريكيين مائة ألف جندي. وتشير الإحصائيات إلى أن عدد الذين هربوا من الجيش الأمريكي ٥٥٠٠ فرد منذ بداية الحرب العراقية. (٦)

وتؤكد الأرقام أن المتوسط اليومي لعمليات

تفرض على المقاومة العراقية الاستعداد لمواجهة التحركات القادمة بأفكار تتناسب مع ما سيأتي مع الأيام.

إن هزيمة الاحتلال وإخراجه ليس تحريراً للعراق فقط، وإنما إزاحة للاستعمار الجاثم على صدر الأمة منذ قرون، وتحرير العالم الإسلامي من صور عديدة من الاحتلال، الذي بدأ منذ الكشوف الجغرافية والحملات الاستعمارية وحتى الآن.

يتناول البحث الواقع الجديد الذي أفرزته نتائج المقاومة في الساحة العراقية، وي طرح العديد من الأفكار والتساؤلات الهامة - التي تحتاج لإجابات واعية؛ خاصة من الفصائل المقاومة - حول المتغيرات المنتظرة على الأرض في حال استمرار الاحتلال لفترة قادمة وفي حال انسحابه، وذلك من خلال المحاور التالية:

أولاً: إنجاز المقاومة:

أسقطت المقاومة هبة أمريكا، واستنزفت قوتها العسكرية، وأنهت الحلم الإمبراطوري الذي كان يراود الأمريكيين منذ انفردت الولايات المتحدة بزعامة العالم.

إن بيانات وزارة الدفاع الأمريكية عن حجم عمليات المقاومة - على الرغم من أن فيها الكثير من التقليل من شأن المقاومة الحقيقية على الأرض - إلا أنها تُعد مؤشراً يمكن القياس عليه؛ بالمقارنة النسبية بين هذه الأرقام وبين حجم العمليات المعلنة. يقول أحد هذه التقارير: إن متوسط العدد الأسبوعي للهجمات في العراق قد ارتفع بنسبة ٢٢٪ خلال الفترة من منتصف أغسطس إلى نوفمبر ٢٠٠٦، وارتفع عدد الهجمات إلى ألف هجوم أسبوعياً في مقابل ٨٠٠ هجوم أسبوعياً في الفترة ما بين مايو وأغسطس ٢٠٠٦ (٢)، وزادت هجمات المقاومة بالعراق بمعدل ١٥٪ بين شهري مايو وسبتمبر ٢٠٠٦. (٣)

إن ملامح الانكسار العسكري الأمريكي لتبدو واضحة من خلال قراءة الخسائر البشرية بين القتلى

الخلافات بين القوى الدولية التي كانت تعتمد عليها أمريكا في الدعم العسكري والسياسي، مما أدى لإضعاف التكتل المساند للغزو، مما حرك بعض شعوب الدول المشاركة في التحالف للضغط على حكوماتهم من أجل سحب قواتهم.

ونج عن الضغط العسكري للمقاومة انسحاب ١٣ دولة من العراق، من جملة ٢٢ دولة هم مجموع دول التحالف العسكري في العراق.

كان التحالف يضم: بريطانيا - إيطاليا - بولندا - نيكاراغوا - أسبانيا - الدومينيكان - هندوراس - الفلبين - تايلاند - نيوزيلندا - هولندا - البرتغال - أوكرانيا - تونغا - ملدوفيا - اليابان - كوريا الجنوبية - أستراليا - رومانيا - جورجيا - الدانمارك.

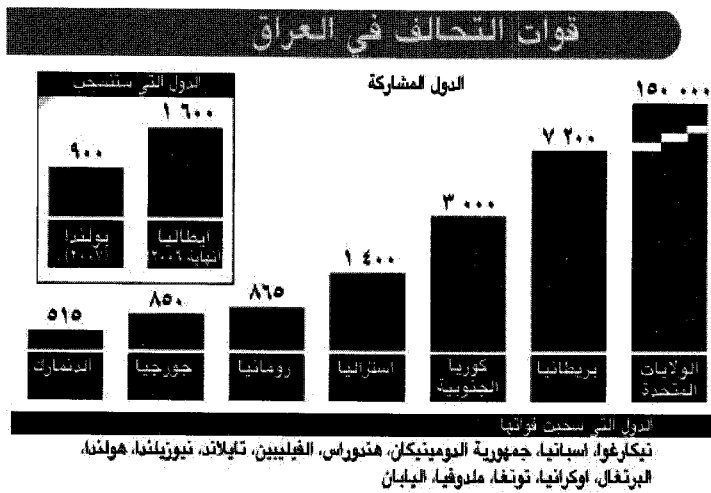
أما الدول التي سحبت قواتها بالفعل حتى يناير ٢٠٠٧ هي: أسبانيا - هولندا - البرتغال - نيوزيلندا - أوكرانيا - اليابان - الفلبين - تايلاند - نيكاراغوا - الدومينيكان - هندوراس - تونغا - ملدوفيا. (٩)

وقد أعلنت دول أخرى أنها ستسحب تدريجيًا مثل بريطانيا وإيطاليا وبولندا. والإعلان البريطاني يشير إلى أزمة الاحتلال؛ نظرًا لكون بريطانيا أقرب حليف

المقاومة العراقية ضد الجيش الأمريكي حسب التقديرات الأمريكية وصل إلى مائة هجوم يوميًا. (٧) وإذا كانت القيادة الأمريكية لازالت تدعي التماسك فإن الانهيار انتشر وسط قواتها على جبهات القتال، ويبدو أن هذه القوات لن تستطيع الصمود. وفي مثال معبر عن حالة الجندي الأمريكي ما حدث من الجنود الأمريكيين في غرب العراق، فقد أصبح من المعتاد أن تناشد قوات المارينز سكاناً محافظة الأنبار - عبر مكبرات الصوت - التسامح وعدم استهدافها، وتدعي أنها تنوي الانسحاب من المحافظة ومن العراق.

تأتي هذه المناشآت عبر دورياتها بشوارع مدن الرمادي والفلوجة وهيت والقائم وبقية مدن المحافظة، وجاء في أحد هذه النداءات: «أيها المواطنين الكرام.. تنوي قوات الجيش الأمريكي الانسحاب من العراق والعودة إلى الولايات المتحدة، وكل جندي يعود إلى عائلته، ومثلما لديكم أطفال لدينا أطفال وعوائل، ونريد العودة لهم بسلامة وأمان». (٨)

هذا الانكسار العسكري للجيش الأمريكي ألقى بظلاله على رفقاء السلاح من قوات التحالف الدولية



لواشنطن في هذه الحرب، وصاحبة أكبر مساهمة في القوات. لقد أقر رئيس أركان الجيش البريطاني

في العراق، التي اضطرتها المقاومة العراقية إلى البدء في الانسحاب. فقد أدت الخسائر إلى بعض

أن المقاومة العراقية حققت بصمودها ما لم تستطع تحقيقه جيوش نظامية ولا دول كبرى في مواجهة قوات الغزو الأمريكي، وأن ما فرضته على الأرض يمثل انكسارًا للعسكرية الأمريكية وهزيمة لا يمكن إنكارها أو التعمية الإعلامية عليها. (١٣)

هذا الانكسار لا يقف فقط عند حد الهزيمة العسكرية؛ بل بيان زيف الأهداف التي أعلنتها كأسباب للحرب، لقد ارتكزت الحملة العسكرية لاحتلال العراق في مارس ٢٠٠٣ بشكل أساسي إلى حملة تبعية إعلامية مضللة؛ بدعوى امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل، واستمراره في تطوير تلك البرامج بعد حرب ١٩٩١، وقد أعلن

الكونجرس فيما بعد كذب هذه الادعاءات، وثبت أن حملة الخداع الشامل التي ساقتها الإدارة الأمريكية لم تكن إلا لتسويق حربها على العراق، وتقديم تبرير منطقي لاحتلاله. (١٤)

إرهاق أمريكا اقتصاديًا:

إن الحديث عن انكسار العسكرية الأمريكية كإنجاز ضخم حققته المقاومة العراقية، يستوجب التعرف على التكلفة المادية للحرب، وهو أمر هام؛ لأن الاستنزاف المالي يعد من العوامل التي تُضعف القوة الأمريكية.

من المتوقع أن الإنفاق العسكري الأمريكي للعام الجاري ٢٠٠٧ سيصل إلى أعلى مستوياته منذ الحرب الكورية في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، «إن تقديرات تكاليف حرب العراق تتراوح بين أقل قليلاً من تريليون، وما يزيد على ٢ تريليون دولار. (١٥)

ومن المؤشرات على انعكاس الحرب سلبيًا على

بأن خطط الحرب التي سبقت الغزو افتقرت الدقة، وكانت ضعيفة، واستندت على التفاؤل أكثر من التخطيط السليم. (١٠)

لقد تبدى الانكسار العسكري لأمريكا في تصريحات قواده العسكريين والسياسيين. فقد اعترف الأدميرال فالون «أكبر قائد عسكري أمريكي في منطقة الشرق الأوسط» بأن بلاده أخطأت في تقدير حجم قدرات القوات العراقية والمقاتلين العراقيين، وأخطأت في حساباتها بشأن قدرة القوات العراقية على تولي مهمة الأمن في العراق، وأخطأت في الوقت نفسه فيما أسماه «صمود الأعداء»، في إشارة إلى المقاومة؛ مؤكدًا على أن القدرة على تقويم

الموقف السياسي والاقتصادي والأمني في العراق بشكل صحيح كانت قاصرة، وأن أمريكا قد عجزت عن حسم المعركة لصالحها. (١١)

تحدث بوش في خطابه السنوي الأخير للأمة الأمريكية حديثًا يتسم بالانهزامية والانكسار - على حد تعبير الصحافة الأمريكية - في قولها: «لقد جاء الوقت الذي يتحدث فيه بوش كرئيس منكسر ومنهزم، ففي العام الماضي وقف بوش أمام الكونجرس كرجل يرفض التنازل عن أي موقف له حول العراق؛ متهمًا الديمقراطيين باتخاذ موقف انهزامي إزاء الحرب، أما هذه المرة فقد كانت المسألة مختلفة؛ حيث استجدى بوش الديمقراطيين والكثير من الجمهوريين ليتفقا معه حول خطته الرامية إلى إرسال المزيد من الجنود إلى العراق. ففي التاريخ الأمريكي الحديث لم يتحدث بهذه النبرة المنكسرة أمام الكونجرس سوى عدد قليل من الرؤساء، ولكن ذلك هو الواقع السياسي والعسكري الذي أوجد بوش نفسه فيه. (١٢)

عندما يحدث كل هذا نجد أنفسنا أمام واقع مؤداه

انتهت، أو قاربت على الانتهاء، بل ما هو قادم ربما يكون أخطر من الذي مضى. ومن هنا فإن هذا البحث يطرح بعض السيناريوهات المتوقعة، ويلفت الانتباه إلى علامات استفهام تقتضي البحث لها عن إجابات.

المقاومة العراقية وسيناريوهات المستقبل:

ترتبط المقاومة ارتباطاً فاعلاً بوضع الاحتلال الأمريكي على الأرض؛ سواء في حالة الاستمرار والبقاء، أو في حالة الانسحاب؛ وأيضاً بما خطط له الاحتلال لإشعال الحرب الأهلية كسيناريو حاضر، ويعمل بقوة. لهذا تأتي التساؤلات حول استراتيجيات المقاومة للمرحلة القادمة، وما هي الخطط المعدة لمواجهة التطورات والمتغيرات؟ ومدى قدرة المقاومة على التعامل مع المفاجآت التي يمكن أن يثم عنها كل موقف، وبمرونة تسمح بتحقيق أفضل النتائج لمصلحة المسلمين، وإدراك حسابات المستقبل، والوقوف على توازنات الأوضاع الجديدة إلى جانب النجاح في استخدام الأدوات والوسائل المناسبة برؤية أكثر عمقاً، يوازن بين الكفاح العسكري والكفاح السياسي، ويتجاوز الفصائل والجماعات الصغيرة إلى الدولة ومؤسساتها ودستورها وقوانينها.

ثانياً: ما هي استراتيجية المقاومة مع استمرار الاحتلال؟

من عبّر التاريخ أن الحروب الصليبية استمرت عقوداً طويلة، ويمكن الاستفادة من بعض دروسها، التي تدل على أن عبء مقاومة الغزاة لا يتوقف عند جيل واحد. ومن هنا فإن الجدل حول انسحاب القوات الأمريكية سيطول، والحديث عنه داخل مؤسسات السلطة الأمريكية بجناحيها لا يعني أن الانسحاب سيتم في القريب العاجل، أو أنه سيتم بشكل كامل وفق أمنيات المسلمين. إن الذي يحدد السياسة الأمريكية هيئات ووكالات تضع استراتيجيات بعيدة المدى، لا تنتظر

الاقتصاد الأمريكي أن العجز السنوي في الميزانية زاد عن ٤٠٠ مليار دولار. وزادت ديون أمريكا عن ٤،٥ تريليون دولار، وانخفض الدولار الأمريكي بنسبة ٣٠٪: ٣٥٪ منذ بداية الحرب.

وتراجع معدل النمو الاقتصادي في النصف الثاني من عام ٢٠٠٦، ومن المتوقع أن ينخفض أكثر في العام ٢٠٠٧. وتعادل قيمة النفط المستورد هذا العام ٢٠٠٧ مرتين ونصف ما كان عليه الحال عام ٢٠٠٣ قبل الحرب.

لقد عجزت الإدارة الأمريكية عن الوفاء بتعهداتها لشركات النفط الأمريكية؛ وذلك بسبب انعدام الأمن حول آبار البترول العراقية، فعندما أدركت المقاومة ما للنفط من دور في أهداف الغزو الأمريكي، قامت بعمليات؛ هدفها الأساسي تدمير أنابيب ومصافي النفط، حتى أصبح الاحتلال يستورد احتياجات جنوده من الخارج.

تقرير المفتش العام الأمريكي الذي عينه الكونجرس، الذي كشف الفضائح التي وقعت في مجال النفط أثناء مرحلة بريمر وما بعدها، أكد أن ضربات المقاومة أدت إلى عدم تحقيق الاستفادة المرجوة للاحتلال الأمريكي. (١٦)

إن احتلال العراق لم يحقق الأمن لأمريكا، وتؤكد فشل مقولة بوش: «إنه نجح في إبعاد الإرهاب عن أمريكا وعن مصالحها». (١٧)

لقد أثبتت الحرب أن هذا النوع من الحروب الذي يدور في العراق لا يمكن كسبه بقوة السلاح، ولا بتلال المال الذي يُقدّم من أجل كسب الأنصار، لكن يتم كسبها بالمعرفة بالطرف الآخر (المقاوم)، وبكيفية تفكيره ونوعية اعتقاداته. (١٨)

تتويجاً لما سبق عجزت أمريكا وفشلت في إقامة حكومة عراقية يلتف حولها الشعب العراقي من ناحية، وتعبّر عن مصالح الاحتلال الأمريكي من ناحية أخرى.

لكن هذا الفشل الأمريكي لا يعني أن المعركة

وتوسيع دائرة المتعاونين من السنة. وفي الاتجاه الآخر: العمل على تفكيك جبهة المقاومة، وبذر الشقاق بين الفصائل المجاهدة السنية.

لهذا فإن التحدي الذي يواجه المقاومة دومًا هو كيف تُفشل الاستراتيجية الأمريكية، وكيف تكوّن جبهة موحدة تعمل على التنسيق والتقريب بين مختلف فصائل المقاومة.

من سير الأحداث فإن حركات المقاومة العراقية تعاملت بفاعلية في الاتجاه الأول؛ لكنها لم تحقق ذات النتائج المرضية في الاتجاه الثاني. لقد استطاعت المقاومة أن تُفشل فكرة الحكم المستقر بعملياتها التي استنزفت الاحتلال والمتعاونين معه، وفي ذات الاتجاه، وبسبب التعصب المذهبي فشل الشيعة المتعاونون مع الاحتلال في تقديم صورة مرضية عن حكومة عراقية تحظى باحترام العراقيين، فضلاً عن باقي العالم، وكان النهج الطائفي للحكومة عاملاً مساعداً في إفشال الاستراتيجية الأمريكية، ودفع جمهور السنة دفعاً للتخندق في صف المقاومة وتأييدها.

في الاتجاه الثاني لا يبدو أن هناك مشروعاً فكرياً وسياسياً واحداً يجمع سُنّة العراق، ولم يُعلن أي موقف من تيارات وفصائل المقاومة يوحى بالاتحاد، الأمر الذي يعطي فرصة للاحتلال كي يلعب في المساحة التي تشيع الشقاق والخلاف. وبدأت أصابع الاحتلال تسعى لإفساد ذات البين بعمليات تثير الشكوك في بعض الأحيان.

أما الإعلان عن دولة العراق الإسلامية فكان بحاجة إلى مزيد من التشاور مع باقي فصائل المقاومة، حتى لا يبدو الأمر وكأنه مجموعة أو عدد من المجموعات انفردت بهذا القرار دون مشاركة الباقيين، وهذا ما يظهر حتى الآن، فهناك قوى مثل الجيش الإسلامي، وأنصار السنة، وكتائب ثورة العشرين، وجيش الراشدين، وجيش الفاتحين وجماعات أخرى لم

وصول رئيس أو رحيل آخر، مع الأخذ في الاعتبار حجم الدفع في اتجاه التسريع بالتنفيذ من قبل تيارات مشددة كالمحافظين.

قد يختلف الحزبان الجمهوري والديمقراطي في الكثير من القضايا، لكنهما في قضية الهبة الأمريكية لا تتسع الهوة بينهما، وما يحدث في العراق من فشل عسكري وسياسي سيتوقف عليه مستقبل الولايات المتحدة كقوة عالمية مهيمنة، ليس لأمريكا وحدها وإنما للغرب كله.

يستغل الديمقراطيون الفشل في العراق ويرجعونه إلى سوء تخطيط إدارة بوش، وسيعملون على كسب النقاط دون القبول بالهزيمة الأمريكية، أو الحط من قدر القوة العسكرية الأمريكية التي تفرض الهيمنة الأمريكية على العالم.

تؤكد الإجراءات التي تتخذها الإدارة الأمريكية أن الاحتلال سيبقى لمدة طويلة. من هذه الإجراءات: الزيادات المالية في الموازنة الأمريكية المتعلقة بالإنفاق العسكري، وكذلك زيادة عدد القوات المرسلّة إلى العراق، بالإضافة إلى خطط البنتاجون المتعلقة بزيادة قدرات الجيش الأمريكي البشرية وفي المعدات.

من هنا فإن بقاء القوات الأمريكية وفق هذا السيناريو يفرض على المقاومة التعامل معه بخطط مدروسة، تتميز بالنفس الطويل، ولا تنساق بحماسة وراء ما يتردد حول الانسحاب، وحتى لا يتحول النشاط الجهادي المقاوم إلى ردود أفعال على خطط الجيش الأمريكي، التي تهدف في الأساس إلى الحفاظ على المبادرة والإمساك بزمام المعركة، وعدم إعطاء المقاومة أي فرصة لالتقاط الأنفاس.

إن استمرار الاحتلال يعني أن جوهر استراتيجيته لن تتغير، وإنما سيقوم بتجريب أفكار جديدة متعلقة بالتفاصيل.

تسير استراتيجية الاحتلال في اتجاهين:
الأول: يعتمد على الشيعة كأساس لحكم العراق،

لا بد من إعداد العدة لهذه المرحلة والمواجهة العلمية والفنية والسياسية لها، مع وحدة الصف وتقارب الآراء، وإعداد تصورات جاهزة لكل ما يستجد من مواقف وأحداث، ومجابهة كل قوة بقدرها، حتى لا يكون أداؤها رد فعل غير محسوب وغير مدروس؛ مما قد يهدر المكاسب التي حققتها المقاومة، ويُدخلها في فتن شبيهة بما حدث في أفغانستان - قبل حكم طالبان -

بعد خروج المحتل الروسي وهزيمته، حيث تقاطلت جماعات المقاومة، وأتاحت الفرصة للأعداء لاختراقهم، وتكوين جبهات معادية من باطن المقاومة، فأفسدت بذلك الإنجاز الذي تحققت، وفشلت في تأسيس الدولة القوية، مما أتاح الفرصة لتمرير مشاريع الأعداء.

إذا نظرنا لحركات المقاومة في التاريخ القريب والبعيد نجد أنها في معظمها تبدأ بتأسيس جناح سياسي، أو كيان سياسي يطرح تصوراتها ومبادئها وفلسفتها، ويحاول أن يكون حاضرًا على الساحة الشعبية والمحلية والعالمية، ثم يؤسس في خلفيته كيان عسكري يدافع عن هذه المبادئ، ويقاوم المحتل والخصوم. والملاحظ أن الجناحين يدعم بعضهما بعضًا ويسيران في مسار واحد، وإن اختلفت طبيعة كل مسار عن الآخر.

وقد اختلفت هذه الطبيعة في المقاومة العراقية؛ حيث بدأت بالجناح العسكري قبل السياسي؛ وذلك لخصوصية الشأن العراقي الذي اعتملت فيه عوامل كثيرة خارجية وداخلية صهرته في بوتقة صعبة التركيب: (الاحتلال الأمريكي - سقوط النظام - الصعود السياسي والعسكري للشيعية - تعاظم الدور الإيراني في العراق، وفي المنطقة - الصعود السياسي والعسكري للأكراد في الشمال - مواقف دول الجوار

تنضم إلى هذه الدولة المعلنة الأمر الذي يُضعف بلا شك من صورة المقاومة.

هذه التباينات تُخفي ورائها خلافات في التصورات السياسية والفكرية من فصيل إلى آخر، حول الأهداف من الجهاد ورؤية كل فصيل للإدارة الواقعية على الساحة العراقية بكل تناقضاتها العرقية والمذهبية.

ومن هنا فإن السؤال الذي يفرض نفسه إن لم تستطع فضائل المقاومة الاجتماع

على برنامج موحد الآن؛ حيث الظروف مواتية، فهل تستطيع فعل ذلك فيما بعد مع دخول عوامل أخرى بالتأكيد ليست مشجعة لجمع الكلمة؟

ثالثًا: خطط المقاومة في حالة الانسحاب:

لا شك أن مرحلة ما بعد انسحاب الاحتلال تختلف عن مرحلة بقاء المحتل، من حيث طبيعة التحديات القائمة، وحجم القوة المتواجدة، ونوع الصراع الذي سيتخذ أشكالاً مختلفة مما يستتبع رؤية أكثر إدراكًا، وقرارات أكثر مرونة وواقعية، وتوازنات تعي جيدًا أن هذه المرحلة سترتب عليها تغير في أوضاع المنطقة العربية، وأن الأعداء لن يتركوا الساحة للمقاومة تلعب فيها كما تشاء، بل سيظهرون بشكل مباشر وغير مباشر لسحب البساط من تحتهم وحصد نتائج الانتصار.

وهذا الوضع المختلف يطرح التساؤل حول كيفية تحول المجاهدين من مرحلة المقاومة إلى مرحلة إقامة الدولة. وهذا التحول لن يتم بين يوم وليلة، وإنما يحتاج إلى ترتيبات وتحولات من الآن.

وبعد هذه التحدي أخطر من التحدي العسكري الجاري، وأكثر تعقيدًا؛ إذ ستتضاعف المسؤوليات؛ لأن الدولة تحتاج إلى كوادر وخبرات فنية مختلفة.

السؤال الذي يفرض نفسه إن لم تستطع فضائل المقاومة الاجتماع على برنامج موحد الآن حيث الظروف مواتية فهل نستطيع فعل ذلك فيما بعد مع دخول عوامل أخرى بالتأكيد ليست مشجعة لجمع الكلمة؟

هيئة علماء المسلمين، والبناء على العلاقات التي شيدتها في الداخل والخارج، وهي التي كان لها دور مشهود في إعلان الجهاد منذ بداية الغزو، الأمر الذي غرس الأساس الشرعي للجهاد في أرض العراق.

٥- إن حركات المقاومة في كثير من أحوالها تشكل حكومة مؤقتة (في المنفى) يكون لها مهام مرتبطة بمرحلة ما بعد الانسحاب، والتجهيز لتولي السلطة، مع وضوح الرؤية والأهداف، ووجود تصورات لمعظم المتغيرات المحتملة أو المتوقعة. ولنا أن نثير التساؤل عن تصورات المقاومة للتعامل مع دول الجوار.

إن ملف العلاقات مع دول الجوار يجب أن يحتوي على تصورات واضحة لطرق التعامل معها؛ إلى جانب الموازنة بين تاريخ هذه العلاقات والحساسية البالغة في التعامل مع المقاومة في وضعها الجديد، ومراجعة هذه الأوضاع بما يحقق المصلحة ويؤمن المستقبل، ولذلك أثرنا عدة اعتبارات تساعد في الإحاطة بهذا السؤال أهمها:

- في ظل تخوف الأنظمة العربية لدول الجوار من فكر المقاومة العراقية، وما ارتبط بها من قلاقل وتفجيرات نسبت للقاعدة أحياناً، ولفصائل أخرى أحياناً ثانية لن تكون هناك أجواء هادئة تسمح بالحوار وتحسين العلاقات، مع أهمية تأمين حدود الدولة الناشئة وتقوية أواصرها، مما يستتبع المراجعة بمنطق المصالح والمفاسد. لا بد من النظر إلى ما هو أبعد وفتح صفحات جديدة في كتاب هذه العلاقات. أما دول الجوار الغير عربية (تركيا وإيران) فإن مواقفها ستأخذ منحى آخر بعد الانسحاب، يراعي حماية مصالحها، ويحاول تحقيق مكاسب حسب الوضع الجديد للمقاومة، فعلى المقاومة ألا تتأخر عن فهم ودراسة ومراعاة تلك المصالح، ووزن

من فصائل المقاومة- حل الجيش العراقي - ضياع السنة بين المحتل الأمريكي ومطرفي الشيعة ومطرفي الأكراد). (١٩)

وفي هذا الإطار فإننا نطرح بعض المقترحات التي يمكن البناء عليها.

١- إن إعداد جناح سياسي يحمل تصورات ومبادئ وأفكار المقاومة، لن يقل بحال من الأحوال عن دور جناحها العسكري، بل سيسهم بقوة في تحقيق أهدافها إلى جانب أنه سيقود مسيرة الانتصارات العسكرية، ويوظفها التوظيف الصحيح، فضلاً عن توزيع الأدوار في الجناح السياسي بما يتفق والأهداف القريبة والبعيدة، وبما يمكن من تخطي بدايات المرحلة السياسية بنجاح وواقعية.

٢- الدعوة للجناح السياسي والمشروع السياسي للمقاومة العراقية تستتبع توسيع دائرة الحوار بين الفصائل، والدعوة إلى وحدة الصف، والتقريب بين وجهات النظر ونقاط الخلاف قدر المستطاع؛ إلى جانب تفعيل المشاركة بين قيادات فصائل المقاومة، وبين شيوخ العشائر ووجهاء السنة؛ كتدعيم شعبي وسياسي للمقاومة.

٣- تبني المقاومة برنامجاً لإعداد كوادرها سياسياً بالكيفية المتاحة.

٤- قبول فصائل المقاومة للتحكيم من قبل العلماء في حالة الخلافات، خاصة القضايا التي تتسم بالحيوية واتساع التأثير. فضلاً عن أهمية استفادة المقاومة من كل الطاقات الموجودة، وتقدير واحترام كل من ساهموا في الجهاد، حتى ولو بالكلمة، وإنزال الأفاضل منازلهم. ولا يدفعهم التنافس إلى التقليل من قدر أصحاب الفضل.

وفي هذا الإطار على المقاومة أن تستفيد من جهد

إذا كانت سياسات بعض دول الجوار غير مرضية؛ بسبب الإرهاب الأمريكي، فإن زوال الاحتمال سيترتب عليه تغييرات استراتيجية كبرى في المنطقة ستفرض أوضاعاً وسياسات جديدة

مع سياساتها؛ لأن الدعم لا يتوقف فقط على الدعم السياسي الحكومي. وليس من مصلحة المقاومة العراقية صنع عداوات مع حكومات دول الجوار التي تساند شعوبها المقاومة، ولا يمكن أن تضع المقاومة دول الجوار السنية في خندق مُعادٍ، وتساوي بينها وبين إيران في موقفها من العراق.

- إن الانتقال من المقاومة إلى الدولة يحتاج إلى تغيير شامل في الموقف المتعلق بالعلاقات الخارجية؛ لأن المقاومة في حاجة إلى كسب الأصدقاء، وتحييد المخالفين، وليس افتعال الخصومات وصناعة الأعداء.

وإذا كانت سياسات بعض دول الجوار غير مرضية؛ بسبب الإرهاب الأمريكي، فإن زوال الاحتلال سترتب عليه تغييرات استراتيجية كبرى في المنطقة ستفرض أوضاعًا وسياسات جديدة.

رابعًا: سيناريو الحرب الأهلية:

هذا القضية من أهم القضايا التي تحتاج إلى وعي وإدراك لطبيعة الواقع العراقي الحالي، وأبعاده المستقبلية، وعلاقاته بالمحتل الأمريكي ودول الجوار إيران وتركيا والسعودية وسوريا.

لقد كان واضحًا منذ اليوم الأول لغزو العراق أن الولايات المتحدة تلعب على الورقة الطائفية، وإثارة الخلافات المذهبية. ولم يكن نظام المحاصصة إلا أحد مظاهر هذه السياسية. ولذا فقد استغل الأمريكيون التعصب الطائفي عند الشيعة ورغبتهم في إقامة حكم طائفي يرضي نزعتهم الانتهازية.

من أهم أهداف الحرب على العراق تفكيك الدولة العراقية وإضعافها بحل مؤسساتها العسكرية والأمنية، وتذويب هويتها العربية بدفع المجتمع للتمسك بهويات تجزئية تقسيمية مذهبية، أو دينية، أو إثنية أو عشائرية على حساب الوحدة الوطنية العراقية.

إذا استعرضنا مواقف الشيعة والأكراد وأهل السنة من تقسيم العراق، سيتضح لنا أهمية مراجعة

الأمر بالكيفية التي تحقق الاستقرار والهدوء في الفترات الأولى لبناء الدولة.

- ليس بعيدًا عن المقاومة إدراك حقيقة التطلعات والمصالح التركية والإيرانية، ومدى توافق مصالحهما مع نظام الدولة الناشئة بعد الانسحاب، مما يستتبع حسابات وتصورات بديلة تتعامل مع الواقع بشكل يؤمن النظام الجديد ويحميه من المؤامرات من ناحية، ومن ناحية أخرى يمد جسور المصالح التي تؤمن الداخل العراقي المرتبط بمصالح كليهما، فضلاً عن التوازنات التي يجب أن تراعي الحكمة في سياسة الأمور، وتتجاوز تداعيات الماضي.

لا نعرف مدى تعاطم القوى الشيعية أو تفككها أو ضعفها فيما بعد الانسحاب؛ لذلك فإن على المقاومة طرح تصورات بديلة لهذه الاحتمالات مع ترك أبواب العلاقات مفتوحة، فقد يستلزم الأمر الدخول في تحالفات مع السعودية للوقوف أمام المد الشيعي في العراق وفي الخليج؛ لحماية السنة، أو عمل تحالف قوي يدعم السنة ويحميها، نفس الأمر ينسحب على الأردن وسوريا، فعلى المقاومة أن تعي متغيرات المرحلة جيدًا، وتدخل الساحة وهي تدرك أبعادها وأدواتها.

وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة واقعية للمنطقة جغرافيًا وسياسيًا، وتفهم للطبيعة المعقدة للعلاقات السياسية في زمن الهيمنة الأمريكية وتراجعها. وهذا الأمر يقتضي مراجعة فصائل المقاومة لمواقفها الانعزالية والمعادية أحيانًا لحكومات دول الجوار السنية. فمن الواضح أن بعض فصائل المقاومة؛ خاصة المرتبطة بالقاعدة تعالي في مواقفها تجاه دول الجوار، وتعلن العداء المطلق لها، وهذه المواقف تدفع بعض الحكومات إلى رد فعل أشد، واتخاذ مواقف سلبية تجاه الملف العراقي بالمجمل.

- لا يمكن لحركة تحرير أن تحاصر نفسها بافتعال عداوات مع دول الجوار، التي تعد العمق الاستراتيجي لها بعض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف

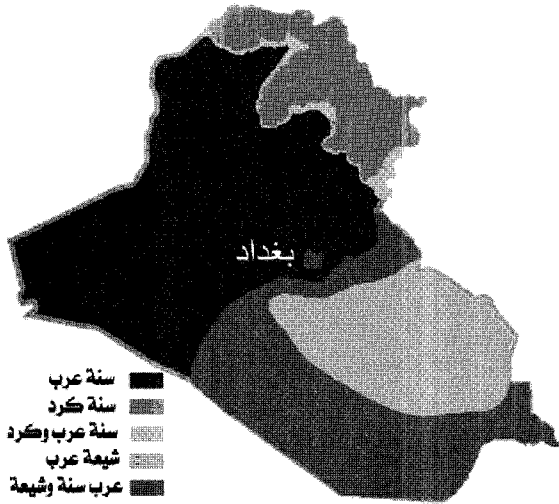
ملف التقرير - المقاومة

وينسوى وأجزاء من بابل وواسط. وكان تفسيرهم لهذا الاختيار مبيئياً على أمرين: أنهم اعتبروا هذه الدولة بداية للانطلاق منها إلى تحرير شامل العراق في إطار دولة إسلامية سنية، واعتبروا أن هذا التقسيم يضمن حقوق المسلمين ولا يضيع دماء الشهداء ولا تضحيات المجاهدين. (٢٣)

هناك من تحفظ على توقيت إعلان إمارة العراق - وسط فعاليات وملايسات الحديث عن التقسيم، وعن تطبيقات ذلك التي تجريها الحكومة العراقية وميليشيات متطرفي الشيعة - واعتباره تكريساً للفيدرالية، ويترتب عليه مخاطر على أهل السنة في

التوزيع الجغرافي

لتجمع السنة والشيعة والأكراد



التجمعات الفيدرالية في الجنوب والوسط، وقد يحفز ذلك المتطرفين الشيعة لتصفية السنة الذين يعيشون بينهم.

ورأى البعض أن التقسيم لم يضم المناطق الكردية، وهم سنة أيضاً، والتي تعد معقل أساسي لجماعة أنصار السنة.

ومن التحفظات أن هذا التقسيم يحرم السنة من الكثير من الثروات النفطية والمعدنية، ومقومات

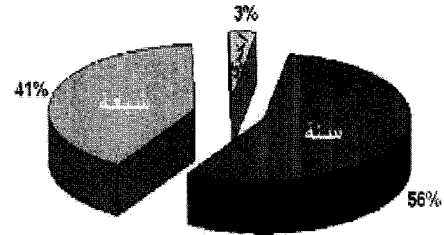
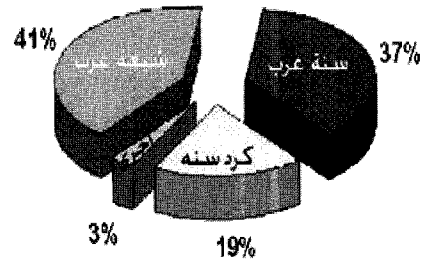
الحسابات، ووزن الأمور بالمصالح والمفاسد واختيار أنسب الأوضاع، وإن تطلب الأمر اختيار أحسن الأوضاع السيئة، إن كانت كلها سيئة؛ تبعاً لمتغيرات الواقع على الأرض.

لا تمنع القوى الشيعية في قيام فيدرالية كردية، لكنها تدعو بإصرار إلى قيام فيدرالية أو فيدراليات جنوبية وفي الفرات الأوسط؛ تشبهاً بتوزيع الثروات والخصوصيات والمظلوميات التاريخية التي يتحدثون عنها. (٢٠)

والقوى الكردية تصر على الفيدرالية الكردية في مناطق الشمال، وتبادل الاعتراف والمنافع مع

نسب توزيع

السنة والشيعة والأكراد في العراق (٢١)



الشيعة، من أجل تنفيذ التقسيم جنوباً وشمالاً. وأكبر دليل على ذلك ما تم تنفيذه بالفعل من تهجير العرب من كركوك، وإعطائها خالصة للأكراد، حسب الاتفاق في الدستور العراقي على ذلك. (٢٢)

أما المقاومة ففيها اتجاهان:

الأول: يرفض فكرة الفيدرالية. والثاني: نفذها فعلاً، بتشكيل دولة العراق الإسلامية، ورسم حدودها في بغداد والأنبار وديالى وكركوك وصلاح الدين

تأخذ أشكالاً أخرى بعد انسحاب المحتل، مما يبعث على إمعان النظر في تحولات المستقبل المرتبطة بتغير موازين القوى، وتعديل مساحات المصالح؛ حيث ستختفي قوى وتظهر أخرى، وستضعف قوى وتقوى ثانية، وستتحد مجموعة قوى مع بعضها وتنحل مجموعات أخرى، مما يستتبع وضع معايير واقعية جديدة لهذه المرحلة. لذلك فإننا نرى أن الطائفية والتقسيم الطائفي هدف أساسي من أهداف الاحتلال؛ ولذلك فقد زاد واستعر في وجود الاحتلال، وسيستمر بضراوة مع انسحابه.

إن الوضع في العراق تاريخياً احتل الطائفية، وتعايش معها بدرجات متفاوتة. كما أن الدول الإسلامية المتعاقبة عاشت خلالها الطوائف والمذاهب المختلفة.

وإذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي وجود تعاهدات أو تحالفات مع الطوائف المتناقضة مع الإسلام أو المتباعدة في داخله، فلا بأس بذلك؛ تأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم.

ففي الفتوحات الإسلامية الكبرى لم تفرض الدولة الإسلامية اللغة العربية ولم تمنح لغات وأديان الطوائف الأخرى، إنما دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فأسلم من أسلم، وأعرض من أعرض، لكنهم ظلوا في إطار الدولة الإسلامية كرعية من رعاياها.

من بُعد النظر عدم التعامل مع طائفة الشيعة كحزمة واحدة، فهناك فروق بين الشيعة العرب، والشيعة الفرس الإيرانيين، فالشيعة في العراق قبائل عربية في الأصل، وهناك قبائل عراقية مثل شمر والجبور وغيرها، فقد تجد قسماً من القبيلة في الشمال سنة، والذين في الجنوب شيعة، ومع ذلك فهم قبيلة واحدة. (٢٦)

وهناك حساسيات كبيرة بين الشيعة العرب والشيعة الفرس فإلى «فترة متأخرة بعد الحرب العالمية

الدولة من منافذ بحرية وبرية، ويوحى بأن السنة قبلوا التقسيم بهذا التحديد، ويؤيد دعوات التقسيم والتجزئة والفيدرالية بالشكل الذي يضعف من هذه الدولة، ويخرجها في صورة كيانات صغيرة ضعيفة لا تقوم لها قائمة إلا بانضمامها إلى دول أخرى كإيران وتركيا وغيرها. (٢٤)

ولكن رغم هذا السجال والجدل بين السنة حول الفيدرالية والتقسيم؛ فإن الوضع على الأرض سار واقعياً نحو التقسيم على أسس طائفية. بل إن جيش مقتدى الصدر ارتكب جرائم بشعة لتشييع بغداد، ومارس القتل والتعذيب لطرده السنة من العاصمة؛ ليوجد لنفسه «فيدرالية الوسط»؛ ليحكمها بعد أن شعر أن الجنوب تسيطر عليه قوى شيعية أخرى، أهمها المجلس الأعلى للثورة الإسلامية الموالي للاحتلال، والمؤيد من إيران. ومن أجل هذا الهدف دفع مقتدى الصدر أتباعه إلى الانضمام للحكومة العميلة، والانخراط في الجيش والشرطة؛ ليكون القتل بقوات نظامية. فقد طالت هذه العمليات ١٨٢ ألف عائلة من السنة، ناهيك عن القتل والختف والإرهاب، وعمليات القتل بالجملة، والقتل على الهوية التي نفذتها جماعات الصدر، ودعمها الجيش والشرطة العراقية؛ لاحتماب معظم مناطق بغداد للشيعة وطرده السنة منها أو قتلهم. (٢٥)

وقد يصبح التقسيم المذموم والمرفوض الآن أحسن الحلول السيئة - إن جاز التعبير - وأقلها ضرراً على حياة الناس ومستقبلهم إذا استمرت الحرب الطائفية، وانعدمت وسائل الانفكاك عنها.

كل هذه الاعتبارات تستوجب من المقاومة تجهيز إجابة تكون أقرب للواقع وأصلح للمسلمين، وأحسن الحلول السيئة، وتراعي طبيعة المجتمع العراقي.

يجب أن تدرس المقاومة الملف الطائفي بعناية، وتضع له عدة بدائل؛ لأن التيسيط والتعميم أسهل الحلول، لكن نتائجه سلبية بالتأكيد.

تكمن أهمية هذا الموضوع في أن قوى الطائفية قد

تغيرات استراتيجية بالمنطقة والعالم؛ فإن المقاومة مطالبة بتطوير أساليب تفكيرها، كي تحافظ على حجم الإنجاز الذي تحقق على ساحة الجهاد، والاستعداد بخطط واستراتيجيات مدروسة لإفشال التخطيط المعادي. إن انتصار المقاومة وكسر المشروع العسكري الأمريكي هو انتصار للأمة، وبداية اعتناق المسلمين من أسر الاحتلال والاستعمار، الذي تعاني منه دول العالم الإسلامي.

يجب أن تدرس المقاومة الملف الطائفي بعناية، وتضع له عدة بدائل؛ لأن التبسيط والتعميم أسهل الحلول، لكن نتائجها سلبية بالتأكيد.

الثانية، كانت هناك أقلية صغيرة جداً من شيعة إيران؛ لذا يلزم استحضار أشكال أخرى للتعامل مع الشيعة، تتفق وطبيعة المرحلة وتوازنات القوى، وما تفرضه الظروف المستحدثة على أرض الواقع. (٢٧) نفس الأمر بالنسبة للأكراد، فإن المسألة الكردية تتطلب فهماً وتقديرًا لأبعادها وتقاطعاتها، ومراعاة المصالح والمفاسد، والضرورات التي قد يفرضها الواقع وتقييم متغيرات القوى في هذه المرحلة.

ويمكن دراسة الاحتمالات المتوقعة من دول الجوار إذا تبعنا - على سبيل المثال - موقف تركيا من هذه المسألة؛ حيث حذرت الحكومة التركية من أن السماح بتقسيم العراق قد يجبر دول الجوار على التحرك؛ مما قد يدخل المنطقة في حقبة مظلمة جديدة، وأنها تعارض بقوة أي تقسيم للعراق، وأنها عازمة على منع أي تحرك في هذا الاتجاه. هذا التخوف والترقب التركي لا بد من حساب تبعاته وتأثيراته على مستقبل الدولة الناشئة، وعلى حساب العلاقات التبادلية معها؛ حيث يتخوف المسؤولون الأتراك من أن يؤدي تقسيم العراق إلى تشكيل دولة كردية بالقرب من حدودها تُلهِم أكراد تركيا في جنوب شرق البلاد للتمرد. (٢٨)

الهوامش :

- (١) الكاتب نيل فيرجسون، مجلة صندي تايمز البريطانية، نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٧/٢/١٤.
- (٢) BBC Arabic ٢٧/١١/٢٠٠٦.
- (٣) تقرير واشنطن، نقلاً عن مركز الدراسات الاستراتيجية، واشنطن، بتاريخ ٢٠٠٦/١١/١.
- (٤) موقع وزارة الدفاع الأمريكية، بتاريخ أول فبراير ٢٠٠٧.
- (٥) موقع (TBR) الإخباري الأمريكي.
- (٦) مجلة الواشنطن بوست، ٢٠٠٠/١/٢.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) وكالة الأنباء الألمانية (دبا) بتاريخ ٢٠٠٦/١١/٣.
- (٩) الموقع الإلكتروني لقوات التحالف الدولية، بتاريخ: ٢٠٠٧/١/٣.
- (١٠) شبكة CNN العربية بتاريخ: ٢٠٠٦/١١/١٢.
- (١١) الكاتب نيل فيرجسون، مجلة صندي تايمز البريطانية، نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠٧/٢/١٤.
- (١٢) تقرير واشنطن العدد ٩٤ بتاريخ ٢٠٠٧/٢/٣، بعنوان: لماذا يجب أن نغادر العراق؟
- (١٣) نير- روسن، انتصار عقيدة الشهداء في العراق، الناشر فري برس، نيويورك ٢٠٠٦.
- (١٤) د/ جعفر ضياء جعفر، أسلحة الدمار الشامل: الاتهامات والحقائق، بحث مقدم إلى الندوة الخاصة باحتلال العراق وتداعياته عربياً وإقليمياً ودولياً، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ٢٠٠٦.

الخلاصة:

إن التحديات المستقبلية للمقاومة العراقية كبيرة، وتحتاج إلى التفكير المنهجي، والتخطيط على أسس علمية وواقعية، وهذه التحديات ستتوغل وتختلف وفق السيناريوهات التي ستؤول إليها تطورات المعركة العسكرية على الأرض. طبيعة السيناريوهات القادمة، والتي سترتب عليها

- (١٥) ليندا ميلنر خبيرة الميزانية في جامعة هارفارد، في دراسة أعدتها هي ود/ جوزيف ستينغلتنز (الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد)، تقرير واشنطن العدد ١٠١ بتاريخ ٢٤/٣/٢٠٠٧.
- (١٦) د/ خير الدين حسيب، هموم عراقية، مجلة المستقبل العربي، عدد نوفمبر ٢٠٠٦، العدد ٣٣٣، ص (١٦١)، وانظر أيضًا: موقع مؤسسة روييني جلوبال إيكونوميكس.
- (١٧) د/ خير الدين حسيب، هموم عراقية، مقابلة مع فضائية المستقلة بتاريخ ٢٨/٩/٢٠٠٦، منشورة في مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٣٣، نوفمبر ٢٠٠٦.
- (١٨) الكاتب نيل فيرجسون مجلة صندي تايمز البريطانية، نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ: ١٤/٢/٢٠٠٧.
- (١٩) بشير موسى نافع، العراق سياقات الوحدة والانقسام، دار الشروق، القاهرة، ط ٢٠٠٦.
- (٢٠) د/ محمد مورو، ما بعد الهزيمة الأمريكية في العراق، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط ٢٠٠٦.
- (٢١) إحصائيات مجمعة من مصادر مختلفة أهمها: «الموسوعة الحرة ويكيبيديا»، إحصائية موسوعة فرونت لاين وورلد، إحصائية قاموس الشرق الأوسط الخاص بدول الشرق الأوسط، إحصائية موسوعة اتلابيديا أون لاين، إحصائية وكالة قدس برس للأنباء، إحصائية دراسة الأكاديمي العراقي د/ سليمان العراقي، إحصائية د/ سليمان الظفيري، إحصائية د/ طه حامد الدليمي.
- (٢٢) شبكة CNN العربية بتاريخ ٧/٢/٢٠٠٧.
- (٢٣) بيان لمجلس شوري المجاهدين بتاريخ ١/١١/٢٠٠٦.
- (٢٤) د/ خير الدين حسيب، هموم عراقية، مجلة المستقبل العربي، عدد نوفمبر ٢٠٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، العدد ٣٣٣.
- (٢٥) شبكة CNN العربية بتاريخ ٣/١/٢٠٠٧.
- (٢٦) سيف الخياط، «العقدة والعقيدة، قصة الشيعة في العراق»، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦.
- (٢٧) د/ خير الدين حسيب، هموم عراقية، مجلة المستقبل العربي عدد نوفمبر ٢٠٠٦، وانظر أيضًا: إسحاق نقاش، شيعة العراق، ترجمة عبد الإله النعيمي، منشورات الهدى، الطبعة الأولى، لندن ١٩٩٦.
- (٢٨) د/ عايدة العلي سري الدين، المسألة الكردية في ملف السياسة الدولية، دار الآفاق الجديدة، دمشق ط ٢٠٠١.

معلومات إضافية

الجماعات السنية المسلحة في العراق

بدأت الأعمال المسلحة في العراق بعد أيام معدودة من الإطاحة بنظام صدام حسين، وذلك في ٩ أبريل / نيسان ٢٠٠٣، حيث تصاعدت هذه الأعمال بمضي الوقت، وظهرت جماعات مسلحة تتبنى عمليات.

ويلاحظ الخبراء أن معظم الجماعات المسلحة هي عراقية، باستثناء «القاعدة» و«أنصار السنة»، ناهيك عن أن «القاعدة»، صارت تضم في الحقيبة الأخيرة الكثير من العراقيين، ففي هيكلها التنظيمي غالبية عراقية.

ولا يعرف عدد الجماعات المسلحة في العراق على وجه الدقة، فكثير منها إما أنها أسماء وهمية، أو أنها عرفت حيناً من الزمن، ثم اختفت بالسهولة نفسها التي ظهرت بها. أما الجماعات التي بقيت مستمرة في نشاطها الميداني، وتبني عمليات مسلحة بين الفترة والأخرى، واستطاعت أن تطور جسمًا وخطابًا سياسيين، فهي محدودة العدد.

وفي هذا الملف نحاول أن نرصد أهم الجماعات المسلحة في العراق، وهي:

١- تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين:

التعريف والنشأة: بدأ التنظيم عمله في العراق منذ سقوط نظام الرئيس صدام حسين تحت اسم «جماعة التوحيد والجهاد»، بزعامة الأردني أبو مصعب الزرقاوي. وفي ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤ أعلن الزرقاوي مبايعته لزعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن، وغيّر اسم جماعته إلى تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين. وتتميز هذه الجماعة بالتنظيم الجيد، والتمويل الكبير، ويكثر في صفوفها المقاتلون العرب.

يرفض التنظيم العملية السياسية مطلقًا، ويعتبر أن كل من يتعامل مع الاحتلال «خائن ومرتد».

القيادة: مؤسس هذا التنظيم أبو مصعب الزرقاوي، واسمه الحقيقي أحمد فضيل نزال الخلايلة، وهو أردني الجنسية. وقد رصدت الولايات المتحدة ٢٥ مليون دولار لمن يدلي بمعلومات تقود إلى اعتقاله. وأعلنت الحكومة العراقية في ٨ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦ عن مقتل الزرقاوي وسبعة من معاونيه في غارة جوية أمريكية على منزل ببلدة ههب في شمال مدينة بعقوبة بمحافظة ديالى. والتنظيم يعلن بعد أيام تعيين المدعو أبو حمزة لمهاجر خلفًا للزرقاوي.

الانتشار الجغرافي: في البداية، تركز عناصر التنظيم في مناطق غرب العراق، ولا سيما في محافظة الأنبار (ومركزها الرمادي)، وعقب معركة الفلوجة الثانية في نوفمبر/ تشرين

الثاني ٢٠٠٤ انتشروا إلى محافظات بغداد وصلاح الدين (ومركزها سامراء)، وديالى (ومركزها بعقوبة)، والتأميم (ومركزها كركوك)، وبابل (ومركزها الحلة).

٢- مجلس شوري المجاهدين في العراق:

التعريف والنشأة: تشكل هذا المجلس في منتصف يناير/ كانون الأول ٢٠٠٦ بهدف «جمع كلمة المجاهدين ورضّ صفوفهم». ويضم المجلس سبعة تنظيمات مسلحة، أبرزها تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين، وجيش الطائفة المنصورة، وسرايا الجهاد الإسلامي، وكتائب الأهوال، وسرايا أنصار التوحيد، وسرايا الغرياء، وجيش أهل السنة والجماعة الذي التحق بالمجلس بعد أسبوعين من تشكيله.

القيادة: أوردت تقارير إعلامية أن زعيم المجلس يسمى عبدالله الرشيد البغدادي، وهو عراقي الجنسية، إلا أن الدلائل أشارت إلى أن الزعيم الفعلي كان أبو مصعب الزرقاوي حتى مقتله. وتصدر بعض بيانات المجلس مذيلة باسم أبو ميسرة العراقي مسؤول القسم الإعلامي في التنظيم.

النشاطات المسلحة: يستهدف المجلس -مثل تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين- القوات المتعددة الجنسيات والقوات العراقية وأفراد الشرطة.

٢- جيش أنصار السنة:

التعريف والنشأة: جماعة سلفية تشكلت في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣، وتضم بين صفوفها أعضاء سابقين من جماعة أنصار الإسلام الكردية، ومقاتلين عراقيين وعرب.

الأهداف السياسية: هدف هذه الجماعة لا يقتصر على «طرد الاحتلال الأجنبي»، بل أيضًا «إقامة دين الله وفرض شريعة الإسلام لتحكم هذه الأرض الإسلامية»، كما ورد في البيان الأول الصادر عنها في ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣.

القيادة: أمير الجماعة هو أبو عبدالله الحسن بن محمود، وبعض المصادر الإعلامية أشارت إلى أنه قد يكون عربيًا، وأنه كان عضوًا في جماعة أنصار الإسلام.

الانتشار الجغرافي: تنشط بشكل رئيسي في شمال العراق، في مناطق كردستان تحديدًا.

٤- الجيش الإسلامي في العراق:

التعريف والنشأة: جماعة سنية ذات مرجعية سلفية، تشكلت عقب سقوط بغداد، وتتألف من أفراد وضباط سابقين في الجيش العراقي ومختصين بالتصنيع العسكري، ومن رجال دين سلفيين وأبناء عشائر. وتعد هذه الجماعة من أكبر التنظيمات المسلحة العاملة في العراق.

القيادة: قادة الجماعة غير معروفين، لكنها في ٣ أغسطس/ آب ٢٠٠٥ أعلنت تسمية الدكتور إبراهيم يوسف الشمري ناطقاً رسمياً باسمها، وظهر غير مرة عبر وسائل الإعلام محجوب الوجه.

البنية التنظيمية: تتألف بنية الجماعة التنظيمية (بحسب الدكتور إبراهيم الشمري) من مكتب القيادة العامة، الذي يضم القائد العام ونائبيه، والمكتب السياسي، ومجلس الشورى، الذي يضم المؤسسين الأوائل له، وما يسمى الإدارات؛ مثل القيادة العسكرية، والهيئة الشرعية، والهيئة الإعلامية المركزية، وهيئات أخرى للأمن والاستخبارات وغيرها.

٥- كتاب ثورة العشرين (حركة المقاومة الإسلامية):

التعريف والنشأة: جماعة سنية، مسلحة مقربة من «هيئة علماء المسلمين»، التي يرأسها الشيخ حارث الضاري. وصدر بيانها الأول في ١٠ يوليو/ تموز ٢٠٠٣. وهذه الجماعة هي الوحيدة التي أعلنت ميثاقاً لها (نشر على الإنترنت) ضمته تعريفاً بها وبنشأتها، وبمرجعيتها وبنيتها التنظيمية ومواقفها السياسية.

البنية التنظيمية: وفقاً للميثاق الذي أعلنته، تتألف من جناحين: الجناح السياسي الذي يضم المكتب السياسي، وقسم الفتوى والتأصيل، وقسم الأمن الجهادي، والقسم الإعلامي؛ أما الجناح الثاني فهو العسكري والذي يضم كتاب ثورة العشرين، التي هي معروفة أكثر من جسمها السياسي. ويصل عدد الكتاب التي تؤولف «كتاب ثورة العشرين» إلى أكثر من ٣٠ كتيبة مسماة على أسماء الصحابة وشخصيات إسلامية تاريخية ومعاصرة بارزة. وهذه الكتاب موزعة على قواطع جغرافية؛ مثل: القاطع الشمالي، الذي يضم كتيبة أسود التوحيد، وكتيبة أسامة بن زيد، وقاطع أبوغريب، الذي يضم كتيبة جعفر الطيار، وكتيبة الزلازل، وقاطع المنطقة الغربية، الذي يضم كتيبة أحمد ياسين، وكتيبة محمود شيت خطاب، وقاطع بغداد الذي يضم كتيبة سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد، وقاطع ذيالى الذي يضم كتيبة الأحرار وكتيبة علي بن أبي طالب.

الانتشار الجغرافي: تتمركز في محافظات بغداد والأنبار وديالى ونيوى وصلاح الدين وبابل.

التمويل: أشارت بعض التقارير الإعلامية إلى أن الجماعة لديها إمكانات مادية كبيرة.

النشاطات المسلحة: تتركز نشاطاتها العسكرية ضد القوات المتعددة الجنسيات، وترفض استهداف المدنيين أو قوات الجيش والشرطة العراقية.

٦- كتاب أبو حفص المصري:

التعريف والنشأة: جماعة تربط نفسها بتنظيم القاعدة، على اعتبار أن أبو حفص المصري

كان - قبل مقتله - أحد المقربين من أسامة بن لادن في أفغانستان. ويرجح أن تكون الجماعة مكونة من بعض المتعاطفين مع القاعدة، الذين يسارعون إلى تبني الهجمات بمجرد وقوعها؛ حيث إن بياناتها غالبًا ما تتضمن معلومات لا تزيد عن تلك التي تداع في وسائل الإعلام.

البنية التنظيمية: تبقى بنية وتنظيم هذه الجماعة غير معروفة بشكل دقيق. ويعتقد - في حال صحة المعلومات عن وجودها ودورها - أن تكون قيادتها مؤلفة من أمير ومجلس شورى، على نسق سائر التنظيمات المشابهة.

٧- الإسلامية للمقاومة العراقية «جامع»:

التعريف والنشأة: تشكلت هذه الجماعة من فصائل سنيّة عديدة، وأعلنت عن نفسها في بيان صدر يوم ٢٨ مايو/ أيار ٢٠٠٤، وتذيل بياناتها باسم المكتب السياسي، وذراعها العسكرية هي كتائب صلاح الدين الأيوبي.

الأهداف السياسية: أوضحت في البيان الأول الصادر عنها، المشار إليه آنفًا، أن أهدافها تتحقق بـ «طرده المحتل».

الانتشار الجغرافي: يتركز نشاط الجبهة في محافظتي نينوى وديالى.

٨- جيش الراشدين:

التعريف والنشأة: جماعة إسلامية سنية، وبياناتها ممهورة بتوقيع أبو الوليد العراقي مسؤول القسم الإعلامي، ومنشورة في موقعها على الإنترنت.

الأهداف والسياسات: أهدافها وسياساتها متطابقة مع تلك التي تتبناها حركة المقاومة الإسلامية (كتائب ثورة العشرين).

البنية التنظيمية: تتألف من عدة كتائب؛ مثل كتيبة الكوثر، وكتيبة الفردوس، وكتيبة جنود الرحمن، وكتيبة الفجر الصادق، وكتيبة مسلم بن عقيل، وغيرها، وكل كتيبة متمركزة في منطقة من المناطق.

الانتشار الجغرافي: يتركز نشاطها في محافظات بغداد والأنبار وديالى.

٩- جيش المجاهدين:

التعريف والنشأة: جماعة سنيّة، يعتقد أنها قريبة إلى الجيش الإسلامي في العراق. وبرزت هذه الجماعة لأول مرة في فبراير/ شباط ٢٠٠٥، حينما تبنت خطف صحفيين إندونيسيين، وأطلقت سراحهما بعد أسبوع من اختطافهما.

القيادة: أعلنت بصورة مشتركة مع الجيش الإسلامي في العراق، تعيين الدكتور إبراهيم الشمري، ناطقًا باسمهما.

١٠- عصابات العراق الجهادية:

التعريف والنشأة: جماعة إسلامية سنية، والعمليات التي ادعت مسؤوليتها موجهة ضد القوات الأمريكية، وتصدر بياناتها على موقعها على الإنترنت.

الانتشار الجغرافي: يبدو أنها تتمركز بشكل رئيسي في المناطق الغربية من العراق.

١١- الجماعة السلفية المجاهدة:

التعريف والنشأة: هي إحدى المجموعات التي تنتمي إلى التيار السلفي الجهادي في العراق، ويعتقد بعض المتابعين للملف العراقي، أن هذه الجماعة لها تاريخها المرتبط بتطور الحركة السلفية في البلاد، بشكل منفصل عن الفكر السلفي الذي يعتنقه تنظيم القاعدة، لذلك كان التقارب التنظيمي بينهما محدودًا.

الأهداف السياسية: تجهر الجماعة بالرفض للوجود الأجنبي على أرض العراق، ولممارسات النظام العراقي السابق، وترفض العملية السياسية في ظل وجود القوات الحليفة في العراق، وتطالب بتطبيق أحكام الشريعة، وتتعدى الأهداف السياسية للجماعة الواقع العراقي إلى طروحات على مستوى العالم الإسلامي ككل.

البنية التنظيمية: صدر البيان الأول للجماعة باسم أميرها «أبو دجانة»، فيما يقود جناحها العسكري في الميدان المدعو «أبو الدرداء العراقي». وتقوم تشكيلاتها العسكرية على شكل خلايا صغيرة تقوم بعمليات كر وفر سريعة.

١٢- جيش محمد:

التعريف والنشأة: جماعة مؤلفة من عناصر بعثية وأعضاء سابقين في الجيش العراقي، وضباط الاستخبارات العسكرية، والحرس الخاص للرئيس العراقي السابق، وأبناء العشائر وبعض المقاتلين العرب الذين بقوا في العراق. ويعتقد أن هذه الجماعة تشكلت في محافظة الأنبار في صيف ٢٠٠٣، إلا أنها أخذت تنحسر تدريجيًا. ويرجح محللون أنها تفككت وتوزع أعضاؤها على الجماعات المسلحة الأخرى.

الانتشار الجغرافي: يتركز وجود هذه الجماعة في غرب العراق، خصوصًا في محافظة الأنبار.

١٣- توار الأنبار:

التعريف والنشأة: تشكل هذه الجماعة من العرب السنة القوميين ومؤيدي النظام السابق،

وأفراد عشائريين، وأتباع تنظيمات سنية عراقية. والغرض من إنشائها هو أن يكون للشنة قوة على الأرض لمواجهة منظمة بدر الشيعية. وقد برزت هذه الميليشيا، التي يقدر عددها بالمئات، إلى السطح في فبراير/ شباط ٢٠٠٦.

١٤- الجبهة الوطنية لتحرير العراق:

التعريف والنشأة: تتكون الجبهة الوطنية لتحرير العراق من خليط من مجموعات عسكرية، إضافة إلى مجموعة من المثقفين المعروفين، الذين يصفون على بيانات الجبهة بعداً فكرياً وأيديولوجياً عالمياً. ويعتقد أن الجبهة تضم عدداً من التيارات الإسلامية والقومية، وعناصر بعثية غير مؤيدة للرئيس العراقي السابق صدام حسين.

البنية التنظيمية: وتتألف الجبهة من تجمع أكثر من عشرة أحزاب وجمعيات، رافضة للوجود الأمريكي في العراق، وتزعمها عبد الجبار الكبيسي، الذي ألقى القوات الأمريكية القبض عليه، ويحتل موسى الحسيني منصب الأمين العام فيها.

المواقف والسياسات: صدر البيان الأول للجبهة في ١١ أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٣، والذي حمل إعلان تأسيسها، وقد تلاه الكاتب العراقي المعروف عبد الأمير الركابي، من باريس، وتعهدت فيه الجبهة بتسطير «ملحمة» لا تنتهي إلا بتطهير أرض العراق من المحتلين، كما جاء في البيان.

١٥- القيادة العامة لمجاهدي القوات المسلحة «المقاومة والتحرير في العراق»:

التعريف والنشأة: ينتمي أغلب عناصر هذه الجماعة المسلحة إلى كوادر سابقة من حزب البعث، وجنود وضباط من الجيش العراقي المنحل الذين يدينون بالولاء للرئيس العراقي السابق صدام حسين. ويعتقد المراقبون أن العمل الفعلي لهذه الجماعة بدأ مع التصدع الذي شهده مجلس شوري المجاهدين، حيث خرجت منه العناصر البعثية، وكذلك أفراد وضباط الجيش العراقي السابق، الذي كانوا أعضاء في مجموعات مختلفة داخل المجلس، وشكلوا معاً بعد انسحابهم تلك المجموعة.

الأهداف السياسية: تتبنى المجموعة شعارات وأهداف حزب البعث العربي الاشتراكي المحظور، وتطالب بخروج القوات الأمريكية.

١٦- أنصار الإسلام:

التعريف والنشأة: جماعة كردية تأسست منتصف الثمانينيات، وتبني الفكر السلفي الجهادي. وأكثر أعضائها من الأكراد السنة، ومعهم عدد كبير من «الأفغان العرب».

القيادة: مؤسسها هو نجم الدين فرج، المعروف بالملا ففتح كريكار (وكريكار بالكردية تعني العامل)، إلا أنه ترك إمارة الجماعة في مايو/ أيار ٢٠٠٢، وهو حالياً مقيم في النرويج. أما زعيم الجماعة الحالي فهو وريا هوليري الكردي، المعروف بأبي عبد الله الشافعي، والذي قاتل في أفغانستان. ومن قادتها الميدانيين رائد خريسات، المعروف بأبي عبدالرحمن الشامي، وهو أردني من السلط، وكان على صلة بأبي مصعب الزرقاوي، وقتل الشامي في مواجهات مع قوات الاتحاد الوطني الكردستاني في مطلع أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠١.

الانتشار الجغرافي: تركزت هذه الجماعة في مناطق كردستان العراق، ولاسيما حول حلبجة في محافظة السليمانية على طول الحدود مع إيران. ودخلت هذه الجماعة في صراع مسلح مع حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، الذي يتزعمه جلال طالباني، في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٢.

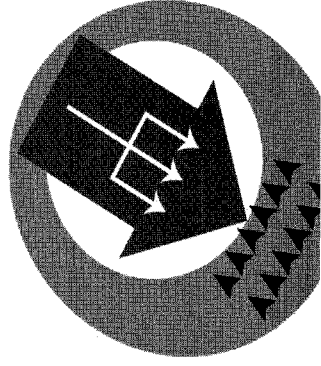
أهم المصادر:

- سي إن إن عربي:

<http://arabic.cnn.com/iraq.groups/index.html>

- سويس إنفو:

<http://www.swissinfo.org/ara/front/detail.html?siteSect=105&sid=6561529&cKey=1143010740000>



المقاومة الفلسطينية مراحل التطور، وآفاق المستقبل

فرج شلهوب - الأردن

مدير تحرير صحيفة السيل، متخصص في الشؤون الفلسطينية

ملخص البحث:

وقع الشعب الفلسطيني ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراثية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية، وإخضاعها عبر التفتيت والتلويح بالعصا الإسرائيلية الغليظة، وإدامة الذرائع للتدخل في شؤون المنطقة.

والشعب الفلسطيني ليس وحده المعني بهذا الصراع ومواجهة المشروع الصهيوني، الذي ليس سوى رأس حربته للمشروع العربي الذي يستهدف المنطقة العربية والإسلامية.

ولذا فإن المقاومة هي الخيار الاستراتيجي للشعب الفلسطيني، وهي الرد المناسب على جريمة الاحتلال، الذي لا يسلم بأي من الحقوق الفلسطينية إلا مكرها، وبدايات المقاومة الفلسطينية قديمة منذ وجد الاحتلال، وليس كما يزعم بعض السياسيين حينما يؤرخون لبداياتها بعد هذا التاريخ بعمود تبعا لهوى سياسي ساد في حقبة معينة.

لم تنشأ المقاومة الفلسطينية من فراغ، وإنما هي بالأساس رد فعل طبيعي وشرعي على جريمة الاحتلال، وتأخذ مشروعيتها وحققها في الاستمرار من استمرار جريمة الاحتلال ذاتها، وهي بالإضافة لذلك حق مشروع تكفله الشرائع السماوية، تماقا مثلما يكفلها القانون الدولي والمواثيق الإنسانية.

ظلت المقاومة الفلسطينية أو بالتمبير الدارج فلسطينيا «الكفاح المسلح» طريقا وحيدا لاسترداد الأرض والحقوق، ومما لا شك فيه أنها حققت كسبا كبيرا من خلال انحراطها في الانتفاضة الأولى والثانية على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها، أو تعزيز شرعيتها بين الجمهور، ومن خلال نسج شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية.

والمقاومة الفلسطينية ليست نبأ شيطانيا فنيئا عن الأم، كما أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا في حاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار أو إجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محليا وإقليميا، يتحرك وفق نسق صاعد، ومن الممكن - حسب رأي البعض - أن تلعب المقاومة الفلسطينية بصورة مباشرة أو غير مباشرة دورا مهما في تعزيز برنامج الاستقلال، والتحرر في المنطقة.

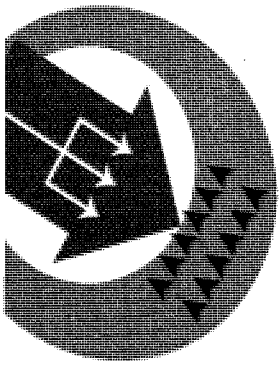
أفكار ومقتطفات

- إن ما تعرضت له فلسطين لم يكن استعمارًا عابرًا، ولا احتلالًا عسكريًا يستهدف استثمار الموارد والتمتع بخيرات البلاد، ولكن كان احتلالًا إحلاليًا استصاليًا.
- في الشق الإنساني فالمسألة يتم اختزالها بأن فلسطين ليست سوى أرض بلا شعب تُمنح لشعب بلا أرض، وعليه أخذت محنة الشعب الفلسطيني المتمثلة باحتلال أرضه طابعها، ومنذ البدايات بأنها صراع وجود.
- إن أي قراءة تحاول الولوج لدراسة المقاومة الفلسطينية ونطورها، وترسم معالم مستقبلها، وما يمكن أن تذهب إليه أو تحققه في المستقبل، لا تستطيع أن تهمل البعد الإقليمي والدولي في الصراع على وفي فلسطين.
- الصراع في فلسطين صراع طويل، ولا يمكن حسمه بالتالي في جولة، أو اثنتين أو خلال سنة أو سنتين.
- ستظل أدوات هذه الشعب، مهما تطورت، وتضحياته مهما تعاظمت، قاصرة عن حسم الصراع مع هذا المشروع الضخم، إذا لم تلق الإسناد والإمداد، وما هو أكثر من ذلك من الأمة التي يتهددها جميعًا الخطر الصهيوني.
- مع كل التحولات والمكر اليهودي إلا أن الشعب الفلسطيني نظر إلى النشاط اليهودي بريبة كبيرة.
- التأريخ للمقاومة من حيث كونها فعلاً منظمًا وواسعًا، يمكن رصده بدابة الثلاثينيات من القرن المنصرم.
- يمكن اعتبار الشيخ عز الدين القسام، القادم من جبلة في سوريا، فاتحة بلورة العمل الجهادي المنظم والأكثر تأطيرًا.
- بدأ القسام عمليات التجنيد والتدريب للفدائيين بسرية ودأب في حيفا ويافا والساحل الفلسطيني.
- بعد فشل تجربة القواعد الارتكازية وقدرة الاحتلال على ملاحقة ومحاصرة الخلايا الفدائية، انتقلت المقاومة لبناء قواعدها الثابتة في الضفة الشرقية (الأردن)، والتحول إلى تنفيذ العمليات عبر الحدود.
- لقد تأكد عجز النظام العربي وحرصه على النأي عن مسار العمل الفلسطيني المقاوم، بل ربما الاستعداد للتصادم معه إذا ما كان استمرار أدائه يقود إلى توتير الأوضاع الأمنية لهذه الأنظمة مع الاحتلال الإسرائيلي.

ملف التقرير - المقاومة

- برزت الصبغة الإسلامية في عمل المقاومة، مضمونًا من حيث الشعار ونوعية الأداء والصورة أو من حيث المشاركة الفصائلية.
- غلب على هذه الانتفاضة (الأقصى ٢٠٠٠، ٢٠٠٤) صعود العمل العسكري وتطوير أدواته، وتراجع الأدوار الشعبية إلى مستويات أقل مما كانت في الانتفاضة الأولى.
- إن انتفاضة الأقصى جاءت بعد تعثر العملية السياسية في كامب ديفيد ٢ (عرفات - باراك) أيلول/ ٢٠٠٠.
- استطاعت المقاومة أن تمتلك بعض قطع السلاح، وأن تنفذ عددًا من العمليات الفدائية ضد أهداف عسكرية إسرائيلية.
- حسب إحصائية لرئيس العمليات في الجيش الإسرائيلي الجنرال إيلي اميتاي، أمام لجنة الخارجية والأمن، تمت الإشارة إلى أنه من أصل ٦٣٠ قتيلًا إسرائيليًا في انتفاضة الأقصى، هناك ٤٥٥ إسرائيليًا قتلوا جراء عمليات استشهادية بنسبة تصل إلى ٧٥٪ من مجموع القتلى.
- يدخل ضمن نطاق العمليات الاستشهادية التي تنوعت أشكالها بين الحزام الناسف والعبوات التشغيلية وتفخيخ السيارات، عمليات اقتحام المستوطنات والمعسكرات الإسرائيلية، والتي عبّرت عن مستوى متقدم من الكفاءة والجرأة، وتطور التخطيط والتدريب لدى فصائل المقاومة.
- إن حرب الأنفاق وتوسيع التعاطي معها كتقنية قتالية غير مسبوقه، تزامن مع نجاح المقاومة في عمليات تفجير دبابة الميركافا الإسرائيلية الأكثر شهرة، والأكثر تحصينًا في العالم، حيث سجلت أول عملية تفجير للميركافا في شباط من العام ٢٠٠٢.
- من الإجحاف وصف مقاومة الشعب الفلسطيني بأنها «إرهاب»، بينما يتم غض النظر عن جريمة الاحتلال الإسرائيلي، ومنح الدولة المحتلة كل أسباب الرعاية والاحتضان.
- من المهم هنا بالنسبة للمقاومة أن توازن بين الحاجة للرد على الجريمة الجزئية للمحتل، والحاجة للمحافظة على مسار صاعد للفعل المقاوم لا يتم استنزافه في معارك جزئية.
- إن الأداء الأخير للمقاومة الفلسطينية في مواجهة الهجمات الأخيرة على غزة، عكست ارتقاء بعدة درجات في مستوى أداء المقاومة الفلسطينية.
- لولا جهود مؤمنة لأبناء الأمة، تعمل بعيدًا عن الأنظار، تمد يد العون والمساعدة للمقاومة الفلسطينية، لكان الحال أشد تعقيدًا، ولتعذرت إمكانيات استمرار المقاومة وتطورها، وتحقيقها هذا القدر من الإنجاز المشاهد.

- إن الواقع الفلسطيني الذي خضع لعقود طويلة تحت سطوة الاحتلال، قد تم اختراق صفوفه بالكثير من العملاء.
- ما لم يتم معالجة ظاهرة العملاء بصورة صحيحة وسليمة، في المواقع الشعبية والرسمية، فإن استنزافاً كبيراً في طاقة المقاومة سيظل مستمرًا.
- لعل ملاحظة الكيان الصهيوني، وبناءه لاستراتيجيته على أساس فرض الحقائق على الأرض، وتقديس القوة، واعتبارها مفتاح حماية الأمن والمصالح الإسرائيلية، جعل من المتعذر التفاهم مع هذا الكيان خارج اللغة التي يتحدث بها.
- إن المقاومة الفلسطينية حققت كسباً كبيراً من خلال انخراطها في الانتفاضة الأولى والثانية على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها.
- بدخول أبرز قوى المقاومة (حماس) معترك العمل السياسي، وتشكيلها الحكومة بعد فوزها بأغلبية الأصوات، ارتقت المقاومة إلى مستويات مهمة في فرض حضورها، وريادتها في قيادة الشعب الفلسطيني.
- تحاول المقاومة الفلسطينية المزاجية بين الفعل السياسي والعمل العسكري؛ لزيادة المساحات غير الخاضعة لنفوذ وسيطرة جيش الاحتلال.
- إن المقاومة تدرك أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا حاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار، أو إجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محلياً وإقليمياً، يتحرك وفق نسق صاعد.
- ثمة من يرى أن المقاومة الفلسطينية يمكن لها أن تلعب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، دوراً مهماً في تعزيز برنامج الاستقلال والتحرر في المنطقة؛ في مواجهة مشروع التغريب والتبعية للمشروع الأمريكي / الإسرائيلي.
- تراجع المشروع الصهيوني في مقابل تقدم مشروع استقلال الأمة وتعزيز ريادتها، يعملان بشكل متوازٍ لإنجاز البيئة المناسبة لاحتضان المقاومة.
- المشروع الصهيوني في العقدين الأخيرين شهد تراجعاً كبيراً.
- الإسرائيليون يعيشون مرحلة من التشكك في إمكانية استمرار دولتهم.
- اليوم يظهر أن معنويات الجندي الإسرائيلي تنهار، ويعجز عن الدفاع عن نفسه، أو تحقيق انتصارات حاسمة في مجابهات مع فنية فلسطينيين لا يملكون عُدة ولم يتلقوا تدريباً كافياً.



المقاومة الفلسطينية مراحل التطور، وآفاق المستقبل

فرج شلهوب - الأردن

مدير تحرير صحيفة السبيل، متخصص في الشؤون الفلسطينية

مقدمة لا بد منها:

بأن فلسطين ليست سوى أرض بلا شعب تُمنح لشعب بلا أرض، وعليه أخذت محنة الشعب الفلسطيني المتمثلة باحتلال أرضه طابعها، ومنذ البدايات بأنها صراع وجود، يتداخل فيه البعد العقائدي والسياسي والإنساني والاجتماعي، ويخضع في جزء كبير لترتيبات ذات بُعد تأمريّ دولي.

ولعل أي قراءة تحاول الولوج لدراسة المقاومة الفلسطينية وتطورها، وترسم معالم مستقبلها، وما يمكن أن تذهب إليه أو تحققه في المستقبل، لا تستطيع أن تهمل البعد الإقليمي والدولي في الصراع على وفي فلسطين.

فمنذ تبلورت الإرادة الاستعمارية الأوروبية مطلع القرن الماضي في تقسيم إرث الرجل المريض (تركيا) كان واضحاً أن ثمة إرادة دولية تخطط وترتب لفلسطين مثلاً يختلف عما يرتب ويخطط لباقي المنطقة العربية والإسلامية من احتلالات، ولم يكن إصدار الحكومة البريطانية وعد بلفور (١٩١٧/١١/٢) بمنح وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وقبل أن تتمكن من فرض سيطرتها سوى على أجزاء يسيرة من أرض فلسطين، حيث لم تكن بعد قد احتلت سوى مدينة بئر السبع وبعض أجزاء النقب الفلسطيني - إلا رأس جبل

مثل أي شعب احتلت أرضه، وانتهكت مقدساته وُهبّت ثرواته، واعُتدي على كرامته، اختار الشعب الفلسطيني، وعن سابق وعي وتصميم، أن ينحاز إلى خيار الجهاد والمقاومة في سبيل تحرير أرضه وانتزاع حقوقه، وإذا كان قَدْر الكثير من البلاد العربية والإسلامية أن تتعرض للاستعمار في القرن الماضي، وأن تتمكن من تحقيق استقلالها، فإن المفارقة أنّ ما تعرضت له فلسطين لم يكن استعماراً عابراً، ولا احتلالاً عسكرياً يستهدف استثمار الموارد والتمتع بخيرات البلاد، ولكن كان احتلالاً إحلاليّاً استتصاليّاً، ينتزع الإنسان من أرضه، ويُلقى به خلف الحدود ليستجلب مُهَجَّرين من أقطار الأرض ليحلهم مكانه وعلى أرضه، بمزاعم توراثية تدعي العودة إلى أرض الآباء والأجداد، والأخطر إلى الأرض التي أقطعها الله للشعب اليهودي خالصة من دون الناس، أرض الميعاد، وفي الشق الإنساني فالمسألة يتم اختزالها

الآن، لكن حسم الصراع بالكلية، وإنهاء هذا الجسم السرطاني المغروس في قلب الأمة، ستظل مهمة أكبر من إمكانات الفلسطينيين وحدهم، وإن كان يصح أنهم سيظلون رأس الحربة بالنسبة للأمة في منازل هذا العدو وإشغاله وإرباكه؛ إلى أن تحين ساعة الخلاص والانتصار الشامل.

نشأة المقاومة الفلسطينية وتطورها:

بدايات المقاومة الفلسطينية قديمة منذ وُجد الاحتلال، بوجهه الاستعماري/البريطاني، أو الإحلالي/الصهيوني، ويظلم بعض السياسيين الحقيقة حين يورخون لبداياتها بعد هذا التاريخ بعقود؛ تبعاً لهوى سياسي ساد في حقبة معينة، بل يمكن رصد بدايات للمقاومة الفلسطينية قبل الاحتلالين المشار إليهما أعلاه، ذات ارتباط بجهود المستعمرين والصهاينة المبكرة لتعزيز الاستيطان اليهودي في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بيد أن المقاومة وقتذاك كانت عفوية غير منظمة وغير منسقة،

تغلب عليها أعمال الاحتجاج والاحتكاكات الجزئية.

ولعل ثورة البراق (١٩٢٩) شكّلت ذروة الرفض الفلسطيني للوجود اليهودي، ومحاولاته التسلل قريباً من المقدسات الإسلامية في القدس، رغم أن

اليهود حتى ذلك الوقت لم يشكلوا دولتهم، ولم يكونوا سوى أقلية تحتمي بالمستعمرين البريطانيين. إلا أن التأريخ للمقاومة من حيث كونها فعلاً منظماً وواسعاً، يمكن رصده بداية الثلاثينيات من القرن المنصرم، فيما عُرف بثورة القسام والثورة الفلسطينية الكبرى، لتأخذ الأمور بعد ذلك تطوراً صعباً وهبوطاً، وصولاً إلى الوقت الراهن.

الجليد مما تخطط له بريطانيا العظمى (!!)) ومن ورائها أوروبا الاستعمارية. وهو ما يذكر بمؤتمر «الساسنة والخبراء» ١٩٠٦-١٩٠٧ برعاية هنري كامبل لبرمان رئيس وزراء بريطانيا، والذي دعا في حينه إلى ضرورة زرع جسم غريب في فلسطين يفصل ما بين مشرق العرب ومغربهم، ويكون رأس حربة وموقعاً متقدماً يسهم في إدامة نفوذ الحلفاء وتأمين مصالحهم في هذه المنطقة ذات الخصوصية الاستراتيجية. وهو ما يعني أن الشعب الفلسطيني وقع ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراتية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية وإخضاعها عبر التفيت والتلويح بالعصا الإسرائيلية الغليظة، وإدامة الذرائع للتدخل في شؤون المنطقة. هذه المقدمة كان لا بد منها بين يدي الولوج لقراءة الواقع الفلسطيني والمقاومة على وجه التحديد تاريخاً وتطوراً ومثالاً، ولسبين:

الأول: فهم أن الصراع في فلسطين صراع طويل، ولا يمكن حسمه بالتالي في جولة أو اثنتين أو خلال سنة أو سنتين.

الشعب الفلسطيني وقع ضحية فكرة عنصرية صهيونية تسعى لاغتصاب أرضه عبر مزاعم توراتية، وضحية مؤامرة دولية تستهدف قسمة المنطقة العربية وإخضاعها

والثاني: أن الشعب الفلسطيني ليس وحده المعني بهذا الصراع ومواجهة المشروع الصهيوني الذي ليس سوى رأس حربة للمشروع الغربي الذي يستهدف المنطقة العربية والإسلامية، وبالتالي ستظل أدوات هذا

الشعب مهما تطورت وتضحياته مهما تعاضمت قاصرة عن حسم الصراع مع هذا المشروع الضخم، إذا لم تلق الإسناد والإمداد، وما هو أكثر من ذلك، من الأمة التي يهددها جميعاً الخطر الصهيوني، قد تنجح المقاومة الفلسطينية في كسب جولة أو أكثر من جولات هذا الصراع، وقد تمنع المشروع الصهيوني من التمدد، وقد تلجئه إلى الانكفاء والتراجع في بعض المحطات، وهو ما نجحت فيه بامتياز حتى

النظامي، وقد توزعت المشاركة الشعبية للفدائيين الفلسطينيين في هذه الفترة بين قوات الجهاد المقدس، وجيش الإنقاذ.

- عمليات الفدائيين بعد هزيمة الجيوش العربية: والتي أخذت طابع التسلسل إلى الأراضي التي سيطر عليها الاحتلال في العام ١٩٤٨، وتنفيذ عمليات مقاومة، وغلب على هذه الأنشطة السرية، وافتقارها للإمكانات، وتعرضها لقدر كبير من المخاطرة والملاحقة، واحتياجها للأرض التي تقف عليها بعدما تم حرمانها من التواصل مع العمق الشعبي الذي بات يعاني التشتت وقسوة اللجوء.

المرحلة الثانية وتمتد بين عامي

١٩٦٥-١٩٨٧:

وهي المرحلة التي شهدت ما يسمى بالانطلاقة المعاصرة للثورة الفلسطينية، وولادة عدد من الفصائل الفلسطينية المقاتلة (فتح، الشعبية، الديمقراطية، الصاعقة، وغيرها)، والتي هيمنت لاحقاً على منظمة التحرير، وقيادة العمل الوطني الفلسطيني.

وإذا كانت منطلقات العمل لمجمل هذه المنظمات (أغلبها تأسس قبل احتلال ١٩٦٧) تحرير كامل التراب الفلسطيني، واعتبار الكفاح المسلح الطريق الوحيد للتحرير، فقد انتهت إلى ما عُرف لاحقاً بالبرنامج المرحلي لمنظمة التحرير؛ وصولاً إلى توقيع اتفاقات أوسلو، وتشكيل السلطة الفلسطينية.

ولعل هذه المرحلة شهدت تحولات في الأداء المقاوم وقفزات نوعية، واستجمعت قدرًا من الإمكانات التسلحية والتدريبية والبشرية والمالية، ما شكّل في بعض مراحله شبه دولة في المنفى، الأردن (١٩٦٩-١٩٧١)، ولبنان (١٩٧٢-١٩٨٢).

ويشير عدد من الباحثين إلى أن هذه الفترة يمكن تقسيمها إلى خمس محطات رئيسية:

- المرحلة الجينية (١٩٦٥-١٩٦٧): حيث

ويمكن للدارس أن يقسم الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٣ و٢٠٠٦ إلى ثلاث مراحل رئيسية؛ لكل منها سماتها وظروفها وتفصيلاتها:

المرحلة الأولى: تمتد بين عامي

١٩٦٥-١٩٣٣:

تمتاز هذه المرحلة بأنها مرحلة البدايات، وبوجود المقاومة بصورة رئيسية على الأرض الفلسطينية ومزجها بين الأداء الشعبي والأداء التنظيمي غير المتطور، والذي أخذ في بعض المراحل شكلاً رسمياً، مع قلة الإمكانات وقلة الخبرة والافتقار إلى شمولية الفعل جغرافياً، وعدم تبلور الأهداف بصورة واضحة ودقيقة.

وتشتمل هذه المرحلة على ثلاث محطات رئيسية:

- ثورة القسام (١٩٣٥) والثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩): حيث يمكن اعتبار الشيخ عز الدين القسام القادم من جبلة في سوريا، فاتحة بلورة العمل الجهادي المنظم والأكثر تأطيراً، فقد استشعر القسام مبكراً الخطر الصهيوني على فلسطين، ورأى -ضمن أمور أخرى- ضرورة ضرب جذوره قبل أن يكتب له التمكين، مُطْلِقاً صرخته الشهيرة إنه «جهاد نصر أو استشهاد».

ولعل شهادة الشيخ ورفاقه، وما كان بدأه من تعبئة وتجميع هو ما أضرم نار الغضب في الشارع الفلسطيني؛ لتنتلق من بعد ذلك الثورة الفلسطينية الكبرى، والتي امتدت على مدى ثلاث سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩) تراوح فيها فعل الثورة بين المد والجزر.

- المشاركة الفلسطينية في حرب ١٩٤٧-١٩٤٨:

وهي تجربة بدأت قوية عبر الإفادة من الزخم الشعبي الفلسطيني وتأطير جزء منه؛ لتنتهي إلى حالة من التحييد بفعل أخذ الجيوش العربية - التي دخلت إلى فلسطين للمشاركة في الحرب - العباء الأساسي في القتال، وتحول القتال إلى الطابع

الجبهة الشرقية، وعنوانها الحرب العراقية الإيرانية، حيث تم التركيز عربياً على تداعيات هذا الصراع ضمن أجنادات دولية تتجاوز الإقليم.

المرحلة الثالثة: تمتد من العام ١٩٨٧ وحتى تاريخه :

ويمكن تقسيمها إلى ثلاث محطات:

المحطة الأولى: الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧-١٩٩٤)، والتي عُرفت بثورة المساجد وثورة أطفال الحجارة، والتي شكّلت بحق أهم محطات التحول في مسار العمل الفلسطيني المقاوم على أربعة مسارات مهمة:

أ- بروز الصبغة الإسلامية في عمل المقاومة، مضموناً من حيث الشعار ونوعية الأداء والصورة، أو من حيث المشاركة الفصائلية، حماس والجهاد الإسلامي.

ب- نقل ثقل العمل المقاوم من الخارج إلى الداخل وبفعالية متواترة، وأداء استثنائي متميز فاجأ الاحتلال على أكثر من صعيد؛ سواء في نوعية الجيل الذي قاد المقاومة عمرًا، وظروف نشأة (تحت حراب الاحتلال)، أو مستوى الجسارة والقدرة على الاستثمار الإعلامي، وهو ما عبّر عنه رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتياهو بانقلاب الصورة، حيث نجح الفلسطينيون بتقديم أنفسهم كضحايا يقاتلون بحجارتهم الصغيرة وأجساد أطفالهم جبروت دولة الاحتلال المجرمة والمتعطّسة، والتي قامت دعائها لعقود على استدرار العطف الدولي على أساس من المظلومية اليهودية عبر التاريخ.

ج- إعادة المبادرة إلى الفعل الشعبي (نساء، أطفال، رجال، مدن وقرى ومخيمات).

د- تطوير أدوات العمل وتنوع أساليب المقاومة، وهو ما سيأتي تفصيله تالياً.

المحطة الثانية: انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠-٢٠٠٤)، والتي يمكن اعتبارها بأنها استئناف أو امتداد

بداية التشكل للمجموعات الفدائية للفصائل الرئيسية في العمل الفلسطيني، والقيام بعدد من العمليات العسكرية.

- مرحلة القواعد الارتكازية (١٩٦٧): بعد احتلال الكيان الصهيوني لباقي الأراضي الفلسطينية في غزة والضفة، حيث عمدت فصائل المقاومة إلى تأسيس خلاياها السرية في المناطق المحتلة عام ٦٧، وتفعيل عملياتها ضد الاحتلال انطلاقاً من داخل الأراضي المحتلة.

- مرحلة حرب الشعب (١٩٦٨-١٩٧٠): بعد فشل تجربة القواعد الارتكازية، وتنامي قدرة الاحتلال على ملاحقة ومحاصرة الخلايا الفدائية، انتقلت المقاومة لبناء قواعدها الثابتة في الضفة الشرقية (الأردن)، والتحول إلى تنفيذ العمليات عبر الحدود.

- المرحلة الانتقالية (١٩٧١-١٩٧٣): والتي انطوت على جملة من المراجعات لخطة وأساليب العمل، ومن جملة ذلك إعادة النظر في استراتيجية «حرب الشعب» بعد تبلور اليأس من وجود «الجبهة العربية المساندة»، والتي يُفترض أن تقف من وراء حرب العصابات، والحرب الشعبية التي تخوضها المقاومة، خصوصاً وقد تأكد عجز النظام العربي، وحرصه على النأي عن مسار العمل الفلسطيني المقاوم، بل ربما الاستعداد للتصادم معه إذا ما كان استمرار أدائه يقود إلى توتير الأوضاع الأمنية لهذه الأنظمة مع الاحتلال الإسرائيلي.

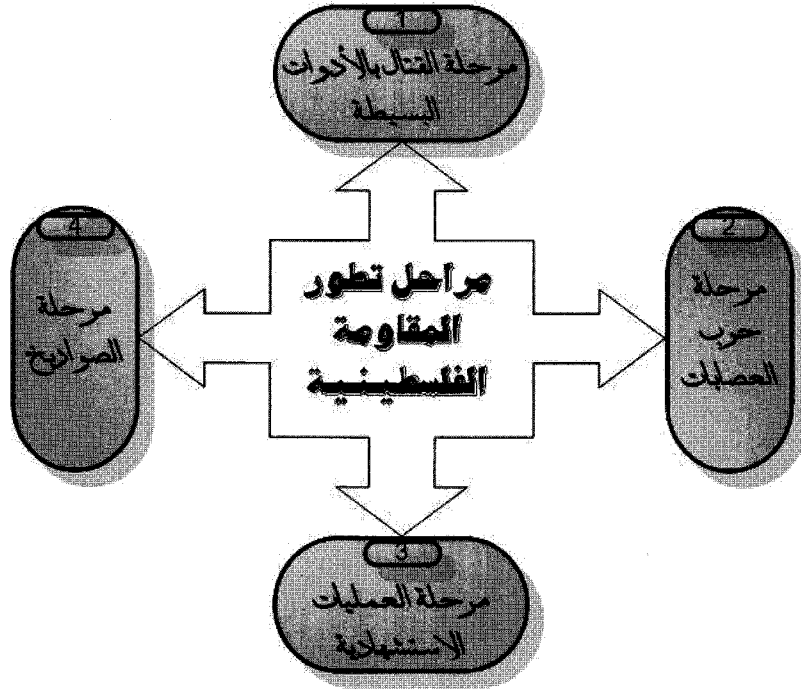
- مرحلة النمو النظامي (١٩٧٤-١٩٨٢): حيث توجهت الإرادة باتجاه تكريس تشكيلات عسكرية نظامية إبان المرحلة اللبنانية من عمر العمل الفلسطيني.

- مرحلة خلط الأوراق (١٩٨٢-١٩٨٧): حيث تراجع الأداء العسكري وتبعثرت القوات، وتراجعت فعالية وحضور منظمة التحرير، وبدأت مرحلة عربية من التركيز على خطر جبهات طارئة، فيما عُرف بخطر

**المقاومة الفلسطينية في شكلها الجديد:
تطور الأداء والإمكانات:**

يمكن رصد تطور المقاومة الفلسطينية في شكلها الجديد، بعد الانتفاضة الأولى، ضمن أربع مراحل رئيسية، عبّرت -بمجموعها- عن نقلات كبيرة في الأداء وامتلاك أدوات القتال، وهو ما يصلح كقاعدة مهمة لقراءة مستقبل المقاومة، خصوصاً وقد قطعت كل هذا الشوط، ونجحت في حرق مراحل كثيرة. المرحلة الأولى: وهي مرحلة القتال بالأدوات البسيطة، الحجر والمقلع وعبوات المولوتوف ..

للانتفاضة الأولى، وإن كان بأساليب جديدة، حيث غلب على هذه الانتفاضة صعود العمل العسكري وتطوير أدواته، وتراجع الأدوار الشعبية إلى مستويات أقل مما كانت في الانتفاضة الأولى، دون إغفال أن انتفاضة الأقصى جاءت بعد تعثر العملية السياسية في كامب ديفيد ٢ (عرفات - باراك) (أيلول/ ٢٠٠٠، وفي ظل وجود سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة وغزة، وبعد إنجاز المقاومة اللبنانية لتحرير الجنوب عبر ضغط الفعل العسكري المقاوم، وليس عبر التفاوض والعمل الدبلوماسي.



وصولاً إلى استخدام السكاكين في مرحلة لاحقة من عمر الانتفاضة الأولى، وهي مرحلة عبّرت بوضوح عن شخّ الإمكانات وغزارة الإرادة المصممة على القتال لدى الشعب الفلسطيني.

المرحلة الثانية: حرب العصابات: حيث استطاعت المقاومة أن تمتلك بعض قطع السلاح، وأن تنفذ عدداً من العمليات الفدائية ضد أهداف عسكرية إسرائيلية ثابتة أو متحركة، وقد شكّلت عمليات المجموعات التي يقودها الشهيد عماد عقل ذروة النجاح على

المحطة الثالثة: مرحلة تثبيت حضور القوى الإسلامية: سواء في ساحة العمل المقاوم أو في الشارع الشعبي والمؤسسات الرسمية، والتي كزست جملة من الاعتبارات: أهمها إعادة الاعتبار للخيار المقاوم بعد ما تم إهداره من قبل السلطة الرسمية الفلسطينية لسنوات، وتغليبها الخيار التفاوضي، أو إمكانية الجمع بين العمل السياسي، والانخراط في المهمات القتالية.

في جهد موصول لزيادة مدى تلك الصواريخ وقدرتها على الإصابة، وزيادة المادة المتفجرة التي تحملها، وقد أشار المحلل العسكري الإسرائيلي زئيف شيف في تعليق له على ما تمثله هذه الصواريخ من تهديد على الأمن الإسرائيلي، بأنها بدأت تتحول إلى خطر استراتيجي، ومن الممكن أن تتحول إلى خطر وجودي، إذا استطاعت المقاومة الفلسطينية نقلها إلى الضفة الغربية، حيث التماس مع العمق الاستراتيجي للدولة الإسرائيلية، وتهديد المنطقة الأكثر حيوية: سكانياً وأمنياً بين القدس وتل أبيب، حيث تتضاءل المسافات، وهو ما يعني وضع الأمن الإسرائيلي رهن عمليات إطلاق صواريخ القسام.

وضمن هذه المرحلة أبدعت المقاومة ما اصطلح على تسميته بحرب الأنفاق، وهي التقنية التي أسقطت نجاعة الخطة الأمنية الإسرائيلية القائمة على فكرة بناء الجدار العازل؛ باعتبار ذلك الوسيلة الأنجع لمنع العمليات الاستشهادية.

ولعل استثمار الأنفاق لتفجير المراكز والأبراج العسكرية الإسرائيلية حول قطاع غزة سدد ضربة قوية للوجود العسكري الإسرائيلي هناك، وهو ما أكده المحلل

استثمار الأنفاق لتفجير المراكز والأبراج العسكرية الإسرائيلية حول قطاع غزة سدد ضربة قوية للوجود العسكري الإسرائيلي

العسكري الإسرائيلي لهارتس زئيف شيف. ومن المثير للإسرائيليين أن حرب الأنفاق وتوسيع التعاطي معها كتقنية قتالية غير مسبوقه، تزامن مع نجاح المقاومة في عمليات تفجير دبابة الميركافا الإسرائيلية الأكثر شهرة والأكثر تحصيناً في العالم، حيث سجّلت أول عملية تفجير للميركافا في شباط من العام ٢٠٠٢.

وبالتوازي مع كل هذه الجهود استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تُدخل إلى فلسطين كميات كبيرة من السلاح، عبر الأنفاق في غزة أو عبر تجنيد العديد من الجهات لشراء السلاح وتهريبه، وتعزيز وسائل الإمداد وتنويعها، كما استطاعت أن تدرّب عددًا من

هذا الصعيد؛ حيث بدأت في غزة وانتقلت إلى الضفة، واستطاعت المقاومة خلال هذه الفترة أن تبني خلاياها الأمنية والعسكرية، وأن تبدأ عمليات حثيثة من التزود بالقتال والأسلحة الخفيفة، وأن تطور قدراتها التدريبية والتخطيطية، ووسائل جمع المعلومات والرصد والتخفي.

المرحلة الثالثة: مرحلة العمليات الاستشهادية وتصنيع الأحزمة الناسفة: وهي المرحلة التي استطاعت أن تنقل فعل المقاومة إلى مساحات أكثر تأثيراً، وأن تفرض نوعاً من توازن الرعب مع الاحتلال، واستطاعت أن توازن ميزان الخسائر بين الجنابيين الفلسطيني والإسرائيلي، وأن تنقل نسبة الشهداء الفلسطينيين إلى القتلى الإسرائيليين من ١:١٠ في الانتفاضة الأولى؛ ليصبح ١:٣ في الانتفاضة الثانية، وحسب إحصائية لرئيس العمليات في الجيش الإسرائيلي الجنرال إيلي اميتاي أمام لجنة الخارجية والأمن، تمت الإشارة إلى أنه من

أصل ٦٣٠ قتيلاً إسرائيلياً في انتفاضة الأقصى، هناك ٤٥٥ إسرائيلياً قُتلوا جراء عمليات استشهادية بنسبة تصل إلى ٧٥٪ من مجموع القتلى.

ويدخل ضمن نطاق العمليات الاستشهادية التي تنوعت أشكالها

بين الحزام الناسف والعبوات التشغيلية، وتفخيخ السيارات، عمليات اقتحام المستوطنات والمعسكرات الإسرائيلية، والتي عبرت عن مستوى متقدم من الكفاءة والجرأة وتطور التخطيط والتدريب لدى فصائل المقاومة.

المرحلة الرابعة: مرحلة الصواريخ وصراع الأدمغة: حيث استطاعت المقاومة امتلاك ناصية التصنيع العسكري، وإن كان بوسائل أولية غير متطورة، إلا أنها قفزت وفي وقت قليل إلى مستويات مؤثرة، فتمت تصنيع للعبوات الناسفة والقتال وقاذفات الأريبيجي، وإنتاج نسخة خاصة من العوزي الإسرائيلي، وفي ذروة ذلك تقنية تصنيع الصواريخ التي تعمل المقاومة

بدأت تفكر جديدًا في رسم استراتيجية جديدة، سواء لجهة نوعية التسليح والتدريب الذي تسعى لامتلاكه، أو طبيعة الاستعدادات الميدانية على الأرض التي تحاول أن تؤسس لها.

ويمكن للمراقب أن يلاحظ أن أداء المقاومة الفلسطينية في مواجهة الهجمات الأخيرة على غزة، عكس ارتقاءً بعدة درجات في مستوى الأداء والقدرة على تثبيت مستوى من الفعل الردعي والميداني في ذات الوقت، وعلى نحو أقر فيه رئيس الوزراء الإسرائيلي أن الحرب على غزة لم تحقق أهدافها، وأن على «إسرائيل» أن تنظر في وسائل أخرى، لوقف إطلاق الصواريخ من غزة وإنقاذ حياة الجندي الإسرائيلي الأسير، وهو ما يعزز ضرورة بناء المقاومة الفلسطينية استراتيجية متكاملة، توفر شرطين على الأقل في المرحلة الراهنة:

الأول: القدرة على امتلاك وسائل ردعية، قد تكون العمليات الاستشهادية في العمق الإسرائيلي، وبناء منظومة للصواريخ وتطويرها جزءًا مهمًا منها، تجعل الاحتلال غير مطلق اليدين في شنّ العدوان على الفلسطينيين عبر الجو أو عبر الاجتياحات الأرضية كلما عنّ له ذلك.

والثاني: قدرة ميدانية تستطيع الصمود في وجه الاجتياحات، وتكبيد الاحتلال خسائر فادحة، إذا ما فكّر باقتحام المدن والبلدات الفلسطينية، وذلك من خلال التزود بالوسائل القتالية المناسبة، وبناء الاستحكامات والخطط العسكرية المؤهلة لاستيعاب الهجمة الإسرائيلية وامتصاص طاقتها.

عوامل قوة، ونقاط ضعف:

- يتفق خبراء الاستراتيجية العسكرية على أن نجاح أي مقاومة رهن توفر ثلاثة شروط:
- أ- الأرض أو المحيط الذي تتحرك فيه المقاومة.
 - ب- العمق التكتيكي.
 - ج- العمق الاستراتيجي.

كوادرها الفاعلة على تصنيع بعض صنوف السلاح فضلاً عن إتقان استخدامه، وتعلم المزيد من فنون التخطيط العسكري، في الداخل والخارج بهدف تطوير بنيتها العسكرية.

ولعل ما سرّبه بعض وسائل الإعلام الإسرائيلية عن أسلحة تم تهريبها إلى غزة، يعطي صورة عن الوضع وإمكانات تطويره، وأن المقاومة تعمل باجتهاد وخطّة كبيرة على تعظيم مخزونها من السلاح وتنويعه، وأن هذا الأمر يأخذ حينًا كبيرًا من تفكيرها خصوصًا لجهة نوعية السلاح وكمياته وأفضلية تخزينه، مع العمل بمباشرة على محاكاته تصنيعًا وتطويرًا.

المقاومة الفلسطينية بين الفعل ورد الفعل:

لا شك أن المقاومة الفلسطينية لم تنشأ من فراغ، وأن المقاومة بالأساس هي رد فعل طبيعي وشرعي على جريمة الاحتلال، تأخذ مشروعيتها وحقها في الاستمرار من استمرار جريمة الاحتلال ذاتها، وهي بالإضافة لذلك حق مشروع تكفله الشرائع السماوية تمامًا مثلما يكفلها القانون الدولي والمواثيق الإنسانية.

وإذا كانت المقاومة رد فعل على جريمة الاحتلال، فهي من زاوية أخرى حالة إبداعية من الفعل الاستثنائي، ولا يقلل من قيمتها أن جزءًا من أدائها يجيء في سياق رد الفعل على جريمة للمحتل هنا أو هناك.

ومن الواضح أن قوى المقاومة الفلسطينية تميز وتوازن بين الحاجة للرد على الجريمة الجزئية للمحتل والحاجة للمحافظة على مسار صاعد للفعل المقاوم لا يتم استنزافه في معارك جزئية ضمن سياق الفعل ورد الفعل الآني، وهو ما يفرض عليها ضرورة رسم معالم استراتيجية شاملة للتحرير، لا يتم استفزازها أو استنزافها في خوض معارك جانبية وخارج سياق ما تُرتب وتخطط له ضمن استراتيجيتها الكلية، ولعل المقاومة الفلسطينية بعد أن قطعت شوطًا مهمًا في بناء الذات، وتحديدًا بعد خروج الاحتلال من غزة،

القريب والبعيد، وكانت قوات أمن السلطة- في الغالب- أداة تعمل بصورة سلبية ضد المقاومة، وربما كان لأجزاء منها تواطئات عميقة مع المحتل، في مراحل معينة، إذا لم نقل أكثر من ذلك.

العمق الاستراتيجي: وهو الدائرة الأوسع في دعم وإسناد المقاومة، والتواصل معها وتوفير متطلباتها والتعويض عن خسائرها وتأمين احتياجاتها، ففي الحالة اللبنانية شكّلت إيران وسوريا عمقاً استراتيجياً مهمّاً وفعالاً بالنسبة للمقاومة، وهو ما وفّر لها أسباب الاستمرار والتطور والصمود والانتصار، وهو ما لم يتوفر مثله للمقاومة الفلسطينية، التي يمنع الحصار تزويدها بالسلاح من دول الجوار العربي، ويوقع من يمدّها بالسلاح تحت طائلة العقوبة والمسؤولية، بل إن أطرافاً فلسطينية تمارس دوراً على هذا الصعيد، وما تدمير الأنفاق على الحدود الفلسطينية المصرية، ونشر آلاف الجنود المصريين إلا صورة من صور الحصار.

وبالطبع لا يمكن إغفال أمور أخرى لا تقل أهمية عن كل ما سبق، منها أن الواقع الفلسطيني الذي خضع -لعقود طويلة- لسطوة الاحتلال، قد تم اختراق صفوفه بالكثير من العملاء، تحت ضغط الحاجة، أو بفعل عمليات الإسقاط، وما لم يتم معالجة ظاهرة العملاء بصورة صحيحة وسليمة في المواقع الشعبية والرسمية، فإن استنزافاً كبيراً في طاقة المقاومة سيظل مستمراً، وهو ما يعني حاجة المقاومة ضمن شروط النجاح، أن تحافظ على قدر عالٍ من السرية لأدائها وتأمين تحركات كوادرها.

ولا يمكن إغفال أهمية أن تتجاوز فصائل المقاومة الخلافات بينها، وصولاً لحالة شاملة من التنسيق والتكامل، وتنظيم الأداء ضمن خطة مشتركة، وكثيف العمل للحصول على وسائل قتالية ذات كفاءة تسمح بالاستمرار في مواجهة الاحتلال وصولاً لهزيمته، سواء عبر التزود من مصادر وراء الحدود، أو عبر تطوير إمكانات التصنيع الذاتي،

ولعل نظرة فاحصة لوضع المقاومة الفلسطينية تكشف أن ثمة نواقص كثيرة تحتاج للاستكمال، رغم تحقيق هذه المقاومة نجاحات كبيرة في ظل انكسار الميزان الاستراتيجي بينها وبين الاحتلال بصورة مذهلة، ووجود أوضاع غاية في الصعوبة والتعقيد تواجه عمل وتطور أداء المقاومة.

فالأرض الفلسطينية تكاد تكون بصورة كاملة خاضعة لسيطرة الاحتلال، وباستثناء قطاع غزة، محدود المساحة (٣٦٠ كم^٢)، والمحاصر من كل الجهات وذوي الطبيعة الجغرافية المكشوفة، حيث لا جبال ولا غابات، فإن الأرض الفلسطينية مُسيطر عليها من قبل جيش الاحتلال بصورة مطلقة، حدود ومعابر.. فضاء وماء وخطوط تواصل، أو اتصال فيما بين البلدات الفلسطينية ذاتها، ولم يكتف الاحتلال الإسرائيلي بالسيطرة العسكرية على الأرض، فأضاف إلى ذلك سيطرة سكانية عبر بناء عشرات المستوطنات الإسرائيلية التي تعمل على تجزئة الجغرافيا الفلسطينية ومنع تواصلها؛ فضلاً عن سيطرتها على المناطق الاستراتيجية والحيوية وطرق المواصلات، مما يُفقد المقاومة أهم عناصر الفعل والتطور، وهو السيطرة على أرض تُشكل ملاذاً آمناً للمقاومين، ومكاناً للتدريب والتحرك الآمن، والتجميع وتخزين السلاح ووسائل القتال.

العمق التكتيكي: وهو المعبر عنه بالشعب الملتف من حول المقاومة، والذي يشكل الحاضنة والبيئة لنشاطها وتحركها، وما يتوافر لهذا الشعب من إمكانات فعل (مؤسسات شعبية أو رسمية أو شبه رسمية)، وإذا كان الشعب والجيش اللبناني شكلاً في الحالة اللبنانية عمقاً تكتيكيّاً للمقاومة هناك في أهم مراحل إنجازها، فإن الوضع في فلسطين كان واقعاً تحت قسمة أو سلو، وموزعاً بين خيار التسوية والتنسيق الأمني مع المحتل وبناء سلطة حكم ذاتي، وخيار المقاومة التي تتعرض للملاحقة والمطاردة، ويفرض عليها الحصار من العدو والشقيق والجار

على جريمة الاحتلال، الذي لا يسلم بأي من الحقوق الفلسطينية إلا مُكرهاً، وهو ما تحقق بالفعل في غزة وقبله في لبنان، بينما فشل عقد كامل من المفاوضات في تحصيل شيء معتبر من الاحتلال.

ولعل ملاحظة الكيان الصهيوني، وبناءه لاستراتيجيته على أساس فرض الحقائق على الأرض، وتقديس القوة؛ باعتبارها مفتاح حماية الأمن والمصالح الإسرائيلية- جعل من المتعذر التفاهم مع هذا الكيان خارج اللغة التي يتحدث بها ولا يفهم سواها، أي عبر ممارسة الكفاح المسلح والضغط

على عصب الاحتلال لانتزاع الحقوق، ويمكن رصد حالات كثيرة من فرض التراجع على المحتل والإقرار ببعض الحق الفلسطيني، تحت ضغط العمل المقاوم، لعل أهمها الانسحاب من لبنان والانسحاب من غزة، وعمليات تبادل الأسرى الكثيرة مع المقاومين الفلسطينيين واللبنانية، وكسر إرادة المحتل فيما يخص تفكيك المستوطنات في غزة أولاً وتالياً الضفة.

الفصائل الفلسطينية والسلطة ومرحلة جديدة من المقاومة:

ابتداءً من انخراط حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في عملية الانتخابات للمجلس التشريعي الفلسطيني، وفوزها بأغلبية مقاعد المجلس، وتشكيلها للحكومة... طرأ وضع جديد في تركيبة السلطة الفلسطينية، أبرز سماته وجود حركة مقاومة بامتياز في سُدّة صنع القرار السياسي والأمني للسلطة، وهو ما طرح العديد من التساؤلات.. أهمها مسألتين:

الأولى: هل يمكن لحركة حماس أن تجمع بين خيار المقاومة والعمل السياسي؟ وإلى أي مدى

دون أن تهمل المقاومة عنصر التدريب ورفع كفاءة المقاتلين على استخدام صنوف السلاح المختلفة، واستخدام تكتيكات الحرب ورسم خططها، وبناء الاستحكامات العسكرية، وتحصين خطوط الدفاع وفق أرفع ما وصلت إليه خبرة المقاومة على هذا الصعيد.

المقاومة بين الثوابت والمتغيرات:

ظلت المقاومة الفلسطينية، أو بالتعبير الدارج فلسطينياً «الكفاح المسلح»، طريقاً وحيداً لاسترداد الأرض والحقوق، كما في مواد الميثاق الوطني الفلسطيني، قبل تعديل (٩٥)، وفي شعارات وأدبيات فصائل المقاومة، قبل أن تنتقل منظمة التحرير إلى تبني مشروع «الحل المرحلي»، والمزاوجة بين الكفاح

المسلح والعمل السياسي «المفاوضات» في النصف الأول من سبعينيات القرن المنصرم، لنتهي الأمور لاحقاً، وبدءاً من توقيع اتفاق أوسلو، إلى اعتبار المفاوضات والخيار السلمي، طريقاً وحيداً للوصول للحقوق واستعادة الأرض، وفي السياق جرى تجريم العمل المقاوم، تحت اشتراط الإدارة الأمريكية والاحتلال الإسرائيلي؛ ضمن وثائق الاعتراف المتبادلة بين «إسرائيل» ومنظمة التحرير، أن تقر هذه الأخيرة بضرورة «نبد الإرهاب»، وهو ما ينطوي على الإقرار الضمني بأن المقاومة إرهاباً.

بيد أن دخول القوى الإسلامية على خط المقاومة، أواسط الثمانينيات وتعزيز حضورها بعد أوسلو (٩٤)، وتمكنها بعد انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠)، أعاد الأمور إلى نصابها الصحيح، وهو أن المقاومة هي الخيار الاستراتيجي للشعب الفلسطيني، وأنها الرد المناسب

مماثلة الكيان الصهيوني، وساءه لاستراتيجيته على أساس فرض الحقائق على الأرض، وتقديس القوة، جعل من المتعذر التفاهم مع هذا الكيان خارج اللغة التي يتحدث بها ولا يفهم سواها، أي عبر ممارسة الكفاح المسلح

ملف التقرير - المقاومة

الاعتبار، ضمن سياق رسم التصور وحسم الإجابة على هذه المسألة:

أ- تحييد قوى الأمن الفلسطينية عن لعب أي أدوار سلبية أو متعارضة مع أداء المقاومة، وهو ما اشتمل على وقف عمليات المطاردة والملاحقة والمساءلة والرصد.

ب- إنشاء قوى أمنية (القوة التنفيذية) تتمتع بشرعية السلطة تستوعب أعدادًا كبيرة، وتزود بالسلح بصورة رسمية، وتحصل على التدريب، ويمكن اعتبارها امتدادًا للمقاومة وسندًا لها، كما ظهر في أكثر من اجتياح لغزة.

ج- التقدم نحو إعادة صياغة الواقع المؤسسي الفلسطيني، من حيث الولاء والنظرة للمقاومة، ففي

حين تراخت قبضة فريق أو سلو في تصريف الأمور، وما يعنيه ذلك من إقصاء المقاومين، ومن يعبر عن خطهم السياسي عن دوائر الفعل والتأثير، تم تعزيز حضور ونفوذ شخصيات هي

بالأساس محسوبة على مربع المقاومة، ضمن عملية إحلال واستبدال يمكن أن تشهد تسارعًا وتعزيزًا، إذا ما نجحت حماس في كسر الحصار المالي والاستمرار في تصريف شؤون السلطة في الأيام القادمة.

د- توسيع إطارات عمل وحضور قوى المقاومة، شعبيًا ورسميًا، وضمن دائرة العلاقات العربية والإسلامية، وهو ما سينعكس بالضرورة على تحسين الإمكانيات، وتطوير القدرات المالية العسكرية واللوجستية للمقاومة.

وهذا بمجموعه، يؤشر أن ثمة واقعًا جديدًا يتشكل، لا تزال بوادره توحى بإمكانية تعزيز وتطوير أداء المقاومة، وإذا ما أحسن استثمار المتغيرات فيمكن أن نشهد ارتقاءً وتحولاً كبيرًا في أداء المقاومة في فلسطين.

يمكن أن يُشكّل دخول حماس لهذا المعترك إضافة لمسيرة العمل المقاوم وليس انكسارًا لأدائه، عبر إعادة «تأهيل» أكبر قوى المقاومة الفاعلة، وسلخها عن جوهر برنامجها المقاوم؟

ورغم أن حماس دخلت الانتخابات التشريعية تحت شعار «حماية خيار المقاومة» إلا أن التشكيك في إمكانية المزوجة بين العمل السياسي والاستمرار في المقاومة ظل هو الأمر السائد، إلى أن استطاعت حركة حماس، وبصورة ربما فاجئت المراقبين، أن تنجح في كسب الرهان، على الأقل عبر ثلاث محطات كبيرة، وبكفاءة عالية، دون أن تنكسر، بل أن تفرض شروطًا جديدة في اللعبة السياسية وتحسين شروط أداء المقاومة.

أ- تنفيذ عملية الوهم المتبدد (تموز ٢٠٠٦) والتي استغرقت إعدادًا وتجهيزًا عدة أشهر، جُلبها ضمن الفترة الزمنية التي كانت حماس في الحكومة.

ب- الاحتفاظ بالجندي الإسرائيلي كل هذه المدة، وإدارة مفاوضات صعبة وقاسية، مشبعة بروح التحدي، لإطلاق سراحه مقابل مئات الأسرى الفلسطينيين.

ج- تفعيل حرب الصواريخ كجزء من حرب ردعية ضد أساليب الاحتلال العدوانية، والقدرة على الاستمرار بهذه الحرب، وعدم الانكسار أمام الهجمة الإسرائيلية، وصولاً لفرض التهدئة الأخيرة (تشرين ثان ٢٠٠٦)، التي أرغم الاحتلال بموجبها على وقف عدوانه على غزة، وسحب جنوده مقابل وقف إطلاق الصواريخ على البلدات الإسرائيلية.

الثانية: هل وجود حماس في الحكومة والعمل السياسي فرصة لتعزيز وتطوير خيار المقاومة أم إضعافه؟

وهنا يمكن رصد عدة أمور، من المهم أخذها بعين

ملاح مشروع المقاومة المستقبلي:

مما لا شك فيه أن المقاومة الفلسطينية حققت كسبًا كبيرًا من خلال انخراطها في الانتفاضة الأولى والثانية، على صعيد إعادة تأهيل بنيتها وتطوير إمكاناتها، أو تعزيز شرعيتها بين الجمهور ومن خلال نسج شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية.

ولعل سلسلة المواجهات التي خاضتها المقاومة، ومجابهتها المباشرة مع المشروع الاحتلالي، بكل إمكاناته العسكرية والأمنية، أكسبها الكثير من الخبرات وزودها بالكثير من التجارب.

وإذا أضيف إلى ذلك شبكة العلاقات التي أوجدتها وعمّقتها المقاومة مع الجوار العربي والإسلامي، واحتكاكها مع تجارب مقاومة أخرى، ورصدها الحثيث لتطور آليات عمل كل منها، نجاحًا وإخفاقًا، كل ذلك سمح لها بامتلاك ثروة هائلة من الخبرات والتجارب، التي يمكن البناء عليها لبناء المشروع المستقبلي للمقاومة في فلسطين.

ولعل من أهم ما تعكف عليه المقاومة الفلسطينية هذه الأيام، وضمن رؤيتها للعمل المستقبلي للعقد القادم، بحسب الكثير من المراقبين، محاولة تطوير أدوات فعلها العسكري بالتزود بالسلح المناسب القادر... أولاً: على ردع جريمة الاحتلال. وثانياً: على منعه من اختراق الجغرافيا الفلسطينية المأهولة بالسكان أو المحررة.

وفي هذا السياق تحاول المقاومة الفلسطينية المزوجة بين الفعل السياسي والعمل العسكري، لزيادة المساحات غير الخاضعة لنفوذ وسيطرة جيش الاحتلال، دون أن يكون ذلك على حساب الحقوق الفلسطينية الكاملة، أو فرض شروط وقيود على عمل المقاومة، وهي معادلة صعبة، إلا أن التحرك بها ليس مستحيلًا، ولعل المقاومة حققت بعض النجاحات على هذا الصعيد.

ومن زاوية أخرى لا ترى المقاومة الفلسطينية نفسها نبأً شيطانيًا مُبْتَنًى عن الأمة، وثمة قراءة تدرك المقاومة

أهميتها لإنجاز المشروع الكلي/الاستراتيجي لها؛ حيث تشهد المنطقة العربية والإسلامية حراكًا يدفع باتجاه التحرر والاستقلال من الهيمنة والنفوذ الأجنبي، وتراجع حضور ونفوذ القوى الدولية في القرار السياسي والسيادي للمنطقة، وأبرز وجوهه الانكفاء الأمريكي في العراق وأفغانستان ولبنان والصومال والسودان،.. فضلاً عن تدهور القوة الردعية لجيش الاحتلال الإسرائيلي بعد العدوان الأخير على لبنان وعجزه عن تحقيق أهدافه في غزة. وهو ما يعني أن المقاومة تدرك أنها ليست في ضيق من الوقت، ولا محتاجة لاعتساف الخطوات أو الانكسار وإجراء مقايضات صغيرة، طالما أن مسار الفعل، محليًا وإقليميًا، يتحرك وفق نسق صاعد، بل ثمة من يرى أن المقاومة الفلسطينية يمكن لها أن تلعب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، دورًا مهمًا في تعزيز برنامج الاستقلال والتحرر في المنطقة في مواجهة مشروع التغريب والتبعية للمشروع الأمريكي/الإسرائيلي.

وتأسيسًا على هذه القراءة وربطها بالمحيط، تلتقط المقاومة وتأخذ بالاعتبار جملة من الإشارات أهمها:

- أن فقدان «إسرائيل» للأمن والازدهار الاقتصادي، واستمرار القطيعة مع الجوار يقود إلى تحقيق نتيجتين مهمتين:

الأولى: إضعاف موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وزيادة حجم الهجرات العكسية.

الثانية: اضطراب الحكومة الإسرائيلية لتقديم تنازلات على صعيد الأرض، وتفكيك المستوطنات، والاعتراف بالمزيد من الحقوق الفلسطينية.

- الوضع السابق في سياق حديث «إسرائيل» عن القنبلة الديموغرافية التي يمثلها تنامي الكثافة السكانية الفلسطينية بين النهر والبحر، يعني تآكل فكرة ومفهوم الدولة اليهودية؛ حيث تضيق الجغرافيا وتتضاءل الميزات، وتراجع نسبة السكان اليهود.

- الإسرائيليون يتحسبون من تطوير المقاومة تقنيات الصواريخ، أو امتلاك أسلحة ذات قدرات تدميرية عالية، كيماوية أو جرثومية، أو القدرة على تنفيذ عمليات استراتيجية كبيرة تُشكّل صدمة للمجتمع الإسرائيلي، على شاكلة: ضرب أبراج أو مطارات، أو محطات للطاقة والوقود، أو تسميم شبكات مياه الشرب.

والخشية هنا مركبة، أن تقوم بهذا الفعل جهات فلسطينية؛ أو أخرى عربية أو إسلامية، وهو ما يُعقّد الأوضاع ويُصعّب قدرة «إسرائيل» على الرد أو الردع.

- دولة «إسرائيل» تعيش حالة تراجع في المعنويات والتعبئة والإيمان بالمشروع الصهيوني، بعد انقراض ما يسمونه جيل الرواد والتأسيس، على مستوى القيادة وعلى مستوى الجمهور، فثمة جيل إسرائيلي جديد يحكم سلوكه وارتباطه بالدولة ما تطرحه من ميزات وما توفره من ضمانات لحياة مرفهة، وهو جيل يتم التشكيك بصموده إذا ما تعرض لاختبار عصيب، ضمن أي مستوى من الصراع، والهروب من الشمال ومن سيدروت خشية الصواريخ مثال حي وقريب، وإذا كانت «إسرائيل» في مرحلة معينة حاولت الترويج لما يتمتع به جيشها من روح معنوية وقدرات قتالية أتاحت لها هزيمة ثلاثة جيوش عربية مجتمعة، فالיום يظهر أن معنويات الجندي الإسرائيلي تنهار، ويعجز عن الدفاع عن نفسه، أو تحقيق انتصارات حاسمة في مجابهات مع فتية فلسطينيين لا يملكون عُدّة، ولم يتلقوا تدريبًا كافيًا، فضلاً عن تردي الروح المعنوية للجمهور الإسرائيلي وشعوره بالإحباط.

- المشروع الصهيوني في العقدين الأخيرين شهد تراجعًا كبيرًا، فبعد وقف الامتداد نحو الخارج (وهذا بحدّ ذاته إنجاز ضخم يُسجل، وقبل أي شيء آخر، في رصيد المقاومة)، بدأت عمليات الانكفاء والتراجع تتوالى، ولعل الانسحاب من جنوب لبنان، ثم من غزة، ثم بلورة مشروع تفكيك المستوطنات بعدما كان ذلك محرّمًا وخطأً أحمر للاحتلال، متزامنًا مع الاعتراف بحل الدولتين، والذي يعني سقوط مفهوم وشعار «أرض إسرائيل الكاملة»، تُشكل بعض مظاهر هذا الانكفاء المرشح للمزيد من الاستمرار. وهو ما يمنح المقاومة دافعية للمزيد من الصمود والاستمرار؛ باعتبار أنها لا تتحرك في الفراغ، وأن تضحياتها لا تذهب هدرًا، بل أنجزت أولاً: حماية للمنطقة. وثانيًا: انكفاء في مسيرة المشروع الصهيوني، وتراجع المشروع الصهيوني في مقابل تقدم مشروع استقلال الأمة وتعزيز سيادتها، يعملان بشكل متوازٍ لإنجاز البيئة المناسبة لاحتضان المقاومة وتوفير شروط تطورها واستمرارها وانتصارها، وهو ما تقرّاه المقاومة وتبني عليه.

- الإسرائيليون يعيشون مرحلة من التشكك في إمكانية استمرار دولتهم، في هذا البحر المعادي من العرب والمسلمين، وهم يتساءلون -وربما بصوت مرتفع، كما في وسائل إعلامهم- إلى أي مدى يمكن لدولة «إسرائيل» أن تعيش على حد السيف؟، بل هناك من يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك التحسب من أن يكون حلم الدولة اليهودية المنقذة تحول إلى كابوس مرعب، فمن أجل إدامة وحماية هذا الدولة، ينبغي على اليهود أن يكونوا غير آمنين في كل الدنيا، بعد تحولهم إلى أهداف مُغرية لما يسمونه «الإرهاب الإسلامي»، وأن عليهم أن يدفَعوا أثمانًا باهظة من حياتهم وأموالهم لإدامة هذا الوجود المرفوض وإنعاشه، الذي ما عاد آمنًا ولا يتمتع بالازدهار، في ظل فشل مشروع التعايش مع الفلسطينيين والتطبيع مع الجوار العربي والإسلامي.

معلومات إضافية

الشيخ عز الدين القسام:

وُلد عز الدين القسام في بلدة (جبلية) التابعة لقضاء اللاذقية في سورية عام ١٨٨٢، نشأ في أسرة ريفية عُرفت بالعلم والتقوى، أبوه الشيخ عبد القادر مصطفى القسام من المشتغلين بعلوم الشريعة الإسلامية، وأمه حليلة قصاب من عائلة علم ودين.

تعلم عز الدين في كُتاب البلدة القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، وتميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه وامتاز بميله للتأمل وطول التفكير.

كان يرافق اهتمام الشيخ بدروس العلم اهتمام آخر بحركات التحرر التي كان يُغذيها رجال الأزهر، ففهم عز الدين أن الإسلام دين عز وقوة وتحزُّر وجهاد.

ثم عاد القسام إلى جبلية عام ١٩٠٦ بعد أن قضى عشر سنوات في الدراسة في الأزهر، بعدها حصل على شهادة الأهلية، ومن ثم قام برحلة إلى تركيا للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وبعد عودته عكف على التدريس في زاوية والده، في جامع السلطان ابن أدهم قطب الزاهدين.

يعتبر القسام صاحب دعوة مستقلة، وأسلوب متميز، وحركة جهادية رائدة سبقت جميع الاتجاهات في ميدان الجهاد المعاصر في فلسطين.

ويتلخص هذا الأسلوب في تربية جيل من المجاهدين، كان يختارهم من الذين يحضرون دروسه ومواعظه، ويقوم بتهيئتهم وإعدادهم للجهاد، ويكون منهم خلايا جهادية، تقتصر عضويتها على نفر من المؤمنين الصادقين الذين لديهم الاستعداد الكامل للتضحية والفداء.

وعندما تم إنشاء القوة المجاهدة بشكل متكامل، كانت مقسمة إلى وحدات مختلفة المهام، حيث لكل وحدة دور خاص بها تتولاه، وهذه الوحدات هي:

الأولى: وحدة خاصة بشراء السلاح.

الثانية: وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدو البريطاني واليهودي.

الثالثة: وحدة خاصة بالتدريب العسكري.

الرابعة: وحدة خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد.

الخامسة: وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.

السادسة: وحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء.

وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق: التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات، والإغارة على ثكنات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها.

وفي الوقت الذي اعتُبرت فيه أعمال القسام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحزّكت الهمم وشدت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال؛ لأنها فعلاً أَلقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملاً جديداً من حديد ونار، وهذه لم يتعود عليها اليهود في فلسطين، وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعراً وبثوا الأرصاد، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

لذا أصبحت تحركات جماعة القسام تلاقى صعوبة شديدة؛ إذ استطاعت الشرطة الإنجليزية الحصول على معلومات بشأن عدد أفراد الجماعة وأسماهم وأسلحتهم، نتيجة التحقيقات المكثفة التي قامت بها، وكذلك استطاعت الحصول على معلومات تساعدهم أكثر وأكثر على تحديد مكانهم.

وأخيراً وفي أحراش يعبد في منطقة جنين يوم ٢٠ تشرين ثاني عام ١٩٣٥، حددت الشرطة البريطانية مكانهم وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة، ودارت معركة رهيبية بين المجاهدين والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خر صريعاً في ميدان الجهاد شهيداً كريماً .

كان لاستشهاد القسام أعمق الأثر في شباب فلسطين في الثلاثينيات والأربعينيات، كما أصبح القسام رمزاً للتضحية والفداء، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق شيخ ثوار فلسطين.

المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين،
كتاب إلكتروني غير مطبوع، الموسوعة الشاملة.

مؤشرات إحصائية

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٢٠٠٥/١٢/٤.

* نسبة الأفراد الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة في منتصف عام ٢٠٠٤، بواقع ١,٩٥٤ مليون طفل، من إجمالي عدد السكان في الأراضي الفلسطينية، والذي يبلغ نحو ٣,٦ مليون فرد في منتصف عام ٢٠٠٤.

وأشارت المعطيات، إلى أن تقدمًا واضحًا قد طرأ على الوضع الصحي للطفل الفلسطيني في العديد من الجوانب، على الرغم من الفجوات التي بقيت تسيطر على جوانب أخرى، نتيجة انتهاج سياسة واضحة تبني البرنامج الوطني للأطفال، إضافة إلى استدامة العمل من أجل تطبيقه.

* انخفضت معدلات وفيات الرضع من ٢٥,٥ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩) إلى ٢٤,٢ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٩-٢٠٠٣)، كذلك انخفضت معدلات وفيات الأطفال دون سن الخامسة من ٢٨,٧ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩) إلى ٢٨,٣ لكل ١٠٠٠ مولود حي في الفترة (١٩٩٩-٢٠٠٣).

* أهم الأسباب المؤدية لوفيات الرضع في الضفة الغربية، كانت نتيجة للولادة المبكرة، ونقص الوزن، وبسبب أمراض الجهاز التنفسي؛ بما فيها الالتهابات والتشوهات الخلقية، بينما في قطاع غزة فقد بقيت نسبة وفيات الرضع الناجمة عن الولادة المبكرة ونقص الوزن، تحتل المرتبة الأولى، فيما سجل انخفاضًا على الوفيات الناجمة عن التهابات الجهاز التنفسي.

* كما ارتفعت نسبة الرعاية الصحية بعد الولادة من ٢٦,٣٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٣٤,١٪ عام ٢٠٠٤، حيث تبين أن هناك زيادة في عدد مراكز الرعاية الأولية، التي تشرف عليها وزارة الصحة بما فيها مراكز الأمومة والطفولة؛ إذ بلغت ٣٩١ مركزًا، منها ٣٣٧ مركزًا في الضفة الغربية و ٥٤ مركزًا في قطاع غزة.

* عدد الطلبة في المدارس في الأراضي الفلسطينية بلغ في مطلع العام الدراسي ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ما مجموعه ١,٠٤٣,٩٣٥ طالبًا وطالبة، وتشكل الإناث منهم ما نسبته ٥٠,٢٪.

* التعليم الأكاديمي أكثر استقطابًا للطلبة للانتحاق به من التعليم الثانوي المهني، فقد بلغ عدد الطلبة الملتحقين بالتعليم الثانوي المهني ٥,٢٧٩ طالبًا وطالبة في العام الدراسي ٢٠٠٤-٢٠٠٥، أي ما نسبته ٤,٧٪ من مجموع الطلبة الملتحقين بالمرحلة الثانوية.

* التسبب الضمنية في المرحلة الأساسية أكثر اكتظاظًا في مدارس قطاع غزة منها في مدارس الضفة الغربية، فقد بلغت في قطاع غزة ٤٢,٣ طالبًا لكل شعبة، وفي الضفة الغربية ٣٢,٢ طالبًا.

ملف التقرير - المقاومة

* ٧١, ٥٪ من الأسر الفلسطينية لديها أطفال لا يتوفر لديها جهاز حاسوب، و٤, ٨٪ من الأسر لا يتوفر لديها جهاز تلفزيون، و٢٨, ٦٪ لا يتوفر لديها لأقطاً فضائياً (ستلايت)، و٩٠, ٧٪ لا يتوفر لديهم خدمة الإنترنت في البيت.

* هناك زيادة في عدد المكتبات المنزلية لدى الأسر التي لديها أطفال، وهناك اختلاف واضح بين الأطفال الذكور والأطفال الإناث في طبيعة الأنشطة التي يمارسونها.

* هناك ١, ٦٨٠ طفلاً، بواقع ١, ٠٤٢ طفلاً من الذكور و٦٣٨ طفلاً من الإناث، يعيشون في ٢٥ دار أيتام، وأنه تم متابعة ٧, ٨٣٩ قضية خلال العام ٢٠٠٣، منها ٤, ٩٩١ قضية لأطفال حرموا من المأوى نتيجة هدم المنزل أو احتراقه، وقد تركزت غالبية هذه القضايا في محافظات غزة.

* بلغ عدد الشهداء من الأطفال منذ بداية الانتفاضة وحتى ٣١ / ٥ / ٢٠٠٥ ما مجموعه ٧٥٢ شهيداً، منهم ٣٢٩ شهيداً في الضفة الغربية و٤٢١ في قطاع غزة، إضافة إلى شهيدين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨.

* عدد الجرحى بلغ منذ اندلاع الانتفاضة وحتى شباط / فبراير ٢٠٠٥، ما يقارب ٤٤, ٥٠٠ جريح، وعدد الأطفال المعتقلين بلغ ٣١٠ أطفال، في نفس الفترة.

* ٣, ٤٪ من الأطفال تركوا التعليم بسبب الإجراءات الإسرائيلية والوضع الأمني.

المصدر: وكالة الأنباء الفلسطينية وفا، ٤/١٢/٢٠٠٥
عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

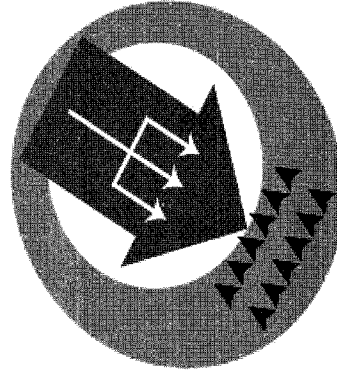
من تم اعتقالهم خلال انتفاضة الأقصى حسب ما هو مؤثق في دائرة الإحصاء الفلسطينية.

المنطقة	العام الأول	العام الثاني	العام الثالث	العام الرابع	العام الخامس	العام السادس	الإجمالي	%
	٢٠٠٠/٩/٢٨	٢٠٠١/٩/٢٩	٢٠٠٢/٩/٢٩	٢٠٠٣/٩/٢٩	٢٠٠٤/٩/٢٩	٢٠٠٥/٩/٢٩	٢٠٠٠/٩/٢٨	
	٢٠٠١/٩/٢٨	٢٠٠٢/٩/٢٨	٢٠٠٣/٩/٢٨	٢٠٠٤/٩/٢٨	٢٠٠٥/٩/٢٨	٢٠٠٦/٩/٢٨	٢٠٠٦/٩/٢٨	
الضفة الغربية ومناطق أخرى	٦٩٩٧	١٠٨٦٣	٩٥٣٠	٣٨٤١	٣٩٥٠	٤٤٠٣	٣٩٥٨٤	٩٦,٢
قطاع غزة	١٥٨	٣٨٧	٢٦٦	٤٦٨	١٧٣	١٢٠	١٥٧٢	٣,٨
الإجمالي	٧١٥٥	١١٢٥٠	٩٧٩٦	٤٣٠٩	٤١٢٣	٤٥٢٣	٤١١٥٦	١٠٠

شهداء انتفاضة الأقصى في خمسة أعوام:

م	السنة	عدد الشهداء	ملاحظات
١	٢٠٠٠	٣٣١	بدأت الانتفاضة في ٢٩/٩/٢٠٠٠
٢	٢٠٠١	٦١٣	
٣	٢٠٠٢	١٠٥٨	في نيسان تم اجتياح الضفة الغربية وارتكاب مجازر في البلدة القديمة في نابلس ونحيم جنين
٤	٢٠٠٣	٥٠٣	
٥	٢٠٠٤	٨٢٩	
٦	٢٠٠٥	١٤٥	
	المجموع	٣٤٧٩	

المركز الفلسطيني للإعلام، شهداء انتفاضة الأقصى المباركة



حزب الله والمشروع الإقليمي الإيراني «العلاقة والدور»

علي حسين باكير - الأردن

باحث في العلاقات الدولية

ملخص البحث:

تُشير صورة «حزب الله» وإيران لغطًا كبيرًا بين الناس؛ وذلك بسبب غياب النظرة الدقيقة لتحقيق المشروع الإيراني في المنطقة، ولطبيعة العلاقة التي تربط «حزب الله» بإيران، والدور الذي يؤديه في هذا الإطار. إن الكثيرين يعرفون حقيقة مشاريع التقسيم الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية بمسمياتها المتعددة، والهدف منها، بالمقابل هناك مشروع إقليمي إيراني ذو صبغة إمبراطورية قومية يتبلور شيئًا فشيئًا، يتميز بسرية وكتمان شديدتين، ويلعب على التناقضات متغطيًا بعمامة وثوب إسلاميين. وكخطوة في إنجاح مشروعها الإقليمي كان لإيران الدور الأبرز في ولادة «حزب الله» الذي نشأ في ظل الحروب العنيفة التي شهدتها لبنان، وتكفلت إيران بالدعم المالي للحزب، والذي كان العامل الأول في اجتذاب المقاتلين إلى صفوفه، فحرصت إيران على الاهتمام به، وتنصيب سيرته؛ للاستفادة منها فيما بعد في خدمة مشروعها لتصدير مفاهيم الثورة الإيرانية بكافة مضامينها للدول العربية، واستخدام ما يسمى «القوة الناعمة» أو «البرستيج» للترويج للحزب على نطاق الوطن العربي كخطوة أولى، وكون الحزب لبنانيًا والعدو المفترض «إسرائيلي» فهذا سيسهل كثيرًا مهمة إيران في اختراق الشعوب، فضلاً عن استخدام الحزب كورقة عالية للمساومة على أي وضع من الأوضاع المصيرية التي تتعلق بإيران. هذا الدور الذي تقوم به إيران عبر حزب الله أصبح مكشوفًا للجميع، بما فيهم الإسرائيليون أنفسهم، ولا يختلف المشروع الإقليمي الإيراني في أي وجه من أوجه أهدافه عن أية مشاريع خارجية يتم تطبيقها في منطقتنا العربية، الفارق الوحيد بينها هو الأسلوب والأدوات. وتقع المسؤولية هنا على عاتق الجميع، فلقد آن الأوان لمواجهة تلك المشاريع التي تستهدفنا بشكل أساسي، وذلك بتغيير منهجنا وأسلوبنا وأدواتنا، وبالتالي عدم الوقوع في مثل هذه الشراك المنصوبة.

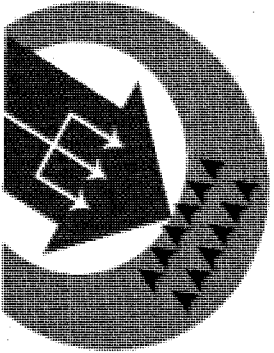
أفكار ومقتطفات

- المشاريع الأمريكية تتسم بالبعد عن الواقعية، وسقف مطالب عالٍ جدًا من الشعوب، وباستخدام قوّة خارقة ترتد سلبياً على ما تطرحه من مشاريع ونصيب مصداقيتها بالصميم.
- كان (الإمام الخميني) يريد إقامة حزام شيعي للسيطرة على ضفتي العالم الإسلامي، كان هذا الحزام يتألف من إيران والعراق وسوريا ولبنان، وعندما يصبح سيّدًا لهذا الحزام يستخدم النفط وموقع الخليج الفارسي للسيطرة على بقية العالم الإسلامي.
- (أبو الحسن بني صدر - أول رئيس لجمهورية إيران في عهد الخميني).
- المشروع الأمريكي في المنطقة يهدف إلى السيطرة على رأس الدولة، أو القيادة السياسية لها؛ على اعتبار أن بإمكان هذه الطبقة السيطرة على شعبها، وبالتالي ضمان التزامها بالمصالح الأمريكية. أما المشروع الإيراني فهو أكثر دهاءً وديمومة؛ إذ إنّه يعتمد على اختراق القاعدة الشعبية في الوطن العربي سواءً من الناحية المذهبية أو السياسية أو الاجتماعية.
- لا نحتاج إلى كبير جهد لإثبات مدى نجاح الحزب في جسر عدد كبير من العرب والمسلمين باتجاه البوصلة الإيرانية، ولو على الصعيد الإعلامي والدعائي.
- إننا أبناء أمة «حزب الله» التي نصر الله طليعتها في إيران، وأسست من جديد نواة دولة الإسلام المركزية في العالم... نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة عادلة؛ تتمثل بالولي الفقيه الجامع للشرائط، وتتجسد حاضراً بالإمام المسدّد آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني دام ظلّه، مفجّر ثورة المسلمين وباعت نهضتهم المجيدة. (البيان التأسيسي لحزب الله)
- من مسؤولية القيادة المنتخبة من كوادر الحزب بحسب النظام الداخلي، والتي تتمثل بالشورى التي يرأسها الأمين العام، والتي تحصل على شرعيتها من الفقيه، فيكون لها من الصلاحيات الواسعة والتفويض ما يساعدها على القيام بمهامها ضمن هامش ذاتي وخاص، ينسجم مع تقدير الشورى للأداء التنفيذي النافع والمفيد لمساحة عملها.
- إذا كانت مسألة اشتراك الحزب أو عدمه في الانتخابات تحتاج إلى فتوى من الولي الفقيه، فما هو حال المسائل الجسام السياسية والعسكرية، والتي لها انعكاسات إقليمية ودولية على أداء الحزب؟! - إنه لا ينبغي تجاهل تلاقي مصالح أمل و«إسرائيل»، التي تقوم على أساس الرغبة المشتركة في الحفاظ على منطقة جنوب لبنان، وجعلها منطقة آمنة خالية من أي هجمات ضد «إسرائيل».
- (صحيفة الجروزاليم بوست).

ملف التقرير - المقاومة

- كان لا بد من إنشاء حزب آخر ينقل إيران إلى المنطقة ويربطها بالقضية الفلسطينية، ويسمح لها بموطئ قدم، ويجعلها على صلة مباشرة بالأحداث فكان أن تم إنشاء حزب الله.
- «نحن لا نقول: إننا جزء من إيران؛ نحن إيران في لبنان، ولبنان في إيران» (إبراهيم الأمين ١٩٨٧).
- بلغت الأجرة الشهرية للمقاتل خمسة آلاف ليرة لبنانية، وهي أعلى أجرة تقاضاها مقاتل في لبنان عام ١٩٨٦؛ لدرجة أن مقاتلي أمل راحوا - بهدف الكسب - يهجرّون صفوف الحركة للانخراط في حزب الله.
- قامت إيران بالتكفل بجميع احتياجات الحزب المالية، والتي بلغت عام ١٩٩٠ ثلاثة ملايين دولار ونصف المليون؛ حسب بعض التقديرات، وخمسين مليون عام ١٩٩١، وقُدّرت بمائة وعشرين مليوناً في ١٩٩٢، ومائة وستين في عام ١٩٩٣.
- ضرورة توفر وجه لبناني لدور الحزب هو الذي يضمن له استمرارية العمل في البيئة اللبنانية.
- العمل وفق المصلحة الإيرانية الخالصة دون أن يكون هناك وجه مصلحة لبنانية يؤدي إلى التضيق على الحزب، الذي يصبح معزولاً من قبل اللبنانيين الناقمين عليه.
- «لبنان يشبه الآن إيران عام ١٩٧٧، ولو نراقب ونعمل بدقة وصبر، فإنه إن شاء الله سيجيء إلى أحضاننا، وبسبب موقع لبنان وهو قلب المنطقة، وأحد أهم المراكز العالمية، فإنه عندما يأتي لبنان إلى أحضان الجمهورية الإسلامية، فسوف يتبعه الباقون». حجة الإسلام فخر روحاني - سفير إيران في لبنان.
- يقوم الحزب باستخدام ما يسمى «القوة الناعمة» أو «البرستيج» للترويج للحزب على نطاق الوطن العربي بأسره كخطوة أولى، وكسب الحزب لبنائياً، والعدو المفترض «إسرائيل» فهذا سيسهل كثيراً مهمة إيران في اختراق الشعوب.
- الاستثمار المالي والمادي والمعنوي والديني الإيراني في هذه المؤسسة الدعائية هو خيار صائب لها، بل هو الخيار الأنجح في نقل الثورة الإسلامية إلى الخارج، وفي اختراقها للقاعدة الشعبية الإقليمية.
- إن المقاومة تعلن ارتباطها الوثيق بالجمهورية الإسلامية في إيران، وبالمرجعية والقيادة الدينية فيها، ولكن خطابهم خطاب وطني.
- تقوم إيران بتأمين السلاح والعتاد الكامل لحزب الله «لمناكفة» إسرائيل؛ وذلك ضمن معادلة داخلية محدودة لا تتجاوز الحصول على مكاسب سياسية وإعلامية بالدرجة الأولى، وما يأتي بعد ذلك فهو فائض. والهدف من ذلك أن يلقي حزب الله شهرة كبيرة في العالم الإسلامي تمهد الطريق له لتصدير مفاهيم الثورة الإيرانية من تحت البساط ودون أية مشاكل أو حزازيات.

- إن الاعتبارات التي تحكم الاستراتيجية الإيرانية ترتبط بمصالحها ووضعها في الخليج، وليس بعوائدها «إسرائيل»، وهي تُبدي حساسية كبيرة لما يجري في دول الجوار، وخاصة في العراق (إفرايم كام).
 - المشروع الإقليمي الإيراني، مشروع لا يختلف في أيّ وجه من أوجه أهدافه عن أية مشاريع خارجية يتم تطبيقها في منطقتنا؛ بغض النظر عن مسمياتها (صهيونية، أمريكية، استعمارية، استغلالية، استعبادية، توسعية... إلخ).
 - إيران لا تشكل أي خطر على «إسرائيل»، ولا تريد تدميرها، بل هي في حاجة «إسرائيل»، وتعتبرها مكسبًا استراتيجيًا هامًا حتى تظل قوة عظمى في المنطقة، وهي تستغل وتستخدم «إسرائيل» كذريعة لتحقيق أهدافها، ولدعم مكانتها الإقليمية ونشر مبادئ الثورة الإيرانية تحت شعار «معاداة إسرائيل».
- (تقرير معهد «omedia» البحثي الإسرائيلي)



حزب الله والمشروع الإقليمي الإيراني «العلاقة والدور»

علي حسين باكير - الأردن

باحث في العلاقات الدولية

العلاقة الدينية والسياسية بين الحزب والولي الفقيه الإيراني، وفي القسم الثاني عن الدور الذي يقوم به الحزب في إطار المشروع الإيراني، معتمدين في ذلك على ما توفّر من مصادر ومراجع معتمدة لدى الحزب نفسه تعبّر عن وجهة نظره وتوجهه قبل غيره، وعلى ما توفّر من تصريحات وتعليقات وشواهد لقيادة الحزب والمسؤولين الإيرانيين بما يتناسب ومنهجية البحث وموضوعيته.

تمهيد: ماهية المشروع الإيراني:

من ممّا لا يعرف ما هي المشاريع الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية وفيما يسمّى بالشرق الأوسط؟ فتارة الشرق الأوسط الكبير، وطورًا الشرق الأوسط الجديد، وإلى ما هنالك من مشاريع التقسيم، والهدف واحد السيطرة على المنطقة وثرواتها ومقدّراتها، ولعلّي أقول هنا - ولا أخفي سرًّا - إنّ المشاريع الأمريكية تتسم بالبعد عن الواقعية، ويسقف مطالب عالٍ جدًّا من الشعوب، وباستخدام قوّة خارقة ترتد سلبًا على ما تطرحه من مشاريع وتصيب مصداقيتها بالصميم.

لكن بالمقابل هناك مشروع إقليمي ذو صبغة إمبراطورية قومية يتبلور شيئًا فشيئًا، والخطر في هذا المشروع أنّ مجلّ الناس لا تعرف عنه شيئًا، وذلك لأنّه وعلى عكس المشروع الأمريكي يتميز بسريّة

مقدمة:

يعتبر موضوع «حزب الله» والمشروع الإقليمي الإيراني، من المواضيع الساخنة التي تخضع لنقاشات عنيفة وحادة اليوم في العالم العربي والإسلامي. ومن الملاحظ أيضًا أن صورة «حزب الله» وإيران تثير لغطًا كبيرًا بين الناس، ويعود ذلك في أغلبه إلى غياب النظرة الدقيقة لحقيقة المشروع الإيراني في المنطقة؛ ولطبيعة العلاقة التي تربط «حزب الله» بإيران، والدور الذي يؤديه في هذا الإطار، وإلى غلبة العاطفة والأهواء أيضًا على الحقائق والوقائع.

وتعتبر هذه القضية «أي اعتماد الأهواء والعواطف في الحكم على الأمور» إحدى أهم المشاكل التي نعاني منها اليوم، وهي سبب من الأسباب الكثيرة للواقع الرديء الذي نعيشه في العالم العربي والإسلامي.

- نعرض في هذه الورقة البحثية لجزء يسير من المشروع الإقليمي الإيراني، وعلاقة حزب الله اللبناني بهذا المشروع، والدور الذي يؤديه، على أن يتم تقسيم العلاقة بين الحزب وإيران منذ فترة إنشائه وحتى اليوم إلى قسمين. نتحدّث بالقسم الأول عن

ولبنان، وعندما يصبح سيدًا لهذا الحزام يستخدم النفط، وموقع الخليج الفارسي للسيطرة على بقية العالم الإسلامي».

إذًا فهذا المشروع ليس وهمًا نختلقه، وليس تضخيماً نستجلبه، كما تفعل الولايات المتحدة لغاية خاصة بها. وهو واقع ومشروع قديم، وأقدم من عهد الخميني الذي لم يبدل به شيئاً، باستثناء استبدال التاج والصولجان بالعمامة والعباءة.

يعتبر الهلال الشيعي(*) الخطوة الأولى أو الركيزة الأساسية في ارتقاء المشروع الإيراني لتسيّد العالم الإسلامي، لكنّ المشروع تواجهه عوائق كثيرة أهمها على الإطلاق:

- ١- الحساسيات العربية من العنصر الصفوي-الفارسي.
- ٢- الحساسيات السنّية تجاه التشيع الصفوي «التابع للوليّ الفقيه».
- ٣- وجود نفوذ أمريكي قوي في

عمدت إيران إلى اختيار استراتيجية معاكسة لتلك التي تعتمدها الولايات المتحدة في السيطرة على المنطقة

المنطقة المفترضة للتغلغل الإيراني. للتغلب على هذه العقبات اعتمدت إيران طريقتين مختلفتين، الأولى تتعلّق بمصاعب الاختراق العربي-السنّي، والثانية تتعلّق بمشكلة النفوذ الأمريكي بالمنطقة.

بالنسبة للشق الأول، فقد عمدت إيران إلى اختيار استراتيجية معاكسة لتلك التي تعتمدها الولايات المتحدة في السيطرة على المنطقة.

المشروع الأمريكي في المنطقة يهدف إلى السيطرة على رأس الدولة أو القيادة السياسية لها؛ على اعتبار أن بإمكان هذه الطبقة السيطرة على شعبها، وبالتالي ضمان التزامها بالمصالح الأمريكية. أما المشروع الإيراني فهو أكثر دهاءً وديمومة؛ إذ إنّهُ يعتمد على اختراق القاعدة الشعبية في الوطن العربي، سواء من الناحية المذهبية أو السياسية أو الاجتماعية، ومن الطبيعي أن الورقة الأولى والأساسية في هذا الاختراق للأسف هي الورقة الشيعية العربية «المبايعة

وكتمان شديدين، ويلعب على التناقضات متغطياً بعمامة وثوب إسلاميين، وهو مشروع يعتمد الذكاء والحنكة السياسية والدعاية والإعلام، والقوّة الناعمة والخشنة - كلٌّ في وقته - وبسقف مطالب معقول في البداية؛ حتى لا يتم التشكيك بنواياه.

هذا المشروع الجديد القديم هو المشروع الإيراني، وفي هذا السياق من الضرورة التوضيح أنّ تخييرنا بين المشروعين الأمريكي أو الإيراني أو زجنا في أحدهما هو أمر مرفوض، فتحن نرفض إجبارنا على تبني موقف لصالح أحدهما دون الآخر. وعليه

وكما فضحنا ونفضح المشروع الأمريكي ونعريه ونعري كل مَنْ تعاون معه، وجنّد نفسه لخدمته، نجد أنفسنا ملزمين أيضاً وعلى نفس الوتيرة والمستوى بعرض المشروع الإيراني وآلياته وأدواته وجنوده». (١)

من غير الصحيح القول: إن الملك الأردني هو الذي اخترع مسألة الهلال الشيعي، فقد كان آية الله الخميني هو أول من صرّح به عملياً، وهذا ما أدلى به أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية في عهد الخميني، أبو الحسن بني صدر الذي نقل في برنامج «زيارة خاصّة» الذي يقدّمه سامي كليب على قناة الجزيرة في حلقة بعنوان: «الثورة الإيرانية وأمريكا والعرب» بتاريخ ١٧ / ١ / ٢٠٠٠؛ حيث سأله كليب السؤال التالي: «هل كان الإمام الخميني يحدثك عن علاقته مع الجوار العربي، مع دول الخليج؟ وهل كانت لديه أطماع في التقدم عسكرياً تجاه هذه الدول من أجل تصدير الثورة مثلاً؟».

فأجاب أبو الحسن: «لم يحدثني بهذا الموضوع، ولكن كان هناك مشروع آخر، كان يريد إقامة حزام شيعي للسيطرة على صفتي العالم الإسلامي، كان هذا الحزام يتألف من إيران والعراق وسوريا

للحزب وتبعيته لإيران، والتي لا ينكرها حتى قادة الحزب.

في البيان التأسيسي للحزب، والذي جاء بعنوان «من نحن؟ وما هي هويتنا؟» في ١٦ شباط ١٩٨٥، عرّف الحزب عن نفسه فقال: «...إننا أبناء أمة حزب الله التي نصر الله طليعتها في إيران، وأسست من جديد نواة دولة الإسلام المركزية في العالم... نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة عادلة تتمثل بالولي الفقيه الجامع للشرائط، وتتجسد حاضرًا بالإمام المسدّد آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني، دام ظلّه مفجّر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة...» (٦).

يقول الخميني عن الولي الفقيه وصلاحياته: «لو قام الشخص الحائز لهاتين الخصلتين (أي العلم والعدل) بتأسيس الحكومة تثبت له نفس الولاية التي كانت ثابتة للرسول الأكرم، ويجب على جميع الناس إطاعته. فتوهم أن صلاحيات النبي في الحكم كانت أكثر من صلاحيات أمير المؤمنين، وصلاحيات أمير المؤمنين أكثر من صلاحيات الفقيه، هو توهم خاطئ وباطل. نعم إن فضائل الرسول بالطبع هي أكثر من فضائل جميع البشر، لكن كثرة الفضائل المعنوية لا تزيد في صلاحيات الحكم» (٧).

يقول الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله في كتابه «حزب الله، المنهج، التجربة، المستقبل»، شارحاً علاقة «المسلم» بالولي الفقيه: «...يحتاج المسلم المكلف في القسم الأول (أي قسم العبادات والمعاملات) إلى مرجع تقليد لمعرفة الأحكام الشرعية وضوابطها، وفي القسم الثاني (القسم العام المرتبط بالأمة ومصالحها، وحربها وسلمها، وتوجهاتها العامة) إلى قائد هو الولي الفقيه لتحديد السياسات العامة في حياة الأمة، ودور المكلفين العملي في تنفيذ أحكام الشرع المقدس، والسهر على تطبيقها في حياة الأمة. وقد تجتمع المرجعية والولاية في شخص واحد... كما حصل

للولي الفقيه بالدرجة الأولى»، ولكن بما أن هذه الورقة لا تستطيع التأثير على مجمل القرار في الوطن العربي، فإنه لا بد من الاستفادة من مكونات المجتمع الأخرى الأكثر عددًا وتأثيرًا، ويتم ذلك باللعب على أوتار المقدسات التي تلتغي عند حدودها - بالنسبة للمواطن العربي القومية، أو السني المذهب - التقسيمات والتساؤلات والتشكيكات والتناقضات، بل وحتى طعنات الأمس وخذع اليوم. (٢)، وهنا بالذات يأتي دور حزب الله اللبناني في الاختراق. ولا نحتاج إلى كبير جهد لإثبات مدى نجاح الحزب في جر عدد كبير من العرب والمسلمين باتجاه البوصلة الإيرانية، ولو على الصعيد الإعلامي والدعائي.

أما بالنسبة إلى الشق الثاني فتمّ ترجيح طرح مشروع مساومة مع الولايات المتحدة الأمريكية، يعرف باسم «الصفقة الكبرى» (٣)، تقوم إيران بموجبه بالتزام عدد من الشروط الأمريكية على أن تقوم الولايات المتحدة بدورها بالاعتراف بوضع إيران «كقوة إقليمية شرعية كبرى» (٤)، وهو الأمر الذي مازالت أمريكا ترفضه، على الرغم من الخدمات الجليلة التي قدّمته لها إيران في غزو أفغانستان والعراق. (٥)

طبيعة العلاقة بين حزب الله وإيران :

أولاً: التبعية الدينية والسياسة للولي الفقيه:

عندما يتم الحديث عن مسألة مبايعة حزب الله وكوادره للولي الفقيه الإيراني، غالبًا ما نسمع من الخاصة والعامة عند الطائفة السنية من الكتاب المتخصصين، أو من الجمهور على حدّ سواء أنّ تلك المبايعة تلزم الحزب في الأمور الفقهيّة فقط دون السياسية، وأن هذه المبايعة لا تشكّل تبعية على الإطلاق، ولا تعني عدم استقلالية الحزب. معتقدين أن هذا التفسير يُرضي أهواءهم في كون الحزب صادقًا في انتمائه، وفي نواياه وفي أجدته.

في هذا الطرح طبعًا مغالطات استراتيجية تساهم عن قصد، أو جهل بالتغطية على الصورة الحقيقية

الفقيه في سلطته مُلزَمٌ للذين لم يبايعوا أيضًا، فما بالكم في الذين بايعوا كحزب الله؟!

هذا «الحجم من الصلاحيات المنوطة بالولي الفقيه» تترجم عمليًا برسم السياسات العامة للأمة الإسلامية جمعاء، أي بتعبير قديم بـ «دار الإسلام» وبتعبير معاصر «العالم الإسلامي»، أما «التفاصيل» فمتروكة للأحزاب الإسلامية القطرية المرتبطة بالولي الفقيه.

إذن متروك للحزب المحلي، - وفي حالتنا لـ «حزب الله» اللبناني - الإدارة والمتابعة ومواكبة التفاصيل والجزئيات، ... وتكون هذه الأمور «من مسؤولية القيادة المنتخبة من كوادر الحزب بحسب النظام الداخلي، والتي تتمثل بالشورى التي يرأسها الأمين العام، والتي تحصل على شرعيتها من الفقيه، فيكون لها من الصلاحيات الواسعة والتفويض ما يساعدها على القيام بمهامها ضمن هامش ذاتي وخاص ينسجم مع تقدير الشورى للأداء التنفيذي النافع والمفيد لمساحة عملها...». (١١)

لكن من الذي يحدّد ما هو هامش التحرك للحزب، ومتى يكون؟ وكيف يكون؟ ولماذا يكون؟! وإذا كان هناك حرية هامش ضمن إطار نفوذ الولي الفقيه وإشرافه، فمتى يتدخل؟ ولماذا؟

الإجابة على مثل هذه التساؤلات تتيح للقارئ أن يحكم على مدى استقلالية الحزب أو تبعيته. على سبيل المثال، فإن مسألة الانتخابات في أي بلد من البلدان هي مسألة داخلية يشترك فيها أبناء الشعب في ذلك البلد، وعلى الرغم من ذلك، فقد أثار مسألة اشتراك حزب الله في الانتخابات النيابية اللبنانية لعام ١٩٩٢، أو عدم اشتراكه فيها ضجة كبيرة.

وعلى الرغم من هامش الحرية المتروك للحزب في التصرف بشؤونه الداخلية، والتي تعتبر الانتخابات عنصرًا من عناصرها، إلا أنّ نائب أمين عام حزب الله الشيخ نعيم قاسم يؤكد أن قرار اشتراك الحزب في الانتخابات جاء بناءً على فتوى من الولي الفقيه الإيراني!!

هذا الموضوع استلزم - كما يقول الشيخ

بالنسبة للإمام الخميني مع انتصار الثورة، وللإمام الخامنئي بعد اختياره للولاية». (٨)

هذا «والارتباط بالولاية، - كما يقول الشيخ نعيم قاسم - تكليف والتزام يشمل جميع المكلفين، حتى عندما يعودون إلى مرجع آخر في التقليد؛ لأن الإمرة في المسيرة الإسلامية العامة للولي الفقيه المتصدي». (٩)

وفي هذا الإطار يوضح الشيخ «محمد تقي مصباح يزدي» أن سلطة الولي الفقيه هي سلطة كلية، مطلقة وعامة، لا فرق بين السياسي والديني لمن بايعه، وي طرح في بحث له - أيضًا - عددًا من التساؤلات في محاولة للإجابة عنها، وتقديم صورة واضحة للقارئ، من بينها التساؤل التالي: «إذا كان هناك فرد أو جماعة مسلمة تعيش في بلد غير إسلامي» خارج حدود البلد الإسلامي المفترض الذي يُدار بنظام ولاية الفقيه، فهل يجب عليهم إطاعة الأوامر الحكومية للفقيه المذكور أم لا؟»، وهو سؤال بطبيعة الحال ينطبق على حالة حزب الله في لبنان. يقول الشيخ يزدي في جوابه على هذا التساؤل: «إن لهذا السؤال كما يبدو فرضين: الأول هو: أن المسلمين المقيمين خارج البلد الإسلامي بايعوا الولي الفقيه. والفرض الثاني: أنهم لم يبايعوه... وفقًا للمبدأ الأول (أي: ثبوت الولاية بالتعيين أو بإذن الإمام المعصوم)، ... يحق لمثل هذا الشخص الولاية على الناس، ويكون أمره نافذًا على كل مسلم، ويجب عليه تنفيذه؛ إذن فطاعته واجبة أيضًا حتى على المسلمين المقيمين في الدول غير الإسلامية.

أما في ضوء المبدأ الثاني الذي ينص على توقف ولاية الفقيه على الانتخاب والبيعة... فإن طاعة الولي الفقيه، وفقًا لهذا المبدأ، واجبة أيضًا على المسلم المقيم في البلاد غير الإسلامية، سواء بايع أم لم يبايع». (١٠)

إذًا فالشيخ هنا يزيد من الشروط، ويقول: إن الولي

«إن العصيان غير مقبول بالمعنى الشرعي، بل إن حفظ النظام العام واجب، وعدم الالتزام بالقوانين يربّث مفسد كبيرة على أوضاع الناس وشؤونهم الحياتية، وهناك حالة واحدة يجوز فيها العصيان هي عندما تصح المفسدة كبيرة إلى الحد الذي لا يوجد فيها حل آخر، وهذا يحتاج إلى إذن من الولي الفقيه» (١٤)

هذه هي الآلية، فمسألة الانتخابات في لبنان يتصدى لها الولي الفقيه الإيراني، ومسألة العصيان في لبنان يتصدى لها الولي الفقيه الإيراني، ولاحظوا معي أن هذه المسائل؛ ورغم صلاحية وسلطة الحزب بالتصرف بالأمور الداخلية ضمن المنظور العام للولي الفقيه، كما سبق وذكرنا، إلا أن هذا القدر من التفويض لم يُتَّح للحزب حسم مسائل صغيرة، إنما تطلب الأمر تدخل الولي الفقيه. فالكلمة الفصل كانت للولي الفقيه الإيراني، ولم تكن مثلاً لثأبه أو وكيله في لبنان، أو ممثل حزب الله، أو أمينه العام اللبناني!!

أمام هذه المعطيات، لنا أن نتصور تصدي الولي الفقيه لأمر مثل العلاقة مع السنة، والموقف من «إسرائيل» والجبهة على الشمال، وأتفاقات الهدنة، وقرارات خوض الحرب والسلم... ولنا أن نتساءل كم من المرات استفتي الولي الفقيه منذ إنشاء الحزب؟، وما هي الافتراضات والمناسبات والمواقف التي استفتي فيها الفقيه حتى يومنا هذا؟ وماذا إذا اصطدم توجه الولي الفقيه مع مصلحة الدولة اللبنانية، فأيهما سيختار الحزب، ولمن سيكون الولاء والطاعة؟

على الرغم من أن الجواب واضح عملياً من خلال ممارسات حزب الله، خاصة بعد الخروج السوري

نعيم قاسم - «نقاشاً داخلياً موسعاً». فكلفت لجنة من ١٢ عضواً لنقاش هذا الأمر. وبعد نقاش جملة من الفرضيات (١٢) ارتأت أكثرية اللجنة (١٠ من ١٢) أن المشاركة في الانتخابات تحقق جملة من المصالح التي ترجح الإيجابيات على السلبات. لكن مشروعية الاقتراح أو شرعيته لم تأخذ حيز الاقتناع الكامل والتنفيذ إلا بعد «أن استفتي الولي الفقيه». يقول الشيخ نعيم قاسم بعد سرده الوقائع «ثم جرى استفتاء سماحة الولي الفقيه الإمام الخامني (حفظه الله) حول المشروعية في الانتخابات النيابية بعد تقديم اقتراح اللجنة، فأجاز وأيد. عندها حُسمت المشاركة في الانتخابات النيابية، ودخل المشروع في برنامج وآلية الحزب» (١٣)

فإذا كانت مسألة اشتراك الحزب أو عدمه في الانتخابات تحتاج إلى فتوى من الولي الفقيه، فما هو حال المسائل الجسام السياسية والعسكرية، والتي لها انعكاسات إقليمية ودولية على أداء الحزب؟! مثال آخر على مدى سلطة وصلاحية الولي الفقيه حتى في لبنان. فالانتخابات شأن داخلي، وعلى

الرغم من ذلك، كما رأينا فقد كان دور الولي الفقيه حاسماً في المسألة. المثال هذه المرة يتعلّق بالشأن الاجتماعي الداخلي اللبناني الصّرف. فقبل حوالي تسعة أعوام في ١٤ تشرين الثاني ١٩٩٧، وبعد أسابيع قليلة على إعلان ما سُمّي «ثورة الجيعان» من قبل الشيخ صبحي الطفيلي،

تحدث الأمين لحزب الله السيّد حسن نصر الله في صالون سميح الصلح السياسي في بيروت، وقال ردّاً على سؤال: ماذا عن العصيان والنزول إلى الشارع؟ (تعقيباً على تهديد الشيخ الطفيلي بالعصيان المدني):

إذا كانت مسألة اشتراك الحزب أو عدمه في الانتخابات تحتاج إلى فتوى من الولي الفقيه، فما هو حال المسائل الجسام السياسية والعسكرية، والتي لها انعكاسات إقليمية ودولية على أداء الحزب

ثانياً: إنشاء حزب الله ودوره في خدمة المشروع الإيراني:

لقد جاءت ولادة الحزب في ظروف حروب خارجية وداخلية عنيفة شهدها لبنان، وقد كان لإيران الدور الأبرز في ولادة الحزب إثر انتهاء دور حركة أمل الشيعية التي كانت مصالحتها في الفترة الأخيرة من تلك المرحلة مرتبطة بالخطة الإسرائيلية بتصفية الوجود الفلسطيني في لبنان. فعلى سبيل المثال، نقلت وكالة رويترز في تقرير لها من النبطية في ١٧/٧/١٩٨٢م أن القوات الصهيونية، التي احتلت البلدة سمحت لمنظمة (أمل) بأن تحتفظ بالمليشيات الخاصة التابعة لها، ويحمل جميع ما لديها من أسلحة. وصرح أحد قادة مليشيا منظمة (أمل) ويدعى حسن مصطفى «أن هذه الأسلحة سٌستخدم في الدفاع عنا ضد الفلسطينيين». (١٧)

مثال آخر أكثر وضوحاً، فقد قالت صحيفة (الجرزاليم بوست) في عددها الصادر بتاريخ ٢٣ / ٥ / ١٩٨٥م: «إنه لا ينبغي تجاهل تلاقي مصالح أمل و«إسرائيل»، التي تقوم على أساس الرغبة المشتركة في الحفاظ على منطقة جنوب لبنان، وجعلها منطقة آمنة خالية من أي هجمات ضد إسرائيل. إن إسرائيل ترددت حتى الآن في تسليم أمل مهمة الحفاظ على الأمن والقانون على الحدود بين فلسطين ولبنان، وإن الوقت حان لأن تعهد «إسرائيل» إلى أمل بهذه المهمة». (١٨)

ونقلت وكالة الأنباء في ٦ / ٦ / ١٩٨٥م عن رئيس الاستخبارات العسكرية اليهودية (إهود براك) قوله: «إنه على ثقة تامة من أن «أمل» ستكون الجبهة الوحيدة المهيمنة في منطقة الجنوب اللبناني، وأنها ستمنع رجال المنظمات والقوى الوطنية

من لبنان، والذي كان يعمل على تطويع مصلحة البلد بأكمله - أي لبنان - ليجعلها تتماشى مع مصلحة الولي الفقيه، فلا يظهر التناقض ولا يضطر الحزب ليكون في هذا المأزق، إلا أننا سنستعين بما يقوله قادة الحزب أنفسهم بشأن هذه القضية:

يقول السيد حسن نصرالله الأمين العام لحزب الله داعماً لمرجعية الولي الفقيه: «في مسيرتنا الإلهية نحن قوم نؤدي تكليفنا الإلهي والشرعي، ويحدده لنا ولي الأمر في خطوطه الكبيرة والعريضة، وأحياناً في التفاصيل، ونحن علينا أن نؤدي هذا التكليف الإلهي الشرعي». (١٥)

بطبيعة الحال التكليف «الإلهي والشرعي» في هذا الكلام المهم الذي يقوله حسن نصرالله، لا يتعلّق بمسائل مثل الخمس والصلاة والنكاح والفرائض الدينية، وإذا توهم القارئ ذلك فهو تأويل من جانبه لما لا يقبل التأويل. هذا كلام صريح وواضح يتعلّق بخطوط كبيرة وتفاصيل واستراتيجيات، فأين الاستراتيجيات في الزواج والخمس والصلاة؟! المقصود هنا السياسة والمصلحة، وهنا يرتبط السياسي بالديني من خلال الولي الفقيه والتكليف الشرعي.

يعلّق مفتي صور وجبل عامل العلامة السيد علي الأمين على مسألة «إذا اصطدم توجه الولي الفقيه مع مصلحة الدولة اللبنانية،

فأيهما سيختار الحزب؟» قائلاً: «إذا تعارضت نظرية ولاية الفقيه بنظر «حزب الله» مع المصلحة الداخلية، فإنهم سيقدمونها على المصلحة الوطنية؛ لأن رأي الفقيه حكم مطاع.... كانوا يقولون دائماً، وحتى بعضهم عندما وقعت خلافات في الجنوب، فليذهب الجنوب وتبقى الجمهورية الإسلامية في إيران، والآن يمكن أن يقول البعض: فليذهب لبنان ولتبق الجمهورية الإسلامية». (١٦)

«إذا تعارضت نظرية ولاية الفقيه بنظر «حزب الله» مع المصلحة الداخلية، فإنهم سيقدمونها على المصلحة الوطنية؛ لأن رأي الفقيه حكم مطاع»

على أية حال عملت إيران على الاهتمام بالحزب اهتمامًا كبيرًا، وعلى تنصيب سيرته، والحرص على مثاليتها للاستفادة منها فيما بعد، وتكفلت إيران بالدعم المالي للحزب، والذي كان العامل الأول في اجتذاب المقاتلين إلى صفوفه، وجاء في كتاب الحروب السرية: «بلغت الأجرة الشهرية للمقاتل خمسة آلاف ليرة لبنانية، وهي أعلى أجرة تقاضاها مقاتل في لبنان عام ١٩٨٦، لدرجة أن مقاتلي أمل راحوا -بهدف الكسب- يهجرون صفوف الحركة للانخراط في حزب الله». ولكم أن تتخيلوا تأثير هذه القيمة من الأموال عندما توزع على أصحاب أقل دخل على الإطلاق في لبنان وهم الطبقة الشيعية آنذاك!! (٢٤)

وبدا فيما بعد أنّ هناك توزيعًا للأدوار الشيعية في لبنان، ففيما تقوم «أمل» بتمثيل الشيعة سياسيًا، والحفاظ على حقوقهم، يتولى حزب الله الأعمال العسكرية بعيدًا عن السياسة والشؤون الداخلية. ويؤكد ذلك ما ذكره نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم حين قال: «إنّ العديد ممن التحقوا بالحزب تكاملوا معه، ولم يكن الهدف الأخذ من جمهور «أمل» وإيجاد شرح معها». (٢٥)

إذاً «التكامل» هو الهدف كما صرّح الشيخ نعيم قاسم. ومنعًا من التطاحن على المغانم والمكاسب الداخلية، وخوفًا من تشوّه صورة الحزب وعدم الاستفادة منها فيما بعد، قامت إيران بالتكفل بجميع احتياجات الحزب المالية، والتي بلغت عام ١٩٩٠ ثلاثة ملايين دولار ونصف المليون حسب بعض التقديرات، وخمسون مليون عام ١٩٩١، وقُدّرت بمائة وعشرين مليونًا في ١٩٩٢، ومائة وستين في عام ١٩٩٣، وتشير بعض المصادر إلى ارتفاع ميزانية «حزب الله» في عهد رفسنجاني إلى ٢٨٠ مليون دولار. هذه الميزانية الكبيرة جعلت الحزب يهتم فقط بالدور المنوط به دون التدخل في نزاعات داخلية ضيقة. (٢٦)

اللبنانية من التواجد في الجنوب، والعمل ضد الأهداف الإسرائيلية». (١٩)

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الخط السياسي لحركة أمل تابعًا لسوريا ممّا لا يترك مجالاً لإيران لإملاء السياسات المناسبة عليها، أعقب ذلك تورّط حركة أمل في مجازر كبيرة في حق الفلسطينيين في لبنان، والذين كان البعض يعتبرهم جيش السنتّة في لبنان، ولم تعد حركة أمل بشقّها السياسي أو العسكري بقادرة على ترويض الخط الإيراني، فكان لا بد من إنشاء حزب آخر ينقل إيران إلى المنطقة، ويربطها بالقضية الفلسطينية، ويسمح لها بموطئ قدم، ويجعلها على صلة مباشرة بالأحداث، فكان أن تمّ إنشاء حزب الله من عناصر كانوا تابعين لحركة أمل بالأساس؛ أبرزهم على الإطلاق المسؤول عن مكتب حركة أمل في إيران في ذلك الوقت السيد إبراهيم أمين السيد الذي أصبح لاحقًا أحد البارزين في «حزب الله» (٢٠)، بالإضافة إلى غيرهم من الشيعة ممن ارتضى أن يكون الولي الفقيه مرجعه وقائده. «ومنذ ذلك الوقت تركزت القطيعة الآتية بين «حركة أمل» والثورة الإسلامية في إيران، وأخذت إيران تنسق على الساحة اللبنانية مع «حزب الله» ورجال الدين العاملين، وبعض المؤسسات الأخرى مثل «أسرة التآخي» التي يربطها السيد محمد حسين فضل الله». (٢١)

وقد عبّر إبراهيم الأمين «قيادي في الحزب» عن هذا التوجّه عام ١٩٨٧ فقال: «نحن لا نقول: إننا جزء من إيران؛ نحن إيران في لبنان، ولبنان في إيران». (٢٢)

فيما يقول حبيب فياض: «ويمكن القول: إن تجربة المقاومة الإسلامية قد ولدت من رحم تجربة الإمام الخميني في قيادة الثورة الإسلامية قبل الانتصار وبعده، وإن المقاومة بين التجريبتين تتجاوز الإطار التحالفي التقليدي الذي قد يحكم العلاقة بين الثورات والحركات التحررية المرتبطة بها، وتتوغل العلاقة بين التجريبتين في عمق التاريخ والعقيدة والهوية، وتتجلى على نحو ما يربط الجزء بالكل، والفرع بالأصل والمقدمة بالنتيجة». (٢٣)

الظروف، وهذا أمر واضح في أجندة القادة الإيرانيين منذ البداية.

يقول حجة الإسلام فخر روحاني - سفير إيران في لبنان - في مقابلة أجرتها معه صحيفة إطلاعات الإيرانية في نهاية الشهر الأول من عام ١٩٨٤، عن لبنان: «لبنان يشبه الآن إيران عام ١٩٧٧، ولو نراقب ونعمل بدقة وصبر، فإنه إن شاء الله سيحيى إلى أحضاننا، وبسبب موقع لبنان وهو قلب المنطقة، وأحد أهم المراكز العالمية، فإنه عندما يأتي لبنان إلى أحضان الجمهورية الإسلامية، فسوف يتبعه الباقون» (٢٧). وأكد نفس كلامه هذا في تصريح آخر له يقول فيه: «لبنان يشكل خير أمل لتصدير الثورة الإسلامية» (٢٨).

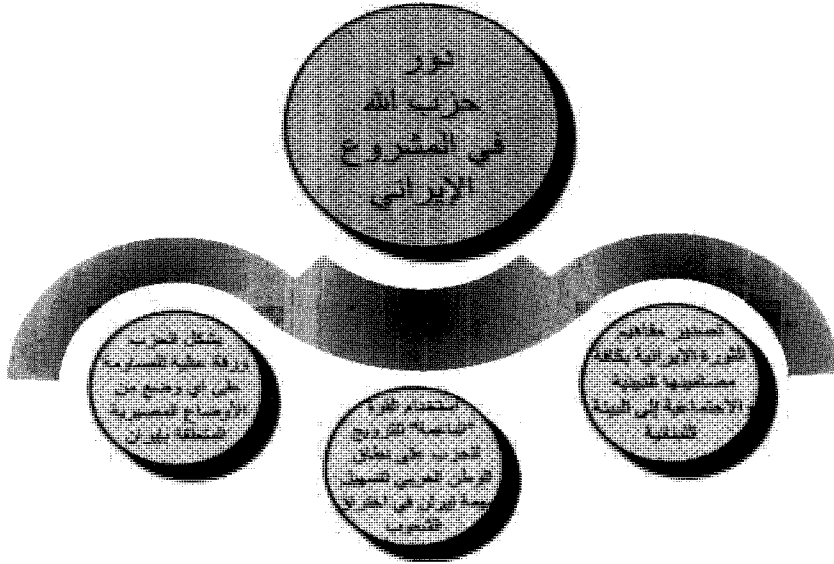
ويمكن تلخيص هذا الدور الذي يقوم به حزب الله بالنقاط التالية:

أولاً: يقوم الحزب بتصدير مفاهيم الثورة الإيرانية بكافة مضامينها الدينية والاجتماعية إلى البيئة اللبنانية، وتلتزم إيران مقابل ذلك بجميع الأعباء

من الطبيعي أن يكون للدور المناط بالحزب وجه لبناني، بل من الأصح القول: إن ضرورة توفّر وجه لبناني لدور الحزب هو الذي يضمن له استمرارية العمل في البيئة اللبنانية، وبالتالي إفادة الأجندة الإيرانية قدر الإمكان، ذلك أن العمل وفق المصلحة الإيرانية الخالصة دون أن يكون هناك وجه مصلحة لبنانية يؤدي إلى التضيق على الحزب الذي يصبح معزولاً من قبل اللبنانيين الناقمين عليه. ولذلك، فإن المتابع لدور الحزب من بدايته وصولاً إلى اليوم يرى أنّ الحزب يغير - كما سبق وذكرنا - التكتيكات القصيرة الأجل لديه بشكل سريع وكثيف لدرجة التناقض في كثير من الأحيان؛ لضرورة توفير الوجه اللبناني في إطار دوره.

وبناءً على ما سبق وتقدّم، نستطيع أن نقول: إن الهدف من إنشاء حزب الله اللبناني من الوجه الإيراني له شقان:

- شق داخلي لبناني يتعلّق بطبيعة الحزب وبيئته في لبنان.
- وشق خارجي يتعلّق بولاية الفقيه والمشروع الإيراني الإقليمي.



المالية والمترتبات التي يتطلبها هذا العمل. وتكون البيئة الشيعية غير التابعة للولي الفقيه الهدف الأول

على أن يصب المجهود الكلي في دعم المشروع الإيراني، واستراتيجية الولي الفقيه مهما كانت

معروف عن آل الأسعد؛ لكن الثقافة الشيعية تعرضت للتغيير، وحتى علماء الدين تغير سلوكهم من التقشف إلى مظاهر الفخامة، وهذا مؤسف... فالمرجعية الأساسية كانت دائماً النجف، ومرجعية «قم» شيء جديد فرض على الشيعة... وموضوع ولاية الفقيه هذه أكبر كذبة وخدعة... برأيي هناك تحريف وتزوير لتراثنا وتقاليدنا، وعلى كل الأصعدة وحتى الاجتماعية منها». (٣١)

ثانياً: وبالتوازي مع الخطوة الأولى، ولكن بحرص أكبر على ضرورة تحقيقها، يقوم الحزب باستخدام ما يسمى «القوة الناعمة» أو «البرستيج» للترويج للحزب على نطاق الوطن العربي بأسره كخطوة أولى، وكون الحزب لبنائياً، والعدو المفترض «إسرائيل» فهذا سيسهل كثيراً مهمة إيران في اختراق الشعوب - كما سبق وذكرنا-، على أن يقوم في الخطوة الثانية بتجوير الفضل والولاء و«البرستيج» لإيران وللولي الفقيه، فتنتقل القاعدة الجماهيرية التي تؤيده، وتتحول إلى تأييد إيران. وهكذا وبطريقة سلسلة وسهلة يكون الحزب قد اخترق القاعدة العربية لصالح إيران؛ متفادياً الحساسيات التي من الممكن أن تنشأ فيما لو تولت إيران بنفسها القيام بهذه المهمة بشكل مباشر، أو انتهجت أسلوب تصدير الثورة بشكل مكشوف كما سبق وفعلت في بدايتها.

لذلك نلاحظ بشكل دائم ومستمر حضور «إيران» و«الولي الفقيه» في جميع كلمات وخطابات قادة ومسؤولي الحزب الموجهة إعلامياً. نعطي مثلاً على هذه الحالة من قول الأمين العام حسن نصر الله نفسه: «أيها الإخوة والأخوات نحن وجميع المسلمين في العالم لدينا ولي أمر، فإذا كانت أغلبية المسلمين لا يريدون أن يطيعوه فهذه مشكلتهم، وقبلاً الكثير لم يطيعوا النبي ولا الإمام المعصوم، ولكن هذا لا يعني أن الإمام ليس إماماً، والنبي ليس نبياً، نحن لدينا ولي أمر هو نائب الإمام المهدي (عج) وأوجب علينا طاعته، ونحن خبرنا هذا الولي والقائد، في طهارته

لهذا الترويج على الصعيد الداخلي، وذلك بهدف تحجيم المراجع الشيعية العربية، أو التي تتعارض أجندتها الوطنية مع المشروع الإقليمي الإيراني، ومع القاعدة الشرعية الدينية والاجتماعية للولي الفقيه. ثم يتم الانتقال إلى الشرائح الأخرى. وعليه يصبح لبنان نموذجاً للدول التي يتواجد فيها أقليات شيعية كبيرة مثل البحرين أو غيرها.

يقول الأمين العام لحزب الله على سبيل المثال: «لقد أنعم الله علينا بولي أمر هو رجل فذّ وشخصية استثنائية، فلو فتّشنا كل حوزاتنا وبلادنا الإسلامية لما وجدنا فقيهاً من فقهاء الشيعة يجتمع فيه هذا الحشد، وهذا المستوى من المواصفات الراقية التي تجتمع في سماحة القائد الخامني حفظه الله كقائد وولي أمر». (٢٩)

نستطيع أن نرى بشكل واضح جداً أنّ مثل هذا الكلام لا يستهدف السنة أو غالبية المسلمين، بل يستهدف الشيعة من غير الموالين أو المبايعين للولي الفقيه، وفيه دعوة للشيعة من المقلدين للمراجع بتأييد الولي الفقيه والالتفاف حوله.

يقول الأسعد(*) فيما يتعلق بدور حزب الله في هذه النقطة من ناحية المال: «نحن الآن نعيش بظلم واقع المال الذي يشتري ضعفاء النفوس، وفي واقع وجود السلاح الذي بمجرد وجوده في القرى يشكل عامل خوف كبير عند الناس فتضطر للاستجابة بعيداً عن قناعاتها... المال هنا أهم من السلاح - بالنسبة لحزب الله-، وطالما هناك هذه الأموال الهائلة التي تأتي من إيران، فلدى حزب الله ٣٧ ألف شخص على قائمة المعاشات الشهرية...، وهنا يلعب المال دوره ونأسف لذلك، وحتى بعض علماء الدين إما لا يتجرؤون على البوح بالحقائق، أو الأسوأ وهو أنهم انصاعوا لمبدأ المال أيضاً». (٣٠)

أما فيما يتعلق بترويج حزب الله للولي الفقيه فيقول: «لقد تربيت بثقافة شيعية عالية، ومنزلنا معروف باحترامه وإجلاله لعلماء الدين، وهذا

الفقيه علي الخامنئي، ثم قتل يده. يقول رئيس تحرير جريدة جمهوري إسلامي «مسيح مهاجري» الملقب حجة الإسلام والمسلمين: بعد يومين، توجهت للقاء سماحة السيد نصر الله حيث حاورته، وسألته عن السبب الذي دفعه في جلسة رسمية كهذه إلى الانحناء أمام قائد الثورة وتقبيل يده. فقال لي: «لقد تعمّدتُ هذا الأمر.... وسبب ذلك أن وسائل الإعلام العالمية اعتبرتني هذه السنة «رجل العام»، وفي البلاد العربية أطلقوا عليّ عنوان «أكثر قادة العالم العربي نجاحًا»، الأمر الذي لم يبرّني. لكن في هذه الجلسة المهمة التي حضرها جمعٌ من زعماء الحركات الإسلامية والشخصيات السياسية للدول الإسلامية، وحيث كانت تُبث وقائع الجلسة مباشرة في دول العالم، أقدمتُ على ذلك لأقول لكل الذين يعرفوني: أنا جنديّ قائد الثورة». (٣٤)

لقد أزعج حسن نصر الله أن يتم وصفه بـ «أكثر قادة العالم العربي نجاحًا». نعم، فهو لا يعمل لكي يوصف بذلك، هو يعمل لكي يتم وصف الولي الفقيه وإيران، لذلك يقول لقد تعمّدت الأمر!! أي أنه أراد تصحيح فهم هؤلاء العرب الذين لا يزالون يفرقون بينه وبين تبعيته للولي الفقيه.

لولا رجل اسمه روح الله الموسوي الخميني لما كان للمقاومة وجود في لبنان، وبعده لولا رجل اسمه علي الحسيني الخامنئي لما استمرت المقاومة

ولعلّ هذا الترويج الإعلامي لإيران والولي الفقيه لقي قبولاً واسعاً ونجاحاً باهرًا في الوسط العربي والإسلامي، ولا أعالي إن قلت: إن الحزب ككل بجميع أذرعه العسكرية والسياسية والاجتماعية ومؤسساته وكوادره وقياداته عبارة عن مؤسسة إعلامية ودعائية ضخمة وهائلة، وقد تكون من أنجح المؤسسات الدعائية في العالم على الإطلاق.

والاستثمار المالي والمادي والمعنوي والديني الإيراني في هذه المؤسسة الدعائية هو خيار صائب لها، بل هو الخيار الأنجح في نقل الثورة الإسلامية

وصفائه وورعه، وفي الوقت نفسه في شجاعته وقوته وحكمته وتديبره ووعيه؛ فهو يتحدى أمريكا والاتحاد الأوروبي والأساطيل التي تملأ الخليج.....؛ إذ أردنا الأخيرة، فأخترنا مع ولي أمرنا نائب الحجة (عج)؛ وأزيدكم إذا أردنا عزّ الدنيا وشرفها وكرامتها فلن ننالها إلا مع ولي الأمر، حتى هذه المقاومة الكبيرة التي نعتني بها، والتي هي الشيء الوحيد في هذا العالم العربي الذي نرفع رأسنا به ونعتز به وبوجوده، لولا رجل اسمه روح الله الموسوي الخميني لما كان لها وجود في لبنان، وبعده لولا رجل اسمه علي الحسيني الخامنئي لما استمرت المقاومة». (٣٢)

نلاحظ في هذه الفقرة كيف أنه وجه الخطاب إلى غالبية المسلمين «أي السّنة» فطعنهم بداية، ثم عاد ليقدم لهم المثال عمن يجب أن يتبعوه، أي ولي الأمر نائب الإمام المهدي القائد الطاهر الشجاع الذي يتحدى الأساطيل، والذي أنشأ الشيء الوحيد الذي

يرفع الرأس في العالم العربي!! هذه فقرة نموذجية لطريقة الترويج للولي الفقيه في الوسط العربي والإسلامي السني، وكيف يتم تجبير الدعاية للحزب لتصب في صالح إيران والولي الفقيه. لكن يبدو أنّ العرب استعصى عليهم فهم الأمر في البداية!!،

فأراد الأمين العام أن يفهمهم أنّ التأييد يجب أن يذهب لإيران وللولي الفقيه تحديداً، وليس لشخصه ولا لحزبه، وقد تجلّى ذلك بشكل لا يقبل الشك ولا الطعن عندما قام بتقبيل يد الإمام الخامنئي أمام الشاشات العالمية التي كانت تنقل الحدث.

ففي الجلسة الأولى للمؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة «الذي أقيم في طهران في نيسان ٢٠٠١م»، والذي تم افتتاحه بكلمة للولي الفقيه مرشد الثورة الإيرانية علي الخامنئي، وفور انتهائه منها، تنخّى حسن نصر الله من مكانه وتوجّه نحو القائد الولي

خلال النزول على الأرض وتفحص المنشورات والحسينيات، والمجتمع الذي يعيش فيه الحزب، وهل هو مطابق لما يقوله للعامة أم متناقض معه؟ نقوم بإهمال كل ذلك ونفعل العكس؛ إذ نتنظر خطبة للأمين العام لحزب الله أو نفتح قناة المنار، ونتنظر الخبر ثم نقول ها انظروا: إنه حزب غير طائفي، وإنه حزب مجاهد وإنه وإنه.... ونقع في الفخ المنصوب.

فالخطاب عندما يبتث إلى ملايين الناس يكون خطاباً مدروساً، وهدفه الأساسي أن يقع مثل هؤلاء المغفلين في هذه الحفرة «مثال تقبيل يد الخامئي»، فعندما تفتح تلفزيون المنار لا تتوقع أن يكون هناك طعن بالآخر؛ لأنّ هذه القناة على سبيل المثال موجّهة للآخر، فكيف سيشاهدها الجمهور الذي تستهدفه إذا كانت ستطعن به!!

فالحزب بارع في استخدام الشيء للطعن بضده، فعلى سبيل المثال إذا ما أراد أحدهم كشف وجهه الطائفي عاجله الرد «إننا متحالفون مع المقاومة الفلسطينية السنّية، فكيف نكون طائفيين؟!». فهّم بهذه الطريقة ينفون عن أنفسهم الطائفية ويلزمونها للسائل، وفي نفس الوقت يحظون بدعاية إعلامية واسعة من خلال الالتصاق بالمقاومة الفلسطينية. وقد صرّح المفتي الجعفري لصور وجبل عامل السيد «علي الأمين» صراحة دون مواربة، على أنّ العلاقة بين حزب الله وبين الفلسطينيين - وخاصة حماس «السنّية» - ليست دليلاً قاطعاً على عدم طائفية الحزب، فالتحالف سياسي، والثقافة على الأرض، والقواعد هي ثقافة قريبة من المذهبية». (٣٨)

كما تتوافر لدى كوادر الحزب الإعلامية «وحدات إعلامية خاصة بالتلاعب النفسي» تزيد من أهمية سلاح حزب الله الإعلامي يقول الشيخ الشيعي حسن الصقّار: «وفي الإطار المذهبي فإن المقاومة لا تخفي تشيعها، لكنها لا تطرح التشييع من زاويته الحادة، ويمكننا أن نلاحظ هذه النقطة بجلاء في خطابات أمين

إلى الخارج، وفي اختراقها للقاعدة الشعبية الإقليمية؛ إذ تقوم هذه المؤسسة باستخدام الخطاب المموّه للوصول إلى الأهداف دون أن يتم إثارة الموضوع بشكل صدامي، بل بكل هدوء.

يقول آية الله الخميني متحدّثاً عن أهمية العمل الدعائي والإعلامي في إسقاط الخصم أو اختراقه: «.. ويعتبر العمل الدعائي أول أنشطتنا في هذا الطريق - أي الحكومة الإسلامية -، فيجب أن نتقدم من خلال العمل الإعلامي، ففي جميع أنحاء العالم كان الأمر كذلك على الدوام...؛ إذ يلتقي عدة أشخاص ويفكرون في الأمر، ثم يقررون ويقومون بعد ذلك بالعمل الدعائي، فيزدادون شيئاً فشيئاً، إلى أن ينتهي الأمر بأن يصيروا قوة نافذة في حكومة كبيرة، أو يحاربونها، ومن ثم يُسقطونها». (٣٥)

«لا نهاية لتأثير وسائل الإعلام، وإنّ إصابتها كالقذيفة تماماً، فاستخدمها لتحقيق أهدافك». (٣٦)

ولا شك أن الوسائل الإعلامية هذه تعمل في ترويج «كل» الحزب: عقائده، أفكاره، سياسته، أفراده، وفي غالب الأحيان يكون هذا الترويج مصحوباً بمساحيق وأدوات تجميل، فلا يظهر من الحزب وعقيدته وتوجهه إلا ما هو حسن أو «مُحسّن»، كما سعى الحزب إلى غزو الوسائل الإعلامية العامة غير التابعة له، من محطات فضائية وصحف ومجلات ودوريات... يقول وضاح شرارة في هذا الإطار: «تتوسل الحركة الخمينية إلى الدعوة والتعبئة بنشاط إعلامي كثيف ومنظم». (٣٧)

الخداع الذي يُمارس من قبل حزب الله على نطاق واسع أحد أهم أسباب نجاحه هو جهل «الآخر» بالطرق الصحيحة للحكم على الأمور. فعندما تريد أن تحكم على أمر لا بد وأن تقرّأ عنه، ومن الأفضل بطبيعة الحال أن تكون القراءة عن المصدر الأساسي نفسه كما هو معروف، لكننا في الوطن العربي بدلاً من أن ندرس مثلاً ظاهرة حزب الله من خلال الكتابات الخاصة لقادة الحزب والقيمين عليه، ومن

بل إن هذا الدور الذي تقوم به إيران عبر حزب الله أصبح مكشوفًا للجميع بما فيهم الإسرائيليين أنفسهم. في هذا الإطار، يصل أحد أشهر الخبراء في مجال الاستخبارات والباحث في «مركز جافي للدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب» الدكتور «افرايم كام» في كتاب ألفه بتكليف من وزارة الدفاع التي أصدرته ونشرته فيما بعد في العام ٢٠٠٤، ويشمل عرضًا لكثير من الوثائق التي ترصد تطور القوة العسكرية الإيرانية، فضلًا عن الاستغراق في تحليل الدوافع الكامنة خلف الاستراتيجية التي تتبعها الجمهورية الإسلامية، وهو يستند إلى ألف ومائتي مرجع ووثيقة، إلى قناعة مفادها «أن إيران من ناحية عملية لا تعتبر «إسرائيل» العدو الأول لها، ولا حتى الأكثر أهمية من بين أعدائها». فيحسب افرايم كام، فإنه «على الرغم من الخطاب السياسي الإيراني المناكف «لإسرائيل» إعلاميًا، إلا أن الاعتبارات التي تحكم الاستراتيجية الإيرانية ترتبط بمصالحها ووضعها في الخليج وليس بعداها لإسرائيل، وهي تبدي حساسية كبيرة لما يجري في دول الجوار، وخاصة في العراق». (٤٠)

وقد جاء تقرير نشره معهد قيام «omedia» البحثي الإسرائيلي ليؤكد فيما بعد على أنّ استهداف إيران لإسرائيل عبر الخطاب الإعلامي هدفه كسب مزيد من المؤيدين لها في المنطقة، وهو مجرد ذريعة لتحقيق أهدافها !!

يقول تقرير معهد «omedia» البحثي الإسرائيلي الذي جاء بعنوان «إيران في حاجة لإسرائيل» للباحث «زيو مائور»: «إن إيران لا تشكل أيّ خطر على «إسرائيل»، ولا تريد تدميرها، بل هي في حاجة لإسرائيل»، وتعتبرها مكسبًا استراتيجيًا هامًا حتى تظل قوة عظمى في المنطقة، وهي تستغل وتستخدم

عام حزب الله سماحة السيد حسن نصر الله - حفظه الله - حينما يحاضر في ليالي عاشوراء، حيث يعرض قضية أهل البيت عليهم السلام، ويعرض التشييع بشكل يستقطب المسلمين بجميع أطيافهم ومذاهبهم... وفي خصوص انتمائها السياسي والفكري، فإن المقاومة تعلن ارتباطها الوثيق بالجمهورية الإسلامية في إيران، وبالمرجعية والقيادة الدينية فيها، ولكن خطابهم خطاب وطني». (٣٩)

ثالثًا: يؤمن وجود حزب الله بذاته - وكونه مرتبطًا بإيران إلى هذه الدرجة - موطن قدم للسياسة الإيرانية التي تسعى إلى استغلال مسألة معاداتها «لإسرائيل» دون اصطدامها بها إلى أبعد الحدود على الرغم من بعدها الجغرافي، ويعتبر حزب الله صلة الوصل في الموضوع، ويشكل ورقة عالية للمساومة، على أي وضع من الأوضاع المصيرية التي تتعلق بإيران

في أي وقت من الأوقات؛ على اعتبار أنها تستطيع تفجير الوضع عندما تريد وتهدهته عندما تريد أيضًا. وخير دليل على ذلك من الواقع، فكلما تندلع جولة من جولات المناكفة تهب الأصوات الإقليمية والدولية للمطالبة بضرورة الاتصال مع إيران بشأن الموضوع !!

تقوم إيران بتأمين السلاح والعتاد الكامل لحزب الله «لمناكفة» إسرائيل؛ وذلك ضمن معادلة داخلية محدودة لا تتجاوز الحصول على مكاسب سياسية وإعلامية بالدرجة الأولى، وما يأتي بعد ذلك فهو فائض. والهدف من ذلك أن يلقي حزب الله شهرة كبيرة في العالم الإسلامي؛ تمهّد الطريق له لتصدير مفاهيم الثورة الإيرانية من تحت البساط ودون أية مشاكل أو حزازيات، وإعطاء ثقل لإيران في المنطقة العربية، والعمل على اختراقها تمهيدًا للسيطرة عليها في المستقبل، واستغلال هذه المسألة من أجل فرض نفسها لاعبًا أساسيًا.

الهوامش :

(١) انظر مقالنا: وماذا عن المشروع الشرق أوسطي الإيراني وأدواته؟، علي حسين باكير، صحيفة السياسة الكويتية، ٢٠٠٦/٨/١٨.

(*) التسمية الأفضل برأيي لهذا المشروع هو الهلال الصفوي أو الفارسي؛ لأننا عندما نسميه الهلال الشيعي، فنحن نختزل الصراع الذي سيظهر قريباً بين جزء من الشيعة العرب الذي يرفضون ولاية الفقيه وإيران، وبين إيران نفسها؛ بسبب تضارب المصالح والتنافس على الزعامة والمرجعية، وأيضاً بسبب الاختلاف في بعض الخصوصيات، وبهذا نكون قد قدمنا خدمة جليلة لإيران عندما نعتبر جميع الشيعة في سلتها.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) قامت إيران في العام ٢٠٠٣ بطرح وثيقة سرية على الولايات المتحدة الأمريكية بموافقة علي الخامنئي، يمكن مراجعة مقال المؤرخ الأمريكي جارثر بورتر للاطلاع بالتفصيل على طبيعة الوثيقة والعرض الإيراني، والخدمات الجليلة التي قدمتها إيران للولايات المتحدة في غزو أفغانستان والعراق.

Burnt Offering، Gareth Porter، The American Prospect magazine، 6/6/2006 .

(٤) انظر أيضاً: الصفقة الكبرى: إيران تفجر المنطقة طائفياً بين لبنان والعراق، علي حسين باكير، الإسلام اليوم، ٢٤/١٢/٢٠٠٦ على الرابط التالي:

www.islamtoday.net/articles/show_articles_content.cfm?id=72&catid=76&artid=8427

(٥) للمزيد انظر: النفاق الإيراني تجاه العرب والمسلمين.. الخليج العربي مؤامرة صهيونية، علي حسين باكير، على الرابط التالي:

www.islammemo.cc/article1.aspx?id=4883

(٦) راجع: البيان التأسيسي للحزب ١٦ شباط ١٩٨٥.

(٧) انظر: آية الله الخميني، «الحكومة الإسلامية»، النسخة الإلكترونية ص ٢٤.

(٨) راجع: مقال السلطة المدنية والاعتقاد بولاية الفقيه المطلقة، وجيه كوثراني، صحيفة النهار اللبنانية، ٣/١١/٢٠٠٦.

(٩) انظر: نفس المرجع السابق، نقلاً عن كتاب: حزب الله المنهج.. التجربة... المستقبل، للشيخ نعيم قاسم، ص ٧٥.

(١٠) انظر دراسة: سلطة الولي الفقيه خارج حدود بلده، الشيخ محمد تقي مصباح يزدي، على الرابط التالي:

www.icde.net/library/maghalat/ar/011.htm

(١١) راجع: «حزب الله: المنهج... التجربة... المستقبل»، الشيخ نعيم قاسم، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٧٦.

(١٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٧٣.

«إسرائيل» كذريعة لتحقيق أهدافها، ولدعم مكانتها الإقليمية، ولنشر مبادئ الثورة الإيرانية تحت شعار «معاداة إسرائيل»، ويضيف التقرير بأن التصريحات الدعائية الإيرانية ضد الولايات المتحدة الأمريكية هي من باب الاستهلاك الإعلامي فقط». (٤١)

خاتمة:

المشروع الإقليمي الإيراني، مشروع لا يختلف في أي وجه من أوجه أهدافه عن أية مشاريع خارجية يتم تطبيقها في منطقتنا؛ بغض النظر عن مسمياتها «صهيونية، أمريكية، استعمارية، استغلالية، استعبادية، توسعية... الخ»، كلها تسعى إلى نفس النتائج، ولذلك فلن نجد صعوبة إذا قارنا أهداف مثل هذه المشاريع بأهداف المشروع الإيراني، الفارق الوحيد بين هذه المشاريع هو الأسلوب والأدوات، وقد عالجنها في البحث بما لا يترك مجالاً للشك عن نوايا إيران، وطريقة عمل أدواتها بمن فيهم حزب الله، وهو ما من شأنه أن يساعداً بأن لا نخطئ، ونعيد الخطأ الذي لطالما كرّرناه - منذ الثورة العربية الكبرى وإلى اليوم - وهو أن نقع في أحضان هذا المشروع تارة، وذاك المشروع طوراً معتقدين أنه المخلص، وأنّ الدافع حمايتنا أو تعزيز مقوماتنا أو مساعدتنا. هذا ما هو حالنا عليه، والبوصله تائهة، ولا يتجاوز دورنا إلاّ التصفيق لهذا الحزب أو تلك الدولة. المسؤولية تقع على عاتق الجميع، وقد حان الوقت لتغيير المنهج والأسلوب والأدوات، وبالتالي عدم الوقوع في الأفخاخ المنصوبة، والاعتماد على الذات في مواجهة المشاريع التي كثرت، والتي تسهدفنا بشكل أساسي، وذلك قبل فوات الأوان.

ملف التقرير - المقاومة

- (١٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٧٣.
- (١٤) انظر: صحيفة المستقبل، الأربعاء ٢٩ تشرين ثاني ٢٠٠٦، العدد ٢٤٦٠، ص ٤.
- (١٥) خطاب عاشوراء، حسن نصر الله، ص ٦٣. انظر: القائد السيد نصر الله وقائده الولي الفقيه، «شبكة البتول عليها السلام»، على الرابط التالي:
www.albatoul.net/portal/index.php?show=news&action=article&id=189
- (١٦) صحيفة المستقبل اللبنانية، العدد ٢٣٨٦، الخميس ١٣/٩/٢٠٠٦، ص ٥.
- (١٧) للاستزادة راجع كتاب: عبد الله الغريب، «أمل والمخيمات الفلسطينية»، لنسخة الإلكترونية.
- (١٨) نفس المرجع السابق.
- (١٩) نفس المرجع السابق.
- (٢٠) نهاد حشيشو، «الأحزاب في لبنان»، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ٣٢.
- (٢١) نفس المرجع السابق، ص ٣٣.
- (٢٢) صحيفة النهار اللبنانية، ٥/٣/١٩٨٧.
- (٢٣) انظر مقال: تجربة المقاومة الإسلامية على ضوء ثورة الإمام الخميني، حبيب فياض، دار الولاية للثقافة والإعلام على الرابط التالي: <http://alwelayah.net>
- (٢٤) انظر: رؤية في حاضر ومستقبل حزب الله اللبناني، علي حسين باكير، مجلة البيان، العدد ٢٢٣، يناير ٢٠٠٦، ص ٧٤.
- (٢٥) صحيفة السفير اللبنانية، ١٢/١/١٩٩٣.
- (٢٦) راجع: نشأة حزب الله وظهوره، مفكرة الإسلام على الرابط التالي:
<http://www.islammemo.cc/article1.aspx?id=2579>
- (٢٧) نفس المرجع السابق.
- (٢٨) صحيفة النهار اللبنانية، ١١/١/١٩٨٤.
- (٢٩) راجع: خطاب عاشوراء، حسن نصر الله، ص ٥٩-٦١. عن مقال: «من مواصفات ولي أمر المسلمين آية الله العظمى الإمام القائد الخميني، دام ظله»، حسن نصر الله، دار الولاية للثقافة والإعلام، على الرابط التالي:
<http://alwelayah.net/index.php?f=doc&s=khamenie&r=derasat&id=41>
- (*) عائلة الأسعد، عائلة شيعية لها مكانتها التاريخية في لبنان؛ بحيث كانت تزعم الطائفة الشيعية سياسيًا لفترة طويلة، خاصة من جهة الإقطاع.
- (٣٠) انظر صحيفة السياسة الكويتية، ٢٦/٩/٢٠٠٦.
- (٣١) نفس المرجع السابق.
- (٣٢) خطاب عاشوراء، مرجع سابق، ص ٥٩-٦١.
- (٣٤) قائد جندي القائد، مجلة بقية الله، ٢٨/٦/٢٠٠٥. وشبكة الفجر الثقافية، نقلاً عن مجلة بقية الله الشيعية على الرابط التالي:
www.walfajr.net/artc.php?id=663
- (٣٥) راجع كتاب: الحكومة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٩.
- (٣٦) البند رقم ١١ من مبادئ القتال لدى حزب الله، انظر كتاب: حقيقة المقاومة، عبد المنعم شقيق، النسخة الإلكترونية.
- (٣٧) نفس المرجع السابق.
- (٣٨) برنامج نقطة نظام مع علي الأمين، الجمعة ٨/٩/٢٠٠٦.
- (٣٩) انظر مقال: خطاب المقاومة، حسن الصقار، ٢٠/٨/٢٠٠٦، على الرابط التالي:
www.saffar.org/?act=artc&id=1020
- (٤٠) انظر مقالنا: أسطورة الضربة الإسرائيلية العسكرية لإيران، علي حسين باكير، مجلة آراء حول الخليج، مركز الخليج للأبحاث، العدد ٢٤/٩/٢٠٠٦، ص ٨٣.
- (٤١) نفس المرجع السابق.

معلومات إضافية

نشأة حزب الله وتطوره:

ظروف النشأة:

سبق الوجود التنظيمي لحزب الله في لبنان، والذي يُورَخ له بعام ١٩٨٢، وجود فكري وعقائدي يسبق هذا التاريخ، هذه البيئة الفكرية كان للشيخ حسين فضل الله دور في تكوينها من خلال نشاطه العلمي في الجنوب. وكان قيام الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ بقيادة آية الله الخميني دافعاً قوياً لنمو حزب الله؛ وذلك للارتباط المذهبي والسياسي بين الطرفين.

وقد جاء في بيان صادر عن الحزب في ١٦ فبراير/ شباط ١٩٨٥ أن الحزب «ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه، وتتجسد في روح الله آية الله الموسوي الخميني مفجر ثورة المسلمين، وباعث نهضتهم المجيدة».

معظم أفراد الحزب هم من اللبنانيين الشيعة المرتبطين مذهبياً بإيران، حيث يعتبرون آية الله علي خامنئي مرشد الثورة الإيرانية واحداً من أكبر المراجع الدينية العليا لهم، ويعتبر الشيخ حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله الوكيل الشرعي لآية الله علي خامنئي في لبنان. هذا الارتباط الأيديولوجي والفقهني بإيران سرعان ما وجد ترجمته المباشرة في الدعم السريع والمباشر من الجمهورية الإسلامية، وعبر حرسها الثوري للحزب الناشئ.

البناء التنظيمي:

رغم عامل السرية الذي يحرص الحزب عليه في أغلب نشاطاته، فإن ذلك لم يمنعه من الإعلان عن وجود بعض الهياكل التنظيمية التي تنظم عمل الحزب، منها على سبيل المثال:

- هيئة قيادية.
- مجلس سياسي.
- مجلس تخطيطي.
- كتلة النواب.
- مجموعات تنفيذية.
- هيئات استشارية.

ويُتخذ القرار داخل تلك الهيئات بأغلبية الأصوات، ويُعتبر مجلس شوري الحزب أعلى هيئة تنظيمية؛ حيث يتكون من ١٢ عضواً تسند إليهم مسؤولية متابعة أنشطة الحزب الأخرى الاقتصادية والاجتماعية.

حزب الله وإيران:

العلاقة بين حزب الله وإيران يتداخل فيها البعد السياسي والديني، فاللبنانيون الشيعة الذين يمثلون كوادر حزب الله تربطهم بالمرجعيات الدينية الإيرانية روابط روحية عميقة، ويعتبر مرشد الثورة الإيرانية آية الله علي خامنئي أكبر مرجعية دينية بالنسبة لهم. ويسمى أمين عام حزب الله حسن نصر الله الوكيل الشرعي لآية الله خامنئي.

الحزب والحياة السياسية:

لحزب الله حضور في الحياة السياسية اللبنانية منذ توقيع اتفاق الطائف عام ١٩٩٠، الذي أيده مع التحفظ على بعض بنوده، وقد فاز في أول انتخابات برلمانية يشارك فيها في عام ١٩٩٢ بـ ١٢ مقعداً، وهو أكبر عدد من المقاعد تفوز به كتلة حزبية منفردة. كما شارك في انتخابات عام ١٩٩٦، ويمثله حالياً ثمانية نواب. ويسعى إلى تشكيل قوة ضغط سياسية، ولذلك فللحزب حضور ومشاركة في انتخابات النقابات، وبخاصة نقابتي المهندسين والأطباء، والاتحادات الطلابية والمهنية والعمالية.

حزب الله.. النشأة والتطور، محمد عبد المعطي، المعرفة،
الجزيرة نت (بتصرف)، ٧/٥/٢٠٠٦.
<http://www.aljazeera.net>

موقف (حزب الله) من مشاريع المقاومة الإسلامية

أولاً: الجبهة الشيشانية:

من المعروف أنّ الجبهة الشيشانية من أشد الجبهات اشتعالاً؛ إذ ما تمّ قياس ذلك نسبة إلى المدى الزمني للمعركة (الحديثة) التي تجري فيها منذ تشرين أول من العام ١٩٩١، وهو التاريخ الذي أعلن فيه الزعيم الشيشاني جوهر دودايف قيام جمهورية الشيشان المستقلة عن روسيا، ومن ثمّ في ١١ كانون أول ١٩٩٤ تاريخ غزو القوات الروسية لجمهورية الشيشان المستقلة. وعلى الرغم من مرور أكثر من ١٥ سنة على الحرب التي يخوضها المجاهدون الشيشان في سبيل استقلالهم ضدّ الغزو الروسي، إلا أنّ خطابات وأدبيات حزب الله اللبناني تخلو كلياً، وبشكل كامل من أيّ إشارات أو دلالات أو إسناد شرعي باسم الدين الإسلامي أو حتى معنوي باسم

المظلومين، المقهورين أو المستضعفين في الأرض. (وهو الشعار الدارج جدًا عند الجمهورية الإسلامية الإيرانية وحزب الله اللبناني).

ثانيًا: الجبهة العراقية:

بدأ حزب الله باستغلال النقمة العالمية الأمريكية على ما يسمى «الإرهاب» خاصة في العراق؛ ليقوم هو بتزكية نفسه أمام الإدارة الأمريكية، فأصدر العديد من البيانات في مراحل مختلفة، يدين فيها قتل الأمريكيين في العراق، ويؤكد على أن هذا يضر بالإسلام والمسلمين، غير ملتفت أو مهتم لأمر الإسلام والمسلمين حين يتعرضون لحملات إبادة أمريكية عندما يكون بالفلوجة أو الرمادي أو تلعفر أو غيرهم!!

فقد قال الأمين العام لحزب الله في تصريح له: «اليوم العمليات التي تستهدف العراقيين في العراق - بحسب معلوماتي وليس تحليلًا - بعض العمليات التي تستهدف المدنيين في أغلب المناطق العراقية تقوم بها جهات من بينها جهات صدامية التي ترى في قتل الناس وعموم العراقيين طريقة لإرهابهم وإرغابهم لإخراجهم من الساحة.... هناك مجموعة أخرى (...)، الجماعات التكفيرية التي لا تكفر الشيعة وحدهم، بل كثيرًا من السنة، بل تكفر بعضها وتكفر من عداها، فهي المسلمة والمؤمنة وحدها. هذه المجموعات تمارس عمليات قتل ذريعة وواسعة في العراق».

ثم استدرك قائلاً - كي لا يقع عليه الحرج -: «وهناك عمليات استهدفت المدنيين يديرها جنرالات وضباط أمريكيون مباشرة في مراكز الاحتلال الأمريكي، أضف إلى الخطوط النفوذية والجاسوسية المفتوحة على الجماعات الأولى التي تحدثنا عنها».

إن موقف حزب الله لم يتوقف عند باب عدم الاعتراف بشيء اسمه مقاومة عراقية، بل تخطاه إلى مهاجمتها بنفس الكلام والسياق الأمريكي والإسرائيلي وعملائهم في العراق، الذين دخلوا على ظهر الدبابة الأمريكية.

لقد كان الحزب يستتر عندما يتم إحراجه بموضوع المقاومة في العراق وأفغانستان خلف أجوية هلامية عامية فضفاضة؛ لا يفهم منها الحق من الباطل، وتنطبق على الصالح كما على الطالح، إلى أن جاء خطابه الشهير في ذكرى الإمام الكاظم الذي تزامن مع حادثة جسر الأنمة في بغداد؛ حيث صنف السيد حسن المقاومة العراقية - أمام حشد هائل من الجمهور والكاميرات والنقل التلفزيوني - بين: «صدامي بعثي، وتكفيري إرهابي». ثم أصبح يردد منذ احتلال العراق مصطلحات مثل: العراق الجديد، التكفيريين، البعثيين، فلول النظام، الإرهابيين، الانتخابات الحرّة، المقاومة السياسية.

وقد بلغ موقف حزب الله وقيادته المتمثلة بالسيد حسن نصر الله من الخزي والعار إلى درجة تماهيه مع الموقف الأمريكي والإسرائيلي تمامًا، ففي نفس الخطبة يقول: «فلْيُتَّح للشعب

العراقي أن يعبر عن رأيه وخياره و...، وليتح للشعب العراقي أن يختار نوابه، ولو في ظل الاحتلال؛ لأن ذلك وسيلة من وسائل مواجهة الاحتلال!!».

باختصار شديد، وإذا ما عمدنا إلى مقارنة مواقف حزب الله من مشاريع المقاومة الإسلامية في العالم الإسلامي، سنلاحظ ثلاثة مواقف أساسية له هي:

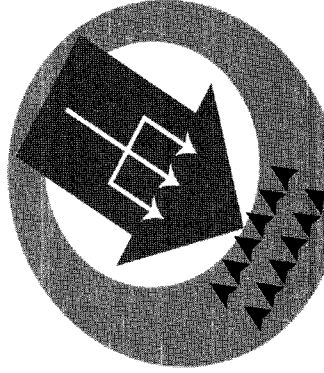
- الموقف الأول: التجاهل التام والشامل، واتخاذ موقف اللامبالاة تجاه قضايا جوهرية كالشيشان وأفغانستان، والبوسنة وكشمير.

- الموقف الثاني: التهجم والتناول، والتشويه المقصود والعمدي، والإلغاء كحالة المقاومة العراقية، بل والتماهي مع مواقف المحتل وعملائه.

- الموقف الثالث: التأييد والتشجيع «الخطابي» الدائم والعلني للقضية الفلسطينية.

وإذا ما جمعنا هذه الملاحظات مع بعضها نستطيع أن نستنتج أن الموقف من القضية الفلسطينية هو موقف مصلحي بامتياز؛ لأن المفروض أن المبدأ الإسلامي لا يُجرى الاحتلالات؛ خاصة إذا كانت الجهة هي ذاتها (لا فرق بين إسرائيل وأمريكا). فإذا كان التأييد للفصائل الفلسطينية الإسلامية والقضية الفلسطينية تأييداً عقائدياً فهذا يفترض تأييد المقاومة العراقية؛ لأن الطرفين مسلمين ومن المذهب السني، والطرفين أرضهم محتلة ومقاومتهم مشروعة، والاثنين يواجهان ما يدعي الحزب أنهم أعداؤه «إسرائيل وأمريكا».

(راجع كلمة حسن نصر الله بمناسبة «ذكرى الكاظم» بتاريخ ٢/٩/٢٠٠٥).



الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية

وآفاق الفعل الشعبي

(تقرير تركيبي)

دراسة في تأصيل المفاهيم والمناهج

د/سمير بودينار - المغرب

أستاذ جامعي، باحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية،
مدير مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة

ملخص البحث:

قامت صحيفة «يولاندز بوسطن» الدانماركية بنشر رسوم كاريكاتورية للنبي صلى الله عليه وسلم، مقترنة بتعليق لرئيس تحريرها عتبر فيه عن دهشته واستنكاره إزاء القداسة التي يحيط بها المسلمون نبيهم. وكما هو الأمر دائمًا عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. على إثر ذلك طالبت الرابطة الإسلامية في الدانمارك بتقديم اعتذار، بموازاة مع تظاهرة نظمتها أمام مقر الصحيفة، إلا أن الحكومة الدانماركية تعاملت مع الحدث بلا مبالاة.

ولا يخفى الدور المتعاظم للفعل الشعبي، فلقد ظهرت الدعوات إلى المقاطعة الاقتصادية من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فيما بدأت أسواق كبرى على امتداد العالم العربي والإسلامي بسحب المنتجات الدانماركية، وقد آتت المقاطعة أكلها؛ فوفق إحصائيات موثقة أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي إلى خسارة الدانمارك ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.

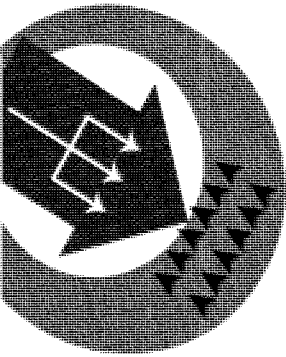
تعتبر أولى المشكلات المتصلة بقضية الرسوم في التسمية التي استحدثت لها، ثم أشاعتها وسائل الإعلام، وهي «الرسوم المسيئة»، فكيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة كشخصية النبي صلى الله عليه وسلم؟! وكيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، وهي كينونة ناجزة ومحصنة في ذاتها؟! ومحصنة في ذاتها؟!

ولعل تحليل الحدث وآثاره يمدنا بعدد وفير من الدروس؛ كالحاجة إلى مزيد من التأصيل، ومزيد بناء في مجال فقه الاحتجاج الحضاري، مرورًا بأهمية فكرة «الجهاد المدني»، التي زادت الأزمة وضوحًا لتزايد الحاجة إليه اليوم، وانتهاءً بأزمة الأقليات والجاليات المسلمة في شتى بقاع العالم، وما تبينه مثل هذه الأحداث من عدم معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدساتنا الدينية، كأمة ذات سمات وخصائص مميزة، سواء في عالم المسلمين، أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم. ويبدو أنه ليس من خيار آخر لمواجهة التحديات المتلاحقة التي تمس المسلمين وغيرهم من قوى المادية للإنسانية، والاستبداد والهيمنة المتعددة الأوجه، سوى مسار الفعل الشعبي العام والمؤثر، والذي يستمد قوته وثباته أساسًا من عقيدة الإنسان وقيمه وإرادته.

أفكار ومقتطفات

- كان لنشر الصور الكاريكاتورية وقع الصاعقة على المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك، تلك المملكة الاسكندنافية الدستورية التي تقبع في قلب أوروبا، والتي لا تتجاوز مساحتها (٤٣,٠٩٤) كم مربعاً، ويبلغ عدد سكانها (٥,٤) ملايين فرد، منهم ١٨٠ ألف مسلم يشكلون ٣٪ من الشعب، ولهم تمثيلهم بالبرلمان من خلال ثلاثة نواب.
- رفعت بعض المنظمات الإسلامية في الدانمارك قضية ضد الصحيفة التي تبنت الإساءة البذيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن المدعي العام رفض القضية؛ معتبراً أن نشر الرسوم الكاريكاتورية تم في إطار حرية التعبير التي يحميها القانون، واختص رئيس تحرير صحيفة «يولاندز بوسطن» بالقرار.
- في ١٥ / ٣ / ٢٠٠٦، أصدر المدعي العام الدانماركي حكماً نهائياً بشأن قضية الرسوم المسيئة. ورغم «إقراره» بأن «الرسوم الكاريكاتورية المعنية يمكن اعتبارها مسيئة، أو يمكن أن تُفهم باعتبارها تعبيراً عن الإسلاموفوبيا، فإنها لا تعتبر خرقاً للقانون الدانماركي بأي حال من الأحوال».
- بعد ثلاثة أشهر من التجامل والصمت، وفي أعقاب التفجيرات التي حدثت في لندن، علّق على قضية الرسوم الكاريكاتورية المفوض العدلي بالاتحاد الأوروبي فرانكو فراتيني، قائلاً: إن نشرها لم يكن تصرفاً حكيمًا؛ باعتبار أنه من شأن ذلك أن يشيع الكراهية، ويشجع على التطرف في أوروبا.
- لم تبد في الأفق أدنى استجابة لتلك الجهود فلا هيئة تحرير الصحيفة بادرت لنشر أيّ من الردود أو التصويبات، أو تقديم اعتذار، ولا الحكومة الدانماركية أخذت ردود الفعل الإسلامية مأخذ الجد.
- كما هو الأمر دائماً عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. وفي دمشق وبيروت، أشعلت النار في مباني السفارات والقنصليات الدانماركية والنرويجية. وفي غزة دمرت المراكز الثقافية التابعة للدول التي شاركت صحافتها في الحملة على النبي الكريم.
- الواقع أنه من غير المعروف كيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة، شأن النبي الكريم، ليس فحسب على مستوى موقعها في التاريخ، بل على مستوى موقعها منه وفيه إلى اليوم؟!!
- من غير المفهوم كيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، والعقيدة كينونة ناجزة ومحصنة في ذاتها أولاً، قبل أن تكون في منزلة القداسة لدى أصحابها، محصنة برصيد من الرمزية والإجلال بلا حدود؟!!

- الصورة التي قُدِّمَ على أساسها شخص النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بالتالي كانت صورة مَنْ خرج من مجتمع بدوي ليتزوج النساء، وينشر بحد السيف كتاباً ادَّعاه لنفسه، منتحلاً عن كتب الديانات السابقة، ساعياً إلى تلبية غريزة كامنة قوامها اللذة الجسدية، والعنف الدموي.
- أكدت أرقام بيانات اقتصادية أن المقاطعة كَبَّدت الدانمارك، حتى شهر مايو ٢٠٠٥ فقط، خسائر فادحة، وبانت قطاعاتها مهددة بفقدان أكثر من ١١ ألف وظيفة، وقد أشار تقرير بنك «يسكا» إلى أن استمرار المقاطعة لمدة عام يعني خسارة القطاعات الإنتاجية الغذائية والزراعية نحو (٣٢٠) مليون يورو.
- اعترفت المتحدثة باسم شركة (آرلا) بأن نحو ٣٠٠ مؤسسة أو شركة في الدول العربية والإسلامية قاطعت منتجات (آرلا) من بينها الجبن والزبدة والحليب.
- وفق إحصائيات نشرت يوم ٨/٩/٢٠٠٦ فقد أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي؛ بسبب نشر الرسوم المسيئة لنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام إلى خسارة مليار كورونة دانماركية، أي ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.
- هبطت الصادرات الدانماركية، خاصة إلى المملكة العربية السعودية بنسبة (-٤٠٪) وإلى إيران بنسبة (-٤٧٪)، وهما على التوالي السوق الأول والسوق الثالث عبر العالم الإسلامي للشركات الدانماركية.
- وسجلت أكبر التراجعات في دول ليبيا (-٨٨٪)، وسوريا (-٤١٪)، والسودان (-٥٥٪)، واليمن (-٦٢٪). وكانت أشد الشركات مصاباً هي شركات التغذية.
- سلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكاً بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كلٌّ يقوم بواجبه ويقدر ما يستطيع، وعلينا أن نركز على البضائع الصهيونية الصنع، أو الأمريكية الخالصة التي لا يدخل في شراكتها أحد من المسلمين، ولا يترتب عليها ضرر أكبر للمسلمين.
- اتضح أن مشكلة الهوية الإسلامية في أوروبا كانت حاضرة في الأزمة بشكل واضح، حتى قبل انفجار قضية الرسوم الكاريكاتورية؛ حيث كانت «واشنطن تايمز» الليكودية تنشر حلقات تحذّر من خطر «دولة إسلامية في أوروبا» ركزت فيها على البوسنة، فهي «كوريدور» القاعدة إلى أوروبا، والمقاتلون البوسنيون المسلمون انضموا في العراق إلى «الإرهابيين الإسلاموفاشست في حملتهم البربرية على القوات الأمريكية».
- لا بد من معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدستنا الدينية، وقدرته على استيعاب خصائصنا المجتمعية وهويتنا الثقافية، كأمة ذات سمات وخصائص مميّزة، سواء في عالم المسلمين، أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم.



الرسوم الدانماركية... أزمت القيم والهوية

وآفاق الفعل الشعبي

(تقرير تركيبي)

دراسة في تأصيل المفاهيم والمناهج

د/سمير بودينار - المغرب

أستاذ جامعي، باحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية،
مدير مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة

يُنجز الرسوم التوضيحية للكتاب؛ لأن معظم الرسامين تخوفوا من إثارة حفيظة المسلمين. عندها قام الكاتب بالاشتراك مع الصحيفة بعمل مسابقة لاكتشاف رسامين لديهم الجرأة لتحدي مشاعر المسلمين. ويبدو أن الرسامين الذين استجابوا كانوا يجمعون بين الجهل بالإسلام والحقد على أهله.

في الغرب أولاً سارعت صحف ومؤسسات إعلامية غربية أخرى إلى التضامن مع الصحيفة الدانماركية بإعادة نشر الرسوم.

بل وصل الأمر حد توجيه المستشارية الألمانية دعوة إلى مساندة الدانمارك والتضامن معها، ثم أخذت أصداء الانتهاك الذي قامت به الصحيفة الدانماركية لحرمة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في التفاعل عبر العالم الإسلامي كله.

أولاً: كان لنشر الصور الكاريكاتورية وقع الصاعقة على المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك، تلك المملكة الاسكندنافية الدستورية التي تقبع في قلب أوروبا، والتي لا تتجاوز مساحتها (٤٣, ٠٩٤) كم مربعاً، ويبلغ عدد سكانها (٥, ٤) ملايين فرد، منهم ١٨٠ ألف مسلم، يشكلون ٣٪ من الشعب، ولهم تمثيلهم بالبرلمان من خلال ثلاثة نواب،

في القول عن الرسوم وتداعياتها:

بدأت حلقات الحدث وتداعياته في الثلاثين من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٥، حين نشرت صحيفة «يولاندز بوسطن Jyllands-Posten»، وهي من أوسع الصحف اليومية انتشاراً في الدانمارك، ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ومع الرسوم نشرت الصحيفة تعليقاً لرئيس تحريرها عبّر فيه عن دهشته واستنكاره إزاء القداسة التي يحيط بها المسلمون نبيهم، الأمر الذي اعتبره ضرباً من «الهراء الكامن وراء جنون العظمة»، ودعا الرجل في تعليقه إلى ممارسة الجرأة في كسر ذلك «التابو»، عن طريق فضح ما أسماه «التاريخ المظلم» لنبي الإسلام، وتقديمه إلى الرأي العام في صورته الحقيقية (التي عبّرت عن قبحها في زعمه الرسوم المنشورة). وحسب المعلومات التي رُشّحت فإن الفكرة جاءت بداية من كاتب دانماركي كان يُعد كتاباً للأطفال عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلم يجد رساماً

وحين علمت الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بالموضوع، وجّه الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام للمنظمة خطابات إلى رئيس وزراء الدانمارك والمسؤولين في الاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمن والتعاون الأوروبي، دعاهم فيها إلى التدخل لوقف حملة الكراهية ضد المسلمين، واتخاذ موقف حازم إزاء الإهانات التي توجّه ضد نبيهم، وقد اعتبر بيان منظمة المؤتمر الإسلامي في الموضوع «حالة الرسوم الكاريكاتورية التجديفية المسيئة التي نشرت في صحيفة يولاندز بوستن الدانماركية مثلاً واضحاً على

تحرك سفراء الدول الإسلامية في جنيف، وقدموا شكوى إلى مفوضية حقوق الإنسان في العاصمة السويسرية، اعتبروا فيها موقف الصحيفة الدنماركية محرضاً على العنصرية والكراهية للمسلمين

ذلك. ففي ١٥ مارس ٢٠٠٦، أصدر المدعي العام الدانماركي حكماً نهائياً بشأن قضية الرسوم المسيئة. ورغم «إقراره» بأن «الرسوم الكاريكاتورية المعنية يمكن اعتبارها مسيئة، أو يمكن أن تُفهم باعتبارها تعبيراً عن الإسلاموفوبيا، فإنها لا تعتبر خرقاً للقانون الدانماركي بأيّ حال من الأحوال». إن الاعتبارات التي برّر بها المدعي العام الدانماركي حكمه تُعد تعبيراً عن مركب التفوق العرقي.

كما ربط البيان القضية بمظاهر كراهية الأجانب، والتي تعتبر المصدر المعاصر الرئيسي للتمييز والصراع. وإن مكافحة هذه الآفة يستلزم من المجتمع الدولي انتباهاً فورياً وتحركاً عاجلاً؛ باعتبارها أولى الأولويات».

وكان محور الردود التي تلقاها - خصوصاً من رئيس الوزراء الدانماركي - أن قضية حرية التعبير تمثل ركناً أساسياً في الديمقراطية الدانماركية، الأمر الذي اعتبر رفضاً لاتخاذ موقف إزاء الحملة، في الوقت ذاته تحرك سفراء الدول الإسلامية في جنيف، وقدموا شكوى إلى مفوضية حقوق الإنسان في العاصمة السويسرية، اعتبروا فيها موقف الصحيفة الدانماركية محرضاً على

ويُعد الإسلام الدين الثاني في البلاد، بعد المسيحية البروتستانتية التي يدين بها ٨٠٪ من السكان.

في نوفمبر ٢٠٠٥، طالبت الرابطة الإسلامية في الدانمارك، والتي رأت في الرسوم إهانة لها، بتقديم اعتذار، بموازاة مع تظاهرة نظمتها أمام مقر الصحيفة اليومية؛ غير أن المواقف بدأت في التصلب.

كما أن وفداً عن الرابطة السالفة الذكر هياً ملفاً كاملاً وشاملاً عن القضية، وسارع إلى استنفار الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ثم رفعت بعض

المنظمات الإسلامية في الدانمارك قضية ضد الصحيفة التي تبنت الإساءة البذيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن المدعي العام رفض القضية؛ معتبراً أن نشر الرسوم الكاريكاتورية تم في إطار حرية التعبير التي يحميها القانون، واختص رئيس تحرير صحيفة «يولاندز بوستن» بالقرار، فكان صدور القرار عاملاً مشجعاً لصحيفة مسيحية محافظة أخرى في النرويج «مجازنت» على إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية الاثني عشر، ومن ثم الترويج لحملة السخرية البذيئة من نبي المسلمين ودينهم.

إثر ذلك عقد ١١ دبلوماسياً من ممثلي الدول الإسلامية في كوبنهاجن اجتماعاً بحثوا فيه الأمر، وقرروا مطالبة الصحيفة بالاعتذار للمسلمين عن إهانة نبيهم، ولكن رئيس تحريرها رفض الاعتذار، فطلبوا مقابلة رئيس الوزراء الدانماركي لإبلاغه باحتجاجهم على نشر الصور، فرفض مقابلتهم بدوره، وأبلغهم من مكتبته بأن الأمر يتعلق بحرية التعبير التي لا تتدخل فيها الحكومة، وقيل لهم: إن بوسعهم اللجوء إلى القضاء إذا أرادوا.

أوغلو رسالة بهذا المعنى إلى الجهة المعنية في كوبنهاجن، أبلغها فيها بأن منظمة المؤتمر الإسلامي طلبت من كل الأعضاء مقاطعة المشروع؛ احتجاجاً على موقف بلادهم الرسمي من إهانة نبي الإسلام. أخيراً، في أعقاب كل تلك التطورات، تطرق رئيس وزراء الدانمارك إلى الموضوع في بيان رأس السنة الميلادية، الذي بثه التلفزيون قال فيه: إن حكومته تدين أيّ تعبير أو تصرف يسيء إلى مشاعر أية جماعة من الناس، استناداً إلى خلفياتهم الدينية أو العرقية، وبهذه الإشارة المخففة، تصور الرسميون في كوبنهاجن أنه تمت تسوية الأمر، في الوقت الذي بدا فيه لكل ذي حس سليم أن الجرح أكبر وأعمق بكثير من أن يُداوى بكلمات عامة وخجولة من ذلك القبيل.

وبعد مُضي عدة شهور على نشر الرسوم، بُدِئت خلالها جهود واسعة لمحاصرة الموضوع، سواء من قبل منظمات الجالية الإسلامية في الدانمارك، أو من الحكومات العربية والإسلامية أو من الجامعة العربية، لم تبد في الأفق أدنى استجابة لتلك الجهود فلا هيئة تحرير الصحيفة بادرت لنشر أيّ من الردود أو التصويبات، أو تقديم اعتذار، ولا الحكومة الدانماركية أخذت ردود الفعل الإسلامية مأخذ الجد. فقد رفضت استقبال السفراء العرب والمسلمين في كوبنهاجن والاستماع لشكاوهم. باسم حرية الرأي والتعبير، كما اصطفت أغلب التَّخَب السياسية والإعلامية المتنفذة في أوروبا إلى جانب الموقف الرسمي الدانماركي؛ إلا في استثناءات نادرة (تعرض وزير الخارجية البريطاني السابق جاك سترو، لهجوم كاسح في الإعلام البريطاني؛ لأنه أدان الرسوم الكاريكاتورية، ووصف سلوكه بالجبان والمستخذي).

وكما هو الأمر دائماً عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة

العنصرية والكرهية للمسلمين، فقررت المفوضية تحري الأمر، وإعداد تقرير ضافٍ عن الموضوع قُدِّم يوم ٢٤/١/٢٠٠٦.

أدرجت المسألة ضمن جدول أعمال القمة الإسلامية التي عقدت في مكة في السابع من شهر ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥، وبناء على ذلك عبّرت إحدى توصيات المؤتمر عن القلق إزاء الحملات الإعلامية المسيئة إلى الإسلام ونبى المسلمين، وأشارت إلى مسؤولية جميع الحكومات عن ضمان احترام الديانات المختلفة، وعدم جواز التذرع بحرية التعبير للإساءة إلى الأديان والمقدسات.

بعد ثلاثة أشهر من التجاهل والصمت، وفي أعقاب التفجيرات التي حدثت في لندن، علّق على قضية الرسوم الكاريكاتورية المفوض العدلي بالاتحاد الأوروبي فرانكو فراتيني، قائلاً: إن نشرها لم يكن تصرفاً حكيمًا؛ باعتبار أنه من شأن ذلك أن يُشيع الكراهية، ويشجع على التطرف في أوروبا.

وبينما يتم تبادل الرسائل بين الأطراف المختلفة، انتقد ٢٢ سفيراً دانماركياً - أغلبهم عملوا في البلاد العربية - موقف حكومة بلادهم من المسألة، وقام وفد من مسلمي الدانمارك يمثلون ٢١ مركزاً إسلامياً ومنظمة بزيارة إلى القاهرة، التقوا خلالها شيخ الأزهر والأمين العام لجامعة الدول العربية، وانتقد وزراء خارجية الدول العربية سلبية الحكومة الدانماركية إزاء الإهانة التي لحقت بنبي الإسلام، ووجد الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أنه لا مفر من اتخاذ موقف عملي يوصل رسالة الاحتجاج والغضب إلى حكومة الدانمارك، التي تعاملت مع الحدث بقدر لافت للنظر من عدم الاكتراث واللامبالاة، ولذلك قرر إعلان مقاطعة المنظمة لمشروع دانماركي، يتمثل في إقامة معرض كبير تحت عنوان «انطباعات عن الشرق الأوسط» تغطي حكومة كوبنهاجن جزءاً من تكاليفه، ويفترض أن تسهم الدول العربية (الخليجية) في تغطية بقية النفقات، وبعث الدكتور أكمل الدين

في منزلة القداسة لدى أصحابها، محصنة برصيد من الرمزية والإجلال بلا حدود؟! يبدو أن أزمة الرسوم الدانماركية في كل مستوى من مستويات قراءتها تأبى إلا أن تحيل إلى أزمة الجسم والقيم والثقافة الصادرة عنه، ذلك الذي يسعى إلى المسّ بما لا يمكن المسّ به والإساءة إلى مُتَأَبِّ منيع ضد أي محاولة للتقويض أو الامتهان، مما يثير في النهاية الحيرة حول هذا الجسم نفسه لا حول الهدف الذي يُقصد المسّ به، وكأننا هنا نعيد قراءة قول الشاعر القديم:

يا ناطح الجبل العالي لتكلمه

أشفق على الرأس لا تُشفق على الجبل

وإذا كان بإمكاننا، ونحن بصدد قراءة الصورة المكتملة الأبعاد فلا شك أننا سوف نلاحظ جانباً من الإساءة فعلاً، لكنه لا يمس الرمز أو المعتقد، ولكنه يتجه إلى أصحاب المعتقد، ممن يحملون الرمز والفكر، ولعله لهذا السبب كان التجاوب الإسلامي مع الأزمة سريعاً، وعبر مختلف المؤسسات الممثلة للمسلمين (أذان بيان مكة، الصادر عن قادة العالم الإسلامي في قمتهم الأخيرة، الرسوم وطالب بالتوقف عن تكرار مثل هذا الفعل).

إن الجانب الأكبر من فعل الإساءة هو ذلك الذي ارتد إلى أصحاب الفعل أنفسهم، غير أن أصحاب المعتقد الذي تمت محاولة المسّ به لم يسلموا بدورهم من جانب تلك الإساءة التي تبدت موجهة لهم مباشرة، من خلال مهاجمة مادية مباشرة وصروحة لنيي يعتقدون اعتقاداً مطلقاً بمنزلته وكرامته، ومكانته فيما يؤمنون به من قيم الوحي المُنزَّل.

في أزمة القيم:

ليست محاولات الإساءة إلى النبي الكريم في الغرب من خلال صورته في الآداب والفنون شيئاً حديثاً ولا طارئاً؛ إذ نعرف اليوم أن الصورة النمطية التي سعى إلى تركيزها جانب من ذلك الإنتاج منذ خمسة قرون كاملة على الأقل، كانت صورة تهتم بسمتين أساسيتين

إلى أفرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. وفي دمشق وبيروت، أشعلت النار في مباني السفارات والقنصليات الدانماركية والنرويجية. وفي غزة دُمِّرَت المراكز الثقافية التابعة للدول التي شاركت صحافتها في الحملة على النبي الكريم. إلى جانب بيان «الدعوة للاحتجاج» الذي أصدره اتحاد علماء المسلمين، فقد سارعت عدة دول عربية إلى استدعاء سفرائها من العاصمة الدانماركية. وشجبت حكومات أوروبية، مثل الحكومتين البريطانية والفرنسية، الإهانات التي وُجِّهت للمقدسات الإسلامية، وعملت على وضع مسافة بينها وبين الصحف والمؤسسات الإعلامية التي شاركت في الحملة ضد الإسلام والمسلمين، من خلال محاولة الإساءة لنيبهم.

إساءة... لكن إلى من؟!

تبدت أولى المشكلات المتصلة بقضية الرسوم في التسمية التي استُحدثت لها، ثم أشاعتها وسائط الإعلام والاتصال، وهي «الرسوم المسيئة» (البعض وصل إلى القول بأنها الرسوم المهينة للنبي صلى الله عليه وسلم)! والواقع أنه من غير المعروف كيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة، شأن النبي الكريم؟! ليس فحسب على مستوى موقعها في التاريخ، بل على مستوى موقعها منه وفيه إلى اليوم؛ لأن سيرته البالغة الغنى والثراء مثّلت - بإجماع تاريخي نادر، وعبر أمثلة هائلة في الفكر والآداب العالمية - نموذجاً للمثل الأعلى الإنساني في كافة جوانبها، ولكن وربما كان هذا هو الأهم؛ لأنها نموذج انبنت عليه تجربة حضارية هائلة، بوصف تلك السيرة تمثلاً لقيم الوحي في مختلف أوجهه عبر قرون من الاجتماع والتاريخ الإنساني.

كما أنه من غير المفهوم: كيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، والعقيدة كيانة ناجزة ومحصنة في ذاتها أولاً، قبل أن تكون

امتداد العالم العربي والإسلامي، كما في السعودية بسحب المنتجات الدانماركية، ومن بينها مثلاً أسواق «السعودي مارشيه» التي سحبت المنتجات الدانماركية من أسواقها، واستبدلت بها عبارة «نحن لا نبيع بضائع دانماركية»، و«كان يوجد هنا بضائع دانماركية»، وترافق ذلك مع تحذيرات شركات دانماركية من أن حملات المقاطعة لمنتجاتها بدأت تُؤتي أكلها؛ إذ حذرت مجموعة أرنال فودز - أكبر الشركات المصدرة - أن المنتجات الدانماركية مهددة بحملة المقاطعة، وصرح المتحدث باسم الشركة بأن أصحاب المحال التجارية يقومون بسحب منتجاتها

من أماكن العرض، والعزوف عن استيراد المزيد منها؛ لأن المستهلكين لا يريدون الشراء. (تصدر المجموعة الدانماركية السويدية إلى السعودية سنويًا بما قيمته ملياري كورون دانماركي/ ٢٦٨ مليون يورو معظمها منتجات الزبدة والأجبان).

«إن أصحاب المحال التجارية يقومون بسحب منتجاتها من أماكن العرض والعزوف عن استيراد المزيد منها؛ لأن المستهلكين لا يريدون الشراء»، «المتحدث باسم شركة أرنال»

بينما أكدت أرقام بيانات اقتصادية أن المقاطعة كبدت الدانمارك حتى شهر مايو ٢٠٠٥ فقط، خسائر فادحة، وباتت قطاعاتها مهددة بفقدان أكثر من ١١ ألف وظيفة، وقد أشار تقرير بنك «يسكا» إلى أن استمرار المقاطعة لمدة عام يعني خسارة القطاعات الإنتاجية الغذائية والزراعية نحو (٣٢٠) مليون يورو، وأكد المدير العام لشركة (أرنال) الدانماركية السويدية «بادر تيرغ»، أن المقاطعة الإسلامية ضربت عصب الشركة في الخليج، وقد تصل الخسائر اليومية في سوق السعودية وحده ١,٥ مليون دولار.

وقد نشرت الشركة الدانماركية للأغذية إعلانات في الصحف الصادرة في منطقة الشرق الأوسط تدعو إلى وقف مقاطعة الدول الإسلامية لمنتجاتها. وقالت الشركة - التي تُعد واحدة من كبرى الشركات الأوروبية لمنتجات الألبان - إنها تواجه

هما: الشبكية والعنف، وإذا كانت هاتان السمتان تشيران إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم فإنها في الواقع استهدفت المضمون الشامل للرسالة التي حملها، والدين الذي قام على أساسها بأبعاده القيمية، وعبر أطواره التاريخية المختلفة.

فالصورة التي قُدِّمَ على أساسها شخص النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بالتالي كانت صورة من خرج من مجتمع بدوي ليتزوج النساء، وينشر بحد السيف كتاباً ادّعى لنفسه، منتحلاً عن كتب الديانات السابقة، ساعياً إلى تلبية غريزة كامنة قوامها اللذة الجسدية، والعنف الدموي.

وقد حاول سلمان رشدي سابقاً أن يبيّن على هذه الفريضة صورة كاريكاتورية للرسول صلى الله عليه وسلم؛ باعتباره شخصية شريرة تدمن الكذب والتدليس، وزاد في الاستفزاز فاختار أسماء مثل الكعبة والحجاب لمواخير تقييم فيها

نساء يحملن أسماء وأوصاف زوجات النبي رضي الله عنهن، وذلك حين نشر روايته سيئة الصيت «آيات شيطانية» عام ١٩٨٩. وقد كان منطلق الكتاب، كما يظهر من عنوانه، مزاعم تناقلها المستشرقون طويلاً، بناء على روايات واهية، مفادها أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا على الناس بعض الآيات التي تُمجّد الأصنام، ثم تراجع عنها بعد ذلك بدعوى أن الشياطين تنزلت بها، في مخالفة لآية أخرى صريحة تقول: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٣١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿

[الشعراء: ٢١٠، ٢١١]

الدور الشعبي في أزمة الرسوم:

ظهرت الدعوات إلى المقاطعة الاقتصادية من خلال إعلانات في الصحف، ووسائل الإعلام، وعبر خطباء المساجد، فيما بدأت أسواق كبرى على

(-٨٨٪)، وسوريا (-٤١٪)، والسودان (-٥٥٪)، واليمن (-٦٢٪).

وكانت أشد الشركات مصابًا هي شركات التغذية، خاصة المنتجة للحليب مثل «أرلا فودز Arla Foods» مما أدى إلى انخفاض صادراتها طيلة تلك الفترة بنسبة ٣, ٢٥٪، خاصة إلى السعودية بنسبة (-٩٣٪). أما المنتجات الصناعية، التي لا يدركها المستهلكون، فقد تراجعت بنسبة ٤, ٧٪ حسب الإحصائيات المنشورة من قبل المعهد.

كل ذلك مع هامش حركة واسعة لأصحاب القرار السياسي الذين وجدوا في سمة «الشعبية والتلقائية» في حملة المقاطعة مجالاً لنفي أي قدرة لهم على التدخل في مسار الحملة، والتحلل بالتالي من أي ضغط سياسي (كما عبر عن ذلك وزير الخارجية السعودي مباشرة حينما سئل عن الموضوع، فقال: إن المقاطعة شعبية ولا علاقة لها بسياسة الدولة).

مشروعية المقاطعة كسلاح:

هناك ضوابط عامة تحدت عنها الكثير من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين في موضوع العلاقة بين حق التعبير والحرية بشأنه، وبين الثوابت الدينية، وخلاصتها ما يقرره المستشار طارق البشري في بحث له في هذا المجال من قواعد هي:

أولاً: إن الحريات والرخص تقف عند حدود الحقوق وحدود الحُرْم والعِصم.

ثانياً: إن حق الفرد يقف عند حدود حق الجماعة، وحق الجماعة المحدودة يقف عند حدود حق الجماعة الشاملة.

ثالثاً: إن النسبي من الحقوق والحريات والرخص، مما هو من شؤون البشر، يقف عند حدود المطلق من ثوابت الدين.

وسنختلف كثيراً عند إعمال هذه الضوابط، عند تبين وجه الصواب عن كل حالة معينة تجدد، وعند كل نازلة تنزل، ولكن التوافق على إعمال هذه

ضغوطاً من قبل المستهلكين لاتخاذ موقف ضد قيام صحيفة دانماركية بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة إلى شخصية نبي الإسلام.

واعترفت المتحدثة باسم الشركة بأن نحو ٣٠٠ مؤسسة أو شركة في الدول العربية والإسلامية قاطعت منتجات (أرلا) من بينها الجبن والزبدة والحليب.

ووصف الخبير الدانماركي «كلاوس بيرن ينسن» الوضع في مجلة (سفن للتقنية ٥ / ٣ / ٢٠٠٦) بأنه تراجمي إذا طال.

كان الجانب المهم في حملة المقاطعة، ما بدا من تأثيرات في مسار الأحداث بفعل الضغوط الاقتصادية. فوفق إحصائيات نُشرت يوم ٨ / ٩ / ٢٠٠٦ فقد أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي؛ بسبب نشر الرسوم المسيئة لنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، إلى خسارة مليار كورونة دانماركية، أي ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.

وتنجم عن المقاطعة التي ابتدأت في ٢٠ / ١ / ٢٠٠٦ تراجع في الصادرات الدانماركية بنسبة ١٥, ٥٪ من فبراير إلى يونيو، وسجلت رقم ٥ مليارات في مقابل ٦ مليارات في الفترة نفسها من العام الماضي ٢٠٠٥، حسب نشرة المعهد الوطني للإحصاء.

وقال «بيتر طاجيسن» رئيس المستشارين في فدرالية الصناعات الدانماركية «دانسك أندوستري» لوكالة الأخبار «رويترز»: «إنه ليس هناك أدنى شك في أن هذه عواقب أزمة الرسوم شهدها بأعيننا، وإن الأمر جد بالنسبة للشركات التي أصابها المقاطعة».

وهبطت الصادرات الدانماركية، خاصة إلى المملكة العربية السعودية بنسبة (-٤٠٪) وإلى إيران بنسبة (-٤٧٪)، وهما على التوالي السوق الأول والسوق الثالث عبر العالم الإسلامي للشركات الدانماركية.

وسجلت أكبر التراجعات في دول ليبيا

وإذا كان الكافرون والمشركون والصلبيون واليهود ينفقون أموالهم للاعتداء على الإسلام؛ فعلى المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله لحماية المسلمين. ولقد أشار الله إلى ذلك في سورة «الأنفال» فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْتَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وحث الله المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿بِالْكَافِرِينَ ۙ يَكَادُ الرَّقُبُ أَنْ يُخَطَّفَ أَبْصَرُهُمْ ۙ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٦١]

فسلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكًا بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كلُّ يقوم بواجبه ويقدر ما يستطيع، وعلينا أن نركز على البضائع الصهيونية الصنع، أو الأمريكية الخالصة التي لا يدخل في شراكتها أحد من المسلمين، ولا يترتب عليها ضرر أكبر للمسلمين، وعلى المشاركين لليهود والأمريكان أن يقاطعواهم أيضًا، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل الواجب علينا مقاطعتهم ثقافيًا وتربويًا واجتماعيًا، ونعود لهويتنا الإسلامية وتقاليدينا الأصلية، حتى نتخلص من قيد هذا الاحتلال.

ويقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في حكم مقاطعة بضائع الدول المعتدية على

المسلمين عمومًا والمحتلة لأرضهم: «فما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام واجب مُحْتَمٌّ، وفريضة مقدسة، على أهل

البلاد المغزوة أولاً، ثم على المسلمين من حولهم إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة.

سلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكًا بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كلُّ يقوم بواجبه ويقدر ما يستطيع

الضوابط، من شأنه أن يحل كثيرًا من الخلافات، ومن شأنه أن يتحول به الخلاف إلى اختلاف، ومن شأنه أن يوجد مشتركًا عامًا ترد الاختلافات في إطاره اختلافات فروع غالبًا.

وبناء عليه اعتُبرت مسألة الرسوم مما هو خارج نطاق الحرية، بل من الاعتداء الذي يقابل بـ صور المقاومة المشروعة بمختلف أوجهها، ومنها ما سُمي بالجهاد الاقتصادي، وفُصِّلَتْ فيه الكثير من الفتاوى الشرعية، والتي ملخصها:

أن الجهاد الاقتصادي يأخذ حكم الجهاد بصفة عامة؛ فهو فريضة شرعية، وضرورة عقائدية، ولقد جاء مقترنًا بالنفس في العديد من الآيات، ومنها قول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله تعالى في سورة الصف:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُرُ عَلَىٰ تَجَرُّعِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِمِ ۗ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ سَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَسَيَسْكَنُونَ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكُمْ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۗ وَالْآخِرَىٰ حَسْبُهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۚ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾ [الصف: ١٠-١٣]

ويؤكد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجهاد بالمال بقوله: «من جهز غازيًا في سبيل الله فقد

غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» (أخرجه الشيخان).

كما حذّر النبي - صلى الله عليه وسلم - المتخاذلين المترددين عن التضحية من أجل نصرته دين الله بالعذاب الشديد فقال صلى الله عليه وسلم: «من لم يغز ولم

يجهز غازيًا أو يخلف غازيًا في أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة» (متفق عليه).

من حقنا.. إن بعض من تحدث من الدانماركيين قال: «المسلمون لا ينتجون ونحن نتج فكيف يستغنون عنا؟» ورد: «والله نستطيع أن نستغني عنكم، بدائل من الشرق، من الصين، من اليابان، من كوريا، من ماليزيا وغيرها، ونستغني عنكم بما لدى بعضنا، وبالتقلل والتزهد، ولو اضطرنا هذا ولم نجد إلا أن نصوم ونحني حمي رسولنا صلى الله عليه وسلم لصمنا وجعنا».

تصويب وتصحيح السلبيات في حملة النصر:

عقب اندلاع الأزمة الأخيرة حول رسوم الكاريكاتور المهينة لرموز الإسلام في الصحيفة الدانماركية «يولندز بوستن»، وما أعقبه من احتجاجات؛ كان من بينها حرق العلم الدانماركي والمطالبة بمقاطعة المنتجات الدانماركية، طالب رئيس الوزراء الدانماركي الدول العربية بإدانة حرق العلم الدانماركي، بينما هدد المفوض التجاري في السوق الأوروبية «بيتر ماندلسون» برفع شكوى إلى منظمة التجارة العالمية ضد الدول التي تحرض على مقاطعة البضائع الدانماركية.

وقد كان لافتاً أن بيان منظمة المؤتمر الإسلامي (جدة ٢٠٠٦/٢/٩) حاول وضع إطار استراتيجي دائم لعمل النصر من خلال «حشد جهود كل المنظمات الإسلامية، والدعوية، وقادة المجتمعات والأقليات الإسلامية، والمنظمات الإسلامية في الغرب وغيره للقيام بحملة واسعة النطاق لشرح حقائق الإسلام للعالم، وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وشمائله الكريمة العطرة. وهذا عمل يتطلب توافر الإرادة القوية على نصره الإسلام، ونفساً طويلاً وأساليب حديثة مبتكرة، وتقنيات جديدة تتلاءم مع العقليات المختلفة للجهات المخاطبة». كما اتضح أن مشكلة الهوية الإسلامية في أوروبا

هدد المفوض التجاري في السوق الأوروبية «بيتر ماندلسون» برفع شكوى إلى منظمة التجارة العالمية ضد الدول التي تحرض على مقاطعة البضائع الدانماركية

إن الجهاد اليوم لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضنا المقدسة، وشرّدوا أهلها من ديارهم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في الأرض فساداً.. هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة المسلمة في المشرق والمغرب. فالمسلمون يسعى بدمتهم أديانهم، وهم يد على من سواهم، وهم أمة واحدة، جمعتهم وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة القبلة، ووحدة الآلام والآمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وفي الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»، ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرَبْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]

لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه، ثم خرج معتمراً، فلما قدم مكة، قالوا: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكنني اتبعْتُ خير الدين، دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل. ثم دعا العلامة القرضاوي أثناء حملة النصر إلى مقاطعة البضائع الدانماركية بقوله: «ورأيي أن هذه الإساءات

مصدر للصراع والنزاع بين الأمم والشعوب، ونحن ندعوا إلى السلام وإلى المحبة، لا إلى العداوة ولا إلى البغضاء، وندعوا إلى مقاطعة البضائع الدانماركية، ومن تضامن معها من الدول وأصر على هذا، وهذا

حواشي الموضوع، كالحاجة إلى مزيد من التأصيل ومزيد بناء في مجال فقه الاحتجاج الحضاري عند ضحايا الأزمة، خاصة في المرحلة الأولى منه، وما تبعها من انزلاقات مرفوضة شرعاً وخُلُقاً، وعقلاً وقانوناً. رغم أصالة هذا الفقه في المنظومة القيمية والفكرية التي ينتمي إليها أولئك الضحايا، انطلاقاً مما جاء من حديث القرآن الكريم عن الذين ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وأولئك الوارد بشأنهم الاستثناء من وصف ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، لا اعتبار خاص بهم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. مروراً بأهمية فكرة «الجهاد المدني»

التي زادت الأزمة وضوحاً لتزايد الحاجة إليه اليوم، ليس فحسب على مستوى القضايا المحلية، بل على صعيد الآثار المرجوة لهذا «الجهاد» في قضايا ومشكلات الإنسانية كلها، خاصة مع آثار العولمة الزاحفة على خصائص الإنسان في كل مجال، وانتهاء بأزمة الأقليات والجاليات المسلمة في شتى بقاع العالم، خاصة تلك المتصلة منها بالفكر والسلوك قبل الخطاب، وانتهاء بما تبينه مثل هذه الأحداث باستمرار من عدم تمكن الطرف الأهم في هذه الأزمة من «سلطة المعرفة»، (بعبارة الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون) معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدساتنا الدينية، وقدرته على استيعاب خصائصنا المجتمعية وهويتنا الثقافية، كأمة ذات سمات وخصائص مميزة، سواء في عالم المسلمين أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم.

غير أن هذا ليس مجال التفصيل في تلك المشكلات التي يمكن القول: إنها تهتم هوامش القضية وتنبعث من حواشي الموضوع الأساس؛ إذ الأزمة الأجدر بالتأمل والبحث لا يمكن إلا أن تكون أزمة المسيء؛ إذ بدرت منه الإساءة، فكأن سلوكه تجاه غيره من ذوي المعتقد والهوية المغايرين تعبيراً عن مأزق داخلي يعيشه قِيميًا واجتماعيًا، تمامًا كما تنعكس

كانت حاضرة في الأزمة بشكل واضح، حتى قبل انفجار قضية الرسوم الكاريكاتورية؛ حيث كانت «واشنطن تايمز» الليكودية تنشر حلقات تحذّر من خطر «دولة إسلامية في أوروبا» ركّزت فيها على البوسنة، فهي «كوري دور» القاعدة إلى أوروبا، والمقاتلون البوسنيون المسلمون انضموا في العراق إلى «الإرهابيين الإسلاموفاشست في حملتهم البربرية على القوات الأمريكية».

مما ركّز على دور المسلمين في الخطاب والسلوك الجديد في مجتمعاتهم الأوروبية، ومجتمعاتهم الجديدة في الغرب.

خلاصات من دروس الأزمة:

وكغيره من الأحداث التي اكتنفت الفضاء الإسلامي مراراً، اندلع حادث الرسوم الدانماركية وتتابعت تداعياته وآثاره منذ (سبتمبر ٢٠٠٥) بصورة أسهب معها في تقديم التفاصيل، وسرد الأحداث والجزئيات، حتى كأن سيل هذه التفاصيل العارم منعت النفاذ -إلا قليلاً- إلى عمق الحدث وأبعاده، وغبار تلك الجزئيات الثائر حجب مسار البحث المستشرف في مراميه واستخلاص دروسه.

لقد صار الانشغال بسؤال «الكيف» عن سؤال العلة والسبب سمة في التعاطي مع كثير من الأحداث التي تمر بعالم الإسلام وأهله، ما يمنع من الاستفادة من خلاصات ودروس تلك الأحداث، وإذا صح أن يتم التساهل مع هذه السمة في القضايا الجزئية، والأحداث العابرة، فإن حدثاً بحجم وآثار وامتدادات قضية الرسوم لا ينبغي إلا أن يكون محطة توقف؛ لموقعته في سياقه على ضوء ما سبقه، وتأسيساً للاستنتاج والفهم لما يأتي بعده، حتى لا تنطفئ جذوته الفكرية، بمجرد تراجع وقائعه وتفصيله وانطفاء إثاراته العاطفية.

ولعل هذه القراءة الأولية التركيبية للحدث وآثاره تمدنا بعدد وفير من الدروس، بقدر ما تثير من الإشكالات والأسئلة التي تهتم أكثر من مجال من مجالات تفاعل القضية. بدءاً من تلك المتصبة على

ملف التقرير - المقاومة

غير أن ذلك كله لم يكن ليحجب الدور المتعاضم للفعل الشعبي في هذه الأزمة، وما أصبح له من تأثيرات متعاظمة استطاعت في أكثر من محطة أن تؤثر بشكل مباشر على مسار الأحداث وصناعة القرارات، ناهيك عما أفرزته هذه الأحداث من نُخب شعبية فاعلة ومؤثرة تعي نبض الجماهير، وتلتحم بها وتتفاعل معها، في نفس الوقت الذي تمارس فيه دورها في التوجيه، وإيداع وسائل الضغط والمقاومة الجماهيرية السلمية، بل وتحمل مسؤولية موقعها في

أدواء الجسد الداخلية، طفحًا جلدًا، وآلامًا وحُمى، أو كما تتجلى الاضطرابات النفسية في مشكلات سلوكية تجاه النفس أو الغير. وهذه موضوعات تقتضي التنويه؛ نظرًا للمواقف الصادرة عن بعض الكاتبين الذين يُفترض فيهم أنهم يمثلون المعتدى عليهم، فقد سارع كثير منهم بَعِيد اندلاع حملة الاحتجاج وانطلاق «فعاليات النصر» بعد أن أجهضت كل المساعي السابقة لاحتواء الأزمة بالقنوات الدبلوماسية والقانونية، سارعوا بعد أسبوع



القيادة الشعبية لحملة النصر، كما وقع مثلاً عندما رفع متظاهرون مسلمون في لندن يوم الجمعة الأول من شهر فبراير ٢٠٠٦ لافتات تُحَرِّض على قتل مَنْ يَسُبُّونَ نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، فطالب الكثيرون -بمن فيهم بعض زعماء الجالية الإسلامية في بريطانيا- بتقديم هؤلاء إلى المحاكمة. ويبدو أنه ليس من خيار آخر لمواجهة كمّ التحديات والأزمات المتلاحقة التي تمس المسلمين وغيرهم في عالم اليوم، من قوى المادية اللإنسانية، والاستبداد والطغيان والهيمنة المتعددة الأوجه، سوى مسار الفعل الشعبي العام والمؤثر، والذي يستمد قوته وثباته واستمراره أساسًا من عقيدة الإنسان وقيمه وإرادته، وهي أشد عناصر التأثير في ميزان التدافع بين البشر.

واحد إلى مساواة المسيء أولاً بمن رفض الإساءة واحتج عليها.

ثم ما لبثت بعض التحليلات أن مالت -بمجرد ما بدت بعض أخطاء ردود الفعل- إلى التركيز على «أزمة المعارضين» على الرسوم ومحاولة الإساءة، ولعلمهم عند هذا المستوى تحديداً كانوا قد تماهوا تمامًا مع كثير من المواقف الغربية، التي انبعثت منها رائحة الاستهانة والاحتقار لكل من عبّر عن اعتراضه على ما اعتُبر إساءة عميقة له ولمعتقده.

وواحد من الأمثلة المعبرة ببلاغة عن هذا الاتجاه الكريه في تعاليه وتعالمه، كان رسمًا كاريكاتوريًا آخر نشرته الصحافة الفرنسية بعد اندلاع الاحتجاجات، يعيد تصوير شخص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو يقول بحسرة هذه المرة: «إنه للأسف محبوب من قبل أغبياء!»

معلومات إضافية

تطورات أزمة الرسوم:

أوصت وزارة الخارجية الدانماركية رعاياها بعدم زيارة ١٤ دولة عربية وإسلامية، بعد استهداف سفارة الدانمارك في دمشق، وقنصليتها ببيروت، وقالت وزارة الخارجية في بيان: إن «التطورات تُظهر أن الأزمة يمكن أن تمتد إلى دول أخرى».

وهذه الدول هي: المغرب والجزائر وتونس، وليبيا ومصر والسودان وعمان، والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والأردن، وإيران وباكستان وأفغانستان.

بيروت:

دعت الدانمارك رعاياها في لبنان إلى مغادرته في أعقاب إحراق قنصليتها في بيروت على خلفية نشر إحدى صحفها رسوماً مسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام.

وجاء هذا الإجراء بعد أن أحرق متظاهرون غاضبون مبنى القنصلية الدانماركية ببيروت، وسيارات تابعة للجيش اللبناني أثناء مسيرة تحولت إلى أعمال شغب؛ بعد إطلاق الشرطة الرصاص الحي والقنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين.

واقترح آلاف المتظاهرين القنصلية بعد أن اجتازوا قوات الأمن التي حاولت منعهم من الاقتراب من مقر مكتب القنصلية الدانماركية في الأشرفية بشرق العاصمة بيروت.

كما جاب المتظاهرون عددًا من الشوارع، وهم في طريقهم لمبنى القنصلية، وحطموا بعض الممتلكات وواجهات العديد من المحلات التجارية وعددًا من سيارات المواطنين.

ووصف وزير العدل شارل رزق ما حدث بأنه «أمر جنوني وتواطؤ مع ناشري الرسوم الكاريكاتورية»، كما أدت هذه الاحداث إلى استقالة وزير الداخلية اللبناني من منصبه.

دمشق:

كان آلاف المتظاهرين المحتجين على نشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام قد اقتحموا سفارتي الدانمارك والنرويج في دمشق حيث أضرما فيهما النار.

وأحرق المتظاهرون كل المبنى الذي يضم أيضًا سفارتي شيلي والسويد، وهو مؤلف من ثلاثة طوابق.

تنديد أوروبي:

ونددت الدانمارك والنرويج بسورية لما وصفته بعدم وفائها بالتزاماتها الدولية، وقالت الدولتان: إن إخفاق سورية في اتخاذ الإجراءات اللازمة هو الذي سمح بتعرض سفارتي البلدين في دمشق لأعمال العنف، ووصفتا ذلك الإخفاق بأنه تصرف غير مقبول، وحثتا رعاياهما على مغادرة سورية.

ونددت المفوضية الأوروبية بأعمال الشغب والعنف التي شهدتها لبنان وسوريا، وشددت يوهانس ليتنبرغ المتحدث باسم المفوضية على التفهم الكامل لغضب مسلمي العالم، لكنها أشارت إلى أنه لا مبرر أبدًا لأعمال العنف التي صاحبت تلك الاحتجاجات في اليومين الماضيين.

وقالت ليتنبرغ: إن المطلوب حاليًا هو الحوار وتبادل الأفكار على أسس سلمية للتوصل إلى تفاهم ببناء.

وكان رئيس وزراء الدانمارك فوج راسموسين قد قال: إنه لن يعتذر أبدًا عن نشر صحيفة يلاندر بوستن الدانماركية للرسوم المسيئة للنبي محمد (عليه الصلاة والسلام) لكنه أوضح أنه «مستاء» من الإهانة التي نجمت عن نشر الرسوم.

وقال وزير الخارجية الدانماركي بير ستينغ مولر: إن بلاده لم ترتكب أي كفر في موضوع نشر الصور، وإن على الدول العربية إبلاغ شعوبها بما أسماه الوجهة الصحيحة، مضيفًا أنها مطالبة أيضًا بضمان أمن السفارات.

وأكد مولر أنه بعث رسالة إلى نظرائه العرب دعاهم فيها للحوار، معتبرًا أن الحوار ونبذ العنف هو الحل الوحيد للأزمة.

لا توجد أعذار:

حمّل الرئيس الأمريكي جورج بوش الحكومة السورية مسؤولية إحراق سفارتي الدانمارك والنرويج في العاصمة السورية احتجاجًا على الصور المسيئة للنبي الكريم، قائلًا: إن مثل هذا العنف لا يمكن أن يحدث دون موافقة الحكومة.

وقال متحدث باسم البيت الأبيض: إنه لا توجد أعذار يمكن قبولها بشأن الأضرار التي لحقت بالبعثات الدبلوماسية. وأضاف المتحدث «أن واشنطن تدين بأشد العبارات الضرر الذي لحق بالسفارتين الدانماركية والنرويجية، والذي امتد أيضًا لسفارتي شيلي والسويد».

وقال المتحدث: «إن فشل سورية في توفير الحماية للسفارات في ضوء توفر معلومات عن أعمال عنف مخطط لها لا يمكن قبول أي أعذار بشأنه».

واتهمت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس إيران وسوريا بالتحريض على أعمال العنف المعادية للغرب، التي جرت إثر نشر الرسوم المسيئة للرسول الكريم.

في المقابل أعربت الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي والاتحاد الأوروبي عن القلق العميق من الغضب المنتشر في العالم الإسلامي، ودعت المنظمات الثلاث إلى ضبط النفس وإلى الحوار.

نضامن مع الدانمارك:

وعبرت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن رفضها ما أسمته الأعمال العنيفة للمسلمين الغاضبين من نشر الرسوم المسيئة.

ورفضت ميركل تدخل الحكومة والدولة لمنع الصحف الألمانية من إعادة نشر الرسوم؛ عملاً بما أسمته حرية التعبير، وعبرت المستشارة الألمانية عن إحساسها بأن هذا الموقف هو موقف جميع الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي، وأضافت يجب أن «لا تشعر الدانمارك بأنها معزولة»، في إشارة إلى المقاطعة التي تتعرض لها منتجات هذه الدولة من قبل المسلمين في العالم.

وحدث وزير الخارجية الألماني فرانك فالتر شتاينماير على احترام حرية الصحافة وحرية الدين في آن واحد، وقال: «يجب أن نحول دون الوصول إلى موقف يعتقد فيه الناس أنه يتحتم علينا الاختيار بين هاتين الحريتين».

غزة:

في غزة قام عشرات الفلسطينيين باقتحام مقر الاتحاد الأوروبي، ورشقوا المقر بالحجارة؛ احتجاجاً على الرسوم الكاريكاتورية.

جاكرتا:

وفي إندونيسيا اقتحم المتظاهرون مقر السفارة الدانماركية، وأحرقوا العلم الدانماركي، فيما أدان الرئيس الإندونيسي سوسيلو بامبانغ يوديونو الرسوم المسيئة، لكنه دعا الإندونيسيين للهدوء.

وطالب المتظاهرون حكومات بلادهم بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدانمارك والدول الأوروبية المعنية، ودعوا لمواصلة المقاطعة الاقتصادية للمنتجات الدانماركية.

العواصم الأوروبية:

وامتدت حالة الغضب التي تسود المسلمين إلى العواصم الأوروبية، وفي الدانمارك تظاهر نحو

مائة من اليسار احتجاجاً على موقف اليمين المتطرف الذي أيد نشر الرسوم المسيئة. وقال المتظاهرون: إنهم جاءوا ليقولوا: إنهم ضد المظاهر العنصرية ضد مسلمي الدانمارك والعالم. وفي لندن خرج مئات المتظاهرين تنديداً بالرسوم المسيئة، وأحرقوا العلم الدانماركي ورشقوا السفارة الدانماركية بالبيض، كما عبّر المسلمون في فرنسا عن استيائهم من الإساءة التي تضمنتها الرسوم الكاريكاتورية.

الفاتيكان:

أعلن الفاتيكان أن الحق في حرية التعبير لا يشمل الحق في إهانة المعتقدات الدينية.

تداول مرفوض:

انتقد رئيس الوزراء البولندي كازميرس مارسيسكيويتس صحيفة أعادت نشر الرسوم المسيئة وقال: إن ما نشرته صحيفة «رزيكزبوسوليتا» كان بمثابة تطاول على المسلمين وجميع الداعين إلى التسامح الديني.

وأضاف مارسيسكيويتس أن الصحيفة تجاوزت حدود حرية التعبير، وأن وسائل الإعلام لا يحق لها إثارة الكراهية أو نشر العداة.

وأدانت رئيسة الحكومة النيوزيلندية هيلن كلارك قيام اثنتين من صحف بلادها بنشر الرسوم وقالت: إن ذلك يمكن أن يُعرّض بلادها لعقوبات ومقاطعة اقتصادية.

وأعلنت كبرى الصحف الأسترالية من بينها صحف «ديلي تلغراف» و«هيرالد صن» و«سيدني مورنينغ» أنها لا تعترم نشر الرسوم الكاريكاتورية للنبي الكريم.

وقال رئيس تحرير ديلي تلغراف: إنه لن يكون من الحكمة نشر تلك الرسوم؛ نظراً لأعمال العنف التي اندلعت مؤخراً بين أستراليين ولبنانيين في أحد شواطئ سدني.

مراحل تطور أزمة الرسوم المسيئة للرسول ﷺ:

صحيفة يولاندز بوستن الدانماركية:

* في ٣٠/٩/٢٠٠٥ نشرت صحيفة يولاندز بوستن المحافظة الأوسع انتشاراً في الدانمارك تحت عنوان «وجوه محمد» ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وطالب ممثلو المسلمين في الدانمارك بسحب هذه الرسوم والاعتذار رسمياً عن نشرها.

* وفي ١٢/١٠/٢٠٠٥: رئيس تحرير الصحيفة الدانماركية يعلن تلقيه تهديدات بالقتل، والصحيفة توظف حُرَّاساً لحماية صحفييها وهيئة تحريرها في كوبنهاغن.

«مغازينت» المجلة المسيحية النرويجية:

في ١٠ / ١ / ٢٠٠٦ نشرت بدورها المجلة المسيحية النرويجية «مغازينت» - التي توزع على نطاق خاص وباسم «حرية التعبير» - الرسوم بترخيص من صحيفة «يلاندز بوستن» الدانماركية. وأعلن رئيس تحرير المجلة النرويجية بدوره بعد يومين أنه تلقى تهديدات بالقتل.

صحيفة فرانس سوار الفرنسية:

وفي ١ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت العديد من الصحف الأوروبية، وبينها صحيفة «فرانس سوار» الفرنسية باسم حرية التعبير الرسوم. ومنعت المغرب وتونس توزيع عدد «فرانس سوار» الذي نشرت فيه الرسوم، كما أقيل مدير تحرير الصحيفة.

صحيفة لوموند الفرنسية:

في ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت صحيفة لوموند الفرنسية الشهيرة رسمًا للنبي الكريم احتل نصف مساحة صفحتها الأولى تحت توقيع رسام الصحيفة بلانتو، كما نشرت افتتاحية بعنوان رسوم كاريكاتورية حرة في نفس العدد.

* وصور بلانتو في رسمه وجه النبي محمد، مستخدمًا بدل الخطوط جملة مكتوبة بخط اليد في كل الاتجاهات يجب أن لا أرسم محمدًا، فيما ذكرت الصحيفة في افتتاحيتها أنه يمكن للمسلم أن يشعر بالصدمة بسبب رسم الرسول؛ غير أنه لا يمكن للديمقراطية إنشاء شرطة للرأي على حساب الاستهانة بحقوق الإنسان.

صحيفة ماجيار هيرلاب المجرية:

وفي نفس التاريخ ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت صحيفة «ماجيار هيرلاب» المجرية رسمًا ساخرًا يظهر فيه إمام يأمر مفجرين انتحاريين بالتوقف؛ لأن الجنة نفذ ما لديها من الحور العين؛ على حد زعم الصحيفة.

صحيفة ليبراسيون الفرنسية:

في ٣ / ٢ / ٢٠٠٦ خصّصت صحيفة ليبراسيون الفرنسية ست صفحات لقضية الرسوم الكاريكاتورية للنبي الكريم، وخصصت رسمين اثنين من نفس الرسوم التي نشرتها الصحيفة الدانماركية، وهو ما ينطبق على أسبوعية «شارلي إبدو» التي قررت إعادة نفس الرسوم في عددها القادم.

صحيفة شيحان الأردنية:

في ٣ / ٢ / ٢٠٠٦ أعادت صحيفة شيحان الأردنية نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أصدر المدعي العام قرارًا باعتقال رئيس تحرير الصحيفة الأسبوعية جهاد المؤمني، كما أمر بفتح تحقيق مع المسؤولين في صحيفة «المحور» الأسبوعية؛ لقيامها بنشر رسوم مشابهة الشهر الماضي.

صحيفة فلادلفيا أنكورير الأمريكية:

في ٤ / ٢ / ٢٠٠٦ أعادت بعض الصحف الأمريكية نشر نفس الرسوم المسيئة، ومن أهمها صحيفة فلادلفيا أنكورير، فيما امتنعت صحف من بينها نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ويو إس إيه توداي عن نشرها.

صحيفة ساراواك تريبيون الماليزية:

في ٦ / ٢ / ٢٠٠٦ قدم رئيس صحيفة ساراواك تريبيون الماليزية استقالته بعد إعادة الصحيفة لنشر الرسوم المثيرة والمسيئة للرسول الكريم.

صحف ووسائل أوروبية أخرى:

كما نشرت عدة صحف أوروبية أخرى من بينها «إيه بي سي» و«بيربوديكو دو قطالونيا» الأسبانية وصحيفة دي فيلت الألمانية بعضًا من تلك الرسوم، وفي نيوزيلندا نشرت صحف تلك الرسوم من أشهرها صحيفة دومينيون بوست الشهيرة.

وفي ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ انضم تلفزيون «بي بي سي» لوسائل الإعلام التي نشرت الرسوم المسيئة، وبررت «بي بي سي» الإجراء الذي اتخذته برغبتها في مساعدة المشاهدين على فهم المشاعر القوية التي أثارها تلك الرسوم في العالم.

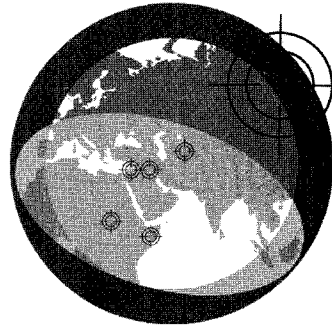
وزارة الإعلام الكويتية، إدارة رصد الأخبار،

www.news.gov.kw / files / documents / ٦ - دانها.رك.doc



الباب الثالث العالم الإسلامي

- عدنان أبو عامر هل تراجع مشروع إسرائيل الكبرى؟
د/ ضيف الله الضعيفان العلاقات الأمريكية الإيرانية «الوجه الآخر»
أ.د/ حمدي عبد الرحمن التدخل الدولي في السودان وأثره «عربياً وإفريقياً»
د/ جلال الدين صالح المحاكم الإسلامية في الصومال،
ومستقبل القرن الإفريقي
د/ محمد مورو استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي
د/ ليلي بيومي ظاهرة الهجوم على الحجاب
ممدوح الولي الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات
الأوراق المالية «التجربة العربية»
د/ عادل موسوي المغرب العربي: التفاعلات المحلية
والإقليمية والإسلامية



هل تراجع مشروع «إسرائيل» الكبرى؟

عدنان عبد الرحمن أبو عامر

باحث فلسطيني في الشؤون الإسرائيلية

ملخص البحث:

بعد سنوات من المعاناة الإسرائيلية بفعل تواصل المقاومة، التي شهدت تطورًا مطردًا خلال انتفاضة الأقصى، اتجهت «إسرائيل» نحو الانحسار الذي شكّل العنوان الأبرز للسلوك الإسرائيلي خلال أعوام الانتفاضة الأخيرة.

ومثلت فكرة الجدار معلمًا بارزًا في هذا الانزواء؛ حيث ينطوي قرار إنشاء الجدار على أبعاد سياسية وأمنية ترتبط مباشرة بالتوجه الإسرائيلي نحو الانحسار، أهمها: الاعتراف بالفشل أمام المقاومة، والعجز عن مواجهتها بالأساليب العسكرية، خاصة أن المستوطنات التي ستبقى خارج الجدار ستكون هدفًا جيدًا للمقاومة.

منذ إنشائها قبل حوالي ستين عامًا قامت نظرية الأمن الإسرائيلية على ما يعرف بـ«قوة الردع»، التي توفر على «إسرائيل» مهمة شتّى حرب هنا، وخوض مواجهة هناك، ورغم الأفكار الإبداعية التي تفتقت عنها قريحة الخبراء الإسرائيليين، فإن نظرياتهم الأمنية لم تحقق «لإسرائيل» سوى المزيد من التراجع.

ومنذ اندلاع انتفاضة الأقصى، أخذت النظريات الأمنية الإسرائيلية تتآكل ويظهر فشلها، وعجزت جميعها عن توفير الحماية لجيش عملاق تراجع أمام مجموعة من مقاتلي المنظمات المسلحة، وكل ما حدث في قطاع غزة والضفة الغربية خلال العام ٢٠٠٦ بدا وكأنه تأكيد على نظرية «بيت العنكبوت».

كما أوضحت الأحداث أن الأمن الإسرائيلي أصيب في مقتل، في عدد من المحطات أهمها تواصل المقاومة في استهداف العمق الإسرائيلي، فضلاً عن الضعف الملحوظ في الروح المعنوية التي سكنت الأجيال الإسرائيلية.

وجاء صعود المقاومة كقيادة مصحوبًا بخشية حقيقية وصلت إلى حد التهديد المصيري لمستقبل دولة الكيان؛ لأن فوز حماس بالنسب التي حصلت عليها جاء أبعد ما يكون عن التوقعات الاستخباراتية الإسرائيلية مما يعتبر إحقاقًا من الطراز الأول.

وتعيش «إسرائيل» منذ سنوات عديدة أزمة حقيقية تتمثل في غياب جيل التأسيس الذي رافقها مع بداياتها الأولى، سواء بوفاة عدد منهم، أو باعتزال عدد آخر للحلبة السياسية.

منذ اللحظة الأولى لاحتلال القوات الأمريكية للعراق والأمال الإسرائيلية معقودة على عراق جديد، يخرج من دائرة العدا «لإسرائيل»، لكن التطورات الحالية في العراق، والفشل الأمريكي أمام المقاومة كان له تأثير إضافي كبير على الانحسار الإسرائيلي.

أفكار ومقتطفات

- رغم التحذيرات الساخنة التي أطلقها كبار قادة دولة الكيان من أن دولتهم تشهد انخفاضاً في مستوى الأمن الداخلي، وتعاضماً للأخطار والتهديدات الداخلية والخارجية، فما زال الخوف يسيطر على جموع كثيرة من العرب والمسلمين، لاسيما النخب السياسية والثقافية والفكرية منهم، الذين ما زالوا يتصورون إسرائيل «بُعْبَعًا» مخيفًا، غير قابل للهزيمة أو الانكسار.

- لم يكن الاستنتاج بأن بناء الجدار جاء معبرًا عن انكسار إسرائيليين أمام قوى المقاومة مجرد وجهة نظر، بقدر ما كانت إقرارًا جاء على ألسنة عدد من رموز الحكم والسياسة الإسرائيليين، ومنهم الجنرال «آفي إيتام» زعيم حزب المفدال، و«بنحاس فالنتشتاين» الناطق باسم مجلس المستوطنين «يشع»، و«يوفال شتاينتس» الرئيس السابق للجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست عن الليكود.

- التراجع الحقيقي لنظرية الأمن الإسرائيلية تَبَدَّى في قدرة المقاومة على إيلام المستوطنين، ولعل التعبيرات التي خرج بها الإعلام الإسرائيلي تؤكد ذلك، ومنها: دم.. عرق ودموع.. مع التشديد على الدم.. هذا هو اختبار الدولة.. اختبار التراث الاجتماعي.. اختبار قدرة الصمود.. قدرة امتصاص الضربة.

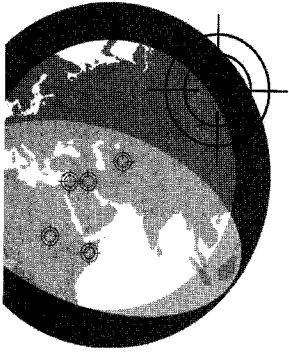
- إذا انتصرت «إسرائيل» في خمسين حربًا، فإنها لن تُخضع العالم العربي، لكن يكفي العرب أن يتصروا في حرب واحدة من أجل القضاء على إسرائيل! (بن غوريون).

- منذ إعلان قيام دولة «إسرائيل» عام ١٩٤٨، دعا جميع رؤساء الحكومات المتعاقبة -بدرجات نجاح متفاوتة- اليهود للهجرة «لإسرائيل» والإقامة فيها، إلا أن «أرييل شارون» ذهب بعيدًا جدًّا، حين دعا يهود فرنسا للهجرة «فورًا».

- كانت آخر الأفكار التي ابتدعها الإسرائيليون لمحاولة كسب المعركة الديمغرافية أمام الفلسطينيين، ما قدمه وزير المهام الاستراتيجية الجديد وزعيم حزب «إسرائيل بيتنا» أفيغدور لبيرمان، حين طرح مشروعًا يقضي باستبدال الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة منذ العام ١٩٦٧، بتبادل أراضٍ على أساس تواجد سكاني؛ بحيث أراد ضم منطقة المثلث في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، إلى الضفة الغربية، مقابل الاحتفاظ بكامل المستوطنات في الضفة.

- اعتُبر العام ٢٠٠٤ أكثر الأعوام التي سقط فيه إسرائيليون في غزة، إذ قُتل فيه ٤٦ إسرائيليًّا، أي ثلث القتلى، تلاه العام ٢٠٠٢ الذي سقط فيه ٣٥ قتيلاً، فالعامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٣، وسقط في كل منهما ١٥ قتيلاً، بينما سقط خلال ٢٠٠٥ وهو عام الانسحاب ١٢ قتيلاً، حيث نفذت قوى المقاومة ١٢ عملية فدائية مشتركة قتل خلالها ٥٩ إسرائيليًّا، إلا أن الإحصائيات العديدة التي أصدرتها قوى المقاومة، تشير

- إلى أنها نفذت في قطاع غزة ٤٠٠ عملية عسكرية خلال الانتفاضة، قتل خلالها ١٦٧ إسرائيليًا.
- تواترت اعترافات القادة العسكريين بأن اضطراب جيشهم لتنفيذ خطة فك الارتباط، والانسحاب من قطاع غزة، يمثل تراجعًا واضحًا للمشروع الصهيوني، وانتصارًا للخيار المقاومة، وجاءت الاعترافات لتؤكد أنه كلما مر الوقت فسيزداد الوضع خطرًا، وسيكون فشل الانسحاب محسوسًا أكثر فأكثر.
- أعلنت «إسرائيل» أن المشروع الدولي الذي اتفق العالم كله بشأنه؛ للقيام بدور وظيفي يحمي مصالحها، المسمى «السلطة الفلسطينية»، أصبح رهينة بيد أكبر عدو «إسرائيل» في المنطقة، وهي حماس؛ مما يمنح «إسرائيل» فرصة تحريض العالم على تبني موقفها بمحاصرة الحكومة الشرعية سياسيًا ومقاطعتها ورفض القيود والشروط عليها.
- أولت الحكومة الإسرائيلية اهتمامًا بالغًا للحصار الاقتصادي والمالي الذي فرضته على حكومة حماس، من خلال تعطيل اتفاقية العائدات الجمركية، في ظل وجود ما يزيد عن ١٢٥ ألف موظف في صفوف السلطة الفلسطينية الذين يحتاجون صبيحة كل آخر شهر ما قيمته ١٥٠ مليون دولار كرواتب شهرية.
- استخدمت «إسرائيل» سيطرتها على المعابر التجارية من وإلى الضفة والقطاع للضغط على الفلسطينيين، في إعاقة وصول البضائع والسلع الأساسية والأدوية، وشل حركة البناء وشيوع الركود الاقتصادي، بمعنى أنها مارست عليهم حصارًا «غذائيًا» فضلًا عن «الحصار المالي»، مما أوقع حكومة حماس أمام جماهيرها بسؤال طويل عريض يتعلق بتوفير لقمة العيش.
- جرت العادة أن يقود المستوى السياسي نظيره العسكري؛ لأن القيادة العسكرية منوط بها تنفيذ أهداف سياسية بحتة، تُكلفها بها الحكومة التي تمثل المستوى السياسي، وقد أدت الأزمة القيادية في «إسرائيل» إلى أن تقود المؤسسة العسكرية الحكومة.
- بعد أكثر من ثلاث سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق، برزت وتكشفت الكثير من الشواهد العديدة على التورط الإسرائيلي فيما يحدث على أرض العراق.
- صرحت مصادر عسكرية إسرائيلية أن عدة وحدات عسكرية اجتازت الحدود، وتعمل في غرب وشمال العراق، وفي حين رفض «عاموس مالكا» رئيس الاستخبارات العسكرية الأسبق تأكيد الخبر أو نفيه، إلا أن الكثير من المصادر الإعلامية وثيقة الصلة بأجهزة الأمن أكدت أن المعلومة صحيحة، وأن الإسرائيليين الذين دخلوا العراق عددهم خمسة آلاف شخص، انطلقوا من قاعدة عسكرية في صحراء النقب.
- حشدت «إسرائيل» لوقف تراجع مشروعها كل الأدوات والوسائل المختلفة، لكن نجاحها في ذلك ليس ضرورة حتمية؛ ذلك أن هناك أسبابًا ذاتية وموضوعية تحول دون نجاحها، لعل أهمها بعض الشواهد الميدانية، وتلك المتعلقة بالحراك الحزبي البنيوي، الذي يعصف بالحياة السياسية الإسرائيلية.



هل تراجع مشروع «إسرائيل» الكبرى؟

عدنان عبد الرحمن أبو عامر

باحث فلسطيني في الشؤون الإسرائيلية

الخارقة، لكنه في الحقيقة منكمش، بل ويمضي في خططه السياسية والعسكرية حول الانطواء والانزواء، والعودة إلى حياة «الغيتو» التي أَلْفَهَا اليهود منذ قرون مضت.

مقدمة:

شهد العام ٢٠٠٦ تراجعاً إسرائيلياً ملموساً وواضحاً على مختلف الأصعدة، السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية، ولم يكن هذا التراجع وليد اللحظة، أو نتيجة لحدث سياسي هنا، ومواجهة عسكرية هناك، بل جاء أمراً طبيعياً في قراءة المؤشر البياني التنازلي، الذي تشهده «إسرائيل» منذ عدة سنوات.

ورغم التحذيرات الساخنة التي أطلقها كبار قادة دولة الكيان من أن دولتهم تشهد انخفاضاً في مستوى الأمن الداخلي، وتعاظماً للأخطار والتهديدات الداخلية والخارجية، فما زال الخوف يسيطر على جموع كثيرة من العرب والمسلمين، لا سيما التَّحَبُّ السياسية والثقافية والفكرية منهم، الذين ما زالوا يتصورون إسرائيل «بُعْبُعًا» مخيفًا، غير قابل للهزيمة أو الانكسار.

تحاول الدراسة الإفصاح عن الجوانب الخفية التي تشير -في مجملها- إلى أن هذا كيان يعيش فترة من أسوأ لحظاته، وأكثرها تراجعاً وانكساراً، رغم الانطباعات التي يعطيها بين الحين والآخر عن قدراته

أولاً: من الانتصار إلى الانكسار:

من «إسرائيل» الكبرى إلى الاحتماء خلف السور: بعد سنوات من المعاناة الإسرائيلية بفعل تواصل المقاومة، التي شهدت تطوراً مطرداً خلال انتفاضة الأقصى، اتجهت «إسرائيل» نحو الانحسار والانزواء، الذي شكّل العنوان الأبرز للسلوك الإسرائيلي خلال أعوام الانتفاضة الأخيرة.

وقد سبق هذا الانحسار قيام «إسرائيل» بـ «صب جام غضبها» على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ثم اختارت اللجوء إلى جدارها العنصري لتعميق «الكولونيالية» الداخلية، وعمدت إلى ممارسة السيطرة والتمييز تجاه الفلسطينيين، وأخذت هذه الممارسات تسير في منحى التعاضم والتفاقم في أعقاب الانسحاب من غزة. (١)

وعلى الرغم من أن الجيش الإسرائيلي أراد الظهور بصورة المنتصر الحقيقي في عملية بناء الجدار، ومن ثم تنفيذ الانفصال عن قطاع غزة، إلا أن استعراض القوة اللافت هذا، جعل إسرائيل تقف أمام نقطة

مواجهتها بالأساليب العسكرية، مما يشير إلى أن جميع العمليات التي نفذتها «إسرائيل» ضد المقاومة طوال سنوات الانتفاضة، لم تسفر عن هزيمتها وانتصار الجيش الإسرائيلي، بالعكس فقد أتى القرار الإسرائيلي ببناء الجدار إقرارًا بعدم القدرة على مواجهة قوى المقاومة، التي تغلبت على كل محاولات الضرب والإفناء رغم شراسة الهجوم عليها. (٣)

٢- لم يكن الاستنتاج بأن بناء الجدار جاء معبرًا عن انكسار الإسرائيليين أمام قوى المقاومة مجرد وجهة نظر، بقدر ما كان إقرارًا جاء على ألسنة عدد من رموز الحكم والسياسة الإسرائيليين، ومنهم الجنرال «آفي إيتام» زعيم حزب المفدال، و«نحاس فالتشتاين» الناطق باسم مجلس المستوطنين «يشع»، و«يوفال شتايتس» الرئيس السابق للجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست عن الليكود. (٤)

الإشكالات الأمنية للجدار:

وهي إشكالات تجعل فكرة بناء الجدار دون جدوى، لا سيما الحيلولة دون عمليات المقاومة، ومنها:

١- المستوطنات التي ستبقى خارج الجدار ستكون هدفًا جيدًا للمقاومة، وبالتالي تكرر تجربة لبنان حين ترسل الأمهات أبناءهن للدفاع عن المستوطنات، ثم يعودون في الأكفان، فيبدأ مسلسل جديد يضطر معه الجيش إلى إزالة تلك المستوطنات والانسحاب، وهذا ما حصل في قطاع غزة!

٢- ليس هناك جدار يقدم حلاً للمشكلة الأمنية في القدس والمناطق المكتظة بالسكان، خصوصًا أن إمكانية تجنيد شبان «استشهاديين» من هناك ستبقى واردة، لا سيما وأن ٩٥٪ من الاستشهاديين اجتازوا الخط الأخضر عبر المعابر، وليس عبر الحقول المفتوحة. (٥)

٣- ليس هناك جدار يمنع إطلاق نيران المدفعية، والأهم من ذلك هو حجم القوات المطلوبة لحراسة

تحول مهمة فيما بات يُعرف بـ «سيرورة» تفكك الجيش الإسرائيلي. (٢)

فكرة الجدار وبدايات الانحسار الصهيوني:

فكرة الجدار من حيث الأساس جاءت بابتداع من اليسار الإسرائيلي أصلاً، كوسيلة للوقاية من العمليات التي يبادر إليها المقاومون داخل ما يعرف بـ «الخط الأخضر»؛ لمنعهم من ذلك، ثم جاء اليمين ليتخذ من هذه الفكرة وسيلة ليحقق بعضًا من رؤاه الأيديولوجية في التوسع والاستيطان، وإبقاء السيطرة على كامل المناطق.

وفي قصة الجدار هناك الكثير من التشكل التدريجي المتصاعد المبالغت، فقد بدأ متواضعًا في حجمه؛ لإعطاء رد أمني مناسب، لكنه سرعان ما تغير ليتوافق مع رؤية استراتيجية معينة، وعلى الفور بعد العملية الاستشهادية التي نقّدها «سعيد الحوتري» أحد مقاتلي كتائب القسام بتل أبيب، وأسفرت عن مقتل ثلاثين إسرائيليًا وإصابة العشرات في الأول من يونيو/ حزيران ٢٠٠١، قوّرت الحكومة المصادقة المبدئية على مشروع خطة لمنع تسلل الأشخاص من المناطق الفلسطينية إلى داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨.

وبالرغم من أن رئيس الوزراء السابق «أرييل شارون» لم يكن يتفق أصلاً مع فكرة أي جدار يفصل بين «إسرائيل» وطموحاتها الإقليمية في الضفة الغربية بالذات، لكنه رغب في الوقت ذاته بصد الضغط الجماهيري المتزايد؛ الذي بات يرى وجوب مثل هذا العائق على سبيل الوقاية الأمنية، خاصة بعد أن وصلت عملية السور الواقعي إلى مربع الفشل الذريع، التي وضع لها شعار ضرب «البنية التحتية» للمقاومة.

مؤشرات الانحسار من بناء الجدار:

ينطوي قرار إنشاء الجدار على أبعاد سياسية وأمنية ترتبط مباشرة بالتوجه الإسرائيلي نحو الانحسار، أهمها:

١- الاعتراف بالفشل أمام المقاومة، والعجز عن

حيث حاول كل طرف إلحاق أكبر قدر من الضربات الموجعة بالطرف الآخر؛ حتى يقر بالقواعد الجديدة للمواجهة، مع إعلان «إسرائيل» ورغبتها بالقضاء على المقاومة، لكنها لم تتمكن!^(٨)

٢- الفشل الذي مُنيت به النظريات الأمنية، وتكرر عبر أكثر من محطة، بدءاً باستمرار قصف الصواريخ من غزة، مروراً بأسر الجنود، وانتهاء بخوض مواجهات عسكرية فاشلة مع المقاومين الفلسطينيين واللبنانية،

الجدار، وإذا لم يكن هناك حسم في ضرب من يقرب منه فلن يبقى طويلاً في مكانه.^(٦)

٤- لن يواصل رجال المقاومة استخدام ذات الطرق العادية للدخول، بل سيعمدون إلى أساليب جديدة، كاستخدام الشبان من عرب ٤٨، أو حفر الأنفاق، أو استخدام الهويات المزيفة، أو وسائل الطيران الخفيفة، وهذه بعض الأدوات التي أكدت يوميات المقاومة أنها بحوزة رجالها.^(٧)



دفع بالخبراء لطرح أسئلة ذات طبيعة لوجستية ربما تسببت بخسارة «إسرائيل» وتراجعها.^(٩)

٣- تراجع الأهداف المعلنة من القضاء الكلي على المقاومة، إلى الاكتفاء بنزع أسلحتها؛ وهكذا فإن اللغة التي استخدمها الجيش في بداية الانتفاضة توضح التغيرات التي طرأت في نهايتها، فلم يعد الحديث عن «معركة وجهها لوجه»، ولم يعودوا يعلنون «القضاء على العدو» و«استئصال الغول»، بل الاكتفاء بـ «التغلب عليه»!^(١٠)

٤- وصول القادة العسكريين والمسؤولين السياسيين في دولة الكيان إلى قناعة مفادها أن تحطيم قوة المقاومة، وإبادة نموذج حركة حماس هو هدف غير واقعي، ومن هؤلاء د/ «رؤوين إيرليخ»^(١١) الذي انتقد الأهداف الردعية الكبيرة التي وضعها

ثانياً: فشل النظريات الأمنية وعلامات الاندحار الصهيوني:

منذ إنشائها قبل حوالي ستين عامًا قامت نظرية الأمن الإسرائيلية على ما يعرف بـ «قوة الردع»، التي توفر على «إسرائيل» مهمة شن حرب هنا، وخوض مواجهة هناك، وقد راكمت «إسرائيل» عناصر نظريتها عبر سنين متواصلة، ومن خلال جهود جبارة، وعلى جميع المستويات، الأمنية والعسكرية، بما فيها النووية، ورغم الأفكار الإبداعية المتجددة التي تفتقت عنها قريحة الخبراء الإسرائيليين، فإن نظرياتهم الأمنية لم تحقق «لإسرائيل» سوى المزيد من التراجع على كل المستويات المادية والمعنوية، ومنها:

١- استمرار الصراع الدامي بين المقاومة و«إسرائيل»، والذي اتسم بقاعدة «عض الأصابع»؛

الإسرائيلية، فلم يعد الجيل الجديد راغبًا في القتال، ما دفع المؤرخ الإسرائيلي «بني موريس» للقول: ما هو جيد للفرد، ليس بجيد للمجموع، الإسرائيلي يريد أولاً فيلاً وسيارة، التطوع والتجنيد في الجيش مستمران، لكن الجيش أصبح حرفة وليس مهمة ذات رسالة، وبالتالي طرح السؤال بكل قسوة: هل نظرية «خيوط العنكبوت» كانت محقة؟ هل المجتمع الإسرائيلي أخذ في الضعف، أخذ في اللين، إلى أن ينهار أمام المقاومة الإسلامية الكبرى؟ (١٦)

٣- التراجع الحقيقي لنظرية الأمن الإسرائيلية تَبَدَّى في قدرة المقاومة على إيلام المستوطنين، ولعل التعبيرات التي خرج بها الإعلام الإسرائيلي تؤكد ذلك، ومنها: «دم.. عرق ودموع.. هذا هو اختبار الدولة.. اختبار التراث الاجتماعي.. اختبار قدرة الصمود.. قدرة امتصاص الضربة». (١٧)

أخيراً.. فإن نقطة الضعف الجوهرية التي كشفت عن الإخفاق الأمني الإسرائيلي، تتمثل في حقيقة تاريخية مفادها أن «إسرائيل» دولة لا تحتل الهزيمة، ولو لمرة واحدة، وهنا نستحضر كلام «بن غوريون» القائل: إذا انتصرت إسرائيل في خمسين حرباً، فإنها لن تُخضع العالم العربي، لكن يكفي العرب أن يتصروا في حرب واحدة من أجل القضاء على «إسرائيل»! وهذا يؤكد الحاجة الإسرائيلية الدائمة إلى إنجاز حسم سريع وحاد وأليم قدر الإمكان، من أجل إبعاد موعد النهوض العسكري والنقسي للخصم! (١٨)

ثالثاً: المشروع الصهيوني يخسر المعركة الديمغرافية:

منذ عدة عقود، و«إسرائيل» تعكف على إيجاد الحلول «السحرية» لمحاولة التغلب على التفوق الفلسطيني في عدد السكان، للدرجة التي جعلتها تصنّف التهديد السكاني كأحد التهديدات الرئيسة الماثلة أمام «إسرائيل» خلال السنوات القادمة، تحت اسم «القنبلة الديموغرافية». (١٩)

أصحاب النظرية الأمنية الإسرائيلية بقوله: كل من يفكر بإزالة قدرات حماس هو غير واقعي، يجب التفكير بمصطلحات: ماذا يمكن إنجازه؟ المتاهة الحمساوية تشدنا مرارًا وتكرارًا إليها! (١٢)

مظاهر فشل النظرية الأمنية الإسرائيلية:

منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، أخذت النظريات الأمنية الإسرائيلية تتآكل ويظهر فشلها، خطة إثر خطة، وعجزت جميعها عن توفير الحماية لجيش عملاق تراجع أمام مجموعة من مقاتلي المنظمات المسلحة، وكل ما حدث في قطاع غزة والضفة الغربية خلال العام ٢٠٠٦ بدا وكأنه تأكيد على نظرية «بيت العنكبوت»!

وجاء الانسحاب من غزة ليضع المزيد من نقاط الإضعاف الإضافي الذي طرأ على نظرية الأمن الإسرائيلية، وبلغ التأثير السلبي لتآكلها ذروته في أن «أرييل شارون» «رمز» القوة الإسرائيلية هو الذي أشرف على هذا الانسحاب، ومرة أخرى ساد الانطباع بأن «إسرائيل» غير قادرة على مواجهة ضغوط التنظيمات المسلحة التي تقودها حماس، وتفضل الانسحاب إلى ما وراء جدار حصين. (١٣)

لقد أوضحت الأحداث أن الأمن الإسرائيلي أصيب في مقتل في عدد من المحطات أهمها: (١٤)

١- تواصل المقاومة في استهداف العمق الإسرائيلي، وكما هزت العلميات الاستشهادية عملياً نظرية الأمن الداخلي قبل أعوام، جاء صاروخ القسام ليبدد الحلم نهائياً بأن تحارب «إسرائيل» وراء الحدود، وتبقى هي في مأمن داخلي مطمئن، بحيث بدأت تراود الإسرائيليين الشكوك في مفهوم «إسرائيل القلعة»، وفي جيش لم يستطع أن يحقق النصر الاستراتيجي الساحق. (١٥)

٢- كشف العام الأخير عن الضعف الملحوظ والمتزايد في الروح المعنوية التي سكنت الأجيال

هل تراجع مشروع إسرائيل الكبرى- عدنان عبد الرحمن أبو عامر

الديمغرافية، من خلال تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين المحتلة، إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تراجعًا ملحوظًا في أعدادها، للأسباب التالية:

١- النقص الحاد في الخزان البشري في الاتحاد السوفيتي السابق، بفعل الهجرة الكثيفة، وخصوصًا باتجاه فلسطين المحتلة، والمغادرة إلى دول أخرى.

٢- التدهور الأمني، والموت الذي يلاحق الإسرائيليين في كل مكان، منذ اندلاع انتفاضة أيلول ٢٠٠٠.

ويأتي التخوف الإسرائيلي من الموضوع الديموغرافي انطلاقًا من حقائق ميدانية تعيشها الأراضي الفلسطينية، سواء في أراضي العام ١٩٦٧ أو ١٩٤٨، ومن هذه الحقائق:

١- كل التوقعات الديمغرافية تشير إلى أن اليهود سيصبحون أقلية في نهاية العقد الحالي؛ نظرًا لارتفاع معدل الولادات لدى الفلسطينيين، وتراجع حركة هجرة اليهود «لإسرائيل»، بمعنى أن السكان اليهود اليوم ليسوا غالبية إلا بشكل بسيط بين البحر المتوسط

عدد المنشآت الاقتصادية المدمرة في التجمعات السكانية التي يمر فيها الجدار الفاصل حسب المحافظة وبعض خصائصها، آب/٢٠٠٣

المحافظة/ المنطقة	عدد المنشآت داخل الجدار	عدد المنشآت المدمرة			عدد العاملين في المنشآت المدمرة			مساحة المنشآت المدمرة بـ م ^٢	
		كلي	جزئي	المجموع	كلي	جزئي	المجموع	كلي	جزئي
جنين	٣١٧	٥	٠	٥	٢٠	٠	٢٠	٠	١٠٠٠
طولكرم	٤٧٣	٢٣	٠	٢٣	٦٠	٠	٦٠	٠	١٠٥٠٠
قلقيلية	٤١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
سلفيت	٥	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
القدس	١٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
بيت لحم	٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
المجموع	٧٥٠	٢٧	٠	٢٧	٨٠	٠	٨٠	٠	١١٥٠٠

مسح أثر الجدار الفاصل على التجمعات الفلسطينية التي يمر بها الجدار من أراضيها، آب/٢٠٠٣.
المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

٣- الانكماش الاقتصادي، وارتفاع معدل البطالة الذي بلغ ١٠٪ من القوى العاملة.

فشل إجراءات كسب المعركة الديمغرافية:

منذ إعلان قيام دولة «إسرائيل» عام ١٩٤٨، دعا جميع رؤساء الحكومات المتعاقبة - بدرجات نجاح متفاوتة - اليهود للهجرة «لإسرائيل» والإقامة فيها، إلا أن «أرييل شارون» ذهب بعيدًا جدًا، حين دعا يهود فرنسا للهجرة «فورًا».

كما قام بوضع الخطط اللازمة لاستجلاب يهود إثيوبيا «الفلاشا»، الذين يقدر عددهم بنحو ٢٠

ونهر الأردن، مقابل أن الفلسطينيين سيصبحون غالبية بين نهر الأردن والبحر المتوسط. (٢٠)

٢- يتبين من خلال الإحصائيات أن ٨١٪ من مجمل سكان «إسرائيل» من اليهود، ما يعادل ٥,٤٥ مليون نسمة، و١٩٪ من السكان عرب. (٢١)

٣- شكّل الانسحاب من غزة عنوانًا صارخًا للتخوف الديمغرافي، حيث بررت «إسرائيل» انسحابها بضرورة الحفاظ على طابعها «اليهودي»، بما يعني النقاء العرقي!

ورغم أن «إسرائيل» حاولت التغلب على المشكلة

٣- سيبلغ عدد السكان العرب ٧, ٥ ملايين نسمة سنة ٢٠١٠ مقابل ٣, ٦ ملايين يهودي، إذا استمرت نسبة النمو الديموغرافي على الوتيرة ذاتها، وخاصة في ظل عدم وجود معطيات رسمية حول حركة الهجرة إلى خارج إسرائيل؛ لأنه لا يمكن احتساب الأشخاص الذين يستقرون في الخارج قبل مرور فترة خمس سنوات، إلا أن الإعلام الإسرائيلي أورد أرقامًا تتراوح بين ١٠ و ١٥ ألف حالة مغادرة سنويًا منذ العام ٢٠٠٠. (٢٥)

رابعًا: حصاد المقاومة، الانسحاب من غزة كنموذج:

شكّلت المقاومة عنصرًا ضاغظًا على قوات الاحتلال بصورة واضحة، مما جعلته يتخذ القرار الاستراتيجي التاريخي بالانسحاب من قطاع غزة، وتبين ذلك من خلال الإحصائيات التي أصدرها الاحتلال ذاته، حيث قُتل ١٣٥ إسرائيليًا في غزة منذ بدء الانتفاضة، بينهم ١٠٦ من الجنود والضباط، و ٢٩ مستوطنًا، بينما أصيب المئات منهم بجراح، وتوضّح التطورات التي حفل بها قطاع غزة مدى تقدم المقاومة وتطور أساليبها؛ إذ بدأت بإطلاق الرصاص على السيارات والحافلات، من خلال الكمامات المسلحة، واقتحام المستوطنات، مرورًا بإطلاق الصواريخ بكافة أنواعها، وتفجير الدبابات والمدركات بعبوات كبيرة وذكية، وانتهاء بحفر الأنفاق تحت المواقع العسكرية وتفجيرها.

وقد اعتبر العام ٢٠٠٤ أكثر الأعوام التي سقط فيه إسرائيليون في غزة، إذ قُتل فيه ٤٦ إسرائيليًا أي ثلث القتلى، تلاه العام ٢٠٠٢ الذي سقط فيه ٣٥ قتيلًا، فالعامين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٣ وسقط في كل منهما ١٥ قتيلًا، بينما سقط خلال ٢٠٠٥ وهو عام الانسحاب ١٢ قتيلًا، حيث نفّذت قوى المقاومة ١٢ عملية فدائية مشتركة قتل خلالها ٥٩ إسرائيليًا، إلا أن الإحصائيات العديدة التي أصدرتها قوى المقاومة، تشير إلى أنها

ألفًا حتى نهاية عام ٢٠٠٧، طبعًا مع شدة الخلاف المحتدم بين الحاخامات اليهود بشأن صحة انتسابهم للديانة اليهودية، حيث أكد الحاخام «روزن عزرا» أحد المسؤولين عن استلام طلبات الهجرة، أن ٣١٪ من «الفلاشا» المستجلبين على مدى السنوات الثلاث الماضية لا ينتمون للديانة اليهودية من قريب أو بعيد، معلنًا أن ثلث المهاجرين الإثيوبيين إلى الكيان الإسرائيلي ليسوا يهودًا! (٢٢)

وكانت آخر الأفكار التي ابتدعتها الإسرائيليون لمحاولة كسب المعركة الديمغرافية أمام الفلسطينيين، ما قدّمه وزير المهام الاستراتيجية الجديد وزعيم حزب «إسرائيل بيتنا» أفيغدور ليرمان، حين طرح مشروعًا يقضي باستبدال الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة منذ العام ١٩٦٧، بتبادل أراضي على أساس تواجد سكاني، بحيث أراد ضم منطقة المثلث في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، إلى الضفة الغربية، مقابل الاحتفاظ بكامل المستوطنات في الضفة. (٢٣)

ومع ذلك، فقد أشارت المعطيات الميدانية إلى فشل «إسرائيل» في معرفتها الديموغرافية مع الفلسطينيين ومن ذلك:

١- قبل نهاية العقد الحالي سيصبح اليهود أقلية في الأراضي التي تضم فلسطين المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة، لاسيما وأن السكان اليهود اليوم ليسوا غالبية إلا بشكل بسيط بين البحر المتوسط ونهر الأردن.

٢- لدى السكان العرب معدلات ولادة مرتفعة أكثر بكثير من السكان اليهود، الذين تزداد أعدادهم بفضل موجات الهجرة التي تستمر في التراجع، بحيث إن اليهود لا يشكلون الغالبية اليوم أيضًا؛ لأن قرابة ٣٠٠ ألف من القادمين الجدد من دول الاتحاد السوفيتي السابق ليسوا يهودًا، ويتم احتسابهم في خانة «يهود وآخرون» في تقارير دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية فقط. (٢٤)

لحركة حماس ولفكر المقاومة، وبإمكان الفلسطينيين أن يعتبروا عن فرحتهم بهذا النصر الكبير، الذي لم يكن له مثيل في كل مواجهات دولة إسرائيل. (٢٩)

وبالتالي جاءت العمليات الأخيرة للمقاومة قبيل وبعيد الانسحاب من غزة، الدليل الأوضح على قدرة المقاومة على العمل في ظل ظروف صعبة، مما دفع بمراسل الشؤون الفلسطينية «يورام بن نور» للتعليق على الانسحاب من غزة بقوله: سواء قبلنا أم رفضنا، فإن حماس ستظهر للعالم على أنها هي التي أخرجتنا من غزة، لن نفعنا أي شيء آخر! (٣٠)

ومع ذلك الإقرار بفشل إجراءات الجيش العسكرية ضد قوى المقاومة، بدليل تمكنها من ترميم قواها وإعادة تنظيم خلاياها خلال فترة قياسية، فقد تولدت لدى الإسرائيليين -عسكريين ومحللين- وجهات نظر جديدة فحواها أن ما يسمى «البنية التحتية للمقاومة» ليست بنية مادية

يمكن تدميرها بعملية عسكرية، وإنما هي بنية معنوية كامنة في وجدان كل فلسطيني، ولعل هذا ما قصده ضابط إسرائيلي كبير، وهو بصدد استعراض جهود الأجهزة الأمنية في القضاء على قوى المقاومة، حيث قال: لقد نجحنا في تصفية كل الخلايا العسكرية، وبقيت أماننا خلية واحدة فقط عدد أفرادها ٥، ٣ مليون فلسطيني! (٣١)

خامساً: صعود المقاومة كقيادة:

توقفت «إسرائيل» ملياً أمام الانتصار الذي حققته حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في الانتخابات المحلية والتشريعية في أوائل العام ٢٠٠٦، وقد جاء هذا التوقف مصحوباً بخشية حقيقية وصلت إلى حد تهديد مستقبل دولة الكيان؛ لأن فوز حماس بالنسب التي حصلت عليها جاء أبعد ما يكون عن التوقعات الاستخبارية التي رصدتها المخابرات الإسرائيلية

نفذت في قطاع غزة ٤٠٠ عملية عسكرية خلال الانتفاضة، قتل خلالها ١٦٧ إسرائيلياً. (٢٦)

وقد تواترت اعترافات القادة العسكريين بأن اضطراب جيشهم لتنفيذ خطة فك الارتباط والانسحاب من قطاع غزة، يمثل تراجعاً واضحاً للمشروع الصهيوني، وانتصاراً لخيار المقاومة، وجاءت الاعترافات لتؤكد أنه كلما مر الوقت فسيزداد الوضع خطراً، وسيكون فشل الانسحاب محسوساً أكثر فأكثر، وسيجد الإسرائيليون أنفسهم يواجهون مملكة «الإرهاب»- كما وصفوها- القادرة على إطلاق صواريخ أكثر، وذات مدى أبعد، وفاعلية أكبر،

وسيلعب تهديدها إلى عسقلان واسدود والتعب، ولن يكون بالإمكان علاج هذا التهديد بالهجمات الجوية فقط!

كما ستكون النتيجة الطبيعية لهذا الانسحاب تعزيز ما وصفوه بـ «الإسلام الراديكالي» في المنطقة كلها، وستنشئ

المقاومة تهديداً استراتيجياً للقدس المحتلة ومطار بن غوريون، ولن تكون صواريخ القسام مشكلة مدينة سدروت فقط؛ لأنها ستبلغ مداخل البيوت في تل أبيب ذاتها! (٢٧) ولذلك جاء اعتراف الجنرال «أفي ديختر» الرئيس السابق لجهاز المخابرات (الشاباك)، ووزير الأمن الداخلي الحالي حين قال: لا أحد يستطيع إنكار أن الفلسطينيين حققوا إنجازاً كبيراً بدفع «إسرائيل» لإخلاء مستوطناتها من قطاع غزة دون مقابل سياسي، وبالتالي فإن الاستنتاج الذي توصلوا إليه أن نضالهم المسلح أثمر انتصاراً على الدولة العبرية. (٢٨)

وجاء «بنيامين نتنياهو» رئيس الوزراء ووزير المالية الأسبق، الذي استقال من الحكومة احتجاجاً على خطة الانسحاب من غزة؛ ليكون أكثر صراحة حين أعلن أن خطة الانسحاب من غزة تمثل انتصاراً هاماً

تواترت اعترافات القادة العسكريين بأن اضطراب جيشهم لتنفيذ خطة فك الارتباط والانسحاب من قطاع غزة، يمثل تراجعاً واضحاً للمشروع الصهيوني، وانتصاراً لخيار المقاومة

عن تحول السلطة لـ «كيان إرهابي»! وإفقادها «الشرعية الدولية»! (٣٥)

٢- على الصعيد العسكري: التصعيد الميداني غير المسبوق الذي اعتُبر «هدية» لحكومة حماس، من خلال سياسة الاغتيالات والاعتقالات والاجتياحات، فسقط العشرات من الشهداء، وأصيب المئات، واعتقل الآلاف خلال بضعة أشهر من عمر الحكومة، وهي سياسة «إبقاء الأرض مشتعلة» تحت أقدامها، حيث قام الجيش بخطوات متقدمة حين بادر إلى اعتقال العشرات من نواب ووزراء حكومة حماس، تفسيرًا لما كان قد أعلنه سابقًا من أنه لا حصانة لحكومة حماس وممثليها، وهي سابقة خطيرة لم تقدم عليها أي حكومة من حكومات العالم في وقت سابق، بل والتهديد بتصفية رئيس الحكومة وعدد من وزرائها لاتهامهم بـ «تلطخ أيديهم بالدماء الإسرائيلية»!

٣- على الصعيد الاقتصادي: أولت الحكومة الإسرائيلية اهتمامًا بالغًا للحصار الاقتصادي والمالي الذي فرضته على حكومة حماس، من خلال تعطيل اتفاقية العائدات الجمركية، في ظل وجود ما يزيد عن ١٢٥ ألف موظف في صفوف

السلطة الفلسطينية، الذين يحتاجون صبيحة كل آخر شهر ما قيمته ١٥٠ مليون دولار كرواتب شهرية، وقد أوقفت «إسرائيل» تحويل الضرائب المستحقة عليها للسلطة الفلسطينية، كما تنص عليه الاتفاقات الموقعة، منذ فوز حماس، الأمر الذي زاد

من تضيق الخناق عليها، وأصبحت الحركة في وضع حرج جدًّا؛ لتوفير رواتب آلاف الموظفين، وقد بلغت قيمة هذه الضرائب حتى كتابة هذه السطور ما يزيد عن ٦٠٠ مليون دولار، أي رواتب أربعة شهور كاملة!.. (٣٦)

كما بثت «إسرائيل» دعاية إعلامية موجهة بالأساس إلى الرأي العام الدولي والمؤسسات المالية المانحة،

المنتشرة، مما يعتبر إخفاقًا من الطراز الأول. (٣٢)
التخوف الأكبر أن حماس فازت في هذه الانتخابات وهي ما زالت ترفع لواء المقاومة، وبالتالي جاء نجاحها نجاحًا لبرنامج المقاومة والكفاح المسلح، أكثر من ذلك فقد نفّذت عدة عمليات عسكرية، وهي على رأس السلطة، (٣٣) وهذا أمر يصعب على قادة «إسرائيل» تصوره.

الإجراءات الإسرائيلية ضد حكومة حماس:

١- على الصعيد السياسي: تعاملت «إسرائيل» مع صعود حماس للحكم من خلال استخدام مصطلحات تاريخية في الذاكرة الجماعية اليهودية ذات صلة بالمرحلة النازية، بغرض حشد الرأي العام الإسرائيلي خلف السياسة الرسمية للحكومة، حيث اعتبرت فوز حماس مشابهًا لفوز النازيين في ألمانيا، وأن فوزها بمثابة «هزة أرضية» و«كارثة جديدة»، الأمر الذي دعا عددًا من السياسيين لمعاملة قادة حماس كقادة النازية وخاصة هتلر! وشبهوا ميشاق حماس بكتاب «كفاحي» لهتلر، الأمر الذي وجد طريقه من خلال استطلاع للرأي أجري بين الإسرائيليين، ورأى ٥٥٪ منهم أن فوز حماس يشكل خطرًا وجوديًا على «إسرائيل»، وأبدى ٤٢٪ منهم أن سياسة «إسرائيل» تجاه حكومة حماس متساهلة جدًّا! (٣٤)

كما أعلنت «إسرائيل» أن المشروع الدولي الذي اتفق

العالم كله بشأنه للقيام بدور وظيفي يحمي مصالحها؛ المسمى «السلطة الفلسطينية»، أصبح رهينة بيد أكبر عدو «إسرائيل» في المنطقة، وهي حماس؛ مما يمنح «إسرائيل» فرصة تحريض العالم على تبني موقفها بمحاصرة الحكومة الشرعية سياسيًا ومقاطعته، وفرض القيود والشروط عليها، بعد الإعلان

خطة الانسحاب من غزة تمثل انتصارًا
هائمًا لحركة حماس ولنكر المقاومة،
وبإمكان الفلسطينيين أن يعتبروا عن
فرحتهم بهذا النصر الكبير، الذي لم
يكن له مثيل في كل مواجهات دولة
إسرائيل. «نتنياهو»

إحداث انقلاب شعبي ضد حكومة حماس، رغم بعض المظاهرات هنا وهناك، بالعكس فقد طالبت أوساط كبيرة في صفوف الفلسطينيين بضرورة استمرارها في مواقفها السياسية رغم ضراوة الحرب المعلنة.

٣- حدثت تصدعات في الإجماع الدولي الذي خططت له «إسرائيل»، وتمثل ذلك في العلاقات السياسية التي حاولت حماس إقامتها وتطويرها مع بعض الدول، وعلى رأسها روسيا التي وصف وزير خارجيتها مؤخرًا المطالب الدولية من حماس بأنها غير واقعية، فضلًا عن مطالبة الاتحاد الأوروبي بتوسيع تعريف «المساعدات الإنسانية»، وبالتالي ضخ بعض المنح المالية بين الحين والآخر للفلسطينيين.

٤- الفشل في ترويض حماس وإجبارها على تقديم تنازلات لها علاقة بمشروع المقاومة، من خلال نجاحها في تنفيذ بعض العمليات الناجحة، وخاصة «الوهم المتبدد»، ورغبة مقاتليها بتطوير مؤسستهم العسكرية من خلال جمع الأسلحة المكثف، كما تشير تقارير استخباراتية إسرائيلية.

سادسًا: أزمة إسرائيل القيادية:

تعيش «إسرائيل» منذ سنوات عديدة أزمة حقيقية تتمثل في غياب جيل التأسيس الذي رافقها مع بداياتها الأولى، سواء بوفاة عدد منهم، أو باعتزال عدد آخر للحلبة السياسية، لكن المعضلة الأكبر التي تصدّرت غياب القيادة السياسية هذا العام، تكمن في تسلم عدد من القادة حديثي العهد للعمل السياسي في «إسرائيل»، وقد أخذت الأزمة القيادية تستفحل عبر عدد من المحاور السياسية والعسكرية.

أولًا: أزمة القيادة السياسية:

١- الغياب القسري لـ «أرييل شارون» بفعل المرض، والغيوبة الطويلة التي ألمّت به حتى كتابة هذه السطور، مما وُلد عنه تراحم مرحلي لعدد ممن رأوا أنفسهم مؤهلين لخلافته، وخاصة في أوساط حزبه الوليد «كاديما».

مفادها أن الأموال التي تأتي لـ «سلطة حماس» لن تذهب لرواتب الموظفين، أو لمشاريع البنية التحتية وتحسين ظروف الفلسطينيين، وإنما ستأخذ طريقها لمخازن السلاح وتصنيع المتفجرات التي تملكها حماس، الأمر الذي أدى إلى امتناع الكثير من الدول الغربية عن دفع مستحقاتها، وتلكؤ الأطراف العربية عن الإيفاء بوعود قطعها في قمم عربية، حتى في ظل رؤيتها للفلسطينيين يتضورون جوعًا.. خشية اتهامهم بالمساهمة في تمويل «الإرهاب» من جهة، ومن جهة أخرى قطع «أوكسجين الهواء» عن حكومة حماس المتمثل بالأموال. (٣٧)

كما استخدمت «إسرائيل» سيطرتها على المعابر التجارية من وإلى الضفة والقطاع؛ للضغط على الفلسطينيين في إعاقه وصول البضائع والسلع الأساسية والأدوية، وشل حركة البناء وشيوع الركود الاقتصادي، بمعنى أنها مارست عليهم حصارًا «غذائيًا» فضلًا عن «الحصار المالي» مما أوقع حكومة حماس أمام جماهيرها بسؤال هام يتعلق بتوفير لقمة العيش! مما مثل ابتزازًا رخيصًا تمارسه دولة بحق مواطنين أبرياء يصل تعدادهم إلى مليون ونصف المليون نسمة، تهمتهم الوحيدة أنهم عبّروا عن ثقتهم بمن يستطيع تحقيق آمالهم.. ونجم عن ذلك ارتفاع نسبة البطالة إلى ٦٠٪، وزيادة نسبة الفقر إلى أكثر من ٧٠٪! (٣٨)

تقييم السياسة الإسرائيلية ضد حكومة

حماس:

١- رغم قدرة «إسرائيل» على إرباك الوضع الداخلي، وإشغال حماس عن تطبيق برنامجها الانتخابي، إلا أنها أثبتت من جهة أخرى صوابية الموقف القائل بديمومة الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأن «إسرائيل» لم تتغير رغم ما يقال عن اتفاقيات السلام.

٢- رغم شدة الحصار المفروض على الفلسطينيين بصورة قاسية ومؤلمة، فقد أخفقت «إسرائيل» في

جعلها مكشوفة أمام الجهات الأخرى، وهناك العديد من الأمثلة على ذلك، ففي حين كانت القيادة العسكرية الميدانية للجيش تطالب بالسرعة في اتخاذ قرار العملية البرية في لبنان، كان الرأي السياسي يطالب بالتأني في تنفيذها، وحين كانت نتيجتها محرجة «لإسرائيل»، انشغلت القيادتان بتبادل الاتهامات حول تحمل المسؤولية.

٢- تحميل القيادة السياسية للقيادة العسكرية ممثلة بالجيش مسؤولية الإخفاقات التي وقعت بها «إسرائيل» خلال هذا العام، لا سيما على صعيد تزايد عمليات المقاومة في فلسطين ولبنان، وهو نهج لم تعتد عليه في سابق عهدها؛ لأن الجيل التأسيسي «لإسرائيل» اعتقد أن الجيش هو «البقرة المقدسة»، ولا يجوز لأحد الاقتراب منه بأي انتقاد.

٣- انقلاب الصورة في التسلسل القيادي داخل «إسرائيل»، بحيث جرت العادة أن يقود المستوى السياسي نظيره العسكري؛ لأن القيادة العسكرية منوط بها تنفيذ أهداف سياسية بحته تكلفها بها الحكومة التي تمثل المستوى السياسي، وقد أدت الأزمة القيادية في «إسرائيل» إلى أن تقود المؤسسة العسكرية الحكومة، مما جعل كبير المعلقين السياسيين يصف الوضع على النحو التالي: في العالم كله، يقوم رأس الكلب بهز الذيل، لكن في إسرائيل بدا الوضع مغايراً، فقد بات الذيل «المؤسسة العسكرية»، يوجه الرأس «المستوى السياسي» نحو أهدافه الخاصة به! (٤٢)

وربما يكون أكثر من وصف الأزمة القيادية الإسرائيلية، المعلق السياسي «يوييل ماركوس» حول إفلاس المؤسسات السياسية والعسكرية بقوله: ليس صدفة أن أغلبية الجمهور الإسرائيلي ترغب بتشكيل لجنة تحقيق رسمية... لماذا؟ لأن ثقة الجمهور بكل «مقدسات» الأمة، قادتها وحاخاماتها، موظفيها ووزرائها وغيرهم، أخذت في التزعزع، لقد تبذرت الثقة باستقامة السياسيين، واستقامة الحكومة، ونزاهة الهيئات العسكرية، واستقامة قادة الجيش وقدراتهم، واستقامة أعضاء الكنيست، وقادة الجمهور كائنًا من كانوا! (٤٣)

٢- المفاجأة التي ألمت بالوسط السياسي الإسرائيلي بعد نجاح حركة حماس في الانتخابات التشريعية، والإرباك الذي وقعت به المؤسسة السياسية الإسرائيلية.

٣- المطالبات الحثيثة لبعض القيادات السياسية باعتزال العمل السياسي، بعد سلسلة إخفاقات متراكمة، جعلتها غير جديرة بتسلم زمام القيادة في الدولة.

٤- تفاعل قضايا الفساد التي تورط بها جملة من كبار السياسيين، بدءًا بـ «شارون» وعائلته، و«إيهود أولمرت»، والوزير «حاييم رامون»، والفضيحة الكبرى التي لحقت بالرئيس «موشيه كتساب». (٣٩)

ثانياً: أزمة القيادة العسكرية:

١- جاءت عمليات المقاومة، واستئناف إطلاق القذائف والصواريخ لتكشف العجز الذي ألمَّ بالقيادة العسكرية، وتوج هذا العجز والفشل بعملية «الوهم المتبدد» التي نفذتها حماس. (٤٠)

٢- انفجار الوضع في لبنان وأسر مزيد من الجنود، جعل القيادة العسكرية تقف «عارية» أمام جنودها وجمهورها الذي بات يتفرج على جيش مهزوم، وقيادة عسكرية لا تليق بأسطورة «الجيش الذي لا يقهر»!

٣- هذه الهزائم جعلت الصحف الإسرائيلية تطلق أوصافاً معيبة بحق القيادة الحاكمة في «إسرائيل» وتعلن: أولمرت سخيف.. حلوتس خائب.. بيرتس جاهل!! (٤١)

ثالثاً: أزمة الصلاحيات بين القيادتين العسكرية والسياسية:

في ظل العجز المتبادل بين القيادتين العسكرية والسياسية، كان من الطبيعي أن تبرز بعض التداخلات في عملية اتخاذ القرارات، لا سيما المصيرية منها، في كلا المجالين، وتمثل ذلك بأبعاد متعددة:

١- انعدام التنسيق السياسي والعسكري والميداني بين المستويات القيادية، بحيث بدت هذه المستويات كمن يتخذ كل منها قراراته في بلد آخر، الأمر الذي

في العراق سيجلب العديد من الفوائد الاقتصادية لإسرائيل، أهمها حصولها على النفط العراقي الذي سيكون تحت إشراف أمريكي بأسعار مخفضة، وتراجع المخاطر الأمنية التي تهددها، مما سيؤدي إلى تقليص النفقات الأمنية وإنعاش الاقتصاد الإسرائيلي، من خلال فتح السوق العراقي للبضائع الإسرائيلية. (٤٥)

ج- شواهد سياسية: من خلال زيارات دبلوماسية، أعلن عن بعضها، وتكتم على الآخر لسياسيين عراقيين إلى تل أبيب.

الآثار السلبية على إسرائيل بسبب التطورات العراقية:

ومع ذلك التورط، والآمال الإسرائيلية المعقودة على العراق الجديد، لكن التطورات الحالية في العراق كان لها تأثير سلبي على «إسرائيل»، ويتبين ذلك من خلال رصد النقاط التالية:

١- تزايد عمليات المقاومة العراقية، لا سيما السنية

منها، وتزامنها مع ارتفاع أسهم المقاومة الفلسطينية، وما يعنيه ذلك من فشل لمشروع الاحتلال الأمريكي في العراق، والإسرائيلي في فلسطين؛ بحيث إن عدد القتلى الأمريكيين خلال شهر أكتوبر الماضي زاد على المائة قتيل!

٢- أضر هذه المقاومة على الرأي العام الأمريكي الغاضب على اليهود؛ لأنه اقتنع منذ البداية أن حرب بوش ضد العراق، هي حرب إسرائيلية بامتياز، بالضبط كما كانت حرب «إسرائيل» على لبنان مؤخرًا، حربًا أمريكية بامتياز، وهو ما كشفت عنه وسائل الإعلام الأمريكية حين نقلت عن مصدر يهودي أمريكي كبير تخوفه من المستقبل، وقوله: إذا

سابقًا: المستقبل في ضوء تطورات العراق:

منذ اللحظة الأولى لاحتلال القوات الأمريكية للعراق في التاسع من أبريل لعام ٢٠٠٣، برز الدور الإسرائيلي واضحًا دون موارد، رغم المحاولات الحثيثة التي بذلتها بعض الأطراف لإخفاء هذا الدور، وعلى رأسهم قادة الحرب الأمريكيين.

وبعد أكثر من ثلاث سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق، فقد برزت وتكشفت الكثير من الشواهد العديدة على التورط الإسرائيلي فيما يحدث على أرض العراق:

أ- شواهد أمنية عسكرية: لها علاقة بعمل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، لا سيما في شمال العراق، وتدريبها لعدد من المجموعات المسلحة، حيث صرّحت مصادر عسكرية إسرائيلية أن عدة وحدات عسكرية اجتازت الحدود، وتعمل في غرب وشمال العراق، وفي حين رفض «عاموس مالكا» رئيس الاستخبارات العسكرية الأسبق تأكيد الخبر أو

نفيه، إلا أن الكثير من المصادر

الإعلامية وثيقة الصلة بأجهزة الأمن أكدت أن المعلومة صحيحة، وأن الإسرائيليين الذين دخلوا العراق عددهم خمسة آلاف شخص، انطلقوا من قاعدة عسكرية في صحراء النقب، وحملتهم بعض المروحيات إلى الحدود البرية

داخل العراق، وهم عناصر الوحدات الخاصة في سلاح المشاة الإسرائيلي. (٤٤)

ب- شواهد اقتصادية: من خلال مشاركة إسرائيلية علنية بمشاريع استثمارية وتجارية، بحيث إن عبارة MADE IN ISRAEL غدت في (عراق الرشيد) أمرًا طبيعيًا، بعد أن أعلن «داني غلمان» رئيس اتحاد الغرف التجارية في «إسرائيل» أن النصر الأمريكي

لقد تبذرت الثقة باستقامة السياسيين واستقامة الحكومة ونزاهة الهيئات العسكرية، واستقامة قيادة الجيش وقدراتهم، واستقامة أعضاء الكنيست، وقادة الجمهور كائنًا من كانوا (المعلق السياسي بوئيل ماركوس)

خاتمة:

إن «إسرائيل»، ذلك الكيان المصطنع بإرادة دولية أولاً وقبل كل شيء، لا يملك أسباب التفوق والانتصار دون «الحبل السري» الذي يربطه بالقوى الكبرى في هذا العالم، وطالما أن هذا الحبل الأمريكي قد بدا عليه التهتك ومؤشرات الانفراط، فإن من حق «إسرائيل» القلق والتخوف، لا سيما وأنها تعيش في وسط مُعَادٍ لها، ولم تفلح سنوات الغضب والإكراه من جهة، والسلام والتطبيع من جهة أخرى، في تحويلها إلى كيان عادي طبيعي في الوسط العربي، وقد اتضح ذلك من خلال:

بعد أكثر من ثلاث سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق، فقد برزت وتكشفت الكثير من الشواهد العديدة على التورط الإسرائيلي فيما يحدث على أرض العراق

١- تراجع المشروع الإسرائيلي وأخذ أبعاداً عديدة مختلفة، بدأت بالبعد العسكري والأمني، مروراً بالبعد السياسي والاقتصادي، وانتهاءً بالبعد الديمغرافي والمصري لوجود الدولة.

٢- تبذل «إسرائيل» جهوداً حثيثة لمحاولة وقف هذا التراجع باختلاف وسائلها، بدءاً بمحاولة الحسم العسكري، والحصار الاقتصادي، وإقامة التحالفات السياسية، وربما كانت فكرة وزيرة الخارجية «تسيبي ليفني» القاضية بإقامة تحالف سُتّي مع «إسرائيل» آخر ما تفتقت عنه القريحة الإسرائيلية.

٣- حشدت «إسرائيل» لوقف تراجع مشروعها كل الأدوات والوسائل المختلفة، لكن نجاحها في ذلك ليس ضرورة حتمية، ذلك أن هناك أسباباً ذاتية وموضوعية تحول دون نجاحها، لعل أهمها بعض الشواهد الميدانية، وتلك المتعلقة بالحراك الحزبي البيوي الذي يعصف بالحياة السياسية الإسرائيلية.

إن مؤشرات التراجع التي يعيشها ذلك الكيان، لم تعد قاصرة على أحاديث الثُّحْب الثقافية والسياسية، بل أصبحت حديث الساعة للمواطن العادي، الذي يتوجب عليه قراءة الواقع بكل موضوعية، ويرى

قُتل عدد كبير من الجنود الأمريكيين في الحرب، فإن الأصوات سترتفع متهمة اليهود بأنهم المسؤولون عما جرى لهم، وهذه ستكون كارثة كبرى. (٤٦)

كما نشرت الصحف الأمريكية خبراً مفاده أن أستاذاً جامعياً يهودياً في ولاية «ألينوي» تلقى خطابات تهديد من أمريكيين، قال أحدهم فيها: كم عدد الجنود اليهود في القوات الأمريكية المسلحة، وكم جندي أمريكي سيقتل من أجل اليهود، ومن أجل «إسرائيل»؟

٣- الخذلان الذي أصيبت به «إسرائيل»، وهي ترى تراجع القوات الأمريكية في مواجهة المقاومة العراقية، انطلاقاً من المساهمة الكبيرة التي قدمها الجيش الإسرائيلي

لنظيره الأمريكي، في ضوء لقاء نائب الرئيس «ديك تشيني» بأكثر من ٧٠ خبيراً إسرائيلياً في مختلف المجالات، ناقش معهم خلالها كيفية حسم المواجهة الدائرة في العراق، وفي حين أبدى «تشيني» انبهاره بمهنية الخبراء الإسرائيليين في تقديم المعلومات، فإنه عبّر لاحقاً عن أسفه لفشل هذه الإجراءات في وقف تمدد المقاومة العراقية. (٤٧)

٤- يمكن رصد الآثار السلبية للوضع العراقي على «إسرائيل» بالنظر إلى الآمال التي علقته على النجاح الأمريكي «المأمول» هناك، فقد سبق أن صرح «شاؤول موفاز» وزير الدفاع السابق بأن النصر الأمريكي في العراق يعني إخراج هذا البلد من دائرة العداء «لإسرائيل»، كما أمّل «عوزي أراد» -رئيس وحدة التحليل بمركز هرتسليا للدراسات، والمدير السابق لوحدة الأبحاث في جهاز الموساد- أن يكون النظام الجديد في العراق نسخة من نظام «كرزاي» في أفغانستان؛ لأنه سيضع سوريا وإيران بين «فكي كماشة مرعبين»، وستجدان نفسيهما محاصرتين من كل صوب، وبالتالي جاءت ضربات المقاومة لتفشل هذه التوقعات. (٤٨)

- (١٤) د. «تسفي شتاوبر» رئيس مركز جاني للأبحاث الاستراتيجية التابع لجامعة تل أبيب، يديعوت أحرونوت، ٢٠٠٦/٧/١٧.
- (١٥) رون بن يشاي، هآرتس، ٢٠٠٦/٨/١٢.
- (١٦) بن كاسيت، معاريف، ٢٠٠٦/٧/١٤.
- (١٧) بالإمكان الرجوع إلى وسائل الإعلام الإسرائيلية التي قامت بتغطية نجاح حركة حماس بقتل ثلاثة جنود وأسرى رابع في غزة في أواخر يونيو/ حزيران ٢٠٠٦.
- (١٨) معاريف ٢٠٠٦/٨/١٧.
- (١٩) جاء ذلك في التوصيات النهائية التي صدرت عن مؤتمر هرتسليا السنوي، ديسمبر ٢٠٠٥.
- (٢٠) تصريحات للخبير الديمغرافي الإسرائيلي «سيرجيو دولا بيرغولا»، التلفزيون الإسرائيلي، ٢٠٠٦/٣/٢٠.
- (٢١) مكتب الإحصاءات المركزي الإسرائيلي.
- (٢٢) يديعوت أحرونوت، ٢٧/٤/٢٠٠٦.
- (٢٣) الإذاعة العبرية، ٤/١١/٢٠٠٦.
- (٢٤) جاء ذلك على لسان بروفيوسور «أرنون سوفير» الخبير الديموغرافي في جامعة حيفا، صحيفة «يديعوت أحرونوت»، ٢٢/٤/٢٠٠٥.
- (٢٥) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، التقرير السنوي ٢٠٠٥.
- (٢٦) اعتادت قوى المقاومة على إصدار جداول إحصائية دورية بشأن عملياتها الفدائية.
- (٢٧) من محاضرة ألقاها رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي السابق الجنرال «موشيه يعلون»، التلفزيون الإسرائيلي، ٢٠٠٦/١/١.
- (٢٨) هآرتس، ٢٢/٢/٢٠٠٦.
- (٢٩) الإذاعة الإسرائيلية، ٢٢/٧/٢٠٠٥.
- (٣٠) القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، ١٢/٨/٢٠٠٤.
- (٣١) يديعوت أحرونوت، ١٨/٥/٢٠٠٦.
- (٣٢) جاء ذلك على لسان «موشيه العاد»، عقيد احتياط وباحث في شؤون المجتمع الفلسطيني.
- (٣٣) ناحوم برنياع، يديعوت أحرونوت، ٢٣/٢/٢٠٠٦، وهكذا فإن وصول حماس إلى السلطة، جعل الكاتب اليهودي الأمريكي «توماس فريدمان» يطالب باتخاذ إجراءات لم تكن معهودة من قبل في كتب السياسة.
- (٣٤) أجرى هذا الاستطلاع مركز «داحاف» لقياس الرأي العام، ونشرته هآرتس بتاريخ ٢٨/١/٢٠٠٦.
- (٣٥) في حين صرح «أولمرت» بأن صراع إسرائيل ضد حماس سيتواصل بعد تشكيلها للحكومة؛ لأنها عدو صعب، وسنواجهها بكل قوة وشجاعة، أكد «نتنياهو» أن فوز حماس قلب الأمور رأساً على عقب، وينبغي انتهاج سياسة «الجدار الحديدي» ضدها! التلفزيون الإسرائيلي ٢٩/١/٢٠٠٦.
- (٣٦) إحصائيات أصدرها البنك الدولي، مايو ٢٠٠٦.

«إسرائيل» على حقيقتها، دون تهوين أو تهويل، وألا يبقى أسير المقولات التي سمعها في لحظات النكبات والنكسات العربية.

الهوامش:

- (١) إسرائيل نحو تعميق الكولونيالية الداخلية، بروفيوسور أورن يفتاحيل، أستاذ الجغرافيا السياسية بجامعة بن غوريون، ٢٠٠٦/٣/٨.
- (٢) د/ يغيل ليفي، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة الإسرائيلية المفتوحة، مؤلف كتاب «جيش آخر لإسرائيل»، هآرتس، ٢٠٠٥/٨/٣١.
- (٣) من هذه الحملات: حقل الأشواك، جهنم المتدرجة، السور الواقعي، رحلة بالألوان، المسار الحازم، فارس الليل، قوس قزح، السهم الجنوبي، الطريق الحازم، أول الغيث، أيام الندم، انفجارات بلا حدود، الحديد البرتقالي، سيف جلعاد، أمطار الصيف، غيوم الخريف.
- (٤) غَصَّصَت الصحف اليومية بعشرات التصريحات التي تشير في معظمها إلى فشل الإجراءات العسكرية ضد المقاومة الفلسطينية وقواها.
- (٥) تقرير أمني قدمه جهاز الشاباك الإسرائيلي للجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، ٢٠٠٦/٣/٢٠.
- (٦) للتدليل على ذلك، فقد تسربت تقارير أمنية إسرائيلية مفادها أن رجال المقاومة حصلوا على تقنيات لتصنيع الصواريخ في الضفة الغربية، الأمر الذي اعتبر كابوساً مرعباً ستحياه إسرائيل؛ لأن هذه الصواريخ ستفقد الجدار أي مسوغ ومرر لبقائه!
- (٧) وثيقة أمنية قدمت في مؤتمر هرتسليا أشارت إلى كشف ما يزيد عن ١٢٠ خلية فدائية داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، تجند فيها ٢٦٠ فدائياً، مما أشعل الأضواء الحمراء أمام الأجهزة الأمنية الإسرائيلية.
- (٨) الإذاعة العبرية، ٢٠٠٦/٦/٣٠.
- (٩) رافي مان، معاريف، ٢٠٠٦/٧/٣١.
- (١٠) زئيف شيف، هآرتس، ١٦/٧/٢٠٠٦.
- (١١) ضابط الاستخبارات في وحدة الارتباط بلبنان خلال سنوات الثمانينات، ونائب «أوري لوبراني» منسق عمليات الحكومة في لبنان، وأحد واضعي سياسة إسرائيل تجاه لبنان، ويدير حالياً وحدة المعلومات التابعة لـ «مركز تراث الاستخبارات»، وهو مؤلف ٤ كتب، بضمنها «الورطة اللبنانية»، قدمت كأطروحة نال عليها شهادة الدكتوراه.
- (١٢) التلفزيون الإسرائيلي، القناة العاشرة، ٢٩/٦/٢٠٠٦.
- (١٣) تومي لبيد، التلفزيون الإسرائيلي، ٢٨/٧/٢٠٠٦.

- (٣٧) كانت هذه ذات الحججة التي اتخذتها بعض الدول لإعلان سياسة «تخفيف المنايع» ضد مؤسسات العمل الخيري في العالم الإسلامي.
- (٣٨) صندوق النقد الدولي، تقرير صادر في مدينة القدس، يوليو ٢٠٠٦.
- (٣٩) كان العام ٢٠٠٦ بامتياز عام الفضائح الأخلاقية للسياسيين الإسرائيليين، فقد أتهم عدد لا بأس به من الوزراء والمسؤولين بقضايا أخلاقية وجنائية، وقد اقتصر حديثنا على أبرز الرموز السياسية المتورطة في هذه الفضائح.
- (٤٠) عملية نوعية نفذتها مجموعة من كتائب القسام يوم ٢٥/٦/٢٠٠٦ ضد أهم موقع عسكري إسرائيلي جنوب غزة، وأسفرت عن مقتل ثلاثة جنود وأسرى رابع، ما زال قيد الأسر حتى كتابة هذه السطور، وشكّلت هذه العملية هزة أرضية في الجيش الإسرائيلي.
- (٤١) إيهود أولمرت رئيس الوزراء، دان حالوتس رئيس هيئة الأركان، عمير بيرتس وزير الدفاع.
- (٤٢) بن كاسبيت، يديعوت أحرونوت، ١٥/٧/٢٠٠٦.
- (٤٣) هارتس، ٢٢/٨/٢٠٠٦.
- (٤٤) يديعوت أحرونوت، ٢٢/٩/٢٠٠٥.
- (٤٥) ملحق «غلوبس» الاقتصادي، هارتس، ١٥/٨/٢٠٠٦.
- (٤٦) واشنطن بوست، ١٥/١٠/٢٠٠٦.
- (٤٧) جيروزاليم بوست، ٢٩/٩/٢٠٠٦.
- (٤٨) التلفزيون الإسرائيلي، القناة الثانية، ١٢/٤/٢٠٠٦.

معلومات إضافية

تراجع عدد اليهود في العالم:

حسب معطيات الوكالة الصهيونية، فإن عدد اليهود في العالم ينمو بنسبة قليلة جداً، تقترب إلى الصفر سنوياً، وهذا ناجم بالأساس عن تعريف من هو يهودي حسب الديانة اليهودية، التي تعتبر اليهودي هو الذي وُلد من أم يهودية، ولا تهم هوية والده، ولهذا فإن قسماً كبيراً من أبناء الديانة اليهودية تحللوا واندمجوا في مجتمعات أوطانهم، وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية، ويظهر من التقرير أن عدد اليهود (المعترف بهم) في الولايات المتحدة ٢٧, ٥ مليون نسمة، ولكن لو تم الاعتراف أيضاً بأولئك الذين آباؤهم يهود لكان عدد اليهود اليوم في الولايات المتحدة عشرة ملايين نسمة.

وحسب معطيات الوكالة الصهيونية فإنه في العام ١٩٧٠ كان في العالم ٦٣٣, ١٢ مليون يهودي، ليصل هذا العدد في العام الجاري ٢٠٠٦، إلى ١٣, ٠٨ مليون نسمة، أي أن مجمل الزيادة خلال ٣٦ عاماً بزيادة ٦, ٣٪ فقط، في حين أن عدد سكان العالم في هذه الفترة ازداد بنسبة تتراوح ما بين ٦٠٪ إلى ٧٠٪ على الأرجح.

ولا تتوقع الوكالة ارتفاعاً أكثر في السنوات القادمة، فبحسب التقديرات فإن عدد اليهود المتوقع في العام ٢٠٢٠ سيكون في حدود ١٣, ٥٥٨ مليون نسمة، أي زيادة بنسبة مماثلة، وهي ٦, ٣٪ خلال ١٤ عاماً، ويُذكر هنا أن النسبة السنوية لتكاثر الشعب الفلسطيني تفوق ٣٪ حسب التقديرات.

وتشير كافة تقديرات الوكالة الصهيونية إلى أن عدد اليهود في أنحاء العالم، باستثناء إسرائيل، سيتراجع في العام ٢٠٢٠ بنسب كبيرة، ولربما أن كندا وحدها ستسجل ارتفاعاً طفيفاً لعدد اليهود فيها؛ إذ يعيش اليوم في كندا ٣٧٣ ألف نسمة، بعد أن كانوا ٢٨٦ ألفاً في العام ١٩٧٠، ومن المتوقع أن يزداد عددهم في العام ٢٠٢٠ إلى ٣٨١ ألف نسمة، أي بنسبة ١, ٢٪، في السنوات الأربعة عشر مجتمعة.

(صدر في الآونة الأخيرة التقرير السنوي الثالث، لـ «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي»، للعام ٢٠٠٦).

التقرير السنوي لـ «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي»

تقرير: مخاوف من تراجع عدد اليهود في العالم، وتحذير من الحركات الإسلامية

٢٠٠٦/١٠/٤ المرصد العربي للإصلاح والديمقراطية

الجدار بشكل كامل كما هو مخطط له:

٦٢٠ كيلو متر، (بهذه المسافة يكون طول الجدار قد تجاوز كثيرًا طول خط الهدنة الممتد بين الضفة الغربية وإسرائيل، بعد توقيع اتفاقية رودس عام ١٩٤٩ بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، وبلغ طول الخط نحو ٣٥٠ كم، أما سبب الزيادة في طول الجدار فيعود إلى كثرة التعاريج والالتواءات الناتجة عن التداخل بين المدن والقرى الفلسطينية، والمستوطنات الإسرائيلية التي أقامتها إسرائيل في الأراضي الفلسطينية بعد احتلالها لهذه الأراضي في أعقاب حرب عام ١٩٦٧؛ إذ يتوغل الجدار أحيانًا إلى عمق يصل إلى ٢٠ كم داخل الأراضي الفلسطينية كما هو الحال في منطقة سلفيت؛ حيث أقامت إسرائيل مستوطنة أريئيل التي قررت الحكومة الإسرائيلية ضمها داخل الجدار).

الامتداد: من شمال الغور حتى قرية سالم في محافظة جنين شمال الضفة الغربية، ثم إلى الشرق من الخط الأخضر غرب الضفة الغربية، ليمتد حتى أقصى جنوب محافظة الخليل جنوب الضفة.

عمق الجدار: من ٣٠٠ متر إلى ٢٣ كيلو متر داخل أراضي الضفة الغربية.

ملاحظة: سيتفرع من الجدار الفاصل جدار ثانوي عبارة عن أسلاك شائكة ليعزل عددًا من المدن والقرى الفلسطينية في الجزء الشمالي، وأكثر المناطق المتضررة هي محافظة طولكرم. عدد التجمعات التي سيعزلها الجدار: ١٢٦ تجمعًا سكانيًا فلسطينيًا، عدد سكان ٩٧ تجمعًا منها ٨٧٥٨٩ نسمة، يبلغ عدد سكان ٤٧ تجمعًا منها ١٨٣٩٨٦ نسمة سيُحصَرُون بين الجدارين الرئيسي والثانوي.

عدد المستوطنات الإسرائيلية داخل الجدار: ١٠٢ مستوطنة تبلغ مساحتها العمرانية ٩٩,٥ كم يتوقع إلحاقها بإسرائيل.

مركز المعلومات الوطني الفلسطيني

الهيئة العامة للاستعلامات

السلطة الوطنية الفلسطينية

<http://www.pnic.gov.ps/arabic/palestine/jdarazl/curent-1.html>

عدد القرى والسكان في المناطق التي سوف تُعزل أو يحيطها الجدار بحسب مخطط وزارة الدفاع الإسرائيلية:

الموقع	عدد القرى والمدن	عدد السكان	المساحة المعزولة	%
غرب الجدار	٧٩	٨٧٥٨٩	٨٣٨	١٤,٣
بين الجدارين الرئيسي والثانوي	٢٢	١٩١٢٧١	٢٠٥	٣,٥
المجموع	١٠١	٢٧٨٨٦٠	١٠٤٣	١٧,٨

المصدر/ معهد الأبحاث التطبيقية (أريج) حزيران ٢٠٠٥

التغيير في تعداد سكان مستعمرات الغور.

تعداد سكان مستعمرات الغور				
السنة	التعداد	-	السنة	التعداد
١٩٨٥	٢٥٠٠	-	١٩٩٥	٢٦٠٠
١٩٩٠	٢٦٠٠	-	١٩٩٦	٢٧٠٠
١٩٩١	٢٨٠٠	-	١٩٩٧	٢٨٠٠
١٩٩٢	٢٩٠٠	-	١٩٩٨	٢٩٠٠
١٩٩٣	٣٠٠٠	-	١٩٩٩	٣٤٠٠
١٩٩٤	٣١٠٠	-	٢٠٠٠	٤١٤٦

(المصدر/ معهد الأبحاث التطبيقية) حزيران ٢٠٠٥

مساحة المناطق المتضررة من الجدار الفاصل:

مكان الأراضي	مساحة (دونم)	النسبة من مجموع مساحة الضفة الغربية
المساحة التي صودرت لإقامة الجدار	٢٨,٠٠٠	٠,٥
المساحة المحصورة ما بين الجدار والخط الأخضر(*)	٧٤٠,٠٠٠	١٣,٢
المساحة داخل الجيوب شرقي الجدار الأساسي	١٠٥,٠٠٠	١,٩
المجموع	٩١٥,٠٠٠	١٦,٣

(*) يشمل المساحة في هذا المكان، الأراضي داخل الجدران الثانوية (الداخلية)، ولكن لا تشمل شرقي القدس.

العالم الإسلامي

المقاطع الرئيسية للجدار المصادق عليها من قبل الحكومة الإسرائيلية:

المرحلة	الطول (كم)	مقطع من الجدار (*)
صودق عليه، انتهى بناؤه تقريباً	١٢٥	سالم - الكنا (المرحلة الأولى)
صودق عليه، قيد البناء	٤٥	سالم - تياسير (المرحلة الثانية)
صودق عليه، لكن لم يبدأ بناؤه بعد	١٤١	الكنا - عوفر (المرحلة الثالثة)
صودق عليه، ولكن لم يبدأ بناؤه بعد	١١٤	هارجيلو - الكرمل (المرحلة الرابعة)
صودق عليه وانتهى البناء في جزء منه بينما الجزء الآخر قيد البناء	٥٠	«غلاف القدس»
	٤٧٥	المجموع

(*) لا يشمل الجدران الثانوية غربي وشرقي الجدار الأساسي.

مركز المعلومات الوطني الفلسطيني،
الهيئة العامة للاستعلامات، السلطة الوطنية الفلسطينية

عدد التجمعات التي يمر الجدار من أراضيها، والتي فصلت عن الخدمات الأساسية حسب المحافظة، ٢٠٠٣:

الخدمات الأساسية					المحافظة
بدالة الهاتف	المحول الرئيسي لشبكة الكهرباء	المفتاح الرئيسي لشبكة المياه	المدارس	العيادات الصحية	
١	٠	٢	٧	٨	جنين
٣	٢	٣	٤	٦	طولكرم
٦	٠	٢	٧	١٠	قلقيلية
٠	٠	٠	٠	٠	سلفيت
١	١	١	٤	٦	القدس
٠	٠	٠	٠	٠	بيت لحم
١١	٣	٨	٢٢	٣٠	المجموع

مسح أثر الجدار الفاصل على التجمعات الفلسطينية التي يمر بها الجدار من أراضيها، آب/ ٢٠٠٣.

المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني



العلاقات الأمريكية الإيرانية الوجه الآخر

د/ضيف الله الضعيفان - السعودية

باحث - وعضو هيئة التدريس في كلية العلوم - جامعة الملك سعود بالرياض

ملخص البحث:

يشعر المراقب للحرب الإعلامية بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران بأن حربًا شاملة توشك أن تندلع بين الدولتين، ولكنه ما يلبث أن يدرك أن وراء الأكمة تاريخًا طويلًا من التفاهات والتعاون، بل والتحالف أحيانًا بينهما، وكل منهما يتنطق بناءً على مصالحه الاستراتيجية.

ومنذ ربع قرن والعلاقات الإيرانية الأمريكية تشهد تحالفات وتعاونًا، خاصة بعد أن لعبت أمريكا الدور الأكبر في نجاح ثورة الخميني، وما كان يتصوّر نجاح الثورة بمنأى عن الدعم الأمريكي.

وتعد فضيحة -إيران جيت- أكبر برهان على حقيقة الدعم العسكري الأمريكي-الإسرائيلي لإيران، فضلاً عما نشرته وسائل الإعلام العالمية من إسقاط وسائل الدفاع السوفيتية لطائرة أرجنتينية؛ كانت تنتقل بين إيران و«إسرائيل» مُحمّلة بأنواع السلاح.

وتكشف قضية الملف النووي الإيراني، طبيعة العلاقات الأمريكية الإيرانية، فأمريكا قد عَصَّت الطرف عن الأنشطة الإيرانية النووية طيلة عقد من الزمن، ثم بدأت المخاوف الأمريكية على مصالحها الاستراتيجية في منطقة الخليج الغنية بمصادر الطاقة؛ فضلاً عما يمثله النشاط النووي الإيراني من خطر على أمن «إسرائيل»، ومع هذا فالخيار العسكري لا يمثل الحل الأمثل لأمريكا أمام طموحات إيران النووية؛ وذلك خشية تكرار التجربة العراقية، واتساع رقعة وعدد المنشآت النووية الإيرانية.

كما لا يخفى حقيقة الدور الإيراني في مساعدة أمريكا على احتلال العراق، فقد كان لإيران -حسب تصريحات مسؤوليها- من خلال عملاتها من الرفضة دور بارز في إغراء حكومة بوش باحتلال العراق؛ حتى تصبح البوابة العربية الشرقية مُشرّعة أمام إيران.

وأخيرًا لو امتلكت إيران قنبلة نووية فما هويتها؟ هل هي «قنبلة نووية إسلامية لردع العدو الصهيوني والأمريكي»، أم «فارسية مجوسية»؛ تهدد بها من يقف أمام المد الرافضي في المنطقة؟! كل ما يحدث في العراق من إبادة لأهل السنة، وما حدث منذ قيام الثورة من ظلم لأهل السنة في إيران، وغيرها هو ما يؤكد أنه سلاح لخدمة الأغراض الراضية التوسعية في المنطقة بالدرجة الأولى. وقد يكون أهل السنة في العراق والخليج وما حوله هم أول المهتدين به.

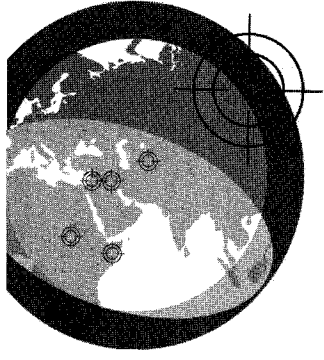
أفكار ومقتطفات

- تنطلق الولايات المتحدة الأمريكية في علاقاتها الدولية بناءً على مصالحها الاستراتيجية؛ وخدمة لأطماع الهيمنة والسيطرة التي واكبت صعودها كقوة دولية كبرى، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم كقوة عالمية وحيدة بعد انهيار المعسكر الشرقي.
- تنطلق إيران الخميني أيضاً في تحالفاتها وعلاقاتها الدولية من مصالحها القومية والطائفية، فهي لا تقدم خدمات مجانية لأمريكا أو لغيرها.
- المتأمل في تاريخ الدولة الصفوية في إيران يجد أنها شكلت خنجرًا في خاصرة الخلافة العثمانية، يطعنها كلما مدت جيوشها غربًا لفتح أوروبا ونشر الإسلام فيها.
- «لولا الصفويون في إيران لكان اليوم في فرنسا وبلجيكا وأوروبا نقرأ القرآن كالجزائريين» (أحد المستشرقين).
- قامت عناصر من وكالة المخابرات الأمريكية (CIA) بالتعاون مع الاستخبارات البريطانية بدعم ومساندة انقلاب الجنرال «زاهيدي» الذي أطاح بمصدق، وأعاد الشاه «محمد رضا بهلوي» إلى العرش.
- قام كل من الرئيس الأمريكي أيزنهاور ونيكسون وكارتر بزيارة إيران، أعوام ١٩٥٩ و ١٩٧٢ و ١٩٧٧م على التوالي.
- في الفترة التي قامت فيها الثورة على الشاه كان في إيران ٤٠٠٠٠ (أربعون ألف) عسكري أمريكي؛ يعملون كمخبراء وقادة في وزارتي الداخلية والدفاع، ودوائر الأمن والسافاك (جهاز الاستخبارات الإيرانية في عهد الشاه) ويمتلكون أحدث أجهزة التجسس.
- إن مدير إدارة حملة ريغان «وليم كيسي» الذي أصبح فيما بعد مديرًا للجهاز المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، قد التقى مع حكومة الثورة الإيرانية في مدريد سرًا، وتمت الصفقة في باريس على عدم إطلاق الرهائن إلا بعد الانتخابات الرئاسية. وبالفعل حدث ذلك وفاز ريغان، وخسر كارتر الانتخابات.
- اعترف الرئيس الإيراني السابق أبو الحسن بنبي صدر أنه أحيط علمًا بوجود علاقة بين إيران و«إسرائيل»، وأنه لم يكن يستطيع أن يواجه التيار الديني المقرب للخميني الذي كان متورطًا في التنسيق مع «إسرائيل».
- «الموت لأمريكا.. الموت لإسرائيل» لقد كانت تلك الشعارات الجوفاء التي مثلت أبرز شعارات ثورة الخميني، وملاؤها وأتباعه الدنيا ضجيجًا تخفي وراءها العمالة لأمريكا و«إسرائيل». أما الموت المزعوم فكان من نصيب أهل السنة في إيران والعراق ولبنان ومكة المكرمة.

- لم يستفد بلد في العالم كله من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بمثل ما استفادت إيران من هذه الأحداث وما تلاها. فانشغال أمريكا بما تسميه الحرب على الإرهاب «الحرب على التيارات الإسلامية السنية» جعل إيران تُسرّع خطاها نحو امتلاك القدرات النووية، وتهريب تقنياتها من الخارج.
- كان (الخميني) يريد إقامة حزام شيعي للسيطرة على ضفتي العالم الإسلامي، كان هذا الحزام يتألف من إيران والعراق وسوريا ولبنان، وعندما يصبح سيداً لهذا الحزام يستخدم النفط وموقع الخليج (الفارسي) للسيطرة على بقية العالم الإسلامي، كان الخميني مقتنعاً بأن الأمريكيين سيسمحون له بتنفيذ ذلك.
- إن إيران ستعتمد إلى استغلال بعض من نفوذها المتزايد في أفغانستان لإحداث بعض المشكلات للولايات المتحدة؛ على أمل أن تعيد واشنطن دراسة الأمر، ومراجعة حساباتها، مثلما حدث مؤخراً داخل الساحة العراقية؛ حيث عمدت طهران إلى اللعب بمجموعة من الأوراق التي أظهرت حقيقة نفوذها الشيعي في العراق (محللون سياسيون).
- بعد أن أسقطت النظام العراقي السابق راحت واشنطن تشد على أيدي الأحزاب الشيعية تحديداً، فأبرزت فجأة آية الله المعروف بالسيستاني الإيراني الأصل الذي لم يكن معروفاً قبل الغزو الأمريكي للعراق. وقد غدا السيستاني بين ليلة وضحاها واحداً من أهم مائة شخصية تحكم العالم؛ حسب تصنيف مجلة تايم الأمريكية.
- حقق الإيرانيون بفضل الأمريكان ما فشلوا في تحقيقه على مدى ثمانية أعوام من الحرب ضد صدام حسين؛ حيث أصبحت البوابة العربية الشرقية مُشرّعة أمامهم.
- المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بقيادة آية الله محمد باقر الحكيم، ثم شقيقه عبد العزيز الحكيم وفيلق بدر الجناح العسكري للمجلس، وحزب الدعوة بقيادة الجعفري وغيرهم من العملاء المزدوجين، درّبهم إيران وزودتهم بشتى أنواع الدعم، وهم اليوم محطّ الثقة للجانب الأمريكي!
- في الوقت الذي تتعامل فيه الإدارة الأمريكية بهذه الثقة مع الأذرع الإيرانية في العراق نراها تشدد الخناق على المعارضة الإيرانية المسلحة (مجاهدي خلق) وتضمها بالإرهاب!! مع أنها منظمة علمانية لا صلة لها بالأيديولوجيات الدينية.
- كانت بداية البرنامج النووي الإيراني في عهد الشاه عام ١٩٧٤م؛ بهدف بناء محطة طاقة نووية في «ميناء بوشهر».
- غَضَّتْ أمريكا الطرف عن الأنشطة الإيرانية النووية طيلة عقد من الزمن، ثم بدأ الاهتمام الأمريكي بالملف النووي الإيراني، وبدأت المخاوف من استخدامه في إنتاج أسلحة نووية تساور الولايات المتحدة و«إسرائيل».

العلاقات الأمريكية الإيرانية - د/ضيف الله الضعيفان

- إن طيارين إسرائيليين توجهوا بطائراتهم إلى جبل طارق في الأسابيع الأخيرة؛ للتدريب على رحلة الذهاب والعودة إلى الأهداف الإيرانية، والتي يبلغ طولها ٣٢٠٠ كيلومتر، وتم رسم ثلاثة طرق محتملة إلى إيران، من بينها طريق يمر فوق تركيا (صنّدي تايمز ٧/١/٢٠٠٧م).
- أعلنت واشنطن أن استخدام القوة العسكرية مازال خيارًا؛ على الرغم من إصرارها على أنها تعطي أولوية للتوصل إلى حل دبلوماسي.
- أعلنت إيران عن تمكنها من تخصيب اليورانيوم بنسبة ضئيلة ٤,٠٪ فقط، وهي نسبة غير كافية لإنتاج السلاح النووي.
- كان المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن قد أصدر في أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٥م تقريرًا قال فيه: إن إيران - تستطيع لو سخّرت جميع إمكانياتها - صنع قنبلة بحلول عام ٢٠١٠م. إلا أن المعهد كان في مقدمة الذين قالوا: إن العراق قد يكون يمتلك أسلحة نووية، ثم تبين خطأ تلك التقديرات، وبالتالي فإن مصداقيته مشكوك فيها.
- يبدو أن التصريحات الرسمية وغير الرسمية الإسرائيلية لا تحتاج إلى تعليق، أو مزيد تأكيد على هوية السلاح النووي الإيراني، وهل هي «قنبلة نووية إسلامية» لردع «العدو الصهيوني» و«الشیطان الأكبر» أم «فارسية مجوسية» يهدد بها من يقف أمام المد الرافضي المجوسي في المنطقة؟!!



العلاقات الأمريكية الإيرانية الوجه الآخر

د/ عبد الله الضعيفان - السعودية

باحث - وعضو هيئة التدريس في كلية العلوم - جامعة الملك سعود بالرياض

الديمقراطية وحقوق الإنسان، وغيرها من الشعارات التي ترفعها وتدعو إليها، وترمي بها عرض الحائط إذا خالفت أو تعارضت مع مصالحها الاستعمارية.

ثالثًا: بعد انتهاء الحرب الباردة بسقوط المعسكر الشرقي، تفرغت أمريكا لحرب الإسلام واعتبرته عدوها الأول، خصوصًا بعد هيمنة اليمين المسيحي المتطرف على الإدارة الأمريكية.

رابعًا: رغم أخطاء أمريكا وإخفاقاتها المتكررة، إلا أنها بخصوص علاقتها مع إيران - ومع الرفضة بشكل عام - قد قرأت التاريخ بشكل جيد، فعرفت أن الذين غدروا بالخليفة العباسي في بغداد، ومكنوا للتتار بقيادة هولوكو، وتسببوا في مقتل مئات الآلاف من المسلمين السنة؛ إرضاء لشهواتهم الطائفية، يمكن أن يكرروا التجربة في كل معركة يكون أهل السنة طرفًا فيها.

خامسًا: تنطلق إيران الخميني أيضًا في تحالفاتها وعلاقاتها الدولية من مصالحها القومية والطائفية، فهي لا تقدم خدمات مجانية لأمريكا أو لغيرها، وليست أهواء حكامها أو مصالحهم الشخصية معتبرة في صنع هذه العلاقات. كما أن إيران تنطلق في سياساتها البعيدة ومخططاتها من عقيدة المؤامرة لدى الرفضة، المبينة على خرافة أن السنة اغتصبوا الحكم من آل البيت، وأن واجب الشيعة الديني ردع الغاصب وقمعه، وإعادة الحكم والخلافة إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعهم.

يتساءل الكاتب الأمريكي جورج فرديمان:

«هل تعرفون ما هو أهم حدث عالمي في بداية القرن الحادي والعشرين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟

إنه التحالف الأمريكي الإيراني»

يشعر المراقب للحرب الإعلامية بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران بأن حربًا عسكرية شاملة توشك أن تندلع بين الدولتين، لكنه سيدرك أن وراء الأكمة ما وراءها إذا علم أن مثل هذه الاشتباكات الكلامية كانت تحدث على امتداد ما يزيد عن ربع قرن هو عمر الثورة الإيرانية.

الأكمة تخفي وراءها تاريخًا طويلًا من التفاهات والتعاون، بل والتحالف أحيانًا بين (الشيطان الأكبر) وجمهورية الخميني (الإسلامية). وقبل الخوض في تفاصيل العلاقات الخفية والظاهرة بين الدولتين، يجدر التنبيه على النقاط الآتية:

أولًا: تنطلق الولايات المتحدة الأمريكية في علاقاتها الدولية بناءً على مصالحها الاستراتيجية، وخدمة لأطماع الهيمنة والسيطرة التي واكبت صعودها كقوة دولية كبرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم كقوة عالمية وحيدة بعد انهيار المعسكر الشرقي.

ثانيًا: تنتهك الولايات المتحدة الأمريكية مبادئ

بداية النفوذ الأمريكي في إيران:

يرجع التاريخ الفعلي للاهتمام والنفوذ الأمريكي في إيران إلى عام ١٩٥٣م عندما قامت إدارة الرئيس أيزنهاور بالموافقة على الانضمام إلى خطة بريطانية (عملية أجاكس - Operation Ajax) لإسقاط رئيس

الوزراء الإيراني ذي التوجهات القومية «محمد مصدق» الذي أصدر قرارًا بتأميم قطاع النفط، وأعلن قطع العلاقات السياسية بين إيران وبريطانيا في ذلك الوقت. فقد قامت عناصر من وكالة المخابرات الأمريكية

(CIA) بالتعاون مع الاستخبارات البريطانية بدعم ومساندة انقلاب الجنرال «زاهيدي» الذي أطاح بمصدق، وأعاد الشاه «محمد رضا بهلوي» إلى العرش.

زاد النفوذ الأمريكي في إيران منذ الإطاحة بحكم مصدق. وشهدت العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بين البلدين طوال عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات نجاحًا وتفاهمًا كبيرين، وقام كل من الرئيس الأمريكي أيزنهاور ونيكسون وكارتر بزيارة إيران أعوام ١٩٥٩ و١٩٧٢ و١٩٧٧م على التوالي. كما قام وزراء خارجية الولايات المتحدة بعدد كبير من الزيارات لطهران طوال تلك العقود الثلاثة... وظل شاه إيران طوال تلك الفترة أحد أهم حلفاء الولايات المتحدة، حتى أطلق عليه لقب «شرطي أمريكا الأول في المنطقة». (٢)

الدور الأمريكي في إسقاط الشاه وإنجاح الثورة:

برز اسم آية الله «الخميني» كمعارض رئيس لنظام الشاه في منتصف الستينيات. وشهدت إيران في السبعينيات إرهابات وإرهابات الثورة من خلال العديد من الاضطرابات والتظاهرات. ولم تفلح إصلاحات

سادسًا: تسعى إيران لتكون قوة عسكرية واقتصادية إقليمية عظمى، كما تعمل بجد على نشر ثقافتها وعقيدتها المنبوذة في العالم الإسلامي، ودين الرفضة - وهم ينتظرون إمامهم الغائب - يسمح للآيات أن يتحالفوا مع الشيطان الأكبر من أجل إضعاف العالم الإسلامي والسيطرة عليه. يقول الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية»: «وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى الامتناع إلى قتله، إلا أن يكون

في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين، مثل دخول علي بن يقطين، ونصير الدين الطوسي رحمهما الله. (١)

سابعًا: تناجر إيران منذ قيام ثورة الخميني بقضايا العالم الإسلامي، خصوصًا القضية الفلسطينية التي تعلم أنها قضية محورية عند جماهير المسلمين، وتنفق أموالًا طائلة على أبوابها الدعائية، لتظهر أمام الشعوب الإسلامية - بهجمات الإعلامية على اليهود وأمريكا - بمظهر المدافع الأول عن مقدسات المسلمين. وتدرج التصريحات الأخيرة للرئيس الإيراني أحمددي نجاد بشأن إسرائيل في هذا الإطار. ورغم جمعة حكام إيران وآياتها بشأن «إسرائيل» منذ الخميني وحتى نجاد إلا أن الحكومة الإيرانية لم تتخذ أية إجراءات عملية هامة لدعم القضية الفلسطينية.

ومن تأمل في تاريخ الدولة الصفوية في إيران يجد أنها شكلت خنجرًا في خاصرة الخلافة العثمانية يطعنها كلما مدت جيوشها غربًا لفتح أوروبا ونشر الإسلام فيها، حتى قال أحد المستشرقين: «لولا الصفويون في إيران لكان اليوم في فرنسا وبلجيكا وأوروبا نقرأ القرآن كالجزائريين».

بالتنسيق مع فرنسا غادر الخميني باريس على متن طائرة فرنسية خصصت له ولأعوانه، إلى مطار «مهرياد» الدولي بطهران في ١ / ٢ / ١٩٧٩ م، .. حيث كان في استقباله الملايين من أنصاره يتقدمهم رجال الدين والعلماء وقادة الأحزاب السياسية، وتم تسليم السلطة إلى الحكام الجدد تحت سمع أمريكا وحلفائها وبصرهم.

إيران - جيت والدعم العسكري الأمريكي - الإسرائيلي لإيران:

أصدر جاري سيك Gary Sick الذي كان مسئولاً عن مكتب إيران في مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهد إدارة كارتر، كتاباً أثار ضجة في الأوساط السياسية الأمريكية عام ١٩٩١ م بعنوان «مفاجأة أكتوبر: الرهائن الأمريكيون في إيران وفوز ريغان في الانتخابات» «October Surprise: America's Hostages in Iran and the Election of Ronald Reagan» ويتهم أعضاء حملة رونالد ريغان عام ١٩٨٠ م، وهي حملة رشح فيها ريغان لمنافسة كارتر، وكان الأخير يعاني من أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران. وحسب رواية سيك فإن مدير إدارة حملة ريغان آنذاك «وليم كيسلي» الذي أصبح فيما بعد مديرًا لجهاز المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، قد التقى مع حكومة الثورة الإيرانية في مدريد سرًا، وتمت الصفقة في باريس على عدم إطلاق الرهائن إلا بعد الانتخابات الرئاسية. وبالفعل حدث ذلك، وفاز ريغان وخسر كارتر الانتخابات، وفيما بعد - وحسب الصفقة السرية آنذاك - تزود حكومة ريغان في حال فوزها الحكومة الإيرانية بالأسلحة عبر «إسرائيل»، وهذا ما تم كشفه فيما سمي فضيحة إيران - جيت عام ١٩٨٦ وزودت إدارة ريغان إيران أسلحة تقدر ببضعة مليارات من الدولارات. (٥)

تفجرت الفضيحة (إيران - جيت) حين كشفت الصحف عن أن إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان

الشاه الشكلية في إيقاف عجلة الثورة التي بدأت في الدوران. وكان للدور الذي مارسه الإعلام الغربي - والأمريكي بشكل خاص - الذي وقف إلى جانب المعارضة، أثر فعال في تضيق الخناق على الشاه. لقد كان الدور الأكبر في الإسراع بنجاح ثورة الخميني للجنرال الأمريكي «روبرت هويزر» قائد قوات حلف الأطلسي في أوروبا.

وكان دوره الأبرز هو إقناع ضباط الجيش بعدم مواجهة الشعب من جهة، وإقناع الشاه بمغادرة البلاد من جهة ثانية. وقد كان للجنرال «هويزر» ما أراد؛ إذ بقي الجيش على الحياد، وغادر الشاه إيران في ١٩ / ١ / ١٩٧٩.

لا يمكن تصوّر نجاح الثورة آنذاك بمنأى عن الدعم الأمريكي، أو على الأقل عدم التحرك لمنعها؛ إذ في الفترة التي قامت فيها الثورة على الشاه كان في إيران ٤٠٠٠٠ (أربعون ألف) عسكري أمريكي يعملون كخبراء وقادة في وزارتي الداخلية والدفاع، ودوائر الأمن والسفاهك (جهاز الاستخبارات الإيرانية في عهد الشاه) ويمتلكون أحدث أجهزة التجسس. (٣)

واعترف أبو الحسن بني صدر الذي عينه الخميني أول رئيس للجمهورية الإسلامية في برنامج «زيارة خاصة» لقناة الجزيرة الفضائية حيث قال: «جاء موفدون من البيت الأبيض للقاء الخميني في «توغل لوشاتو» منفاه في فرنسا، واستقبلهم آنذاك «إبراهيم يزدي» - الذي أصبح وزيرًا للخارجية في حكومة «مهدي بازركان» بعد نجاح الثورة - وعقد اجتماع ضم السفير الأمريكي في طهران من جهة ومهدي بازركان و«موسوي أردبيلي» أحد الآيات الذي أصبح بدوره رئيسًا لمجلس القضاء الأعلى، خرج المجتمعون باتفاق يقضي أن يتحالف رجال الدين والجيش من أجل إقامة نظام سياسي مستقر في طهران». (٤) وفى تصريح «لآية الله روحاني» الذي كان ممثلًا للخميني في واشنطن، عندما كان الأخير في فرنسا يقول فيه: «أنا مقتنع بأن أمريكا أعطتنا الضوء الأخضر».

أن يواجه التيار الديني المقرب للخميني الذي كان متورطاً في التنسيق مع «إسرائيل». وقال في مقابلته مع مراسل قناة الجزيرة: «في المجلس العسكري أعلمنا وزير الدفاع أننا بصدد شراء سلاح من «إسرائيل»، عجبنا كيف يفعل ذلك، قلت: من سمح لك بذلك؟ قال: الإمام الخميني، قلت هذا مستحيل! قال: أنا لا أجرؤ على عمل ذلك لوحدي. سارعت للقاء الخميني وسألته: هل سمحت بذلك؟ قال: نعم. إن الإسلام يسمح بذلك، وإن الحرب هي الحرب. صعقت لذلك، صحيح أن الحرب هي الحرب، ولكنني أعتقد أن حربنا نظيفة، والجهاد هو أن نقنع الآخرين بوقف الحرب والتوق إلى السلام. نعم هذا الذي يجب عمله وليس الذهاب إلى «إسرائيل» وشراء السلاح منها لحرب العرب، لالّن أَرْضِي بذلك أبداً، حينها قال لي: إنك ضد الحرب، وكان عليك أن تقودها؛ لأنك في موقع الرئاسة». وبغض النظر عن محاولة بني صدر الظهور بمظهر الرجل النزيه الشريف، إلا أنه كان شاهداً (أو مشاركاً) في صنع هذه العلاقات بين الصهاينة وزعماء الرفض، ومطلعاً على تفاصيلها.

وفي ٣ حزيران ١٩٨٢م اعترف رئيس الوزراء الصهيوني «مناحيم بيغن» بأن «إسرائيل» كانت تمد إيران بالسلاح، وعلل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي في تلك الحقبة أسباب ذلك المدد لإيران، بأن من شأن ذلك إضعاف العراق. وذكرت مجلة أكتوبر المصرية في شهر أغسطس ١٩٨٢م أن المعلومات المتوفرة تفيد بأن إيران قد عقدت صفقة مع «إسرائيل» اشترت بموجبها جميع السلاح الذي صادرتة الأخيرة من الفلسطينيين في جنوب لبنان، وتبلغ قيمة العقد ١٠٠ مليون دولار. وذكرت المجلة السويدية TT في ١٨/٣/١٩٨٤م وجريدة الأوبزيرفر البريطانية في شهر أبريل من نفس السنة عن عقد صفقة أسلحة إسرائيلية إلى إيران قالت الأخيرة: إنها بلغت ٤ مليارات دولار.

قد باعت سرّاً أسلحة لإيران عن طريق «إسرائيل»، وذلك رغم الحظر المعلن على بيع الأسلحة إليها. توقفت شحنات الأسلحة الأمريكية إلى إيران حين تفجرت الفضيحة، عندما نشرت مجلة الشراع اللبنانية في ٣/١١/١٩٨٦م أن الولايات المتحدة قد باعت أسلحة إلى إيران سرّاً من أجل تأمين إطلاق سراح سبعة رهائن أمريكيين كانوا محتجزين لدى جماعات شيعية مؤيدة لإيران في لبنان. أطلق على الفضيحة «كوترا - جيت» أو «إيران - جيت».

يقول «بوب وودورد» في كتابه الحجاب (VEIL): «كان وليم كيسي (مدير المخابرات المركزية الأمريكية في الفترة ١٩٨١-١٩٨٧م) متأثراً بتطورات القنوات السرية الجديدة مع إيران، من هذه القنوات كان ابن أخت رئيس مجلس الشورى رفسنجاني، ومدير استخبارات الحرس الثوري في مكتب رئيس الوزراء» وقال: «عندما زار ابن أخت رفسنجاني واشنطن سرّاً ليجتمع بأوليفر نورث (عضو مجلس الأمن القومي الأمريكي) وضعت آلة مراقبة إلكترونية لتسجيل الاجتماعات بشكل سري». (٦)

الدعم العسكري الإسرائيلي المبكر لإيران:

كانت أخبار متقطعة تبرز من حين لآخر عن الدعم العسكري الإسرائيلي لإيران منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية. وفي ١٨ تموز ١٩٨١م انكشف أمر هذا الدعم العسكري الإسرائيلي عندما أسقطت وسائل الدفاع السوفيتية طائرة أرجنتينية تابعة لشركة «اروريو بلنتس»، وهي واحدة من سلسلة طائرات كانت تنتقل بين إيران و«إسرائيل» محملة بأنواع السلاح وقطع الغيار، وكانت الطائرة قد ضلت طريقها ودخلت الأجواء السوفيتية.

وفي مقابلة مع جريدة (الهيرالد تريبون) الأمريكية في ٢٤/٨/١٩٨١م اعترف الرئيس الإيراني السابق أبو الحسن بني صدر أنه أحيط علمًا بوجود هذه العلاقة بين إيران و«إسرائيل»، وأنه لم يكن يستطيع

العلاقات الأمريكية الإيرانية - د/ضيف الله الضيعان

إن مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي سبق أن أعلن يوم ١٢/٩/١٩٩٠م، أي حين بدأت طلائع القوات الأمريكية بالوصول إلى المنطقة «إننا لن نسمح للولايات المتحدة باتخاذ موضع قدم أو تحويل المنطقة إلى منطقة نفوذ خاضعة لها حيثما كنا..».

لكن المخدوعين من الشباب الإيراني ومن أبناء

الشعوب الإسلامية سرعان

ما اكتشفوا حجم الزيف الذي

تحمله مثل هذه النداءات

والتصريحات لزعماء

الجمهورية (الإسلامية) منذ

تأسيسها. ولم يكن متوقعًا

بطبيعة الحال أن تشارك إيران

إلى جانب صدام الذي حاربها

طيلة ثمان سنوات، وليس

من مصلحتها أن تفعل ذلك. لكنها كانت مطالبة أن

تكف عن التصريحات الجوفاء والشعارات الكاذبة

التي تهدد فيها الشيطان الأكبر، أو أن تعمل شيئًا

للنكاية به، وليس من الضرورة أن يكون ذلك عبر

المواجهة العسكرية.

ونتيجة لهذا الحياء الذي مارسه حكام طهران،

فقد شعرت أمريكا أن لإيران دورًا مهمًا يمكن أن

تلعبه بعد نهاية هذه الحرب. فقد طرحت إيران

نفسها باعتبارها الشرطي الذي يمكن أن يقوم بدور

حماية مصالح القوى الغربية في المنطقة. وهو ما

جاء على لسان الرئيس الإيراني هاشمي رفسنجاني

إذ يقول: «إن إيران هي البلد الوحيد الذي يمكن

للعالم الاعتماد عليه للدفاع عن أمن منطقة الخليج

ومواردها النفطية». (٧)

بل ذهب مستشار الأمن القومي الأمريكي

الأسبق «بريجنسكي» إلى نفس التصور الذي يطرحه

الرئيس رفسنجاني حيث يقول: «إن إيران سوف تخرج

من الصراع (بين أمريكا والعراق) في حرب تحرير

الكويت) لتصبح القوة المهيمنة في منطقة الخليج»

إن الأخبار والوقائع عن الدعم العسكري الأمريكي والصهيوني لإيران الخميني منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية وحتى توقفها أكثر من أن تُحصَى، والوثائق التي نُشرت في الصحف والمجلات العالمية وفي أروقة المحاكم التي عُقدت لمحاكمة المتورطين في هذه الصفقات تزخر بها الكتب التي اهتمت بمتابعة هذه العلاقات المشبوهة.

«الموت لأمريكا... الموت

لإسرائيل» لقد كانت تلك

الشعارات الجوفاء التي مثلت

أبرز شعارات ثورة الخميني

وملأ بها وأتباعه الدنيا ضحيًا

تخفي وراءها العمالة لأمريكا

و«إسرائيل». أما الموت المزوم

فكان من نصيب أهل السنة في

إيران والعراق ولبنان ومكة المكرمة.

إيران وأمريكا... حرب تحرير الكويت:

وجدت أمريكا نفسها مضطرة للتعامل مع إيران منذ

اندلاع الأزمة في الخليج على إثر اجتياح جيش صدام

حسين للأراضي الكويتية في الثاني من أغسطس

١٩٩٠م. فأمريكا ترى أن لإيران دورًا محوريًا

في التغلب على هذه الأزمة، فقرارات المقاطعة

المفروضة على العراق لا يمكن أن تُطبق تطبيقًا فاعلاً

دون مشاركة إيران.

ولقد أدت إيران هذا الدور الذي تنتظره أمريكا على

الوجه الأكمل، فقد وقفت مع الكويت في هذه الأزمة

رغم اتهاماتها السابقة، وتهديدها للكويت بسبب

وقوف هذه الأخيرة مع العراق في حربه مع إيران.

ومن ناحية أخرى رفضت إيران توسلات العراق

بشأن الحصول على تسهيلات إيرانية في مجال

تصدير النفط العراقي وتسويقه. كما رفضت تسليم

طائرات مدنية عراقية أرسلها العراق لإيران عشية بدء

الهجوم الأمريكي بغرض حمايتها من القصف.

«الموت لأمريكا... الموت
لإسرائيل» لقد كانت تلك
الشعارات الجوفاء التي مثلت
أبرز شعارات ثورة الخميني
وملأ بها وأتباعه الدنيا ضحيًا
تخفي وراءها العمالة لأمريكا
و«إسرائيل»

العالم الإسلامي

ولبنان، وعندما يصبح سيداً لهذا الحزام يستخدم النفط وموقع الخليج (الفارسي) للسيطرة على بقية العالم الإسلامي، كان الخميني مقتنعاً بأن الأمريكيين سيسمحون له بتنفيذ ذلك، قلت له بأن الأمريكيين يخدعونك، ورجم نصائح ونصائح ياسر عرفات الذي جاء ليحذره من نوايا الأمريكيين؛ فإنه لم يكن يريد الاقتناع. فهل تحققت آمال الخميني أو بعضها بسقوط العراق ونفوذ زمرة الذين مكن لهم الشيطان الأكبر!؟

لقد شرقت إيران بوصول حركة طالبان إلى السلطة في كابول، وقد عملت كل ما تستطيعه لعرقلة مسيرتها ودعم خصومها؛ خصوصاً التحالف الشمالي في «مزار شريف» ومناطق الرفض في إقليم «باميان» الذي تقطنه أغلبية من «الهزارة الشيعة».

فإيران الصفوية رأّت أن قيام دولة سنية يديرها طلبة علم لم تلوثهم أحوال السياسة، سيقطع الطريق على مبدأ تصدير الثورة من جهة، وسيفجر صخرة سنية في شبه القارة الهندية ومنطقة آسيا الوسطى، وربما في إيران نفسها وبقية العالم الإسلامي كله من جهة أخرى.

لذا فقد توترت العلاقات بين الدولتين خلال فترة حكم طالبان، ووصل الأمر إلى حد التهديد الإيراني العسكري لطالبان وحشد القوات على حدود أفغانستان.

ولقد سارعت دولة الرفض إلى الاعتراف بالحكومة الدمية التي عينها الاستعمار الأمريكي الغربي المتحالف بعد إسقاط حكومة طالبان. يشير دافيد مونتيرو كاتب صحيفة كريستيان ساينس مونيتور^(٨) إلى أن إيران الجمهورية الشيعة تحرص على البقاء كواحدة من أكبر وأهم شركاء حكومة

ويقول: «إن إيران ربما كانت ترغب أن يكون لها دور فيما سيحدث في المستقبل، ولذا فسوف يتعين عليها أن تسعى إلى ترتيب ما مع الولايات المتحدة». واستغلالاً لهذه الفرصة العظيمة التي يتحدث عنها «بريجنسكي» فإن اتصالات ولقاءات جرت بين الطرفين، وأكدتها المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية مارجريت توتويلر.

١١ سبتمبر والعدوان الأمريكي على أفغانستان... الدور الإيراني

لم يستفد بلد في العالم كله من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بمثل ما استفادت إيران من هذه الأحداث وما تلاها. فانشغال أمريكا بما تسميه

الحرب على الإرهاب (الحرب على التيارات الإسلامية السنية) جعل إيران تسرع خطاها نحو امتلاك القدرات النووية وتهريب تقنياتها من الخارج. وإسقاط حكم طالبان الإسلامية السنية في أفغانستان - جارتها الشرقية - أزال عن كاهل طهران قلقاً طالما شرقت به. ثم كانت

الثالثة حين غزت أمريكا العراق وأسقطت حكم البعث، ومكنت لحلفائها وعملائها من الرفض في العراق فأمنت إيران جبهتها الغربية.

يضاف إلى ذلك تفرغها لدعم أبناء طائفها في عدد من الدول العربية والإسلامية وعلى رأسهم صنيعتها في لبنان المسمى بحزب الله، فشحت له أحدث المعدات العسكرية. واستغلت انشغال أهل السنة بتداعيات الحرب على العراق فكثفت جهودها في نشر التشيع في بلاد الشام ومصر وإفريقيا وغيرها.

قال رفيق درب الخميني وصفيه لرئاسة الدولة أبو الحسن بني صدر: «كان (الخميني) يريد إقامة حزام شيعي للسيطرة على ضفتي العالم الإسلامي، كان هذا الحزام يتألف من إيران والعراق وسوريا

إيران الصفوية رأّت أن قيام دولة سنية يديرها طلبة علم لم تلوثهم أحوال السياسة، سيقطع الطريق على مبدأ تصدير الثورة

العلاقات الأمريكية الإيرانية - د/ضيف الله الضعيف

المرتبطة بإيران عضوياً، كالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي ولد وترعرع في طهران، وحزب الدعوة الرافضي وحتى حزب الجليبي، وغيره من الجماعات المرتبطة بإيران منذ ما قبل الحرب العراقية-الإيرانية.

إيران هي التي أعطت الضوء الأخضر لحلفائها العراقيين كي يشاركوها في مؤتمر لندن للمعارضة العراقية السابقة الذي مهد لاحتلال العراق. يقول محمد باقر الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق: «إن مرشد الثورة (الإيرانية) علي خامنئي أذن له بالاتصال مع الأمريكان، ثم أضاف بأنه لا بد من الاستئذان لأن في عنقه بيعة لخامنئي» أما اتصال الحكيم مع أمريكا بطريقة أو بأخرى فإنه لم ينقطع، ولكن هذه الأساليب الباطنية التي نشأ عليها القوم.^(٩)

وبعد أن أسقطت النظام العراقي السابق راحت واشنطن تشد على أيدي الأحزاب الشيعية تحديداً، فأبرزت فجأة آية الله المعروف بالسيستاني الإيراني الأصل الذي لم يكن معروفاً قبل الغزو الأمريكي للعراق. وقد غدا السيستاني بين ليلة وضحاها واحداً من أهم مائة شخصية تحكم العالم حسب تصنيف مجلة تايم الأمريكية.

لقد حقق الإيرانيون بفضل الأمريكان ما فشلوا في تحقيقه على مدى ثمانية أعوام من الحرب ضد صدام حسين؛ حيث أصبحت البوابة العربية الشرقية مشرعة أمامهم، وهي التي عجزوا عن اقتحامها طيلة ربع قرن من ثورتهم... وقد كشف بول بريمر ثاني حاكم أمريكي للعراق بعد الغزو في مذكراته أموراً خطيرة حول التنسيق بين الأمريكيين وجماعة إيران في العراق، بمن فيها المرجعيات.^(١٠)

ومنذ الأيام الأولى للاحتلال، بدأت إيران حملتها الصغوية المجوسية لاغتيال أهل السنة، وخاصة أئمة المساجد ورواد بيوت الله والعلماء وأساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين، وطالت كل من

الرئيس الأفغاني حامد كرزاي الموالية للاحتلال الأمريكي على الصعيد التجاري والدبلوماسي.

ويقول محمد رضا إبراهيمي السفير الإيراني في أفغانستان: «الخلافات التي تظهر على السطح بيننا وبين المجتمع الدولي لم يظهر لها أي أثر على الساحة الأفغانية حتى الآن، ونحن نعتقد أن أفغانستان يمكن بالفعل أن تكون النموذج المأمول للتعاون الحقيقي والمثمر بين طهران والمجتمع الدولي»، في إشارة ضمنية للولايات المتحدة الأمريكية.

ويرى المراقبون أنه وبينما ترتفع حدة التوترات بين طهران وواشنطن بسبب الأزمة النووية فإن إيران ستعتمد إلى استغلال بعض من نفوذها المتزايد في أفغانستان لإحداث بعض المشكلات للولايات المتحدة على أمل أن تعيد واشنطن دراسة الأمر ومراجعة حساباتها، مثلما حدث مؤخراً داخل الساحة العراقية؛ حيث عمدت طهران إلى اللعب بمجموعة من الأوراق التي أظهرت حقيقة نفوذها الشيعي في العراق، فسارعت الولايات المتحدة بالدعوة إلى إجراء محادثات فورية مع الإيرانيين من خلال سفيرها في بغداد زلماي خليل زاد.

ويقول «محمد علي أبطحي» نائب الرئيس الإيراني للشؤون القانونية والبرلمانية بالدور الإيراني بقوله في ختام مؤتمر الخليج وتحديات المستقبل في أبو ظبي يوم ١٥ / ١ / ٢٠٠٤ م: «لولا إيران لما سقطت كابول وبغداد»، وهذا بالطبع تهويل للدور الإيراني، لكن المهم فيه هو الاعتراف من أعلى هرم سلطة الملالي في طهران بالعمالة للشيطان الأكبر من جهة، والكيد لأهل السنة من جهة أخرى.

أمريكا وإيران في العراق... التحالف القدر:

لقد كان لإيران -عبر عملائها من رافضة العراق، أو مباشرة- دور بارز في إغراء حكومة بوش باحتلال العراق. فقد غزت أمريكا العراق بتعاون وتنسيق مكشوفين مع الأحزاب الرافضية العراقية

السنة، خصوصًا المجاهدين منهم، وإن اختلفت معها في الأهداف الاستراتيجية.

٥- قد تستطيع إيران أن تلعب دورًا رئيسًا في تدهور الأوضاع الأمنية في العراق، لكنها لن تستطيع أن تقوم بالدور نفسه في تحقيق السلام. لذا فإن مراهنات أمريكا على إيران للمساعدة في تحقيق استقرار وأمن العراق هي مراهنات مبالغ فيها.

٦- يبالغ الرسميون الأمريكيون في النفاق عند حديثهم عن الحاجة إلى فتح حوار مع إيران بشأن العراق، وكأن القنوات بين الطرفين لم تكن مفتوحة منذ ما قبل الغزو؛ ومن ذلك:

* عندما تأزم الوضع في العراق، وتبينت خطورة الاحتلال الأمريكي شكّل مجلس سياسة الدفاع، وهي مؤسسة بحثية مقربة من الجمهوريين لبحث الوضع في العراق، وأهمية إيران في إيجاد استقرار فيه، وقد تم تشكيل لجنة لوضع تقرير عن إيران. وأشرف على التقرير «روبرت جيتس» «وزينيو بريجنسكي»، وكان عنوان التقرير الذي تم إعداده في يوليو ٢٠٠٤م إيران: حان الوقت لتقارب جديد (IRAN: TIME FOR NEW APPROACH)، وأكد التقرير على أهمية الحوار وفتح صفحة جديدة معها؛ لأسباب سياسية واستراتيجية؛ لأن مصلحة الولايات المتحدة تتطلب ذلك.

* دعا تقرير «مجموعة دراسة العراق» الذي عرف بتقرير «بيكر- هاميلتون» (وهي اللجنة التي شكّلها الرئيس جورج بوش عندما تأزم الوضع بشكل كبير في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٦م، ويرأس اللجنة جيمس بيكر الجمهوري، ولي هاميلتون من الحزب الديمقراطي) دعا التقرير إلى إجراء حوار مع إيران حول العراق؛ باعتبار أن هذا الحوار هو أحد المدخل المهمة - من وجهة نظر التقرير - لتحقيق الاستقرار في العراق. وبمعنى آخر، يدعو التقرير إلى توظيف الدور الإيراني في العراق بشكل يضمن استقرار الأخير وليس العكس.

يعارض المشروع الإيراني في العراق. واستمرت إيران في تدخلها السافر عسكريًا وسياسيًا بوضوح عن طريق الحكومات الطائفية العميلة لها، والميليشيات الغادرة؛ حيث قدمت كل الدعم السياسي والعسكري واللوجستي والسلاح المتطور. ثم لم يكتفوا بذلك بل عملوا على تهجير قسري لأهل السنة من مناطق كثيرة، وطالت الاعتقالات عشرات الآلاف من أهل السنة من غير تهمة.

وعند الحديث عن التحالف الأمريكي الإيراني على أرض العراق الجريح فلا بد من تسجيل النقاط الآتية:

١- لظهران وواشنطن «تراث» كبير من الصفقات السرية، يثبت أنهما تمتلكان قدرًا كبيرًا من البراغمية والواقعية السياسية، بالرغم من كل الضجيج الإعلامي المتبادل بين الطرفين.

٢- لم يأل الإيرانيون الصفويون جهدًا من أجل السيطرة على القرار السياسي في العراق بصورة مقززة، فغالب المتسلطين على أهل العراق اليوم إيرانيون أو يحملون الجنسية الإيرانية، وهذا لا يخفى على الأمريكيين. فالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بقيادة آية الله محمد باقر الحكيم، ثم شقيقه عبد العزيز الحكيم، وفيلق بدر الجناح العسكري للمجلس وحزب الدعوة بقيادة الجعفري، وغيرهم من العملاء المزدوجين، درّبتهم إيران وزودتهم بشتى أنواع الدعم، وهم اليوم محط الثقة للجانب الأمريكي!

٣- قد تتعارض مصلحة الطرفين حول قضية معينة فيختلغان، ويدخل في هذا السياق الأزمة التي نشبت بين الطرفين مطلع العام ٢٠٠٧م حين اعتقلت القوات الأمريكية خمسة إيرانيين في مدينة أربيل تزعم حكومتهم أنهم دبلوماسيون، بينما تصر أمريكا على أنهم من الحرس الثوري الإيراني، وكانت مهمتهم تسليح الميليشيات الشيعية في العراق.

٤- إيران متفقة مع أمريكا في الأهداف التكتيكية، وعلى رأسها التخلص من العدو الأول وهم أهل

مواقف أمريكية مريبة: (١١)

١- في الوقت الذي تتعامل فيه الإدارة الأمريكية بهذه الثقة مع الأذرع الإيرانية في العراق تراها تشدد الخناق على المعارضة الإيرانية المسلحة «مجاهدي خلق» وتصمها بالإرهاب!! مع أنها منظمة علمانية لا صلة لها بالأيديولوجيات الدينية.

٢- لم يحاول الإعلام الأمريكي والغربي ولا الإدارات الأمريكية المتعاقبة أن تستثمر الوضع المأساوي للأقليات الإيرانية،

مثل الأكراد والعرب والبلوش والأذريين، وكذلك الاضطهاد الكبير الذي يتعرض له أهل السنة في إيران، وهم من المكونات الأساسية للشعب الإيراني!!

٣- سكوت الأمريكان عن الجزر الإماراتية الثلاث؛ التي لا زالت تحتلها إيران، رغم المطالبات المتكررة من قبل مجلس التعاون الخليجي.

٤- بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وسقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م قامت إيران بشراء التكنولوجيا المتطورة لأسلحة الدمار الشامل، واستقدام الخبراء، وإجراء البحوث المتخصصة في مجال الطاقة النووية، كل هذا حصل بعلم الولايات المتحدة.

٥- الردود الأمريكية والإسرائيلية الفاترة على دعوات الرئيس الإيراني «أحمدي نجاد»، ومرشد الثورة «خامني» إلى إزالة «إسرائيل» من خارطة، وإنكار الهولوكوست.

إيران عرضت وقف مساعدتها لحزب الله

وحماس:

قال تحقيق أجرته هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي (١٢): إن إيران عرضت عقب بدء الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م مباشرة أن تنهي تزويدها حزب الله اللبناني بالأسلحة، وتوقف مساعداتها لحركة

حماس الفلسطينية. وقد عرضت إيران أيضا - حسب ما ورد في التقرير - أن تجعل برنامجها النووي أكثر شفافية. وقال برنامج «أخبار الليلة» (نيوز نايت) الذي يبثه تلفزيون بي بي سي: إنه حصل على صورة من الخطاب السري الإيراني الذي لم يوقعه أي مسئول إيراني، إلا أن الخارجية الأمريكية استتجت أنه جاء بموافقة أعلى السلطات الإيرانية.

في الوقت الذي تتعامل فيه الإدارة الأمريكية بهذه الثقة مع الأذرع الإيرانية في العراق تراها تشدد الخناق على المعارضة الإيرانية المسلحة «مجاهدي خلق» وتصمها بالإرهاب

وقال الرئيس العراقي المعين من قبل الاحتلال «جلال الطالباني» في مقابلة له مع صحيفة الحياة اللندنية بعد زيارة له إلى طهران: «أنا للتاريخ أشهد بأنهم (الإيرانيون) قالوا: إنهم مستعدون للتفاهم مع أمريكا من أفغانستان إلى لبنان، وأنهم مستعدون للبحث من أجل الوصول إلى نتائج ترضي الطرفين». (١٣)

الملف النووي الإيراني واحتمالات المواجهة

البرنامج النووي الإيراني:

كانت بداية البرنامج النووي الإيراني في عهد الشاه عام ١٩٧٤م بهدف بناء محطة طاقة نووية في «ميناء بوشهر» الذي يبعد ٢٣٠٠ كم جنوب العاصمة طهران بتقنية ألمانية. وقد توقف العمل في البرنامج بسبب أحداث ثورة الخميني والحرب العراقية الإيرانية. أعيد العمل في البرنامج عام ١٩٩٢م في أعقاب توقيع اتفاق تعاون نووي مع روسيا، واتسع البرنامج الإيراني بمرور الوقت ليشمل منشآت ومعامل الماء الثقيل وتخصيب اليورانيوم. غصّت أمريكا الطرف عن الأنشطة الإيرانية النووية طيلة عقد من الزمن، ثم بدأ الاهتمام الأمريكي بالملف النووي الإيراني، وبدأت المخاوف من استخدامه في إنتاج أسلحة نووية تساور الولايات

ومع هذا فلا يمثل الخيار العسكري الحل الأمثل للولايات المتحدة في سعيها لكبح جماح طموحات إيران النووية لأسباب كثيرة منها:

أولاً: الخشية من تكرار التجربة العراقية، وما نجم عنها من فوضى لم تستطع الولايات المتحدة السيطرة عليها إلى الآن، خاصة في ظل امتلاك إيران القدرات العسكرية والإمكانات الجيوستراتيجية، والنفوذ الحيوي في منطقتي الخليج وآسيا الوسطى.

ثانياً: اتساع رقعة وعدد المنشآت النووية الإيرانية العلنية منها والسرية؛ يجعل من توجيه الولايات المتحدة أو «إسرائيل» ضربة عسكرية على غرار قصف المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١م أمراً أكثر صعوبة وتعقيداً.

ثالثاً: استخدام الخيار العسكري ضد إيران لن يجبر طهران على الإذعان للمطالب الأمريكية، بقدر ما سيزيد من تشدد النظام، واتخاذ ردود أفعال حماسية تضر بمصالح الولايات المتحدة و«إسرائيل».

رابعاً: إيران تملك عددًا من خيوط اللعبة في العراق وبإمكانها إثارة كثير من المتاعب لواشنطن المنهكة أصلاً هناك. كما تستطيع إرباك خطط أمريكا وحلفائها في أفغانستان.

خامساً: فتور رغبة الحلفاء الأوروبيين، بما فيهم بريطانيا، بشأن الإقدام على أي عمل عسكري جديد في الشرق الأوسط خصوصاً ضد إيران؛ استناداً لاعتبارات وحسابات اقتصادية واستراتيجية أوروبية. فقد قال وزير الخارجية البريطاني السابق «جاك سترو»: «إن الهجوم على إيران أمر لا يمكن تصور حدوثه».

بناء على هذه المخاوف وغيرها يبدو أن الولايات المتحدة أقرب إلى اتباع نهج «الحرب الباردة» في التعامل مع النظام الإيراني. ويبدو أن هذا هو الخيار المرجح لدى واشنطن بعد تحويل الملف النووي إلى مجلس الأمن؛ حيث العقوبات التي فرضت على

المتحدة و«إسرائيل». ففي نهاية عام ٢٠٠٢م التقط قمر صناعي تابع لمركز أبحاث أمريكي صوراً لمعمل الماء الثقيل في مدينة أراك. وفي عام ٢٠٠٣م أبدى مفتشو وكالة الطاقة الذرية مخاوفهم حول الأنشطة النووية في منشأة «نطنز». وأكد التقرير أن القرائن التي اكتشفوها في منشآت مختلفة تدل على أن إيران تدير برنامجاً سرياً لتخصيب اليورانيوم منذ ١٨ عامًا. (١٤)

هل تُقدم الولايات المتحدة على قصف المنشآت النووية الإيرانية؟

رغم ما ذكر سابقاً من اتصالات وتعاملات وأشكال من التعاون، وربما تحالفات في بعض المواقف بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران، إلا أن موضوع التسليح الإيراني، وخصوصاً الحصول على التقنية التي قد تمكنها من صنع أسلحة نووية تعتبر خطأ أحمر لدى واشنطن تسعى لمنع إيران من امتلاكها؛ إذ تعتبر الولايات المتحدة امتلاك إيران أسلحة نووية تهديدًا استراتيجيًا مباشرًا لمصالحها في منطقة الخليج الغنية بمصادر الطاقة، فضلاً عن التهديد المباشر لأمن «إسرائيل». كما أن امتلاك إيران (الإسلامية) لأسلحة نووية يثير مخاوف الولايات المتحدة من احتمال وصول هذا النوع من الأسلحة إلى منظمات (إرهابية) في حالة تفاقم الصراع بين طهران وواشنطن في المستقبل. كما قد يدفع دولاً أخرى في المنطقة لمحاولة امتلاك السلاح النووي.

ونؤكد ما أشرنا إليه في مقدمة هذا التقرير أن إيران تسعى لكي تكون قوة إقليمية عظمى بامتلاك السلاح النووي والصواريخ بعيدة المدى، وهي تترعب على مخزون نفطي كبير إلى جانب موقعها الجغرافي المميز وسط العالم الإسلامي، وأمريكا تريد أن تهيمن على المنطقة. وقد يتعارض المشروع الإيراني والأمريكي، فلكل أجندته وأهدافه الاستراتيجية، وقد يفضي هذا إلى نزاع بينهما، خصوصاً في ظل إدارة التيارين المحافظين المتشددين في كل من واشنطن وطهران.

العلاقات الأمريكية الإيرانية - د/ضيف الله الضعيفان

إلى توجيه ضربة نووية إلا إذا تم استبعاد شن هجوم تقليدي، وإذا امتنعت الولايات المتحدة عن التدخل. وقالت الصحيفة: إن طيارين إسرائيليين توجهوا بطائراتهم إلى جبل طارق في الأسابيع الأخيرة للتدريب على رحلة الذهاب والعودة إلى الأهداف الإيرانية، والتي يبلغ طولها ٣٢٠٠ كيلومتر، وتم رسم ثلاثة طرق محتملة إلى إيران من بينها طريق يمر فوق تركيا. وأعلنت واشنطن أن استخدام القوة العسكرية مازال خيارًا على الرغم من إصرارها على أنها تعطي أولوية للتوصل إلى حل دبلوماسي.

طهران عقوبات مخففة تتضمن حظرًا على بيع كل ما له علاقة بالتكنولوجيا النووية.

هل تكرر «إسرائيل» في إيران ما فعلته في العراق؟

نشرت صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية يوم ١٠/٧/٢٠٠٧م (١٥) أن «إسرائيل» أعدت خططًا سرية لتدمير منشآت تخصيب اليورانيوم الإيرانية بأسلحة نووية تكتيكية.

وأضافت الصحيفة؛ نقلاً عما وصفته بعدة مصادر عسكرية إسرائيلية، أن سربين من سلاح



متى تمتلك إيران السلاح النووي؟

تنفي طهران ابتداءً سعيها لامتلاك أسلحة نووية، وتقول: إن برنامجها مخصص فقط لأغراض الطاقة. ومع ذلك يرى كثير من المراقبين أن هذا الإصرار الإيراني المتشدد حيال برنامجها النووي، يخفي وراءه سعيًا محمومًا لامتلاك القدرة العسكرية النووية.

لا أحد يعلم بالضبط متى تتمكن إيران من الحصول على التقنية اللازمة لصنع أسلحة نووية. فالإسرائيليون يقولون: إنه قبل نهاية عام ٢٠٠٧م ستصل إيران «نقطة اللاعودة»، والتي يعرفونها بأنها تمكن إيران من تقنية

الجو الإسرائيلي تدربا على تفجير محطة لتخصيب اليورانيوم في «نطنز» باستخدام أسلحة نووية تأثيرها الإشعاعي محدود.

وقالت الصحيفة: إنه سيتم أيضًا استهداف موقعين آخرين، وهما محطة تعمل بالماء الثقيل في «أراك» ومحطة لتحويل اليورانيوم في «أصفهان» بقنابل تقليدية.

وامتنعت المتحدثة باسم الحكومة الإسرائيلية «ميري إيسين» عن التعليق على تقرير صنداي تايمز. ونقلت الصحيفة عن مصادر قولها: إنه لن يتم اللجوء

«إسرائيل» لم تكن أبداً ولن تكن عدواً لإيران». (١٩) يبدو أن هذه التصريحات الرسمية وغير الرسمية الإسرائيلية لا تحتاج إلى تعليق أو مزيد تأكيد على هوية السلاح النووي الإيراني، وهل هي «قنبلة نووية إسلامية» لردع «العدو الصهيوني» و«الشیطان الأكبر» أم «فارسية مجوسية» يهدد بها من يقف أمام المد الرافضي المجوسي في المنطقة؟!

إن ما يجري في العراق اليوم من إبادة لأهل السنة بتحالف أمريكي إيراني وبأيدي يهودية خفية، وما جرى منذ قيام ثورتهم من ظلم وكبت وقتل لأهل السنة في إيران من ناحية، والسماح بهجرة اليهود الإيرانيين إلى «إسرائيل» عبر وسطاء أوروبيين من ناحية أخرى، ومن خلال النظر في العلاقات الأمريكية واليهودية الإيرانية طيلة مسيرة الثورة، يجعلنا نجزم بأنه سلاح لخدمة الأغراض الرافضية التوسعية في المنطقة بالدرجة الأولى.

وقد يكون أهل السنة في العراق والخليج وما حوله هم أول المهتدين به، ولا يعني ذلك بالضرورة استخدام هذا السلاح الفتاك - بسبب الجوار مع إيران - فهو سلاح ردع كما هو معروف، ويمكن استعماله على نطاق ضيق.

تخصيب اليورانيوم. (أعلنت إيران عن تمكنها من تخصيب اليورانيوم بنسبة ضئيلة ٤,٠ ٪ فقط، وهي نسبة غير كافية لإنتاج السلاح النووي)، وكان المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن قد أصدر في أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٥م تقريراً قال فيه: إن إيران تستطيع - لو سخرت جميع إمكانياتها - صنع قنبلة بحلول عام ٢٠١٠م. إلا أن المعهد كان في مقدمة الذين قالوا: إن العراق قد يكون يمتلك أسلحة نووية، ثم تبين خطأ تلك التقديرات، وبالتالي فإن مصداقيته مشكوك فيها. (١٦)

قنبلة إيران النووية... لمن؟

يؤكد كتاب ألفه الخبير الإسرائيلي «إفرايم كام» بتكليف من وزارة الدفاع: «إن إيران من ناحية عملية لا تعتبر «إسرائيل» العدو الأول لها، ولا حتى الأكثر أهمية من بين أعدائها»، ويضيف كام: «على الرغم من الخطاب السياسي الإيراني المناكف «لإسرائيل» إعلامياً، إلا أن الاعتبار التي تحكم الاستراتيجية الإيرانية ترتبط بمصالحها ووضعها في الخليج العربي وليس بعنائها «لإسرائيل».

يقول الصحفي الإسرائيلي (يوسي مليمان): «في كل الأحوال فإن من غير المحتمل أن تقوم «إسرائيل» بهجوم على المفاعلات الإيرانية، وقد أكد عدد كبير من الخبراء تشكيكهم بأن إيران - بالرغم من حملاتها الكلامية - تعتبر «إسرائيل» عدواً لها، وأن الشيء الأكثر احتمالاً هو أن الرؤوس النووية الإيرانية هي موجهة للعرب». (١٧)

صرح وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق في حكومة نتنياهو (ديفيد ليفي) قائلاً: «إن «إسرائيل» لم تقل في يوم من الأيام: إن إيران هي العدو». (١٨)

يقول الصحفي اليهودي (أوري شمعوني): «إن إيران دولة إقليمية، ولنا الكثير من المصالح الاستراتيجية معها،.. إن التهديد الجاثم على إيران لا يأتيها من ناحيتنا، بل من الدول العربية المجاورة!

الهوامش:

- (١) الحكومة الإسلامية، الخميني، صفحة ١٢٨.
- (٢) تقرير واشنطن، يحيى عبد المبدى محمد.
- (٣) وجاء دور المجوس . د. عبد الله محمد الغريب.
- (٤) برنامج «زيارة خاصة» قناة الجزيرة، سامي كليب.
- (٥) مجلة المجلة ٦/١٠/٢٠٠٦ م.
- (٦) بوب وودورد (صفحة ٤٢٢-٤٢٣). (CIA) الحروب الخفية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (VEIL الحجاب).
- (٧) مجلة السياسة الدولية كانون الثاني/يناير ١٩٩١ م.
- (٨) ديفيد مونتيرو، كرستيان ساينس مونيتور. (ترجمة: أحمد أبو عطاء، موقع مفكرة الإسلام).
- (٩) مجلة السنة، عدد ١١٨، أغسطس ٢٠٠٢ م.
- (١٠) الجزيرة نت. فيصل القاسم.
- (١١) المختصر للأخبار.
- (١٢) موقع إذاعة بي بي سي، ١٨/١/٢٠٠٧ م.
- (١٣) صحيفة الحياة، ١٩/١/٢٠٠٧ م.
- (١٤) تقرير واشنطن، يحيى عبد المبدى محمد.
- (١٥) وكالات الأنباء، نقلاً عن صحيفة «صنداى تايمز» البريطانية.
- (١٦) بول رينولدز BBC .
- (١٧) جريدة الأنباء العدد (٧٩٣١)، نقلاً عن صحيفة لوس أنجلس تايمز.
- (١٨) صحيفة هاآرتس الإسرائيلية، ١/٦/١٩٩٧ م.
- (١٩) صحيفة معاريف الإسرائيلية، ٢٣/٩/١٩٩٧ م.

معلومات إضافية

قضية إيران - كونترا:

قضية إيران كونترا التي عقدت بموجبها إدارة الرئيس الأمريكي ريغان اتفاقاً مع إيران لتزويدها بالأسلحة؛ بسبب حاجة إيران الماسة لأنواع متطورة منها، أثناء حربها مع العراق؛ وذلك لقاء إطلاق سراح بعض الأمريكيين الذين كانوا محتجزين في لبنان، حيث كان الاتفاق يقضي ببيع إيران - وعن طريق «إسرائيل» - ما مجموعه ٤٠٠٠ صاروخ من نوع «تاو» المضادة للدروع؛ مقابل إخلاء سبيل خمسة من الأمريكيين المحتجزين في لبنان. وقد عقد جورج بوش الأب، عندما كان نائباً للرئيس ريغان في ذلك الوقت، هذا الاتفاق عند اجتماعه برئيس الوزراء الإيراني أبو الحسن بني صدر في باريس، اللقاء الذي حضره أيضاً مندوب عن المخابرات الإسرائيلية الخارجية «الموساد» المدعو «آري بن ميناشيا»، الذي كان له دور رئيسي في نقل تلك الأسلحة من إسرائيل إلى إيران. وفي آب/ أغسطس من عام ١٩٨٥، تم إرسال ٩٦ صاروخاً من نوع «تاو» من إسرائيل إلى إيران على متن طائرة DC-٨ انطلقت من إسرائيل؛ إضافة لدفع مبلغ مقداره ٤١٠, ٢١٧, ١ دولار أمريكي إلى الإيرانيين لحساب في مصرف سويسري يعود إلى تاجر سلاح إيراني يدعى «غوربانيفار».

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٨٥، تم إرسال ١٨ صاروخاً، تم شحنها من البرتغال وإسرائيل، تبعها ٦٢ صاروخاً أخرى أرسلت من إسرائيل.

<http://ar.wikipedia.org>

العلاقات الإيرانية الإسرائيلية:

إن تقريراً داخلياً لوزارة الدفاع الإسرائيلية ذكر أن «إسرائيل» قد حافظت على علاقات صناعية عسكرية مع إيران. وقد ذكر ذلك التقرير أن هذه العلاقات كانت على الشكل التالي:

[١] تجهيز إيران بـ ٥٨, ٠٠٠ قناع مضاد للغازات السامة من قبل شركة «شالون للصناعات الكيماوية» بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية.

[٢] تجهيز إيران بكاشفات للغازات من قبل شركة «إيلبت»، تستعمل لغرض الكشف عن عوامل الأسلحة الكيماوية.

[٣] نصب أنظمة السيطرة على الحرائق في دبابات شرقية بيعت إلى إيران.

إن «ناحوم مانبار» تاجر الأسلحة الإسرائيلي، لم يكن الإسرائيلي الوحيد المتورط ببرنامج إيران للأسلحة الكيماوية. ففي الوقت الذي كان فيه «مانبار» يبيع مواد ومعدات وتكنولوجيا لبرنامج إيران للأسلحة الكيماوية، كان هناك إسرائيلي آخر متورط بهذه القضية من خلال اتصاله بعملاء إيرانيين.

حدث ذلك بين الأعوام ١٩٩٢ و ١٩٩٤، حين باعت الشركة العائدة للصهيوني «موشي ريجيف» لإيران معدات ومواد ومعلومات وتكنولوجيا صناعة الغازات السامة، وخصوصًا غاز السارين وغاز الخردل.

علمًا بأن «مانبار» و «ريجيف» لم يكونا يعملان سووية، ولكنهما كانا يعملان مع نفس العملاء الإيرانيين، وأن كلاهما كانت له علاقة وثيقة مع المخابرات والمؤسسة العسكرية الإسرائيلية. وبعد افتضاح أمرهما، لم تقم المخابرات الإسرائيلية، كعادتها، بأي عمل من شأنه جمع المعلومات عن علاقات هؤلاء الأشخاص ببرنامج التسليح الكيماوي الإيراني.

إن شركة «إليت» الإسرائيلية قد باعت إلى إيران بين الأعوام ١٩٨٠ و ١٩٩٠ - وبموافقة وزارة الدفاع الإسرائيلية - معدات بلغت قيمتها أكثر من ٥٠ مليون دولار، وإن شركة «رابين تيكس» الإسرائيلية قد باعت كذلك لإيران معدات للوقاية من الحرائق، وبموافقة وزارة الدفاع الإسرائيلية.

صحيفة «جير وسليم بوست» الصهيونية

في مقال نشرته في ١٧/٧/١٩٩٨ لكتبتها ستيف رودان

صحيفة «هاآرتس» الصهيونية: في ٢٠/٧/١٩٨٨

تحت عنوان «تقرير لوزارة الدفاع يؤكد عقود أسلحة مع إيران»

صحيفة «هاآرتس» الصهيونية: في ٢٠/١/١٩٩٩

تحت عنوان «إسرائيل تعترف ببيعها تكنولوجيا الأسلحة الكيماوية لإيران».

العلاقات الأمريكية الإيرانية - د/ضيف الله الضعيف

تطور أزمة الملف النووي الإيراني

التاريخ	الحدث
١/١٤	بوش يدعو إلى حل الأزمة الإيرانية بالسبل الدبلوماسية.
١/٣١	وكالة الطاقة الذرية تتهم طهران بعدم التعاون.
١/٢٥	بوش يطرح خطة لتغيير إيران.
٣/٥	إيران تهدد باستئناف تخصيب اليورانيوم.
٣/١٦	اجتماع مجلس الأمن يكرّس الانقسام حول إيران.
٤/٥	إيران تجري المزيد من التجارب الصاروخية.
٤/٨	خبراء نوويون دوليون يبدؤون زيارة إلى إيران.
٤/١٦	فشل محادثات موسكو بشأن فرض عقوبات على طهران.
٤/٢٣	البرادعي يجري مباحثات في طهران حول برنامجها النووي.
٤/٢٤	أحمدي نجاد: لم نعد بحاجة إلى التفاوض مع الأمريكيين.
٤/٢٦	اجتماع بين المندوب الإيراني ودبلوماسيين في فيينا.
٥/٧	لا اتفاق بين أعضاء مجلس الأمن حول ملف إيران النووي.
٥/٢٧	مباحثات روسية إيرانية بطهران.
٦/٤	خامنئي يهدد بقطع إمدادات النفط إذا هوجمت بلاده.
٨/١٩	الجيش الإيراني يقوم بمناورات عسكرية.
٨/٢٧	عنان يزور إيران في ظل تصاعد الخلافات.
٩/١	إيران تتجاهل انقضاء المهلة التي مُنحت لها.

٢٠٠٧

العالم الإسلامي

اقترح بإنشاء كونسورتيوم لتخصيب اليورانيوم في إيران.	١٠/٣
البرلمان الإيراني قد يجبر بلاده على الانسحاب من المعاهدة النووية.	١٢/٢٦
مجلس الأمن يصدر القرار رقم ١٧٢٧، والذي يفرض عقوبات دبلوماسية واقتصادية على طهران؛ بسبب أنشطتها النووية المدنية.	١٢/٢٧
واشنطن تحث طهران على الامتثال الفوري لقرارات مجلس الأمن.	١٢/٢٨
كبير المفاوضين الإيرانيين يزور «بكين» لبحث الملف النووي.	١/٤
أوروبا تؤكد: سنطبق العقوبات ضد إيران بشكل كامل.	١/٢٢
الوكالة الذرية تطالب إيران بالسماح بدخول المفتشين أراضيها.	١/٢٦
إيران تقلل من أهمية اقتراح البرادعي، وتطالب بوقت لدراسته.	١/٢٩
كوريا الشمالية تنفي تعاونها النووي مع إيران.	١/٢٧
يزعم بيرتس أن ٢٠٠٧ عام الحسم مع ملف إيران النووي.	٢/١٠

إحصائيات مجمعة من عدة مصادر أهمها:-

شبكة CNN العربية.

Taqirir Washington

وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب برامج الإعلام الخارجي «يو إس إنفو».

جريدة الشرق الأوسط.



التدخل الدولي في السودان وأثره عربياً وإفريقياً

أ.د/ حمدي عبد الرحمن حسن - مصر

أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة

ملخص البحث:

تعد محاولات الغرب لإعادة صياغة وتشكيل المنطقتين العربية والإفريقية، بما يخدم أهدافه ومصالحه الاستعمارية، نزعة متأصلة في الوجدان الغربي، والحالة السودانية، وما طرحه من تنافس دولي واضح، تمثل صورة مصغرة للمشهد الإفريقي العام في عصر الهيمنة الأمريكية.

من المهم تفهّم الدوافع الحقيقية لحروب السودان المعاصرة، والتي أدت إلى الأزمة الهيكلية التي يعانيها السودان منذ الاستقلال؛ متخذةً شكل حروب مدمرة في مناطق شاسعة في الجنوب والغرب والشرق.

وجاء فشل مشروع الدولة الوطنية بعد الاستقلال، وعدم قدرته على تحقيق الاندماج القومي، وكذلك العوامل الاقتصادية، وتقسيم الثروة والموارد في البلاد، فضلاً عن دور المتغير الخارجي في دعم أطراف الصراع، والتدخل في تفاعلاته المختلفة، لتشكل كلها المتغيرات الأهم في دوافع حالة الحرب في السودان.

وتباين مواقف الدول الإقليمية والدولية من القضايا السودانية على حسب أهدافها واستراتيجيتها، فتمّ اهتمام بتلك القضايا من مؤسسات العمل الإفريقي المشترك، ودول الجوار، والدول الأوروبية التي تُعدّ الشريك التجاري الأول للسودان، والدور الصيني الذي يحاول التخفيف من غلواء الضغوط الغربية على السودان؛ حفاظاً على مصالحه بالسودان، إضافةً للدور الأمريكي البارز، والمنطلق مما تمثله المنطقة من أهمية خاصة في الاستراتيجية الأمريكية في الحرب على «الإرهاب»، فضلاً عن ثروات المنطقة المتعددة.

وعكست قرارات مجلس الأمن الرؤية الأمريكية البريطانية، والتي تسعى لتفتيت السودان باسم «الشرعية الدولية»، فهي تعمل على إعادة هندسة المنطقة من الناحية الجيوبوليتيكية؛ بما يحقق لها أهدافها ومصالحها التوسعية، والقضاء على الحركات الإسلامية في المنطقة.

ويبدو أن مستقبل التناحر والحروب السودانية لا يخرج عن واحد من سيناريوهات ثلاثة: فإما التركيب القائم على معايير الانتماء الجغرافي بعيداً عن الهوية الدينية، وإما تفكيك وتقسيم السودان إلى مجموعة من الكيانات ذات ارتباطات إقليمية مختلفة، وإما إعادة الفك والتركيب معاً.

إن الدعوة إلى التمسك بالذات الحضارية للأمة العربية بترائنها الثقافي والإسلامي تمثل المدخل الصحيح لهذه المواجهة التي يقودها الغرب تحت ذرائع ومسميات شتى، تستبطن في جوهرها العداء الدفين للعرب والمسلمين. يعني ذلك أن يكون حديث النهضة هو شاغل الأمة.

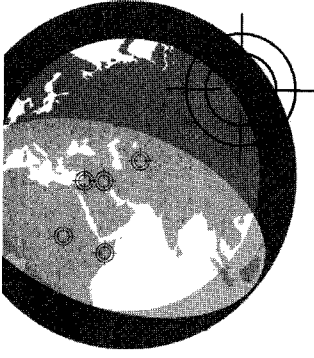
أفكار ومقتطفات

- المتأمل في أدبيات السياسة الغربية تجاه العالم غير الغربي عمومًا يلاحظ أنها تتستر دومًا وراء دعاوي إنسانية وأخلاقية، تهدف في حقيقة أمرها إلى السيطرة والنهب، وقد أظهرت أحداث ١١ سبتمبر ونداعياتها تلك النزعة المتأصلة في الوجدان الغربي.
- الحالة السودانية، وما تطرحه من تنافس دولي واضح، تمثل صورة مصغرة للمشهد الإفريقي العام في عصر الهيمنة الأمريكية. بيد أنها تضيف مع ذلك ملامح ودلالات أخرى؛ نظرًا لارتباطها المباشر بمنظومة الأمن القومي العربي والإسلامي.
- قبل أن تحصل السودان على استقلالها رسميًا بعام واحد، أي في عام ١٩٥٥ قادت حركة أنيانا الانفصالية الحرب من أجل انفصال الإقليم الجنوبي عن البلاد. وقد استمرت تلك الحرب حتى عام ١٩٧٢، حينما وقَّع الرئيس جعفر النميري اتفاق أديس أبابا، والذي اعترف فيه بالحكم الذاتي للجنوب.
- السياسة البريطانية، التي كانت تقوم عمومًا على الحكم غير المباشر، كانت تهدف إلى تطوير هوية جنوبية منفصلة عن الشمال، وربما أنها كانت تفكر في ضم هذا الكيان الجنوبي الهش إلى أوغندا أو الحبشة.
- أشار أحد الكُتَّاب السودانيين البارزين إلى أن أزمة دارفور لا علاقة لها بمشكلة التهميش أو توزيع الثروة في السودان، وإنما ترجع أساسًا إلى الصراع بين جناحي الحركة الإسلامية السودانية (حزب المؤتمر الوطني الحاكم وحزب المؤتمر الشعبي المعارض).
- لا شك أن تسييس مطالب أبناء دارفور على أيدي الأحزاب التقليدية القوية، أو على أيدي الحكومات العسكرية السودانية قد أضفى على الأزمة طابع التعقيد الشديد.
- لا يمكن إغفال دور القوى والمؤسسات الغربية على مجريات الصراع في دارفور، ومحاولة توصيفه بأنه عرقي وإبادة جماعية منظمّة تقوم بها القبائل العربية بدعم حكومي ضد العناصر الإفريقية في الإقليم، وليس بخافٍ أن هذا البعد الخارجي أضفى مزيدًا من التعقيد والتشابك على الصراع الدارفوري.
- ثمة أطماع واضحة من جانب بعض دول الجوار والقوى الدولية تجعلها تسعى لكسب موطنٍ قدم لها في الإقليم. فدارفور غنية بالثروات الطبيعية.
- إن الأزمة في شرق السودان تمثل الأزمة المنسية، سواء على مستوى الصراع الداخلي أو على مستوى التضخيم الإعلامي الدولي لقضايا السودان ومشاكله. ونُعدّ المنطقة الشرقية أشد مناطق السودان فقرًا على الرغم من أهميتها الاستراتيجية.

- الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لم تشجع المبادرة المصرية الليبية لتسوية الصراع في السودان. وفي المقابل فإنها ساندت جهود منظمة الإيجاد، أي أنها فضّلت الحل الإفريقي على الحل العربي.
- لم تمثل مسألة انتشار «الأصولية» الإسلامية في السودان مصدر خوف لدول الجوار فقط، بل مثلت أيضًا مصدر اهتمام بالنسبة للإسرائيليين؛ الذين قاموا بتدريب بعض اللاجئيين السودانيين في دول الجوار الإفريقية.
- إن محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا في يونيو ١٩٩٥ قد أدت إلى تفاقم العلاقات المتوترة بالفعل بين إثيوبيا والسودان من جهة وبين السودان ومصر من جهة أخرى.
- حظيت قضايا السودان باهتمام مؤسسات العمل الإفريقي المشترك؛ مثل الاتحاد الإفريقي والمنظمة الحكومية للتنمية (إيجاد)، والتي قامت بدور فاعل في الأزمة السودانية وتطوراتها، مقارنة بتراجع الدور العربي والإسلامي. فالسودان لم يغب قط عن جدول أعمال القمة الإفريقية.
- ما فتئت الإدارة الأمريكية تصور السودان على أنه دولة عاصية، وهو ما استلزم تبني سياسة العزل والاحتواء ضدها.
- أصدر الكونجرس في الأول من يوليو عام ١٩٩٩ قرارًا يدين فيه الحكومة السودانية بتجارة العبيد، أو التستر عليها، واختطاف المواطنين لهذا الغرض. ولعل مسارعة الكونجرس إلى اعتبار ما يحدث في دارفور إبادة جماعية ضد القبائل الإفريقية يعبرٌ مجددًا عن هذا التوجه.
- لعبت أوروبا دورًا بارزًا في التوصل إلى اتفاق أديس أبابا عام ١٩٧٢؛ ذلك عن طريق المنظمات الكنسية (السويد والدنمارك والنرويج وبريطانيا وسويسرا). كما أن أوروبا شكّلت الشريك التجاري الأول للسودان؛ حيث كانت صادراته و وارداته تتجه نحو أوروبا وتأتي منها. وكانت أوروبا حريصة على اكتشاف الموارد الطبيعية في السودان وعلى رأسها النفط.
- يغطي مشروع النفط الصيني المشترك مساحة تصل إلى نحو خمسين ألف ميل مربع في جنوب السودان. ومن المتوقع أن يصل إنتاجه السنوي إلى نحو ١٥ مليون طن من النفط الخام. كما يبلغ الاحتياطي النفطي لهذا المشروع نحو ٢٢٠ مليون طن، وهو ما يجعله من أكبر المشاريع الصينية النفطية في الخارج.
- بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عادت السودان ومنطقة القرن الإفريقي مرة أخرى لتحتل مكانة بارزة في الاستراتيجية الأمريكية الكبرى، وفي إطار الرؤية الأمريكية للحرب على «الإرهاب».

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

- يوجد نحو ١٧٠٠ عسكري أمريكي في قاعدة ليمونير، وهي قاعدة فرنسية سابقة في جيبوتي. وثمة قوات عسكرية أمريكية صغيرة العدد في إثيوبيا؛ بهدف تدريب الجيش الإثيوبي والتعاون الاستخباراتي أيضًا.
- القرن الإفريقي الجديد يشمل نظمًا ذات توجهات علمانية غير عروبية وموالية للغرب. وفي هذه الحالة قد يصبح جنوب السودان المستقل جزءًا من هذا المشروع. كما أن دول الأطراف الجنوبية في النظام الإقليمي العربي، وهي جيبوتي والصومال تدخل في إطار هذا التعريف؛ على أن القيادة تظل غير عربية وغير إسلامية.
- الترتيبات الإقليمية الجديدة تستهدف بالأساس النظامين الإقليميين العربي والإفريقي، وتدفع قدمًا نحو التخلي عن الأهداف والمصالح الجماعية لكل من العرب والأفارقة، ولتمهد الطريق أمام ترتيبات أخرى لا تنبع من المنطقة.
- حاولت أمريكا والدول الغربية من خلال تدخلها المباشر في تطورات الأزمة السودانية أن تقضي التوجهات العروبية والإسلامية في مقابل طرح توجهات علمانية غير عربية.
- السياسة الأمريكية والغربية عمومًا في السودان ومنطقة القرن الإفريقي إنما هي استمرار للجهود الغربية الرامية لإعادة صوغ العالم غير الغربي فكًا وتركيبًا؛ بما يخدم مصالحهم وأهدافهم العليا.
- فالسودان يصبح وقت التكامل والقوة دفاعًا حصينًا لمنظومة الأمن القومي العربي والإسلامي، وفي حالة الانقسام والتفكك عامل اختراق وضعف لأي منظومة أمنية يرتبط بها. ومن وجهة النظر الجغرافية السياسية، يُعدّ السودان الفناء الخلفي من العالم العربي، وأيضًا البوابة الجنوبية للبلدان العربية إلى إفريقيا.
- تحاول الولايات المتحدة إعادة التركيب الاستراتيجي لمنطقة القرن الإفريقي الكبير الذي يضم جنوب السودان.
- إن الدعوة إلى التمسك بالذات الحضارية للأمة العربية، بتراتها الثقافي والإسلامي، تمثل المدخل الصحيح لهذه المواجهة التي يقودها الغرب تحت ذرائع ومسميات شتى، نستبطن في جوهرها العداوة الدفين للعرب والمسلمين.



التدخل الدولي في السودان وأثره عربياً وإفريقياً

أ.د/ حمدي عبد الرحمن حسن - مصر

أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة

مقدمة:

السودان كما يقول حسن مكّي هو «اختزال الإنسان إفريقياً؛ حيث أصبح السودان مستودعاً للأجناس الإفريقية ولغاتها، وعاداتها وأديانها وتقاليدها، وانعكس ذلك على الشخصية السودانية التي هي جماع الشخصية الإفريقية العربية، وأصبح السودان بذلك أرض السماحة الاجتماعية والتعايش السياسي والديني».

فما الذي أدى إلى اقتتال أهل السودان؟ وكيف للمرء أن يفهم الدوافع الحقيقية لحروب السودان المعاصرة؟ صحيح أن نظرية المؤامرة قد لا تجد دعماً علمياً في أغلب الحالات، لكننا والحالة السودانية هذه نُغلي من أهمية التدخلات الخارجية التي صاحبها أخطاء جسيمة ارتكبها أهل السودان أنفسهم. وسوف تحاول هذه الورقة تحليل الأزمة السودانية بمختلف أبعادها الداخلية والخارجية، والانعكاسات المترتبة عليها داخلياً وإقليمياً، بالإضافة إلى استشراف آفاق المستقبل، وما تؤول إليه الأحوال من خلال المحاور الأربعة التالية:

- أزمة الدولة والمجتمع في السودان: محاولة فهم الأزمة الهيكلية التي يعانيها السودان منذ الاستقلال، والتي اتخذت شكل حروب مدمرة في مناطق شاسعة.
- مواقف وتدخلات الأطراف الدولية، سواء من

تحاول القوى الغربية، ومنذ الحملة النابليونية على مصر عام ١٧٩٨، أن تعيد صياغة وتشكيل المنطقتين العربية والإفريقية؛ بما يخدم أهدافها ومصالحها الاستعمارية. والمتأمل في أدبيات السياسة الغربية تجاه العالم غير الغربي عموماً يلاحظ أنها تستتر دوماً وراء دعاوى إنسانية وأخلاقية، تهدف في حقيقة أمرها إلى السيطرة والنهب. وقد أظهرت أحداث ١١ سبتمبر، وتداعياتها تلك النزعة المتأصلة في الوجدان الغربي.

إن القراءة الواعية للتاريخ تبيّن بجلاء أن الأهداف الاستعمارية الغربية في المنطقتين العربية والإسلامية واحدة، وإن تباعدت بينها الأزمنة والدهور. ويمكن القول: إن الحالة السودانية، وما تطرحه من تنافس دولي واضح تمثل صورة مصغرة للمشهد الإفريقي العام في عصر الهيمنة الأمريكية. بيد أنها تضيف مع ذلك ملامح ودلالات أخرى؛ نظراً لارتباطها المباشر بمنظومة الأمن القومي العربي والإسلامي، وبحسبانها نقطة التقاء وتمازج بين عوالم حضارية متعددة: العروبة، والإفريقية، والإسلام. إن إنسان

تخطيط الحدود الإدارية بين الشمال والجنوب. أدى ذلك إلى اندلاع المرحلة الثانية من الحرب الأهلية في جنوب السودان، والتي استمرت حتى توقيع اتفاق السلام الشامل عام ٢٠٠٥. وقد نُظِرَ إلى هذه الحرب بحسبانها واحدة من أطول الحروب الأهلية في إفريقيا؛ حيث أدت إلى مقتل نحو مليونين من الأفراد، بالإضافة إلى تشريد الملايين.

ولفهم حقيقة الصراع في جنوب السودان، سواء في مرحلته الأولى أو الثانية نشير إلى عدد من الاعتبارات الهامة:

أولها: أن معظم الأدبيات التي تناولت الحرب في جنوب السودان ولا تزال تُضفي عليه بُعدًا أيديولوجيًا وسياسيًا؛ فكثيرًا ما يتم تصويره في إطار ثنائيات جامدة كالانقسام بين العروبة

والإفريقية، أو بين الإسلام والمسيحية، أو بين الشمال والجنوب وهكذا.

وثانيًا: ثمة مجموعة من العوامل التاريخية تُشكّل مدخلًا مهمًا لفهم الصراع وتطوره ومآله في الجنوب، ولعل أبرزها المكونات الثقافية والحضارية التي شكّلت المجتمع السوداني قبل الاحتلال البريطاني؛ بالإضافة إلى السياسة البريطانية تجاه الجنوب تحديدًا، والتي جعلت منه منطقة معزولة يحظر على الشماليين الوصول إليها إلا بإذن مسبق. أي أن السياسة البريطانية، التي كانت تقوم عمومًا على الحكم غير المباشر، كانت تهدف إلى تطوير هوية جنوبية منفصلة عن الشمال، وربما أنها كانت تفكر في ضم هذا الكيان الجنوبي الهش إلى أوغندا أو الحبشة.

أما الاعتبار الثالث: فإنه يشير إلى فشل مشروع الدولة الوطنية في السودان بعد الاستقلال، وعدم

قبل دول الجوار، أو الدائرة العربية والإسلامية، أو الأطراف الأمريكية والغربية. فضلاً عن تحليل الموقف الصيني، وموقف الأمم المتحدة.

- تأثير التدخل الدولي في السودان على المنطقتين العربية والإفريقية.
- سيناريوهات مآل الوضع السوداني.

أولاً: أزمة الدولة والمجتمع في السودان:

إذا كان الجدل الذي ساد المشهد السوداني حتى قبل الاستقلال عام ١٩٥٦، وإلى اليوم يتركز حول خطاب الهوية العربية والإسلامية؛ فإن إشكالية السلطة وتوزيع الثروة مثّلت محور الصراعات، والحروب الأهلية التي شهدتها السودان في الجنوب والغرب والشرق. فقد رفعت جماعات التمرد مطالب مُلحّة ضد سياسات التهميش والإقصاء التي تعرضت لها مجتمعاتها طيلة سنوات ما بعد الاستقلال. بيد أن هذا الصراع اكتسب منذ بدايته أبعادًا إقليمية وقارية ودولية أضفت عليه مزيدًا من التعقيد والتشابك.

١- الحرب الأهلية في الجنوب:

لم يمتلك السودان قبل الاستقلال تقاليد الدولة الوطنية المتجانسة، وإنما شهد تعددًا وتنوعًا في الثقافات والديانات والأعراق، حتى إنه استحق وصف مرآة إفريقيا.

وقبل أن تحصل السودان على استقلالها رسميًا بعام واحد، أي في عام ١٩٥٥ قادت حركة إنيانيا الانفصالية الحرب من أجل انفصال الإقليم الجنوبي عن البلاد. وقد استمرت تلك الحرب حتى عام ١٩٧٢، حينما وقّع الرئيس جعفر النميري اتفاق أديس أبابا، والذي اعترف فيه بالحكم الذاتي للجنوب. استمر هذا الاتفاق حتى عام ١٩٨٣، حينما أعاد النميري تقسيم الجنوب، وألغى حكومته الإقليمية، فضلاً عن إعادة

حالة عدم الاستقرار السياسي
وخضوع السودان لحكم العسكريين
لفترات طويلة، وانتشار الفساد،
كلها عوامل مهمة في تفسير الحرب
الأهلية في الجنوب

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

عندي أن المدخل القبلي في فهم الصراع الدارفوري أمر معيب؛ سواء من حيث المنطق الذي يقوم عليه أو المنهج الذي يسترشد به.

- الملاحظة الثانية: تتعلق بأهمية البعد السياسي للصراع في دارفور: فقد أشار أحد الكُتَّاب السودانيين البارزين إلى أن أزمة دارفور لا علاقة لها بمشكلة التهميش، أو توزيع الثروة في السودان، وإنما ترجع أساسًا إلى الصراع بين جناحي الحركة الإسلامية السودانية (حزب المؤتمر الوطني الحاكم، وحزب المؤتمر الشعبي المعارض). ولا شك أن تسييس مطالب أبناء دارفور على أيدي الأحزاب التقليدية القوية، أو على أيدي الحكومات العسكرية السودانية قد أضفى على الأزمة طابع التعقيد الشديد.

الملاحظة الثالثة: ترتبط بأهمية البعد الخارجي في الصراع؛ إذ لا يمكن إنكار دور الامتداد الإقليمي لبعض قبائل الإقليم؛ فالرئيس التشادي إدريس ديبي وبعض وزرائه ينتمون إلى قبائل الزغاوة. ولقد كان أول قائد ميداني لجيش تحرير دارفور الذي أطلق شرارة التمرد الأول عام ٢٠٠٣، السيد عبد الله أكبر أحد قادة الهجوم الناجح الذي انطلق من دارفور عام ١٩٩٠ ليدفع بإدريس ديبي إلى سدة السلطة في تشاد.

وعلى صعيد تنافس القوى الكبرى في السيطرة على مناطق النفوذ في عام ما بعد ١١ سبتمبر لا يمكن إغفال دور القوى والمؤسسات الغربية على مجريات الصراع في دارفور، ومحاولة توصيفه بأنه عرقي، وإبادة جماعية منظمة تقوم بها القبائل العربية بدعم حكومي ضد العناصر الإفريقية في الإقليم، وليس بحافٍ أن هذا البعد الخارجي أضفى مزيدًا من التعقيد والتشابك على الصراع الدارفوري.

٣- محاولة فهم الصراع في دارفور:

أزمة دارفور قديمة من حيث مسبباتها والعوامل المفضية إليها، فهي بمثابة صراع على الأرض

قدرته على تحقيق الاندماج القومي بين مختلف مكونات الجسد الاجتماعي؛ وذلك من خلال التأكيد على تقاليد المواطنة والهوية الوطنية الجامعة. وعدم انتهاج سياسات التهميش أو الإقصاء لأي طرف من الأطراف. وهكذا فإن حالة عدم الاستقرار السياسي، وخضوع السودان لحكم العسكريين لفترات طويلة، وانتشار الفساد، كلُّها عوامل مهمة في تفسير الحرب الأهلية في الجنوب.

ومن جهة رابعة فإنه لا يخفى أهمية العوامل الاقتصادية وتقسيم الثروة والموارد. يتضح ذلك بجلاء من تطور مشروع قناة جونجلي، والنظر إليه من قِبَل الجنوبيين على أنهم سوف يُحرِّمُون من مواردهم الطبيعية لصالح الشمال. كما أن اكتشاف النفط في الجنوب أضاف بُعدًا مهمًا لفهم الصراع.

وأخيرًا يبقى المتغير الخارجي في دعم أطراف الصراع، والتدخل في تفاعلاته المختلفة، وكذلك التحكم في آليات تسويته ليشكل المتغير الأهم في دراسة حالة الحرب الأهلية في الجنوب.

٢- الصراع في دارفور:

إذا أخذنا المسألة الدارفورية في سياقها الوطني مع تجريدها من أبعادها الخارجية لوجدنا أنها تعبر عن أزمة المشروع «الوطني»، وتطرح على المحك إشكاليات الهوية والمواطنة، والدور التوزيعي للدولة الوطنية في السودان. بيد أن الاهتمام الغربي بالأزمة - مع استخدام مناهج ومداخل معينة في تفسير الصراع - يفرض علينا أن نشير في البداية إلى عدد من الملاحظات التمهيدية نجدها لازمة لفهم حقيقة ما يحدث في دارفور بخاصة والسودان بعامة:

- الملاحظة الأولى: تتعلق بصعوبة القبول بالمدخل الديني أو القبلي لفهم الصراع في دارفور: فالإقليم تقطنه قبائل عدة تدين بالإسلام، وهي تنتسب لقبائل عربية وإفريقية. والملفت للأمر أن غالبية القبائل الدارفورية تدَّعي نسبًا للعرب. والرأي

أو على مستوى التضخيم الإعلامي الدولي لقضايا السودان ومشاكله. وتعد المنطقة الشرقية أشد مناطق السودان فقرًا، على الرغم من أهميتها الاستراتيجية؛ إذ يحدها البحر الأحمر شرقًا وإريتريا وإثيوبيا جنوبًا، ومصر شمالًا، وتبلغ مساحتها ١١٠ ألف ميل مربع. ومن الناحية الإدارية تضم ثلاث ولايات هي: كسلا وقضارف والبحر الأحمر.

وإذا كان الشرق السوداني يمثل البوابة الرئيسية التي انتقلت عبرها المؤثرات العربية والإسلامية إلى المنطقة، وحدث من خلالها التمازج والتصاهر بين العروبة والإفريقية والإسلام؛ فإنه لا يزال يمثل منفذ السودان الملاحي إلى العالم الخارجي؛ حيث يضم الموانئ البحرية الرئيسية، بالإضافة إلى ميناء بشاير النفطية. والإقليم يحتوي على كميات كبيرة من الغاز الطبيعي ومناجم الذهب.

وقد طرحت قضايا البجا الذين يشكلون نسبة كبيرة من سكان الشرق عبر منتمديات سياسية، ومن داخل الأحزاب السودانية التقليدية. بيد أن قضاياهم المتمثلة في التهميش، وعدم التمثيل في السلطة والثروة ظلت طي النسيان. دفع ذلك بحركة المقاومة في الشرق إلى حمل السلاح، ومشاركة حركات التمرد الأخرى، ولاسيما في الجنوب السوداني من أجل تحقيق هذه المطالب. وقد استفادت الحركة الشعبية لتحرير السودان من هذا التحالف بشكل كبير. وعليه فقد كانت الحكومة حريصة على أن يتم النص في اتفاق نيفاشا مع الحركة الشعبية على سحب القوات الجنوبية من الشرق.

وقد وجدت قوات التمرد من البجا وقبائل الرشايدة البدوية العربية دعمًا ومساندة خارجية، ولاسيما من إريتريا، وهو ما فتح جبهة جديدة في مواجهة القوات الحكومية. غير أن توقيع اتفاق سلام شامل

والموارد؛ وأجدته حاجة الإنسان الدارفوري لمصادر المياه والعشب. ونتيجة لشح هذه الموارد ونُضوب المياه تزداد احتمالات الاحتكاك القبلي، والتي قد تصل إلى حد الاحتراب. على أن الصراع اتخذ بعدًا آخر نتيجة المشاحنات التي قد تحدث بين القبائل الرعوية المرتحلة، وهي في غالبيتها من العرب وبين القبائل الزراعية المستقرة، وهي في غالبيتها من الأفارقة.

بيد أن الصراع المطروح يتعلق بفهم الصراع في دارفور من وجهة نظر سياسية؟ نستطيع أن نشير إلى العناصر التالية:

أ- تداعيات الحرب الأهلية في الجنوب، وعدم الاستقرار في مناطق الجوار الجغرافي. وقد أفضى ذلك إلى سهولة تدفق الأسلحة بكافة أنواعها إلى الإقليم.

فالجبهة الشعبية لتحرير السودان، بزعامة جون قرنق آنذاك، حاولت نقل المواجهة مع

الخرطوم إلى الإقليم الغربي، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. بيد أن التأثيرات الفكرية والتنظيمية لفصيل التمرد الرئيسي في الجنوب باتت واضحة على حركة تحرير السودان الدارفورية.

ب- انتشار عمليات النهب المسلح في إقليم دارفور نتيجة غياب الأمن به.

ج- الصراع الدولي في دارفور: فثمة أطماع واضحة من جانب بعض دول الجوار والقوى الدولية؛ تجعلها تسعى لكسب موطئ قدم لها في الإقليم. فدارفور غنية بالثروات الطبيعية.

٤- الأزمة المنسية في شرق السودان:

يمكن القول بأن الأزمة في شرق السودان تمثل الأزمة المنسية، سواء على مستوى الصراع الداخلي،

توقيع اتفاق سلام شامل مع الجنوب، ومع دارفور ترك القوات المتمردة في الشرق بدون حليف داخلي وبدون رغبة إرثرية في استمرار الصراع مع الحكومة السودانية

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية أصبح الحال كما كان عليه في المرحلة الأولى، حيث ساندت البلدان المجاورة قوات التمرد في الجنوب السوداني.

ومثلت كل من إريتريا وإثيوبيا وكينيا وأوغندا مصدر الدعم العسكري واللوجستي الرئيسي لحركة وجيش تحرير السودان.. ويبدو أن مصر، وهي حليف استراتيجي للسودان قد تحول موقفها، ولو بحذر شديد لصالح الجيش الشعبي لتحرير السودان. وربما يعزى ذلك التحول في الموقف المصري إلى الخوف من انتشار «الأصولية» الإسلامية عبر السودان. كما أن محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا في يونيو ١٩٩٥ قد أدت إلى تفاقم العلاقات المتوترة بالفعل بين إثيوبيا والسودان من جهة، وبين السودان ومصر من جهة أخرى.

وعلى صعيد الحرب في دارفور فإن الحكومة التشادية تدعم جماعات المتمردين في الإقليم من خلال السماح لها بالعمل انطلاقاً من قواعد في الأراضي التشادية. وتزعم تشاد أن السودان يساعد المتمردين التشاديين في محاولتهم لقلب نظام الرئيس التشادي.

وقد حظيت قضايا السودان باهتمام مؤسسات العمل الإفريقي المشترك مثل الاتحاد الإفريقي والمنظمة الحكومية للتنمية (إيجاد)، والتي قامت بدور فاعل في الأزمة السودانية وتطوراتها مقارنة بتراجع الدور العربي والإسلامي. فالسودان لم يرغب قط عن جدول أعمال القمة الإفريقية.

ومنذ عام ٢٠٠٤ أصبح للاتحاد الإفريقي قوات مراقبة وحفظ للسلام في دارفور، وصل حجمها في أبريل ٢٠٠٥ إلى نحو سبعة آلاف جندي. ومن الواضح أن الولايات المتحدة وأوروبا تفضل استخدام آليات العمل الإفريقية لتحقيق أهدافها ومصالحها الاستعمارية الجديدة في المنطقة.

ويمكن تلخيص العلاقات السودانية مع دول الجوار الإفريقي على النحو التالي:

مع الجنوب، ومع دارفور ترك القوات المتمردة في الشرق بدون حليف داخلي، وبدون رغبة إريتريّة في استمرار الصراع مع الحكومة السودانية. دفع ذلك كله إلى القبول بتسوية سلمية في شرق السودان في نهاية عام ٢٠٠٦.

ثانياً: مواقف وتدخلات الأطراف الدولية:

يلاحظ أن الموقف العربي ممثلاً، في الجامعة العربية، والإسلامي ممثلاً في منظمة المؤتمر الإسلامي لم يكن فاعلاً في تطورات الشأن السوداني. فالدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لم تشجع المبادرة المصرية الليبية لتسوية الصراع في السودان. وفي المقابل فإنها ساندت جهود منظمة الإيجاد، أي أنها فضلت الحل الإفريقي على الحل العربي.

١- موقف دول الجوار الإفريقي:

لا يمكن إغفال الدور الذي قامت به دول الجوار الجغرافي في الحرب الأهلية في السودان على مدى سنوات. فتشاد وإثيوبيا وكينيا وأوغندا وزائير (حالياً جمهورية الكونغو الديمقراطية) سمحت «لإسرائيل» بإقامة مراكز عسكرية في أراضيها؛ لتدريب مقاتلي حركة أنيانيا الانفصالية في السودان. وقد عانت بعض هذه البلدان المجاورة، لا سيما إثيوبيا وكينيا وزائير من الحروب الأهلية الداخلية ووجود دعوات مطالبة بحق تقرير المصير أو الانفصال. ولم تمثل مسألة انتشار «الأصولية» الإسلامية في السودان مصدر خوف لدول الجوار فقط، بل مثلت أيضاً مصدر اهتمام بالنسبة للإسرائيليين الذين قاموا بتدريب بعض اللاجئين السودانيين في دول الجوار الإفريقية.

ويلاحظ أن مصر وليبيا من دول الجوار العربي في الشمال هما اللتان قدمتا المساعدة العسكرية والمالية للسودان. وبينما كانت إثيوبيا تدعم حركات تحرير السودان، وحينما اشتعلت الحرب الأهلية مرة أخرى في السودان بعد عام ١٩٨٣، حينما أعلن النميري

أ- الموقف الأمريكي تجاه السودان:

منذ وصول نظام الإنقاذ إلى السلطة عام ١٩٨٩، وتحالفه مع الجبهة القومية الإسلامية بزعامة حسن الترابي، والسودان يمثل دولة عاصية وفقاً للرؤية الأمريكية.

وقد عمد الخطاب السياسي الأمريكي على تقديم صورة نمطية عن نظام الإنقاذ في السودان تستند على ثلاثة مزاعم أساسية:

- انتهاك حقوق الإنسان؛ حيث تطرح قضايا الرق، والإكراه القسري على اعتناق دين معين، أي غياب الحرية الدينية.
- اعتبار السودان دولة راعية للإرهاب؛ بحسبانها توفر مأوى لكثير من الجماعات والمنظمات الإرهابية الدولية.

- حرمان أبناء الجنوب والمناطق المهمشة من حقهم في تقرير المصير.

وما فتئت الإدارة الأمريكية تصور السودان على أنه دولة عاصية، وهو ما استلزم تبني سياسة العزل والاحتواء ضدها. ففي عام ١٩٩٣ تم تصنيف السودان باعتباره دولة راعية للإرهاب. وقامت الولايات المتحدة باستخدام نفوذها لدى الدول العربية والمنظمات الدولية لفتح ملف حقوق الإنسان في السودان. وفي أكتوبر ١٩٩٧ فرضت الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية وتجارية ومالية على السودان. وقد ازدادت العلاقات بين البلدين تعقيداً في أعقاب الهجوم على السفارتين الأمريكيتين في كل من نيروبي ودار السلام، حيث قامت واشنطن بشن هجوم صاروخي على مصنع الشفاء للأدوية البيطرية في الخرطوم.

ومع ذلك يمكن تفهّم التحرك الأمريكي في مواجهة السودان من خلال اعتبارات ثلاثة على النحو التالي: الاعتبار الأول: يشير إلى متغيرات السياسة الأمريكية الداخلية، ولاسيما تأثير النشطين الأمريكيين من أصول إفريقية داخل الكونجرس

أولاً: شكّلت المخاوف من قيام السودان بزعة الاستقرار في هذه الدول عاملاً مهماً في أذهان مخططي سياستها الخارجية. فانتشار «الأصولية» الإسلامية في المنطقة يعتبر القوة الدافعة الرئيسية وراء سلوك السياسة الخارجية في المنطقة.

ثانياً: العمل على احتواء السودان، والتحكم في سلوكه الخارجي أصبح عنصراً هاماً في سياسات جيرانه فرادى أو مجتمعين.

ثالثاً: حظيت مسألة تقرير المصير للجنوب بدعم دول الجوار الإفريقي للسودان. وهكذا فإن دعم حركات التحرير العاملة في السودان، من ناحية، وفي البلدان المجاورة، من جهة أخرى، أصبح أسلوب العمل السائد في المنطقة، وهو ما أدى إلى استمرار ودعم هذه الحركات.

٢- المواقف الدولية:

إذا كانت مرحلة التكالب الاستعماري على إفريقيا يؤرخ لها بانعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤-١٨٨٥، والذي أعطى القوى الأوروبية الكبرى حق تقسيم إفريقيا فيما بينها؛ فإن التكالب الجديد على استغلال خيرات إفريقيا، واستعمارها تحت رداء آخر بدأت تتضح معالمه بعد نهاية الحرب الباردة. وقد اتخذ هذا الصراع من أجل النفوذ والسيطرة أبعاداً جديدة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وارتداء عصر العولمة الأمريكية رداء العسكرة والأمن على صعيد عالمي. وقد برز الدور الأمريكي في إفريقيا عموماً، وفي السودان خصوصاً، وهو ما أدى إلى تراجع دور القوى الاستعمارية السابقة مثل فرنسا وبريطانيا.

كما أن ظهور الصين والهند وبعض القوى الآسيوية الفاعلة على الساحة السودانية قد أضفى على الصراع الدولي في السودان بُعداً جديداً. فالصين على سبيل المثال لها مصالح نفطية واقتصادية واسعة في السودان وإفريقيا، وهو ما يبرر توفيرها للدعم العسكري واللوجستي لكثير من النظم الإفريقية.

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

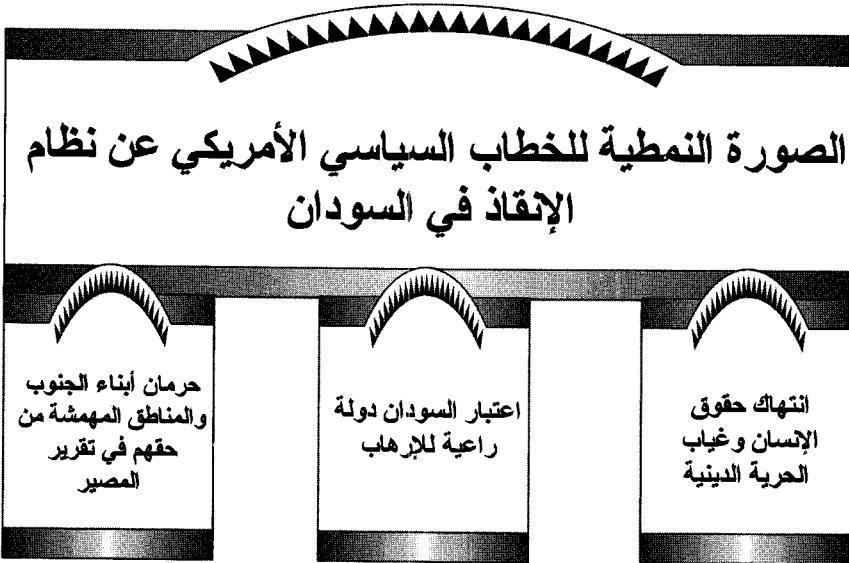
الاستراتيجية الأمريكية في السودان؛ إذ يشكل حوض النيل - بما يحويه من ثروات وموارد طبيعية - ركيزة أساسية للتواجد الأمريكي. وفي عالم التكنولوجيا و«السوفت وير» تصبح الثروة المعدنية الهائلة التي يتربع عليها غرب السودان «إقليم دارفور الملتهب» والغرب الإفريقي عمومًا مطمعًا لأي إدارة أمريكية؛ مهما كانت توجهاتها السياسية.

ب- الموقف الأوروبي والدولي:

يلاحظ أن السودان شكّل دومًا أهمية استراتيجية واقتصادية للدول الأوروبية، وهو ما اتضح في شكل وحجم العلاقات خلال مرحلة ما قبل الإنقاذ عام

الأمريكي؛ بالإضافة إلى دور المنظمات المسيحية الأنجليكانية التي تحاول إضفاء الطابع الديني على الصراعات الدائرة في كل أنحاء السودان. وبالفعل أصدر الكونجرس في الأول من يوليو عام ١٩٩٩ قرارًا يدين فيه الحكومة السودانية بتجارة العبيد، أو التستر عليها، واختطاف المواطنين لهذا الغرض. ولعل مسارعة الكونجرس إلى اعتبار ما يحدث في دارفور إبادة جماعية ضد القبائل الإفريقية يُعبّر مجددًا عن هذا التوجه.

الاعتبار الثاني: ويشير إلى موقع السودان في الحرب الأمريكية على الإرهاب؛ إذ ركزت الولايات المتحدة على منطقة القرن الإفريقي؛ حيث توجد



١٩٨٩. فقد لعبت أوروبا دورًا بارزًا في التوصل إلى اتفاق أديس أبابا عام ١٩٧٢، ذلك عن طريق المنظمات الكنسية (السويد والدنمارك والنرويج وبريطانيا وسويسرا). كما أن أوروبا شكّلت الشريك التجاري الأول للسودان؛ حيث كانت صادراته و وارداته تتجه نحو أوروبا وتأتي منها. وكانت أوروبا حريصة على اكتشاف الموارد الطبيعية في السودان وعلى رأسها النفط. بيد أن العلاقات الأوروبية السودانية أصابها الوهن والتوتر منذ قيام نظام الإنقاذ عام ١٩٨٩؛

أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في جيبوتي. بيد أن التفكير الاستراتيجي الأمريكي قد وسّع مؤخرًا من الاعتبارات الأمنية لتشمل منطقة الساحل الإفريقي الكبرى وغرب إفريقيا؛ حيث توجد تهديدات من جانب بعض الجماعات الإسلامية في دول هذه المنطقة. وطبقًا لهذا التصور الجديد تقوم أمريكا بتوفير الدعم والتدريب لقوات إفريقية محلية؛ حيث بدأت بأربع دول هي مالي وموريتانيا وتشاد والنيجر. الاعتبار الثالث: وهو يشير إلى المصالح

عشر سنوات (الفترة من ١٩٩٦-٢٠٠٦) صدر عن الأمين العام أو مجلس الأمن الدولي نحو خمسين قرارًا أو تقريرًا أمميًا تهدف في مجملها إلى الضغط على الحكومة السودانية وتضييق الخناق عليها. ولعل من أبرز تلك القرارات، والتي تُفصي أو تكاد إلى تدويل الشأن السوداني:

• القرار ١٥٥٦ لعام ٢٠٠٤، والذي أدان الحكومة السودانية، وطالبها بتسوية أزمة دارفور، كما أيد جهود الاتحاد الإفريقي لتعزيز بعثته الخاصة بالمراقبة في الإقليم. والملفت في هذا القرار أنه اعتبر الوضع في السودان بمثابة تهديد للسلم والأمن الدوليين.

• القرار رقم ١٧٠٦ الصادر في ٣١/٨/٢٠٠٦ ينص على نشر قوات دولية في دارفور، ويدعو «حكومة الوحدة» السودانية للموافقة على القرار، رغم أنه قرار غير قابل للتنفيذ عمليًا؛

لرفض حكومة السودان نشر أي قوات والتعهد بمحاربتها. كما سبق وأن بيّننا. وعليه فإن القرار ١٧٠٦ الذي يعكس الرؤية الأمريكية البريطانية يسعى إلى تفتيت السودان باسم الشرعية الدولية، وهو ما يعكس نفس

التوجهات الاستعمارية السابقة. فهل يكون انقسام عرى الوحدة الداخلية هو المدخل الذي تستخدمه القوى الغربية لإعادة استعمار السودان تحت غطاء دولي جديد، وبما يُمكن هذه القوى من إعادة هندسة المنطقة من الناحية الجيوبوليتيكية؛ بما يحقق لها أهدافها ومصالحها التوسعية.

د- الموقف الصيني من السودان:

تعد السودان دولة نفطية واعدة؛ إذ يبلغ احتياطيها النفطي حوالي خمسة مليارات برميل، وهي تنتج نحو (٥٠٠,٠٠٠) برميل يوميًا. وطبقًا لتقديرات منظمة التجارة العالمية؛ فإن صادرات السودان النفطية إلى الصين تشكل نحو (٦٤٪) من إجمالي صادراتها النفطية عام ٢٠٠٤ (١).

حيث توقف الحوار الأوروبي السوداني في العام الثاني مباشرة؛ بسبب مزاعم خاصة بانتهاك السودان لحقوق الإنسان. بيد أن الحوار السياسي بين أوروبا والسودان قد استؤنف مرة أخرى عام ١٩٩٩؛ حيث طرحت قضايا التسوية السلمية والديمقراطية التعددية، بالإضافة إلى مسألة فصل الدين عن الدولة.

ويمكن أن نشير إلى عدد من المتغيرات دفعت باتجاه إعادة النظر في الموقف الأوروبي من السودان، ومن ذلك:

• دخول الولايات المتحدة كطرف فاعل في الشأن السوداني.

• توجه السودان شرقًا نحو آسيا، وإقامة شراكة اقتصادية مع بعض الدول الآسيوية، مثل الهند والصين.

• اكتشاف النفط، وما يعنيه من تحولات مهمة في المشهد السوداني.

• وجود ضغوط من قبل الشركات الغربية للعودة مرة أخرى للسودان؛ من أجل الاستفادة من قطاعاته النفطية وموارده الطبيعية.

وبعيدًا عن السياسة الأوروبية

المشتركة فقد تبنت بعض الدول سياسات ذات تأثير مباشر على الوضع السوداني. فبريطانيا مثلاً اتخذت موقفًا موالياً للإدارة الأمريكية في سعيها لعزل السودان؛ باعتباره دولة راعية للإرهاب. بيد أن دولاً أخرى مثل الدول الاسكندنافية وإيطاليا استطاعت من خلال منتدى أصدقاء الإيجاد أن تمارس دورًا فاعلاً في الضغط على السودان؛ للتوصل إلى تسوية سلمية مع حركات التمرد الأساسية في البلاد.

ج- مجلس الأمن والوضع في السودان:

من الملفت للنظر أن الأمم المتحدة - وبضغوط أمريكية وأوروبية - قد أولت القضية السودانية اهتمامًا خاصًا. ولعل أبرز مثال على ذلك هو أنه في غضون

وبعيدًا عن السياسة الأوروبية
المشتركة فقد تبنت بعض
الدول سياسات ذات تأثير
مباشر على الوضع السوداني

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

الأمر الذي انتهى بوضع السودان على قائمة الدول الراحية للإرهاب. وحينما انهارت الدولة الصومالية عام ١٩٩١ مُخلِّفة وراءها قوى وميليشيات متصارعة كان الخيار الأمريكي هذه المرة عسكرياً عام ١٩٩٢. بيد أن هذا الأمل الأمريكي قد تحطم مع مقتل ١٨ من قوات المارينز، وهو ما أدى إلى الخروج المهين للقوات الأمريكية من الصومال عام ١٩٩٤.

لجأت الإدارة الأمريكية بعد فشل خيار التدخل العسكري إلى طرح مبادرة القرن الإفريقي الكبير عام ١٩٩٤؛ ليشمل بالإضافة إلى الصومال وإثيوبيا وجيبوتي وإريتريا كلاً من السودان وكينيا وأوغندا وتنزانيا ورواندا وبوروندي. وبدأ الترويج الأمريكي لهذا المشروع يتخذ مناحي متعددة:

أولها: التأسيس العلمي والأكاديمي له، وهو ما ظهر في أدبيات الفكر الاستراتيجي الأمريكي خلال تلك الفترة.

وثانياً: إظهار الجانب الإنساني لهذا المشروع؛ من خلال القول بأنه يستهدف القضاء على آثار الكوارث الطبيعية كالمجاعة والتصحر؛ فضلاً عن تسوية ومنع الصراعات.

ثالثاً: توفير الدعم المادي واللوجستي للدول الصديقة في المنطقة، وهو ما عكسته مبادرة القرن الإفريقي الكبير.

رابعاً: الاعتماد على جيل جديد من القادة الأفارقة مثل: ميليس زناوي في إثيوبيا، وأسياسي أفورقي في إريتريا، ويوري موسيفيني في أوغندا، وبول كاجامي في رواندا.

على أن هذه المبادرة الأمريكية لم يحالفها النجاح وتهاوت تمامًا مع الهجوم الذي تعرضت له السفارتان الأمريكيتان في كل من دار السلام ونيروبي عام ١٩٩٨، والذي أدى إلى مقتل نحو ٢٠٠ شخص. عندئذ لجأت الولايات المتحدة إلى تفضيل الخيار العسكري مرة أخرى في محاولة منها لإظهار القوة؛

وقد بدأت الصين وارداتها النفطية من السودان عام ١٩٩٥، ومنذ أن بدأت شركة النفط الوطنية الصينية CNPC اكتشاف النفط في السودان ونشاطها يزداد اتساعاً بدرجة كبيرة، وعندما فرضت الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية وتجارية على السودان، تحركت الصين لسد الفراغ الذي تركته الشركات الغربية برحيلها من البلاد. (٢)

وتعد شركة CNPC أكبر مستثمر في قطاع النفط السوداني، حيث تمتلك نحو (٤٠٪) من أسهم شركة بترول النيل الأعظم السودانية. وتبلغ حصة الشركة الصينية من النفط نحو ١٥٠ ألف برميل يوميًا. ويغطي مشروع النفط الصيني المشترك مساحة تصل إلى نحو خمسين ألف ميل مربع في جنوب السودان. ومن المتوقع أن يصل إنتاجه السنوي إلى نحو ١٥ مليون طن من النفط الخام. كما يبلغ الاحتياطي النفطي لهذا المشروع نحو ٢٢٠ مليون طن، وهو ما يجعله من أكبر المشاريع الصينية النفطية في الخارج.

وفي عام ٢٠٠٥ بلغ عدد العمال الصينيين في السودان نحو عشرة آلاف عامل. ولا يخفى أن سياسة الصين النفطية تجاه السودان تحقق مبدأ المصالح المتبادلة. ولكي تحافظ الصين على تلك المكاسب في السودان حاولت دائماً التخفيف من غلواء الضغوط الغربية على السودان. وترى الصين أن ما يحدث في السودان هو شأن داخلي.

ثالثاً: تداعيات التدخل الدولي في السودان:

منذ أن وضعت الحرب الباردة أوزارها في نهاية أعوام الثمانينيات من القرن الماضي؛ بات واضحاً أن منطقة شرق إفريقيا تُشكّل أحد مكونات الاستراتيجية الكونية الجديدة للولايات المتحدة. ففي عام ١٩٨٩ عندما سيطرت حكومة الإنقاذ بدعم من الحركة الإسلامية على نظام الحكم في السودان نظرت إليها الإدارة الأمريكية على أنها تمثل تهديداً إسلامياً خطيراً على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، وهو

فما هي إذن الآثار المترتبة على ذلك عربيًا وإفريقيًا؟ نستطيع أن نطرح عددًا من المتغيرات على النحو التالي:

١- إعادة فك وتركيب المنطقة استراتيجيًا بما يخدم المصالح الأمريكية والغربية:

فالقرن الإفريقي الجديد يشمل نظمًا ذات توجهات علمانية غير عروبية وموالية للغرب. وفي هذه الحالة قد يصبح جنوب السودان المستقل جزءًا من هذا المشروع. كما أن دول الأطراف الجنوبية في النظام الإقليمي العربي، وهي جيبوتي والصومال تدخل في إطار هذا التعريف. على أن القيادة تظل غير عربية وغير إسلامية؛ حيث تُعطى لإثيوبيا التي ينظر إليها دومًا على أنها جزيرة مسيحية وسط بحر إسلامي في المنطقة. وإذا أخذنا في الاعتبار أن الدول العربية في الشمال الإفريقي، هي جزء من مشروع الشرق الأوسط الكبير وفقًا للرؤية الأمريكية لاتضحت لنا أبعاد عملية إعادة صياغة المنطقة أمريكيًا.

٢- تدمير المنظمات الإقليمية الرئيسية في المنطقتين العربية والإفريقية، ولاسيما جامعة الدول العربية والاتحاد الإفريقي. فالترتيبات الإقليمية الجديدة تستهدف بالأساس النظامين الإقليميين العربي والإفريقي، وتدفع قُدْمًا نحو التخلي عن الأهداف والمصالح الجماعية لكل من العرب والأفارقة، ولتمهد الطريق أمام ترتيبات أخرى لا تتبع من المنطقة. ولا شك أن هذا المنطق التفكيكي يدعو إلى استبدال الأبعاد التكاملية والتحررية لنظام الأمن الجماعي الإقليمي بمنظومة أخرى تعتمد على ضمان مصالح القوى الغربية.

٣- محاربة كل حركات الإسلام السياسي في دول المنطقة والقضاء عليها: وقد ظهر ذلك بجلاء من تجربة اتحاد المحاكم الإسلامية في الصومال؛ حيث إن الأدبيات الأمريكية بدأت تحذر من عودة نموذج طالبان في القرن الإفريقي. وقد حاولت أمريكا والدول الغربية - من خلال تدخلها المباشر في تطورات الأزمة

ولتأكيد عزمها على مواصلة الجهود لإعادة تشكيل المنطقة برمتها. وكان الهدف هذه المرة مصنع الشفاء للأدوية في العاصمة السودانية الخرطوم. وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عادت السودان ومنطقة القرن الإفريقي مرة أخرى لتحتل مكانة بارزة في الاستراتيجية الأمريكية الكبرى، وفي إطار الرؤية الأمريكية للحرب على «الإرهاب». على أنه من الملاحظ في هذه المرة أن الإدارة الأمريكية لجأت إلى التركيز على مجموعة من الأدوات والآليات الدائمة لضمان إعادة صوغ المنطقة «أمريكيًا». ومن ذلك:

أولاً: التواجد العسكري المباشر في المنطقة: إذ يوجد نحو ١٧٠٠ عسكري أمريكي في قاعدة ليمونير، وهي قاعدة فرنسية سابقة في جيبوتي. وثمة قوات عسكرية أمريكية صغيرة العدد في إثيوبيا بهدف تدريب الجيش الإثيوبي، والتعاون الاستخباراتي أيضًا. وتنتقل بعض قوات التدخل السريع من قاعدة جيبوتي لتأمين منطقة الساحل الإفريقي. بالإضافة إلى ذلك فإن ثمة تواجد بحري أمريكي مكثف في المحيط الهندي قبالة سواحل القرن الإفريقي.

ثانيًا: الاعتماد على بعض دول الأركان الإقليمية: فإثيوبيا أضحت بعد التجربة الصومالية تمثل الذراع العسكري للولايات المتحدة في القرن الإفريقي الكبير. ولعل إثيوبيا مؤهلة للقيام بهذا الدور؛ فهي تمتلك واحدًا من أكبر الجيوش الإفريقية، سواء من حيث العدد أو العدة. كما أن جيبوتي المجاورة تحتضن القاعدة العسكرية الأمريكية في المنطقة. أما كينيا فإنها يمكن أن تمثل الذراع الدبلوماسية للولايات المتحدة في حالة الحديث عن أيّ تسوية سلمية لقضايا النزاع والصراع في المنطقة. ظهر ذلك واضحًا في الدور الذي لعبته الحكومة الكينية في التوصل إلى اتفاق السلام الشامل في نيفاشا.

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

السودانية- أن تُقْصِي التوجهات العروبية والإسلامية في مقابل طرح توجهات علمانية غير عربية.

٤- التركيز على جنوب السودان؛ حيث توجد معظم آبار النفط السودانية، والتفكير في إقامة تحالف كونفيدرالي يضم جنوب السودان وأوغندا وإثيوبيا، وهو ما يشكل تهديدًا خطيرًا لأمن مصر المائي، وفي نفس الوقت تدعم تحالفات هذه الدول الاستراتيجية بالدولة العربية.

٥- إضعاف مشروع الدولة الوطنية؛ من خلال إثارة النزاعات العرقية والطائفية، وتكريس الانتماءات الأولية. ويظهر ذلك جليًا في الدول التي تعاني أصلاً من أزمة اندماج وطني. وتزداد خطورة هذا التوجه على ضوء اعتبارين

أساسيين أولهما: التوظيف السياسي لمبدأ حق التدخل الدولي الإنساني، والذي أضحى أهم معالم عصر الهيمنة الأمريكية. وثانيًا قيام الولايات المتحدة والدول الغربية برصد أشكال الاضطهاد الديني حول العالم.

٦- استقواء دول الأركان وسقوط دول الأطراف: فقيام القوات الإثيوبية وبمساعدة أمريكية بغزو الصومال عسكريًا، وفي ظل محاولات تفتيت السودان، ومع وجود حالة من العجز العربي العام يعيد إلى الأذهان نكبة النظام الإقليمي العربي عام ١٩٤٨، ونكسته عام ١٩٦٧. فالمشهد الراهن يؤكد هيمنة دول الجوار: تركيا وإيران من جهة، و«إسرائيل» من جهة ثانية، وإثيوبيا من جهة ثالثة، وذلك مقابل ضعف وعدم استقرار العراق وفلسطين والصومال والسودان وجيبوتي عربيًا.

٧- وجود قوات عسكرية أمريكية ودولية دائمة في

بعض الدول العربية (جيبوتي والعراق والسودان - في حالة تطبيق القرار ١٧٠٦-)، وهو ما يُشكّل خطرًا على نظام الأمن الجماعي العربي، وبالتالي تقويض الإرادة العربية.

٨- تغذية روح المقاومة والجهاد على المستوى الشعبي حيث تتسع الفجوة بين النخب العربية الحاكمة والشعوب العربية إزاء السياسات الأمريكية في كل من العراق وفلسطين والصومال والسودان. وعليه يصبح الشعور بالغبن والاضطهاد مبررًا لظهور حركات شعبية للمقاومة. وهو ما يعني استمرار بذور التوتر وعدم الاستقرار على المدى البعيد.

٩- الحيلولة دون تنفيذ أهداف الشراكة الجديدة لتنمية إفريقيا (النيباد) والمتعلقة بالحكم

الصالح والديمقراطية التعددية. فالأمر والحالة هذه يقتصر على دعم النخب الحاكمة الموالية للمصالح الغربية والأمريكية؛ بغض النظر عن مدى تعبيرها عن إرادة الشعوب التي تنتمي إليها. فليس شرطًا أن تكون قوات المحاكم الإسلامية تعبيرًا عن إرادة شعبية ترغب في تحقيق الأمن والاستقرار، وإنما المهم هو أنها تتعارض فكريًا وأيديولوجيًا مع المصالح الغربية.

من الواضح إذن أن السياسة الأمريكية والغربية عمومًا في السودان ومنطقة القرن الإفريقي إنما هي استمرار للجهود الغربية الرامية لإعادة صوغ العالم غير الغربي فكريًا وبما يخدم مصالحهم وأهدافهم العليا، والتي تعبر عن محورية التمرکز الغربي حول الذات، والنظر إلى الآخر غير الغربي. بيد أن اللافت هذه المرة هو وجود قوى آسيوية أخرى مثل الصين والهند تريد أن يكون لها نصيب معلوم في

من الواضح إذن أن السياسة الأمريكية والغربية عمومًا في السودان ومنطقة القرن الإفريقي إنما هي استمرار للجهود الغربية الرامية لإعادة صوغ العالم غير الغربي فكريًا

أصوات جنوبية تطالب منذ الآن بضرورة استثمار الجنوب بكامل ثرواته النفطية والطبيعية عوضاً عن التنازل عن نصفها للشمال!؟

- عزل إقليم دارفور الذي يشكل خمس مساحة السودان، وهو غني بمصادره الطبيعية، فإن لم يحصل على الحكم الذاتي أو الاستقلال فسوف يشهد قوات تدخل أجنبية، تضمن الحفاظ على المصالح الغربية هناك.

- مطالبة المناطق الشرقية باقتسام الثروة والسلطة، وهو ما يعكس تأثير نظرية العدوى. صحيح أنه تم توقيع اتفاق سلام أسمره في أكتوبر ٢٠٠٦؛ لينهي الصراع المسلح الذي كان يخوضه متمردى الشرق إلا أن هناك معارضة لا تزال تطالب بمزيد من الحقوق.

- في هذه الحالة يصبح ما بقي من الدولة السودانية؛ مفتقداً لإمكانيات البقاء والاستمرار، وهو ما يدفع لحالة من الفوضى في المنطقة قد تكون مبرراً للقوات الدولية إلى البقاء للمحافظة على تأمين مصادر النفط، وتوفير الحماية الأمنية اللازمة لمصالح الغرب الحيوية في المنطقة.

٣- سيناريو إعادة الفك والتركيب: وهو يستهدف التقليل من مخاطر الفوضى الناجمة عن السيناريو الثاني؛ حيث يرمي مثل هذا التصور الاستراتيجي إلى نوع جديد من الهندسة الجيوستراتيجية في المنطقة تقوم على ما يلي:

- عزل الشمال السوداني بثقافته العربية الإسلامية الغالبة، والسماح له بالتعبير المقيّد عن خياراته السياسية والأيدولوجية.

- إقامة دولة إفريقية تشمل مناطق الغرب والجنوب، ومن يدور في فلكها، ويمكن الحديث عن مناطق شرق السودان. وفي هذه الحالة سوف يتم التأكيد على الهوية الإفريقية لهذه الدولة الجديدة، ومن ثم تكون عنصراً مهماً في محاصرة منظومة الأمن القومي العربي، وقدرته على النفاذ في العمق الإفريقي.

- وإذا ما تحقق ذلك فإن الشمال سوف يفترق

عملية التخاطف الجديدة، سواء في السودان أم في القرن الإفريقي عموماً.

رابعاً: سيناريوهات المستقبل السوداني:

إن متابعة تطور الأحداث والقضايا المتعلقة بالأزمة السودانية بالإضافة إلى تحليل التفكير الاستراتيجي الغربي عموماً، والأمريكي على وجه الخصوص تُظهر أن ثمة نوعاً من الهندسة الجيوستراتيجية معدة للتطبيق على الواقع السوداني، وهي لا تخرج عن واحد من السيناريوهات الثلاثة الآتية:

١- سيناريو التركيب القائم على معايير الانتماء الجغرافي، وليس على أساس الهوية الثقافية أو الوطنية؛ حيث يقوم هذا السيناريو على عدد من المحاور هي:

- إلغاء المشروع الحضاري الإسلامي الذي طرحته حكومة الإنقاذ منذ وصولها إلى السلطة عام ١٩٨٩، وطرح مشروع علمنة الدولة السودانية.

- الاتفاق على إقامة الدولة الديمقراطية بمفهومها العلماني الغربي، والذي يستبعد أي تأثير للخصوصيات الثقافية والحضارية لأهل السودان.

- أفرقة الدولة والمجتمع السوداني الجديد، بما يعني ذلك محاصرة المد العربي والإسلامي، الذي ازدهر منذ بداية أعوام التسعينيات من القرن الماضي.

ولعل مشروعات التسوية التي حدثت في مناطق الأزمة الرئيسية في الجنوب والغرب والشرق السوداني، وما انطوت عليه من تنازلات كبيرة تؤكد هذا المنحنى الجديد.

٢- سيناريو التفكيك: وهو يمثل أحد الخيارات الاستراتيجية المطروحة في حالة فشل السيناريو الأول؛ حيث يتم تقسيم السودان إلى مجموعة من الكيانات ذات ارتباطات إقليمية مختلفة؛ وذلك وفقاً للتصور التالي:

- انفصال الجنوب السوداني في حالة تطبيق مبدأ حق تقرير المصير بعد الفترة الانفصالية. وثمة

والإسلامي في منطقة شرق إفريقيا من جهة، وتعمد إلى محاصرة منظومة الأمن المصري من جهة ثانية؛ بما يحقق المصالح الإسرائيلية في المنطقة من جهة أخرى. وربما يدعم هذا التوجه الإعلان الأمريكي عن إنشاء قيادة عسكرية مركزية لإفريقيا. ولتتكمّل حلقات هذا المخطط طرحت مشروع الشرق الأوسط الكبير، والذي يحاول أن يلغي مفاهيم الهوية والانتماء الثقافي؛ ليحل محلها مفاهيم الانتماء الجغرافي بمعناها المجرد. فتصبح السودان، والحالة هذه مجرد كيانات جغرافية ذات انتماءات إثنية وثقافية متعددة، وما يجمعها هو مفاهيم العلمانية والديمقراطية والرأسمالية؛ حسب الفهم «النيوليبرالي» الجديد.

إن الدعوة إلى التمسك بالذات الحضارية للأمة العربية بتراتها الثقافي والإسلامي تمثل المدخل الصحيح لهذه المواجهة التي يقودها الغرب تحت ذرائع ومسميات شتى؛ تستبطن في جوهرها العداوة الدفين للعرب والمسلمين. يعني ذلك أن يكون حديث النهضة هو شاغل الأمة، كما كان عليه الحال في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر منذ أكثر من مائتي عام.

إلى مقومات الدولة الحقيقية؛ حيث سوف يصبح، والحالة هذه، مجرد منطقة جغرافية حبيسة يسهل اختراقها من الناحية الأمنية والاستراتيجية.

الخاتمة:

لقد بيّنا في أكثر من موضع أن من المتعارف عليه في فقه العلاقات الدولية أن أيسر وسيلة للنيل من منطقة القلب الجغرافي هي النفاذ إليه عبر الأطراف، وهي الحلقة الأضعف في أي كيان جيواستراتيجي. ولعل ذلك ما أطلق عليه حامد ربيع «مبدأ شد الأطراف»، وهو الذي يعبر عن أحد قواعد التفاعل الحركي التي تعاملت به القوى الكبرى مع المنطقة العربية والإسلامية.

من المتعارف عليه في فقه العلاقات الدولية أن أيسر وسيلة للنيل من منطقة القلب الجغرافي هي النفاذ إليه عبر الأطراف، وهي الحلقة الأضعف في أي كيان جيواستراتيجي

فالسودان يصبح وقت التكامل والقوة دفاعاً حصيناً لمنظومة الأمن القومي العربي والإسلامي، وفي حالة الانقسام والتفكك عامل اختراق وضعف لأي منظومة أمنية يرتبط بها.

ومن وجهة النظر الجغرافية السياسية، يعد السودان الفناء الخلفي من العالم العربي، وأيضاً البوابة الجنوبية للبلدان العربية إلى إفريقيا. وقد أظهرت الحرب على العراق، رغبة الولايات المتحدة في «إعادة تشكيل» البلدان العربية من الشرق. فإذا نجحت في مسعاها هذا فليسوف تقطع طريق العودة أمام هذه الدول، إضافة إلى تحقيق استراتيجيتها العاقمة لـ «مُحاصرة» العالم العربي والإسلامي. ولهذا السبب تعاملت الولايات المتحدة مع قضية دارفور بشكل ثابت.

ومن جهة أخرى تحاول الولايات المتحدة إعادة التركيب الاستراتيجي لمنطقة القرن الإفريقي الكبير الذي يضم جنوب السودان. ومثل هذه المحاولة للفك والتركيب الجيواستراتيجي تُحقّق أكثر من هدف واحد، فهي تؤدي إلى عزل التأثير العربي

- 2004,P A 01. at: www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A21143-2004Dec22.html
- 4- Francis Deng, Mohamed I. Kahlil ,Sudan's Civil War: The Peace Process Before and Since Machakos, Pretoria: Michigan State University Press, distributed for Africa Institute of South Africa, 2005
- 5- Francis M. Deng, War of Visions: Conflict of Identities in the Sudan, Brookings Institution Press, 1995.
- 6- John Bellamy Foster, A Warning to Africa: The New U.S. Imperial Grand Strategy the Centre for Research on Globalization June 9, 2006
- 7- Judith van de Looy, Africa and China: A Strategic Partnership? ASC Working Paper 67, Leiden: Netherlands: the African Studies Center , 2006 and Adla Massoud ,Oil May Fuel Sino-US Conflict, al-Jazeera, June 29, 2006
- 8- Korwa Adar, John G. Nyuot Yoh, Eddy Maloka, eds,Sudan Peace Process: Challenges and Future Prospects, Pretoria:Michigan State University Press, distributed for Africa Institute of South Africa, 2005
- 9- Princeton N. Lyman, More Than Humanitarianism: A Strategic U.S. Approach Toward Africa, Council on Foreign Relations, Task Force Report No. 56,January 2006
- 10- Report of the International Commission of Inquiry on Darfur to the United Nations Secretary-General, United Nations, January 2005.
- 11- John O. Voll, ed., Sudan: State and Society in Crisis, Indiana University Press, 1991.

المراجع:

أ- المراجع العربية:

- ١- أحمد ثابت، العولمة ومخاطر المعايير المفروضة: «التوجهات الأمريكية إزاء السودان» في حمدي عبد الرحمن (محرر)، إفريقيا والعولمة، القاهرة: برنامج الدراسات المصرية الإفريقية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٤.
- ٢- حمدي عبد الرحمن، السياسة الأمريكية تجاه إفريقيا من العزلة إلى الشراكة، السياسة الدولية، أبريل ٢٠٠٠.
- ٣- عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تاريخ الجبرتي) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧.
- ٤- نادية محمود مصطفى (محرر)، أبعاد الصراع في دارفور: الأزمة والأفق المستقبلي، القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٤.
- ٥- هانى رسلان، أزمة دارفور وجهود التسوية بين تعدد الأدوار وحدود الفاعلية، كراسات استراتيجية مج ١٤ - العدد ١٥٧ - ٢٠٠٥.

ب- المراجع الأجنبية:

- 1- Abdullah Dawood, New Scramble for Africa ,Al-Jazeera, July 21, 2005.
- 2- Douglas H. Johnson, The Root Causes of Sudan's Civil Wars, Indiana University Press, 2002 David Hoile Darfur in Perspective,The European - Sudanese Public Affairs Council, 2005.
- 3- David Blair, Oil Hungry China Takes Sudan Under its Wing, the Telegraph , April 23, 2005, at: www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2005/04/23/wsud23.xml and Peter Goodman, China invest Heavily in Sudan 's Oil Industry, the Washington Post, Dec. 23,

معلومات إضافية

السودان:

الاسم الرسمي: جمهورية السودان.

العاصمة: الخرطوم (٩٤٧ ألف نسمة).

المدن الرئيسية: أم درمان، بورسودان، جوبا، وادي مدني، كسلا، عطبرة.

المساحة: ٩٦٧٤٩١ ميلاً مربعاً (٢٥٠٥٨٠٢ كم^٢).

الأجناس: أكثر من ٥٠ مجموعة عرقية، وعموماً في الشمال عرب، وفي الجنوب أفارقة سود.

اللغة: العربية (الرسمية)، النوبية، الإنجليزية، لهجات قبلية.

الديانة: مسلمون ٧٠٪، معتقدات محلية ٢٥٪، مسيحيون ٥٪.

نظام الحكم: جمهوري، وفي ٣١/١/١٩٩١ أصبحت الشريعة الإسلامية قانون البلاد.

التقسيمات الإدارية: ٢٦ ولاية لكل منها محافظ.

الثروة المنجمية: الكروم، النحاس، خام الحديد، البترول.

الصناعة: الإسمت، المنسوجات، الكيماويات الدوائية، تكرير البترول، الذهب.

جغرافيا السودان: هي أكبر دول القارة الإفريقية مساحة، أما سواحلها في الغرب: الكونغو، وأوغندا، وكينيا في الجنوب: إثيوبيا وإريتريا في الشرق.

التاريخ:

في المدة من ٦٠٠ ق.م إلى سنة ٣٥٠م، كانت هناك الإمبراطورية النوبية التي كانت عاصمتها دنقلة، وفي القرن السادس الميلادي اعتنقت البلاد الديانة المسيحية القبطية.

في القرن السابع دخل الإسلام السودان، لكنه لم ينتشر على نطاق واسع إلا في القرن الخامس عشر، وعلى امتداد المدة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر تأسست في وسط السودان إمبراطورية الفر، وفي شمال السودان إمبراطورية الفنج، وكلاهما إمبراطورية عربية إفريقية، ثم تفتت إلى دول صغيرة، فقام محمد علي باشا حاكم مصر بغزو البلاد ووضعها تحت السيطرة المصرية.

في ١٨٨١ قامت الثورة المهديّة في السودان بزعامة محمد أحمد المهدي وأتباعه الدراويش، فاستولى على الخرطوم، وقتل الجنرال البريطاني جوردون.

في ١٨٩٨ قاد اللورد كيتشنر هجومًا إنجليزيًا أخمد فيه ثورة المهدي في معركة أم درمان، التي قتل فيها ٢٠,٠٠٠ سوداني.

في عام ١٨٩٩ أصبحت السودان دولة تحكمها دولتان (هما إنجلترا ومصر)، وهو الأمر الذي أعادت تأكيده معاهدة ١٩٣٦ المصرية/الإنجليزية.

في عام ١٩٥١ ألغى البرلمان المصري معاهدتي ١٨٩٩ و ١٩٣٦، وفي ١٩٥٣ وافقت مصر وبريطانيا على منح السودان الحكم الذاتي، وتم انتخاب برلمان سوداني خالص، ثم انفق البلدان مصر وبريطانيا على إجراء استفتاء بين أبناء الشعب السوداني: هل يفضل الاستقلال أم الوحدة مع مصر، واختار السودانيون الاستقلال عن مصر وإنجلترا، وأعلن ذلك الاستقلال عن مصر في أول يناير ١٩٥٦ م.

في ١٩٥٨ وقع انقلاب عسكري، وحل المجلس الأعلى للقوات المسلحة محل الحكومة المدنية، لكن أعيد الحكم المدني في ١٩٦٤ بعد المظاهرات الطلابية التي عرفت باسم ثورة أكتوبر.

في ١٩٦٩ وقع الانقلاب العسكري بقيادة العقيد جعفر نميري، والذي ألغى المؤسسات السياسية وركّز السلطة في يد قيادة الثورة اليسارية وتولى النميري رئاسة الوزارة.

لكي ينهي النميري حالي الحرب الأهلية التي كان قد مضى عليها سبعة عشر عامًا وافق على منح الجنوب قدرًا أعظم من الحكم الذاتي.

في ١٩٧٤ أنشئ مجلس الأمة، وفي ١٩٨٠ أعيد تنظيم البلاد لتصبح ستة أقاليم لكل منها مجلسها، وتمتع بحكم ذاتي فعلي.

وفي ١٩٨٣ اتخذت البلاد الشريعة الإسلامية قانونًا لها، وتكونت في البلاد حركة تحرير شعب السودان، واندلعت الحرب الأهلية من جديد.

في ٦/٤/١٩٨٥ وبينما كان النميري خارج البلاد في زيادة الولايات المتحدة ومصر، قام وزير دفاعه الفريق عبدالرحمن سوار الذهب بانقلاب عسكري، وكان ذلك في أعقاب اضطرابات بين عمال المصانع في شمال البلاد، وأعلنت حالة الطوارئ.

في ١٩٨٧ وقعت حرب أهلية فعلية مع جيش تحرير شعب السودان.

في عام ١٩٨٨ تم توقيع اتفاق سلام شامل مع جيش تحرير شعب السودان، لكن القتال استمر.

التدخل الدولي في السودان - أ. د/حمدي عبد الرحمن حسن

في ٣٠ يونيو ١٩٨٩ أطاح انقلاب عسكري سلمي قاده الإسلامي الأصولي اللواء عمر حسن أحمد البشير بحكومة المهدي، وتم إيقاف كل الأنشطة السياسية، وفي ١٩٩١ أدخل النظام الفيدرالي إلى البلاد؛ حيث قسمت إلى تسع ولايات، وفي نفس الوقت استمرت الحرب الأهلية.

وفي ١٩٩٢ أعادت البلاد حكم الشريعة الإسلامية، وقدمت إصلاحات اقتصادية رأسمالية، ومنها ما رفع الدعم عن السلع الأساسية.

في ١٩٩٤ اندلع قتال الحرب الأهلية من جديد، وفي مارس بدأت محادثات السلام بين اثنين من وفود الثوار والحكومة، ووافق الطرفان على وقف إطلاق النار، لكن القتال استمر، وفي مارس ١٩٩٥ أعلن الرئيس السوداني وقف إطلاق النار من جانب واحد لمدة شهرين.

في ١٩٩٦ أُجريت في البلاد أول انتخابات رئاسية وبرلمانية منذ انقلاب عمر البشير لولاية ثانية، وتشكيل مجلس نيابي جديد.

السودان عضو في الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية.
محمد عتريس - معجم البلدان - الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٢.

المبادئ العامة لتقاسم السلطة الواردة في اتفاق السلام لدرافور* أبوجا:

- ١- إن جمهورية السودان دولة مستقلة ذات سيادة. وتمارس الدولة هذه السيادة التي خولها إياها الشعب وفقاً لأحكام الدستور القومي الذي ستندمج في هذا الاتفاق.
- ٢- تكون المواطنة هي أساس الحقوق والواجبات المدنية والسياسية.
- ٣- تعتبر الديانات والمعتقدات والتقاليد والعادات مصدراً لقوة معنوية وإلهام للشعب السوداني.
- ٤- إن النقل السلمي للسلطة بطرق ديمقراطية هو ضمان الاستقرار ووحدة البلد.
- ٥- إن الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية يدعم الحكم الرشيد والمساءلة والشفافية، والالتزام برعاية الشعب.
- ٦- يتم ضمان سيادة القانون واستقلالية السلطة القضائية.
- ٧- تؤكد الأطراف مجدداً التزامها باحترام وحماية وتعزيز حقوق الإنسان والحريات الأساسية.
- ٨- إن تقاسم السلطة أمر حيوي لضمان الوحدة الوطنية. ويكون نقل السلطة السلمي استناداً إلى انتخابات حرة ونزيهة أساساً لقيام حكم ديمقراطي في السودان.

٩- ومن الأساسي إيجاد نظام حكم فيدرالي، يكفل تخويلاً فعلياً للسلطات وتوزيعاً واضحاً للمسؤوليات بين المركز ومستويات الحكم الأخرى، بما فيها الإدارة المحلية؛ وذلك لضمان مشاركة متكافئة ومنصفة لمواطني السودان عمومًا وأهل دارفور بوجه خاص.

١٠- تقوم الانتخابات على كافة مستويات الحكم في السودان على التصويت الحر والمباشر، بحضور مراقبين محايدين/ دوليين، قصد ضمان مشاركة نزيهة لجميع شعب السودان. وتعد الانتخابات بالنسبة للرئاسة والهيئة التشريعية على كافة مستويات الحكم.

١١- يجب تمثيل جميع المواطنين على كل المستويات، بصورة منصفة ومتكافئة، بمن فيهم أهل دارفور، في الخدمة المدنية القومية والقوات المسلحة القومية والشرطة والخدمات الاستخبارية.

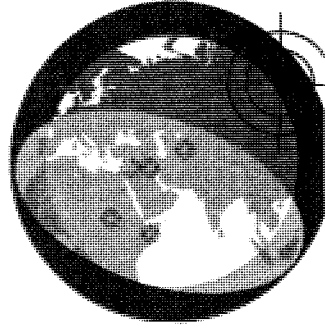
١٢- دون الإخلال بأحكام اتفاقية السلام الشاملة المتعلقة بالحدود بين الشمال والجنوب وأية اتفاقية دولية نافذة بين جمهورية السودان والبلدان المجاورة، تتم إعادة حدود دارفور إلى المواقع التي كانت عليها حتى أول يناير ١٩٥٦، ويتم إنشاء لجنة فنية مؤقتة مختصة برسم الحدود وفقاً لذلك.

١٣- يكون للمحكمة الدستورية الاختصاص في فصل المنازعات بين مستويات الحكم، أو أجهزة الحكم في مجالات اختصاصاتها الحصرية والمشاركة والمتبقية.

١٤- يعتبر التنوع الثقافي والاجتماعي لشعب السودان أساساً للتماسك القومي ينبغي تعزيزه وتنميته.

١٥- تقر الأطراف بنقص تمثيل النساء في المؤسسات الحكومية وهيكل صنع القرار، وبال حاجة إلى اتخاذ تدابير خاصة لكفالة مشاركة النساء على نحو متكافئ وفعلي في أجهزة صنع القرار على جميع المستويات.

المصدر : <http://www.sudanjem.com>



المحاكم الإسلامية في الصومال ومستقبل القرن الإفريقي

د/ جلال الدين صالح - إريتريا

باحث وأكاديمي إريتري

ملخص البحث:

اكتسب القرن الإفريقي أهمية استراتيجية كبيرة؛ بدوله المُطلّة على المحيط الهندي، المتحكّمة في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، إضافة إلى مواردها الطبيعية، مما جعل منه محطّ الأطماع الاستعمارية. وتعد تلك الموارد عاملاً أساسياً في الصراع الدائر في الصومال، وفيما يتعلق بالتدافع الإثيوبي الصومالي فما هو إلا صراع بسط النفوذ على المناطق الاستراتيجية، وعلى الرغم من أن للحركة الإسلامية في القرن الإفريقي موروثاً ضخماً من المجاهدات في ماضيها التاريخي، إلا أنه لا يُراد لمنطقة القرن أن يبرز منها قوة إسلامية، ذات نفوذ سياسي، قد تصبح مصدر إزعاج وقلق للغربيين وحلفائهم من الأقليات الحاكمة، وخاصة بعد أن أضحى الإسلام. لسبب وآخر، الخصم المقابل للمعسكر الرأسمالي بعد سقوط المعسكر الاشتراكي.

إن الحركات الإسلامية في المنطقة تستمد قواها من رصيدها الجهادي التاريخي، فالمحاكم الإسلامية تمكنت في حرب الوجود التي خاضتها مع أمراء الحرب في الصومال من الاستيلاء الكامل على مواطن نفوذهم، على الرغم من تجمعهم في تحالفٍ لإرساء السلام ومكافحة الإرهاب (كما أسموه)، وصيرورة محل نفوذ لكل أمير منهم يهيمن عليه، ودعم كامل من الولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن المحاكم الشرعية تحظى بقبول شعبي بين الصوماليين؛ بسبب تحقيقها الكثير من الإنجازات الأمنية للصوماليين، إلا أنها لا تتصارع مع أمراء الحرب فحسب، بل إن تدخّل إثيوبيا -صاحبة المصالح الاستراتيجية في المنطقة- في الصومال قلب الموازين، ولم يكن متوقّعا من المحاكم الإسلامية أمام الزحف الإثيوبي إلا إخلاء البلاد، فمن المحال أن تواجه جيشاً نظامياً مدرّباً على أحدث العتاد العسكري، بقوات محدودة من المليشيا، ذات أسلحة خفيفة.

وبرغم ما تتميز به القوات الإثيوبية من ضخامة حجم قواتها وتفوقها التسليحي، إلا أنه يُتوقع أن تواجه بمقاومة عنيفة للحد الذي يمثل لها عبئاً ثقيلاً، ولن تستطيع القوات الغازية أن تخرج من هذا المستنقع الذي تورطت فيه بسهولة.

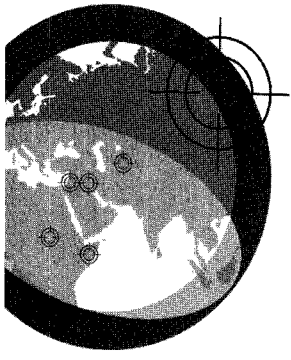
ويبقى السؤال ماذا بعد انسحاب المحاكم؟ هل هو خيار الحرب إلى حين دحر أمراء الحرب، كما كان أول مرة؟ أم هو خيار السلم والمصالحة.

أفكار ومقتطفات

- بعد أحداث نيويورك، وواشنطن، في ١١/٩/٢٠٠١ م، واستهداف سفارتي الولايات المتحدة في كل من كينيا، وتنزانيا عام ١٩٩٨ م شهد القرن الإفريقي العديد من التحركات العسكرية، والسياسية؛ إذ جعلت منه أمريكا أهم منطلق لها في الحرب على ما أسمته بالإرهاب الدولي.
- أضحى الإسلام لسبب وآخر الخصم المقابل للمعسكر الرأسمالي، بعد سقوط المعسكر الاشتراكي.
- النجمة الخماسية في العلم الصومالي، تشير إلى الولايات الخمس التي من المفترض أن تُكوّن دولة (الصومال الكبرى) في القرن الإفريقي، وهي جيبوتي، وإبندبي، وأوجادين، إلى جانب الصومال الحالي.
- تجمع أمراء الحرب، في تحالف أسموه (التحالف لإرساء السلام ومكافحة الإرهاب) في محاولة منهم لإثبات استمراريتهم في حرب مجنونة، لا هدف لها، سوى تحقيق أطماع آنية، وفردية، على حساب مصلحة الصومال الكبرى.
- بدعم من الولايات المتحدة خاض أمراء الحرب معركة وجود مع المحاكم الإسلامية إلا أن قواهم خارت، وتمكنت المحاكم الإسلامية، من الاستيلاء الكامل، على مواطن نفوذهم.
- في المناخ المضطرب أمنياً، حيث لا يأمن الفرد على نفسه، وماله، وعرضه، وعلى حين شدة من الخوف والذعر، برزت المحاكم الإسلامية؛ لتكون بارقة أمل للشعب الصومالي في الخروج من محتته.
- في عام ١٩٩١ م وهو العام الذي سقط فيه نظام زياد بري حاول العالم الأزهرى الصومالي الشيخ محمد معلم حسن إنشاء محكمة شرعية بمنطقة (طور طيجلي) جنوب مقديشو بالتعاون مع شيوخ القبائل.
- سقوط حكومة صلا، وانتشار الفوضى، وحاجة الناس إلى الأمن، كل ذلك عجّل بإنشاء المجلس لجمع قوة المحاكم الإسلامية (محمود عبد الله).
- المحاكم إرادة شعبية، تستند على قاعدة قبلية، بقيادات شرعية، جاءت عبر مراحل متدرجة؛ للخروج من حالة الفوضى الضاربة أطنابها، وهذا سر تفوقها على أمراء الحرب.
- إن عبقرية الشعب الصومالي نجحت في بسط الأمن عبر المحاكم الإسلامية التي تدور حول الهوية الإسلامية، والانتماء العربي لغة وعرقاً. (البروفسور سيد فيفل).
- استطاعت المحاكم الشرعية أن تعمق من رسوخها في الساحة الصومالية، وأن تتمكن من دحر أمراء الحرب عسكرياً، في غضون أربعة أشهر، في معركة كلفت سقوط أكثر من ٣٦٠ قتيلاً، وما يزيد عن ألفي جريح.

- بعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي الأربعاء ٦/١٢/٢٠٠٦ بإرسال قوات إفريقية إلى الصومال خاضت قوات المحاكم معارك حاسمة مع الحكومة المؤقتة، والقوات الإثيوبية المساندة لها.
- نجحت المحاكم الإسلامية في الاستفادة من التناقضات القائمة، بين حلفي الأمم: الرئيس الإريتري إسياس أفورقي، ورئيس الوزراء الإثيوبي ملس زناوي.
- تعد تجربة المحاكم الشرعية في الصومال - من حيث هي تجربة - جديرة بالثناء؛ فقد حققت إنجازاً أمثياً فقدته الصوماليون طوال حقبة الحرب الأهلية.
- إن التحدي الذي بقي ماثلاً - وعلى نحو أكبر - أمام المحاكم الإسلامية، لم يكن قاصراً في أمراء الحرب ومكابداتهم، وإنما أيضاً في قدرة المحاكم على التحرك السياسي الناضج، على المستوى الإقليمي، والدولي، وصياغة خطاب يجنبها زلات الحركات الإسلامية.
- أدنى تشوش، وتضارب، في الخطاب السياسي، والوجوه المعبرة عنه، من شأنه أن يُربك المجتمع الدولي، ويُعطي مسوغ التدخل العسكري، مما يؤدي إلى حرمان المجتمع الصومالي من إنجازاته الأمنية.
- التنزع على السلطان السياسي، من جملة الأسباب التي أدت إلى وقوع الفتنة، والنزاع، بين القبائل الصومالية.
- من الخطأ أن يستأثر الإسلاميون بالحكم، دون إشراك غيرهم، ومن الخطأ الفادح أن يستعجلوا كل ما يودون.
- الولايات المتحدة تخاف من أن تكون المحاكم الإسلامية في القرن الإفريقي صورة طبق الأصل لطالبان في أفغانستان.
- لأمريكا القدرة على استغلال الشرعية الدولية، في تمرير سياساتها، ومما عللت به دعمها لتحالف أمراء الحرب، هو تأمين الجبهة الصومالية من أن تكون منطلقاً ومأوى لتنظيم القاعدة.
- تخاف إثيوبيا من أن تكون المحاكم الإسلامية، في الصومال، إذا ما قدر لها التمكين، ظهيراً ونصيراً، لمطلب استقلال أوجادين.
- إن إثيوبيا في الوقت الذي تعادي فيه المحاكم الإسلامية لا ترى مانعاً من التحالف، والتوافق مع الحركة الإسلامية الإريترية، التي تقاوم نظام أفورقي في أسمر.
- إن الاستراتيجية الإثيوبية تجاه الصومال، والتي هي محل إجماع جميع الحكام الإثيوبيين، نجحت أيما نجاح، في تفجير الجسم الصومالي، من الداخل، لتجعل منه أشلاء متناثرة.

- الاستفزاز الإثيوبي كان أحد أهم التحديات الكبيرة التي واجهت تجربة المحاكم الإسلامية، وساهمت في تحديد مستقبل نفوذها في الصومال.
- إن إريتريا نفسها تعيش وضعًا اقتصاديًا خانقًا، وتفتقر إلى مؤسسات دولة؛ لذا لم تتمكن من إلحاق الهزيمة بالنظام الإثيوبي عسكريًا، وما عجز عنه الإريثريون، لا يمكن توقعه من المحاكم الإسلامية.
- قد يكون الأثر الأمني جدّ سلبي على كينيا، إذا ما تجاهلت الحكومة الكينية، في تعاملها مع الصراع الصومالي الإثيوبي، تعاطف مواطنيها الصوماليين مع المحاكم الإسلامية.
- في سبتمبر ١٩٩٩ أعلن الرئيس الجيوتي إسماعيل عمر غيلة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عن مبادرة جيوتية لحل أزمة الصومال.
- تدعم جيوتي كما أشار إلى ذلك السفير (ديفيد شن) محادثات السلام في الخرطوم، التي نظمت بهدف تحقيق ذلك الهدف، ولا تدعم جيوتي إرسال قوات حفظ السلام في الصومال، وقد حثت أخيرًا على عدم تدخل أي جهات خارجية في البلد.
- جيوتي بلد الأغلبية الساحقة من سكانه مسلمون، ويعتمد بشكل متزايد على الاستثمارات العربية، مما قد يفسر سبب إظهارها استعدادًا أكبر لتقبل المحاكم الإسلامية الصومالية.
- ليس أمام المحاكم الإسلامية خيار مناسب سوى خيار المصالحة مع الحكومة، واستغلال هذه المبادرة الأمريكية لتقديم رؤية تمكّنها من المساهمة في صياغة الصومال الجديدة.
- لا يمكن أن تخوض المحاكم حرب عصابات طويلة الأجل، في وضع كوضع الصومال، يعاني من الجفاف، والمجاعة، والتمزق القبلي.



المحاكم الإسلامية في الصومال ومستقبل القرن الإفريقي

د/ جلال الدين صالح - إريتريا

باحث وأكاديمي إريتري

وتأثير ذلك على دول القرن الإفريقي ذات المصالح والعلاقات المتباينة مع الصومال، وفي ظل التطورات الأخيرة التي دفعت المحاكم للتراجع أمام القوات الإثيوبية.

مقدمة:

القرن الإفريقي، أهميته وهويته الإسلامية:

القرن الإفريقي هو ذلك الشكل الجغرافي الناتج في شرق القارة الإفريقية، على نحو يشبه القرن، ويضم كلاً من الصومال، وجيبوتي، وإثيوبيا، وإريتريا، ويلحق به على سبيل التأثر والتأثير، كل من السودان، وكينيا، ويوغندا، وتنزانيا.

ولأن دوله تطل على المحيط الهندي، وتتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، حيث باب المندب، اكتسب القرن الإفريقي أهمية استراتيجية، جعلت منه محط الأطماع الاستعمارية.

يضاف إلى هذا موارده الطبيعية، التي أخذت تبدو على السطح بارزة، حيث اكتُشف البترول في السودان بكميات تجارية، ويقال اليورانيوم في الصومال.

ومع فارق المقارنة - من ناحية التفوق العسكري - بين الإسلام، والاتحاد السوفيتي سابقاً، أضحى الإسلام لسبب أو لآخر الخضم المقابل للمعسكر الرأسمالي، بعد سقوط المعسكر الاشتراكي؛ ولأن القرن الإفريقي إسلامي الهوية؛ للغالبية الإسلامية التي تقطنه، وإن كانت تحكمه الأقلية الدينية، كما

بعد أحداث نيويورك، وواشنطن، في ٩/١١/٢٠٠١م، واستهداف سفارتي الولايات المتحدة في كل من كينيا، وتنزانيا عام ١٩٩٨م شهد القرن الإفريقي العديد من التحركات العسكرية، والسياسية؛ إذ جعلت منه أمريكا أهم منطلق لها في الحرب على ما أسمته بالإرهاب الدولي، حيث تُرابط على ساحته قوى قتالية، مجهزة بكامل عتادها العسكري، تربو على ١٨٠٠ جندي، كما ترسو على واحد من أهم موانئه، وهو ميناء جيبوتي، حاملة الطائرات (مونت وايتني).

وما يشهده الصومال حالياً من تطورات متلاحقة، وعلى وجه الخصوص، فيما يتعلق بالتدافع الصومالي، الصومالي، والإثيوبي الصومالي، ضمن منظومة من التحالفات المعقدة، لهو واحد من صراع بسط النفوذ، على المناطق الاستراتيجية عالمياً، والمهمة في تحقيق شتى المصالح الحيوية.

وتحاول الدراسة الكشف عن حقيقة الواقع الصومالي، ومستقبل الأوضاع في تلك المنطقة الشديدة الأهمية في ظل صعود المحاكم الشرعية،

الحالي، إلا أن هذه الرؤية لدولة الصومال ظلت كما هي رسمًا، لا واقع له، بل انهار (الصومال) الجزء الذي حمل هذا الاسم، وجعل من مقديشو عاصمة له، وذلك حين سقط نظام (زياد بري) عام ١٩٩١م ليزداد الصومال بذلك تفتتًا، وآل أمره إلى أمراء الحرب، الذين أخفقوا في إعادة بنائه، وخاضوا فيما بينهم حربًا ضروسًا، أهلكت الحرث والنسل، يعيشون حالة من التمزق، والفوضى السياسية.

وكان قد تجمع أمراء الحرب، في تحالف أسموه (التحالف لإرساء السلام ومكافحة الإرهاب)

في محاولة منهم لإثبات استمراريتهم، في حرب مجنونة، لا هدف لها، سوى تحقيق أطماع آنية، وفردية، على حساب مصلحة الصومال الكبرى؛ إذ صار لكل أمير منهم محل نفوذ يهيمن عليه،

كالمطارات، ومليشيات تجمع الضرائب، وسماسرة يتاجرون بالأسلحة، وتصدير القات، وبدعم من الولايات المتحدة خاض أمراء الحرب معركة وجود مع المحاكم الإسلامية إلا أن قواهم خارت، وتمكنت المحاكم الإسلامية من الاستيلاء الكامل على مواطن نفوذهم، وبالذات في العاصمة مقديشو، على الرغم من المساندة الأمريكية.

الصومال وبروز المحاكم الشرعية:

في هذا المناخ المضطرب أميًا، حيث لا يأمن الفرد على نفسه، وماله، وعرضه، برزت المحاكم الإسلامية، لتكون بارقة أمل للشعب الصومالي، في الخروج من محتته.

وحسب تعريف الشيخ شريف شيخ أحمد، أحد قادة المحاكم: فإن المحاكم الإسلامية، ليست حركة سياسية، بل إنها شكل من أشكال الثورة الشعبية، التي فجرها الشعب الصومالي، بعد أن سئم ستة عشر عامًا، من الفوضى، والقتل، والنهب، والاختطاف. (١)

هو الشأن في إثيوبيا، لا يراد له أن يكون الثغرة التي تبرز منها قوة إسلامية، ذات نفوذ سياسي، قد تصبح مصدر إزعاج وقلق للغربيين وحلفائهم من الأقليات الحاكمة؛ بحكم التباين الأيديولوجي.

وللحركة الإسلامية في القرن الإفريقي موروث ضخم، من المجاهدات، في ماضيها التاريخي، وهي في بروزها الحديث، ممثلة في المحاكم الشرعية في الصومال، أو في غير المحاكم، إنما تستمد قواها وشرعيتها، من هذا الرصيد التاريخي، وعلى أساس منه تنشط، بمختلف مدارسها العلمية والحركية، في

كل دول القرن الإفريقي، حتى باتت جزءًا مهمًا من معادلة الصراعات، وتحالفاتها الجارية، وليست إثيوبيا بمنجى ومناجى من نشاطها، وإن كان هذا النشاط ذا طابع ثقافي؛ إذا استثنينا الاتحاد الإسلامي، الذي يقاتل

في أوجادين، مطالبًا باستقلال الإقليم، وهو الجزء الصومالي الذي ضمته بريطانيا إلى إثيوبيا.

وما يخشاه اليوم رئيس وزراء إثيوبيا الحديثة (ملس زناوي) هو ما يخشاه الغرب أيضًا، من هاهنا تقاطعت المصالح، وتباعدت كذلك، بين أطراف الصراع، وأحسب أن هذا جد مهم، في فهم ما يجري على أرض الصومال، من بروز المحاكم الإسلامية، والضجة المفتعلة حولها، عالميًا وإقليميًا، إلى حين سقوطها، وعودة أمراء الحرب ثانية بتعزيزات إثيوبية، وغزو عسكري مكشوف على مرأى ومسمع من العالم.

الصومال وأمراء الحرب:

النجمة الخماسية في العلم الصومالي، تشير إلى الولايات الخمس التي من المفترض أن تكون دولة (الصومال الكبرى) في القرن الإفريقي، وهي جيبوتي، وإينفدي، وأوجادين، إلى جانب الصومال

ثم عادت للظهور ثانية، لتنتقل من جديد، ولتبرز على النحو المشاهد عالميًا، ففي مقابلة أُجريت مع الشيخ حسن طاهر أويس، ونشرت على موقع إسلام أون لاين بتاريخ ١٥/٥/٢٠٠٦ أفاد أويس «أن رغبة شيوخ القبائل في حل الخلافات بين أبناء القبيلة كان سببًا لقيام المحاكم الإسلامية بمقديشو».

في عام ٢٠٠٠م تشكلت الحكومة الانتقالية برئاسة عبد قاسم صلاّد حسن، وانتهت ولايتها في أغسطس ٢٠٠٣م.

في بداية عام ٢٠٠١م قويت شوكت المحاكم، وأخذ نفوذها يتعاظم، ويمتد إلى أكثر من منطقة، وساعتها قررت -حسب إفادة أويس- دمج مليشياتها إلى الحكومة الانتقالية -أعني حكومة (صلاّد)- كي لا تكون قوتان بالعاصمة، إلا أنه للأسف لم يكتب للحكومة النجاح؛ جراء الحصار الدولي والإقليمي عليها؛ كما هو نص قول أويس.

في عام ٢٠٠٥م تأسس المجلس الأعلى لاتحاد المحاكم الإسلامية بمقديشو، وانتخب الزعيم الشاب الشيخ شريف شيخ أحمد رئيسًا له. (٥)

وعن سبب التعجيل بإنشاء المجلس الأعلى لاتحاد المحاكم الإسلامية يقول الشيخ محمود عبد الله مؤسس أحد محاكم مقديشو: إن «سقوط حكومة صلاّد، وانتشار الفوضى، وحاجة الناس إلى الأمن، كل ذلك عَجَل بإنشاء المجلس لجمع قوة المحاكم الإسلامية». (٦)

انطلاقًا مما سبق ذكره، نستطيع أن نقرر حقيقة لا بد من تقريرها، وهي أن المحاكم إرادة شعبية، تستند على قاعدة قَبَلية، بقيادات شرعية، جاءت عبر مراحل متدرجة؛ للخروج من حالة الفوضى الضاربة أطنابها، وهذا سر تفوقها على أمراء الحرب، بكل الدعم الذي حصلوا عليه، وأن إثيوبيا تبتهت لها منذ وقت مبكر، وعملت على إعاقتها، بالتعاون مع حلفائها من أمراء الحرب.

وأفاد تقرير أعدته مجموعة الأزمات الدولية ونشر في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥ بأن هذه المحاكم التي ظهرت عام ١٩٩٤م في العاصمة الصومالية، شهدت في مقديشو انتشارًا غير مسبوق منذ عام ٢٠٠٤م.

وتفيد مصادر دبلوماسية أن تشكيلة المحاكم متنوعة، حيث تضم رجال دين وقادة إسلاميين، إضافة إلى رجال أعمال نافذين في العاصمة ومستائين من الخضوع لنفوذ قادة الميليشيات، الذين يفرضون إتاوات على السكان. (٢)

ويظهر أن المحاكم الإسلامية، لم تخرج على هيئتها الحالية إلا بعد عدة محاولات سابقة، وفي التقرير الذي أعده من مقديشو السيد عبد الرحمن يوسف، ونشره في موقع (إسلام أون لاين) ما يوضح هذه الحقيقة؛ إذ ذكر أنه في عام ١٩٩١م وهو العام الذي سقط فيه نظام زياد بري حاول العالم الأزهري الصومالي الشيخ محمد معلم حسن إنشاء محكمة شرعية بمنطقة (طور طيجلي) جنوب مقديشو بالتعاون مع شيوخ القبائل... غير أن الجنرال الراحل محمد فرح عيديد قضى عليها، حيث اعتبرها خطوة لإضعاف قوته، وكان يسيطر وقتها على جنوب العاصمة.

وفي بداية عام ١٩٩٤م تأسست محكمة شرعية على أسس عشائرية بالشاطر الشمالي من العاصمة، وعين الشيخ علي محمود (طيري) رئيسًا لها؛ حيث استطاعت بسط نفوذها على أجزاء واسعة من شمال العاصمة مستعينة بالمليشيات التي كونتها، ونفذت المحكمة بالفعل أحكامًا مختلفة، على مدى نحو ثلاث سنوات من عملها، على عدد كبير من السكان (المتهمين) (٣) مثل حد الرجم، والقصاص.

في عام ١٩٩٧م دخل زعيم الحرب القوي آنذاك علي مهدي محمد في صراع مع المحكمة، وتمكن من القضاء عليها، وتفكيك أجهزتها القضائية، والتنفيذية (المليشيات) مستعينًا بدعم الحكومة الإثيوبية. (٤)

المحاكم الشرعية وعمق التأيد الشعبي:

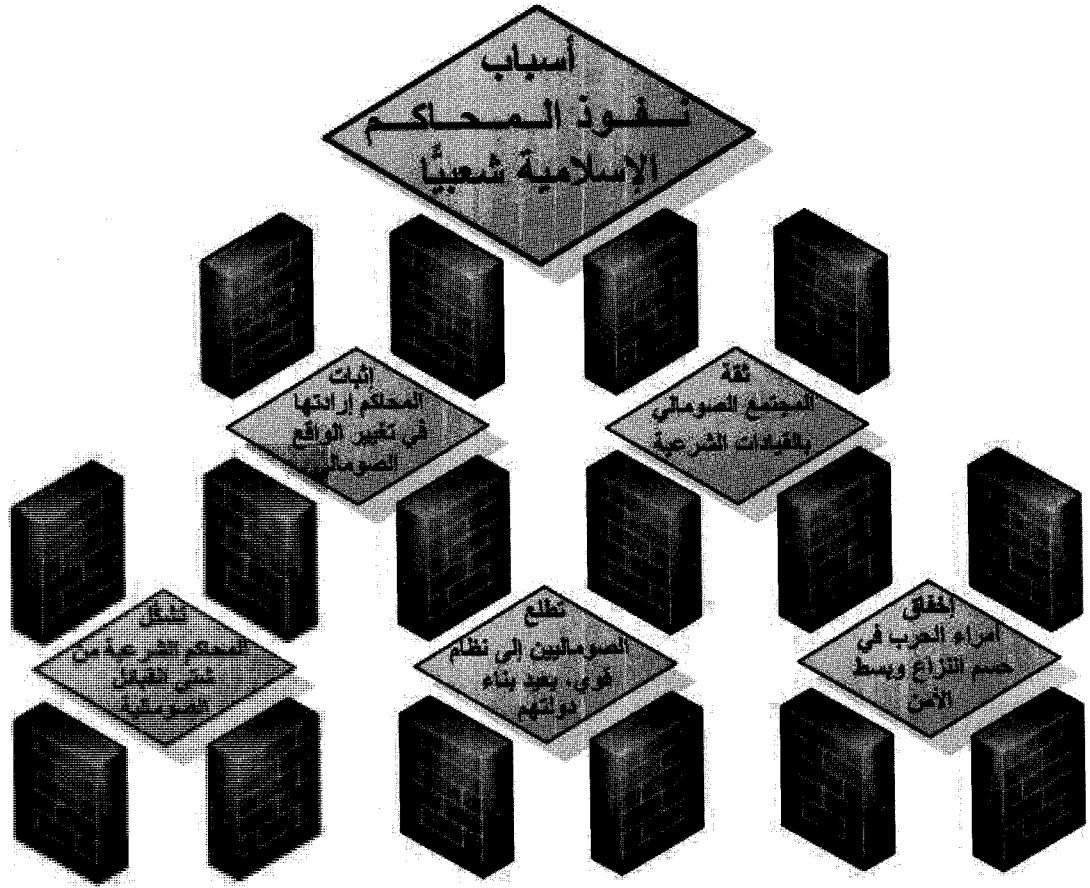
لا أحد يماري في أن المحاكم الشرعية تحظى بقبول شعبي لا نظير له، بين الصوماليين، ومهما كانت الدواعي، فهذا هو الواقع، وهو أمر بدهي في مجتمع اكتوى بجحيم الاقتال القبلي، وعمته الفتنة من كل جانب، ويدين بالإسلام عقيدة.

وفي هذا يقول البروفسور سيد فيفل مدير معهد البحوث والدراسات الإفريقية، بجامعة القاهرة، في

وفي الندوة ذاتها قال البروفسور أحمد حاج مختار الأستاذ بجامعة سافانا بالولايات المتحدة الأمريكية: إن حل المشكل الصومالي يكمن في العودة إلى العرف الصومالي في بُعد الدين الإسلامي والقبلي؛ مطالبًا بمحاكمة المتهمين في جرائم الحرب. (٧)

ويمكن إعادة أسباب نفوذ المحاكم الإسلامية شعبيًا، إلى العوامل التالية:

- ثقة المجتمع الصومالي بالقيادات الشرعية،



- وتجدد معاني الدين في كثير من شبابه.
- إخفاق أمراء الحرب في حسم النزاع ووسط الأمن.
- تطلع الصوماليين إلى نظام قوي، يعيد بناء دولتهم، وينهي حالة الانفلات الأمني.
- تشكّل المحاكم الشرعية من شتى القبائل الصومالية.
- إثبات المحاكم إرادتها الصلبة، في تغيير الواقع الصومالي، وتعقب الجريمة والمجرمين.

ندوة نظمها مركز دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا في الخرطوم، بتاريخ ١ / ١٢ / ٢٠٠٦ واستمرت ثلاث ساعات؛ بحضور خبراء متخصصين في العلوم السياسية، من مختلف دول القرن الإفريقي: إن عبقرية الشعب الصومالي نجحت في بسط الأمن عبر المحاكم الإسلامية التي تدور حول الهوية الإسلامية، والانتماء العربي لغة وعرقًا.

في لملمة الصف الصومالي؛ تفويتاً لفرص تدخلات دول الجوار الضارة للشأن الصومالي.

خطاب المحاكم الشرعية وتجربتها:

تُعد تجربة المحاكم الشرعية في الصومال - من حيث هي تجربة - جديرة بالثناء؛ فقد حققت إنجازاً أمميًا فقدته الصوماليون طوال حقبة الحرب الأهلية، ولطالما حلموا وسعوا إلى الوصول إليه في أكثر من محاولة، ولكن دون جدوى، حتى جاءت المحاكم الإسلامية فوضعت حدًا نهائيًا لكل الانتهاكات الأمنية، التي نالت الإنسان الصومالي في دينه ونفسه وماله وعرضه وعقله، وذلك بالقضاء على أوكار أمراء الحرب، وتعقبهم أينما حلوا وارتحلوا، ومع ذلك ليس في حد السيف وحده الحد، بل هنالك آليات أخرى كان من المفترض التنبه لها، ومن هنا فإن التحدي الذي بقي ماثلاً - وعلى نحو أكبر - أمام المحاكم الإسلامية، لم يكن قاصرًا في أمراء الحرب ومكائدهم، وإنما أيضًا في قدرة المحاكم على التحرك السياسي الناضج، على المستوى الإقليمي والدولي، وصياغة خطاب يُجَبِّها زلات الحركات الإسلامية، التي تبوأَت من قبل مقاعد السلطة، في أفغانستان، والسودان، وذلك بقصد الحفاظ على مكتسباتها، وتجنب الصومال في الوقت نفسه مخاطر فتنة ما زال ينفخ في رمادها من لا يأمن الصوماليون شره.

وإذا ما تأملنا خطاب المحاكم الإسلامية على الصعيد المحلي، والإقليمي، والدولي، نجده مؤسسًا على الأسس التالية:

- تعبئة الرأي العام الصومالي بضرورة استقرار الصومال وإعادة بنائه.

- اتهام تحالف أمراء الحرب بالقضاء على الإسلام والارتباط بأمريكا.

- نفي الإرهاب عن الذات، وتهمة محالفة الجهات المشبوهة عالميًا.

المحاكم الشرعية والسيطرة العسكرية:

لهذه العوامل استطاعت المحاكم الشرعية أن تعمق من رسوخها في الساحة الصومالية، وأن تتمكن من دحر أمراء الحرب عسكريًا، في غضون أربعة أشهر، في معركة كلفت سقوط أكثر من ٣٦٠ قتيلًا، وما يزيد عن ألفي جريح... نفذت إثر ذلك خطة أمنية بنشر قوات في شوارع مقديشو، وتسيير دوريات أمنية، وهو الأمر الذي قوبل بترحيب شعبي. (٨)

كذلك حشدت جمعًا غفيرًا من الشباب والشابات، المجندين في الميليشيات المسلحة، استجابة لنداء الجهاد، الذي أطلقته لمواجهة التدخلات الإثيوبية، وبعد صدور قرار مجلس الأمن الدولي الأربعاء ٢٠٠٦/١٢/٦ بإرسال قوات إفريقية إلى الصومال، خاضت قوات المحاكم معارك حاسمة مع الحكومة المؤقتة، والقوات الإثيوبية المساندة لها، في خطوة وصفها المحلل الصومالي محمد نور (لإسلام أون لاين) بقوله: «يبدو أن المحاكم الإسلامية تُسابق الزمن كي تُسقط الحكومة الضعيفة قبل وصول القوات الإفريقية إلى البلاد». (٩)

ولكن المحاكم لم تتمكن من إحراز هذا الهدف، وإلا لفرضت واقعًا عسكريًا يعزز من قدرتها التفاوضية، مع حكومة عبد الله يوسف، صاحبة الشرعية الدولية.

ونجحت المحاكم الإسلامية في الاستفادة من التناقضات القائمة بين حليفي الأمس، الرئيس الإريتري إسياس أفورقي، ورئيس الوزراء الإثيوبي ملس زناوي، وفي توظيفها - قدر الإمكان - في حربها مع أمراء الحرب، وحلفائهم الإثيوبيين، وكان من الضروري أن تكون هذه الفطنة السياسية من المحاكم في إدارة صراعها، محل اعتبار واهتمام مستمر، وذلك من خلال الاستعانة بخبراء صوماليين، يُغلون من شأن المصلحة الوطنية، لكي يتحسسوا نقاط التلاقي والتباين في المصالح الدولية المتشابكة؛ رجاء توظيفها في إعادة بناء الصومال، ولكي يعملوا

- رفض أي تدخل أجنبي في شأن الصومال، وبالذات التدخل الإثيوبي.

- إبداء استعداد للدخول في حوار مع الحكومة الانتقالية؛ لبناء صومال مستقل ومستقر.

- نفي فرض دولة إسلامية على الصوماليين، وتركهم يقررون مصيرهم بأنفسهم.

وانطلاقاً من هذه الأسس وجّهت قيادة المحاكم الإسلامية - وفقاً لما جاء في موقع هيئة الإذاعة البريطانية- رسالة إلى الدبلوماسيين، تنفي فيها بشكل قاطع أي اتهام بإيواء إرهابيين، أو أنصار للإرهاب في المناطق التي تنشط فيها المحاكم.

وقال شريف شيخ أحمد: إن هدف اتحاد المحاكم الإسلامية الوحيد إتاحة الفرصة للشعب الصومالي لتقرير مصيره بنفسه. (١٠)

وذكرت مجلة التايم الأمريكية أن رسالة الشيخ شريف شيخ أحمد أرسلت إلى الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، والاتحاد الإفريقي، والاتحاد الأوروبي، ووزارة الخارجية الأمريكية. (١١)

والخطاب إلى هذا الحد جد متوازن بشكل عام، وينبئ عن رؤية عقلانية، وقابل للتطوير بين الحين والآخر، حسب مستجدات الأحداث، وتقويم قدرات الذات، ونقله إلى العالم عبر واجهات قيادية في المحاكم، تجيد فن المخاطبة السياسية، وليس للجهات المتربصة مأخذ عليها؛ لأن أدنى تشوش، وتضارب، في الخطاب السياسي، والوجوه المعبرة عنه، من شأنه أن يُربك المجتمع الدولي، ويعطي مسوغ التدخل العسكري، مما يؤدي إلى حرمان المجتمع الصومالي من إنجازاته الأمنية.

وإزاء هذا التحدي، لا بد لهذا الخطاب من أن يتسم أولاً بإخلاص النية لله، والاستعانة به في إرادة الإصلاح، وهذه خاصية مهمة في خطاب الإسلاميين، دون غيرهم، ومطلب ضروري في تدافعهم الحضاري، ثم ثانياً بوضوح الرؤية، وتحديد أولوياتها، في المرحلة الراهنة، وذلك بتقديم ما حقه

التقديم، وتأخير ما حقه التأخير، انطلاقاً من النظر إلى ضروريات المجتمع الصومالي، وذلك حسب المقدور واقعاً، وليس فقط حسب المطلوب شرعاً. ثم لا بد له من العمل باستمرار في تعميق وإدامة ولاء شيوخ القبائل، وتجنب كل ما من شأنه أن يشطر الصف، فإن مغنم السلطة وتحدياتها قادرة على إحداث الشرخ، وفي التجربة الأفغانية، ثم السودانية ما فيه الكفاية «والتنازع على السلطان السياسي، من جملة الأسباب التي أدت إلى وقوع الفتنة، والنزاع، بين القبائل الصومالية...». (١٢)

يلي ذلك أهمية مسألة المصالحة الوطنية، والدعوة إلى مؤتمر عام، تتصافى فيه النفوس، وتتعافى من أحقادها، ويترك المجتمع الصومالي ليحدد مصيره بنفسه، في خيار النظام السياسي الذي يحكمه.

وهذه المسألة لا يجب التعامل معها من باب المكايدة السياسية، والتحركات التكتيكية، وإنما بكل مصداقية وأمان، باعتبارها هدفاً مبدئياً، وساعتها يبقى ما ينفع الناس، ويذهب الزبد جفاء، وحتى لو كان خيار الصوماليين حكم الإسلاميين، فمن الخطأ أن يستأثر الإسلاميون بالحكم، دون إشراك غيرهم، ومن الخطأ الفادح أن يستعجلوا كل ما يودون، وعند الحديث عن الدولة الإسلامية في بلد كالصومال، لا بد من التفكير، هل هذا البلد مكان امتداد لها، أم أنه مكان انطلاق؟

أحسب أن المحاكم الإسلامية أخفقت في هذا الجانب؛ إذ جعلت من طاهر أويس ضمن وجوه قياداتها المعبرة عن خطابها السياسي، وهو ما يستفز الإدارة الأمريكية؛ لكونه مُصنِّفاً عندها في لائحة العناصر الإرهابية، ثم اشترطت في تفاوضها مع حكومة عبد الله يوسف ضرورة انسحاب إثيوبيا أولاً، بل أمهل بعض قادتها الإثيوبيين أسبوعين، للخروج من الصومال، وإلا فإنهم سيخوضون معها حرباً تنتهي بدخول أديس أبابا، ومن هنا وجدت إثيوبيا بغيتها في تنفيذ مخططاتها؛ إذ اجتاحت جيوشها

المتحدة الاستراتيجية ومصالحها في منطقة القرن الإفريقي؟ وهل توجد روابط بين المحاكم الإسلامية وتنظيم القاعدة؟ وكيف تتعامل الولايات المتحدة مع التطورات السريعة المتلاحقة في الصومال؟ وما هي ثوابت السياسة الأمريكية تجاه منطقة القرن الإفريقي؟

(كين منكهوس) (Ken Menkhaus) أستاذ العلوم السياسية في جامعة (ديفيدسون كولج) والمتخصص في شؤون الصراع في القرن الإفريقي ذهب إلى أن «الوضع بصورة عامة ليس في صالح الولايات المتحدة، بل يمثل خطرًا وتهديدًا لمصالحها».

بيد أنه استدرك قائلاً: «إن وصول اتحاد المحاكم إلى سدة الحكم لا يعني شرًا مطلقًا للولايات المتحدة، بل يحتوي على أبعاد إيجابية، منها أن شريف شيخ أحمد رئيس المحاكم - وطبقًا لتصريحاته الموجهة إلى الولايات المتحدة - يُعتبر شخصية معتدلة يمكن التفاوض معه والوصول إلى حل وسط، فضلًا عن أن الثقافة السياسية

لتلك الحركة التي تقوم على مكونات إسلامية وقبلية تتسم بالبرغماتية، وهو ما يسهل مهمة الولايات المتحدة للتفاوض معها، كما أن حالة الاستقرار التي فرضها اتحاد المحاكم في المناطق التي يسيطر عليها يمكن أن تؤدي إلى استقرار الوضع الأمني في كافة الصومال، وهو ما يخدم أمن ومصالح الولايات المتحدة، وبقية دول المنطقة».

وتحدثت أيضًا (أيونس رديك) Eunice Reddick مديرة شؤون شرق إفريقيا في وزارة الخارجية الأمريكية بصفقتها الرسمية، واقتصرت مداخلتها على توضيح أهداف سياسة الولايات المتحدة في الصومال، والتي حددتها في نقاط ثلاث هي: - مجابهة الإرهاب، وعدم السماح لأي جماعة بتحويل البلاد لملاذ آمن للإرهاب.

- كما هو معلوم - أرض الصومال، إلى أن دخلت مقديشو، والمحاكم الإسلامية في انسحاب متتال؛ تطبيقًا لاستراتيجية وصفها قادة المحاكم بالتكتيكية، لخوض حرب عصابات طويلة الأمد.

خطاب المحاكم الشرعية والمجتمع الدولي:

كل ما كان يهيم المجتمع الدولي أن لا تجعل المحاكم الإسلامية من الصومال ملاذًا لما عرف بالإرهاب، وهذا ما يقلق أمريكا بالدرجة الأولى والأساسية، فالولايات المتحدة تخاف من أن تكون المحاكم الإسلامية في القرن الإفريقي صورة طبق الأصل لطالبان في أفغانستان، وتحتاج إلى ما يؤكد عدم حدوث ذلك، ولأمريكا القدرة على استغلال

الشرعية الدولية، في تمرير سياساتها، ومما عللت به دعمها لتحالف أمراء الحرب، هو تأمين الجبهة الصومالية من أن تكون منطلقًا ومأوى لتنظيم القاعدة، فقد كتبت صحيفة (واشنطن بوست) في عددها ١٧ / ٥ / ٢٠٠٦ «أن

واشنطن تدعم سرًا أمراء الحرب الصوماليين. وفي اليوم التالي على صدور الصحيفة، قال الناطق باسم البيت الأبيض (توني سنو): إن الولايات المتحدة تدعم عددًا من الأشخاص في الصومال للحيلولة دون تغلغل تنظيم القاعدة فيه». (١٣)

وهذا هو لبُّ التحدي الأكبر، الذي واجه تجربة المحاكم الإسلامية، في علاقتها بالمجتمع الدولي، بل وحدد مآل مستقبلها الذي آلت إليه مؤخرًا.

لقد نشرت الشبكة الصومالية للمعلومات عصارة ندوة أقامها معهد (أميركان إنتربرايز) www.aei.org المعروف بميوله للمحافظين، والتي تابع تفاصيلها مراسل (تقرير واشنطن)، والتي انطلقت من طرح سؤال يقول: هل تمثل الصومال في ظل ازدياد المحاكم الإسلامية خطرًا على أمن الولايات

كل ما كان يهيم المجتمع الدولي أن لا تجعل المحاكم الإسلامية من الصومال ملاذًا لما عرف بالإرهاب

لأمنها الداخلي، في حين ترى إريتريا ضرورة إبعاد النفوذ الإثيوبي عن الصومال.

ومن عجائب السياسة، وتناقض مصالحها أن إثيوبيا في الوقت الذي تعادي فيه المحاكم الإسلامية لا ترى مانعاً من التحالف، والتوافق مع الحركة الإسلامية الإريترية، التي تقاتل نظام أفورقي في أسمرأ؛ إذ استقبل وزير خارجيتها (سيوم مسفن) في نوفمبر الفائت ٢٠٠٦ الأمين العام لحركة الإصلاح الإسلامي الإريترية، الشيخ محمد أحمد صالح، في العاصمة أديس أبابا، وسمحت حكومته للحركة بفتح مكتب لها؛ نكاية بخصمها

في أسمرأ، الرئيس إسياس أفورقي، حليف المحاكم الإسلامية في الصومال. (١٤)

وسجلت إثيوبيا من قبل موقفاً سلبياً من مبادرة إصلاحية، تقدمت بها جيوتي، وقدمت في ذات الوقت مبادرة من عندها، حيث

ومن عجائب السياسة، وتناقض مصالحها أن إثيوبيا في الوقت الذي تعادي فيه المحاكم الإسلامية لا ترى مانعاً من التحالف، والتوافق مع الحركة الإسلامية الإريترية، التي تقاتل نظام أفورقي في أسمرأ

دعت في ١٩٩٧م إلى اجتماع (سودري) (١٥) لتسوية الوضع الصومالي، ولكن على النحو الذي يخدم استراتيجيتها، ويجعل من الصومال كياناً مطواعاً، إلا أنها عجزت عن كسب ثقة كل الفصائل الصومالية، وبخاصة حسين عيديد الذي وقف معارضاً لكل ما انبثق عن اجتماع سودري، من لجان وقرارات، معتبراً ذلك نمطاً من أنماط التدخل الإثيوبي في الشؤون الصومالية، وبهذا انحصر هذا الاجتماع في ستة وعشرين فصلاً، خرجوا بتكوين مجلس أطلق عليه مجلس الإنقاذ الوطني الصومالي، من أبرز رجاله عثمان عاتو.

وعصارة ما يمكن أن يقال بشأن النوايا الإثيوبية تجاه الصومال: إن الاستراتيجية الإثيوبية تجاه الصومال، والتي هي محل إجماع جميع الحكام الإثيوبيين، نجحت أيما نجاح في تفجير الجسم الصومالي من

- دعم وتعزيز الاستقرار، وإقامة حياة سياسية تقوم على مبادئ وقيم الديمقراطية.

- تقديم المعونات والمساعدات الإنسانية، والعمل على ضمان وصولها إلى الشعب الصومالي.

والتحليل الأمريكي سواء الرسمي منه والأكاديمي - كما هو بادٍ - يجعل المصلحة الأمريكية فوق كل الاهتمام، ومع ذلك لا يستبعد فتح حوار «أو» قنوات اتصال مع المحاكم الإسلامية، وغير المحاكم، وكل ما يعنيه أن يجد تفهماً لمخاوفه، وما أحسب أن المحاكم الإسلامية كانت على جهل بهذه المسألة،

أو تجاهل لها، ولكنها الإدارة الأمريكية لا ترى في تعاملها مع الحركات الإسلامية إلا الحل العسكري، ومن ثم عملت كل ما في وسعها لإفشال هذه التجربة، والتخلص منها، من خلال توظيف إثيوبيا، ومن دار في مدارها، من الصوماليين، وهكذا سقطت المحاكم الإسلامية.

خطاب المحاكم الشرعية ودول الجوار:

وعلى الصعيد الإقليمي لا بد أن يكون لخطاب المحاكم الشرعية أثرٌ ما في مجريات الحالة السياسية في القرن الإفريقي، ولا بد أن يكون لكل دولة من دوله موقفٌ ما، بناء على تقديراتها الخاصة؛ لانعكاسات ذلك الخطاب، سلباً أو إيجاباً، على مصالحها.

إثيوبيا وخطاب المحاكم الشرعية:

تخاف إثيوبيا من أن تكون المحاكم الإسلامية في الصومال؛ إذا ما قُدِّر لها التمكين، ظهيراً ونصيراً لمطلب استقلال أو جادين، ولا يمكن أن تتحمل وجود نظام إسلامي في القرن الإفريقي، يلاصقها حدوداً إلى جانب نظام الإنقاذ في الخرطوم؛ لذا فإن وجود حكومة موالية لها في مقديشو مطلب ضروري

للتساؤلات!! ولم يعد الدعم الإريتري خافياً، فقد كتب مدير مركز القرن الإفريقي للدراسات الإنسانية في مقديشو، نقلاً عن الصحف المحلية «إن وفداً عسكرياً إريترياً قام بزيارة معسكرات التدريب للشوار الصوماليين والأمريين»^(١٦)، كان ذلك في أبريل من عام ١٩٩٩ م.

وحالياً تؤكد تقارير الأمم المتحدة التدخل الإريتري في الصومال، إلى جانب المحاكم الإسلامية، بالرغم من أن إريتريا تنفي ذلك بشدة، وتحمل الولايات المتحدة مأساة الوضع المتردي في الصومال، حيث اتهم الرئيس الإريتري علناً الولايات المتحدة بالمساهمة في زعزعة الاستقرار، وإثارة النزاعات في القرن الإفريقي، وخصوصاً في الصومال، معتبراً أن حليفها الكبرى في المنطقة إثيوبيا، هي أدواتها ودميتها.

وقال في تصريحات على هامش قمة السوق المشتركة لدول شرق إفريقيا وجنوبها (كوميسا): إن حكومة أديس أبابا ساهمت في عدم الاستقرار في القرن الإفريقي، مضيفاً أن التورط الخارجي هو التهديد الأكبر الذي يهدد الصومال.^(١٧)

والنظام الإريتري إنما كان يفعل ذلك لتوريط الطرفين في معارك استنزافية، تضعف الجانبين معاً، وفي هذا أثر إيجابي بالنسبة له، فلربما نجم عن هذه الحرب تفجر أزمة داخلية في إثيوبيا، قد تؤدي إلى ثورة شعبية؛ إذا ما استعصت المحاكم على إثيوبيا، واستمرت الحرب لأمد طويل، قد تنتهي بسقوط نظام ملس زناوي، المنحدر من قومية (التجراي)، والذي يتعرض لانتقادات حادة من المعارضة الإثيوبية، وعلى رأسها معارضة قومية (الأمهرا) التي احتكرت السلطة لأمد طويل، من عهد مليليك، حتى سقوط منجستو هيلي ماريام في ١٩٩١ م، وهو ما يعمل له كلا النظامين بسباق حاد، أو على الأقل تلزم حكومة ملس بالرضوخ لقرار التحكيم الصادر في أبريل ٢٠٠٢ من محكمة العدل الدولية بلاهاي، بشأن

الداخل؛ لتجعل منه أشلاء متناثرة، هنا وهناك، وفي هذا السياق يأتي دعم إثيوبيا للحكومة الانتقالية، برئاسة عبد الله يوسف، ومعارضتها للمحاكم الإسلامية، ولا يمكن أن تفرط في هذا النجاح وترك الصومال لقيادة حركة إسلامية.

ومن هنا فإن الاستفزاز الإثيوبي كان أحد أهم التحديات الكبيرة التي واجهت تجربة المحاكم الإسلامية، وساهمت في تحديد مستقبل نفوذها في الصومال، ومهما كان موقف إثيوبيا من الصومال، وموقف الصوماليين من عدائها التاريخي لبلادهم، فإنها قوة إقليمية، ذات تحالفات دولية، والدخول معها في صدام عسكري لا شك يمثل ضربة قاضية لتجربة المحاكم؛ لذا كان من الضروري جداً أن يعمل خطاب المحاكم الإسلامية على تجنب الصدام مع إثيوبيا، وأن يقرأ واقع الأحداث قراءة عقلانية، بعيدة عن النظرة العاطفية، وهنا لا بد من طمأنة إثيوبيا بأنه ليس للمحاكم مطامع أكثر من إعادة بناء الصومال واستقراره الأمني، كما كان قبل عام ١٩٩١، ويمكن أن يكون حلف صنعاء ممراً إلى الحوار الجاد مع إثيوبيا عبر الوساطة السودانية واليمنية، باعتبار البلدين يشاركان إثيوبيا في الحلف، وأن استقرار الصومال يهمهما بالقدر الذي يهم إثيوبيا.

صحيح أن إثيوبيا يهمها أن يكون لحلفائها النصيب الأوفر من السلطة، ولكن ما المانع من أن يستجاب لها، ما دام في ذلك استقرار الصومال، وإعادة بنائه، وما دام الشعب الصومالي سيختار بمحض إرادته قيادته المستقلة، ونظام الحكم الذي يفضله، على أن يؤجل المشروع الإسلامي إلى حين؛ ليتنزل على الصوماليين منجماً.

إريتريا وخطاب المحاكم الشرعية:

تخوض إريتريا صراعاً مسلحاً مع الحركة الإسلامية الإريترية، وتناصر في الوقت نفسه المحاكم الإسلامية في الصومال، ذلك أمر مثير

خبراء الشؤون الإفريقية، وأضاف السفير (ديفيد شن) في الندوة ذاتها قوله: «وقد يكون سبب الدعم الذي أظهرته كينيا أخيراً للحكومة الفيدرالية المؤقتة هو خوفها من أن تكون المحاكم الإسلامية تعترزم ضم الأراضي التي يسكنها صوماليون في المنطقة الشمالية الشرقية من كينيا، حيث يبلغ طول الحدود المشتركة بين البلدين ٦٨٤ كيلومتراً إلى الصومال». (١٨)

وتفاعلاً من الصوماليين الكينيين مع تطورات الأحداث في الصومال «أجرت قيادات دينية، ورجال أعمال صوماليون في نيروبي محادثات مع وزير الخارجية الكيني (رافيل توجو)، وطالبوه بتحريك بلاده لإنقاذ الموقف في الصومال. فيما أكد الوزير حرص كينيا على إعطاء فرصة للسلام، وحل المشكلات العالقة بين الحكومة الصومالية والمحاكم الإسلامية على مائدة المفاوضات، واتفق الطرفان على تشكيل لجنة لمراقبة التطورات، ورفض الوزير التعليق على الأزمة المتفاقمة بين المحاكم وإثيوبيا». (١٩)

وقد يكون الأثر الأمني جد سلبي على كينيا؛ إذا ما تجاهلت الحكومة الكينية في تعاملها مع الصراع الصومالي الإثيوبي تعاطف مواطنيها الصوماليين، مع المحاكم الإسلامية، فقد قال أمين عام أئمة المسلمين في كينيا الشيخ محمد دور: «إنهم سمعوا بوصول آليات عسكرية، من اتجاه إثيوبيا إلى الحدود بين كينيا والصومال، وأضاف أن ذلك مقلق للغاية على الرغم من أن السلطات الكينية تنفيه، وأفاد بأن المسلمين الكينيين لن يقبلوا بمهاجمة ما وصفها بأنها «قوات مسيحية» لأشقائهم في الصومال، مؤكداً استعدادهم لتقديم الدعم والمساعدة للمحاكم الإسلامية، على حد تعبيره». (٢٠)

لكن ما ينبغي إدراكه هنا أن هذا ليس كافياً لتغيير كينيا مسارها السياسي، في علاقتها بالمحاكم الإسلامية، وإنما الأمر المهم هو تبديد مخاوفها من أن المحاكم الإسلامية، لا تنوي بأي حال من الأحوال، المطالبة بإقليم إينفندي الصومالي، وذلك بالتأكيد على محلية

الخلافاً للحدودي الذي فجّر حرب بادمي الشرسة بين الدولتين في ١٩٩٨ - ٢٠٠٠، وعندها تكون المحاكم الإسلامية استنفدت غرضها بالنسبة لنظام أفورقي، لتكون له وجهة أخرى، تعمل لا محالة في إسقاطها، حتى لا يكون ثمة نظام يقوده إسلاميون في القرن الإفريقي، ويتناغم مع النظام السوداني، بقيادة عمر البشير، ويشكل سند دعم مادي ومعنوي للحركة الإسلامية الإريترية.

ومع أهمية الاستفادة من دعم إريتريا، إن كان هنالك فعلاً دعم جاد، كان لا بد من تنبه خطاب المحاكم الإسلامية إلى أن الدعم الإريترى، لا يغني في مواجهة إثيوبيا، وأن إريتريا نفسها تعيش وضعاً اقتصادياً خانقاً، وتفتقر إلى مؤسسات دولة، لذا لم تتمكن من إلحاق الهزيمة بالنظام الإثيوبي عسكرياً، وما عجز عنه الإريتريون، لا يمكن توقعه من المحاكم الإسلامية.

كينيا وخطاب المحاكم الشرعية:

مشكلة كينيا مع الصومال بشكل عام، تنحصر في إقليم (إينفندي)، وهو إقليم صومالي، ألحقه البريطانيون بمستعمرتهم (كينيا)، ومن هنا فإن قلق كينيا من سيطرة المحاكم الإسلامية، وخطابها السياسي، لا يقل درجة عن قلق إثيوبيا، وتعامل كينيا مع المسألة الصومالية يحكمه على الدوام هذا القلق، وهو قلق مزمن، يتجدد بدرجات متفاوتة، كلما تجددت عوامل إثارته، بتنامي إحدى النزعتين عند الصوماليين، النزعة القومية، أو النزعة الدينية.

انطلاقاً من هذا، تعاطت كينيا المشكلة الصومالية بحذر شديد، وهي ممن يؤيد إرسال قوات حفظ السلام إلى الصومال، هذا ما قاله عنها السفير الأمريكي السابق لدى بوركينافاسو، ولدى إثيوبيا (ديفيد شن) (David H. Shinn) في ندوة حوار عقدها معهد (أميركان إنتربرايز) بواشنطن في ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ بحضور مجموعة من

ولأن رؤيتها لحل المشكلة الصومالية تبني على إجراء مصالححة وطنية بين كل الفرقاء الصوماليين، تدعم جيبوتي - كما أشار إلى ذلك السفير ديفيد شن - «مبادرات السلام في الخرطوم التي نُظمت بهدف تحقيق ذلك الهدف، ولا تدعم جيبوتي إرسال قوات حفظ السلام في الصومال، وقد حثت أخيراً على عدم تدخل أي جهات خارجية في البلد... إن جيبوتي بلدٌ

الحكومة الصومالية الموقنة لن يثبت لها قدم راسخ من غير الدعم الإثيوبي، وإن المحاكم الإسلامية لا محالة عائدة؛ متى ما تخلى الإثيوبيون عن حكومة عبدالله يوسف

الأغلبية الساحقة من سكانه مسلمون، ويعتمد بشكل متزايد على الاستثمارات العربية، مما قد يفسر سبب إظهارها استعداداً أكبر لتقبل المحاكم الإسلامية الصومالية». (٢٢)

لكن إذا ما تطور الوضع في الصومال إلى أسوأ مما هو عليه لأي سبب كان، وأدى إلى تفجر حرب شاملة في المنطقة بين إثيوبيا والمحاكم، فلا محالة ينعكس ذلك على جيبوتي بأثر سلبي في استقرارها السياسي، والاقتصادي، والأمني أيضاً، بحكم التوافق العرقي والثقافي مع الصوماليين من ناحية، ومن ناحية أخرى بحكم مجاورتها لإثيوبيا، ولا بد أن يصيبها من الأذى ما يشكل خطراً على وضعها الأمني، كما أصاب الصومال نفسه بسبب حرب أوغادين عام ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ضائقة اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وأمنية؛ بسبب هجرة صوماليي الأوغاديين، وكان تفاقم هذه الضائقة بكل تشققاتها، أحد العوامل التي أزمّت الوضع في الصومال، وساهمت، في إسقاط نظام زياد بري. (٢٣)

لهذا نرى جيبوتي تجنح نحو اعتماد الحل السلمي في إزالة التوترات الصومالية، ولا تبغي به بديلاً، ومهم جداً أن يتناسب ويتناسب خطاب المحاكم الإسلامية مع الرؤية الجيبوتية؛ إذا ما أريد لهذه المحاكم أن تكون تجربة ناجحة للإسلاميين، في

المحاكم الشرعية، وأحسب أن هذا التأكيد لا يبدد من خوف كينيا وإثيوبيا فحسب، وإنما يحد أيضاً من قلق أمريكا، ويمنح أشقاء الشعب الصومالي وأصدقاءه، من الدول العربية والإسلامية، مساحة أكبر، لطرح مبادرات إصلاحية، تساعد الصوماليين على الخروج من محتهم.

جيبوتي وخطاب المحاكم الشرعية:

ترتبط جيبوتي بالمجتمع الصومالي عرقياً وثقافياً، واهتمامها بالصومال نابع من هذا الارتباط، وفي سبتمبر ١٩٩٩ أعلن الرئيس الجيبوتي إسماعيل عمر غيلة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عن مبادرة جيبوتية لحل أزمة الصومال، لخصها في النقاط التالية:

- حق الشعب الصومالي في ممارسة حقه الديمقراطي في اختيار قاداته.
- الدعوة إلى تحويل الفصائل العسكرية في الصومال إلى أحزاب سياسية.
- نزع أسلحة الفصائل الصومالية المتحاربة وإخضاعها لسلطة القانون.
- دعوة المجتمع الدولي لتقديم المساعدات اللازمة لإعادة بناء الصومال. (٢١)

و فعلاً تقدمت جيبوتي في ٢ / ٥ / ٢٠٠٠م بمشروع مصالححة وطنية، إلى بعض الفصائل الصومالية، التي اجتمعت في مدينة عرتة، برعاية الرئيس الجيبوتي (إسماعيل عمر غيلة)، وخرجت باختيار برلمان انتقالي من ٢٥٤ عضواً، اختير من بينهم عبد قاسم صلا، رئيساً لجمهورية الصومال، من بين خمسة وأربعين مرشحاً لمنصب الرئاسة، وهذا لم يُرض إثيوبيا وحلفاءها الصوماليين، من أمراء الحرب؛ حيث لعبت إثيوبيا دوراً معيقاً، في تنفيذ قرارات المؤتمر، مما أدى إلى إخفاق مشروع جيبوتي التصالحي.

ودعت الشعب الصومالي إلى الاستعداد لخوض حرب جهادية لطرد الاحتلال الصليبي من الصومال، وأفتى ٥٠ من كبار علماء الدين الصوماليين بضرورة مقاتلة الإثيوبيين.

وبرغم ما تتميز به القوات الإثيوبية من ضخامة حجم قواتها؛ بجانب التفوق الكبير في التسليح ودعم المجتمع الدولي، مقارنة بالتسليح والتمويل الضعيف لقوات المحاكم، وعدم وجود أي غطاء دولي داعم للمحاكم في مقاومتها المشروعة، برغم ذلك إلا أنه يتوقع أن تكون مقاومة مقاتلي المحاكم الإسلامية، ومناصرهم عنيفة للحد الذي يمثل عبئاً ثقيلاً على القوات الغازية يصعب تحمله، فإثيوبيا دخلت حرباً لا تعرف لها نهاية، وتورطت في المستنقع الصومالي مما عده البعض خطأً استراتيجياً قاتلاً ارتكبه إثيوبيا ولم تحسب حسابه جيداً، ولن تخرج منه بسهولة، نعم قد تستطيع إثيوبيا توجيه ضربة للمحاكم، ولكنها لن تنعم بالبقاء في الصومال؛ لأنها محاطة بالعداء من قبل الشعب الصومالي؛ بسبب الحزازات التاريخية واختلاف العقيدة، فضلاً عن عدة اعتبارات جوهرية أخرى تصعب من مهمة القوات الغازية يأتي على رأسها:

- قطاع واسع من الشعب الصومالي يرفض وقوع بلاده في شرك الهيمنة الإثيوبية الصليبية.
- المحاكم الإسلامية تقاثل على أرضها مستندة على قاعدة اجتماعية واسعة مؤيدة لها في أوساط الشعب الصومالي، حيث تشكلت من مختلف القبائل والعرقيات، ولم تكن حكراً على عرقية أو قبيلة واحدة.

أشارت نيويورك تايمز إلى حالة التأيد الشعبي للمحاكم؛ وأكدت في تقريرها أن المئات من الشباب الصومالي بدءوا في الاستعداد لمواجهة القوات الإثيوبية.

- نجاح المحاكم في فترة حكمها في إعادة الأمان والاستقرار للبلاد أعطى لها شرعية داخلية في أوساط الشعب الصومالي.

القرن الإفريقي، فالتجربة السودانية تجاهلت الآخر، في مستهل أمرها، وحاولت الإمساك بكل الخيوط، ولكن بعد أن اتسع الخرق على الراقع عادت تصالح وتحاور كل الخارجين عليها من حملة السلاح، ابتداء من الجنوبيين، ثم الغرباويين، والشرقيين، من أهل السودان، ولو أن المحاكم الإسلامية استحضرت التجربة السودانية بكل ما حوت؛ لاستلهمت منها العبر، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

المحاكم الإسلامية فيما بعد السقوط (*):

ما كان متوقفاً من المحاكم الإسلامية أمام الزحف الإثيوبي إلا إخلاء البلاد، فمن المحال أن تواجه جيشاً نظامياً، مدرباً على أحدث العتاد العسكري، بقوات محدودة من الميليشيا، ذات أسلحة خفيفة، ولكن ماذا بعد هذا الانسحاب؟ هل هو خيار الحرب إلى حين دحر أمراء الحرب، كما دُحروا أول مرة؟ أم هو خيار السلم والمصالحة؟

انسحبت قوات المحاكم من المدن التي كانت تسيطر عليها بصورة سريعة، ودون قتال في أغلب الأحيان، وخشي الكثيرون من أن تكون هذه الانسحابات انهياراً سريعاً للمحاكم؛ مثلما سيطرت بصورة سريعة على معظم الجنوب الصومالي، لكن المحاكم - وفي أكثر من بيان ومؤتمر - أعلنت أن الانسحاب السريع هو تكتيك جديد، اتخذته المحاكم أمام التفوق في العتاد والتسليح للقوات الإثيوبية، مؤكدة أنها ستخوض حرباً مغايرة تماماً لما تتوقعه القوات الإثيوبية.

وبرغم تمكن إثيوبيا من تحقيق تقدم سريع على الأرض؛ بحكم أنها جيش نظامي مدجج بسلاح ثقيل، إلا أن هذا التقدم يصعب أن يستقر أو يستمر طويلاً، فلن تستطيع إثيوبيا أن تحتفظ بالأرض التي استولت عليها، وسوف تورط نفسها في حرب قد يتجاوز تأثيرها إلى الداخل الإثيوبي نفسه. وأعلنت المحاكم الجهاد ضد القوات الغازية،

والأهداف نبيلة، ولا يمكن أن تخوض المحاكم حرب عصابات طويلة الأجل في وضع كوضع الصومال، يعاني من الجفاف والمجاعة، والتمزق القبلي، فهل ستنتج المحاكم الإسلامية في إدراك هذه الحقيقة، ومن ثم تستدرك الآن ما فاتها من قبل؟ ذلك ما أرجوه، والله وحده الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

- (١) انظر: B.B.C Arabic.Com
- (٢) انظر: www.aljazeera.net
- (٣) هكذا عبر، والأولى أن يقول المدانين؛ لأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، والحدود - كما هو معلوم - لا تقام بمجرد الاتهام، وتندراً بالشبهات.
- (٤) انظر: إسلام أون لاين.
- (٥) انظر تقرير عبد الرحمن يوسف من مقديشو في موقع www.islamonline.net
- (٦) المصدر نفسه.
- (٧) انظر موقع: www.adoulis.com
- (٨) انظر: تقرير عدي يوسف من مقديشو لإسلام أون لاين، تاريخ ٢٥/٦/٢٠٠٦، تحت عنوان: مطلوب أمريكا يرأس برلمان محاكم الصومال.
- (٩) انظر: تقرير عبد الرحمن يوسف من مقديشو لإسلام أون لاين، تاريخ ٩/١٢/٢٠٠٦، بعنوان معارك يبدو... المحاكم تستبق القوات الإفريقية. ويلاحظ أن يوسف يكتب تقريره أحياناً باسم عدي يوسف اختصاراً لعبد الرحمن.
- (١٠) انظر: B.B.C Arabic.com
- (١١) شبكة نور الإسلام www.islamlight.net
- (١٢) دريل محمد حسن علي: جذور النزاع الصومالي دراسة نقدية حول المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الصومال، ص ١٥.
- (١٣) شبكة نور الإسلام www.islamlight.net الصومال والمحاكم الشرعية.
- (١٤) انظر موقع حركة الإصلاح www.islaher.org
- (١٥) سودري اسم مدينة إثيوبية تقع بالقرب من أديس أبابا.
- (١٦) المجتمع عدد ١٣٥١، تاريخ ٢٥/٥/١٩٩٩م.
- (١٧) انظر: www.aljazeera.net، تاريخ ١٦/١١/٢٠٠٦.

- يضاف لذلك البعد العقائدي في قوات المحاكم؛ حيث تلعب العقيدة الإسلامية دورها في ترجيح كفة قوات المحاكم.

- هذا بجانب ضعف الحكومة الانتقالية التي فقدت مصداقيتها عند الشعب الصومالي؛ بسبب استعانتها بالقوات الإثيوبية.

ولعل في الإعلان الذي أصدرته «جبهة المقاومة الوطنية لتحرير الصومال»، ما يبرز حجم هذه المقاومة وسرعة تشكلها، حيث قال متحدث باسم القوى الوطنية في البلاد، في تصريحات صحفية: إن الجبهة تضم جميع شرائح الشعب الصومالي، بجميع توجهاته الدينية والفكرية والعشائرية، وإن هدف الجبهة هو إجلاء القوات الإثيوبية من جميع الأراضي الصومالية. وحذرت القوى المعادية لإرادة الشعب من التمادي في دعم أو مساندة، أو موالة العدوان الإثيوبي الغاشم، وتوعدت قوات الاحتلال بأنها ستوجه إليها ضربات موجعة، وتلحق بها هزيمة نكراء، مطالبة الشعب الصومالي بالتوحد ورفض الصفوف والصفود والمثابرة.

ومن ناحية أخرى يبدو أن الأمريكيان لا يودون أن يكرروا في الصومال الخطأ الذي وقعوا فيه في العراق، حين أقصوا قوى سياسية بعينها عن المشاركة في صياغة وجهة العراق السياسية، لهذا كان لقاء سفير الولايات المتحدة الأمريكية، في العاصمة الكينية (نيروبي) بالشيخ شريف شيخ أحمد؛ باعتباره واجهة ما أسموه بالجناح المعتدل في المحاكم، بغية ثنيه عن العمل العسكري، والدخول في مشاركة مع الحكومة الحالية.

ويبدو لي أنه ليس أمام المحاكم الإسلامية خيار مناسب بعد انسحاب الاحتلال سوى خيار المصالحة الوطنية، واستغلال بعض المبادرات الإقليمية لتقديم رؤية تمكّنها من المساهمة في صياغة الصومال الجديد؛ لأن الشعب الصومالي لا يتحمل إعادته إلى حالة الحرب الأولى، مهما كانت النوايا صادقة،

(١٨) نشرة واشنطن الصادرة عن مكتب برامج الإعلام
الخارجي بوزارة الخارجية الأمريكية، تاريخ ١٠ تشرين
الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦ موقع:

<http://usinfo.state.gov/arabic> .

(١٩) www.iraqcenter.net

(٢٠) المصدر السابق.

(٢١) إسلام أون لاين مؤتمر عرته..هل ينهي الأزمة
الصومالية؟ حسن موسى - محمد عاشور.
تبعد مدينة عرته عن العاصمة الجيبوتية نحو ٤٠ كم .

(٢٢) <http://usinfo.state.gov/Arabic>

(٢٣) د/ أحمد إبراهيم محمود: الصومال بين انهيار
الدولة والمصالحة الوطنية، جرى عرض الكتاب في
www.sis.gov.eg الهيئة العامة للاستعلامات
المصرية ٢٠٠٥ .

(*) تم الانتهاء من كتابة البحث بعد أيام قليلة من سقوط
المحاكم الإسلامية.

معلومات إضافية

نبذة عن الصومال

الصومال دولة إسلامية تقع في القرن الشرقي لقارة إفريقيا المطل على المحيط الهندي، ولها ساحل طويل، يشرف على هذا المحيط، ويبتدئ لمسافة ١٦٠ كم، كما أن ساحلها الشمالي يطل على خليج عدن بطول قدره ١,٠٠٠ كم.

تاريخ الاستقلال: ١/٧/١٩٦٠.

العيد الوطني: ١ يوليو.

عدد السكان: ٨٠٢٥١٩٠ (تقديرات سنة ٢٠٠٣).

الدين: مسلمون ١٠٠٪.

التوزيع العرقي: صومالي ٨٥٪، بانتو، وغير صوماليين ١٥٪ (بما في ذلك العرب).

اللغة: الصومالية، العربية، الإيطالية، الإنجليزية.

المدن الرئيسية: هرجيسة، كسمايو، بربرة.

العملة: شلن صومالي.

المساحة الإجمالية: ٦٣٧٦٥٧ كم.

مساحة اليابسة: ٦٢٧٣٣٧ كم.

الحدود البرية: ٢٣٦٦ كم.

السواحل: ٣٠٢٥ كم.

مساحة المياه: ١٠٣٢٠ كم.

نسبة الأراضي الصالحة للزراعة: ٢٪.

مساحة الأراضي المروية: ١٨٠٠ كم.

حدود الأرض: المجموع: ٢,٣٤٠ كيلومتر من الحدود: جيبوتي ٥٨ كم، إثيوبيا ١,٦٠٠ كيلومتر، كينيا ٦٨٢ كيلومتر، الخط الساحلي: ٣,٠٢٥ كيلومتر.

المشاكل الحدودية مع دول الجوار:

- الصومال الغربي (أو إقليم أوجادين بإثيوبيا): ودارت عليه حرب ضروس بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ بين (جبهة تحرير الصومال الغربي) تسانده جمهورية الصومال من جهة، وإثيوبيا من جهة أخرى، وانتهت بانسحاب الصوماليين من المعركة؛ بسبب التدخل العسكري من دول المعسكر الاشتراكي المنحل بقيادة الاتحاد السوفيتي وكوبا، وموافقة أمريكا والمنظمات المسيحية في الدول الغربية، وتقوم نفس القوى بإعطاء الجزء الصومالي في إثيوبيا حكم ذاتي، وما زالت (جبهة تحرير أجادينيا) ناشطة.

- إقليم (الشمال الشرقي) في كينيا: على الرغم من الاستفتاء من أجل تحقيق المصير قبيل استقلال كينيا، والذي عبّر فيه سكان الإقليم عن رغبتهم في الانضمام للصومال، أبت بريطانيا بالإمعان في إذلال سكان الإقليم، وسلّمتهم لكينيا، وهو الآن يشكل عبئًا اقتصاديًا، وأمنيًا على كينيا.

اتحاد المحاكم الإسلامية:

هو مجموعة من المحاكم الإسلامية التي اتحدت برئاسة شريف شيخ أحمد، وأصبحت حاکمة لأغلب مناطق الصومال، وهي تنافس الحكومة الانتقالية على الحكم.

تاريخها:

بعد انهيار الحكومة الصومالية عام ١٩٩١، وانسحاب الولايات المتحدة من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، قامت حرب أهلية قبلية استمرت زهاء ١٤ عامًا، أصبح نظام المحاكم الإسلامية هو نظام القضاء في الصومال. ونما دور المحاكم وبدأت المحاكم في تقديم خدمات مثل التعليم والرعاية الصحية، وأصبحت أيضًا تمثل دور الشرطة، واستطاعت سد مسألة الفراغ الأمني والقانوني، والحدّ من نفوذ أمراء الحرب الأقوياء، وحماية الضعفاء بعد الانهيار الكامل لدعائم الدولة الصومالية.

وهكذا نشأت المحاكم الإسلامية في مواجهة أمراء الحرب، ودفع نجاح تجربة المحاكم إلى انتشارها في ربوع العاصمة مقديشو، ثم اتحدت بالتحالف ما بين رجال الدين وطبقة التجار، وتكونت تلك المحاكم من ١٤ محكمة، تجمع أطرافًا محلية منقسمة هي الأخرى على ذاتها؛ فالمعتدلون يسيطرون على ١١ محكمة، وأما المتشددون فيسيطرون على ثلاث محاكم. وترتبط ١٠ محاكم بقبيلة واحدة هي قبيلة الهاوية التي تسيطر على مقديشو، وهناك بعض المحاكم المستقلة عن اتحاد المحاكم الإسلامية. ويرأس المحاكم الإسلامية شريف شيخ أحمد؛ الذي يُعدّ ممثلًا للتيار المعتدل داخلها، في مقابل الشيخ طاهر عويس الذي يقود واحدة من المجموعتين المسلحتين داخل الاتحاد، والذي تم اختياره رئيسًا لمجلس شوري المحاكم.

وتهدف المحاكم الإسلامية إلى بسط القانون والنظام، والعمل على غلبة العامل الديني الإسلامي على الولاء القبلي.

موقف القوى الدولية

أدى هذا التغيير إلى جذب الانتباه دوليًا إلى الصومال، وقد سعى العديد من الأطراف الدولية إلى التدخل في شؤنه؛ إما بوقف تقدم المحاكم الإسلامية؛ بزعم أن هذه المحاكم تماثل حركة طالبان، أما أطراف أخرى فقد حاولت تحقيق، أو على الأقل الحفاظ على مصالحها التاريخية في الصومال كاليمين وارتريا، وبشكل أصبحت معه الأخيرة في مواجهه مع إثيوبيا على أرض الصومال، مما دفع إثيوبيا لإعلان الدخول في اشتباكات معها.

انحد المحاكم الإسلامية، الموسوعة الحرة ويكيبيديا

<http://ar.wikipedia.org/wiki>

بنود القرار ١٧٢٥ لمجلس الأمن الصادر بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٦.

١- يكرر تأكيد أن الميثاق الاتحادي الانتقالي والمؤسسات الاتحادية الانتقالية يوفران السبل الوحيد لتحقيق السلام والاستقرار في الصومال، ويشدد على ضرورة التضييق في حوار تنوافر فيه المصدقية بين المؤسسات الاتحادية الانتقالية واتحاد المحاكم الإسلامية.

ويؤكد بالتالي أن الهدف الوحيد من الأحكام التالية الواردة في هذا القرار، والمبنية على قرارات الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية، ومجلس السلام والأمن التابع للاتحاد الإفريقي هو دعم السلام والاستقرار في الصومال من خلال عملية سياسية شاملة للجميع، ونهية الظروف لانسحاب جميع القوات الأجنبية من الصومال.

٢- يحث المؤسسات الاتحادية الانتقالية، واتحاد المحاكم الإسلامية على الوفاء بالالتزامات التي أخذها على عاتقهما، وأن يستأنفا -دون إبطاء- محادثات السلام؛ انطلاقًا من الاتفاقات التي تم التوصل إليها في الخرطوم، وأن يتقيدا بالاتفاقات التي توصل إليها في حوارهما، ويعلن اعترامه النظر في اتخاذ تدابير ضد من يسعون إلى منع عملية الحوار السلمي أو عرقلتها، أو الإطاحة بالمؤسسات الاتحادية الانتقالية باستخدام القوة، أو يقومون بأي عمل يهدد الاستقرار الإقليمي.

٣- يقرر أن يأذن للهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية والدول الأعضاء في الاتحاد الإفريقي بإنشاء بعثة حماية وتدريب في الصومال، يستعرض مجلس الأمن ولايتها بعد فترة أولية قدرها ستة أشهر، في ضوء إحاطة تقدمها الهيئة ثقة الذكر، ويسند إليها تأسيسًا على عناصر ولاية العمليات، ومفهومها المنصوص عليها في هذا الصدد في خطة نشر بعثة الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية الولاية التالية:

أ- رصد تقدم المؤسسات الاتحادية الانتقالية واتحاد المحاكم الإسلامية في تنفيذ الاتفاقات التي توصلنا إليها في حوارهما.

ب - كفالة حرية الحركة والمرور الآمن لكل المشاركين في عملية الحوار.

ج - حفظ الأمن والسهر عليه في بياداه.

د- حماية أعضاء المؤسسات الاتحادية الانتقالية والحكومة، والهيكل الأساسية الرئيسية التابعة لتلك المؤسسات.

ذ- تدريب قوات الأمن التابعة للمؤسسات الاتحادية الانتقالية؛ لتمكينها من كفالة أمنها، والمساعدة على تيسير إعادة تشكيل قوات الأمن الوطني في الصومال.

٤ - يؤيد ما نصت عليه تحديدًا خطة النشر التي وضعتها الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية من ألا تنشر الدول المتاخمة للصومال قوات في ذلك البلد.

٥- يقرر أن التدابير المفروضة بموجب الفقرة ٥ من القرار ٧٣٣ (٢٠٠٢) لن تسري على إمدادات - والوارد تفصيلها في الفقرتين ١ و ٢ من القرار ١٤٢٥ (٢٠٠٦) - الأسلحة والمعدات العسكرية، والتدريب الفني، والمساعدة التقنية المخصصة على سبيل الحصر لدعم القوة المشار إليها في الفقرة ٣ أعلاه أو لاستخدامها.

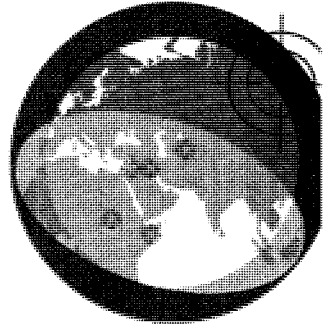
٦ - يشجع الدول الأعضاء على توفير الموارد المالية لبعثة الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية.

٧- يطلب إلى الأمين العام أن يقوم - في ظل التشاور مع مفوضية الاتحاد الإفريقي، وأمانة الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتنمية - بموافاة مجلس الأمن بتقرير عن تنفيذ ولاية البعثة المذكورة في غضون ثلاثين (٣٠) يومًا، وكل ستين (٦٠) يومًا بعد ذلك.

٨- يؤكد أهمية المساهمة المتواصلة للحظر المفروض على توريد الأسلحة في تحقيق السلام والأمن في الصومال، ويطلب أن تمثل جميع الدول الأعضاء، وبخاصة دول المنطقة تمامًا لذلك الحظر، ويكرر تأكيد اعترامه النظر - على وجه الاستعجال - في سبيل تعزيز فعاليته بعدة طرق: من بينها اتخاذ تدابير محددة الهدف؛ دعمًا لحظر توريد الأسلحة.

٩ - يقرر إبقاء المسألة قيد نظره الفعلي.

قرار مجلس الأمن، قرارات (٢٠٠٦) الخاص بالصومال، مجلس الأمن.



استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي

د/ محمد مورو - مصر

مفكر إسلامي، ورئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي

ملخص البحث:

تعتبر مشكلة الأقليات، والتي ظهرت في العالم الإسلامي مشكلة مستحدثة بها قدر هائل من التحريض الأجنبي، وهي لم تظهر إلا في إطار الصراع مع الغرب، وتحديدًا بعد مرحلة الاحتلال والنفوذ الأجنبي. بعد استخدام الأقليات جزءًا من صراع شامل، نتج عن صدام موضوعي بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فالأولى تقوم على التوحيد، والعدل، والحرية، واللاعنصرية، والتسامح، بينما قامت الأخرى «الوثنية ذات القشرة المسيحية» على الوثنية، والقهر، والظلم، والإكراه، والنهب، والتعددية، ومن ثم كان الصدام الموضوعي حتميًا.

فمع الاحتكاك بين الحضارة الإسلامية وأوروبا اكتشف الأوروبيون أن هناك منظومة فكرية وثقافية إسلامية شديدة التماسك، وأن المواجهة المباشرة مع الحضارة الإسلامية ستؤدي إلى هزيمة أوروبية، فلا بد من اكتشاف وسائل لإضعاف القلعة الإسلامية من داخلها، فقرروا إنشاء جيش من «المستشرقين» للبحث في وسائل إضعافها من الداخل فكريًا، وثقافيًا، عن طريق الأقليات الدينية ثم العرقية، وتطورت تلك الوسائل بعد ذلك، إلا أنها ظلت في النهاية فكرة قديمة جديدة، تقليدية مستحدثة.

أصبحت الأقليات وسيلة من وسائل التدخل في الشؤون الداخلية للدول، وهذا يعتبر جزءًا من الدور الاستعماري الذي تقوم به المؤسسات التنصيرية؛ حيث إنها تعتبر ذلك جزءًا من عملها لقيام إمبراطورية نصرانية تسيطر على العالم.

ورثت الولايات المتحدة النفوذ الاستعماري البريطاني والفرنسي والأوروبي عموماً في منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، وبصعود ما يسمى بالخطر الإسلامي - على حد قولهم - أصبح من الطبيعي محاولة تكثيف الاختراق الأمريكي للإسلام والمجتمع الإسلامي من داخله، ومن ثم استخدام الأقليات في تلك المسألة، استخداماً طالما كان جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وحتى الآن.

إن سياسة تفكيك المنطقة عبر إثارة الفتن الطائفية هي سياسة غربية ثابتة، والتباكي على حقوق المسيحيين العرب، وراه أهداف سياسية باتت تقليدية ومكشوفة.

وأخيراً إن السياسة الصحيحة لحل مشاكل الأقليات، أو التقليل من آثارها السلبية، تكون بالعودة الصحيحة إلى المرجعية الإسلامية، وإعلاء قيمة الانتماء الحضاري الإسلامي، والانخراط في مشروع وطني عربي إسلامي لمقاومة الاحتلال الأجنبي الصهيوني والأمريكي.

أفكار ومقتطفات

- المنظور الإسلامي الديني والحضاري يختلف عن غيره من المناظير خاصة الغربية منها، فالإسلام مثلاً لا يفرق بين المسلمين على أساس اللون والعرق واللغة.
- تعرف الأقلية بـ «جماعات متوطنة في مجتمع تتجمع بتقاليد خاصة وخصائص إثنية أو دينية أو لغوية معينة، تختلف بشكل واضح عن تلك الموجودة لدى بقية السكان في مجتمع ما، وترغب في دوام المحافظة عليها».
- الحضارة الإسلامية تقوم على التوحيد، العدل، الحرية، اللاعنصرية، التسامح، بينما تقوم الحضارة الغربية «الوثنية ذات القشرة المسيحية» على الوثنية والقهر والظلم والإكراه، والنهب والتعددية، ومن ثم فإن الصدام الموضوعي كان حتمياً.
- الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كان صراعاً عسكرياً، سياسياً، وثقافياً، وفي المرحلة المعاصرة، فإن ازدواج المعايير الغربية فيما يخص قضايا العرب والمسلمين واضح جداً، وكذا عمليات الهجوم على الرموز الإسلامية، ومحاصرة العالم الإسلامي اقتصادياً وسياسياً، ومن ثم استخدام الأقليات في هذا الصراع.
- يديهي أن كل حركات التمرد العرقي، أو حركات الخصوصية الثقافية أو مجرد المطالبة بمطالب مشروعة لرفع الظلم عن الأقليات أمور متداخلة؛ بحيث لا يمكن فصلها عن مستوى السلوك والأفراد والمؤسسات، بل والمفردات المستخدمة، ونلاحظ أيضاً أن الحقبة الأمريكية تميزت بحالة جديدة، وهي أن طلب الدعم الخارجي أصبح موجوداً لدى قطاعات من الأقليات أو بعض هوامشها؛ مثل أقباط المهجر المصريين مثلاً.
- بصعود ما يسمى بالخطر الإسلامي أصبح من الطبيعي محاولة اختراق أمريكا للإسلام والمجتمع الإسلامي من داخله، أو على الأصح تكثيف ذلك؛ لأن هذا الأمر كان موجوداً بالفعل، ومن ثم استخدام الأقليات الدينية في تلك المسألة، كالأقباط في مصر، والأقليات المذهبية كالشيعة في العراق، وكالأمازيغ في المغرب، بل والنوبة في مصر، ومشاكل الأعراق في السودان وغيرها مما لا يمكن حصره.
- لم يعرف العراق منذ تأسيس الدولة الحرب الأهلية - رغم التنوع العرقي والديني والمذهبي الذي تميز به - إلا بعد الاحتلال الأمريكي والتواطؤ الشيعي الأمريكي. وقد اعتمد الأمريكان بصورة واضحة في احتلالهم للعراق على استخدام الأقليات، وخاصة الكردية والشيعة.

- قد يبدو للوهلة الأولى انطباق بين المشروعين الإيراني والشيوعي، ولكن الحقيقة أنهما مشروعان متميزان، حتى لو كان هناك تداخل كبير بينهما، فالمشروع الإيراني يقوم على تحقيق دولة إقليمية عظمتها هي إيران تعتمد على دخل سنوي يصل إلى ٥٠٠ مليار دولار، وإمكانات بشرية ٧٥ مليون نسمة، وقدرات علمية،.. إلخ.

- المشروع الشيوعي لإيران دور كبير فيه، ويقوم هذا المشروع على إقامة دولة شيوعية، على غرار الدولة الصفوية، وتضم إيران والعراق وأجزاء من الخليج العربي وغيرها، وقد اتضحت ملامح هذا المشروع بعد التعاون الأمريكي الإيراني في أفغانستان، ومساعدة إيران للجيش الأمريكي في احتلال أفغانستان وإسقاط حكومة طالبان.

- إن استخدام الولايات المتحدة، ومن قبلها الدول الأوروبية لموضوع الأقليات لم يكن - ولن يكون - إلا نوعاً من استخدامها كورقة في المعادلات الدولية والإقليمية، ثم تركها تدفع الثمن وتواجه مصيرها المشؤم وتعرض حتى للإبادة.

- يمكن استخدام الأقليات كورقة للضغط على الحكومات كما تفعل الولايات المتحدة بالنسبة لورقة الأقباط في مصر، أو لإضعاف المناعة الداخلية للمجتمعات، أو حتى للشوشرة على المشروع الإسلامي والثقافة الوطنية، أو لتحقيق مهام أخرى كلها تدخل في هذا الدور الهدام.

- إن تحطيم اللغة العربية هدف استعماري ثابت، قديم جديد، يستهدف بلبلة العقل العربي وتشكيكه في نفسه، وتحطيم الرابطة الأولى والأخيرة في حياة العرب، وهي اللغة العربية.

«الأستاذ محمود محمد شاكر»

- أخطر ما في المسألة أن الكنيسة المصرية، والتي استمرت متمسكة بتقاليد الكنيسة في رفض الدخول في تحالفات مع الكنائس الأوروبية، أو الانخراط فيما يسمى بمجلس الكنائس العالمي، انخرطت في ذلك المجلس المشبوه.

- إن مجلس الكنائس العالمي يعكس - دون أدنى شك - رغبة جهات أمريكية معينة في استخدام ورقة الأقليات المسيحية، وإن التحقيقات التي أجريت في الكونغرس أثبتت أن مجلس الكنائس العالمي كان من الجهات التي حصلت على مساعدات ضخمة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

«محمد حسين هيكل في كتابه خريف الغضب»

- إن الأقباط الأرثوذكسي هم جزء من النسيج المصري العربي، وإنهم يتمون إلى الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، وإنهم يرون أن سلوكيات البابا شنودة تقود الكنيسة والمسيحية في مصر إلى كارثة، فلن ينفع المسيحيين في مصر إلا الصلة الطيبة بإخوانهم المسلمين، وإن استخدام الورقة الخارجية والاستقواء بالأمريكان هو سلوك غير أخلاقي وغير مضمون العواقب أيضاً.

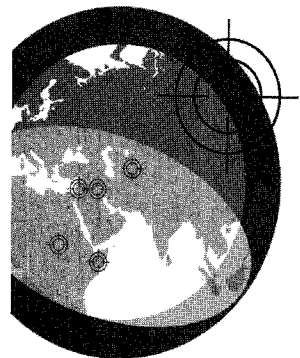
- إذا اعتبرنا أن من حق الناس أن تعبر عن خصوصياتها الثقافية واللغوية، بل والعرقية بما لا يتعارض مع أمن المجتمع، ولا قيمه وتقاليد، وفي إطار المرجعية العليا للمجتمع، ليس بمعنى التطابق معها، ولكن بمعنى عدم ضرب الأسس التي تقوم عليها، فإن ذلك وغيره يحل الكثير من المشكلات في المجتمع الإسلامي المعاصر.

- التعريب والعروبة في إطار إسلامي أمر لم يكن يثير حساسية أي أقلية، بل حتى لم يكن يثير حساسية دولة الخلافة العثمانية ذاتها رغم أنها لم تكن عربية؛ لأن هذا الأمر اعتُبر نوعاً من الدعوة إلى الإسلام والثقافة الإسلامية، أما عندما تحولت فكرة القومية العربية إلى فكرة شوفينية، وأصبحت ذات طابع علماني فإنها جرت مشاكل لا حصر لها.

- في أقل الأحوال يمكن حل المشكلة من جذورها إذا ما عدنا إلى فكرة الجامعة الإسلامية والمرجعية الإسلامية العليا، بل سنجد أن غلاة القوميين الأكراد والأمازيغ ربما سيكونون أشد المدافعين عن الاستقلال الوطني في إطار إسلامي.

- إن سياسة تفكيك المنطقة عبر إثارة الفتن الطائفية هي سياسة غريبة ثابتة، والتباكي على حقوق المسيحيين العرب هو من دموع التماسيح، ووراء أهداف سياسية باتت تقليدية ومكشوفة.

«الدكتور فكتور سحاب»



استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي

د/ محمد مورو - مصر

مفكر إسلامي، ورئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي

لا نُفضِّل علم الاجتماع السياسي الإسلامي مثلاً على علم الاجتماع السياسي الغربي - وهو أفضل منه طبعاً بالنظر إلى مرجعيته الربانية - ولكن نقول فقط: إنه غير صالح من الناحية العلمية لدراسة ظاهرة نشأت في ظرف حضاري مختلف، ومن البديهي - من ثم - أن دراسة الظواهر التي تنشأ في مجتمع إسلامي تقتضي استخدام أدوات ومناهج ومصطلحات علم الاجتماع السياسي، وإلا افتقدنا أول شروط العلمية والموضوعية.

في موضوعنا هذا «الأقليات» وهي إما أقليات عرقية أو دينية أو مذهبية أو لغوية، فإن المنظور الإسلامي الديني والحضاري يختلف عن غيره من المناظير، خاصة الغربية منها، فالإسلام مثلاً لا يفرق بين المسلمين على أساس اللون والعرق واللغة، وبالنسبة للتجمعات الدينية غير الإسلامية استخدمت الشريعة الإسلامية لفظ «أهل الذمة»، وهو يختلف اختلافاً بيناً في الأحكام والدلالات الأخلاقية والحقوق عن لفظ الأقليات، كما استخدمت الشريعة لفظ «الفرق الضالة» أو «أهل البدع» لوصف فرق دينية مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم. (١)

الاختلاف بين الناس في الشكل واللون والفوارق والأجناس والأعراق واللغات، بل وفي المفاهيم والتصورات هي حقيقة لا يمكن القفز فوقها، ولكن

تعد مشكلة الأقليات التي ظهرت مؤخراً في العالم الإسلامي مشكلة مستحدثة أو مفتعلة، أو بها قدر هائل من التحريض الأجنبي، وهي في الحقيقة لم تظهر إلا في إطار الصراع مع الغرب، وتحديدًا بعد مرحلة الاحتلال والنفوذ الأجنبي، ومن المعروف أن النظرة إلى القضايا الاجتماعية عموماً، والأقليات خصوصاً تختلف على حسب اختلاف المنظور العلمي المستخدم في دراستها، وبديهي أن علم الاجتماع السياسي وغيره من العلوم الإنسانية تختلف من سياق حضاري إلى آخر، فعلم الاجتماع مرتبط بالسياق الحضاري الذي أفرزه، وأفرز من ثم المشكلات التي يتناولها الغرب، والخلل هنا أن البعض يستخدم مفاهيم ومناهج علم الاجتماع السياسي الغربي باعتباره هو العلم المطلق، وهذا خطأ منهجي لا شك فيه؛ لأن استخدام مناهج هذا العلم ومصطلحاته في دراسة الحالة الإسلامية، وهي حالة مختلفة كمًّا ونوعًا عن الحالة والسياق والظروف التي ظهرت في الغرب، يؤدي إلى أخطاء فادحة، نحن هنا

العرب: القلة ضد الكثرة، وفي الزمخشري: القلَّة والقُلُّ كالذُلِّ والذَّلَّةُ (٣)، وإذا أخذنا تعريف اللجنة الفرعية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، فإن تعريف الأقلية هو «جماعات متوتنة في مجتمع تتجمع بتقاليد خاصة، وخصائص إثنية أو دينية أو لغوية معينة؛ تختلف بشكل واضح عن تلك الموجودة لدى بقية السكان في مجتمع ما، وترغب في دوام المحافظة عليها»، وتتضمن الأقليات في العالم العربي وفقاً

مشكلة الأقليات برزت إلى السطح، ليس كحقيقة موضوعية موجودة في المجتمع، ولكن كطريقة لتحقيق طموحات سياسية، أو استخدام خارجي

لترتيب الهجائي «الأشوريين، الأرمن، الإسماعيلية، الأقباط، الأكراد، البربر، التركمان، الدروز، الزيدية، الصحراويين، الطوارق، العبيدين، العلويين، الكلدان، المارونيين، اليزيديين، اليهود» (٤)، وفي العالم كله توجد ثمانية آلاف أقلية «إثنية عرقية» و٧٦٠٠ لغة. ويُعرّف الباحث صلاح سعد الأقلية بأنها «جماعة من الناس تشكل عددًا أقلية بالمقارنة مع جماعة أخرى تعيش معها في وطن مشترك تشكل الأغلبية». (٥)

استخدام الأقليات جزء من صراع شامل:

لأسباب ذاتية وموضوعية فإن مساحة كبيرة - كبيرة جدًا - من تاريخنا الإسلامي شهدت صراعًا طويلًا في الزمان والمكان، الجغرافيا والتاريخ بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ويخطئ البعض حين يتصور أن الحروب الصليبية على الشرق (١٠٩٥: ١٢٩٥م) هي المحطة الوحيدة في هذا الصراع، لقد كانت الحرب الصليبية قبل هذه المحطة، وبعد هذه المحطة، ونقصد هنا بكلمة الصليبية «المسيحية الشمالية» كما عرّفها الأستاذ محمود محمد شاكر (٦)، وهي مسيحية وثنية تستند إلى التراث اليوناني الروماني أكثر مما تستند إلى المسيحية «المحرقة». ذلك أن القيصر الروماني قسطنطين حين دخل في

استخدام هذا الاختلاف في تأسيس مفاهيم الصراع والتطاحن هو المشكلة، فالإسلام يدعو إلى التعارف ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانُكُمْ﴾ (٢)، وكان هذا التنوع

مصدر ثراء في المجتمعات التي تقوم على العدل، وفي المجتمع الإسلامي ذاته كانت مصدر ثراء كبير؛ طالما كان هناك التزام بالشريعة الإسلامية الغراء التي تحقق الإنصاف، وإذا حدث انحراف عن الشريعة

الإسلامية، وكان هناك نوع من الظلم والتهميش، فإن ذلك يقع على المجتمع كله وليس على الأقليات فقط، ومع سقوط الخلافة الإسلامية وتشوش أفكار النخبة، فإن مشكلة الأقليات برزت إلى السطح، ليس كحقيقة موضوعية موجودة في المجتمع، ولكن كطريقة لتحقيق طموحات سياسية، أو استخدام خارجي، أو غيره من الأسباب، بل نكاد نقول: إن المجتمع الإسلامي هو الذي صك في تجربته التاريخية والحضارية أفضل نوع من التعاون والثراء عن طريق التنوع، فالأسود والأبيض والأحمر، العربي والتركي والإفريقي، بل وغير المسلمين أيضًا ساهموا وسُمح لهم أن يساهموا في البناء الحضاري الإسلامي، وكانوا جزءًا من الثقافة والحضارة الإسلامية، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ويمكننا أن ننظر بتأمل إلى وجود أقليات غير مسلمة في المجتمع الإسلامي، أقليات نصرانية ويهودية وغيرهما وبكثافة لا بأس بها، في وقت كانت الدول والإمبراطوريات تجبر رعاياها على اعتناق الدين والمذهب الرسمي للدولة، بل كان جزء من الواجب الشرعي للأمة الإسلامية هو حماية حقوق الاختيار، ومنع الإكراه على الدين في أي مكان في العالم، وهذه إحدى أسباب ومسوغات الجهاد في سبيل الله.

اشتق لفظ أقلية من مادة «قلل»، وهي في لسان

إسلامية شديدة التماسك، وأن المواجهة الصريحة والمباشرة مع الحضارة الإسلامية سيؤدي إلى هزيمة أوروبية لا شك فيها، ومن ثم فلا بد من اكتشاف وسائل لإضعاف القلعة الإسلامية من داخلها (٩)، وهذه الفكرة راودت لويس الرابع في أثناء أسره في المنصورة بعد هزيمة الحملة الفرنجية على مصر، فقرّر إنشاء جيش الباحثين «المستشرقين» للبحث في وسائل إضعاف القلعة الإسلامية من داخلها فكريًا وثقافيًا، وعن طريق الأقليات الدينية، ثم العرقية فيما بعد، وقد تطورت تلك الوسائل بالطبع فيما بعد، إلا أنها تظل فكرة قديمة جديدة، تقليدية مستحدثة، ويرصد الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، كيف أن قادة الحملة الفرنسية على مصر قرروا عند الانسحاب سنة ١٨٠١م اصطحاب عدد من المصريين، ومن ثم أبناءهم وأحفادهم وحقنهم بالثقافة الفرنسية؛ ليكونوا فيما بعد حزب فرنسا في مصر (١٠)، وهو ما فعلته تقريبًا كل الدول الغربية فيما بعد، بل إن نابليون بونابرت نفسه حينما فكر في الحملة الفرنسية اعتمد على اختراقات معلوماتية عن مصر عن طريق الأرمن المقيمين في مصر، وكذا استخدم الدجل في منشوره الذي ورّعه على المصريين وقتها قبل وصوله إلى الإسكندرية سنة ١٧٩٨م؛ حيث حاول الوقعة بين المصريين والمماليك (١١)، كما استخدمت الحملة الفرنسية على نطاق واسع أثناء وجودها في مصر المسألة الطائفية في اختراق النسيج المصري، وظهر في هذا الصدد عدد من أسافل القبط على حد تعبير الجبرتي مثل المعلم يعقوب الذي شكّل وقاد ما يسمى بالفيلق القبطي (١٢)، والذي أدى الأدوار الأكثر سوءًا في المجهود الفرنسي لقمع المقاومة الإسلامية ضد الحملة الفرنسية على مصر مثل تعذيب الثوار واستنطاقهم، أو جمع الضرائب والإتاوات، أو حتى عمليات الإفساد الأخلاقي للنساء والرجال. و يلتقط الأستاذ محمد جلال كشك نقطة دقيقة وهامة في هذا الصدد قائلاً:

المسيحية فإنه أدخلها هي في الوثنية الرومانية؛ لدرجة أن طقوس ترسيم بابا الكاثوليك في روما هي نفس طقوس ترسيم كهنة المعابد الرومانية القديمة. الحضارة الإسلامية تقوم على التوحيد، العدل، الحرية، اللاعنصرية، التسامح، بينما تقوم الحضارة الغربية «الوثنية ذات القشرة المسيحية» على الوثنية والقهر والظلم والإكراه، والنهب والتعددية، ومن ثم فإن الصدام الموضوعي كان حتميًا، وهذا الصراع بدأ منذ البعثة المحمدية ذاتها، ففي حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان هناك خمس مواقع للصدام مع الدولة الرومانية هي: معركة مؤتة سنة ٨ هـ، وسرية ذات السلاسل سنة ٨ هـ، وغزوة تبوك سنة ٩ هـ، وسرية دومة الجندل سنة ٩ هـ، ثم بعث أسامة سنة ١١ هـ، وهو إدراك مبكر من الرسول صلى الله عليه وسلم لمستقبل الصراع مع الحضارة الغربية، ولم تنقطع الصراعات من يومها وحتى الآن، الصراع في الشام، وشمال إفريقيا، والأندلس، والصراع في البحر المتوسط، ثم الحروب الصليبية، المشهورة، ثم الحروب المستمرة مع الدولة العباسية والسلجوقية، والعثمانية، وفتح القسطنطينية، والصراع العثماني في قلب أوروبا، ثم مرحلة الاستعمار واحتلال بلاد العالم الإسلامي، ثم إقامة إسرائيل، وغزو العراق وأفغانستان.. إلخ (٧)، وهكذا فهي حرب صليبية واحدة! (٨)

وهكذا فإن الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كان صراعًا عسكريًا، وسياسيًا، وثقافيًا، وفي المرحلة المعاصرة، فإن ازدواج المعايير الغربية فيما يخص قضايا العرب والمسلمين واضح جدًا، وكذا عمليات الهجوم على الرموز الإسلامية، ومحاصرة العالم الإسلامي اقتصاديًا وسياسيًا، ومن ثم استخدام الأقليات في هذا الصراع.

استخدام الأقليات في الصراع ليس جديدًا :

مع الاحتكاك بين الحضارة الإسلامية وأوروبا اكتشف الأوروبيون أن هناك منظومة فكرية وثقافية

طريق غرس بذور الخلاف بين الطوائف مستعينة بالإرساليات الدينية والتعليمية». (١٥)

ويمكننا الربط بذلك بين ظهور إرساليات التنصير في مكان ما، أو ظهور مشكلة خاصة بالأقليات وبين تطلع الدول الأوروبية لنوع من النفوذ الكبير أو الصغير في تلك المنطقة.

بل إن القوى الاستعمارية استخدمت موضوع الأقليات تحديداً كمبرر للغزو والعدوان والاحتلال. في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢م وقعت مشاجرة بين مواطن مصري يدعى سيد العجان، وكان يعمل «حمّاراً» - أي يقوم بتأجير حماره للنقل والحمل - وبين مالطي من رعايا إنجلترا، واختلف الرجلان على الأجرة، مما أدى إلى مشاجرة تطورت إلى صدام بين المصريين واليونانيين، وترى كل المصادر التاريخية المحترمة أن تلك الحادثة مدبّرة بالاتفاق بين الإنجليز والمالطي والأقلية اليونانية في الإسكندرية لإحداث مذبحة لتبرير عملية الغزو؛ خاصة أن السفن الإنجليزية كانت قد وصلت بالفعل إلى ميناء الإسكندرية قبل أيام من ذلك الحادث (١٦)، في نفس الإطار سارت السياسة الإنجليزية في إحداث نوع من المشاكل بين المسلمين والمسيحيين في مصر، واستخدام هذه الورقة في تثبيت وتبرير الاحتلال، ووصل الأمر في عام ١٩١١م إلى فتنة كبيرة، فتم عقد ما سمي بالمؤتمر القبطي الذي طالب بما أسماه بحقوق الأقليات، وكانت أصابع الإنجليز واضحة وراء هذا المخطط، يقول الأستاذ طارق البشري في كتابه المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: «إن صحيفة الوطن ساهمت في استثارة الشقاق الطائفي في مصر واصطناعه، وكانت تعكس هنا هويتها الإنجليزية». (١٧)

وقد كتب بعض المنصفين من الأقباط أنفسهم متهمين الإنجليز بالتدبير والوقوف وراء تلك الحوادث، فسالم سيدهم اتهم أخنوخ فانوس «رئيس هذا المؤتمر القبطي» بالخيانة، وقال: «هذا أحد صنائع

«كان الجبرتي يقسم أهل مصر إلى الأمراء، وأولاد البلد وأولاد العرب أو المشايخ، ومساكين الناس والزعران والحرافيش والعربان، ولكن حكومة الثورة الفرنسية قسمتنا إلى مسلمين ونصارى ويهود، وأصبح الناس في مصر - حسب المنشورات التي تصدر عن الفرنسيين - إما فرنسائياً وإما مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً». (١٣)

وعلى نفس النمط، أي استخدام ورقة الأقليات، شهدت الشام اختراقاً أوروبياً في هذا الصدد عن طريق إرساليات التنصير التابعة للدول الاستعمارية، وفي الحقيقة فإن التنصير ليس فقط يستهدف تحويل الناس إلى النصرانية، ولكن إقامة جسور مع الأقليات ومحاولة زرع التمرد داخلها؛ لاستخدامها فيما بعد في الصراع السياسي، أي أن التنصير والاستعمار كانا ولا يزالان طرفي مقص يؤدي كل منهما إلى الآخر، فالتنصير يمهد للاستعمار، والاستعمار يفتح الباب أمام التنصير على نطاق واسع، بل إن بعض المفكرين يلخص الاستعمار في كلمات هي جنرال، ومنصّر «قسيس» وتاجر.

وتقول الدكتورة سوسن إسماعيل: «وجّه المبشرون الأوروبيون اهتمامهم إلى البنية المسيحية في الشام، فأثاروا الخلافات في طبقاتها وأصل مذاهبها، وإن المنافسة بين البروتستانت وبين المبشرين اليسوعيين أُلقت في البلاد فتناً ومنازعات مذهبية واجتماعية، وقد تبارى المبشرون البروتستانت واليسوعيين في خلق هذه الاضطرابات بين الطوائف المسيحية ذاتها»، وتضيف الدكتورة سوسن إسماعيل «منذ بداية القرن التاسع عشر غدت القنصليات الأجنبية في ولايات الشام أوكاراً للدسائس والفتن وإثارة الاضطرابات عن طريق تحريض الطوائف الدينية، وترويج الشائعات التي كانت تسبب الفتن الطائفية». (١٤)

وتصل الدكتورة سوسن إلى الحقيقة الواضحة في استخدام السياسة الأوروبية للأقليات قائلة: «عمدت السياسة الأوروبية إلى ترسيخ قدمها في المنطقة عن

استمر إلى أن تم توقيع اتفاقية السلام الأخيرة، والتي هي بدورها اتفاقية هشة وقابلة للانهايار، وكذا التمرد في كردفان تتضح فيها الأصابع الإنجليزية والأمريكية، بل والمنسبة من مختلف البلدان.

يقول الأستاذ حسن مكّي في كتابه «التبشير المسيحي في العاصمة المثثة»: «إن التدخل في الشؤون الداخلية للدول يعتبر جزءاً من الدور الاستعماري الذي تقوم به المؤسسات التنصيرية؛ حيث تعتبر ذلك جزءاً من عملها لقيام إمبراطورية نصرانية تسيطر على العالم، ففي جميع الدول التي أقام بها دعاة التنصير مراكز لهم، أصبح هذا الدور واضحاً، فقد قام مجلس الكنائس بدور بارز في ذلك». (٢٠)

في الإطار نفسه تأتي سلوكيات بلد مثل فرنسا في المغرب العربي؛ حيث لعبت دوراً بارزاً في إثارة وخلق وزرع ما يسمى بالمشكلة الأمازيغية، ولا تزال تلعب بتلك المشكلة حتى الآن مع دخول أطراف أخرى على الخط، وكذا الممارسات المعروفة من إنجلترا، تجاه المشكلة الكردية في العراق،

بل وإيران وتركيا منذ وقت مبكر إلى أن قامت الولايات المتحدة بالحلول محل الدول الاستعمارية التقليدية في هذا الصدد». (٢١)

استخدام الأقليات في الصراع في الحقبة الأمريكية:

ورثت الولايات المتحدة النفوذ الاستعماري البريطاني والفرنسي والأوروبي عموماً في منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، وورثت منه تقاليد المدرسة الاستعمارية في استخدام الأقليات في الصراع، وبديهي أنها طوّرت في الوسائل والأساليب وصيغت المسألة بصيغتها الخاصة، والولايات المتحدة قامت أصلاً من خلال جريمة كاملة هي جريمة إبادة الهنود الحمر، ثم استرقاق

الإنجليز في مصر والآلة التي يحركها الاحتلال»، وأضاف «أن إنجلترا تستخدم الخونة الذين لا ضمير لهم لقتل الروح الوطنية». (١٨)

ويجب أن نلاحظ هنا أن الشقاق الطائفي الذي افتعله أعوان الاحتلال الإنجليزي من الأقباط وصل إلى أقصى حدوده ما بين عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١١م، وهي الفترة التي كان الحزب الوطني قد وصل إلى حالة من القوة والانتشار؛ بحيث أصبح خطراً على الوجود الإنجليزي في مصر، وأن الإنجليز لجئوا إلى لعبة التفرقة الطائفية وبث النعرات الطائفية عن طريق عملائها كنوع من إعاقة طريق الحزب الوطني وجعله في حالة دفاع، وذلك لمنعه من الأخذ بزمام المبادرة وتفجير الثورة الشاملة على الإنجليز في مصر.

ومن الغريب أن هذا الفكر الاستعماري قد طال الولايات المتحدة مبكراً، في عام ١٩١١ قبل أن تظهر مطامعها ومشاريعها في المنطقة، فالرئيس الأمريكي في ذلك الوقت دعم مطالب الأقلية في مصر، وأيد مطالب

المؤتمر القبلي، ووصف المسلمين بالتوحش، وقال بضرورة بقاء الاحتلال الإنجليزي لمصر لحماية الأقليات لدرجة أن صحيفة الوطن المصرية لسان حال الاحتلال ولسان حال دعاة الطائفية من الأقباط قالت: إن الرئيس الأمريكي هو مُنْصِف الأقلية من الأكثرية، وإنه من الضروري استعانة الأقباط بالدول الأوروبية». (١٩)

لم يقتصر السلوك الإنجليزي على مصر في هذا الصدد، بل طال السودان أيضاً، ونلاحظ أن الحالة السودانية اختلطت فيها المطامع الاستعمارية بالأهداف الكنسية بالتداخل من بين أكثر من دولة أوروبية وأمريكية، فالمشاكل العرقية والدينية التي تُثار في السودان بدءاً من التمرد في الجنوب، والذي

الولايات المتحدة قامت أصلاً من خلال جريمة كاملة هي جريمة إبادة الهنود الحمر، ثم استرقاق السود ثم ممارسة العنف والقهر والعنصرية بطريقة لم يسبق لها مثيل

أو المنظومة الغربية والمنظومة السوفيتية جعل من الصعب مواجهة المشروع الأمريكي بسهولة، وهذا المشروع يمكن أن نطلق عليه المشروع الأمريكي الصهيوني؛ نظرًا للدور الكبير لتحقيق أهداف صهيونية واضحة داخل هذا المشروع، وهذا المشروع

استهدف ضمن ما استهدف القضاء على الحضارة الإسلامية وإعادة احتلال وتمزيق العالم الإسلامي، واعتبار الإسلام هو الخطر الأهم عالميًا بعد انتهاء الخطر الأحمر، والرئيس

الأمريكي جورج بوش الأب الذي شهد نهاية الاتحاد السوفيتي قال يومها: «إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي النازية، والفاشية، والإسلام الأصولي». (٢٣)

ويقول مساعد وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «ريتشارد شيفر»: «إن الإسلام يمثل تهديدًا كبيرًا للاستقرار العالمي». (٢٤)

والكاتب الأمريكي بيتر رومان كتب في مجلة «ذا ناشونال ريفيو» يقول: «نحن لا نظلم الإسلام عندما نعتبره عدونا الجديد الذي يحل محل الشيوعية». (٢٥) وبصعود ما يسمى بالخطر الإسلامي أصبح من الطبيعي محاولة اختراق أمريكية للإسلام والمجتمع الإسلامي من داخله، أو على الأصح تكثيف ذلك؛ لأن هذا الأمر كان موجودًا بالفعل، ومن ثم استخدام الأقليات في تلك المسألة، الأقليات الدينية كالأقباط في مصر، والأقليات المذهبية كالشيعة في العراق، وكالأمازيغ في المغرب، بل والنوبة في مصر، ومشاكل الأعراق في السودان وغيرها مما لا يمكن حصره، وقد يرى البعض أن ذلك ارتبط بحادث «سبتمبر ٢٠٠١»، ولكن الحقيقة أن الأمر ارتبط بسقوط الاتحاد السوفيتي، وشهدت الأعوام التي تلت تفكك المنظومة الاشتراكية في تسعينيات القرن الماضي جهدًا أمريكيًا دؤوبًا في هذا الصدد،

السود، ثم ممارسة العنف والقهر والعنصرية بطريقة لم يسبق لها مثيل (٢٢)، وتحالفت الولايات المتحدة مع الكيان الصهيوني ودعمته دعمًا شاملاً، وبالطبع لا يمكن أن نضع توأماً زمنيًا محددًا بين المرحلة الأمريكية وما قبلها، فهناك تداخل زمني ومكاني،

وهناك استمرارية لدور الكنائس الغربية ومراكز التنصير في العملية الاستعمارية والغربية في مرحلتين الأوروبية والأمريكية. ففي السودان مثلاً استمر الدعم الكنسي للتمرد في الجنوب، وكذا

الدعم الأوروبي بالإضافة إلى الدعم الأمريكي، واستمر الدعم والممارسات التأميرية الفرنسية في موضوع الأمازيغ؛ بالإضافة إلى دخول الولايات المتحدة على الخط، وبديهي أن كل حركات التمرد العرقي، أو حركات الخصوصية الثقافية أو مجرد المطالبة بمطالب مشروعة لرفع الظلم عن الأقليات أمور متداخلة بحيث لا يمكن فصلها عن مستوى السلوك والأفراد والمؤسسات، بل والمفردات المستخدمة، ونلاحظ أيضًا أن الحقبة الأمريكية تميزت بحالة جديدة، وهي أن طلب الدعم الخارجي أصبح موجودًا لدى قطاعات من الأقليات أو بعض هوامشها، مثل أقباط المهجر المصريين مثلاً، ومن ثم فإن الأمر لم يعد قاصرًا على الاختراقات الأمريكية والكنسية لدفع الأقليات إلى التمرد أو المشاكسة، بل أصبح الأمر متبادلًا بين الطرفين، وهذا لا يمنع من وجود قومي داخل الأقليات تتمسك بالثوابت الوطنية، وبعد أن كانت الاختراقات الأجنبية في الأقليات تمس قوى هامشية داخل تلك الأقليات، اتسعت المسألة بل وأصبحت تلك القوى الهامشية قوى رئيسة، بل بعضها أصبح هو القيادة داخل تلك الأقليات.

الأمر الأكثر أهمية في هذا الصدد أن سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، وانتهاء هامش المناورة واللعب على المتناقضات الثانوية بين الرأسمالية والشيوعية،

الأمريكية والقرن الأمريكي وضعت شرطاً لتحقيق ذلك وهو إعادة صياغة الإسلام، وتحطيم الأكثرية السنية، ودعم الأقليات. (٢٦)

وفي يونيو ٢٠٠٦ نشرت مجلة القوات المسلحة الأمريكية تقريراً كتبه «الف بيترز»، وهو كولونيل سابق في الجيش الأمريكي خدم في شعبة الاستخبارات العسكرية، تحدث فيه عن تقسيم الشرق الأوسط من جديد، وإقامة دولة مركزية تقطع أجزاءً من العراق وإيران وتركيا وسوريا، ودولة شيعية في جنوب العراق وإيران ومناطق أخرى من السعودية والإمارات والكويت والبحرين، ودولة مارونية درزية في جبل لبنان، وزيادة مساحة الأردن على حساب السعودية، أي المحصلة تفكيك الدول الكبيرة مثل تركيا وإيران والسعودية، ثم يأتي بعد ذلك الدور على مصر ليتم تفكيكها مع تفكيك السودان والمغرب... إلخ». (٢٧)

وهذا التصور يتفق مع التصور الإسرائيلي، حيث قال الصحفي الإسرائيلي حابي بازور في صحيفة يديعوت احرنوت: «إن المنطقة بوضعها الحالي خطر على إسرائيل»، ولا بد من خريطة جديدة للمنطقة بتقسيم العراق وإيران». (٢٨)

بالنسبة للعراق التي تعرضت لاحتلال منذ عام ٢٠٠٣؛ فإنه من المعروف حضارياً وتاريخياً «أن موقع العراق الجيوبولوثيكي، حتى بعد ولادة الدولة الحديثة ورسم حدودها الدولية، ربط بين مصيره ومصير الجوار العربي والإسلامي، وأن انقسام العراق وانحطاطه مؤشر على انقسام المنطقة وانحطاطها، واستقرار العراق ورخاؤه مؤشر على استقرار المنطقة ورخائها». (٢٩)

«وأن سنة العراق هم الرابط الأساسي في ذلك البلد؛ لأنهم سنة مع أكراد، وعرب مع شيعة، وهم لا ينظرون إلى أنفسهم كطائفة، بل كحاضنة عريضة للإسلام، ولم يظهر دستور طائفي إلا عندما داهم الخطر والاعتداء». (٣٠)

من ناحية رصد الأموال، واختراق المنظمات التابعة لتلك الأقليات، وتمويل المراكز الثقافية لنشر ما يسمى بالثقافات البائدة كلغة الأمازيغ، ولغة النوبة، ووضع قواميس ومعاهد ودورات ومناهج تعليمية في هذا الصدد، وكذا اختراق التشكيلات الشيعية والكردية وغيرها، بل ووصل الأمر إلى حد اختراق بعض المراكز الإسلامية السنية؛ بهدف خلق ما يسمى بالإسلام الليبرالي، وفي الحقيقية فإن النجاحات الأمريكية في هذا الصدد كانت في موضوع الشيعة العراقيين، والأقباط في مصر وخاصة أقباط المهجر. وهكذا فإن استخدام الأقليات كان جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وحتى الآن، وإذا قرأنا تقارير مراكز الأبحاث التي تُصدرها المراكز الأمريكية في هذا الصدد وجدنا موضوع الديمقراطية المزعومة وتحريك الأقليات، ودعم مشاركة المرأة هي السمات البارزة في هذا الصدد، وبالطبع بطريقة جزئية ومنحرفة وليست نزيهة، والاستراتيجيات التابعة للمؤسسات عن مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الواسع، أو الممتد أو الكبير، أو غيرها من أسماء نفس المشروع كلها تنمو نفس النمو، وهي مشروعات رسمية نُسبت إبان صدورها إلى وزراء خارجية أمريكيين، مثل وزير الخارجية السابق كولين باول، أو الحالي كوندليزا رايس، أو الرئيس الأمريكي نفسه، وحتى وثائق المحافظين الجدد والمعروفة والمنشورة منذ عام ١٩٩٧م، وحتى الآن والتي رصدها عدد من الكتاب الأمريكيين «نورمان بورهوردز» في صحيفة كومنترى، والكاث «ديفر بيت» في النيويورك تايمز «وصاحب كتابي الحرب على العراق، والصمت أكبر جريمة»، فإن استخدام الأقليات محور هام من محاور مشروع هؤلاء المحافظين الجدد، والوثيقة المنشورة عام ٢٠٠٠م والمنسوبة إلى رموز تلك الجماعة مثل ديك تشيني، والبوت ابرامز، وريتشارد بيرل، وغيرهم، والتي تتحدث عن الإمبراطورية

ويجب أيضاً أن نشير إلى أن عروبة العراق بدأت بالوجود العربي قبل الإسلام في حوض الفرات، وتأكّدت بهجرة العرب المسلمين إبان الصدام مع الفرس، وبعد تأسيس الدولة الإسلامية على مدى زمني طويل، واستطاع الإسلام أن يصهر داخل العراق مختلف الأعراق، وتم اعتبار ذلك نوعاً من القوة وليس العكس، ولكن عندما ظهرت فكرة القومية الحديثة، وهي فكرة أوروبية أساساً، نقلها أتباع الاتحاد والترقي التركي، ومارسها القوميون الأتراك ضد فكرة الجامعة الإسلامية، وظهرت حركة قومية عربية نزعت نزعة علمانية فيما بعد وعادت بدورها فكرة الجامعة الإسلامية، فلا نستطيع أن ندين ظهور نزعة قومية كردية معادية للعرب مثلاً، إلا إذا وقفنا موقف الإدانة من كل تلك الحركات القومية، ومن ثم فإن الفكرة القومية هي في بدايتها فكرة خاطئة لا يمكن بها تبرير الاستمرار في حكم الأكراد مثلاً، فالأكراد وغير الأكراد قبلوا الحكم الإسلامي عربياً أو تركياً أو حتى كردياً، ويرحبون بالتقريب إذا كان في إطار إسلامي، وظهر منهم زعماء أمثال صلاح الدين، وكذا وقياساً عليه الأمازيغ والنوبة، بل وحتى غير المسلمين مثل الأقباط والنصارى بكل طوائفهم قبلوا الحضارة الإسلامية كثقافة وكوطن، المهم في الأمر أن المسألة الكردية لم تظهر إلا بعد الحرب العالمية الثانية بصورتها الانفصالية والعرقية... وعانت ما عانت من اضطهاد عرقي علماني، ولكنها سارت في الشوط إلى حافة الخيانة؛ حيث ارتبطت بمشروعات استعمارية بريطانية ثم أمريكية، بل وأحياناً مدت الجسور مع «إسرائيل»، وهذا أمر مرفوض وطنياً وحضارياً قبل أن يكون مرفوضاً إسلامياً.

استخدمت الولايات المتحدة الورقة الكردية خاصة بعد عام ١٩٩١، وحققت للأكراد منطقة آمنة، ومنعت العراقيين في عهد صدام من اجتثاث الحركة الكردية، والأمر نفسه بصورة أقل بالنسبة للشيعة منذ

ولم يعرف العراق منذ تأسيس الدولة الحرب الأهلية - رغم التنوع العرقي والديني والمذهبي الذي يتميز به - إلا بعد الاحتلال الأمريكي والتواطؤ الشيعي الأمريكي، وقد اعتمد الأمريكان بصورة واضحة في احتلالهم للعراق على استخدام الأقليات، وخاصة الكردية والشيعة، ولا يعد التنوع العرقي والديني والمذهبي في العراق الحديث حالة خاصة ولا استثناء؛ إلا بالمقاييس الإسلامية التي حلت تلك المشكلة أصلاً بالنظر إلى رحابة الإسلام وتسامحه، وإمكانية أن يتحول التنوع إلى مصدر قوة، ولا حتى بالمقاييس الأوروبية، فمعظم الدول الأوروبية فيها هذا التنوع، بريطانيا مثلاً فيها الأسكتلنديون، والإنجليز، والويلزيون والأيرلنديون، وفيها بروستانت وكاثوليك، وكذا مسلمون بعد الهجرة، ومن ثم فإن الحرب الأهلية - أو ما شبه الحرب الأهلية - أو الصدام السني الشيعي، أو التطهير العرقي الشيعي للسنة، ليس له ما يبرره ويسمح به إلا الاحتلال والتواطؤ الشيعي الأمريكي، وحتى العراق كدولة ظهر إلى الوجود نتيجة تقسيمات أوروبية أصلاً، ولم يُستشر أهل العراق في ذلك طبعاً، وهذا لا يمنع بالطبع من الإشارة إلى ضرورة تحقيق العدل وعدم الهيمنة، والسماح بالتعبير عن الخصوصيات الثقافية، والإشارة أيضاً إلى أن ما تم من أمور في هذا الإطار، لم تكن سياسة سنّية في إطار حكم صدام حسين ولكنه كان مجرد نظام اصطدم بكل من يعارضه، سنة وشيعة وأكراداً، وليس باعتبارهم سنة وشيعة وأكراداً، بل باعتبارهم معادين للنظام، أو اتهامه لهم بالعمالة لدول إقليمية أو دولية، ومن ثم فإن تصوير نظام الرئيس صدام حسين على أنه نظام حكم «عربي - سني» اضطهد الشيعة والأكراد هو تصوير مخادع وغير صحيح، بل إن من الضروري أن نقرر أن نظام البعث نشأ نشأة علمانية أولاً، واستخدم العنف ليس في مناطق الأكراد والشيعة، ولكن في منطقة الرمادي السنّية مثلاً عندما استشعر تمرداً في منتصف التسعينيات.

توريط الولايات المتحدة في غزو العراق، أحمد شلبي نموذجًا، وهو عميل إيراني أمريكي مزدوج، وكذا تورط الأحزاب الشيوعية الرئيسية في المشروع السياسي الأمريكي في العراق، ثم قيام الحكومة العراقية الشيوعية أساسًا بعمليات تطهير عرقي ضد السنة، بل وتصدير الضغط لحساب بعض الزعامات الشيوعية، واتفاق تلك الموارد على نشر المذهب الشيعي، والتمهيد للمشروع الشيعي.

خطورة المشروع الشيعي ليس في أنه يمثل خطرًا على السنة، بل على الأمة كلها، فالغالبية العظمى للمسلمين سنة، والسنة العرب في العراق أكثر من الشيعة ناهيك عن الأكراد والسنة (٣١)، وهؤلاء السنة لن يصبحوا شيعة؛ لأن المذهب السني أكثر عقلانية وصحة بما لا

يقاس بخرافات المذهب الاثنا عشري، والخيانات التاريخية للشيعة تمنع النخب الإسلامية من إمكانية هضم المذهب الشيعي بسهولة، ومن ثم فإن الخطر من المشروع الشيعي

إن الغرب يساعد الكرد على التمرد لإيجاد قوة ضغط في الخليج ليس إلا (الجنرال والمفكر والمحلل البريطاني جون هاكيت)

يكمن في أنه سيكون فتنة أولاً، وقائمًا على قمع السنة ثانيًا، وهو لن يحقق الوحدة الإسلامية ثالثًا، ولن يتم إلا برضا الأمريكيان وبالتفاهم معهم، وهذا معناه تخلي إيران عن دعم حزب الله ذاته وهو شيعي، أو تغير في استراتيجية هذا الحزب، وهذا سيكون لحساب أمريكا و«إسرائيل» أي ضد مصالح الأمة، وكذا التخلي عن حماس والجهاد وحرركات المقاومة الفلسطينية، ثم إن هذا المشروع الشيعي لن يستمر إلا بالتعاون مع الغرب، ومن ثم فهو سيعيد الغرب وأمريكا إلى المنطقة؛ بعد أن نجحت المقاومة الإسلامية السنية في العراق في إخراجهم، ولكن بعد أن تكون المنطقة قد تحولت إلى مستنقع للفتنة. المشروع الشيعي إذن خطر على مستقبل الأمة.

عام ١٩٩١، ولكن الشيعة أنفسهم في التيار الرئيس لهم، ذهبوا إلى الأمريكيان وتحالفوا معهم، وساعدوهم في احتلال العراق، خاصة حزب الدعوة بقيادة آل حكيم، ثم لحق مقتضى الصدر بالمشروع الأمريكي بعد الاحتلال، وإذا كان الأمريكيون قد اعتمدوا هنا على الشيعة؛ فإن الشيعة أيضًا اعتمدوا على الأمريكيان، والشيعة العراقيون تحديدًا يريدون تحقيق الحلم الصفوي، أو المشروع الشيعي بالتعاون مع إيران طبعًا، وهكذا نحن أمام ثلاثة مشاريع: المشروع الأمريكي، والمشروع الشيعي، والمشروع الإيراني، وقد يبدو للوهلة الأولى انطباق بين المشروعين الإيراني والشيعي، ولكن الحقيقة أنهما مشروعان متميزان، حتى لو كان هناك تداخل كبير بينهما.

المشروع الإيراني يقوم على تحقيق دولة إقليمية عظمى هي إيران، تعتمد على دخل سنوي يصل إلى ٥٠٠ مليار دولار، وإمكانات بشرية ٧٥ مليون نسمة، وقدرات علمية... إلخ، وقد مثل ذلك المشروع الإصلاحيون

الإيرانيون، ووصل الأمر بهؤلاء بإمكانية التضحية بدعم حزب الله، وحماس والجهاد في مقابل تحقيق المشروع الإيراني إلا أن هذا المشروع تقلص كثيرًا بعد هزيمة الإصلاحيين.

أما المشروع الشيعي فإن لإيران دورًا كبيرًا فيه، ويقوم هذا المشروع على إقامة دولة شيعية، على غرار الدولة الصفوية، وتضم إيران والعراق وأجزاء من الخليج العربي وغيرها، وقد اتضحت ملامح هذا المشروع بعد التعاون الأمريكي الإيراني في أفغانستان، ومساعدة إيران للجيش الأمريكي في احتلال أفغانستان، وإسقاط حكومة طالبان التي كانت تنظر لها إيران على أنها أصولية سنية، وكذلك في التواطؤ الإيراني في احتلال العراق، حيث قام شيعة العراق بدور ملحوظ في مساعدة، وربما

ووقفت عند حد الفيدرالية، ويمكن تلخيص الموقف الأمريكي من الموضوع الكردي بكلمات سير جون هاكيت الجنرال والمفكر والمحلل البريطاني: «إن الغرب يساعد الكرد على التمرد لإيجاد قوة ضغط في الخليج ليس إلا». (٣٥)

ويحكي هنري قائلًا: «إننا سوف نتخلى عن الكرد، لكي يمكن للعراقيين أن يتفرغوا للسوريين الذين يرفضون الدخول في تفاوضات من أجل مرحلة ثانية من فض الاشتباك مع إسرائيل». (٣٦)

ويخلص الدكتور حامد محمود عيسى في كتابه القضية الكردية في العراق من الاحتلال البريطاني إلى الغزو الأمريكي المسألة بقوله: «إنه لا شاه إيران ولا رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية كان يرغب في انتصار الكرد، بل كان يرغب في استمرار الثورة الكردية متأججة بالقدر الذي يسمح باستخدامها في المعادلات الإقليمية». (٣٧)

وفي تقرير للجنة شكّلها الكونجرس عام ١٩٧٥، والمعروفة بلجنة pike: «لقد كانت سياستنا غير أخلاقية تجاه الكرد، فلا نحن ساعدناهم، ولا نحن تركناهم يحلون مشاكلهم بالمفاوضات مع الحكومة العراقية، لقد حرّضناهم ثم تخلينا عنهم». (٣٨)

وقد وصف المحلل الأمريكي وليم سافير تدخل هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية ومسؤوليته في تدمير الكرد في كتابه «الأكراد والضمير» بأن الولايات المتحدة وإيران كانتا تحتاجان إلى الكرد لمقاومة المد السوفييتي، ومن ثم كانا يمدون الكرد بالأسلحة، ويقدمان للكرد التمويل؛ لاستقلال ثقافتهم، وعندما حلت المشكلة توقف الدعم والتمويل توقفاً تاماً، وكانت خطة ناجحة لكل منهما بعكس الكرد، وختم وليم سافير مقاله بقوله: «هذه هي المدنية المنهارة، شعب يُباد والولايات المتحدة باعتبارها مسؤولة جزئياً عن هذه الحالة، لم ترفع أي صوت للاحتجاج». (٣٩)

وهكذا فإن استخدام الولايات المتحدة، ومن قبلها

وفي الحقيقة فإن الإنسان قد يتوقع أن تنسحب أمريكا من العراق بعد خسائرها الفادحة بفضل المقاومة العراقية السنية، على أن تسلمها إلى الصفويين الجدد، فيحولوها إلى مستنقع للفتنة ويوقعوا الأمة كلها في هذا المستنقع، ثم يعودوا بعد ذلك من الشباك بعد أن خرجوا من الباب. (٣٢)

وفي الحقيقة فإن هناك أفكاراً وفتاوى شيعية تثير الخوف في هذا الصدد فالعالم الشيعي المعروف، ابن طاووس يرى المساواة بين الدولة الإسلامية السنية وغير الإسلامية، وقد قبل ابن طاووس نقابة الطالبين في بغداد عندما عرضها عليه هو لاكو ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م، وتم التأكيد على هذا النزاع في أعمال الحسن بن يوسف المطهر المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ هـ: ١٢٥٠ م - ٧٢٧ هـ: ١٣٢٦ م). (٣٣)

ولعل تصرفات الحكيم والجعفري وغيرهما استندت إلى أمثال هذه الفتوى، ومما يدعو للقلق أن التاريخ الصفوي مُقَمَّم بمصادرة الأوقاف الإسلامية السنية، والاستيلاء على المساجد والمدارس السنية، وتهجير العلماء السنة، وتهديدهم ودفعهم للهجرة أو حتى قتلهم، وإعلان سب الصحابة في خطب الجمعة بالمساجد. (٣٤)

وكما استخدم الأمريكان الأقلية الشيعية كأقلية طائفية، فإنهم أيضاً استخدموا من قبلهم الأكراد كأقلية عرقية، وبديهي أن الأمريكان ورثوا استخدام الأكراد عن الإنجليز، ولكن الخبرة التاريخية الكردية الأمريكية تقول: إن الأمريكان يستخدمون الأكراد كورقة، ولكنها ورقة شائعة، ويمكن أن يتخلوا عنهم في أي لحظة، فبعد علاقات قوية وصلت إلى حد إقامة جسور مع «إسرائيل» والموساد قامت بها عناصر كردية، فإن الجميع تخلوا عن الأكراد عام ١٩٧٧ بتوقيع الاتفاقية بين الشاه والحكومة العراقية، وفي إبان الغزو الأمريكي للعراق الذي حظي بدعم كردي كامل فإن الإدارة الأمريكية - وخوفاً من تداعيات تركية وإيرانية - لم تعط الأكراد الحق في الانفصال،

ظهرت علاقات هنري كوريبيل بالصهيونية فيما بعد؛ الأمر الذي رصده عدد كبير من الباحثين مثل الدكتور رؤوف عباس في كتابه أوراق هنري كوريبيل (٤٠)، والمستشار طارق البشري في كتابه الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢ م.

وفي الحقيقة فإن دور اليهود في إنشاء الأحزاب الشيوعية العربية أصبح دورًا معروفًا في مصر وسوريا وفلسطين وغيرهم، بل وكذا جرّ تلك الحركات إلى نوع من التصهين. (٤١)

في إطار الدور الهدّام للأقليات، يمكن أن نرصد أيضًا وجود كبير من غير المسلمين في الأحزاب الشيوعية واليسارية في المنطقة، وكذا في الدعوة التي يتبناها عدد من المثقفين المنتمين للأقليات في مناهضة اللغة العربية أو الثقافة الإسلامية، ويظهر ذلك واضحًا في أمثال الأمازيغي صلاح الدين محسن الذي يدعو إلى نبذ الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وإحياء الرموز الوثنية، ليس في المغرب العربي وحده بل في مصر والعراق والشام (٤٢)،

وأمثال سلامة موسى، ولويس عوض، وغالي شكري الذين تحمسوا للكتابة بأحرف لاتينية بدلًا من الحروف العربية، ودعوا إلى استخدام اللهجات العامية، ومارسوا الحرب بلا هوادة على اللغة العربية، وقد كرروا في هذا

إن المنطقة بوضعها الحالي
خطر على «إسرائيل»، ولا بد
من خريطة جديدة للمنطقة
بتقسيم العراق وإيران (الصحفي
الإسرائيلي حايي بازور)

الصدد مفاهيم وآراء كل من: ولهم المبشر، وسينا المبشر، وويلكلكس المبشر، ودنلوب المستشار الإنجليزي، وولمور القاضي الألماني في المحاكم المختلطة، ويصف الأستاذ محمود محمد شاكر ذلك بقوله: «إن تحطيم اللغة العربية هدف استعماري ثابت قديم جديد، يستهدف بلبلة العقل العربي، وتشكيكه في نفسه وتحطيم الرابطة الأولى والأخيرة في حياة العرب، وهي اللغة العربية». (٤٣)

«ولويس عوض وأحزابه لم يتركوا شيئًا إيجابيًا

الدول الأوروبية لموضوع الأقليات لم يكن -ولن يكون- إلا نوعًا من استخدامها كورقة في المعادلات الدولية والإقليمية، ثم تركها تدفع الثمن، وتواجه مصيرها المشئوم، وتعرض حتى للإبادة، وهي خبرة يجب على الأقليات أن تدركها فتمنع قيادتها من العمالة للخارج، أو تقديم طلبات طائفية أو عرقية أو مذهبية على حساب الأوطان، أو لعب دور هدام في المجال الثقافي مثلًا.

الأقليات ودور هدام:

استخدمت القوى الخارجية الأقليات في عملية غزو الأوطان، وهذا دور هدام ظهر في الغزو الأمريكي للعراق، وكذا في الغزو الأمريكي لأفغانستان؛ حيث تم استخدام ما يسمى بالتحالف الشمالي، وهو مكون من الأقليات غير البشتونية عرقية ومذهبية، مثل الأوزبك «عرقية» والإسماعيلية «مذهبية» وغيرها، وكذلك استخدمت القوى الخارجية الأقليات في تثبيت الاحتلال والتعاون معه وتنفيذ أجنده، وهذا

دور هدام آخر، ولكن الأمر لم يقتصر على عملية الغزو والاحتلال، بل يمكن استخدام الأقليات كورقة للضغط على الحكومات، كما تفعل الولايات المتحدة بالنسبة لورقة الأقباط في مصر، أو لإضعاف المناعة

الداخلية للمجتمعات، أو حتى للشوشرة على المشروع الإسلامي والثقافة الوطنية، أو لتحقيق مهام أخرى كلها تدخل في هذا الدور الهدّام، والأمثلة في هذا الصدد واضحة جدًا، فاليهودي المصري هنري كوريبيل تم استخدامه لجر الحركة الشيوعية في مصر إلى عدم معارضة المشروع الصهيوني، بل إن حركة هدامة مثل الشيوعية نشأت في بلد مثل مصر على يد اليهود مثل جوزيف روزنتال سنة ١٩١٨ م، ثم هنري كوريبيل وهليل شوارتز في الأربعينيات، وقد

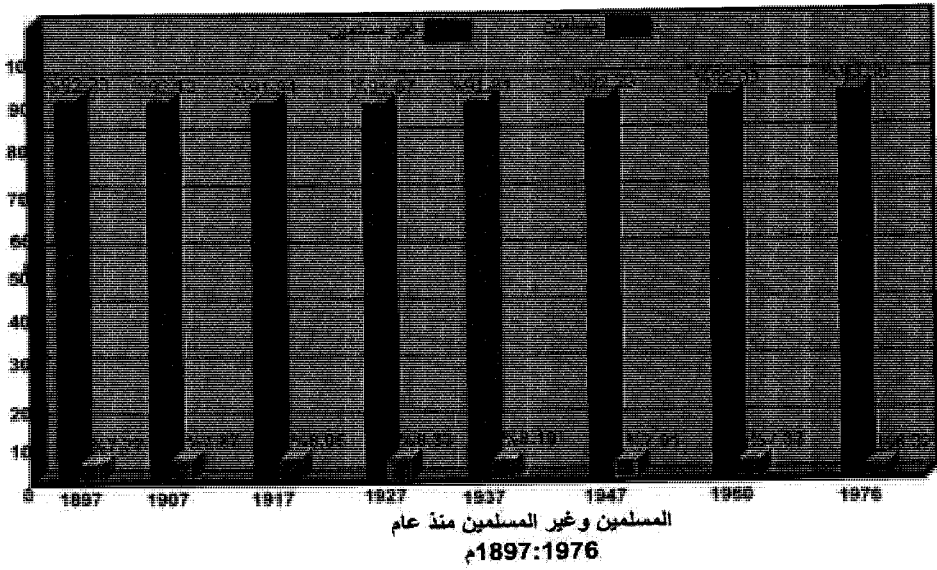
العالم الإسلامي

الطائفة الأرثوذكسية المصرية خصوصًا، والنصرانية عمومًا، كبير وواسع، ولكن لا يمنع أن نقول: إنه لا زال هناك قطاع عريض من النصارى عمومًا والأرثوذكس خصوصًا متمسك بالثوابت الوطنية، ولكن الخطورة هي أن قيادة الكنيسة انحازت إلى النمط الأول للأسف، وتلعب دورًا سياسيًا هدامًا يخالف المصالح المصرية والعربية، بل ويخالف تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية ذاتها.

ويمكن أن نرصد هنا محاولات نشر الأسماء الفرعونية داخل الأقباط، وبعث ما يسمى باللغة القبطية، بل والدعوة إلى حذف آيات وأحاديث وخطب من المناهج والمدارس والمساجد بدعوى أنها تهاجم النصارى، وكذا الادعاء بأن النصارى في مصر يزيدون على ١٠ مليون نسمة، مع أن كل

في تراثنا وثقافتنا وآدابنا لم يشوشروا عليها، وكذا تشويه سمعة كل من قاوم الاستعمار، بل واعتبار هذا الاستعمار تنويرًا وتقدمًا وحضارة، ومقاومته جهل وتخلف وإرهاب». (٤٤)

بل ووصل الأمر ببعضهم إلى مهاجمة فكرة الألوهية ذاتها، مثل سلامة موسى، وتتحرك أبواق هؤلاء عادة كلما تم الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وللأسف فإن قيادات كنسية مصرية شاركت في الصيام احتجاجًا على الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوة إلى إلغاء المادة الثانية من الدستور في مصر؛ التي تنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع، ووصل الأمر إلى حد أن مجمع الآباء الكهنة والمجلس الملي، وممثلي الشعب القبطي في مؤتمر الإسكندرية المنعقد في بطريركية



الحقيقة بالنسبة للإحصاء الخاص بالأقليات في مصر، بقلم / مؤرخ مصري (الدكتور محمد مورق)

الإحصاءات تقف على حدود الـ ٦٪ أي حوالي أربعة ملايين، بما فيها الإحصاءات التي أجريت أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر، وبديهي أن نسبتهم تقل ولا تزيد بسبب تأخر الزواج، وتقييد تعدد الزوجات والطلاق وغيرها. (٤٦)

أخطر ما في المسألة أن الكنيسة المصرية، والتي

الأقباط الأرثوذكس بتاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٧٧ قد تطرق لذلك (٤٥)، وبديهي أن الاحتجاج على تطبيق الشريعة، واعتبار ذلك مطلبًا قبطيًا هو نوع من الدور المشبوه لتفكيك المجتمع والضغط على الحكومة؛ خدمة لأعداء الوطن.

الدور الهدام الذي تلعبه قطاعات انعزالية داخل

«الأقباط: الكنيسة أم الوطن»: «ما الذي تغير في موقف الكنيسة المصرية حتى تنخرط في مجلس الكنائس العالمي، وحتى تدفع ببطيريك أقباط مصر إلى سدة رئاسته»، ويجيب الأستاذ المناوي على ذلك بقوله: «أهم متغير فيما نرى هو الطرف الثالث في المعادلة المتمثل في الأنبا شنودة شخصيًا الذي تولى منصبه عام ١٩٧١م». (٥٠)

وتختلف مطالب الأقباط الأرثوذكس في مصر على حسب الجهة القبطية التي تطالب بها، فعلى حين يصل الأمر بما يسمى بالجماعات القبطية في المهجر ذات الصلة المشبوهة بالدوائر الأمريكية والإسرائيلية إلى حد المطالبة بطرد المستعمر العربي المسلم من مصر على غرار الأندلس والفلبين، على حد قول بيانات هؤلاء، وكذا الاستعانة بالقوة العسكرية الأمريكية والإسرائيلية لتحقيق

ذلك، بل ومطالبة الأرثوذكس في كل مصر وخارجها إلى توجيه جهودهم إلى تحرير مصر من الإسلام ورفع راية المسيحية في كل بقعة من أرض مصر (٥١)، فإن المطالب الرسمية

الاحتجاج على تطبيق الشريعة، واعتبار ذلك مطلبًا قبطيًا هو نوع من الدور المشبوه لتفكيك المجتمع والضغط على الحكومة خدمة لأعداء الوطن

القبطية الأرثوذكسية تقل عن ذلك كثيرًا، فهي تقتصر على المطالبة بزيادة عدد الكنائس، والمساواة في الوظائف السياسية، وتخصيص نسبة مع نسبتهم المزعومة التي تقدرها الكنيسة بـ ١٥٪، وهي نسبة كاذبة طبعًا، وكذلك عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، وتغيير المناهج التعليمية، وإلغاء جامعة الأزهر أو السماح للمسيحيين بدخولها وغيرها من المطالب». (٥٢)

وللإنصاف فإن هذا السلوك من أقباط المهجر، أو من قيادات الكنيسة لا يزال يجد من يعترض عليه من عقلاء الأرثوذكس الذين يؤكدون على الانتماء العربي لمصر، وأن الأقباط الأرثوذكس هم جزء من النسيج المصري العربي، وأنهم يتتمون إلى

استمرت متمسكة بتقاليدها الكنسية في رفض الدخول في تحالفات مع الكنائس الأوروبية، أو الانخراط فيما يسمى بمجلس الكنائس العالمي انخرطت في ذلك المجلس المشبوه.

مجلس الكنائس العالمي هذا هو المؤسسة الأهم في إطار المشروع الأمريكي لاستخدام الأقليات النصرانية في اختراق المجتمعات، وهو مجلس معروف بارتباطاته بالمخابرات الأمريكية، والهدف منه زرع الخلافات الطائفية لاتخاذها ذريعة للتدخل ولمد النفوذ الأمريكي، يقول محمد حسين هيكل في كتابه خريف الغضب: «إن مجلس الكنائس العالمي يعكس دون أدنى شك رغبة جهات أمريكية معينة في استخدام ورقة الأقليات المسيحية، وإن التحقيقات التي أجريت في الكونجرس أثبتت أن مجلس

الكنائس العالمي كان من الجهات التي حصلت على مساعدات ضخمة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». (٤٧)

ويضيف هيكل «فوق منصة الرئاسة يوم افتتاح هذا المجلس، كان يجلس وزير الخارجية

الأمريكي جون فوستر دالاس شقيق الرئيس المعين لإدارة المخابرات المركزية الأمريكية آلان دالاس إلى جانب رئيس مجلس الكنائس العالمي، وكان مما قاله دالاس: أن نبشر بالمسيحية فهذا معناه أن نبشر بالحضارة الغربية». (٤٨)

ويقول الكاتب المصري القبطي المعروف د. وليم سليمان قلادة في كتابه «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية»: «إن دعوة مجلس الكنائس العالمي تتجه في صراحة تامة إلى ضرورة تدخل الكنائس داخل البلاد المستقلة حديثًا في سياسيات بلادها، والتنسيق مع الغرب في السياسة الدولية، والدعوة إلى إجراء صلح بين العرب وإسرائيل». (٤٩) ويقول الأستاذ عبد اللطيف المناوي في كتابه

كانت تطال المجتمع كله، وليس أقلية معينة عرقية أو دينية.

- أن نشأة المشاكل المرتبطة بالأقليات العرقية كالأكراد والأمازيغ والنوبة كانت مرتبطة بسقوط الخلافة الإسلامية أو ضعفها الشديد، أو كرد فعل على ظهور القوميات العرقية التركية أو العربية، مع الأخذ في الاعتبار هنا أن التعريب والعروبة في إطار إسلامي أمر لم يكن يثير حساسية أي أقلية، بل حتى لم يكن يثير حساسية دولة الخلافة العثمانية ذاتها، رغم أنها لم تكن عربية؛ لأن هذا الأمر اعتبر نوعاً من الدعوة إلى الإسلام والثقافة الإسلامية، أما عندما تحولت فكرة القومية العربية إلى فكرة شوفينية، وأصبحت ذات طابع علماني؛ فإنها جرّت مشاكل لا حصر لها، ومن البديهي أن الكردي أو الأمازيغي لا يجد حساسية في الانتماء الإسلامي، بل من هذه العرقيات من حمل لواء الجهاد في سبيل الله والمقاومة في سبيل الإسلام، الأمازيغ كانوا ولا يزالون من أهم مقاتلي الإسلام الأشداء، وكذا الكرد الذين منهم صلاح الدين الأيوبي، وحتى في حركات المقاومة الحديثة ضد الاستعمار كانت قيادات المقاومة من الأمازيغ طالما كان مشروع المقاومة إسلامياً، أما حين تكون العروبة علمانية والقومية العربية شوفينية؛ فإن العكس يحدث على طول الخط، أكثر من هذا أن عددًا من المتممين إلى الأقليات العرقية في الوطن العربي رفعت شعار التعريب في مواجهة التتريك الذي قاده رجال الاتحاد والترقي المعادي للجامعة الإسلامية، وكان هؤلاء فيهم الكردي والأمازيغي، على أساس أن تلك دعوة لإحياء الخلافة الإسلامية عن طريق العرب بعد أن ظهر أن الأتراك في الاتحاد والترقي يريدون إلغاء تلك الخلافة. (٥٤)

وفي حالة العراق مثلاً يرصد الدكتور بشير نافع أنه عندما «أخذ المنحنى العروبي اتجاهاً أكثر راديكالية، وفي تأكيد الأسس العرقية لهوية العرب

الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، وأنهم يرون أن سلوكيات البابا شنودة تقود الكنيسة والمسيحية في مصر إلى كارثة، فلن ينفع المسيحيين في مصر إلا الصلة الطيبة بإخوانهم المسلمين، وأن استخدام الورقة الخارجية، والاستقواء بالأمريكان هو سلوك غير أخلاقي وغير مضمون العواقب أيضاً.

سياسات لمنع التحركات السلبية للأقليات:

إذا بدأنا بالاعتراف بحقيقة أن الأقليات جزء من المجتمعات التي تعيش فيها، وأن اختلاف الناس سنة من سنن الله تعالى، وأن التعارف بين الشعوب والقبائل هو توجيه إلهي وليس الصراع بلا مبرر، وإذا اعتبرنا أن من حق الناس أن تعبر عن خصوصياتها الثقافية واللغوية، بل والعرقية بما لا يتعارض مع أمن المجتمع، ولا قيمه وتقاليده، وفي إطار المرجعية العليا للمجتمع، ليس بمعنى التطابق معها، ولكن بمعنى عدم ضرب الأسس التي تقوم عليها، فإن ذلك وغيره يحل الكثير من المشكلات في المجتمع الإسلامي المعاصر، هناك بالطبع مشاكل عرقية، ودينية ومذهبية، بل وثقافية أيضاً.

وينبغي هنا أن ندرك مجموعة من الحقائق التالية:

- أن المجتمع الإسلامي طالما كانت مرجعيته العليا هي الإسلام، وأن الشريعة مطبقة فيه، فإن مشكلة الأقليات العرقية والجنسية لم يكن له أي وجود يُذكر؛ لأن الإسلام لا يفرق بين المسلمين على أساس الجنس أو العرق أو اللون أو حتى اللغة، وكذلك لا يظلم غير المسلمين على أي أساس ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْهِمْ عَلٰٓءَ اَلَّا تَعْدِلُوْٓا۟ۤ اَعْدِلُوْٓا۟ هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾ (٥٣)، أي أن العدل حتى مع من تكرههم.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن عددًا كبيرًا من العرقيات والجنسيات والشعوب والقبائل ساهمت في البناء الحضاري الإسلامي، ونبغ أشخاص كقواد عسكريين، وعلماء دين ودينا من الأقليات، وأن فترات الظلم التي حاقت بالمجتمعات الإسلامية

التفريق بينهم على أسس عرقية أو لونية أو جنسية. - ربما يبدو للوهلة الأولى أن المشكلة ستكون كبيرة بخصوص الأقليات الدينية والطائفية، وفي الحقيقة فإن فكرة الجامعة الإسلامية والثقافية الإسلامية والهوية الحضارية قادرة على حل تلك المشكلة، فالكثير من المسيحيين العرب ينظرون إلى أنفسهم أنهم مسيحيون دينًا، مسلمون ثقافة وحضارة ووطنًا، وهذا الكلام ليس من قبيل الأمانى، بل هو بالتحديد ما قاله زعماء أقباط، مصريون أو مسيحيون شوام، فالزعيم الوطني القبطي المصري مكرم عبيد قال: «أنا مسيحي دينًا مسلم ووطنًا»، وهذا التيار الذي عبّر عنه

مكرم عبيد كان هو التيار الرئيسي في الكنيسة المصرية حتى عهد البابا كيرلس السادس المتوفى عام ١٩٧٦م، ويمكن لهذا الخط أن يعود، وليصبح التيار الرئيسي في الكنيسة المصرية بعد البابا شنودة الثالث، وعلى أي حال

إن المشكلات القومية، والحركات العرقية يمكن أن تكون في جزء كبير منها رد فعل على القومية العربية العلمانية

فإن الجسم القبطي الأرثوذكسي المصري لا يزال به مساحة واسعة لهذا الخط الوطني، ولا تزال رموزه موجودة مثل الأستاذ جمال أسعد الذي دخل انتخابات مجلس الشعب المصري على قوائم التحالف الإسلامي». (٥٦)

بل إن تطبيق الحدود الإسلامية حظي بموافقة أغلبية قبطية في استفتاء أجراه مركز البحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عام ١٩٨٥م، تحت إشراف الدكتور أحمد المجذوب رئيس المركز في ذلك الوقت، ولاحظ أن السؤال كان حول تطبيق الحدود الشرعية، ولم يكن حول تطبيق الشريعة الإسلامية؛ مما يجعل الأمر أكثر دلالة، وقد قال ٦٨٪ من المسيحيين: إنهم يوافقون على ذلك ووصلت النسبة بين المسلمين إلى ٩٩٪. (٥٧)

في نفس الإطار يقول الدكتور فكتور سحاب: «إن سياسة تفكيك المنطقة عبر إثارة الفتن الطائفية هي

ووحدة بلادهم؛ بدلاً من الأبعاد الإسلامية واللغوية والثقافية، وأنه يبروز البعث في الأربعينيات، كانت الحركة القومية العربية قد قطعت شوطاً واسعاً في قصورها الحصري للهوية العربية، وابتعدت مسافة كبيرة عن تصور العروبيين - الإسلاميين في مطلع القرن العشرين للعروبة وأهدافها، وأغلق هذا التطور في مسار فكرة القومية العربية وخطابها وتوجهاتها الجسور والقنوات مع الحركات القومية الكردية التي كانت ارتفعت أسوارها القومية في عراق النصف الثاني من القرن العشرين بين الأكردية العراقية العربية من ناحية، والأقليات الكردية والتركمانية من جهة أخرى، وطوّرت كل فئة خطاب هويتها الخاصة، المؤسّس على مركب من الحقائق والأساطير، والمستبطن استبعاد الآخر أو الخشية منه». (٥٥)

وما حدث في العراق حدث مثله

وأكثر في الشام وفي غيره من بلدان العرب، وهكذا فإن المشكلات القومية، والحركات العرقية يمكن أن تكون في جزء كبير منها رد فعل على القومية العربية العلمانية، أو في أقل الأحوال يمكن حل المشكلة من جذورها؛ إذا ما عدنا إلى فكرة الجامعة الإسلامية والمرجعية الإسلامية العليا، بل سنجد أن غلاة القوميين الأكراد والأمازيغ ربما سيكونون أشد المدافعين عن الاستقلال الوطني في إطار إسلامي أو حتى في إطار عروبي غير علماني بل عروبي إسلامي.

- في الإطار الاستراتيجي فإن الإسلامية تحل مشكلة العرقية، ولكن طالما كان الأمر لا يزال بعيد المنال، وما دامت الدولة القُطرية هي الموجودة الآن ولمدئ غير قصير، فإنه يجب الاعتراف بالحقوق الثقافية للأقليات العرقية مع زيادة جرعة التعليم الإسلامي الذي يؤكد على وحدة المسلمين وعدم

- (١٢) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار.
- (١٣) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، دار المعارف، مصر ١٩٧٨ م.
- (١٤) سوسن إسمايل، الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، رسالة دكتوراه منشورة، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٨.
- (١٥) د/ سوسن إسمايل، الجذور التاريخية للأزمة اللبنانية، نفس المرجع السابق.
- (١٦) مذابح الإنجليز في الوطن العربي، الدكتور عاطف السيد، المحروسة للطباعة، القاهرة سنة ٢٠٠٣، وانظر أيضًا: عبد الرحمن الراجعي، الثورة العربية، دار المعارف، مصر.
- (١٧) طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق.
- (١٨) الراجعي، محمد فريد، دار المعارف.
- (١٩) د/ محمد مورو، يا أقباط مصر انتبهوا، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٨.
- (٢٠) طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجامعة الوطنية، مرجع سابق.
- (٢١) د/ حامد محمود موسى، المشكلة الكردية في الشرق الأوسط، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢.
- (٢٢) د/ محمد مورو، الإسلام وأمريكا: حوار أم مواجهة دار الروضة، القاهرة، ١٩٩٠.
- (٢٣) الأهرام المصرية ١٩٩٢/٩/٥.
- (٢٤) الأهرام المصرية ١٩٩٢/٩/١٠.
- (٢٥) الأهرام المرجع السابق، والعدد السابق.
- (٢٦) عبد الفتاح الجمل، صور وسقوط الإمبراطورية الأمريكية، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة، ٢٠٠٤.
- (٢٧) رالف بيترز، مجلة القوات المسلحة الأمريكية، عدد يونيو ٢٠٠٦.
- (٢٨) جاي باوزر، صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ٢٠٠٦/٧/١٦.
- (٢٩) بشير نافع، العراق سياقات الوحدة والانقسام، دار الشروق، القاهرة، ١١-٢٠٠٦.
- (٣٠) المرجع السابق.
- (٣١) راجع إحصائيات السنة والشعبة في العراق في موقع مفكرة الإسلام الإلكتروني.
- (٣٢) د/ محمد مورو، ما بعد الهزيمة الأمريكية في العراق، مكتبة الإيمان، مصر ٢٠٠٦.
- (٣٣) فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة: الفكر السياسي الشيعي، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٨.
- (٣٤) المرجع السابق.
- (٣٥) حامد محمود عيسى، القضية الكردية في العراق من الاحتلال البريطاني إلى الغزو الأمريكي ١٩١٤-٢٠٠٤، القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٥.
- (٣٦) المرجع السابق.

سياسة غربية ثابتة، والتباكي على حقوق المسيحيين العرب هو من دموع التماسيح، ووراء أهداف سياسية باتت تقليدية ومكشوفة». (٥٨)

وهكذا فإن السياسة الصحيحة لحل مشاكل الأقليات أو التقليل من آثارها السلبية هي العودة إلى المرجعية الإسلامية، وإعلاء قيمة الانتماء الحضاري الإسلامي، والانخراط في مشروع وطني عربي إسلامي لمقاومة الاحتلال الأجنبي الصهيوني والأمريكي، ومشروع المقاومة هذا سوف يزيد التلاحم الإسلامي بين مختلف الأعراق، ويزيد قوة الصلة بين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع، وأخيرًا ضرورة ممارسة العدل وتحقيق الإنصاف وسياسة التعارف بين الشعوب والقبائل، وليس الإقصاء والتهميش لأي عرق أو طائفة.

الهوامش:

- (١) محمد بن شاكر الشريف «وضع الأقليات في الدولة الإسلامية، التقرير الاستراتيجي، مجلة البيان، الإصدار الثالث ١٤٢٧هـ».
- (٢) سورة الحجرات الآية ١٣.
- (٣) لسان العرب، ١١-٥٦٣.
- (٤) الفائق ٣/ ٢٢٢.
- (٥) صلاح سعد «المسألة الكردية في العراق»، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦ م.
- (٦) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩١ م، العدد ٤٨٩.
- (٧) الحرب الصليبية بين البابا أربان إلى البابا بوش، د. محمد مورو، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة ٢٠٠٥ م.
- (٨) كان الاسم الكودي لحرب الخليج الثانية ١٩٩١ هو مجد العذراء، واستخدم الرئيس بوش مصطلح الحرب الصليبية لوصف غزو أفغانستان!!
- (٩) د/ أسامة أحمد محمد حميد، تاريخ مصر في الحقبة العثمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بنها، مكتبة الآداب، ١٩٩٠.
- (١٠) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مرجع سابق.
- (١١) د. محمد مورو، صفحات من ثقافة الشعب المسلم في مصر، ١٧٩٨-١٨٠٧ م، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٢.

- (٣٧) المرجع السابق .
- (٣٨) المرجع السابق .
- (٣٩) المرجع السابق .
- (٤٠) د/ رؤوف عباس، أوراق هنري كورييل، دار المعارف، مصر.
- (٤١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢، دار الشروق، مصر.
- (٤٢) صلاح الدين محسن، زهور الأمازيغ تفتتح بعد ١٤٠٠ خريف، الحوار المتمدن، العدد ١٧١٢، ٢٣/١٠/٢٠٠٦ .
- (٤٣) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مرجع سابق .
- (٤٤) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسهار، وكذا راجع الغزو الفكري لمحمد جلال كشك، والماركسية والغزو الفكري لمحمد جلال كشك أيضًا، وراجع أيضًا محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.
- (٤٥) د/ محمد مورو، يا أقباط مصر انتبهوا، مرجع سابق.
- (٤٦) المرجع السابق .
- (٤٧) محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٢ .
- (٤٨) المرجع السابق .
- (٤٩) د/ وليم سليمان قلادة، الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة، دار المعارف.
- (٥٠) عبد اللطيف المناوي، الأقباط: الكنيسة أم الوطن: قصة البابا شنودة الثالث، دار الشباب العربي للنشر، القاهرة، ١٩٩٢ .
- (٥١) جريدة الأسبوع المصرية ١٣/٨/١٩٩٨ .
- (٥٢) قرارات مؤتمر مجمع الآباء الكهنة والمجلس المي وممثلي الشعب القبطي بالإسكندرية بتاريخ ١٧/١/١٩٧٧ .
- (٥٣) المادة آية ٨ .
- (٥٤) وميض جمال، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨١ .
- (٥٥) بشير نافع، العراق سياقات الوحدة العربية والانقسام، مرجع سابق.
- (٥٦) د/ محمد مورو، يا أقباط مصر انتبهوا، مرجع سابق .
- (٥٧) المرجع السابق .
- (٥٨) المرجع السابق .

معلومات إضافية

قرارات مجمع الآباء الكهنة والمجلس الملي وممثلي الشعب القبطي بالإسكندرية في المؤتمر المنعقد بالبطيركية :

بتاريخ ١٧ يناير سنة ١٩٧٧

أهم القرارات:

أولاً: حرية العقيدة:

نطالب بتوفير كافة ضماناتها بالنسبة للمسيحيين، وإلغاء جميع الأوضاع والتوجيهات والتعليمات الحكومية والفتاوى التي تقيد هذه الحرية المقدسة، خصوصاً بالنسبة لعودة المسيحي إلى ديانته الأصلية، مما يوصف وصفاً خاطئاً من قبيل الردة عن الإسلام.

ثانياً: حرية العبادة:

نطالب بإلغاء القيود العتيقة والقرار الإداري السابق صدره من وكيل وزارة الداخلية في عهد الطغيان بشروطه العشرة التعسفية المقيدة لبناء الكنائس.

ثالثاً: تطبيق الشرع الإسلامي:

فيما ينادي به غلاة الدعوة الإسلامية والتيارات المتطرفة الغربية على المجتمع المصري الأصيل، نعلن عدم قبول تطبيقها على المسيحيين في مصر.

رابعاً: تشريعات الأحوال الشخصية:

نطالب بسرعة إصدار التعديل التشريعي اللازم للقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بما يقرر صراحة وجوب تطبيق شريعة العقد الذي انعقد بين زوجين مسيحيين، على كافة آثار الزوجية بما فيها حضانة الأولاد، دون اعتداد بتغيير الدين أو الملة بعد العقد؛ وذلك حماية للأسرة وقضاء على التلاعب بالأديان.

خامساً: عدم تكافؤ الفرص:

نطالب بتشكيل لجنة رسمية عليا للوحدة الوطنية تتوفر لها مقومات الحيدة وأوسع سلطات التحقيق؛ وذلك لتقصي الحقائق في الشكاوى، بخصوص عدم المساواة في التعيينات والترقيات في الوظائف الحكومية والقطاع العام، توطئة للمساواة في التعيينات والترقيات في الوظائف

الحكومية والقطاع العام، توطئة لإصدار القرارات الإدارية لتصويب الأوضاع وإعطاء كل ذي حق حقه.

سادساً: تمثيل المسيحيين في الهيئات النيابية:

نطالب بمعالجة الأمر على النحو الذي يكفل تحقيق تمثيلهم في مجلس الشعب والمجالس المحلية والشعبية تمثيلاً حقيقياً لا رمزياً، وليكون متفقاً مع الإحصاء الواقعي للمواطنين، ومحققاً للوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة.

سابعاً: الاتجاهات الدينية المتطرفة:

نطالب بتدخل الجهات الحكومية المختصة في الدولة للقضاء على تلك الاتجاهات بكل حزم حفاظاً على الوحدة القومية، وأن تتخذ الإدارات الجامعية ما يلزم من التدابير لتنقية الأوساط الجامعية من الشوائب الدخيلة، بحيث تخصص الجامعات لتلقي العلم خالصاً، كما هو الحال في كافة جامعات دول العالم المتحضرة.

ثامناً: حرية النشر:

نطالب برفع الرقابة الرسمية أو المقنعة عن المؤلفات والمنشورات المسيحية، ووضع حد للكتابات الإلحادية والكتابات التي تتضمن التعريض بالدين المسيحي وعقائده، وفي الجامعات ما يتعلق بالمرحلة المسيحية في تاريخ مصر الممتدة على مدى ستة قرون كاملة قبل الفتح الإسلامي.

ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين .. (انتهى)

(مختصر) قرارات مؤتمر مجمع الآباء الكهنة

والمجلس الملي وممثلي الشعب القبطي بالإسكندرية

بتاريخ ١٧ / ١ / ١٩٧٧.

أنواع الأقليات:

يمكن تمييز نوعين من الأقليات وهما: أقليات دينية (أقليات الملل)، وأقليات عقديّة (أقليات النحل)، والأقليات الدينية في بلاد المسلمين نوعان: أقلية ذات إقامة دائمة (أهل الذمة)، وأقلية ذات إقامة مؤقتة (المستأمنون).

أ- الأقليات الدينية (أهل الذمة والمستأمنون):

وأهل الذمة هم الكفار الذين أبوا الدخول في دين الإسلام لكنهم رغبوا في البقاء في دار الإسلام،

والتمتع بحماية المسلمين لهم في دينهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، سواء كانوا من أهل تلك البلاد أو قدموا من ديار الكفر راغبين في ذلك؛ بناء على عقد يعقد بينهم وبين دولة المسلمين يعرف بعقد الذمة؛ حيث يرتب هذا العقد حقوقاً وواجبات على الطرفين ينبغي الوفاء بها من كليهما.

أما المستأمنون: فهم الكفار من أهل دار الحرب أو دار الصلح الذين أبوا الدخول في الإسلام ورغبوا في دخول دار الإسلام لهدف مؤقت لا يُخيمون إقامةً، بل يخرجون بعد المدة المعطاة لهم من قبل مَنْ أئتمهم إلى بلادهم، وهؤلاء أنواع منهم: الرسل، التجار، المستجيرون وطالبر حاجة، ولا شك أن استعمال لفظ «أهل الذمة» و«المستأمن» أولى بكثير من استخدام لفظ «الأقلية»؛ لأن الأخير لا يحمل أية دلالة ذات قيمة أخلاقية، بل يحمل ما يدل على البعد عن المجتمع والاعتراب عنه مما يكون مدعاة للتمتافر.

ب- الأقليات العقيدية (الفرق الضالة):

تعرف هذه الأقليات في الاصطلاح الشرعي بالفرق الضالة، أو أهل الانشقاق، أو أهل البدع، فكان منهم الخوارج والشيعة والقدرية والرافضة والمرجئة والجهمية والمعتزلة، إلى مسميات كثيرة مسطورة في كتب الفرق، وهناك أسباب كثيرة لظهور هذه الأقليات العقيدية أهمها: اتباع الشهوات التي سببها تحكم الهوى، واتباع الشبهات التي سببها غلبة الجهل، وتقليد غير المسلمين الذي سببه التأثر بثقافات الأقليات الدينية، وترجمة كتبهم إلى اللسان العربي، وفي أوقاتنا الزمنية الحديثة والمعاصرة ظهرت مسميات جديدة، وهي تشترك مع أهل الابتداع والفرق في كثير من الأصول والمناهج كالعصرانيين والحدائبيين والعلمانيين والليبراليين واليساريين والاشتراكيين.

ج- الأقليات اللغوية والعرقية:

هي أقليات من حيث اللفظ فقط دون المعنى؛ إذ لا يترتب على هذا النوع أية أحكام خاصة بهم، بل هم يدخلون في غمار المسلمين يجري عليهم ما يجري على سائر المسلمين، فالشريعة لم ترتب على هذه التقسيمات أية أوضاع أو أحكام، وإنما تترتب الأحكام بناء على الدين فالمسلم في أي إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية ليس من الأقلية، وإن كانت جنسيته مغايرة لجنس أبناء الإقليم أو لغته مغايرة للغتهم أو لونه مخالف للونهم؛ فهو داخل في الأكثرية.

وضع الأقليات في الدولة الإسلامية، محمد بن شاکر الشريف،

التقرير الاستراتيجي الثالث للبنان،

الباب الثالث، ص ٢٦٦: ٢٦٩.



ظاهرة الهجوم على الحجاب

د/ ليلي بيومي - مصر

كاتبة إسلامية

ملخص البحث:

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة بالبلاد العربية، وتباينت حدة تصريحات هذه القيادات، ففي حين ارتفعت حدتها في دولٍ تجذرت فيها العلمانية، نجد أنها خفتت بعض الشيء في دولٍ للثقافة الإسلامية فيها مكانٌ واعتبارٌ، أما في دول الخليج، فلم يكن للظاهرة وجود ظاهر؛ بسبب ما تمثله الثقافة الإسلامية والزي الإسلامي من إطار تقليدي يحكم هذه المجتمعات ويسيطر عليها.

وفي توقيت متقارب تصاعد الهجوم الغربي على الحجاب؛ حيث أعرب الرئيس الفرنسي شيراك عن قلقه إزاء ظاهرة «الأصولية» الإسلامية فهو يرى «عدوانية ما» في ارتداء الحجاب، ولم يختلف الأمر كثيرًا في ألمانيا وهولندا. ولهذه الظاهرة أبعادٌ مختلفة في سياقاتها، فتمَّ بُغْد تاريخي لها، وآخر سياسي، وثالث ثقافي وفكري، كل هذه الأبعاد تؤثر على الواقع الاجتماعي العربي والإسلامي، وعلى الرغم من الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، إلا أن الحجاب ظل منتشرًا في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن الماضي، عندما بدأت حركة السفور تظهر في تركيا الكمالية، ثم في مصر -على اختلاف درجة الحدة- قبل أن تنتشر إلى بلدان عديدة، ومع ذلك فقد ظلت مجتمعات إسلامية ملتزمة بالحجاب والنقاب على الطريقة القديمة حتى زمن عودة الحجاب.

كما شكّل ارتداء الحجاب في حياة النساء المسلمات في الغرب تحديًا كبيرًا، فلقد أصبحت المرأة المسلمة طرفًا مهمًا في المعركة الدائرة بين الإسلام والغرب، ولازال الغرب -المتغني بالحريات والتعدد العرقي والثقافي- شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب.

وتختلف أسباب رفض فكرة الحجاب عند العلمانيين العرب عنها عند الغرب، فعلمانيو العرب يرون في انتشار الحجاب ردةً وتخلفًا ورجعية، بينما عند الغرب تُعتبر المنظومة العقيدية للإسلام موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، فهي تولد العداء للآخر غير المسلم من وجهة النظر الغربية.

ليست قضية الحجاب مجرد قضية سُترة رأس تغطي شعر المرأة المسلمة في المدارس والإدارات الغربية، بل هي الشجرة التي تُخفي الغابة الكبرى، وما هذه الغابة إلا التدافع المتعدد الساحات والواجهات بين الإسلام والغرب: تدافع ثقافي سلمي أحيانًا، وعسكري حربي أحيانًا أخرى.

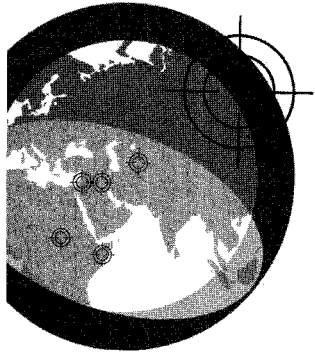
أفكار ومقتطفات

- كل فئات الأمة، وكل رجالها ونسائها، يعلمون أنه يجب شرعاً على جميع نساء المؤمنين التزام الحجاب الشرعي، متأشين في ذلك بالإجماع العملي من نساء المؤمنين من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، مروراً بكل عصور الأمة.
- كانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة مثل تونس، وخفت الحدة في الدول التي للعلمانية فيها جذور لا يُستهان بها مثل مصر.
- إذا قبلنا اليوم الحجاب فقد نقبل غذاً أن تحرم المرأة من حقها في العمل والتصويت، وأن تُمنع من الدراسة، وأن تكون فقط أداة للتناسل وللقيام بالأعمال المنزلية، فذلك سيعيق تقدمنا فترجع إلى الوراء، وننال من أحد المقومات الأساسية التي يقوم عليها استقرار المجتمع، وتقدم الشعب ومناعة البلاد». (الأمين العام لحزب التجمع الدستوري الديمقراطي التونسي)
- اعتبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك ارتداء تلميذات المدارس الحجاب الإسلامي «أمراً عدوانياً».
- كان التركيز الغربي على مصر شديداً، سواء في استهدافها بداية بالاحتلال العسكري، كما في الحملة الفرنسية وغزوة فريزر، أو في استهدافها بالعزو الفكري والثقافي. وهكذا كانت مصر هي البداية للهجوم على الحجاب.
- في بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وبعد سنوات قليلة من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ صدر كتاب «المرأة في الشرق»، وكان مؤلفه محامياً مسيحياً مصرية، كان صديقاً للورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر، وكان يُدعى مرقص فهمي. وقد دعا هذا الكتاب للقضاء على الحجاب باعتباره حجاً للعقل.
- ظهرت العديد من الشخصيات النسائية اللاتي دافعن عن «حق» المرأة في الحياة بدون حجاب، وأخذن يروحن لتحرير المرأة من كافة قيودها، وعلى رأسها الحجاب.
- المسورد الذي غذى ظاهرة الهجوم على الحجاب في عالما العربي والإسلامي ليس مورداً مستقلاً خاصاً بذاته، وإنما كان هذا المورد هو العلمانية والإطار العلماني العام الذي تم إحلاله تدريجياً.
- كان الاستعمار حريصاً على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية.
- مثلت ظاهرة ابتعاط الطلاب العرب والمسلمين إلى البلاد الأوروبية بعد فترة الاستقلال رافداً أساسياً في تغذية وتثبيت العلمانية في العالم العربي والإسلامي.

- رغم الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، والذي يوظف ما في أيدي العلمانيين من مراكز سياسية، ومن مؤسسات ثقافية وفكرية، ومن وسائل إعلامية، ظل الحجاب - والنقاب - منتشرًا في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن العشرين.
- الرؤوس التي يغطيها الحجاب باتت أكثر من نظيرتها غير المحجبة، إلى الحد الذي يدفع ببعض الطلاب إلى القول: إن الفتاة غير المحجبة غالبًا ما تكون مسيحية وليست مسلمة، وإن القاعدة العامة باتت للحجاب في الجامعات.
- انعكست ظاهرة الحجاب في الشارع المصري حتى وصلت إلى شواطئ الاصطياف.
- إذا كان الحجاب داخل العالم العربي والإسلامي يشكل واجبًا دينيًا مفروضًا على المرأة بالنصر؛ لذلك فهي مأمورة بارتدائه، كي تحجب عن عيون الرجال أنوثتها، التي قد نسبب الفتنة، والتي تترتب عليها نتائج غير مقبولة دينيًا وأخلاقيًا وثقافيًا، فإن الحجاب في العالم الغربي لا يقف عند هذا الجانب، بل يتجاوزه إلى جوانب أخرى.
- إن فرنسا تتوقع من المهاجرين إليها أن يتبنوا أسلوب الحياة الفرنسي، وليس أن تتبنى فرنسا عادات المهاجرين وثقافتهم، أي أن قليلين فقط في فرنسا هم الذين يعتقدون أن التعددية الثقافية تمثل حلاً لمسألة الحجاب.
- يصير السياسيون الفرنسيون على أن الولاء للدولة الفرنسية ومبادئها العلمانية يأتي أولاً قبل أي شعائر دينية، ويعتقد أغلب النواب الفرنسيين أن الحل الوحيد يكمن في فرض قانون يُلزم بذلك.
- أصبح هناك تأفف في الجناح النسائي لحركات التحرر العربية من الحجاب، ومن النساء اللاتي يرتدين الحجاب، على أرضية أنهن رجعيات متخلفات جامدات.
- الملاحظ تاريخيًا أن الحركة الإسلامية هي التي قادت وتقود النضال الوطني وحركة التحرر الوطني في بلادنا، وتفعل كل شيء، فهي تُقدم الثقافة، وتُصيغ الهوية والوجدان، وتعيّن الشارع، ولكنها تعجز في النهاية عن قطف الثمرة؛ حيث يقطفها العلمانيون بمساعدة الغرب الصليبي.
- ماذا تقول الحركة النسوية العربية العلمانية عن الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي والإسلامي ابتداءً من النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، والتي كانت المرأة والفتاة حاضرتين فيها بكثافة عمت المدارس والجامعات والمصالح الحكومية والشوارع والمنازل.
- أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو ازداؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة، فيرى أن تعدد الزوجات، ونصيب المرأة من الميراث، وعدة المطلقة أمورًا تكشف عن انحياز الإسلام للرجل، وانتقاصه من حقوق المرأة، وفي أحسن الأحوال فإنها أمور لم تعد تتمشى مع عصرنا الحالي.

ظاهرة الهجوم على الحجاب - د/ليلى بيومي

- ما الحرب التي خاضتها النسويات المصريات العلمانيات مؤخرًا حول ضرورة تدريس الثقافة الجنسية بالمدارس إلا خطوة أولى في سبيل تعميم مثل هذه الأفكار.
- إن العلمانيين يرون في انتشار ظاهرة الحجاب هزيمة لهم، وإفشالاً لمخطط استهدافهم للمرأة المسلمة الذي حرصوا عليه من البداية.
- منذ متى كان التقدّم والحضارة متعلّقين بلباس الإنسان؟! إن الحضارة والتقدم والتطور كان نتيجة أبحاث توصل إليها الإنسان بعقله وإعمال فكره، ولم تكن بثوبه ومظهره.
- المنظومة العقديّة للإسلام تمثل موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي.
- إن الأفكار الأمريكية مثلاً عن الإصلاح الديمقراطي، وعن حرية المرأة، وعن تغيير مناهج التعليم، وعن الخطاب الديني الجديد، وعن الحجاب والاختلاط ونظم الأسرة والأحوال الشخصية؛ جميعها ذات طابع مدني تحمل روح الأفكار الأمريكية إلى العالم، أو رسالة أمريكا إلى العالم، وبناءً على ذلك؛ فإن أمريكا تريد تفكيك ما لديك لتتبع أنت ما عندها.



ظاهرة الهجوم على الحجاب

د/ ليلى بيومي - مصر

كاتبة إسلامية

الخلاف الموجود إذن في هذه القضية إنما هو نوعان مختلفان:

النوع الأول: خلاف بين الفقهاء على قولين: هل يجوز كشف الوجه والكفين أم لا يجوز؟، فهناك جانب من الفقهاء قال بعدم الجواز، بينما رأى آخرون جواز كشف الوجه والكفين.

والنوع الثاني من الخلاف: هو بين جماهير المسلمين وبين العلمانيين الذين يثيرون الشكوك والشبهات، ويقولون: إن أدلة فرضية الحجاب غير ثابتة، وبالتالي فإنه غير واجب، وهذا تشغيب لا قيمة له ولا اعتبار.

منهج البحث:

ونحن في هذا البحث ندرس هذه القضية من خلال سبع زوايا رئيسية.

فنحاول توثيق ظاهرة الهجوم على الحجاب عن طريق عرض جانب من التصريحات الرسمية، سواء في العالم العربي أو في الغرب، التي تهاجم الحجاب في أيامنا هذه، والتي تُعبر عن هجوم صريح غير قابل للتأويل.

ثم نحلل الظاهرة في أبعادها المختلفة: التاريخية، والسياسية، والفكرية، ثم تأثير هذه الأبعاد على المستوى الاجتماعي في البلاد العربية والإسلامية.

ونتوقف أمام كون الحجاب قضية رمزية تختزل مجموعة أخرى من القضايا والصراعات، وناقش أسباب رفض حركة التحرر الوطني في بلادنا العربية،

مقدمة:

لسنا معنيين في هذه المقدمة بمناقشة أدلة فرضية الحجاب، وإنما ننطلق من أساس مبدئي، وهو أن الأمر معلوم بالضرورة من دين الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يشذ أحد من علماء الأمة عبر تاريخ المسلمين الممتد عن هذا الإجماع.

فقد أجمع علماء الأمة طيلة خمسة عشر قرناً من الزمان على أن المرأة تغطي جميع جسمها سوى الوجه والكفين، وإلا فهي مخالفة لأمر ربها معاندة له. وذهب فقهاء آخرون إلى أن هذا القدر لا يكفي، وأوجب على المرأة أن تستر الوجه والكفين أيضاً. ولم يذهب الفقهاء إلى هذا الإجماع إلا عن أدلة رصينة محكمة تؤكد هذا الحكم.

وكل فئات الأمة، وكل رجالها ونسائها، يعلمون أنه يجب شرعاً على جميع نساء المؤمنين التزام الحجاب الشرعي، متأسين في ذلك بالإجماع العملي من نساء المؤمنين من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، مروراً بكل عصور الأمة حتى الآن، بدلالة صحيح الأثر، والقياس المطرد، وبصحيح الاعتبار بجلب المصالح ودرء المفاسد.

الديمقراطي» الحاكم، الذي عبّر عن رفضه ارتداء «الزي الطائفي الذي لا علاقة له بهوية البلاد وأصالتها، وينال مما تحقّق للمرأة التونسية من مكاسب».

وقوله: «إذا قبلنا اليوم الحجاب فقد نقبل غداً أن تُحرّم المرأة من حقها في العمل والتصويت، وأن تُمنع من الدراسة، وأن تكون فقط أداة للتناسل، وللقيام بالأعمال المنزلية، لذلك سيعيق تقدمنا فتراجع إلى الوراء، وننال من أحد المقومات الأساسية التي يقوم عليها استقرار المجتمع، وتقدم الشعب ومناعة البلاد».(٢)

كما اعتبر وزير الشؤون الدينية التونسي الحجاب، «ظاهرة دخيلة» على تونس، و«نشاؤاً» و«زياً طائفيّاً» و«ظاهرة غير مقبولة في تونس».(٣) وتطبيقاً عملياً لهذه التصريحات منعت السلطات التونسية عددًا من طالبات التعليم الثانوي من دخول امتحانات نهاية العام؛ بسبب ارتدائهن للحجاب.

وعلى سبيل المثال منعت إدارة معهد «القنال» الثانوي بمدينة بنزرت (٦٠ كيلو مترًا شمال العاصمة تونس) ٣٨ طالبة من دخول الامتحان.(٤)

وإذا كانت تونس هي النموذج الأكثر حدة في توجيه العلماني، فإن مصر هي الأخرى، لها توجه علماني لا تنكره، وإن كان أقل حدة من النموذج التونسي، بل وتعزز الدولة المصرية بهذا توجه العلماني الذي أسسه محمد علي.

ومن هذا توجه انطلق وزير الثقافة المصري فاروق حسني في هجومه على الحجاب، والذي هز أرجاء مصر، بل والعالم العربي كله، حيث قال: «إنه يرى أن الحجاب عودة للوراء، وأن النساء بشعورهن الجميلة كالورود، لا يجب تغطيتهن».

وتناقلت وكالات الأنباء الخبر الذي تسبب في ردود فعل عنيفة، وعاود فاروق حسني تأكيد رأيه

وخاصة الجانب النسوي منها، اعتبار الحجاب أحد مظاهر هذه الحركة على مستوى تأكيد الهوية ورفض التبعية للهيمنة الغربية.

وتعرض لتأثيرات قضية الحجاب على الجاليات الإسلامية في المجتمعات الغربية التي تعيش فيها، وندرس أسباب رفض العلمانيين العرب للحجاب، ونختتم بأسباب رفض الغرب المسيحي لهذا الزي الإسلامي.

أولاً: توثيق ظاهرة الهجوم على الحجاب:

أ- في العالم العربي:

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة، وكانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة، مثل تونس، وخفّت الحدة في الدول التي للعلمانية فيها جذور لا يُستهان بها مثل مصر، لكن للثقافة الإسلامية فيها مكان واعتبار. أما في دول الخليج واليمن، فلم يكن للظاهرة وجود ظاهر؛ بسبب ما تمثله الثقافة الإسلامية والزي الإسلامي من إطار تقليدي يحكم هذه المجتمعات وسيطر عليها.

وعلى هذا الأساس؛ فإن من

أواخر التصريحات التي هاجم فيها الرئيس التونسي الحجاب، دعوته إلى تكريس الاحترام وفضيلة الحياء، ومطالبته بالتفريق بين الاحترام و«الزي الطائفي»، في إشارة ضمنية إلى الحجاب.

وقال الرئيس التونسي: «إن تونس المتمسكة على الدوام بإسلامها الحنيف حريصة على تكريس قيمة الاحترام وفضيلة الحياء، وهي تعتبر تقاليدنا في الملابس في المدن والأرياف كفيّلة بتحقيق ذلك».(١) ويأتي موقف بن علي ليدعم تصريحات الهادي مهني، الأمين العام لحزب «التجمع الدستوري

امتدت ظاهرة الهجوم على الحجاب لتشمل قيادات سياسية وإعلامية وفكرية مختلفة، وكانت حدة التصريحات مرتفعة في البلاد العربية التي تمكنت فيها العلمانية من مفاصل الدولة

ظاهرة الهجوم على الحجاب - د/ليلى بيومي

التي قالت: «إن الحجاب رمز لإخضاع المرأة». وأضافت هولمير «إن الحجاب تحول إلى رمز سياسي تسيء استخدامه الجماعات الأصولية الإسلامية»، وأنها ترى «أن الحجاب لا يتماشى مع مبادئ الديمقراطية والمساواة والتسامح». ولم يتضمن القانون الجديد حظرًا على ارتداء الرموز الدينية الأخرى. (٩)

وفي هولندا، قال رئيس اللجنة البرلمانية للحزب اليميني بمدينة «روتتردام» الهولندية «سوريمسين»: إن الحجاب يعد وفقًا للقرآن رمزًا يميز المؤمنات عن غيرهن، بمعنى أن الحجاب رسالة موجهة إلى المجتمع الهولندي محتواها أن من ترتدي الحجاب مؤمنة، والأخريات أقل مستوى من الإيمان، مما يفتح المجال أمام العنصرية الدينية، كما يصفها. (١٠)

ثانيًا: تحليل الأبعاد المختلفة لظاهرة الهجوم

على الحجاب:

أ- البعد التاريخي للظاهرة:

كان التركيز الغربي على مصر شديدًا، سواء في استهدافها بداية بالاحتلال العسكري، كما في الحملة الفرنسية وغزوة فريزر، أو في استهدافها بالغزو الفكري والثقافي. وهكذا كانت مصر هي البداية للهجوم على الحجاب، وبالتالي جاءت الدعوة إلى رفض الحجاب، واعتباره من الموروثات الاجتماعية التي يجب تحرير المرأة منها وليس من الفروض الإسلامية.

وانطلقت هذه الدعوة منذ عهد محمد علي باشا، وتحديدًا منذ عام ١٨٢٦ الذي شهد إرسال البعثات المصرية إلى فرنسا، إلا أن دعوة محمد علي لم تلق قبولاً ولا تأييداً من علماء المسلمين، ولا من قبل المثقفين في مصر. وفي بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبعد سنوات قليلة من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ صدر كتاب «المرأة في الشرق»، وكان مؤلفه محامياً مسيحياً مصرياً، كان

في تصريح آخر نشرته نفس الصحيفة التي نشرت تصريحه الأول وقال: «لو كانت لي زوجة لمنعتها من ارتداء الحجاب». (٥)

وعلى إثر الضجة التي أثارها تصريحات الوزير، أجرت قناة «المحور» حوارًا معه في برنامج «٩٠ دقيقة»، أكد فيه تمسكه برأيه الشخصي، وقال: «أنا لا أحب الحجاب مثلما أقول إنني لا أحب أي شيء آخر، واصفًا الحجاب بأنه زي طائفي، يهدد سلامة الوحدة الوطنية، وبأنه تخلف؛ لأنه كان عادة قديمة في الماضي ونحن نستعيدها اليوم». (٦)

ب- في الغرب:

وعلى المستوى الغربي، اعتبر الرئيس الفرنسي جاك شيراك ارتداء تلميذات المدارس الحجاب الإسلامي «أمرًا عدوانيًا»، وأعرب عن قلقه إزاء ظاهرة الأصولية الإسلامية مع تزايد الميل العام في فرنسا لحظر كل الرموز الدينية في المدارس العامة.

وقال شيراك -خلال زيارته لتونس لحضور قمة خمسة زائد خمسة الأوروبية المتوسطة-: إن الحكومة الفرنسية ذات النظام العلماني الصارم لا يمكنها السماح لطالبات يرتدين ما اعتبره «علامات للتباهي بالاهتداء الديني»، مضيفًا أنه يرى «عدوانية ما» في ارتداء الحجاب. (٧)

وفي ألمانيا، حظرت السلطات في ولاية نورث رين وستفاليا الألمانية على المدرسات المسلمات ارتداء الحجاب في المدارس الرسمية.

وأقرت الجمعية الوطنية في الولاية -التي تعتبر الأكبر من حيث عدد السكان- قانونًا في هذا الصدد من دون تسمية الحجاب بالنص. (٨)

كما انضمت ولاية بافاريا الواقعة في جنوب ألمانيا إلى قائمة الولايات التي قررت منع المدرسات من ارتداء الحجاب، والتي تضم: سكسونيا السفلى، وبادين فير تيمبرج، وسارلاند. وأقر برلمان بافاريا قانونًا يمنع المدرسات من ارتداء الحجاب بعد الاستماع إلى وزيرة الثقافة الألمانية مونيك هولمير

من الشخصيات النسائية اللاتي دافعن عن «حق» المرأة في الحياة بدون حجاب، وأخذن يروجن لتحرير المرأة من كافة قيودها، وعلى رأسها الحجاب، ومنهن: سهير القلماوي، ودرية شفيق، وأمينة السعيد. (١١)

ب- البعد السياسي للظاهرة:

عندما اختفى الحجاب نسبيًا من «الشارع الإسلامي» قبل عقود لم يكن ذلك نتيجة «فهم جديد» للدين الإسلامي، إنما كان اختفاؤه مرافقًا لتغييب النسبة العظمى من مظاهر تطبيق الإسلام في الحياة والحكم، عندما حاول فريق من أهل البلدان الإسلامية، من مسلمين وغير مسلمين، تصوير المخرج من التقهقر في الميادين العلمية والتقنية، وكأنه لا يتحقق دون الاستعاضة عن القيم الإنسانية التي رسّخها الإسلام حضاريًا وثقافيًا على مستوى المسلمين، وعلى المستوى البشري بمنظومة مستوردة حافلة بالخلل، أوصلت الغرب في هذه الأثناء إلى أوباء اجتماعية خطيرة.

لم يكن اختفاء الحجاب في الماضي موقفًا سياسيًا من جانب «المسلمات» في المجتمع الإسلامي، بل كان خطوة سياسية من جانب من تخلى عن الإسلام منهجًا للحياة والحكم.

إن كل مجلة من المجلات، وفيلم من الأفلام، ومقال من المقالات، وجمعية من الجمعيات، وحزب من الأحزاب، وغير ذلك من ألوان النشاط التي ظهرت في حقبة السيطرة العلمانية شبه المطلقة على صناعة القرار في البلدان الإسلامية، -هو في واقع جزء من «سياسة» أتبعها الدولة، وأتبعها الاتجاهات المهيمنة على الدولة، وعلى وجه التحديد التيارات العلمانية التي كان بأيديها وحدها صناعة القرار في مختلف الميادين، وفي غالبية بلاد المسلمين عبر عقود عديدة، وهذه «السياسة» هي التي ركزت بالوسائل السياسية، وعبّر القرار السياسي، على دعم كل عمل من شأنه الدفع في اتجاه

صديقًا للورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر، وكان يُدعى مرقص فهمي. وقد دعا هذا الكتاب للقضاء على الحجاب باعتباره حجابًا للعقل. وفي عام ١٨٩٤ صدر كتاب آخر لمناهضة الحجاب كان من تأليف كاتب فرنسي يُدعى الكونت داركور. وقد هاجم فيه المثقفين المصريين؛ لقبولهم الحجاب وصمّتهم عليه، وفي عام ١٨٩٩ ظهر كتاب «تحرير المرأة» لقاظم أمين الذي دعا فيه إلى سفور وجه المرأة، ورفع النقاب عنه؛ لأنه ليس من الإسلام في شيء، وقد حظي الكتاب -رغم الهجوم عليه من عامة المصريين- بتأييد عدد من الزعماء والمفكرين المصريين من بينهم أحمد لطفي السيد والزعيم سعد زغلول، وكان من بين المعارضين للكتاب الزعيم مصطفى كامل الذي وصف كتاب «تحرير المرأة» بأنه مهين لها، وبأنه يروج لأفكار البريطانيين. كما أصدر الاقتصادي المصري طلعت حرب كتابًا للرد على كتاب تحرير المرأة لقاظم أمين كان عنوانه «تربية المرأة والحجاب» قال فيه: إن رفع الحجاب وإباحة السفور كلاهما أمنية تمنها القوى الاستعمارية على مر العصور، وهو ما دفع بقاظم أمين إلى تأليف كتابه «المرأة الجديدة» عام ١٩٠٠ أكد فيه آراءه مستدلًا بأراء عدد من العلماء في الغرب.

ومع اندلاع ثورة عام ١٩١٩ التي شهدت بداية الحركة النسائية السياسية في مصر، عاد الحديث عن رفض الحجاب وحق المرأة في عدم ارتدائه. وكانت البداية في ميناء الإسكندرية عند عودة سعد باشا زغلول من منفاه في جزيرة سيشل حين قامت نور الهدى محمد سلطان الشهيرة بهدى شعراوي بنزع النقاب من على وجهها وتبعها زميلتها سيزا نبراي. وفي عام ١٩٢٤ تأسس الاتحاد النسائي المصري برئاسة هدى شعراوي التي شجعت المصريات على خلع الحجاب، وقد مهّد هذا الطريق لعقد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي عام ١٩٤٤ في القاهرة، وحضرته عدد من النساء العربيات. وظهرت العديد

ظاهرة الهجوم على الحجاب - د/ليلى بيومي

-وعلى مراحل في بلادنا العربية والإسلامية إبان فترة الاستعمار الغربي وما بعدها- محل الشريعة الإسلامية التي تحكم حركة التصورات والأفكار في المجتمع.

ومن هذا المنطلق كان الاستعمار حريصًا على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية.

فقد كان «دانلوب» هو أهم خبير ومستشار بريطاني في مصر، في فترة الاحتلال، من أجل هذا الغرض تحديداً.

ولعلّ المثال الواضح على تركيز الغرب على المناهج في بلاد المسلمين هو ما يوضحه الموقفان الغربيان الآتيان:

الموقف الأول: بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، شنت الإدارة الأمريكية

كان الاستعمار حريصًا على تغيير مناهج التعليم في البلاد التي احتلها؛ وذلك من أجل إعادة صياغة العقول الناشئة على المرجعية الأوروبية المادية وغير الدينية

حملة شرسة ضد مناهج التعليم في السعودية ومصر وباكستان، وغيرها من الدول العربية والإسلامية، ومارست ضغوطًا شديدة على حكومات تلك الدول من أجل تغيير المناهج الدينية، حتى في المعاهد والجامعات العريقة المعروفة بالاعتدال، مثل جامعة الأزهر والجامعة الإسلامية في السعودية وباكستان.

الموقف الثاني: بمجرد سقوط نظام الرئيس العراقي السابق «صدام حسين»، ودخول القوات الأمريكية بغداد، كان أول ما فعلته إدارة الحاكم الأمريكي (بريمر) هو البدء في تغيير مناهج التعليم العراقية؛ من أجل تطويع العقلية العراقية الناشئة وفق الصياغة الأمريكية المرتجاة.

كما مثّلت ظاهرة ابتعاث الطلاب العرب والمسلمين إلى البلاد الأوروبية بعد فترة الاستقلال رافدًا أساسيًا في تغذية وتثبيت العلمانية في العالم العربي والإسلامي، فقد قامت الفكرة العلمانية في

التخلي عن الحجاب، وما يعنيه بالمنظور الإسلامي في حياة المرأة المسلمة، وفي العلاقات الاجتماعية، ودفع المجتمع نساء ورجالًا دفعًا للتحرك في طريق الانحلال والإباحية، والجهر بالموبقات الأخلاقية على اختلاف أنواعها. (١٢)

الذي نقصده من التأثير السياسي على قضية الحجاب يتضح من الأمثلة الآتية:

- في عام ١٩٩٦م كان رئيس الجمهورية التركية (سليمان ديميريل) في زيارة لألمانيا، وفي حفل استقبله تقدمت طفلة من أبناء الجالية التركية تحمل باقة ورد؛ لتهديها لرئيس بلادها، لكن العنجهية

العلمانية تفجّرت ساعتها ومنعوا الطفلة؛ لأنها كانت تضع حجابًا على رأسها.

- وعندما كان (نجم الدين أربكان) رئيسًا للوزراء في منتصف التسعينيات كان يتلقى معاملة سيئة إذا كانت زوجته المحجبة -عجوزًا

تجاوزت الستين عامًا- معه في أي مناسبة عامة، وكانت تُمنع من حضور التجمعات الرسمية بوجود رئيس الجمهورية.

- هناك العديد من الحكايات المأساوية القديمة والجديدة التي تعكس الظلم والإرهاب الفكري الذي تلاقيه النساء في تركيا، بسبب الحجاب، فالعديد من النساء فُصلن من أعمالهن أو حُرمن من الدراسة بسبب الحجاب.

- وما تتعرض له النساء المحجبات في تونس من دخول المدارس والمعاهد التعليمية، بل والمستشفيات يصب في هذا الاتجاه.

ج- البعد الثقافي والفكري للظاهرة:

المورد الذي غدّى ظاهرة الهجوم على الحجاب في عالمنا العربي والإسلامي ليس موردًا مستقلًا خاصًا بذاته، وإنما كان هذا المورد هو العلمانية والإطار العلماني العام الذي تم إحلاله تدريجيًا

العالم الإسلامي

صفات السوء، وكان رواد هذه المدرسة: هدى شعراوي، وسيزا نبرواي، ودريّة شفيق، وأمينة السعيد وما تبعهن.

د- تأثر الواقع الاجتماعي العربي بالأبعاد السابقة: ورغم الضغط السياسي العلماني المتواصل ضد الحجاب، والذي يوظف ما في أيدي العلمانيين من مراكز سياسية، ومن مؤسسات ثقافية وفكرية، ومن وسائل إعلامية، ظل الحجاب - والنقاب - منتشرًا

بلادنا على أيدي هؤلاء العائدين من الغرب المنهزمين أمام ثقافته.

وهكذا وصلنا إلى بداية القرن التاسع عشر وظهور ما أطلق عليهم الفكر العلماني العربي «رواد التنوير» أمثال قاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، وطه حسين، بالإضافة إلى مدرسة الشام التي مثلها علمانيون مثل: فرح أنطون، وشبلي شميل، وجورجي زيدان... إلخ.



في مجتمعات المسلمين حتى العشرينيات من القرن العشرين، عندما بدأت حركة السفور تظهر في تركيا الكمالية، ثم في مصر -على اختلاف درجة الحدة - قبل أن تنتشر إلى بلدان عديدة، ومع ذلك فقد ظلت مجتمعات إسلامية ملتزمة بالحجاب والنقاب على الطريقة القديمة حتى زمن عودة الحجاب.

ويشهد ارتداء الحجاب انتشارًا واسعًا، يكاد يشمل غالبية الفتيات في البلاد العربية والإسلامية، وبعض المسلمين في الغرب يصل حدًا في بعض الجامعات

وكانت الرسالة الأساسية لهؤلاء هي الطعن في الإسلام والثقافة الإسلامية، ووصفها بالتخلف وعدم القدرة على بعث العرب والمسلمين من تخلفهم ورقادهم لدخول واقتحام آفاق النهضة والتنمية والتطور، والادعاء بأن الحل الوحيد أمامنا هو الاعتراف بالثقافة الغربية وجعلها هي المرجعية.

وعلى يد هؤلاء الرواد العلمانيين بدأت الحركة النسائية العربية العلمانية، التي جعلت معركتها الأساسية هي الهجوم على الحجاب، ووصفه بكل

وما يحدث في مصر يحدث في العديد من الدول العربية، بفعل انتشار الصحوة الإسلامية، وظهور وسائل إعلام تنشر الثقافة الإسلامية، وتهتم بالقضايا الإسلامية، وتدعم بالتالي الحجاب.

ثالثاً: الحجاب قضية رمزية تختزل غيرها من القضايا:

يعتبر البعض الحجاب رمزاً سياسياً توظفه الجماعات الإسلامية في سعيها للوصول إلى السلطة، وتؤكد الطبقة السياسية في أوروبا على كونه رمزاً دينياً يتضمن تعدياً على العلمانية، كما يحسبه بعض الأمريكيين عنواناً لإرهاب مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

لكننا نعتقد أن الادعاء بأن اللباس الشرعي هو رمز سياسي هو تحميل له بما لا يحتمل، والقول بأن الحجاب رمز سياسي إنما هو قراءة المخالف للحجاب، وتوظيف المخالف لهذا اللباس الشرعي لاتخاذ مواقف عدائية من اللباس الشرعي؛ باعتباره جزءاً من التدين الإسلامي، والتعبير كذلك عن الموقف العنصري من الدين الإسلامي.

ومن ثم يمكن القول بأن اللباس الشرعي هو أولاً: استجابة للفطرة الإنسانية، وثانياً: هو مطلب ديني، أي أن الإنسان يستجيب لمتطلبات الدين من حيث إنه يتأدب مع الله في علاقته بجسده. وهذا مقابل لما هو موجود في المنظومة الغربية من حق العري، وحق المرأة في التصرف في جسدها.

ودعوى أن الحجاب رمز ديني دعوى مرفوضة؛ فالحجاب ليس رمزاً بحال؛ لأن الرمز ما ليس له وظيفة إلا التعبير عن الانتماء الديني لصاحبه، مثل الصليب على صدر المسيحي أو المسيحية، والقلنسوة الصغيرة على رأس اليهودي؛ فلا وظيفة لهما إلا الإعلان عن الهوية.

وهذا بخلاف الحجاب فإن له وظيفة معروفة، هي الستر والحشمة، ولا يخطر ببال من تلبسه من

الإسلامية والعربية أن يكون جميع فتيات الفصل الدراسي أو قاعة المحاضرات ممن يرتدين الحجاب، وأصبح منظرًا مألوفًا وغالبًا على لباس الفتيات في شوارع هذه البلاد ومدنه ومؤسسات العمل فيه. (١٣) والحجاب، على سبيل المثال، جعلته ٨٠٪ من النساء المصريات زياً لهن، كما تقول إحدى إحصائيات مركز المعلومات التابع لمجلس الوزراء. وليس خافياً عن الأنظار أن ظاهرة انتشار الحجاب بين المصريات في السنوات العشرين الأخيرة جعلته القاعدة في الزي لا الاستثناء، خاصة في الأقاليم المصرية التي يصبح فيها الحجاب شيئاً طبيعياً مع بلوغ الفتاة سن الثانية عشرة على أكثر تقدير، ومن دون إجبار من الأسرة. ولا يختلف الحال كثيراً في العاصمة المصرية القاهرة؛ خاصة في الأحياء الشعبية التي تزيد فيها نسبة الحجاب؛ وذلك لأسباب عدة من بينها ارتباط الحجاب بالعادات الاجتماعية، وما يتردد عن ضرورة ستر الفتاة لجسدها.

وفي الجامعات المصرية الآن تستطيع أن ترصد انتشار ظاهرة المحجبات في مدرجاتها التي يتلقى بها الطلاب دروسهم، فالرؤوس التي يغطيها الحجاب باتت أكثر من نظيرتها غير المحجبة إلى الحد الذي يدفع ببعض الطلاب إلى القول: إن الفتاة غير المحجبة غالباً ما تكون مسيحية وليست مسلمة، وأن القاعدة العامة باتت للحجاب في الجامعات. (١٤)

وقد انعكست ظاهرة الحجاب في الشارع المصري، حتى وصلت إلى شواطئ الاصطياف، فشكل وطبيعة الشواطئ المصرية الآن تغير تماماً عن ذي قبل، فاختفى المايوه، والفتيات والسيدات إما لا ينزلن البحر مطلقاً أو ينزلنه بكامل لباسهن، وأصبحت هناك شواطئ مغلقة لا يدخلها إلا العائلات. ولا يُسمح بوجود الرجال والنساء على الشاطئ في نفس الوقت، ولكن هناك ساعات للرجال وأخرى للنساء، أما الشباب فأصبح ستر العورة وارتداء الشورت الطويل أو البنطلون الكامل منظرًا لا تخطؤه عين. (١٥)

معه المرأة المسلمة المتحجبة في عين الآخر، رافعة لراية التحدي، ما دامت أنها - كما يتخيل البعض - تتناول على القيم الغربية الداعية إلى الحرية والمساواة والديمقراطية، ولا ترضخ لأوامر العديد من المؤسسات الحكومية والتعليمية وغيرها، التي تفرض عليها التخلي عن لباسها الإسلامي، حتى تنال حظها الوافر من الحقوق.

ومن هذه الزاوية تنظر هذه المؤسسات، وكل من يجري مجراها، من إعلاميين وسياسيين ومثقفين وناس عاديين، إلى هذا الرفض من قبل المرأة المسلمة، لكل ما يهدد شكل لباسها باعتباره مقوّمًا هامًا من مقومات هويتها الدينية، على أنه تحدّد للثقافة الغربية، وخروج عن الخط العلماني الذي اختارته المجتمعات الغربية منذ الثلث الأول من القرن المنصرم. (١٨)

ولا يمكن أن نفهم جوهر ما يجري هذه الأيام في القارتين الأوروبية والأمريكية عامة، من حملة إعلامية وسياسية واسعة ضد ارتداء الحجاب على أنه قضية خاصة بقطعة ثوب صغيرة تستر بها النساء والفتيات المسلمات شعور رؤوسهن فحسب، بل إن الأمر يتجاوز مجرد ثوب صغير إلى قضية أكبر من ذلك. وليست تلك القضية سوى الحضور الإسلامي في الغرب. لقد تجاوزت الحملة مسألة الثوب إلى الإسلام دينًا وحضارة وسياسة وتمثيلًا، سواء في بلاده الأصلية، حيث سطع نوره المبين، ثم تمدد من جزيرة العرب إلى الصين شرقًا وفرنسا غربًا، أو في بلاد النصرانية والعلمانية؛ كما هو واقع في هذا الزمان، لا يمكن أن نفهم جوهر الحملات المتتالية الموجات، إلا باستحضار الوجود الإسلامي القديم والحديث في قلب الديار الغربية، وليست قضية الحجاب مجرد قضية سترة رأس تغطي شعر المرأة المسلمة في المدارس والإدارات الفرنسية، بل هي الشجرة التي تُخفي الغابة الكبرى. وما هذه الغابة إلا التدافع المتعدد الساحات والواجهات بين الإسلام

المسلمات أنها تعلن عن نفسها وعن دينها «فحسب»، ولكنها تطيع أمر ربها. (١٦)

وللأسف فإن السائد الآن في الغرب، وفي الأوساط العلمانية العربية أن الحجاب رمز للاضطهاد الذي يمارسه الإسلام ضد المرأة، وهذه الصورة النمطية ما زالت سائدة في المجتمع الأوروبي كله.

وتتعجب كاتبة ألمانية قائلته: إنه لمن التناقض بمكان أن نسعى لتحرير المسلمات، وهن لا يرغبن في ذلك، إذا بإحداهن تذهب وتطالب المحكمة بالسماح لها بلبس الحجاب، أليس هذا الحجاب هو رمز اضطهاد المرأة على وجه الإطلاق؟

وتضيف الكاتبة: إن الحجاب له قصة طويلة، فقد صار بعد تولي الخميني الحكم في إيران عام ١٩٧٩، قضية الساعة أكثر من كونه غطاء على الرأس.

ولن نربط طبيعة الحجاب بدرجة الحرية التي تتمتع بها المرتديات له، فالحجاب لا يعتبر فقط رمزًا لاضطهاد الإسلام للمرأة المسلمة، بل أيضًا مثالاً على الكبت الذي يمارسه الإسلام بشكل عام. (١٧)

رابعًا: الحجاب عامل مؤثر في علاقات الجاليات المسلمة في الغرب بمجتمعاتها:

ارتداء الحجاب في حياة النساء المسلمات في الغرب يشكل تحديًا كبيرًا؛ حيث النظرة أو الموقف من المرأة المتحجبة في شوارع أمستردام ليست هي نفسها في شوارع القاهرة أو بيروت، أو غيرهما من العواصم والمدن الإسلامية، فإذا كان الحجاب داخل العالم العربي والإسلامي يُشكّل واجبًا دينيًا مفروضًا على المرأة بالنص؛ لذلك فهي مأمورة بارتدائه، كي تحجب عن عيون الرجال أنوثتها، التي قد تسبّب الفتنة، التي تترتب عليها نتائج غير مقبولة دينيًا وأخلاقيًا وثقافيًا، فإن الحجاب في العالم الغربي لا يقف عند هذا الجانب، بل يتجاوز إلى جوانب أخرى؛ حيث يصبح طرفًا مهمًا في المعركة الجديدة الدائرة رحاها بين الإسلام والغرب، وتصبح

ظاهرة الهجوم على الحجاب - د/ليلى بيومي

المرأة، وتريد أن تعزلها عن واقعها، وبالتالي فلا يحق للحجاب أن يكون رمزاً للمعركة التحرر والاعتناق من الاستعمار ومن التخلف.

ونحن نؤكد أن الملاحظ تاريخياً أن الحركة الإسلامية هي التي قادت وتقود النضال الوطني وحركة التحرر الوطني في بلادنا، وتفعل كل شيء، فهي تقدم الثقافة، وتصيغ الهوية والوجدان، وتعبئ الشارع، ولكنها تعجز في النهاية عن قطف الثمرة، حيث يقطفها

إن العرب الذي يتغنى بالحريات والتعدد العرقي والثقافي، شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب

العلمانيون بمساعدة الغرب الصليبي. (٢١)

لقد شهدت الساحة الفلسطينية على سبيل المثال سيطرة للفكر القومي واليساري والوطني على حركتها الوطنية المعاصرة، حتى بدء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧)، حيث تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية التي قادت مسيرة التحرر الوطني من فصائل: قومية، ويسارية، ووطنية علمانية، إلا أن هذه الساحة سرعان ما شهدت عودة الصحوة الإسلامية على المستوى السياسي والحزبي في منتصف السبعينيات وخلال الثمانينيات، على غرار ما حدث في الأردن ومصر والجزائر وتونس وسوريا والسودان. (٢٢)

ومنذ أن عرف النضال الفلسطيني مشاركة الفصائل الفلسطينية فيه، أخذ دفعة قوية في مستوى التصدي للمشروع الصهيوني، ورأينا عطاءً بلا حدود من المرأة الفلسطينية التي ترتدي الحجاب؛ لدرجة أن الكثيرات من نساء فلسطين المحجبات ضحين بأنفسهن ونفذن عمليات استشهادية أدهشت العالم.

فكيف سيتم تقييم هذه التجارب من النضال الوطني من جانب الحركة النسائية العربية العلمانية، أليس هذا منتهى النضال؟

وعلى صعيد الحركة النسائية المصرية، فقد كانت مشاركة المرأة المصرية حاضرة في ثورة ١٩١٩،

والغرب: تدافع ثقافي سلمي أحياناً، وعسكري حربي أحياناً أخرى. (١٩)

إن الغرب الذي يتغنى بالحريات والتعدد العرقي والثقافي، شديد الحساسية وغير متسامح في شأن الحجاب، وهو يصر على أن تكون المحجبات -

كما المسلمون المقيمون في دياره عامة - منصاعات تماماً لقيمه وثقافته وإطارة النفسي والاجتماعي. وعلى سبيل المثال فإن فرنسا تتوقع من المهاجرين إليها أن يتبنوا أسلوب

الحياة الفرنسي، وليس أن تبني فرنسا عادات المهاجرين وثقافتهم، أي أن قليلين فقط في فرنسا هم الذين يعتقدون أن التعددية الثقافية تمثل حلاً لمسألة الحجاب.

وبدلاً من ذلك يصر السياسيون الفرنسيون على أن الولاء للدولة الفرنسية ومبادئها العلمانية يأتي أولاً قبل أي شعائر دينية. ويعتقد أغلب النواب الفرنسيين أن الحل الوحيد يكمن في فرض قانون يلزم بذلك. (٢٠)

خامساً: الحركات النسوية العربية ومعاداة الحجاب:

تسود حياتنا الثقافية منذ فترة ليست بالقصيرة، وبتأثير وتوجيه أجهزة الإعلام العربية الرسمية ذات الصبغة العلمانية، ومعها غالبية مؤسسات الثقافة العربية الرسمية أيضاً ذات الاتجاه المعادي للإسلام، فكرة تؤكد أن حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار في العالم العربي إنما هي حركات علمانية، لم يكن التوجه الإسلامي حاضراً فيها، وبالتالي لم يكن للمرأة المسلمة التي ترتدي الحجاب الإسلامي أي دور في هذه الحركات.

وأصبح هناك تأفف في الجناح النسائي لحركات التحرر العربية من الحجاب، ومن النساء اللاتي يرتدين الحجاب، على أرضية أنهن رجعيات متخلفات جامدات، يعتنقن ثقافة متخلفة تحتقر

ازدراؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة، فيرى أن تعدد الزوجات، ونصيب المرأة من الميراث، وعِدَّة المَطْلَقَة أمورٌ تكشف عن انحياز الإسلام للرجل، وانتقاصه من حقوق المرأة، وفي أحسن الأحوال فإنها أمور لم تعد تتماشى مع عصرنا الحالي.

إن أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو ازدراؤه لكل ما هو ثابت ومتفق عليه بحكم الشريعة

وفي الوقت الذي يحمل فيه الخطاب النسوي على الحجاب باعتباره رمزاً للستر والعفاف نجده لا يألو جهداً في الترويج لأطروحات المنظمات النسوية الغربية المتعلقة بالحرية الجنسية للمرأة، ومشروعية ممارستها للجنس بدون زواج، إلى غير ذلك من الأفكار الخارجة عن السياق الديني والقيمي والحلقي لعالمنا العربي والإسلامي. وما الحرب التي خاضتها النسويات المصريات العلمانيات مؤخراً حول ضرورة تدريس الثقافة الجنسية بالمدارس إلا خطوة أولى في سبيل تعميم مثل هذه الأفكار. (٢٣)

سادساً: أسباب رفض العلمانيين العرب للحجاب:

إن هؤلاء الذين يرون في انتشار الحجاب ردةً وتخلفاً ورجعية يؤمنون بأن سفور النساء المسلمات وتقليدهن في الزي لغيرهن من نساء المجتمعات الأخرى هو اختراق مهم ونجاح، أي أن العلمانيين يرون في انتشار ظاهرة الحجاب هزيمة لهم، وإفشالاً لمخطط استهدافهم للمرأة المسلمة الذي حرصوا عليه من البداية.

ومن أساليب الرفض العلماني للحجاب، وصف العلمانيين للحجاب بأنه إهانة للمرأة وحجاب للعقل، ونسوا أننا أمة فيها عشرات الملايين من الرجال (غير المحجبين)، ومع ذلك فهم معدومو القيمة بين الأمم، فلا الحجاب إهانة للمرأة، ولا عدم ارتداء الحجاب دليل على أن هناك حرية وعقل.

ولا يخل الأمر من اللمز والغمز العلماني بأن ارتداء الحجاب لا يعني شهادة لمن ترتديه بالعفة

وكانت كل النساء ترتدين الحجاب، ولم يكن هناك متبرجة واحدة. فكيف بعد ذلك تدعي الحركة النسائية العربية أنه لم تكن هناك مشاركة نسائية إسلامية في حركة التحرر المصرية؟ ثم هل يستطيع أحد أن ينكر الدور الذي لعبته المناضلة زينب

الغزالي في الحركة الوطنية المصرية، سواء في جمعيتها الخاصة قبل انضمامها للإخوان المسلمين، أو في قسم الأخوات المسلمات بعد التقائها بالشيخ حسن البنا وانضمامها للإخوان المسلمين؟

ثم ماذا تقول الحركة النسوية العربية العلمانية عن الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي والإسلامي؛ ابتداءً من النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، والتي كانت المرأة والفتاة حاضرتين فيها بكثافة عمت المدارس والجامعات والمصالح الحكومية والشوارع والمنازل، ولدرجة أنها انتقلت إلى مذيعات التلفزيون، بل وإلى أعداد كبيرة من الفنانات؟

ماذا تقول هذه الحركة النسائية العلمانية في الفعاليات التي قادتها واشتركت فيها المحجبات؛ مطالبات بالتصدي للهجمة الأمريكية الصهيونية على بلادنا، والتصدي لمخططات تجزئة الأمة وتفتيتها، ورفض ما يحدث من مؤامرات في البلاد العربية والإسلامية؟ وماذا تقول هذه الحركة في الإسهامات الثقافية والإعلامية للمرأة داخل تيارات الصحوة الإسلامية؟ أليس ذلك كله نضالاً وطنياً؟ أم أن النضال الوطني في نظرهن هو التبرج ومهاجمة الإسلام، والانبطاح أمام إفرازات الإعلام الغربي والثقافة الغربية والفكر الغربي عموماً؟ مَنْ إذاً أحقُّ بزيادة النضال الوطني النسائي العربي: المرأة المسلمة التي ترتدي الحجاب، والتي تتصدى لموجة العولمة الغربية؟ أم المرأة العربية المتبرجة والمنبطحة أمام هذه الموجة؟

إن أبرز ملامح الخطاب النسوي المعاصر هو

والشرف، وأن ليس كل السفارات بالسوء الذي يُراد الإيحاء به. والحق أن الحجاب ليس من قبيل الشك بالمرأة، ولكنه حماية لها ممن يظنون أن كل امرأة سافرة سهلة المنال، فهو إذن حماية للمرأة في المقام الأول، وفي الغالب فإن الذكور المنحرفين تستهويهم النساء السفارات لا المحجبات، أو يتشجعون بسبب المساحة المكشوفة لهم. وإذا كان هذا هو ما لدينا من رد عقلي على حجة عقلية، فإن حكمة المولى سبحانه وتعالى أعظم، وفيها من جوانب العظمة الكثير مما لا ندرکه، فحسبنا أننا ننفذ أوامر ربنا وتعاليم ديننا. (٢٤)

سابعًا: أسباب رفض الغرب للحجاب:

وبالنسبة للغرب فإن المنظومة العقديّة للإسلام تمثل موضوعًا للحرب الصليبية الجديدة على العالم الإسلامي، فهي منظومة من وجهة النظر الغربية تولد العداء للآخر غير المسلم. إنهم يريدون إلغاء كل ما يتصل بمفاهيم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبراءة من الكفر وأهله؛ أي أن مفهوم الكوكبة والعلومة هو بالأساس مفهوم ثقافي يريد أن يفرض على العالم المفهوم الديني الغربي الأمريكي فقط. وليس شرطًا أن يفرض عليك مفاهيم صليبية كما يفعل المنصّرون، وإنما يفكك ما تمسك أنت به، وهذه معركة الكبرى وأرض المواجهة الحقيقية والمدافعة بين الحق والباطل.

إن الأفكار الأمريكية مثلًا عن الإصلاح الديمقراطي، وعن حرية المرأة، وعن تغيير مناهج التعليم، وعن الخطاب الديني الجديد، وعن الحجاب والاختلاط ونظم الأسرة والأحوال الشخصية؛ جميعها ذات طابع مدني تحمل روح الأفكار الأمريكية إلى العالم، أو رسالة أمريكا إلى العالم، وبناءً على ذلك؛ فإن أمريكا تريد تفكيك ما لديك لتتبع أنت ما عندها.

ونحن نتساءل: ما الذي يفيد أمريكا في أن تبقى المرأة محجبة، أو أن تمارس تقدمها وتطورها وهي غير مختلطة بالرجال؟ وما الذي يجعل أمريكا تصر على إعادة بناء قوانين الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي؟ لماذا تتدخل السياسة الأمريكية في العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة لدى المسلمين فقط؟ لماذا تمثل المرأة المسلمة محورًا للاهتمام الأمريكي؟

الإجابة على هذه الأسئلة تكشف عن حقيقة يتبناها الفكر الغربي، وهي أنه لكي تغير أمة أو شعبًا فإن مفتاح التغيير هو المرأة. (٢٥)

وإذا كانت النساء المسلمات راضيات بلباسهن الذي لا يجعلهن في زُمرَة الرجيعات والمتخلفات فما الذي يضير التقدميين في ذلك؟! وإذا كنَّ يلبسن الحجاب ولا يتأقنن منه فما الذي حشر التقدميين في قضية فردية شخصية كهذه؟! ومن العجب أن تسمع منهم الدعوة إلى الحرية الشخصية وتقديسها، فلا يجوز أن يمسها أحد، ثم هم يتدخلون في حرية غيرهم في ارتداء ما شاؤوا من الثياب.

ثم إنَّ التخلف له أسبابه، والتقدم له أسبابه، وإقحام شريعة الستر والأخلاق في هذا الأمر خدعة مكشوفة، لا تنطلي إلا على متخلف عن مستوى الفكر والنظر، ومنذ متى كان التقدّم والحضارة متعلقين بلباس الإنسان؟! إنَّ الحضارة والتقدم والتطور كان نتيجة أبحاث توصل إليها الإنسان بعقله وإعمال فكره، ولم تكن بثوبه ومظهره.

حجج العلمانيين في هذا الصدد كثيرة، ولكنها واهية وغير منطقية، وغير عقلانية، ويمكن تفنيدها بسهولة، وهي حجج تنطلق أساسًا من قاعدة الفكر

(٢٤) ناصر يحيى، دموع الحجاب، موقع الصحوة نت،
٢٠٠٦/١١/٢٣.

(٢٥) كمال السعيد حبيب، المرأة وملامح الحرب الصليبية
الجديدة على عالم الإسلام، مجلة البيان، العدد ١٩٧، المحرم
١٤٢٥هـ - فبراير ومارس ٢٠٠٤م.

الهوامش:

- (١) رويترز - إسلام أون لاين. نت، ١١/١٠/٢٠٠٦م.
- (٢) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٠/٥/٢٠٠٦م.
- (٣) جريدة الصباح التونسية، ٢٧/١٢/٢٠٠٥م.
- (٤) قدس برس، إسلام أون لاين. نت، ٣١/٥/٢٠٠٣م.
- (٥) المصري اليوم، ١٥/١١/٢٠٠٦م.
- (٦) قناة المحور، ١٨/١١/٢٠٠٦م.
- (٧) موقع بي بي سي باللغة العربية، ٦/١٢/٢٠٠٣م.
- (٨) موقع بي بي سي باللغة العربية، ٣١/٥/٢٠٠٦م.
- (٩) موقع بي بي سي باللغة العربية، ١٢/١١/٢٠٠٥م.
- (١٠) موقع «لها أون لاين»، ٧/٢/٢٠٠٤م.
- (١١) نشوى الحوفي، القاهرة والحجاب، جريدة الشرق الأوسط،
٢٤/١١/٢٠٠٦م.
- (١٢) نبيل شبيب، تسييس قضية الحجاب، الجزيرة نت،
١٧/٥/٢٠٠٦م.
- (١٣) د/ محمد أحمد جميعان، المنظمات الصهيونية تحذر من انتشار
الحجاب، مدونات مكتوب، ٢١/١١/٢٠٠٦م.
- (١٤) نشوى الحوفي، القاهرة والحجاب، جريدة الشرق الأوسط،
٢٤/١١/٢٠٠٦م.
- (١٥) السيد أبو داود، الاصطيف على الشواطئ المصرية تغير
شكلاً وموضوعاً، موقع الإسلام اليوم، ٣/٧/٢٠٠٢م.
- (١٦) د/ يوسف القرضاوي، الحجاب هل هو رمز ديني؟،
إسلام أون لاين، ٢٧/١٢/٢٠٠٣م.
- (١٧) سايينة شيفر أستاذة التربية الإعلامية في جامعة نورنبرغ،
الحجاب وإمكانيات التربية المناهضة للعنصرية، موقع
دويتشه فيله باللغة العربية، ترجمة عبد اللطيف شعيب،
١٢/٣/٢٠٠٥م.
- (١٨) التجاني بولعوالي، معركة الحجاب أو حصان طروادة
الأخير، صحيفة كتابات، ١١/٧/٢٠٠٥م.
- (١٩) الحسن سرات، قضية الحجاب في فرنسا أو معركة بواتيه
الثانية، موقع العصر، ١٣/١٢/٢٠٠٣م.
- (٢٠) بكارولين وايات، الخلاف على الحجاب يخفي قضايا
أعمق، موقع بي بي سي باللغة العربية، ١٢/١٢/٢٠٠٣م.
- (٢١) السيد أبو داود، مستقبل التغيير على الأرضية غير
الإسلامية، موقع مفكرة الإسلام، ٢٨ من ذي القعدة
١٤٢٧هـ - ١٨/١٢/٢٠٠٦م.
- (٢٢) د/ خالد محمد صافي، التياران الوطني والإسلامي بين
الاتفاق والخلاف... الحالة الفلسطينية أنموذجاً، شبكة
الإنترنت للإعلام العربي، ٨/١٢/٢٠٠٦م.
- (٢٣) فاطمة أحمد حافظ، الخطاب النسوي المعاصر.. صورة من
قريب، الشبكة الإسلامية، ١٩/٨/٢٠٠٤م.

معلومات إضافية

ملف الحجاب في الغرب:

* مضى ما يقرب من سبعة عشر عامًا على بدء معركة الحجاب في فرنسا؛ إذ إنه في العام الدراسي ١٩٨٩/١٩٩٠ ولأول مرة مُنعت فتيات مسلمات مغاربيات يرتدين الحجاب من دخول مدرستهن الثانوية؛ بدعوى خرقهن قانون العلمانية الذي لا يسمح بإدخال الرموز الدينية إلى المدرسة العمومية، وأرغمن على ترك الدراسة؛ رغم أنهن مواطنات فرنسيات وُلدن في فرنسا ويعشن فيها.

وفي يوم الأربعاء الموافق ١٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٣ دعا الرئيس الفرنسي جاك شيراك البرلمان في بلاده إلى اعتماد قانون يقضي بحظر العلامات الدينية الظاهرة في المدارس العامة، بحيث يكون جاهزاً للتطبيق مع بداية الموسم الدراسي المقبل، وذلك باسم العلمانية التي أكد على أنها مبدأ «غير قابل للتفاوض» ولا «لإعادة الصياغة»، ومن بين هذه المظاهر الحجاب.

وتعيش في فرنسا أكبر جالية إسلامية في الاتحاد الأوروبي، ويبلغ تعدادها حوالي خمسة ملايين نسمة.

(BBC Arabic.com)

* بلغ عدد المشاكل التي أُثيرت بسبب الحجاب في فرنسا نحو ٤٠٠ مشكلة، حسب إحصاء أجرته مجلة «لوفيل أوبزرفاتور» الفرنسية، نُشر بتاريخ ٢١/٥/٢٠٠٣.

وفي محاولة لطيّ ملف الحجاب في فرنسا عيّن الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» الثلاثاء ١/٧/٢٠٠٣ الملحق الإعلامي لرئاسة الجمهورية «برنار ستاسي» رئيساً للجنة «تكون مهمتها مراقبة تطبيق مبادئ العلمانية» في فرنسا، وإعداد توصيات بشأن إمكانية سن قانون يحظر الحجاب في المدارس الفرنسية من عدمه.

الوكالة الفرنسية A.F.B / ١٠ / ٢٠٠٣

* ميرفي كافاكي عضوة في البرلمان التركي، قادت النشاط النسائي للاحتجاج على منع لبس الحجاب في الأماكن الحكومية والبنيات العامة في ١٩٩٧، بقرار من الحكومة التركية، بدلا من أن تفسّر الحجاب في مقابلة لها بأن الحجاب هو حكم الله سبحانه وتعالى قالت: إن قرارها هو تجربة للديمقراطية، «وفي القرن الواحد والعشرين، يجب أن يسمحوا لنا بهذه الحرية»، وإن حقها في حرية ارتداء حجاب الرأس يكفله الدستور والقانون الدولي.

حلة الغرب الشرسة على الحجاب، مجلة الوعي، العدد ٢١٠،
السنة الثامنة عشرة، رجب ١٤٢٥هـ، أغسطس/ آب ٢٠٠٤م.

* في ما يتعلق بالحجاب، أيد ٥٩٪ من الأمريكيين حق المسلمات في وضع الحجاب في الأماكن العامة، فيما انخفضت هذه النسبة إلى ٢٣٪ في بريطانيا، و١٣٪ في فرنسا. من جهة أخرى اعتبر ٧٧٪ من الأمريكيين أن من حق أولادهم ارتداء ملابس ذات طابع ديني، أو وضع رموز دينية في المدرسة، بالمقارنة مع ١٠٪ في فرنسا.

وتقاربت المواقف بين البلدين حول تعليم الديانة في المدارس العامة؛ حيث عارضه ٧٢٪ من الفرنسيين و٥٩٪ من الأمريكيين.

تقرير للمركز الأوروبي عن أحوال المسلمين في الاتحاد الأوروبي،

وهو تحت عنوان «المسلمون في الاتحاد الأوروبي»

واقع في ١١٥ صفحة، جريدة الرأي الكويتية.

بعض التصريحات المهاجمة للحجاب:

* «الحجاب اعتداء على المرأة يصعب على الفرنسيين تقبله»، «لا يمكن أن نقبل بمظاهر دينية لافتة للنظر، مهما تكن الديانة» (الرئيس الفرنسي جاك شيراك ديسمبر ٢٠٠٣).

(BBC Arabic.com)

* «لا أظن أن هناك أكثر تعبيرًا عن اضطهاد المرأة من غطاء الوجه». (لورا بوش).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠)

* «إن الغطاء من الرأس للقدمين، الذي يمنع الهواء، هو أكثر من أداة للتعذيب، إنه مدسّس لنشاط المرأة الجنسي. إنه يحول أي امرأة إلى شيء مدس يدعو للاشمئزاز، ولا يمكن لمسه... إنه كسء يظهر شناعة الإثارة الجنسية، وإنه يتوقع منها العنف والاستبداد...» (بولي توينبي في مقالها «خلف النقاب» في صحيفة الجاردين البريطانية).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠).

* «نحن ذهبنا لأفغانستان لتحرير شعبها؛ لأننا نؤمن بالحرية... اليوم (في أفغانستان) النساء أحرار». (جورج بوش في حديثه السنوي لاتحاد الدولة في عام ٢٠٠٢ بالنسبة لعملية «تحقيق الحرية بعيدة المدى»).

(مجلة الوعي، العدد ٢١٠).

* «إن مصر الليبرالية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين لم تعرف ظاهرة الحجاب إلا «باعتبارها قضية إتيكيت أو آداب وليست عقيدة»، وتعود جذوره إلى مراحل تاريخية قديمة في أكثر من حضارة في قانون حمورابي، وفي فلسفة أرسطو، وفي القانون الروماني، وقد عززت

ظاهرة الهجوم على الحجاب - د/يللى بيومي

اليهودية والمسيحية ذلك، كما جرى على سنتهم الفقهاء المسلمون» (جمال البنا).

(العربية نت).

«إن الحجاب هو امتداد للعصور الجاهلية، وسأستمر في محاربته، وإن الجذور التاريخية للحجاب ترجع إلى الحضارة الآشورية؛ وذلك في ظل ظروف أمنية ومجتمعية معينة، وقد امتد هذا الزي عبر العصور، وورثته الحضارة الإسلامية، والحجاب هو علامة عن وصاية الرجل وتسلطه على المرأة» (إقبال بركة رئيس تحرير مجلة حواء).

(<http://www.muslim.net>)

«الحجاب دخيل، ونسبته بالزي الطائفي، باعتبار أنه يُخرج من ترتديه عن الوثنية، فهو نشاز وغير مأثور، ولا نرضى بالطائفية عندنا».

«إننا نرفض الحجاب الطائفي ولباس «الثورة البيضاء» واللحية غير العادية، التي تنبئ بانتماء معين، فنحن لدينا مقابل ذلك الحجة».

«إننا من الحداثيين، ونرفض كل انغلاق، ومع الرئيس ابن علي تمكنا والحمد لله من إرساء المعادلة الصعبة بين الأصالة والحداثة، وبين الموروث ونتاج التفاعل مع الآخر»

(وزير الشؤون الدينية التونسي أبو بكر الأحزوري)

(<http://www.muslim.net>)

«أكدت صحيفة (كريستيان يالينس مونيتور) الأمريكية أن هذه القيود التي فرضتها بعض الدول العربية والإسلامية قد نشأت من الاعتقاد بأن مطهر الالتزام الديني بشكل عام يُخفي وراءه أغراضاً سياسية يمكن أن تهدد النظام الحاكم».

(مجلة الشرق القطرية)

«إنني شعرت بشيء من عدم الارتياح، وأنا أتحدث «وجهًا لوجه» مع شخص لا يمكنني أن أراه»، «أقلقني فكرة أثر هذا الاتجاه المتعاطف - ولو أنه لا يزال ضيق النطاق - على العلاقات بين أطراف المجتمع» جاك سترو وزير الخارجية البريطاني السابق والنائب الحالي.

(BBC Arabic.com)

«على المسلمات المهاجرات ألا «يختبن» تمامًا وراء حجاب كامل إذا كن يردن الاندماج في المجتمع، وأن يصبحن جزءًا من مستقبل إيطاليا». (رئيس الوزراء الإيطالي رومانو برودي).

(شبكة النيا المعلوماتية)

* أيدت أكثر من ٦٠ شخصية فرنسية بارزة من النساء، بينهن إيزابيل أديجاني ومصممة الأزياء سونيا ريكيل، حملة رعتها مجلة إيل لحظر ما سموه «رمزاً واضحاً لخضوع المرأة».

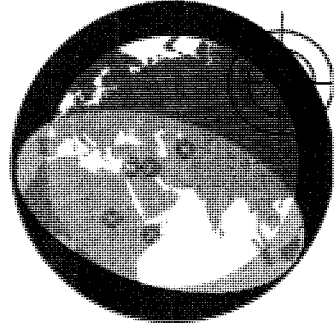
(BBC Arabic.com)

عندما اتخذت فرنسا قرارها بمنع الفتيات المحجبات من دخول المدارس والجامعات فإنها أعطت الشجاعة لبقية الدول الأوروبية؛ بل وبعض الدول العربية في أن تحذو حذوها، ومثال ذلك:

- هولندا التي قررت منع النقاب في الأماكن العامة باعتبار أنه يهدد الأمن.
- بلجيكا التي قررت إحدى مقاطعاتها منع الحجاب في مدارسها.
- إيطاليا التي فضلت العودة لقانون قديم يُتيح لها منع غطاء الرأس لدواعي أمنية.
- ألمانيا التي قررت بعض ولاياتها منع حجاب المعلمات في مدارسها.
- بريطانيا التي أبعدت إحدى مدارسها إحدى مدرساتها المسلمات التي صممت على لبس النقاب أثناء تدريسها للأطفال مما يعيق العملية التعليمية.
- السويد التي رأت وزيرة شؤون الاندماج فيها أن الحجاب يفصل من ترتديه عن محيطه.
- الفاتيكان صرح بعض مسؤوليه بأنه يجب على المسلمين أن يحترموا القوانين التي تمنع ارتداء غطاء الرأس في الدول الغربية.
- سنغافورة بجنوب شرق آسيا أصدرت أيضاً قانوناً يمنع الحجاب في المدارس.
- المغرب حيث أصدرت شركة الطيران الملكية أمراً إدارياً يمنع موظفاتها اللاتي يتعاملن مع الجمهور من ارتداء الحجاب.
- تونس التي كانت من أوائل الدول التي أصدرت قانوناً يمنع الحجاب في المدارس والجامعات والمؤسسات العامة، عادت هذه الأيام لتؤكد على جدتها في تنفيذ هذا القرار، بعد أن وجدت أن الحجاب بدأ يعود للظهور بين التونسيات، وخرج معظم المسؤولين هناك يؤكدون على جدية الدولة في مواجهة هذا الزي، وصرحوا بأنه زي طائفي عنصري دخيل على تونس.

كرة الثلج تندرج (النقاب والحجاب في مصر والعالم)،

منظمة أقباط الولايات المتحدة «<http://www.copts.com/arabic>» .



الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات الأوراق المالية «التجربة العربية»

ممدوح الولي - مصر

نائب مدير تحرير جريدة الأهرام للشؤون الاقتصادية

ملخص البحث:

مع ضخامة رقم الإيرادات البترولية عام ٢٠٠٥ حدثت طفرة في تعاملات البورصات العربية، بزيادة قيمة التعامل لتصل إلى ١,٤٣٥ تريليون دولار مقابل ٥٦٨ مليار دولار، إلا أن الاقتصادات العربية لم تستفد من هذا الرقم الاستفادة المرجوة؛ لأن تعاملات البورصات لا تدخل في الناتج المحلي؛ ولكن تعاملاتها تُدرج تحت تصنيف نقل الملكية، فهي ليست إنتاجاً أو إنفاقاً، كما تحولت البورصة بعدد من الأسواق العربية إلى وسيلة لنزح الأموال من جانب المستثمرين المحليين إلى المستثمرين الأجانب، أو زيادة ثراء الأغنياء على حساب الأقل غنى. كما تشير تلك الطفرات السعرية في عدد من الدول العربية إلى انفصال بورصاتها عن واقع اقتصاداتها.

وخلال عام ٢٠٠٦ - والذي يُعدّ عام الكبوة لمعظم البورصات العربية - فإن الاتجاه الهبوطي للأسعار قد خيّم على غالبية البورصات العربية، مما نتج عنه الكثير من الآثار الاجتماعية السيئة التي كان من أهمها: التدهور المعيشي للآلاف، وتحول بعض محدودي الدخل إلى مفلسين؛ مما يعطل قدرتهم على الإنتاج والمشاركة في الاقتصاد، ويحولهم إلى عبء على التنمية.

وبرزت العديد من المظاهر السلبية بالبورصات العربية خلال السنوات الأخيرة؛ نتيجة محدودية الوعي الاستثماري، وضعف مستوى الإفصاح والشفافية، وانتشار الشائعات؛ حتى أصبحت هي التي تُوجّه السوق في أحيان كثيرة وليست المعلومات.

ورغم الممارسات التي أضرت بصغار المستثمرين، وألحقت كوارث مادية بهم في العديد من الأسواق العربية، يبقى للبورصة دورها الإيجابي الذي يمكن أن تلعبه في الاقتصادات العربية بتوفير السيولة والتمويل متوسط وطويل الأجل، سواء للمشروعات الجديدة أو لزيادة حجم المشروعات القائمة، بما يعنيه ذلك من المساهمة في علاج العجز بالموازن التجارية والخدمية للدول العربية، وتوفير فرص العمل للعاطلين وزيادة القدرات الإنتاجية والتصديرية.

ويتطلب الأمر التركيز على أسواق الإصدار والاستثمار طويل الأجل، والشركات المستقرة في توزيع الأرباح، ووجود أجهزة رقابية قوية تستطيع عقاب الحيتان، أو ذوي الصلة بأصحاب النفوذ.

أفكار ومقتطفات

- بلغ إجمالي تعاملات البورصات العربية عام ٢٠٠٥ نحو ٤٣٥, ١ تريليون دولار، بخلاف التعاملات التي تتم بالأسواق الموازية، والخاصة بتداول الأوراق المالية غير المقيدة بالبورصات. وزاد الرقم إلى أكثر من ٧, ١ تريليون دولار في عام ٢٠٠٦، بخلاف تعاملات الأسواق غير الرسمية.
- تعد البورصة وسيلة ناجحة للاستثمار بالنسبة للأفراد والمؤسسات المالية في ظل نُذرة المجالات الاستثمارية عربيًا، وتركزها في مجالي العقار والأسهم خلال السنوات الأخيرة.
- ارتفع متوسط سعر النفط الخام من ٣, ٢٤ دولار للبرميل عام ٢٠٠٢ إلى ٢, ٢٨ دولار للبرميل في عام ٢٠٠٣، ثم ارتفاه إلى ٣٦ دولارًا للبرميل عام ٢٠٠٤، ثم استمرار صعوده إلى ٦, ٥٠ دولار للبرميل عام ٢٠٠٥.
- مع ضخامة رقم الإيرادات البترولية عام ٢٠٠٥ حدثت طفرة في تعاملات البورصات العربية خلال العام، بزيادة قيمة التعامل لتصل إلى ٤٣٥, ١ تريليون دولار مقابل ٥٦٨ مليار دولار. كما زاد عدد الأسهم المتداولة إلى ٨, ١١٠ مليار سهم مقابل ٥٧ مليار سهم.
- في السوق السعودي زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ١٠٤, ١ تريليون دولار مقابل ٤٧٣ مليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة دبي زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ٣, ١١٠ مليار دولار مقابل ٧, ١٣ مليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة الكويت زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ٣, ٩٧ مليار دولار مقابل ٨, ٥١ مليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة أبوظبي زادت قيمة التعامل إلى ٥, ٢٨ دولار مقابل ٤, ٤ مليار دولار.
- لعوامل محلية وإقليمية لم تستمر معظم تلك البورصات في تحقيق الأرباح للمستثمرين بها. أو حتى ضمان رؤوس أموالهم؛ حيث تحول الاتجاه بمعظم البورصات الخليجية إلى تحقيق خسائر فادحة في عام ٢٠٠٦.
- بورصة فلسطين التي زادت أسعارها بنسبة ٦, ٣٠٦٪. خلال عام ٢٠٠٥ تعيش في بيئة اقتصادية غير مستقرة؛ نتيجة الانتهاكات والاعتداءات الإسرائيلية المستمرة على المدنيين الفلسطينيين، والتعسف تجاه العمالة الفلسطينية داخل «إسرائيل»؛ مما زاد من نسبة البطالة لتصل إلى معدلات مرتفعة بلغت حوالي ٣١٪ عام ٢٠٠٢.
- لعب استثمار الأجانب دورًا في حركة المضاربة بالأسواق، مما ساهم في زيادة قيمة التعامل، لكن انسحابهم التدريجي أثر سلبيًا في حجم السيولة المتدفقة على الأسواق خلال عام ٢٠٠٦.

- يرتبط تراجع معظم بورصات الخليج العربي بما تواجهه من مشاكل تتمثل في: غياب الاستقلال الإداري، وقلة الإصلاحات، وغياب المؤسسات المساندة، مثل الشركات الصانعة للسوق، ومؤسسات الحفظ والإيداع المركزي وشركات التسوية والمقاصة، وشركات الترويج وضمان الاكتتاب.
- إن العمل الخيري قد تأثر نتيجة قيام بعض الجمعيات الخيرية بالاستثمار، وخسارتها لجزء من محافظتها المالية.
- ذكرت إحصاءات سعودية أن خسائر الأسهم دفعت نحو ٣٧ ألف سعودي لمراجعة العيادات النفسية، خلال الشهور التسعة الأولى من عام ٢٠٠٦، مع زيادة حالات الاكتئاب والأمراض النفسية، وفقد الكثيرون الثقة بالآخرين حتى أقرب الناس إليهم.
- خلال عام ٢٠٠٦ بلغت القيمة السوقية للشركات المقيدة بالبورصات العربية الخمس عشرة التي يرصد صندوق النقد العربي أداءها في ١٤ دولة عربية ٨٦١ مليار دولار مقابل ١,٢٩٠ تريليون دولار لنفس القيمة السوقية بنهاية عام ٢٠٠٥، بخسارة ٤٢٩ مليار دولار بنسبة ٣٣٪.
- سواء كثر عدد الشركات المقيدة بالبورصات العربية أو قل؛ فإن غالبية البورصات تعاني من ظاهرة تركيز النشاط في عدد قليل من الشركات. ففي البورصة المصرية صاحبة أكبر عدد من الشركات المقيدة، والبالغ ٥٩٥ شركة، فقد أشارت أرقام تعاملات عام ٢٠٠٦ إلى استحواد عدد قليل من الشركات على نسبة كبيرة من التعاملات.
- هناك مظهر آخر لتركز النشاط في استحواد الأسهم على النصيب الأكبر في كل البورصات العربية، وتدني قيمة تعاملات السندات، أو عدد السندات المتداولة، أو عدد صفقاتها. وهو الوضع المعكوس لما عليه الحال في البورصات الأجنبية.
- جرت العادة أن تكون استثمارات الأجانب في البورصات الناشئة بالدول النامية هي استثمارات قصيرة الأجل، ومن هنا فإنها استثمارات تتحرك ما بين الأسواق؛ سعياً وراء الربح السريع، حتى شبَّههم الخبراء بالعصفور الطائر.
- تعد انهيارات أسواق جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧ نموذجاً لتأثير التعاملات الأجنبية التي تخرج سريعاً من الأسواق؛ لتتسبب في انهيار الأسعار بالأسواق؛ وهو ما تسبَّب أيضاً في انهيار عملات عدد من النور الآسيوية وقتها.
- الأسواق العربية تتميز بقلّة عدد الأسهم نشطة التعامل، وغالبيتها ذات عدد قليل من الشركات المدرجة، ويستطيع مبلغ مائة مليون دولار أن يؤثر في توجيه الأمور مع كثير من الأسهم؛ من خلال ممارسات محترفة لتوجيه السوق إلى الاتجاه الذي يرغبه هؤلاء.

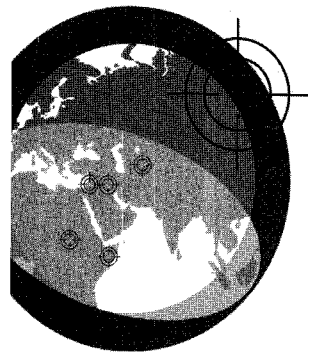
- إذا كان الميزان التجاري الإجمالي العربي موجبًا بسبب قيمة الصادرات البترولية؛ فإن الميزان الخدمي الإجمالي للدول العربية يعاني من عجزٍ مزمّن بلغ عام ٢٠٠٥ نحو ٤٢ مليار دولار، مقابل عجز ٤١,١ مليار دولار عام ٢٠٠٤.

- مع استمرار التضخم في الأسعار وانفصالها الحاد عن واقع الشركات تتكون بالوثة من تلك الأسعار المنتفخة، لا بد أن تنفجر في وقتٍ ما تخلفًا وراءها آلاف الضحايا الذين اشتروا تلك الأسهم بالأسعار المرتفعة.

- يُعد الاستثمار المؤسسي كشكلٍ غالبٍ للتعامل في البورصات الأجنبية هو الأفضل؛ لوجود إمكانية الاستعانة بالمتخصصين لمتابعة أخبار الشركات وتحليل أدائها، ورصد التغيرات بقطاعات النشاط الاقتصادي، ومدى تأثيرها بالتطورات الاقتصادية المحلية والإقليمية والدولية؛ لاتخاذ القرارات الاستثمارية المناسبة.

- يبقى للبورصة دورها الإيجابي الذي يمكن أن تلعبه في الاقتصاديات العربية بتوفير السيولة، والتمويل متوسط وطويل الأجل، سواء للمشروعات الجديدة، أو لزيادة حجم المشروعات القائمة. بما يعنيه ذلك من المساهمة في علاج العجز بالموازن التجارية والخدمية للدول العربية. وتوفير فرص العمل للمعاطلين وزيادة القدرات الإنتاجية والتصديرية سواء للسلع أو الخدمات.

- على الإعلام الاقتصادي أن يكون أكثر رشديًا، وأكثر حرفية وخبرة وتخصصًا، فلا يترك المجال لغير المتخصصين في انتقاء الخبراء الذين تتم الاستعانة بهم إعلاميًا، ولا يكفي مجرد عملهم بالجامعات أو شركات الوساطة، أو بالتوك أو عملهم بالخارج أن يكون ذلك جواز المرور للاستعانة بهم.



الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات الأوراق المالية «التجربة العربية»

ممدوح الولي - مصر

نائب مدير تحرير جريدة الأهرام للشؤون الاقتصادية

٢٠٠٥ عام طفرة البورصات العربية:

إذا كان الناتج المحلي الإجمالي العربي قد بلغ ١,٠٦٦ تريليون دولار عام ٢٠٠٥، فإن ذلك يعني أن قيمة تعاملات البورصة في نفس العام (نحو ٤٣٥,١ تريليون دولار) قد تفوقت على الناتج المحلي. وهو ما يدعو إلى الحسرة والتساؤل عما إذا كان قد تم توجيه هذه المبالغ الضخمة التي توجهت للتداول بالبورصة، أو جانب منها إلى عمليات الاستثمار بقطاعات الاقتصاد الحقيقي، من صناعة، وزراعة، وخدمات؛ لتزيد من معدلات الناتج المحلي بما يقلل الفجوة الغذائية العربية، والخلل بالميزان التجاري والخدمي لكثير من الدول العربية.

وعلى الرغم من ذلك فإن البورصة تعد وسيلة جيدة للتمويل متوسط وطويل الأجل للمشروعات والحكومات، وهو أمر تحتاجه الاقتصادات العربية. وفي ظل معدلات البطالة المرتفعة في غالبية الدول العربية. خاصة مع تركيز التمويل المصرفي عربيًا في التمويل قصير الأجل، والذي لا يتناسب مع إنشاء المشروعات طويلة الأجل؛ حيث يغلب الطابع التجاري على المصارف العربية. ورغم وجود بنوك استثمارية عربية إلا أنها لم تقم بالدور المطلوب منها بشكل جيد. كما تعد البورصة وسيلة ناجحة للاستثمار بالنسبة للأفراد والمؤسسات المالية في ظل ندرة المجالات

مقدمة:

شهدت البورصات العربية انهيارات عنيفة أدت إلى خسائر كبيرة وهزات اقتصادية لأسواق المال الناشئة، ترتب عليها ضياع أموال كثير من المستثمرين.

وبلغ إجمالي تعاملات البورصات العربية عام ٢٠٠٥ نحو ٤٣٥,١ تريليون دولار، بخلاف التعاملات التي تتم بالأسواق الموازية، والخاصة بتداول الأوراق المالية غير المقيدة بالبورصات. وزاد الرقم إلى أكثر من ١,٧ تريليون دولار في عام ٢٠٠٦ بخلاف تعاملات الأسواق غير الرسمية.

ولكن يظل السؤال الرئيسي ماذا استفادت الاقتصادات العربية من هذا الرقم الضخم لقيمة التعامل؟ وتشير الإجابة المفجعة أنها لا تستفيد منها كثيرًا؛ لأن تعاملات البورصات لا تدخل في الناتج المحلي، ولكن تعاملاتها تُدرج تحت تصنيف نقل الملكية، فهي ليست إنتاجًا أو إنفاقًا.

يناقش البحث مخاطر التعاملات غير المدروسة داخل البورصات العربية، وتعريض الاقتصاد الوطني للأخطار؛ في ظل ممارسات يتجاوز أثرها الجانب الاقتصادي إلى النواحي الاجتماعية.

٣، ٩٧ مليار دولار مقابل ٨، ٥١ مليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة أبو ظبي زادت قيمة التعامل إلى ٥، ٢٨ مليار دولار مقابل ٤، ٤ مليار دولار. وفي بورصة قطر زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ٣، ٢٨ مليار دولار مقابل ٣، ٦ مليار دولار عام ٢٠٠٤.

وفي البورصة المصرية زادت قيمة التعامل إلى ٧، ٢٧ مليار دولار مقابل ٨، ٦ مليار دولار. وفي البورصة الأردنية زادت قيمة التعامل إلى ٨، ٢٣ مليار دولار مقابل ٣، ٥ مليار دولار.

- وانعكست الإيرادات البترولية على ارتفاع متوسط نصيب الفرد من الناتج الإجمالي المحلي بدول الخليج عنه في باقي الدول العربية عام ٢٠٠٥ ليصل إلى ٣٤٥، ٥٣ ألف دولار للفرد في قطر. وإلى ٤٥١، ٣٢ ألف دولار بالكويت، و١٧٧، ٢٨ ألف دولار بالإمارات العربية، و٤١٣، ١٨ ألف دولار بالبحرين، و٤١٢، ١٣ ألف دولار بالسعودية، و٤٩٨، ١٢ ألف دولار بسلطنة عمان.

والنتيجة نمو شامل للأسعار بكل البورصات العربية

عام ٢٠٠٥ تصدرته بورصة

فلسطين بنسبة نمو ٦، ٣٠٦٪.

وبنمو ١٤٦٪ للأسعار ببورصة

القاهرة والإسكندرية المصرية.

وبنسبة ١٣١٪ ببورصة دبي،

و١٠٥٪ ببورصة بيروت،

و١٠٣، ٧٪ بسوق المال

السعودي. و٥، ٩٣٪ بالبورصة الأردنية في عمان،

و٢، ٧٠٪ ببورصة الدوحة القطرية، و٦٧٪ ببورصة

أبو ظبي، و٦٠٪ ببورصة الكويت، و٤٤٪ ببورصة

مسقط بسلطنة عمان، و٢٤٪ ببورصة البحرين،

و٢١٪ ببورصة تونس.

إلا أنه لعوامل محلية وإقليمية لم تستمر معظم تلك

البورصات في تحقيق الأرباح للمستثمرين بها. أو

حتى ضمان رؤوس أموالهم؛ حيث تحول الاتجاه

الاستثمارية عربيًا، وتركزها في مجالي العقار والأسهم خلال السنوات الأخيرة. ولقد حقق الكثيرون أرباحًا جيدة من تعاملاتهم بالبورصات العربية خلال السنوات القليلة الماضية وحتى عام ٢٠٠٥.

وتسببت الفوائض البترولية التي تحققت لمواطني دول الخليج العربي خلال السنوات الأخيرة في إتاحة سيولة إضافية لدى هؤلاء؛ مما دعاهم إلى البحث عن مجالات لتوظيفها؛ حيث ارتفع متوسط سعر النفط الخام من ٣، ٢٤ دولار للبرميل عام ٢٠٠٢ إلى ٢، ٢٨ دولار للبرميل في عام ٢٠٠٣، ثم ارتفاعه إلى ٦، ٣٦ دولارًا للبرميل عام ٢٠٠٤، ثم استمرار صعوده إلى ٦، ٥٠ دولار للبرميل عام ٢٠٠٥.

ولقد ارتفعت قيمة صادرات النفط الخام لدول الخليج العربي الست: السعودية والإمارات والكويت وقطر وسلطنة عمان والبحرين من ٩٥، ٩٥٩ مليار دولار عام ٢٠٠٢، إلى ١٥٠، ١٢٢ مليار دولار في عام ٢٠٠٣. واستمر الارتفاع لحصيلة الصادرات إلى ٣٠٨، ١٦٢ مليار دولار عام ٢٠٠٤، وقفز رقم الحصيلة إلى ٦٧٠، ٢٣٨ مليار دولار عام ٢٠٠٥.

ومع ضخامة رقم الإيرادات البترولية عام ٢٠٠٥ فقد حدثت طفرة في تعاملات البورصات العربية خلال العام بزيادة قيمة التعامل لتصل إلى ٤٣٥، ١ تريليون دولار مقابل ٥٦٨ مليار دولار. كما زاد عدد الأسهم

المتداولة إلى ٨، ١١٠ مليار سهم مقابل ٥٧ مليار سهم.

ففي السوق السعودي زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ١٠٤، ١ تريليون دولار مقابل ٤٧٣

بمليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة دبي زادت قيمة

التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى ٣، ١١٠ مليار دولار

مقابل ٧، ١٣ مليار دولار عام ٢٠٠٤. وفي بورصة

الكويت زادت قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٥ إلى

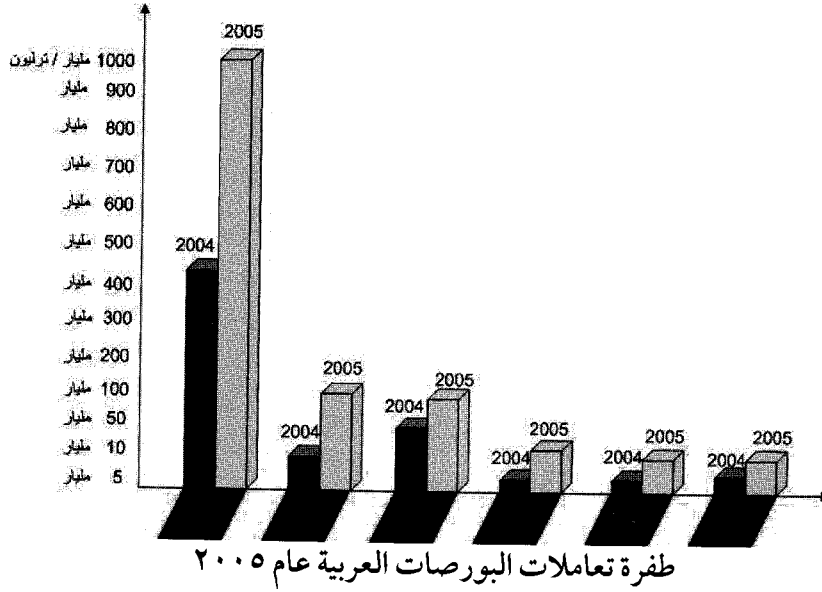
**تعد البورصة وسيلة جيدة
للتحويل متوسط وطويل الأجل
للمشروعات والحكومات، وهو
أمر تحتاجه الاقتصاديات العربية**

بورصات منفصلة عن اقتصاداتها:

وتشير تلك الطفرات السعرية في عدد من الدول العربية إلى انفصال بورصاتها عن واقع اقتصاداتها؛ حيث زادت الأسعار في بورصات فلسطين ومصر ولبنان والأردن بنسب نمو هائلة؛ لا تتفق مع ما تعانيه تلك البلدان من متاعب اقتصادية. وصار السؤال المحير داخل المجتمع المصري كيف يتسق الأمر بوجود بورصة نشطة في ظل اقتصاد يعاني من الركود؟

بمعظم البورصات الخليجية إلى تحقيق خسائر فادحة في عام ٢٠٠٦.

وعلى المستوى الاقتصادي العام فلم تساهم البورصات في نمو الاقتصادات التي تعمل بها في كثير من الدول العربية بشكل ملحوظ. وتحولت في بعضها إلى وسيلة لنزح الأموال من جانب المستثمرين المحليين إلى المستثمرين الأجانب، أو زيادة ثراء الأغنياء على حساب الأقل غنىً بعدد من الأسواق العربية. ولقد تجاوزت خسائر بورصات الخليج



- فبورصة فلسطين التي زادت أسعارها بنسبة ٣٠٦٪ خلال عام ٢٠٠٥ تعيش في بيئة اقتصادية غير مستقرة؛ نتيجة الانتهاكات والاعتداءات الإسرائيلية المستمرة على المدنيين الفلسطينيين والتعسف تجاه العمالة الفلسطينية داخل «إسرائيل»، مما زاد من نسبة البطالة لتصل إلى معدلات مرتفعة بلغت حوالي ٣١٪ عام ٢٠٠٢. وما زال الاقتصاد الفلسطيني يعاني من مشاكل مزمنة؛ أبرزها العجز المزمن بالميزان التجاري، والذي بلغ ١٢٠، ٢ مليار دولار عام ٢٠٠٥. كما تعاني الموازنة العامة الفلسطينية من عجز مزمن بلغت قيمته ٣٦٦ مليون دولار عام ٢٠٠٥. ولقد زاد الدين العام الفلسطيني إلى ١,٦٠٢ مليار دولار.

العربي والأردن خلال عام ٢٠٠٦ نحو خمسمائة مليار دولار. وهو ما يفوق الإيرادات النفطية لتلك البلدان خلال نفس العام مرة ونصف.

وتوزعت تلك الخسائر ما بين أكثر من ٣١٩ مليارًا كخسائر بالسوق السعودي، وأكثر من ٨٩ مليارًا بسوق الإمارات العربية، وأكثر من ٢٧ مليارًا بالسوق القطرية، وأكثر من ٨ مليارات بالسوق الأردنية. وأكثر من ٦ مليارات دولار بالسوق الكويتية. و٤٢٩ مليون دولار بسوق فلسطين.

ويصبح الأمر محتاجًا لترشيد الدور الذي تلعبه البورصات في الاقتصادات العربية حتى تتحول إلى وسيلة للتنمية، وليس إلى أداة لاستنزاف أموال المستثمرين، وإلحاق الضرر المالي والمعنوي بهم.

وعلى الجانب الآخر شهدت خمس بورصات فقط ارتفاعاً في أسعارها، تصدرتها الدار البيضاء بالمغرب بنمو ٣, ٧٠٪، تليها بورصة تونس بنمو ٣, ٦٥٪ وسلطنة عمان بنمو ٣, ١٤٪، ومصر ١٠٪، والبحرين بنمو ١٪ في بعض المؤشرات.

- ولقد تأثرت البورصات الخليجية بتراجع أسعار النفط خلال الربع الأخير من عام ٢٠٠٦؛ مما أدى إلى تأثيرات نفسية على قرارات المستثمرين في بعض الأسواق الخليجية. كما تأثرت على مدار العام بتصاعد أزمة الملف النووي الإيراني في بعض الأوقات. وكذلك التوتر المستمر بالملف الفلسطيني والعراقي واللبناني؛ خاصة وقت بداية العدوان الإسرائيلي على لبنان في يوليو ٢٠٠٦.

وساهمت عمليات التسييل الكبيرة التي قامت بها صناديق استثمار؛ بسبب انسحاب عدد كبير من المستثمرين بها إلى ضغوط كبيرة على عروض البيع وتراجع الأسعار. كما تحركت كمية من سيولة المستثمرين إلى أدوات استثمارية أخرى أكثر أمناً مثل العقارات والسندات، وأحياناً إلى أسواق مالية ناشئة وعالمية يتوافر فيها: عائد معقول، وانخفاض بالمخاطر. ولعب استثمار الأجانب دوراً في حركة المضاربة بالأسواق، مما ساهم في زيادة قيمة التعامل، لكن انسحابهم التدريجي أثر سلباً في حجم السيولة المتدفقة على الأسواق خلال عام ٢٠٠٦.

كما يرتبط تراجع معظم بورصات الخليج العربي بما تواجهه من مشاكل؛ تتمثل في غياب الاستقلال الإداري، وقلة الإصلاحات، وغياب المؤسسات المساندة، مثل الشركات الصانعة للسوق، ومؤسسات الحفظ والإيداع المركزي، وشركات التسوية والمقاصة، وشركات الترويج، وضمن الاكتتاب. إلى جانب صغر تلك الأسواق نسبياً، وضعف الإفصاح وتدقق المعلومات بها، وعدم افتتاحها على الخارج. وضعف الأجهزة الرقابية مما يجعل الأسواق في حاجة إلى سنوات طويلة كي تصبح أسواقاً ناضجة بحسب المعايير العالمية.

- وبورصة القاهرة التي زادت أسعار أسهمها بنسبة ١٤٦٪ خلال عام ٢٠٠٥ كانت منفصلة عن واقع اقتصادها الذي مازال يعاني من عجز مزمن بالميزان التجاري بلغ ٧, ٧ مليار دولار بنفس العام. كما استمرت مشكلة العجز بالموازنة العامة ليصل إلى ٣, ٨ مليار دولار بنفس العام، وزيادة الدين العام المحلي والأجنبي ومعدلات البطالة المرتفعة وارتفاع نسبة الفقر.

- وبورصة بيروت التي زادت أسعار أسهمها بنسبة ١٠٥٪ خلال عام ٢٠٠٥ كانت مثلاً صارخاً لانفصام البورصات العربية عن واقع اقتصاداتها؛ حيث شهد نفس العام سلسلة من الاغتيالات السياسية على مدار العام، كان أبرزها اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء الأسبق في فبراير، والذي واكبه اهتزاز الثقة بالاقتصاد، وخروج جانب من الأموال خارج البلاد. إلى جنب استمرار نفس المشاكل المزمنة للاقتصاد اللبناني، وأبرزها العجز المزمن بالميزان التجاري ليصل إلى ١, ٦ مليار دولار بنفس العام. وارتفاع الدين العام الداخلي إلى ١٩, ٣ مليار دولار تمثل ٨٧, ٧٪ من الناتج الإجمالي المحلي، إلى جانب الدين الخارجي الذي بلغ ٢, ١٩ مليار تمثل نسبة ٨٧٪ من الناتج المحلي.

٢٠٠٦ عام كبوة غالبية البورصات:

وإذا كانت غالبية البورصات العربية، مثل دبي والدوحة والبحرين، قد بدأت مرحلة تصحيح أسعارها منذ أواخر عام ٢٠٠٥، ثم لحقتها باقي البورصات مثل الكويت والسعودية ومصر بالتصحيح لأسعارها منذ فبراير ٢٠٠٦. فإن الاتجاه الهبوطي للأسعار قد خيم على غالبية البورصات العربية خلال عام ٢٠٠٦ ليعد عام الكبوة للعديد منها. وبنهاية عام ٢٠٠٦ بلغت نسبة التراجع للأسعار خلال عام ٢٠٠٦ نحو ٣, ٥٣٪ بالسوق السعودي، و٤, ٤٦٪ ببورصة فلسطين، و٤, ٤٤٪ ببورصة دبي، و٩, ٤٢٪ ببورصة أبوظبي، و٧, ٣٢٪ ببورصة قطر، و١٢, ١٪ ببورصة الكويت.

الأثار الاجتماعية لتراجع البورصات

عام ٢٠٠٦:

تسببت الخسائر في التدهور المعيشي للآلاف، وتحول بعض محدودي الدخل إلى مفلسين؛ مما يعطل قدرتهم على الإنتاج، والمشاركة في الاقتصاد، ويحولهم إلى عبء على التنمية بعد أن كانوا من أدواتها. وأشارت دراسات اجتماعية إلى حدوث تأثير أسري بدرجات متفاوتة لكل الخاسرين بالبورصة. وحالات طلاق بعضها بسبب خسائر الزوجات اللاتي دخلن السوق بأموال كبيرة فقدن معظمها بدون استشارة الزوج،

إلى جانب حالات التهديد المستمر بالطلاق. أو بسبب خسائر الأزواج بحيث لم يعودوا قادرين على توفير نفس المستوى المعيشي لزوجاتهم. كما فقدت بعض الزوجات المجوهرات التي رهنتها بالبنوك للحصول على قروض لم يستطعن سدادها.

وأصبح المئات مدينين للبنوك بمبالغ دخلوا بها مجال الاستثمار بالبورصة، ولم يستطيعوا تعويضها؛ نتيجة خسارتهم، أو أصبح هؤلاء مطالبين بسداد أقساط الديون رغم خسارتهم بالبورصة. كما دخل البعض السجن؛ نتيجة تعثرهم عن سداد قروضهم. وامتد الأثر إلى سوق الاستهلاك كما أثر على مستوى الادخار بالمجتمع وزيادة الديون. بل إن العمل الخيري قد تأثر نتيجة قيام بعض الجمعيات الخيرية بالاستثمار وخسارتها لجزء من محافظها المالية.

وذكرت إحصاءات سعودية أن خسائر الأسهم دفعت نحو ٣٧ ألف سعودي لمراجعة العيادات النفسية خلال الشهور التسعة الأولى من عام ٢٠٠٦، مع زيادة حالات الاكتئاب والأمراض النفسية، وفقد الكثيرون الثقة بالآخرين حتى أقرب الناس إليهم.

تعددت المظاهر السلبية للبورصات العربية خلال السنوات الأخيرة؛ نتيجة محدودية الوعي الاستثماري، وضعف مستوى الإفصاح والشفافية، وانتشار الشائعات

وتؤدي الضغوط النفسية إلى ارتفاع معدل الإصابة بأمراض القلب، والذبحة الصدرية، وارتفاع ضغط الدم والسكر وضيق التنفس.

وفى مصر -ومع الصدمات التي تعرض لها المتعاملون بالبورصة- تشكل فريق من ٦٥ متطوعاً لتقديم المساندة النفسية لضحايا البورصة من خلال البريد الإلكتروني، إلى جانب عيادات الأطباء النفسيين من أعضاء الفريق. ومن ناحية أخرى تسبب تدهور الأسعار بالبورصات إلى حدوث تظاهرات غير مسبوقه من جانب المستثمرين في بورصات مصر والكويت والأردن.

صعود معظم البورصات العالمية

عام ٢٠٠٦:

والملاحظ أن الاتجاهات السعرية لمعظم البورصات العربية لم تتوافق مع الاتجاهات السعرية بالبورصات العالمية خلال عام ٢٠٠٦، والتي حققت مؤشرات أسعارها ارتفاعاً خلال العام، بلغت نسبته لمؤشر هانج سينج ٥, ٣٤٪، ومؤشر ستريت تايمز بنمو ٣, ٢٦٪، ومؤشر داكس في ألمانيا ٣, ٢٢٪، ومؤشر كاك ٤٠ في فرنسا بنمو ٤, ١٧٪، ومؤشر داو جونز في أمريكا ٧, ١٦٪، والسويسري بنمو ١, ١٦٪.

- ورغم التراجع السعودي الذي شهدته غالبية البورصات العربية فقد شهدت قيمة تعاملاتها ارتفاعاً ملحوظاً خلال العام ٢٠٠٦ بالمقارنة لعام ٢٠٠٥؛ بسبب تفوق نمط المضاربة في التعاملات بتكرار البيع والشراء لجني أرباح سريعة وقليلة.

- وخلال عام ٢٠٠٦ بلغت القيمة السوقية للشركات المقيدة بالبورصات العربية الخمس عشرة، التي يرصد صندوق النقد العربي أداءها في ١٤ دولة عربية ٨٦١

عنها بسهولة. فمن تعود على الربح السريع لن يقبل أن يبذل مجهودًا من أجل الحصول على العائد، أو أن ينتظر لفترة طويلة حتى يتحقق العائد. وهو الأمر المعتاد في الاقتصاد العيني، سواء في الصناعة أو الزراعة، والنتيجة عزوف هؤلاء عن ممارسة الأنشطة الاقتصادية العادية وتفضيل الربح السريع.

والنتيجة الطبيعية أنه عندما تصاب البورصة بالركود أو تحدث بها مشكلة تعطل حصول المضاربين على ما اعتادوا عليه من أرباح سريعة بالبورصة؛ فإنهم يتحركون إلى أسواق أخرى لتحقيق أغراضهم التي تعودوا عليها كسوق العقار، أو الأراضي أو العملات الأجنبية.

- وتأتي الخطورة هنا أنهم يخلقون طلبًا غير حقيقي بتلك الأسواق، مما يرفع الأسعار بها إلى الارتفاع بشكل كبير يحققون من خلاله غرضهم؛ حيث إن تلك الأسعار المرتفعة غير الحقيقية تنعكس سلبًا على الاقتصاد العام بذلك البلد؛ نتيجة حدوث فقاعة بسوق العقار مثلًا سرعان ما تنهار بعد ذلك، أو إحداث حالة من الارتباك نتيجة رفع أسعار العملات الأجنبية؛ خاصة بالبلدان التي تعاني من خلل بميزانها التجاري فتزيد تكلفتها وادراتها، وترتفع معدلات التضخم بها نتيجة التضخم المستورد، وتندنى قيمة عملتها المحلية.

ثانيًا: تركيز النشاط :

تتعدد صور تركيز النشاط داخل البورصات العربية من خلال استحواذ عدد محدود من الأسهم على غالبية التعامل. كذلك سيادة الأسهم العادية في تعاملات البورصات العربية، وقلة الأسهم الممتازة أو لحاملها. ورغم تنوع التعامل بين الأسهم والسندات ووثائق أو وحدات الاستثمار، إلا أن الغلبة دائمًا للأسهم مع وجود تعاملات قليلة للسندات، وأقل منها لوححدات صناديق الاستثمار المقيدة.

وسواء كثر عدد الشركات المقيدة بالبورصات العربية، أو قل فإن غالبية البورصات تعاني من ظاهرة

مليار دولار مقابل ٢٩٠, ١ تريليون دولار، لنفس القيمة السوقية بنهاية عام ٢٠٠٥ بخسارة ٤٢٩ مليار دولار بنسبة ٣٣٪. وتوزع الخسائر ما بين ٣١٩ مليارًا بالسعودية، و٩١ مليارًا بالإمارات، و٢٧ مليارًا بقطر و٨ مليارات بالأردن إلى جانب الكويت وفلسطين.

وتعتبر الخسارة الحقيقية للقيمة السوقية أكبر من الأرقام المذكورة؛ نظرًا لقيد شركات جديدة بالبورصات العربية ذات وزن مؤثر قلل وجودها من الرقم المعلن لنقص القيمة السوقية للبورصات.

مظاهر ضعف البورصات العربية:

تعددت المظاهر السلبية بالبورصات العربية خلال السنوات الأخيرة؛ نتيجة: محدودية الوعي الاستثماري، وضعف مستوى الإفصاح والشفافية، وانتشار الشائعات، حتى أصبحت الشائعات هي التي تُوجّه السوق في أحيان كثيرة، وليست المعلومات. إلى جانب محدودية الأدوات الاستثمارية، وضعف الاستثمار المؤسسي، وتغلب الاستثمارات الفردية، وسيطرة المضاربين على حركة الأسواق، وخلق أسعار مصطنعة، وضعف الأجهزة الرقابية، وبطء تدخلها، وغياب صانع السوق.

- أولًا: انتشار قيم المضاربة:

تغلبت طبيعة المضاربة على سلوك المتعاملين بغالبية البورصات العربية، وبعد أن كان النمط السائد هو الاستثمار طويل الأجل، والاعتماد على التوزيعات الدورية للشركات المستقرة والقوية. أصبح كثير من المتعاملين لا ينظرون إلى أداء الشركات وقيمة توزيعاتها، بقدر ما يهتمهم تحقيق أرباح سريعة من التعامل، ثم يعاودون نفس الأمر مع أسهم أخرى، أو يعودون لتكرار ذلك مع نفس الأسهم بين الحين والآخر.

ومن مخاطر انتشار قيم المضاربة، واستهداف الربح السريع بين المتعاملين بالبورصة: أنها تصنع طبقة لها سمات خاصة، من الصعب أن تتخلى

الأثار الاقتصادية والاجتماعية لبورصات الأوراق المالية - ممدوح الولي

الأول في قيمة التعامل، وفي عدد الأسهم المتداولة، وفي عدد الصفقات في بورصة دبي؛ حيث استحوذ على نسبة ٢, ٤٨٪ من قيمة التعامل ببورصة دبي، و ٤, ٢٨٪ من عدد الأسهم المتداولة، و ٤, ٢٣٪ من عدد الصفقات.

وفي البورصة المصرية احتل سهم المجموعة المالية هيرميس المركز الأول في المؤشرات الثلاث، وتكرر الأمر بالبورصة الفلسطينية باحتلال سهم شركة فلسطين للتنمية والاستثمار المركز الأول بالمؤشرات الثلاث، وفي بورصة قطر احتل سهم

تركز النشاط في عدد قليل من الشركات. ففي البورصة المصرية صاحبة أكبر عدد من الشركات المقيدة والبالغ ٥٩٥ شركة؛ فقد أشارت أرقام تعاملات عام ٢٠٠٦ إلى استحواذ عدد قليل من الشركات على نسبة كبيرة من التعاملات؛ حيث استحوذت أعلى خمس شركات على نسبة ٨, ٤٣٪ من قيمة التعامل.

- وفي بورصة دبي استحوذت الشركات الخمس الأولى في قيمة التعامل على نسبة ٨١٪ من إجمالي قيمة التعامل خلال العام.

- وفي بورصة أبوظبي كان نصيب الشركات الخمس الأولى في قيمة التعامل ٤, ٥٥٪،

نصيب أعلى خمس شركات من مؤشرات التعامل

ونصيب السهم الأبرز من تعاملات السوق عام ٢٠٠٦

السعودية	أبو ظبي	دبي	فلسطين	عمان	الأردن	قطر	لبنان	مصر	
17%	55.4%	81.1%	90%	48.2%	44.6%	57.1%	96.7%	17%	قيمة التعامل
15.7%	61.5%	71.1%	82.5%	43.2%	38.9%	72.5%	95.2%	25.7%	عدد الأسهم
15.4%	61.1%	66.8%	59.5%	43.3%	29.8%	77.4%		15.4%	عدد الصفقات
سابق	مصرف أبو ظبي	إعمار	فلسطين للتنمية	بنك مسقط	المستثمرون المتحدون	بنك الريان	سوليدير	المجموعة المالية	السهم الأبرز
4.4%	28.9%	48.2%	38.9%	16.2%	16.5%	18.1%	58.8%	23.5%	من القيمة
12.9%	2.1%	28.4%	45.6%	12.6%	15.1%	33.1%	41.7%	15.5%	من الأسهم
1.9%	9.7%	23.2%	35.6%	6.6%	10.3%	28.4%		20%	من الصفقات

بنك الريان المركز الأول بالمؤشرات الثلاث، وفي بورصة بيروت احتل سهم سوليدير المركز الأول في كافة المؤشرات، وفي بورصة الأردن احتل سهم المستثمرون المتحدون المركز الأول بالمؤشرات الثلاث.

وتبدو مخاطر تركيز النشاط في تأثير عدد محدود من الأسهم على السوق، وجرها السوق إلى اتجاه معين؛ باعتبارها أسهمًا قائدة. وفي حالة اتجاهها للتراجع فإنها تجر السوق معها للتراجع. كما تسبب

وفي بورصة الكويت كان نصيب الشركات الخمس الأولى في قيمة التعامل ٩, ٢٢٪ من إجمالي قيمة التعامل - وفي السوق السعودي بلغت نصيب الشركات الخمس الأولى بقيمة التعامل ١٧٪ من إجمالي قيمة التعامل.

السهم القائد:

- وكان هناك سهم محوري في عدد من البورصات العربية مثل سهم إعمار الذي استحوذ على المركز

ما حصل عليه من أرباح. وجرت العادة أن هؤلاء عندما يدخلون سوقًا معينًا فإنهم يدفعون الأسعار للارتفاع ليجنوا الثمار سريعًا، ويخرجون منها قبل تصحيح السوق لنفسه، وعودة الأسعار مرة أخرى إلى الهبوط.

وفي حالات كثيرة يكون المستثمرون الأجانب هم الأسرع في الخروج من السوق قبل المستثمرين المحليين. وبالتالي يخرجون وقت ارتفاع الأسعار، ويجنون الأرباح على حساب المستثمرين المحليين الذين يتجرعون الخسائر التي تلحق بتلك الأسواق المالية، وفي إطار ذلك يحدث نزف للثروة المحلية إلى الخارج.

- ولقد شهدت الحالة المصرية نموذجًا صارخًا لتلك الحالة خلال العام المالي ٢٠٠٢/٢٠٠٣ حينما نجم عن صافي تعاملات الأجانب بالبورصة المصرية خروج ٢, ٤٠٥ مليون دولار من مصر. وتكرر السيناريو بالعام المالي ٢٠٠٣/٢٠٠٤، حينما كان صافي تعاملات الأجانب بالبورصة المصرية صافي تدفقات لخارج البلاد ٦, ٢٢٥ مليون دولار؛ لتفقد البلاد ٨, ٦٣٠ مليون دولار خلال عامين.

وكان نفس الأمر قد حدث في العام المالي ١٩٩٨/٩٧ حين بلغ صافي تدفقات استثمارات محفظة الأوراق المالية في مصر ٢٤٨ مليون دولار تدفقًا سالبًا اتجه إلى الخارج. وتكرر ذلك في العام التالي ١٩٩٩/٩٨ حين بلغ صافي التدفقات لاستثمارات محفظة الأوراق المالية في مصر إلى الخارج ١٧٤ مليون دولار.

وتعد انهيارات أسواق جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧ نموذجًا لتأثير التعاملات الأجنبية التي تخرج سريعًا من الأسواق؛ لتتسبب في انهيار الأسعار بالأسواق، وهو ما تسبب أيضًا في انهيار عملات عدد من النور الآسيوية وقتها.

- وفي البورصة المصرية أشار التوزيع النسبي لقيمة التعامل عام ٢٠٠٦ إلى استحواذ المصريين

في ظل ضخامة انتشار استحواذ غالبية المتعاملين على أسهمها في إلحاق الخسائر بغالبية المتعاملين.

قطاعات نشاط مهيمنة :

- ومن مظاهر تركيز النشاط أيضًا استحواذ بعض قطاعات النشاط بالنصيب الأكبر لقيمة التعامل، وعدد الأسهم المتداولة، وكذلك عدد صفقات عقود التعامل، ففي البورصة الأردنية التي تضم أربعة قطاعات للنشاط هي الخدمات، والبنوك، والصناعة، والتأمين. وفي مؤشر قيمة التعامل خلال عام ٢٠٠٦ استحواذ قطاع الخدمات على نسبة ٨, ٦٥٪ من الإجمالي، يليه قطاع البنوك بنسبة ٧, ١٩٪ وقطاع الصناعة ٨, ١٣٪ وقطاع التأمين ٦, ٠٪.

- وفي البورصة اللبنانية ومع وجود خمسة قطاعات للنشاط استحواذ قطاع التطوير والإعمار الذي يضم شركة واحدة هي سوليدر، استحواذ على النصيب الأكبر بكل المؤشرات. وفي السوق السعودية التي تضم ثمانية قطاعات للنشاط، وحسب التوزيع النسبي لقيمة التعامل ما بين قطاعات النشاط عام ٢٠٠٦ تفوق قطاع الصناعة بنسبة ٤, ٤٠٪ يليه قطاع الخدمات بنسبة ٢٩٪.

- وهناك مظهر آخر لتركيز النشاط في استحواذ الأسهم على النصيب الأكبر في كل البورصات العربية، وتدني قيمة تعاملات السندات أو عدد السندات المتداولة، أو عدد صفقاتها، وهو الوضع المعكوس لما عليه الحال في البورصات الأجنبية.

ثالثًا: قصر أجل تعاملات الأجانب-العصفور

الطائر:

جرت العادة أن تكون استثمارات الأجانب في البورصات الناشئة بالدول النامية هي استثمارات قصيرة الأجل، ومن هنا فإنها استثمارات تتحرك ما بين الأسواق؛ سعيًا وراء الربح السريع حتى شبههم الخبراء بالعصفور الطائر، الذي لا يستقر على غصن وقتًا قصيرًا؛ ليطير إلى غصن آخر بسرعة، حاملًا معه

الأجهزة الرقابية فترة قد تزيد عن الساعة. هذا في حالة التدخل السريع، بينما هناك حالات استغرق فيها التدخل بضعة أيام. وعادة ما تكون قيادات الشركات المقيدة بالبورصات هي الأكثر استفادة من تلك المعلومات؛ بحكم اتصالهم اليومي بها، ومعرفتهم لها قبل غيرهم.

ومن هنا ظهرت الاستفادة بالمعلومات الداخلية من خلال القائمين على الشركة الذين يعرفون - بحكم أعمالهم - أسرار الشركة، ويمكن أن يتخذوا قرارات استثمارية بناء على معرفتهم بتلك البيانات، سواء ايجابية أو سلبية. ولذلك أجبرت الجهات الرقابية هؤلاء على الإعلان عن تعاملاتهم في أسهم الشركات التي يديرونها. إلا أن باب الاستفادة من المعلومات التي عرفوها قبل غيرهم يظل مفتوحاً كي يستفيد منه الأقارب والمعارف لحساب هؤلاء أو باقتسام الأرباح معهم.

ومن صور التلاعب قيام البعض في شركات الوساطة بالتلاعب بأرصدة العملاء من الأوراق المالية دون معرفة العملاء. ولقد شهدت الأسواق العربية حالات تلاعب بأرصدة العملاء، بل إن بعض القائمين على شركات وساطة قد هربوا من البلاد بعد استيلائهم على أرصدة للعملاء كما حدث في مصر.

خامساً: قلة نشاط الشركات العربية المتعددة

الإدراج:

بلغ عدد الشركات المتعددة الإدراج بالبورصات العربية بنهاية عام ٢٠٠٦ نحو ٣٣ شركة، تنتمي إلى عشر دول عربية. فهناك ١١ شركة كويتية مقيدة في بورصات أخرى بخلاف قيدها ببورصة الكويت. وسبع شركات بحرينية، وست شركات إماراتية، وشركتان من كل من مصر وسلطنة عمان وقطر، وشركة واحدة من كل من لبنان وفلسطين والسودان. ومن تلك الشركات الكويتية هناك عشر شركات مقيدة في بورصة دبي وشركتان ببورصة البحرين هما جلوبال والمجموعة الدولية للاستثمار؛ لتنفرد شركة

على نسبة ٧٠٪ من قيمة التعامل، والأجانب على نسبة ١٦٪، والعرب على نسبة ١٤٪. وفي بورصة البحرين عام ٢٠٠٦ كان التوزيع النسبي للتعامل ٤٢,٣٪ لتعاملات البحرينيين و٣,٣٪ لتعاملات الخليجيين، و٢١,١٪ لتعاملات غير الخليجيين. وفي البورصة الأردنية عام ٢٠٠٦ بلغت قيمة الأسهم المشتراة من قبل الأجانب ١,٩٩٥ مليار دينار أردني أي بنسبة ١٤٪ من حجم التداول الكلي.

- وفي المغرب أشارت الدورية الإحصائية لمكتب الصرف المغربي عن نهاية نوفمبر ٢٠٠٦ إلى نمو تحويلات الأجانب الناتج عن بيع محافظ استثمارية بالبورصة المغربية من قبل صناديق التوظيف الأجنبية ليصل ٢,٥٦٨ مليون دولار، مقابل ٣,٧٥ مليون دولار بنفس الفترة من عام ٢٠٠٥ بنمو ٦٥٤٪.

رابعاً: الاستفادة من المعلومات الداخلية

أحد صور التلاعب:

في ظل أسواق قليلة العمق يمكن التأثير في الأسعار. خاصة وأن الأسواق العربية تتميز بقلّة عدد الأسهم نشطة التعامل، وغالبيتها ذات عدد قليل من الشركات المدرجة، ويستطيع مبلغ مائة مليون دولار أن يؤثر في توجيه الأمور مع كثير من الأسهم، من خلال ممارسات محترفة لتوجيه السوق إلى الاتجاه الذي يرغبه هؤلاء.

وتساهم حالة غياب المعلومات في وجود حالة من الضبابية بالسوق تكون بيئة خصبة لانتشار الشائعات التي يتم إطلاقها باحتراف. مع الاستفادة من بعض الوسائل الإعلامية التي تتعامل مع تلك الشائعات بدون خبرة. إلى جانب تأخر ردود أفعال الجهات الرقابية بعض الوقت. وحتى تتحرك الأجهزة الرقابية وتتضح الأمور تكون قد تحققت المكاسب المرجوة أو جانب منها، خاصة وأن إتمام الصفقات لا يستغرق سوى ثوانٍ معدودة.

بينما يحتاج التحرك لحسم الأمور من جانب

وهي سلع يمكن إقامة مشروعات لإنتاجها من خلال سوق الإصدار، أو التوسع في المشروعات القائمة لإنتاجها من خلال طرح الأسهم والسندات.

وإذا كان الميزان التجاري الإجمالي العربي موجبًا بسبب قيمة الصادرات البترولية؛ فإن الميزان الخدمي الإجمالي للدول العربية يعاني من عجز مزمن بلغ عام ٢٠٠٥ نحو ٤٢ مليار دولار، مقابل عجز ١، ٤١ مليار دولار عام ٢٠٠٤.

وخلال الشهور التسعة الأولى من عام ٢٠٠٦ كانت تعاملات أسواق الإصدار في ١٤ بلدًا عربيًا بها بورصات أوراق مالية ٣١٣، ١٢ مليار دولار، مقابل ٤٣٤، ١ ترليون دولار للتعاملات بأسواق التداول بتلك البلدان، أي بنسبة ١: ١١٧، في عام ٢٠٠٦ كانت حصيلة تعاملات سوق الإصدار المصرية ٢٩٤، ١٧ مليار دولار، مقابل ٤٩٧، ٤٧ مليار دولار لتعاملات سوق التداول الرسمية المصرية.

سابعًا: تضخم الأسعار يؤدي لاقتصاد الفقاعة:

تُسبب الأسعار المرتفعة التي تنجم عن ممارسات المضاربين؛ لرغبتهم في تحقيق أرباح عالية في وجود أسعار عالية للأسهم، لا تتسق مع أداء الشركات التي تنتمي إليها تلك الأسهم. بل إنه كثيرًا ما ترتفع أسعار أسهم لشركات تحقق خسائر، أو تعاني من مشكلات في نشاطها الرئيسي. والنتيجة الطبيعية أنه مع استمرار النفخ في الأسعار، وانفصالها الحاد عن واقع الشركات تتكون بالونة من تلك الأسعار المتفخخة؛ لا بد أن تنفجر في وقت ما، مُخَلِّفَةً وراءها آلاف الضحايا الذين اشتروا تلك الأسهم بالأسعار المرتفعة.

وغالبًا ما يكونون من غير أصحاب الخبرة؛ حيث إن المحترفين يكونون قد خرجوا من السوق مبكرًا. كما أن كثيرين من هؤلاء عادة ما يستثمرون كل طاقاتهم المالية وليس جانبًا منها، كما تتطلب أساسيات تنويع الاستثمارات، وبالتالي تكون آثار خسائرهم فادحة بالنسبة لوضعهم المادي والمعيشي.

جلوبل بتسجيلها في بورصتي دبي والبحرين.

- الأمر الأهم أن تعاملات الشركات متعددة الإدراج داخل البورصات التي أُدرجت فيها مازالت محدودة؛ بالقياس إلى حجم تعاملات تلك البورصات، بل إن إحداها وهي البنك التجاري الدولي مصر طالب بإلغاء قيده بالإمارات.

- ولقد أشارت بيانات تداول السوق الكويتية لعام ٢٠٠٦ إلى استحواذ الشركات السبع عشرة العربية المقيدة بها على نسبة ٤، ٥٪ من إجمالي قيمة تعاملات السنة، ونسبة ٦٪ من عدد الأسهم المتداولة.

- وفي بورصة دبي تضاعف نصيب الشركات الاثنتي عشرة العربية المدرجة بها ليصل إلى نسبة واحد بالألف من إجمالي قيمة التعامل.. وفي بورصة أبوظبي كان نصيب الشركات الأربع متعددة الإدراج ٦، ٢٪ من إجمالي قيمة التعامل.

سادسًا: نفوق الاهتمام بسوق التداول عن

سوق الإصدار:

يعد أي تعامل بسوق الإصدار: إما تأسيس شركات جديدة، أو القيام بتوسعات بالشركات القائمة، وهو ما يعني قدرات إنتاجية إضافية بالمجتمع، وزيادة متوقعة بالنتائج المحلي، وفرص عمل جديدة وإمكانية أكبر للتصدير. أو قيام الحكومات بعلاج عجز موازاتها، أو سداد ما عليها من ديون قد تكون للمقاولين أو للموردين أو للبنوك، أي أن الحكومة من خلال حصيلة السندات ستضخ أموالًا بالسوق تساهم في انتعاشه. أما ما يتم من تعاملات بسوق التداول مهما كان ضخمًا، فإنها عبارة عن أموال تتقل ما بين المتعاملين.

وعلى المستوى العربي هناك عجز مزمن بالميزان التجاري الزراعي. وتظهر الفجوة الغذائية العربية بشكل واضح في الحبوب والذيق والزيوت، واللحوم والألبان ومنتجاتها، والسكر المكرر، والذرة الشامية والأرز، والشعير والبقوليات، والخضر والفاكهة.

على شركة معينة، أو ترتيب قروض لصالح شركة، أو دخول أسواق جديدة. ونبّهت الشركات إلى أن عدم الإفصاح في مثل تلك الحالات يشكل مخالفة لقانون الهيئة.

تاسعاً: تدني الوعي الاستثماري:

رغم التغطية الواسعة لأخبار التداول بالصحف والقنوات الفضائية إلا أن جانب التوعية لا يأخذ حظه؛ حيث تتوجه الرسالة الإعلامية إلى المتعاملين باعتبارهم ذوي خبرة، بينما الغالبية منهم ليس لديهم أساسيات التعامل، ويبدو ذلك من مخاطبة المتعاملين بمصطلحات فنية لا دراية لهم بها. ومن أشكال أخطاء المتعاملين الزَّجُّ بكل أموالهم للاستثمار، بينما الاستثمار الرشيد يقتضي الاستثمار بفوائض الأموال.

وكذلك الاقتراض للاستثمار أيضاً، وشراء سهم واحد بغالب أموال المستثمر، بينما أبسط قواعد الاستثمار هو التنوع بالمحفظة. ولقد تكرر ذلك في عدد من الاكتتابات العامة بعدد من الأسواق، مثل سهم المصرية للاتصالات في مصر، وبنك الريان بقطر وغيرها.

والنتيجة - لعدم الخبرة - هو اتخاذ سلوك القطيع بتقليد ما يفعله الغير، كما ينجم عن نقص الخبرة قرارات خاطئة للشراء، وكذلك قرارات خاطئة للبيع يترتب عليها الإضرار بالسوق؛ خاصة وأن الأفراد مازالوا يمثلون أغلبية المتعاملين بالأسواق العربية.

وبعد دخول السوق من خلال صناديق الاستثمار الأسلوب الأمثل لغير ذوي الخبرة؛ إلا أن الرغبة في تحقيق مكاسب عالية يدفعهم للمجازفة. كما يعد الاستثمار المؤسسي كشكل غالب للتعامل في البورصات الأجنبية هو الأفضل؛ لوجود إمكانية

ثامناً: ضعف مستوى الإفصاح والشفافية:

في ظل مناخ لا يتم في واقعه السياسي الإفصاح والشفافية عن مجريات الأمور؛ فإن ذلك يعكس النظرة الخاطئة للمعلومات والبيانات؛ باعتبارها خاصة لا يجب أن يطلع الآخرون عليها؛ حيث استشرت تلك النظرة في ميادين العمل والشركات، وانعكست على السلوك الشخصي للكثير من المسؤولين بها؛ ولأن الشركات المدرجة بالبورصة محكومة بقواعد تجربها على الإفصاح عما من شأنه التأثير على نشاطها، وإمداد الجهات الرقابية بالقوائم المالية الدورية، فقد استجاب بعضها لتقديم القوائم المالية، وإن كان في توقيت متأخر لدى الكثيرين؛ رغم تسهيل الوسائل التكنولوجية ذلك الأمر، وقد تكون بعض الشركات لديها العذر في التأخير لبطء الجهات الرقابية في اعتماد تلك القوائم، كما يحدث من قبل الجهاز المركزي للمحاسبات، والذي يعتمد القوائم المالية للشركات التي بها ملكية عامة.

ويمتنع البعض الآخر من الشركات عن تقديم تلك البيانات، أو لا تقدمها بانتظام حتى اضطرت إدارة البورصات إلى شطب قيد تلك الشركات؛ بسبب قلة الإفصاح كما حدث كثيراً في مصر. بل إن بعض الشركات كانت تتقدم بطلب

شطب القيد لأسباب من بينها الالتزام الدوري بتقديم البيانات، خاصة في ظل وجود عقوبات مالية متدرجة على التأخير في القوائم المالية في أثناء المهلة المتاحة لذلك.

وألزمت هيئة الأوراق المالية والسلع الإماراتية الشركات المقيمة لديها بتزويد الهيئة والأسواق بالمعلومات الجوهرية، أو الأخبار التي تؤثر على سعر سهمها فور توفرها، مثل أخبار توقيع عقود جديدة، أو الاندماج مع شركات أخرى، أو الاستحواذ

من أشكال أخطاء المتعاملين
الزَّجُّ بكل أموالهم للاستثمار،
بينما الاستثمار الرشيد يقتضي
الاستثمار بفوائض الأموال

الاستعانة بالمتخصصين لمتابعة أخبار الشركات، وتحليل أدائها، ورصد التغيرات بقطاعات النشاط الاقتصادي، ومدى تأثيرها بالتطورات الاقتصادية المحلية والإقليمية والدولية؛ لاتخاذ القرارات الاستثمارية المناسبة.

خاتمة:

دور إيجابي للبورصة :

رغم الممارسات التي أضرت بصغار المستثمرين، وألحقت كوارث مادية بهم في العديد من الأسواق العربية، خلال السنوات العشر الماضية. يبقى للبورصة دورها الإيجابي الذي يمكن أن تلعبه في الاقتصاديات العربية: بتوفير السيولة والتمويل متوسط وطويل الأجل، سواء للمشروعات الجديدة أو لزيادة حجم المشروعات القائمة؛ بما يعنيه ذلك من المساهمة في علاج العجز بالموازن التجارية والخدمية للدول العربية، وتوفير فرص العمل للعاطلين، وزيادة القدرات الإنتاجية والتصديرية سواء للسلع أو الخدمات.

ويتطلب الأمر هنا التركيز على أسواق الإصدار والاستثمار طويل الأجل، والشركات المستقرة في توزيع الأرباح، والتي يعتمد المستثمرون على ما توزعه من عوائد دورية. ووجود أجهزة رقابية قوية تستطيع عقاب الحيتان، أو الهوامير أو ذوي الصلة بأصحاب النفوذ.

وعلى الإعلام الاقتصادي أن يكون أكثر رشداً وأكثر حرفية وخبرة وتخصصاً، فلا يترك المجال لغير المتخصصين. وعليه انتقاء الخبراء الذين تتم الاستعانة بهم إعلامياً بعناية، ولا يكفي مجرد عملهم بالجامعات أو بشركات الوساطة، أو بالبنوك أو عملهم بالخارج أن يكون ذلك جواز المرور للاستعانة بهم.

معلومات إضافية

ماهية البورصة:

البورصة: اسمٌ فرض نفسه على جميع اللغات، وأصبحت هي الأداة الفاعلة في تحريك الاقتصاديات، ولها أهمية اقتصادية كبرى، ودور كبير في تنشيط الحركة المالية. ونجد أن الكثيرين يجهلون هذه الأداة المالية وأهميتها الاقتصادية، وطرق وكيفيات سير العمليات بها، وكذا التقنيات التي تتحكم في نشاطها.

يعود أصل كلمة «بورصة» إلى اسم عائلة فان در بورصن (Van der Bursen) البلجيكية، والتي كانت تعمل في مجال البنوك، واتفق على أن يكون الفندق الذي تملكه هذه العائلة بمدينة بروج Bruges مكاناً لالتقاء التجار المحليين في فترة القرن الخامس عشر، حيث أصبح بمرور الزمن رمزاً لسوق رؤوس الأموال وبورصة للسلع.

وجاء أول نشر لما يشبه قائمة بأسعار البورصة طيلة فترة التداول لأول مرة عام ١٥٩٢ بمدينة انفرز (Anvers).

الهدف من إنشاء البورصة:

من أهم الأهداف التي أنشئت من أجلها البورصة ما يلي :

* السماح لمؤسسات القطاع العام والخاص المنظمة في شركات ذات أسهم بفتح رؤوس أموالها للجمهور.

* تقييم هذه الشركات عن طريق السوق.

* ضمان التمويل عن طريق الادخار العمومي.

* السماح بسيولة الادخار المستثمر على المدى البعيد.

* تحقيق وتكريس شفافية أكبر في مبدأ الحركة النقدية (السيولة، وانتقال رؤوس الأموال) استثماراً وادخاراً وربحاً وخسارة.

أهمية البورصة:

إن أهم مزايا اعتماد نظام بورصة في اقتصاد دولة ما، في كونها أداة شفافة في سبيل تبني نظام الخصخصة، حيث تكشف بمجرد اعتمادها والانخراط فيها الوضعية الحقيقية: الاجتماعية

والمالية والإدارية بكل مؤسسة، كما يعكس واقع البورصة أيضاً الحالة الصحية لاقتصاد الدولة المعنية، أو للتجمعات الاقتصادية الجهوية، أو للشركات العالمية العملاقة.

وفيما يتعلق بنظام الخصوصية، فإنه لا يمكن تصور قيام أو اعتماد «البورصة» في ظل سيادة الدولة على الاقتصاد، وتهميش أو غياب القطاع الخاص، أو تجميد مشاريع الخصوصية، أو مشاريع تنازل الشركات العمومية التابعة للدولة عن حصص من رأسمالها للعمال، أو للمواطنين أو لهيئات محلية أو خارجية، وفتح رؤوس أموالها أمام المدخرين، الأمر الذي سيؤدي - في حالة اعتمادها - تلقائياً إلى تنشيط عملية الادخار الذي يُفضي بدوره إلى إقامة سوق البورصة.

أنواع البورصات:

يُذكر أن هناك ثلاثة أنواع من البورصات:

١ - بورصة العمل: وهي مكان التقاء العمال في اجتماعات تُقترح فيها عليهم خدمات متنوعة.

٢ - بورصة السلع: وتسمى أيضاً ببورصة التجارة، وهي مكان بُعاع فيه المواد والسلع الاستراتيجية أي المنتجات الأساسية (القطن ، القمح ، السكر.... إلخ) بالجملة؛ حيث يتعامل فيها على أساس العينات من المنتجات، وقد يباع المنتج عدة مرات، وفيها تتحدد الأسعار المحلية والدولية لهذه المنتجات.

٣ - بورصة القيم المنقولة (الأسهم والسندات): وهي السائدة والشائعة حالياً، وتمثل معظم السوق المالي في العالم، وهي المكان الذي تحدث فيه المعاملات على الأسهم والسندات والذهب والعملات الصعبة عن طريق الوسطاء. ولكل بورصة مؤشر خاص بها تقيس به معاملاتها، ولكل مؤشر طريقته الخاصة في الحساب مثل: (داوجونز - نازداك - نيكاي - فيننشيل تايمز - كاك ٤٠ - داكس.... إلخ).

أهم البورصات العالمية:

تعتبر البورصات التالية من أهم البورصات في العالم على الإطلاق، نظراً لحجم التعامل فيها، وكذا تأثيرها على الاقتصاد والتجارة وسوق التداول في البورصات العالمية:

١ - بورصة نيويورك أو «وول ستريت»: وسميت ببورصة «وول ستريت» نسبة للشارع الموجودة فيه بنيويورك شارع وول ستريت، وتمثل هذه البورصة سوقاً لحوالي ٥٠٪ من الإنتاج القومي الخام الأمريكي، وهي التي تدير كافة الاقتصاد الأمريكي، ويمثل مؤشر داوجونز DAW JONES الممثل للشركات الكبرى (DJIA)، وكذا مؤشر نازداك الممثل لقطاعات التكنولوجيا والمعلوماتية والاتصال NASDAQ أهم المؤشرات السائدة في التداول، وهذه البورصة من أقدم البورصات، وهي التي بدأت منها الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة ١٩٢٩ م.

٢ - بورصة طوكيو: أو بورصة كابوتوشو (Kabuto- cho) نسبة لاسم الشارع الموجودة فيه أيضًا، وقد وضعت حسب إحصائيات عام ١٩٩٠م في المرتبة الأولى عالميًا من حيث حجم التداول فيها، والذي وصل إلى ٣ مليارات دولار، أي ٤٠٪ من مجموع التداول العالمي.

٣ - بورصة هونج كونج، بورصة لندن، وباريس، وفرانكفورت وغيرها من البورصات العالمية.

٤ - بورصة القاهرة: من أهم البورصات العربية، بما لديها من تجارب في هذا الميدان؛ باعتبارها أقدم بورصة عربية.

الأسهم والسندات

لا يمكن تصور قيام بورصة بدون تداول، ولا يمكن التداول بدون أسهم وسندات، فماذا تعني بها؟

* الأسهم: السهم عبارة عن ورقة مالية مصدرة من طرف شركة ذات أسهم تمثيلاً لحصة من رأس مالها، وتستطيع معها إصدار أنواع عديدة من الأسهم، تختلف حسب الحقوق والامتيازات التي تعطىها المؤسسة لمالك هذه الأنواع من الأسهم، مثل: حق التصويت - الحق في الأرباح الموزعة في نهاية السنة - الأولوية في التسديد.

* السندات: السند هو صك مديونية تستخدمه الشركات كوسيلة للاقتراض؛ حيث يتعهد مصدر السند أن يدفع لحامل السند فائدة أو (كوبون) محدد مسبقاً طول مدة السند، وأن يرد القيمة الاسمية للسند عند حلول تاريخ الاستحقاق؛ لذلك حامل السند يعتبر قرضاً للشركة وليس مساهماً فيها.

أنصاف الأوراق المالية المسجلة في البورصة

وهي الأوراق المسجلة بنظام التسعيرة بالبورصة، وتُصنّف إلى ثلاث:-

١ - أوراق المساهمة: وهي تلك التي تصدر تمثيلاً لجزء من رأس مال الشركة المصدرة مثل: الأسهم، شهادات الاستثمار..... إلخ.

٢ - أوراق الاقتراض: وهي التي تصدر اعترافاً بتدين أيرمته الجهة المصدرة مثل: سندات الخزينة، سندات المؤسسات، الأوراق التجارية..... إلخ.

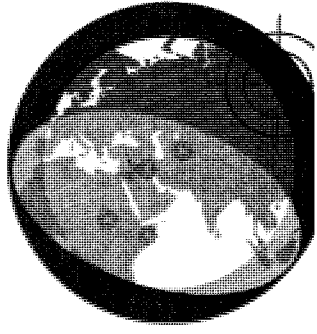
٣ - الأوراق المشتقة: تشكل من خلال أوراق مالية أساسية تمثل غالباً حقوق على هذه الأوراق مثل: العقود الآجلة، حقوق الاكتتاب..... إلخ.

صناديق الاستثمار:

حلاً لمشكلة دخول غير المحترفين البورصة كانت صناديق الاستثمار. فمن يدخل للتعامل بالبورصة مطلوب منه أن يكون مُلمّاً بكيفية قراءة القوائم المالية للشركات، وأن يكون لديه وقت لمتابعة حركة أسهمها حتى يستطيع اتخاذ قرار الشراء، أو البيع في الوقت المناسب.

كذلك مطلوب منه أن يتوّع استثماراته حتى يقلل من المخاطر، وأن تكون لديه محفظة متنوعة الأنشطة. فلا تكون محفظة جيدة إلا أن تكون مفردات المحفظة وجود أسهم لعدة شركات إسمنت على سبيل المثال. ولكن الأصوب أن تكون الأسهم متممة إلى قطاعات نشاط مختلفة، مثل الغزل والنسيج، والإسكان والاستثمار، والدواء.... وهكذا.

وتقوم إدارة الصندوق بتوزيع العوائد المتحققة من عملها على أصحاب الوثائق في فترات التوزيع المحددة، سواء كانت سنوية أو نصف سنوية أو ربع سنوية. ويستطيع حاملو الوثائق بيعها سواء للجهة المصدرة لها، أو من خلال البورصة حسب نظام الصندوق، بما يكفل لهم الخروج من الصندوق في الوقت الذي يريدونه. وهناك جماعة لحملة الوثائق يستطيعون من خلال حضور اجتماعاتها التعرف على سير عمل الصندوق إلى جانب ما ترسله إدارة الصندوق من بيانات دورية عن نشاط الصندوق وقوائمه المالية إلى حملة الوثائق دورياً.



المغرب العربي التفاعلات المحلية والإقليمية والإسلامية

د/ عادل مساوي - د/ عبد العلي حامي الدين - المغرب

أستاذ العلاقات الدولية بجامعة محمد الخامس - الرباط.
أستاذ العلوم السياسية بجامعة عبد المالك السعدي - طنجة.

ملخص البحث:

التاريخ الحضاري للمغرب الكبير بدأ من المرحلة الفينيقية في القرن العاشر قبل الميلاد، متتابعًا بوصول عقبة بن نافع إلى شمال إفريقيا حتى شواطئ الأطلسي، ولتبي عقبة بوضوح حاجة المنطقة إلى الوحدة، وتوج مسيرة الفتح الإسلامي بالاندماج بين العنصر الأمازيغي والعنصر العربي في شخصية إنسانية واحدة، فسكان المغرب العربي اليوم هم نتاج اندماج أمازيغي - فينيقي - عربي. وقد نشأ اتحاد المغرب العربي بين خمس دول؛ في محاولة منهم لتكوين اتحاد إقليمي على غرار موجة الاتحادات العربية آنذاك، لذا فإن تجربة بناء المغرب العربي من التجارب المهمة في مجال التكامل الإقليمي على صعيد منطقة شمال إفريقيا.

وعلى الرغم من توافر المقومات المحلية (سياسيًا، اقتصاديًا، ثقافيًا) لقيام هذا التكتل الاتحادي، وهي مقومات بناء، فإن مجموعة من عناصر الإخفاق حالت دون قيامه وتفعيله كطغيان الخلافات السياسية الثنائية، ثم المعوقات الاقتصادية التي تحول دون تحقيق الاندماج الحيوي. ويعتبر الموقع المتميز للمغرب العربي كجزء من شمال إفريقيا، وحوض البحر الأبيض المتوسط، وقربه من أوروبا وامتداده جنوبًا نحو القارة الإفريقية، بمثابة محددات رئيسية في إدراك حجم التفاعلات الإقليمية في المنطقة حاليًا، سواء تعلق الأمر بالحوار الأوروبي أو بالمنافسة الأمريكية الأوروبية للحصول على مواقع النفوذ، أو ما يرتبط بالحوار مع منظمة شمال الحلف الأطلسي، وأخيرًا ما يتعلق بالتفاعل المغربي الإفريقي.

إن بناء المغرب العربي يمكن أن يشكل لبنة مهمة في صرح بناء العالم الإسلامي (عملاق الغد)، بالنظر إلى المؤهلات الاقتصادية، والثروات المعدنية، والموقع الجغرافي الذي تتميز به المنطقة، فضلًا عن القوة الديموغرافية الهائلة.

واستنادًا على المعطيات المتوفرة في الوقت الراهن، والتي تشمل المتغيرات والتحويلات السياسية التي مسّت أقطار المغرب العربي في الآونة الأخيرة، يمكن استشراف سيناريوهات ثلاثة لمستقبل المغرب العربي تشمل: سيناريو الجمود والمزيد من التجزئة، سيناريو التنسيق والاندماج، سيناريو إنجاز الوحدة المغربية.

أفكار ومقتطفات

- مع وصول عقبة بن نافع إلى شمال إفريقيا، ووصوله إلى شواطئ الأطلسي كان يلبي حاجة المنطقة إلى الوحدة ويتوج مسيرة الفتح الإسلامي بالاندماج بين العنصر الأمازيغي والعنصر العربي في شخصية إنسانية واحدة، استطاعت فتح إسبانيا بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد.
- من المحيط الأطلسي إلى مصر والسودان شرقاً، ومن البحر المتوسط حتى تشاد والنيجر ومالي والسنغال جنوباً، يمثل المغرب العربي نقطة التقاء مهمة في الاتصالات الدولية، ويتمتع بموقع استراتيجي مهم.
- نصّت الوثيقة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي على أن الهدف من الاتحاد هو تحقيق اندماج أشمل بين شعوب المنطقة؛ مما يعطيها وزناً نوعياً يسمح لها بالمساهمة الفعالة في التوازن العالمي.
- بالرغم من تعدد الروافد الثقافية في منطقة المغرب العربي إلا أن اللغة العربية تعد لغة مشتركة بين جميع أقطار المنطقة، كما أن الدين الإسلامي يظل المرجعية الأساسية داخل الثقافة السائدة لدى سكان المنطقة.
- التاريخ المشترك للمجموعة المغاربية يعود إلى العصر القديم قبل أن يعزز دخول الإسلام، الذي ساهم في تمييز أواصر الأخوة بين شعوب المنطقة لمدة عدة قرون، قبل الاستعمار الغربي الذي حمل معه مخططات التجزئة والتفكك.
- بالدخول الطوعي في الإسلام، خضع البربر لإرادة الله تعالى وتعاليمه التي جاء بها القرآن الكريم وفضاعتها السنة النبوية.
- يخلو المغرب العربي من التعدد الديني (باستثناء بعض المجموعات اليهودية القليلة في المغرب الأقصى) فالإسلام دين الجميع. وقد حماه ذلك مما يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التعدد من نعرات وفتن طائفية أصبحت من سمات الواقع الدولي المعاصر.
- يعد المغرب الأقصى نموذجاً للتلاقي بين الثقافات والأجناس على أساس من التأخي والوثاق في إطار الدين الواحد.
- ركزت الوثيقة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي على اعتبار الأبعاد الدينية واللغوية والتاريخية كمقومات أساسية للاتحاد من شأنها المساهمة في تسهيل اندماج أشمل بين شعوبها.
- إن مشكل الصحراء كان دائماً ولا يزال يضع العلاقات الدبلوماسية بين الدول المغاربية في موقف حرج ويعيق المسيرة الوحدوية للاتحاد.

- لقد كان أول تعبير عن هشاشة مؤسسات اتحاد المغرب العربي، وضعف هذا التكتل، هو الموقف السلبي، والصامت إزاء القرارات الأممية الأمريكية التي تهدف في الحقيقة إلى المسّ بأمن دول اتحاد المغرب العربي، والقضاء عليه كتكتل اقتصادي يهدف إلى مغرب عربي موحد في المستقبل.

- إذا كان تأسيس اتحاد المغرب العربي قد ساعد على تطبيع العلاقات الثنائية مغاربيًا، فإن هذه العلاقات لا تزال تتأرجح بين استمرار رواسب الغموض، والتشكك والحذر؛ بسبب طغيان الخلافات السياسية.

- إن واقع المغرب العربي كاتحاد يمر اليوم بفترة عصيبة ودقيقة تبعث على الحيرة والقلق في فهم الظاهرة المغاربية الراهنة، في بنائها التنسيقي الاقتصادي من جهة، ومن جهة أخرى في طموح شعوبها وقواها الحية.

- أعلنت واشنطن في نهاية التسعينيات عن مبادرة جديدة للتعاون الاقتصادي (مبادرة إيزنشتات ١٩٩٨) تروم تعزيز أواصر العلاقات التجارية بين كل من المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا.

- استمر الرهان الأمريكي على المنطقة بتوقيع الولايات المتحدة الأمريكية مع المغرب على اتفاقية للتبادل الحر تهتم السلع والخدمات؛ سعيًا منها وراء بسط معالم نفوذها في منطقة شمال إفريقيا وغرب حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعزيز مكانتها التنافسية الاقتصادية أمام الوجود الأوروبي.

- أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش عن قرار الولايات المتحدة الأمريكية منح المغرب صفة حليف استراتيجي خارج منظمة الحلف الأطلسي، وهي صفة - بالإضافة إلى طابعها السياسي - تمنح للمغرب تسهيلات هامة.

- إن تجمع دول الساحل والصحراء الذي يضم في عضويته ٢٢ دولة إفريقية ومغاربية، بما فيها المغرب وتونس، إضافة إلى تجمعات إفريقية فرعية، كالسوق المشتركة للشرق والجنوب الإفريقي «كوميسا» والجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا «إيكواس»، فهو يتميز بعدم انخراط جميع الدول المغاربية فيه؛ نظرًا لعدم مشاركة الجزائر.

- إن بناء المغرب العربي يمكن أن يشكل لبنة مهمة في صرح بناء العالم الإسلامي (عملاق الغد)، بالنظر إلى المؤهلات الاقتصادية، والثروات المعدنية، والموقع الجغرافي الذي تتميز به المنطقة، فضلًا عن القوة الديموغرافية الهائلة.

- ليس من المستبعد اليوم أنه في حال فشلت جهود الفرصة الأخيرة في إقرار نظام الحكم الذاتي للصحراويين كحل دائم ونهائي، أن تشهد المنطقة المزيد من الانكشاف أمام استراتيجيات الدول الكبرى.

- كلما ارتفعت مؤشرات التقارب بين الأنظمة وشعوب المنطقة، ونجحت محاولات التطور الديمقراطي لتحمل إلى الحكم أنظمة تحظى بالشرعية والديمقراطية، كلما نجحت جهود بناء المغرب العربي الكبير.
- تفيد المعطيات المرتبطة بالحياة السياسية المغربية أن الانتخابات التشريعية المزمع عقدها في بحر هذه السنة يمكن أن تحمل جزءاً من التيار الإسلامي إلى تدبير الشأن العام، من موقع المسؤولية الحكومية -طبقاً بالتحالف مع قوى سياسية أخرى-.
- انتقلت ليبيا من سياسات الماضي الثورية التي جلبت لها مشاكل عديدة مع دول الجوار، إلى دولة تؤمن بخصوصية توجهات كل دولة مجاورة، وتراجعت عن دعم جبهة البوليزاريو، وهو ما ساهم في تحسين علاقاتها الثنائية مع المغرب.
- إن تصريحات المسؤولين الليبيين، ولا سيما تصريحات سيف الإسلام نجل العقيد القذافي، تفيد أن مسلسل الإصلاح السياسي وموضوع حقوق الإنسان، وإطلاق الحريات سيشهد تطورات نوعية في المستقبل.
- رغم استمرار مظاهر انغلاق النظام السياسي، وما يرافقه من انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، وعدم بروز مؤشرات للانفتاح السياسي على المدى المنظور، فإن بعض مظاهر الممانعة المدنية والحقوقية بدأت في البروز.
- إن سرد المعطيات السياسية الحاصلة في المنطقة، ورصد عناصر التطور الديمقراطي المرتبطة بها نابع من إدراكنا أن الإخفاق في بناء المغرب العربي -وبالتالي بناء استراتيجية للانفتاح على العالم الإسلامي- راجع بالدرجة الأولى إلى العامل السياسي، وإلى طغيان الحسابات السياسية للأنظمة المفتقرة للشرعية على حساب تطلعات الشعوب وطموحاتها.
- يمكن اعتبار اهتمام دول المغرب العربي بالعمق الإسلامي الإفريقي اهتماماً محدوداً، في الوقت الذي يشكل فيه الإسلام ديانة الأغلبية من السكان في معظم الدول الإفريقية.



المغرب العربي التفاعلات المحلية والإقليمية والإسلامية

د/ عادل مساوي - د/ عبد العلي حامي الدين - المغرب

أستاذ العلاقات الدولية بجامعة محمد الخامس - الرباط.
أستاذ العلوم السياسية بجامعة عبد المالك السعدي - طنجة.

أن إقامة المغرب العربي ضرورة حتمية، وهناك تطُّع لدى شعوب المنطقة للارتقاء في مستوى العلاقات إلى درجة التنسيق والاندماج، والتكامل الاقتصادي، والوحدة السياسية.

غير أن مجموعة من العوائق تحول دون أن تكون الأوضاع في المغرب العربي على النحو الذي تمليه حقائق التاريخ والجغرافيا، ومعطيات الاقتصاد والسياسة والاجتماع.

إن مرور نحو خمسة عشر سنة على الإعلان عن قيام اتحاد المغرب العربي توفر مدة كافية للوقوف عند عناصر التكامل والاندماج، وكذا عناصر الإخفاق والضعف، ومختلف الأبعاد الإقليمية والدولية المحيطة بالمنطقة؛ وذلك بغية استشراف مستقبل المغرب العربي داخل خريطة العالم الإسلامي في ظل تزايد منافسة القوى الكبرى على المنطقة.

المحور الأول: المغرب العربي .. مقومات البناء، وعناصر الإخفاق

تعد تجربة بناء المغرب العربي من التجارب المهمة في مجال التكامل الإقليمي على صعيد منطقة شمال إفريقيا. وبالرغم من توافر المقومات المحلية (السياسية، الاقتصادية، الثقافية) لقيام هذا التكتل الجهوي، فإن مجموعة من المعوقات تحول دون

مقدمة:

تتفق أغلب المصادر أن التاريخ الحضاري المعروف للمغرب الكبير بدأ من المرحلة الفينيقية، التي ابتدأت حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، فالفينيقيون حينما دخلوا شمال إفريقيا أسسوا المدن التجارية الساحلية التي كانت أهمها مدينة قرطاج في تونس، وشيدوا مدناً أقل أهمية في الجزائر، ثم بنوا مدينة اللوكوس (العرائش حالياً) على الساحل الأطلسي في المغرب الأقصى (١).

ومع وصول عقبة بن نافع إلى شمال إفريقيا ووصوله إلى شواطئ الأطلسي كان يلبي حاجة المنطقة إلى الوحدة، ويتوج مسيرة الفتح الإسلامي بالاندماج بين العنصر الأمازيغي والعنصر العربي؛ في شخصية إنسانية واحدة استطاعت فتح أسبانيا بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد، وهكذا فإن سكان المغرب العربي اليوم هم نتاج اندماج أمازيغي - فينيقي - عربي.

ومن هنا يمكن القول بأن السمة الأساسية التي حرصت عليها مختلف الحضارات التي تعاقبت على المنطقة هي سمة الوحدة والتماسك. واليوم هناك إجماع نظري بين دول المنطقة على

الدول المغاربية، وتمتلك في الوقت نفسه مناطق صحراوية مترامية الأطراف، وواجهة بحرية مهمة؛ إذ لها ساحل على البحر الأبيض المتوسط طوله أكثر من ٣٠٠٠ كلم، وآخر على المحيط الأطلسي يفوق طوله ٢٠٠٠ كلم، كما أنها تمتد على ما يزيد على ٤٠٠٠ كلم من الصحاري؛ انطلاقًا من موريتانيا غربًا إلى ليبيا شرقًا.

وإجمالاً فإنه نظرًا لتركيبته الطبيعية والمناخية (تساقط الأمطار والحرارة) والنباتية ومصادره البحرية، وبخاصة ثرواته المعدنية، من المحروقات السائلة والغازية إلى المعادن الحديدية وغير الحديدية، فإن المغرب العربي يشكل تمانلاً واضحًا. فمن المحيط الأطلسي إلى مصر والسودان شرقًا، ومن البحر المتوسط حتى تشاد والنيجر ومالي والسنغال جنوبًا، يمثل المغرب العربي نقطة التقاء

مهمة في الاتصالات الدولية، ويتمتع بموقع استراتيجي مهم. (٣)

كما أن المناخ الدولي والإقليمي بعد انتهاء الحرب الباردة، يدفع نحو المزيد من التعاون من أجل تحقيق

التكامل كضرورة حتمية؛ لمواكبة المتغيرات العالمية. وقد نصت الوثيقة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي على أن الهدف من الاتحاد هو تحقيق اندماج أشمل بين شعوب المنطقة مما يعطيها وزنًا نوعيًا يسمح لها بالمساهمة الفعالة في التوازن العالمي، وهو ما يستدعي تحقيق إنجازات ملموسة تجسّد التضامن الفعّال بين الأقطار كسبيل لبناء الوحدة الشاملة.

كما نص الميثاق على السعي لتنمية وأصغر الأخوة بين الدول الأعضاء وشعوبها، والدفاع عن حقوقها وصيانة السلام المستند على العدالة والإنصاف، وإقامة سياسة مشتركة في كل الميادين، والعمل على تحقيق حرية تنقل الأشخاص والخدمات والسلع ورؤوس الأموال بينها، وإقامة تعاون دبلوماسي. (٤)

قيامه وتفعيله حتى يكون في مستوى التعبير عن آمال وتطلعات الشعوب المغاربية، وفي مستوى الاستجابة للتحديات التي تواجهها المنطقة.

١- مقومات البناء:

أنشئ اتحاد المغرب العربي بين الدول الخمس (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، موريتانيا) في فبراير ١٩٨٩، وذلك في محاولة من جانب الدول الخمس لتكوين اتحاد إقليمي فيما بينها، على غرار موجة الاتحادات العربية آنذاك؛ حيث تم إنشاء مجلس التعاون العربي (مصر، العراق، اليمن، الأردن)، بالإضافة إلى ضرورة الاستجابة لإكراهات العولمة، وما يتطلبه ذلك من تكتل. وضمن هذا السياق انطلق بناء التجربة الاتحادية المغاربية؛ استنادًا إلى عدد

من المقومات السياسية والاقتصادية والثقافية:

أ- المقومات السياسية: يعد اتحاد المغرب العربي حلقة في مسلسل التجمعات الإقليمية داخل القارة الإفريقية. فالاتحاد في

وضعه الراهن يصل عدد سكانه إلى ٨٤ مليون نسمة، وتصل مساحته إلى نحو ٦ ملايين كيلو متر مربع (٢)، هذا الفضاء الجيوسياسي سيتعزز سياسيًا، بانتماء الدول الخمس إلى نفس المجال الحضاري العربي الإسلامي، وتقاسمها لنفس التاريخ المشترك. مما ولّد ورشخ فكرة الاتحاد؛ سواء لدى المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، وكونها تحتاج فقط إلى من يحسن استخدامها من قيادات المنطقة؛ ليس بغرض تحقيق الزعامة، وإنما من أجل تحقيق الصالح العام أو مجموعة من المصالح الجماعية، ودون فرض وصاية على دول المنطقة.

وتكتسي هذه البلدان الخمسة مميزات طبيعية متجانسة، فوحدة تضاريسها ظاهرة للعيان في مجموع

المناخ الدولي والإقليمي بعد انتهاء الحرب الباردة، يدفع نحو المزيد من التعاون من أجل تحقيق التكامل كضرورة حتمية لمواكبة المتغيرات العالمية

العصر القديم؛ قبل أن يعززه دخول الإسلام الذي ساهم في تمتين أواصر الأخوة بين شعوب المنطقة لمدة عدة قرون قبل الاستعمار الغربي الذي حمل معه مخططات التجزئة والتفكك.

لقد وصل المسلمون الأوائل لنشر الإيمان والعلوم الإسلامية إلى المغرب العربي عام ٦٤٧م بقيادة عبد الله بن سعد، أي بعد الهجرة بـ ٢٥ سنة فقط (١)، ولكن التاريخ يسجل أن عقبة بن نافع قد لعب دورًا مهمًا بتأسيسه القيروان سنة ٦٧٠م، والتي أصبحت عاصمة إسلامية جديدة، وواصل مهمته حتى المغرب الأقصى.

إن غالبية القيم التي جاء بها الإسلام مثل: تحرير العبيد والتسامح والأخوة، والتضامن والعدالة الاجتماعية، والحرية الاجتماعية والمسؤولية، وكذلك تطبيق هذه القيم في الحياة اليومية، جعل السكان الأصليين يستقبلونه بصدر رحب، وبخاصة السكان المحرومين، ثم عم في ما بعد جميع الفئات مع مرور الوقت، غير أنه تعرض لبعض المقاومات المحدودة من قبل بعض السكان البربر، منها تلك التي قادتها الكاهنة.

غير أن بعض المؤرخين الحاملين لبعض الأيديولوجيات المعادية للإسلام غالبًا ما يبرزون مثال الكاهنة لتبرير الطرح الذي يعتبر المسلمين الذين قدموا إلى المغرب العربي لنشر الإسلام غزاة مثلهم مثل سابقهم ولاحقهم، وأن العرب الذين جاؤوا لتأدية هذه المهمة منذ القرن الأول، محتلون كغيرهم، وقد تم اعتماد هذا الخلط لزرع البلبلة في العقول، ومحاولة تقليص البعد الحضاري للإسلام والتعاليم القرآنية والسنة النبوية الشريفة.

وبالدخول الطوعي في الإسلام، خضع البربر لإرادة الله تعالى وتعاليمه التي جاء بها القرآن الكريم وفصلتها السنة النبوية. إن الأمر يتعلق إذن بالانضمام إلى حضارة، وليس الخضوع لنظام سياسي دنيوي محدد؛ ولذلك لم يعتبر المغرب العربي أبدًا مستعمرة

ب- المقومات الاقتصادية: تتوفر منطقة المغرب العربي على عدد من الثروات الطبيعية التي -في حالة استغلالها- يمكن أن تلعب دورًا أساسيًا في عملية التنمية الاقتصادية، ولاسيما في مجال التكامل الأفقي في المنطقة. فالإلى جانب الثروة المائية؛ والثروة السمكية المهمة توجد موارد طبيعية مهمة ومعادن كما أسلفنا الذكر كالحديد، فموريتانيا وحدها تُعدّ من أكثر دول العالم في الاحتياطي العالمي من الحديد، كما يوجد بها العديد من المعادن الأخرى كالذهب والنحاس والفوسفات؛ إضافة إلى الاكتشافات الأخيرة والضخمة في مجال الغاز والنفط، حسب آخر الاكتشافات المعنية بالتنقيب على الشواطئ الموريتانية، وتنتج ثلاثة أرباع الإنتاج المغربي من الحديد.

كما تحتوي منطقة المغرب العربي على كميات كبيرة من الاحتياطي العربي في مجال النفط (الجزائر، ليبيا)؛ إذ تشير الدراسات الجيولوجية الأجنبية إلى احتواء منطقة الصحراء على كميات كبيرة من النفط، الأمر الذي يفسّر الصراع والمنافسة القوية بين الشركات الفرنسية والأمريكية.

من جهة أخرى تتميز المنطقة بتنوع الموارد الطبيعية من نفط ومعادن، وهو ما من شأنه الإسهام في تحقيق الاندماج المتكامل في جميع الميادين لتعزيز القدرة على مواجهة التحديات المشتركة.

ج- المقومات الثقافية: بالرغم من تعدد الروافد الثقافية في منطقة المغرب العربي (٥) إلا أن اللغة العربية تُعد لغة مشتركة بين جميع أقطار المنطقة، كما أن الدين الإسلامي يظل المرجعية الأساسية داخل الثقافة السائدة لدى سكان المنطقة، كما أن التعددية العرقية الموجودة داخل النسيج السكاني قائمة على الاتصال وليس الانفصال.

يضاف إلى هذا التجانس الثقافي الموحد، وجود تاريخ مشترك صقل المغرب العربي عبر قرون، فالتاريخ المشترك للمجموعة المغاربية يعود إلى

من محاولات إثارة المشكلة البربرية لا تعكس واقعًا موضوعيًا، بل هو افتعال محض تغذيه قوى داخلية وخارجية غير خفية الأسباب والأهداف. (٩)

وهكذا على سبيل المثال يعد المغرب الأقصى نموذجًا للتلاقي بين الثقافات والأجناس؛ على أساس من التآخي والوثام في إطار الدين الواحد. وقد ركزت الوثيقة التأسيسية لاتحاد المغرب العربي على اعتبار الأبعاد الدينية واللغوية والتاريخية كمقومات أساسية للاتحاد؛ من شأنها المساهمة في تسهيل اندماج أشمل بين شعوبها، وهو ما يسهل من إقامة أسس التبادل الفكري والثقافي، ووضع برامج للتعاون الثقافي.

٢- عناصر الإخفاق:

إلى جانب مقومات التكامل في المغرب العربي، فإن هنالك العديد من العوامل المسؤولة عن إخفاق التكامل في المنطقة بعضها راجع إلى طغيان الخلافات السياسية الثنائية، والمعوقات الاقتصادية التي تحول دون تحقيق الاندماج الجهوي:

أ- الخلافات الثنائية: تميزت العلاقات السياسية البينية بين أقطار المغرب العربي بعد مرحلة الاستقلال بالتوتر والتصعيد. فمشكلة الصحراء -في جوهرها- ناتجة عن استمرار الخلاف الجزائري المغربي؛ بفعل تشبث الجزائر بموقفها الداعم والمساند لحركة البوليساريو الانفصالية (١٠)، كما كانت لقضية لوكيربي تداعيات سلبية على علاقات ليبيا بدول المغرب العربي، وتراجع مسيرة تكامل الاتحاد.

إن هذه الخلافات ناتجة عن التناقضات بين الأنظمة السياسية آنذاك في المنطقة، والتي تغذيها في نفس الوقت الخلافات الحدودية التي كانت موضع مواجهة بين الجزائر وليبيا من جهة، والمغرب وموريتانيا، والمغرب والجزائر من جهة ثانية. لكن الخلاف حول نزاع الصحراء، والذي يعد استمرارًا للوضع الخلافية المغربي -الجزائري هو الذي استقطب - خلال الثلاثين سنة الأخيرة - حدة الصراع داخل

للإمبراطورية العربية في المشرق، ولم يكن أبدًا طرفًا في الصراع الذي كان قائمًا بين الخلفاء الأمويين في دمشق والخلفاء العباسيين في بغداد، والذي استمر إلى منتصف القرن الثامن الميلادي، وانتهى لصالح العباسيين.

وهكذا اعتنق المغرب العربي الإسلام كنظام مرجعي وكمجموعة من المبادئ والقيم التي تشكل أسس شرعية السلطة. إن انتماء المغرب العربي إلى العالم الإسلامي يعني توسيع الرقعة الإسلامية على المستوى الحضاري والثقافي، ويمكن أن نلاحظ في هذا الصدد أن بين القرنين الميلاديين الثامن والثالث عشر، دخل المغرب العربي في مرحلة تميزت بجهود توحيدية وإرادة للحفاظ على استقلاله تجاه المشرق العربي (٧). عبر تأسيس إمبراطوريات ودول كبرى (الدولة المرابطية، الدولة الموحدية) قوية متماسكة كان لها دور حاسم في تجسيد خصوصية المنطقة؛ باعتبارها جزءًا من العالم الإسلامي. (٨)

يخلو المغرب العربي من التعدد الديني (باستثناء بعض المجموعات اليهودية القليلة في المغرب الأقصى) فالإسلام دين الجميع. وقد حماه ذلك مما يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التعدد من نعرات وفتن طائفية أصبحت من سمات الواقع الدولي المعاصر. أما التعدد العرقي فيه فينحصر بوجود مجموعات بربرية (أمازيغية) في المغرب والجزائر، وأقلية إباضية في الجزائر. لكن وضع هذه الأقليات يختلف جذريًا عن وضع الأقليات في دول العالم، ذلك أن المغرب العربي -حتى مع وجود البربر- يبدو أقرب إلى التجانس العرقي، ولا وجود فيه لمشكلة عرقية ذات شأن.

ويعود السبب في ذلك إلى أنه مع دخول العرب إلى هذه المنطقة حصل بينهم وبين البربر من قوة الاندماج والتفاعل ما أدى إلى إخفاق الاستعمار إخراجًا ذريعًا في إثارة النعرة البربرية في حينه. كما أن ما عرفته بعض دول المغرب العربي في السنوات الأخيرة

السلبى، والصامت إزاء القرارات الأممية الأمريكية التي تهدف في الحقيقة إلى المسّ بأمن دول اتحاد المغرب العربي، والقضاء عليه كتكتل اقتصادي يهدف إلى مغرب عربي موحد في المستقبل، وبالتالي تهديد المصالح الأمريكية والغربية في منطقة المغرب العربي، فكان ردّ فعل ليبيا إزاء الموقف المغاربي، هو أولاً التهديد بالانسحاب من الاتحاد، ثم ثانياً إلغاء الوزارة المكلفة بالعلاقات المغاربية^(١٣)، وتكريس توجه جديد في سياستها الخارجية نحو القارة الإفريقية.

كما يمكن أن نضيف إلى مسلسل تأزم العلاقات الثنائية، قطع ليبيا لعلاقاتها الدبلوماسية مع موريتانيا، احتجاجاً على تطبيع هذه الأخيرة لعلاقاتها السياسية مع «إسرائيل».

وإجمالاً، إذا كان تأسيس اتحاد المغرب العربي قد ساعد على تطبيع العلاقات الثنائية مغاربيّاً، فإن هذه العلاقات لا تزال

قلة تنوع اقتصاديات المنطقة بشكل
عقبه أمام تنشيط التجارة البينية،
ويجعلها متقلبة حسب التقلب
الحاصل في التجارة الخارجية

تتأرجح بين استمرار رواسب الغموض، والتشكك والحدّر؛ بسبب طغيان الخلافات السياسية، الأمر الذي يحول دون تحقيق نوع من التكتل السياسي، وبالتالي يطرح صعوبة الاندماج الاقتصادي.

ب- المعوقات الاقتصادية: بالرغم من توافر المغرب العربي على الإمكانيات الاقتصادية الملائمة لقيام وحدة اقتصادية، إلا أن هذا المآل مازالت تعترضه العديد من العراقيل والمعوقات، نذكر من بينها:

- استمرار تغليب الطابع العمودي للسياسة الاقتصادية لدول المنطقة على الأفقي: إذ مازال يستحوذ الاتحاد الأوروبي على النصيب الأكبر من التجارة الخارجية لدول المغرب العربي. وتجدد الإشارة إلى أن قلة تنوع اقتصاديات المنطقة يشكّل عقبة أمام تنشيط التجارة البينية، ويجعلها متقلبة

المنطقة؛ بسبب رفض الجزائر الاعتراف بمغربية المناطق الصحراوية التي كانت خاضعة للاستعمار الأسباني^(١١)، وتثبيت المغرب بيسط سيادته على الأقاليم الصحراوية.

- قضية الصحراء وتأثيرها على مسار الوحدة المغاربية: إن ميلاد اتحاد المغرب العربي في ١٧ / ٢ / ١٩٨٩ في مراكش، جاء بعد إعادة تطبيع العلاقات الدبلوماسية بين الرباط والجزائر في ٦ / ٥ / ١٩٨٨، هذه العودة التي شكّلت تغييراً مهماً في تاريخ المغرب العربي، ذلك أنه، ومنذ ١٩٧٥ تميزت العلاقات بين البلدين بالتوتر بسبب قضية الصحراء، هذا التوتر الذي كاد يؤدي في بعض الأحيان إلى حرب مباشرة بين البلدين، لاسيما

وأن الجزائر تستضيف على أراضيها مخيمات «البوليساريو» بمنطقة تندوف، لكن القيادتين الجزائرية والمغربية توصلتا إلى التحكم في توجهاتهما السياسية، والعسكرية؛ لتجنب أية مواجهة

بين البلدين، خاصة وأن كلاً منهما لا زال يذكر حرب الرمال في ١٩٦٣، والتي واجه فيها الجيشان المغربي والجزائري بعضهما، والنتائج الوخيمة التي خلفتها هذه المواجهة^(١٢).

إن مشكل الصحراء كان دائماً ولا يزال يضع العلاقات الدبلوماسية بين الدول المغاربية في موقف حرج، ويعيق المسيرة الوحدوية للاتحاد.

- قضية لوكيربي وتداعياتها المغاربية: كان لنهاية الحرب الباردة تداعيات واضحة على أمن الجماهيرية الليبية، أحد البلدان المكونة لاتحاد المغرب العربي، وذلك بفرض حظر جوي عليها منذ أن صادق مجلس الأمن في يناير ١٩٩٢ على القرار ٧٣١، ثم القرار ٧٤٨.

لقد كان أول تعبير عن هشاشة مؤسسات اتحاد المغرب العربي، وضعف هذا التكتل، هو الموقف

إدراك حجم التفاعلات الإقليمية في المنطقة حاليًا، سواء تعلق الأمر بالجوار الأوروبي أو بالمنافسة الأمريكية الأوروبية للحصول على مواقع النفوذ، أو ما يرتبط بالحوار مع منظمة شمال الحلف الأطلسي (الناتو)، وأخيرًا ما يتعلق بمسلسل التقارب مع إفريقيا جنوب الصحراء عبر آلية المبادرة الإفريقية الجديدة للتنمية المعروفة اختصارًا -بالنيباد- أو عن طريق التجمع الإقليمي الجديد الذي يضم دولاً من المغرب العربي والساحل والصحراء، والذي يطلق عليه تجمع (سين - صاد) أو مجموعة الساحل والصحراء.

أ- التفاعل مع الجوار الأوروبي: ارتبطت العلاقات الأوروبية المغربية بالعديد من المحطات التاريخية والاتفاقيات المتجددة، التي تعود إلى فترة ستينيات القرن الماضي، غير أن حقبة التسعينيات شهدت مسارًا جديدًا في هذه العلاقات بتبني الاتحاد الأوروبي لمبادرة برشلونة ١٩٩٥، الخاصة بالشراكة الأوروبية المتوسطية، وقد كلل هذا المسلسل بتوقيع كل من المغرب وتونس على اتفاقيات شراكة مع أوروبا، تهم التعاون الأمني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. (١٥)

إن واقع المغرب العربي كاتحاد يمر اليوم بفترة عصيبة ودقيقة؛ تبعث على الحيرة والقلق في فهم الظاهرة المغربية الراهنة في بنائها التنسيقي الاقتصادي من جهة، ومن جهة أخرى في طموح شعوبها وقواها الحية ذات التأثير الفاعل في الحياة السياسية والاقتصادية إلى نوع من الوحدة، أو الاتحاد وفق مراحل مخططة، قوامها توسع أفقي جغرافي وعمودي موضوعي لتحقيق شروط وظروف اندماج اقتصادي تدريجي وتراكمي.

إن طبيعة ونوعية هذا التوجه لإرساء هذه العلاقة أو بداية العلاقات البينية للمجموعة المغربية تقتضيها وتستلزمها حتمية التطور على الساحة الدولية التي تفرز التكتلات الاقتصادية والمجموعات الاقتصادية والسياسية، كالاتحاد الأوروبي الذي يواجه أقطار

حسب التقلب الحاصل في التجارة الخارجية، وهو ما استغلته أوروبا لفرض شروطها في اتفاقياتها مع المنطقة مما أدى إلى:

- انخفاض المبادلات التجارية البينية المغربية.
- غياب أي تشجيع ملموس للاستثمارات البينية المغربية.

- ضعف هيكل المبادلات التجارية، بحيث في العادة تمر المبادلات التجارية عبر شريك ثالث، غالبًا ما يكون الاتحاد الأوروبي، فعلى سبيل المثال، يستورد المغرب من الجزائر ٥٪ من وارداتها من المشتقات النفطية، في حين يستورد ما تزيد قيمته الإجمالية عن ٢,٥ مليون درهم من نفس السلعة من الخارج، وتستورد الجزائر أقل من ٢٪ من وارداتها من الحوامض من المغرب، في حين تستورد ما قيمته ٥ ملايين دولار^(١٤) من السلع الغذائية من الاتحاد الأوروبي بعضها مُصنَّع في المنطقة، وتعد أسبانيا أكبر مُصدِّر لأسواق الجزائر وتونس وليبيا من الثروة السمكية القادمة من الشواطئ الموريتانية، التي تعد من أغنى الشواطئ في العالم. ويتم تصنيع الأسماك الموريتانية في أوروبا لتصدر لدول المنطقة بأسعار مضاعفة.

وأخيرًا هنالك التماثل في بعض المنتجات السلعية، مما جعلها تدخل في منافسة حادة فيما بينها.

إن كل هذه العوامل مجتمعة، أسهمت في غياب أجواء ملائمة لقيام تعاون اقتصادي متكامل بين أقطار المغرب العربي؛ لمواجهة تحديات المنافسة الأوروبية والعولمة الاقتصادية التي اشتد تأثيرها بعد انتهاء الحرب الباردة.

المحور الثاني: المغرب العربي وأبعاده الإقليمية:

يمكن اعتبار الموقع الجيوسياسي المتميز للمغرب العربي كجزء من شمال إفريقيا، وحوض البحر الأبيض المتوسط وقربه من أوروبا، وامتداده جنوبًا نحو القارة الإفريقية، بمثابة محددات رئيسية في

المغرب العربي من خلال الإطلال على حوض البحر الأبيض المتوسط.

من هنا يمكن القول: إن الأطراف المغاربية بسلوكها الانفرادي لم ترق إلى مستوى الجبهة الموحدة القادرة

على فرض وجودها كمخاطب وحيد ومؤثر في مواجهة الطرف الأوروبي الموحد المتمثل في الاتحاد الأوروبي.

ولم يعد من شك في أن المجموعة الأوروبية لا تبدي

رغبتها في التعامل مع الأطراف الخمسة لاتحاد المغرب العربي بصورة منفردة، سواء في إطار الاتفاقيات الأولى، أو في إطار المقاربة المتوسطة؛ لاعتقادها أنه ولو مع ظهور اتحاد المغرب العربي، فالحديث عن احتمالات تنسيق لسياسات البلدان المغاربية المختلفة هو من باب الوهم. (١٦)

ومن جانب آخر، وفي ظل الهشاشة والضعف المؤسسي للاتحاد المغاربي، تتجه الدول الخمس إلى التعاون مع الخارج، أكثر من التنسيق داخل الإقليم، واستخدام هذا الاتحاد للتنسيق فيما بينها وبين دول الاتحاد الأوروبي في ما يعرف بحوار (٥+٥) حول عدد من القضايا الأمنية (الإرهاب، الهجرة السرية، الجريمة المنظمة..)، والذي يضم خمس دول من شمال المتوسط (فرنسا، أسبانيا، البرتغال، إيطاليا، مالطا)، وخمس دول من جنوب المتوسط تشمل (موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) (١٧)، وتوليه الدول المغاربية الكثير من الاهتمام، إلا أنها لا تُولي نفس القدر من الاهتمام به كمدخل لتعاون إقليمي ودعم للاتحاد المغاربي، كفرصة متاحة للتنسيق في أمر حيوي وبعيد عن التوترات السياسية والأمنية.

ب- المغرب العربي تحت مجهر المنافسة الأمريكية الأوروبية: أمام تزايد الاهتمام الأوروبي بالصفة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط، باشرت

الإدارة الأمريكية رسم استراتيجية جديدة لاستمالة البلدان المغاربية (١٨)، وهكذا أعلنت واشنطن في نهاية التسعينيات عن مبادرة جديدة للتعاون الاقتصادي (مبادرة إيزنشتات ١٩٩٨)، تروم تعزيز

أواصر العلاقات التجارية بين كل من المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا. واستمر الرهان الأمريكي على المنطقة بتوقيع الولايات المتحدة الأمريكية

الأطراف المغاربية بسلوكها الانفرادي لم ترق إلى مستوى الجبهة الموحدة القادرة على فرض وجودها كمخاطب وحيد ومؤثر

مع المغرب على اتفاقية للتبادل الحر تهم السلع والخدمات سعيًا منها وراء بسط معالم نفوذها في منطقة شمال إفريقيا وغرب حوض البحر الأبيض المتوسط وتعزيز مكانتها التنافسية الاقتصادية أمام الوجود الأوروبي. (١٩)

كما أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش عن قرار الولايات المتحدة الأمريكية منح المغرب صفة حليف استراتيجي خارج منظمة الحلف الأطلسي، وهي صفة -بالإضافة إلى طابعها السياسي- تمنح للمغرب تسهيلات هامة لشراء الأسلحة من الدول المشاركة في هذا الحلف، وتجعل الجيش المغربي يستفيد من التدريب مع قوات الحلف الذي يعتبر أكبر وأقوى حلف عسكري في العالم؛ بعد انهيار حلف وارسو الذي كان يضم دول المعسكر الاشتراكي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصفة تتمتع بها كذلك كل من اليابان وأستراليا ونيوزيلندا، والفلبين وكوريا الجنوبية وباكستان، والتايلاند و«إسرائيل»، وفي العالم العربي الكويت ومصر والأردن.

ومن جانب آخر لا يجب فصل القرار الأمريكي عن لعبة تعزيز النفوذ في منطقة المغرب العربي، واستهداف الدبلوماسية الأمريكية في المقام الأول تحجيم دور الاتحاد الأوروبي الذي يهدد الزعامة الأمريكية مستقبلاً. علاوة على تكريس لعبة التوازن في المنطقة بين المغرب والجزائر. فالولايات

شراكة الألفية لإنعاش إفريقيا - ماب - الذي صاغته جنوب إفريقيا، وخطة «أوميجا» التي صاغتها السنغال، ووثيقة التعاهد لإنعاش إفريقيا التي صاغتها سكرتارية اللجنة الاقتصادية لإفريقيا التابعة للأمم المتحدة في أكتوبر ٢٠٠١.

والمبادرة، هي - كما جاء في وثيقتها الأساسية - تعهد من جانب القادة الأفارقة يقوم على أساس رؤية مشتركة واعتقاد راسخ ومشترك بأن عليهم واجبًا مُلغًا للقضاء على الفقر، ووضع بلدانهم - بصورة فردية وجماعية - على مسار من النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة، والمشاركة بفعالية وإيجابية في الاقتصاد العالمي. (٢١)

أما على صعيد المواقف الرسمية للدول المغاربية تجاه المبادرة فهي متباينة، فالجزائر من الدول المؤسسة للمبادرة؛ إذ تتولى ملف الموارد البشرية، وشاركت مع كل من جنوب إفريقيا ونيجيريا في صياغة مبادرة «ماب» بتكليف من القمة الإفريقية في لومي عام ٢٠٠٠، وقد مهّد الاهتمام الجزائري بالمبادرة لاختيار الرئيس بوتفليقة كنائب لرئيس اللجنة التنفيذية لرؤساء دول وحكومات النيباد. (٢٢) ومن ناحية أخرى بدا أن ليبيا لا تؤيد المبادرة على أساس أنها مشروع استعماري؛ لأنها تبنى معايير غربية من قبيل مفاهيم «الحكم الرشيد» و«الديمقراطية»، واعتبرت أنه لا بد من نشر الوعي بخطورة المبادرة على المستوى الشعبي في كافة دول القارة. أما الموقف المغربي فهو يبيد تأييده للمبادرة بشكل حماسي؛ بالرغم من الرفض الجزائري لانضمامه إليها، لكن السنغال حريصة على الانخراط المغربي في المبادرة. (٢٣)

أما على المستوى الثاني، فإن تجمع دول الساحل والصحراء الذي يضم في عضويته ٢٢ دولة إفريقية ومغربية، بما فيها المغرب وتونس، إضافة إلى تجمعات إفريقية فرعية؛ كالسوق المشتركة للشرق

المتحدة الأمريكية تحت ضغط الشركات النفطية الكبرى ترى في الجزائر دولة استراتيجية من ناحية النفط، فهي تسعى إلى تعزيز العلاقات مع الجزائر، وفي نفس الوقت فهي تريد الحفاظ على صداقتها الكلاسيكية مع المغرب.

ج- الحوار مع منظمة شمال الحلف الأطلسي: تجدر الإشارة في هذا الصدد، أن الحلف يعتمد في استراتيجيته آلية للحوار مع دول جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط، لكن هذه القناة منذ تشكيلها سنة ١٩٩٤ إلى اليوم لم تقدم أية حصيلة إيجابية.

وتأتي هذه الشراكة أيضًا في ظل الأهداف التي يسعى الحلف الأطلسي إلى تحقيقها بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، الذي كان يشكل خطرًا على الدول الغربية، فأصبحت منظمة شمال الحلف الأطلسي بدون عدو واضح المعالم. ولوضع حدّ للانتقادات حول جدوى استمراره، اتفقت الدول الأعضاء على ضرورة تغيير أهداف الحلف، ورسم سياسة تعاون جديد مع المنظمات الدولية وعلى رأسها هيئة الأمم المتحدة. وتبين ذلك تحديدًا في كل من كوسوفو وحرب أفغانستان، ومن ضمن ما سطره الحلف: مكافحة الإرهاب والمخدرات، والاستعداد لمواجهة الكوارث الطبيعية والهجرة السرية.

وتعد المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا من الدول الحاضرة في هذه الأجندة، لاسيما أمام فشل المقاربة المتوسطة في بلورة مفهوم أممي في المنطقة. (٢٠)

د- التفاعل المغاربي الإفريقي: يمكن رصد هذا التفاعل عبر مستويين: النيباد أو الشراكة الجديدة لتنمية إفريقيا، ودور تجمع الساحل والصحراء (تجمع سين - صاد) في تعزيز هذا التفاعل.

فعلى المستوى الأول، مبادرة النيباد NEPAD هي آخر مبادرات التنمية المطروحة في القارة الإفريقية، وقد تم إعلان الصيغة النهائية لها بإدماج برنامج

إن بناء المغرب العربي يمكن أن يشكل لبنة مهمة في صرح بناء العالم الإسلامي (عملاق الغد)، بالنظر إلى المؤهلات الاقتصادية، والثروات المعدنية، والموقع الجغرافي الذي تتميز به المنطقة، فضلاً عن القوة الديموغرافية الهائلة.

ومن هذا المنطلق سنحاول أن نستشرف السيناريوهات الممكنة لمستقبل المغرب العربي، على المدى القريب والمتوسط والبعيد، ونستند في رسم هذه السيناريوهات على المعطيات المتوفرة في الوقت الراهن، والتي تشمل المتغيرات والتحويلات السياسية التي مسّت أقطار المغرب العربي في الآونة الأخيرة، والتي تعبر عن ديناميات محلية في طور التبلور، وربما تساهم في تسريعها طبيعة الارتباطات المرتهنة بمشاريع الدول العظمى في المنطقة، باعتبارها منطقة تنافس وبناء نفوذ استراتيجي بين كل من الولايات المتحدة

والجنوب الإفريقي «كوميسا»، والجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا «إيكواس»، فهو يتميز بعدم انخراط جميع الدول المغاربية فيه؛ نظراً لعدم مشاركة الجزائر.

فقد بادرت ليبيا لتأسيس هذا التجمع عام ١٩٩٨، وذلك لفك عزلتها الدولية بعد أزمة لوكيربي، والبحث عن تعزيز نفوذها الإقليمي على الصعيد القاري بعد أن تخلى عنها العالم العربي. غير أنه بالرغم من مرور ما يقارب عقد على إنشاء هذا التجمع، فإنه يعاني من البطء الواضح الذي يعترى تنفيذ مشروعاته وبرامجه، وبخاصة تلك المتعلقة بالثشق الاقتصادي، بينما هيمنت القضايا السياسية والأمنية على ما عداها من أجندات تنموية؛ كان يفترض أن يعطيها التجمع جُلَّ اهتمامه، لاسيما مع انتشار الفقر والبطالة في معظم دول التجمع.

سيناريوهات استشراف مستقبل المغرب العربي

سيناريو الحمود والعزيز من التجزئة	سيناريو التنسيق والاندماج	سيناريو تجزؤ الوحدة المغاربية
---	---------------------------------	-------------------------------------

الأمريكية من جهة، والدول الاستعمارية السابقة في المنطقة، وتحديداً فرنسا وأسبانيا من جهة أخرى.

وبناء عليه سنرسم ثلاثة سيناريوهات لاستشراف مستقبل المغرب العربي:

- ١- سيناريو الحمود والمزيد من التجزئة.
- ٢- سيناريو التنسيق والاندماج.
- ٣- سيناريو إنجاز الوحدة المغاربية.

المحور الثالث: المغرب العربي والعالم الإسلامي- رؤية استشرافية:

من خلال ما سبق تتضح حجم المصالح المشتركة بين دول المغرب العربي، وتبرز الإمكانات الموضوعية والمؤشرات العملية التي بإمكانها-إذا توفرت مجموعة من الشروط-أن تساهم في تحويل منطقة المغرب العربي إلى قوة إقليمية ذات رهانات استراتيجية كبرى.

للبحث بصورة ثنائية عن تسوية لقضية الصحراء دون تدخل من المنتظم الدولي. (٢٥)

وليس من المستبعد اليوم أنه في حال فشلت جهود الفرصة الأخيرة في إقرار نظام الحكم الذاتي للصحراويين، كحل دائم ونهائي، أن تشهد المنطقة المزيد من الانكشاف أمام استراتيجيات الدول

الكبرى، إما في اتجاه:

- تأييد الصراع والمزيد من إنهاك الأطراف المتنازعة، أي استمرار وضع لا غالب ولا مغلوب، واستمرار القوى الكبرى في كسب المزيد من التنازلات، أمام إصرار الأطراف المتنازعة على

الزعامة الإقليمية في المنطقة.

أو:

- التدخل لحسم النزاع لصالح الطرف الذي يقدم أكبر قدر من التنازلات، ويتناغم مع المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى، وهنا يمكن أن نفهم حجم الاستنزاف الحاصل في الموارد الطبيعية للمنطقة (النفط الجزائري، والثروة السمكية المغربية...) من جرّاء العديد من الاتفاقيات المُجحفة.

السيناريو الثاني: سيناريو التنسيق

والاندماج:

وهو سيناريو مفتوح على أمل بعث الروح في مؤسسات المغرب العربي، والبحث عن صيغ جديدة لإحياء مقومات تكتل إقليمي قوي قادر على الاستجابة لتطلعات وآمال شعوب المنطقة.

هناك عدة أسباب تدعو للإسراع من أجل إنجاز

هذا التحول:

السبب الأول: أن التكتلات الكبرى أصبحت من سمات الاندماج في العالم المعاصر، الذي تتحكم فيه آليات العولمة، وانخراط دول العالم في سياق

السيناريو الأول: الجمود والمزيد من التجزئة:

السيناريو الأول هو سيناريو الجمود، بل ربما المزيد من التجزئة والتفكك، وهذا السيناريو مرتبط بدرجة أساسية بتوتر العلاقات المغربية الجزائرية على خلفية مشكلة الصحراء.

فمن المعلوم أن المغرب تقدم بمقترح منح الحكم الذاتي للأقاليم الصحراوية، وهو ما يعني التنازل عن صلاحيات واسعة لفائدة الصحراويين لإدارة شؤونهم المحلية، وهي صيغة قريبة من مطلب الاستقلال،

لكنها بعيدة في نفس الوقت عن مطلب الانفصال، وستحفظ ماء الوجه للجميع؛ لأن نظام الحكم الذاتي يتجاوز مطلب الإدماج البسيط الذي كان يرمي إليه المغرب، كما يتجاوز مطلب الانفصال والاستقلال النهائي الذي تتمسك به جبهة البوليزاريو مدعومة بالجزائر.

فالمغرب يسعى من خلال هذا المقترح إلى بسط سيادته المعنوية على الأقاليم الصحراوية مع التنازل عن جزء معتبر من السلطة المركزية، وهو أقصى تنازل يمكن أن يقدمه المغرب بالنظر لارتباط قضية الصحراء بإجماع وطني راسخ، بل وارتباطها أيضًا بشرعية النظام السياسي المغربي، فالملك هو المسؤول دستوريًا عن وحدة البلاد، وهو الضامن لدوام الدولة، واستمرارها في دائرة حدودها الحقة. (٢٤)

وفي هذا السياق يجدر التذكير بقرار سابق لمجلس الأمن سنة ٢٠٠٣ أكد فيه على أنه «سوف يفرض الحل على الأطراف المعنية في حالة إذا لم تتوافق هذه الأطراف على أسس خاصة بها للتسوية»، وهو ما اعتُبر آنذاك بمثابة ضغط من الأمم المتحدة على هذه الأطراف (المغرب والجزائر تحديدًا) بهدف دفعها

السيناريو الثالث: سيناريو إنجاز الوحدة المغربية في أفق الاندماج مع العالم الإسلامي:

ليس هناك ما يؤشر على قرب إنجاز هذا التوقع في الوقت الراهن، وبالتالي فهو سيناريو بعيد المدى. لكن مشروعية طرحه كسيناريو من بين السيناريوهات المتوقعة نابع من الفرضية التالية:

كلما ارتفعت مؤشرات التقارب بين الأنظمة وشعوب المنطقة، ونجحت محاولات التطور الديمقراطي لتحمل إلى الحكم أنظمة تحظى بالشرعية والديمقراطية، كلما نجحت جهود بناء المغرب العربي الكبير. وفي هذا السياق سنحاول إبراز بعض الإمكانيات التي تتيحها بعض المعطيات المرتبطة بأفاق التحول السياسي في المنطقة.

ومن بين هذه المعطيات: تجربة التحول الديمقراطي في المغرب، وبوادر الانتقال الديمقراطي في موريتانيا، والنجاح النسبي لمسلسل المصالحة في الجزائر، وبوادر المصالحة في ليبيا، مع بروز بعض المؤشرات لفائدة التغيير، وظهور الملامح الأولى لبعض مظاهر الممانعة المدنية والحقوقية في تونس. بحيث تفيد المعطيات المرتبطة بالحياة السياسية المغربية أن الانتخابات التشريعية المزمع عقدها في بحر هذه السنة يمكن أن تحمل جزءاً من التيار الإسلامي إلى تدبير الشأن العام، من موقع المسؤولية الحكومية - طبعاً بالتحالف مع قوى سياسية أخرى - (٢٨)، وهو ما من شأنه أن يطلق ديناميكية سياسية جديدة ستكون لها انعكاسات إيجابية على الوحدة المغربية، بالنظر إلى التحرر النسبي للتيار الإسلامي من خطاب التجزئة والنزعة الوطنية الضيقة، علماً أن مختلف الاتجاهات السياسية في المغرب تعبر في خطاباتها السياسية على أن بناء المغرب العربي هو خطوة استراتيجية لا بد منها؛ لمواجهة التحديات المحدقة بالمنطقة، غيز أن العائق

اقتصادي واحد، مما يعني أن التكتل أصبح ضرورة حتمية، ومن مستلزمات الانخراط الفعال في النظام الاقتصادي العالمي.

السبب الثاني: أن انخراط دول المنطقة في اتفاقيات الشراكة الأوروبية ومتوسطة، وفي اتفاقيات التبادل الحر مع دول كبرى بشكل منفرد من شأنه أن يزيد في إضعاف اقتصاديات دول المنطقة، وهو ما يفرض عليها التنسيق والاندماج لتحصيل أكبر قدر من المكاسب والنتائج الإيجابية، وتعزيز قدرتها التنافسية وموقعها التفاوضي أمام التكتلات الاقتصادية القوية المحيطة بها.

وهناك أسباب أخرى واقعية تدعو دول المنطقة للتنسيق والاندماج، وبلورة سياسات مشتركة لمواجهة العديد من التحديات المرتبطة بالأمن والهجرة والتصحّر، وفق رؤية مغربية تراعي بالدرجة الأولى مصالح شعوب المنطقة.

فإذا أخذنا إشكالية الأمن في المنطقة على سبيل المثال، فلا يمكن أن نراهن على الانطلاق من نظرة قُطرية ضيقة تركز على أمن كل قطر مغربي على حدة في إطار حدوده السياسية الحالية، وبالنظر إلى التزاماته السياسية وارتباطاته الإقليمية؛ ذلك أن أقطار المغرب تواجهها تحديات أمنية واحدة، ولا يمكن تصور أمن أي قطر مغربي بمعزل عن أمن الأقطار المغربية الأخرى.

طبعا هناك «مفهوم وطني للأمن، يرتبط بواقع التجزئة إلى أقطار عربية مستقلة ذات كيانات متميزة، وما يتعلق بذلك من حدود وارتباطات دولية وسياسية خارجية». (٢٦)

لكن واقع التجزئة عليه أن لا يلغي ضرورة التفكير في بلورة رؤية مغربية موحدة لمفهوم الأمن؛ لأن من الخطأ الاعتقاد بأنه يمكن لأي دولة في المغرب العربي أن تحقق أمنها بمعزل عن أمن الدول المجاورة، وهذه النتيجة تشهد بها الأحداث الجارية في المنطقة. (٢٧)

سياسات الماضي الثورية التي جلبت لها مشاكل عديدة مع دول الجوار، إلى دولة تؤمن بخصوصية توجهات كل دولة مجاورة، وتراجعت عن دعم جبهة البوليزاريو، وهو ما ساهم في تحسين علاقاتها الثنائية مع المغرب.

أما على الصعيد الداخلي فإن تصريحات المسؤولين الليبيين، ولا سيما تصريحات سيف الإسلام نجمل العقيد القذافي، تفيد أن مسلسل الإصلاح السياسي، وموضوع حقوق الإنسان، وإطلاق الحريات سيشهد تطورات نوعية في المستقبل، انطلقت بتدشين بوادر المصالحة بين النظام الليبي والإخوان المسلمين، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار دور العامل

الخارجي في الإسراع بهذه التحولات؛ خصوصاً وأن ليبيا بدت في السنوات الأخيرة مهمة بتحسين صورتها على المستوى الخارجي؛ لتجاوز مجموعة من الضغوطات التي عانت منها في المرحلة السابقة، بعد أزمة لوكيربي الشهيرة، وما

إن العناصر المرتبطة بالعلاقة مع الدول الإسلامية تبدو هزيلة وضعيفة باستثناء بعض المؤشرات المرتبطة بتوقيع المغرب وتركيا على اتفاقية التبادل الحر خلال سنة ٢٠٠٦.

أعقبها من حصار اقتصادي انعكس بشكل سلبي على المواطن الليبي.

أما في تونس فرغم استمرار مظاهر انغلاق النظام السياسي، وما يرافقه من انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، وعدم بروز مؤشرات للانفتاح السياسي على المدى المنظور، فإن بعض مظاهر الممانعة المدنية والحقوقية بدأت في البروز، وهو ما يعني أن المجتمع التونسي - عبر تنظيماته السياسية والمدنية المعارضة للنظام السياسي - يحاول أن يستعيد مبادرة الفعل السياسي من جديد في أفق إطلاق ديناميكية جديدة للتدافع السياسي الداخلي، خصوصاً بعد بروز بعض مظاهر التعبير السياسي العنيف في الآونة الأخيرة (٣٠)، والتي من شأنها تشجيع بعض الشباب الغاضب على تبني لغة العنف السياسي أمام استحالة

الوحيد لدى الجميع هو الموقف الجزائري الداعم لجبهة البوليزاريو في الصحراء.

وينتظر الموريتانيون الانتخابات الرئاسية في شهر مارس للحكم على مدى جدية ومثانة خطاب الانتقال الديمقراطي، الذي يقوم بتسويقه المجلس العسكري للعدالة والديمقراطية، خصوصاً بعد مظاهر الارتياح التي تم التعبير عنها من طرف مختلف الأطراف، بخصوص ظروف النزاهة والشفافية التي سادت في الانتخابات التشريعية والبلدية الأخيرة، بشهادة المراقبين الدوليين، والتي حصلت فيها قوى المعارضة السابقة على الرتبة الأولى من عدد المقاعد المحصل عليها. (*)

كما أن النجاح النسبي لخيار المصالحة في الجزائر، وعودة بعض الأسماء الوازنة من قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى البلاد، وإطلاق سراح عدد كبير من معتقلي التيار الإسلامي، يمكن أن يحمل بوادر انطلاق دورة جديدة للحياة السياسية

الديمقراطية، خصوصاً إذا نجحت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في بلورة رؤية سياسية مرنة، وفي إيجاد صيغة مناسبة تستطيع بمقتضاها الانسياب الهادئ في المشهد السياسي الوطني الجزائري (٢٩)؛ فمن المعلوم أن الشيخ عباس مدني (الرمز التاريخي للجبهة) كانت له مواقف إيجابية من اتحاد المغرب العربي، وسبق له أن عبر عن تصريحات لفائدة مغربية الصحراء، وسبق له أن التقى بالملك الراحل الحسن الثاني في سنة ١٩٩٠ على ظهر سفينة مراكش التي أقلت العاهل المغربي إلى القمة العربية التي انعقدت بالجزائر آنذاك.

أما في ليبيا فإن مؤشرات التحول في السياسة الخارجية على المستوى الإقليمي أصبحت واضحة في السنوات الأخيرة، بحيث انتقلت ليبيا من

الهوامش:

- (١) منير شفيق، التجزئة.. والدولة القطرية.. قراءة استطلاعية، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م - ص: ١٢٢
- (2) Mustapha Benchenane : les incertitudes du Maghreb. In enjeux diplomatiques et stratégiques. Centre d'études diplomatiques et stratégiques. Economica. 2004
- (٣) د/ عبد الحميد إبراهيمي، المغرب العربي في مفترق الطرق في ظل التحولات العالمية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص: ٢٩-٣٠.
- (٤) انظر الميثاق المؤسس لاتحاد المغرب العربي.
- (٥) جاء مصطلح المغرب العربي من التسمية العربية « جزيرة المغرب»، وهي تسمية أطلقها الجغرافيون العرب على هذه المنطقة التي تمتد من ليبيا إلى المغرب الأقصى، والتي أدخل العرب إليها الإسلام ابتداء من القرن الميلادي السابع. ولكلمة المغرب دلالة مزدوجة جغرافية وتاريخية في نفس الوقت نفسه. وكثيراً ما وصف المغرب الغربي بالأسطوري، وترافق مع هذا الوصف الإلحاح على الخصوصيات التي تميز البلدان التي تشكله، والجزم بأن هذه الكتلة لا تكوّن أية وحدة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. مع أن المعطيات الموضوعية تبين أن المغرب العربي ليس قليل الانسجام بالقدر الذي يروج له، سواء أكان ذلك من وجهة نظر جغرافية، أم حضارية أم تاريخية أم سوسيو-ديموغرافية.
- (٦) المرجع السابق، ص: ٣٣.
- (٧) أ/ محمد المالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، ٢٠ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٣) ص: ٥٠.
- (8) Benjamin Stora, Akram Ellyas : les 100 portes du Maghreb. Ed Atelier 1999. pp : 140-141.
- (٩) محمد صالح الهرماسي، مقاربة في إشكالية الهوية المغربية العربي المعاصر، دار الفكر العربي المعاصر، دار الفكر، ٢٠٠١، ص: ٣٥-٣٦.
- (10) Addi Lahaouari : introuvable réconciliation entre Alger et Rabat. Monde diplomatique. Décembre 1999, p : 12
- (١١) فتح الله ولعلو، المشروع المغاربي والشراكة الأورو متوسطية، دار توبقال، ١٩٩٧، ص: ٨.
- (١٢) عبد الكريم عدلاني، المغرب العربي من التجزئة إلى الاتحاد، مذكور في د/ محمد عاشور، أ/ أحمد علي سالم، التكامل الإقليمي في إفريقيا. رؤى وآفاق. جامعة القاهرة. معهد البحوث والدراسات الإفريقية. ٢٠٠٥، ص: ٢٩٩-٢٣٠.

العمل من داخل المؤسسات الفاقدة للمصدقية وللاحترام. وهو ما قد يدفع أطرافاً داخل الدولة التونسية إلى تبني أطروحة معتدلة تروم فسخ هامش للتنفيس السياسي أمام المجتمع، وضخّ دماء جديدة في شرعية النظام السياسي.

إن سرد المعطيات السياسية الحاصلة في المنطقة، ورصد عناصر التطور الديمقراطي المرتبطة بها نابع من إدراكنا أن الإخفاق في بناء المغرب العربي - وبالتالي بناء استراتيجية للاندماج في العالم الإسلامي - راجع بالدرجة الأولى إلى العامل السياسي، وإلى طغيان الحسابات السياسية للأنظمة المفتقرة للشرعية على حساب تطلعات الشعوب وطموحاتها.

أما على المستوى الاقتصادي فإن العناصر المرتبطة بالعلاقة مع الدول الإسلامية تبدو هزيلة وضعيفة، باستثناء بعض المؤشرات المرتبطة بتوقيع المغرب وتركيا على اتفاقية التبادل الحر خلال سنة ٢٠٠٦، والتي من المتوقع أن ترفع حجم المبادلات التجارية بينهما وحجم الاستثمار بين البلدين، بحيث لا يزيد حجم الاستثمارات التركية في المغرب قبل توقيع هذه الاتفاقية عن ٣, ١٦ مليون درهم سنة ٢٠٠٣ (٣١)، بينما يصدر المغرب إلى تركيا ما يعادل ٣, ٤٦٩ مليون درهم.

وفي غياب أي تعاون اقتصادي مهم بين الجزائر وتركيا لاحظنا توقيع اتفاقية الأخوة والصدقة بين البلدين في ٢٠٠٦، وهي عبارة عن رسالة موجهة ضد فرنسا في إطار الازدواجية الفرنسية في التعامل مع ملف معازر الأرمن، واحتلالها للجزائر، وارتكابها لفظاعات إنسانية لم تعتذر عنها لحد الآن.

لكنها رسالة خالية من أي بُعد استراتيجي واقتصادي في الوقت الحاضر.

ومن ناحية أخرى يمكن اعتبار اهتمام دول المغرب العربي بالعمق الإسلامي الإفريقي اهتماماً محدوداً، في الوقت الذي يشكل فيه الإسلام ديانة الأغلبية من السكان في معظم الدول الإفريقية. (٣٢)

بيكر (الذي استقال من منصبه مباشرة بعد ذلك) بأنه أصبح طرفاً في القضية وليس وسيطاً بين أطرافها، بينما قبلت كل من الجزائر والبوليفاريو بمضمون الخطة التي كانت تقضي بمنح الحكم الذاتي للصحراويين متبوعاً باستفتاء لتقرير المصير.

(٢٦) د/ علي الدين هلال، جميل مطر: النظام الإقليمي العربي دراسة في العلاقات السياسية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السابعة، بيروت، ٢٠٠١، ص: ٢٦٨.

(٢٧) تشير العديد من التقارير الصحافية إلى أن بعض الجماعات المسلحة تنشط بشكل مثير في منطقة الساحل والصحراء مستفيدة من ضعف التنسيق الاستخباري بين الرباط والجزائر وموريتانيا. بالمقابل تشير تقارير أخرى إلى أن الجزائر تنهج في مجال التسلح على سياسة تتمتع على تقوية قدراتها الصاروخية الهجومية، وهناك تخوف في المنطقة أن تكون هذه الترسانة موجهة ضد المغرب لحسم الصراع حول قضية الصحراء بواسطة الحرب!

(٢٨) ذلك أن نمط الاقتراع والقوانين الانتخابية التي صادق عليها البرلمان المغربي تمت صياغتها بطريقة لا تمكن أي حزب سياسي من الحصول على الأغلبية البرلمانية بمفرده. لمزيد من التفاصيل انظر: عبد العلي حامي الدين: القوانين الانتخابية وآفاق الحراك السياسي في المغرب، موقع إسلام أون لاين. ديسمبر ٢٠٠٦.

(*) تم الانتهاء من كتابة البحث قبل إجراء انتخابات الرئاسة الموريتانية.

(٢٩) أعلن أنور هدام القيادي البارز في الجبهة الإسلامية للإنقاذ في شهر يناير ٢٠٠٧ عن خطوة تأسيس حزب سياسي جديد في الجزائر، وربما تكون هذه صيغة مناسبة لعودة الجبهة بخطاب جديد ورؤية واضحة.

(٣٠) أعلنت السلطات التونسية خلال شهر يناير ٢٠٠٧ عن تفكيك ما سمته «الجماعة السلفية الإرهابية» التي كانت تعتزم ضرب بعض مؤسسات الدولة.

(٣١) راجع الميزان التجاري المغربي. مكتب الصرف ٢٠٠٣.

(٣٢) انظر توزيع المسلمين في دول إفريقيا جنوب الصحراء في: L'Année Stratégique 2001, Ed : Michalon 2000

(13) Ridha Kefi : le virage africain de Khaddafi. Jeune Afrique. N° 2033-2034. Décembre 2000. p : 40-43

(١٤) راجع الميزان التجاري المغربي. مكتب الصرف ٢٠٠٣.

(15) Driss Khrouz. Le processus de Barcelone : Dix ans après, Quelles perspectives ? In L'Annuaire de la Méditerranée 2005. GERM. Marif el Jadida 2006. p : 190

(١٦) مصطفى الكثيري وحسن الصبار: اتحاد المغرب العربي في مواجهة الاتحاد الأوروبي، معادلة التحدي الأوروبي والجواب المغربي، مذكور في العلاقات الاقتصادية البينية لبلدان المغرب العربي في مواجهة التكتلات الخارجية، ندوة علمية للمؤتمر الثاني لاتحاد المغرب العربي للاقتصاديين، الحوليات المغربية للاقتصاد، عدد خاص، شتاء ١٩٩٥، ص: ٩٧.

(17) Jean -François Daguzan. Les relations entre la France et le Maghreb. Diplomatie Magazine. Juillet- août 2003.

(١٨) رشيد خشانة: المغرب العربي بين الخيار المتوسطي ومشروع الشراكة الأمريكية، مجلة شؤون الأوسط، عدد: ٨٢، أبريل ١٩٩٩، ص: ٣١-٣٩.

(١٩) د/ عادل مساوي: الدبلوماسية المغربية: الحصاد والرهانات الجديدة، مذكور في المغرب في مفترق الطرق، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، كراسات استراتجية، منشورات وجهة نظر، ص: ٢١٧-٢٢٦.

(20) Abdenour Benantar : Quelle coopération pour l'Afrique du Nord ? in Afrique du Nord : Stabilité et instabilité au XXIème siècle ? . actes de la journée d'études du 18 Janvier 2006. Fondation pour la recherche stratégique. www.frs.org

(21) Philippe Hugon. Le Nepad entre partenariat et gestion des conflits. In Politique étrangère. N°2, 2003.

(٢٢) راوية توفيق: دول الشمال الإفريقي ومبادرة الشراكة الجديدة لتنمية أفريقيا (نيباد). د. محمد عاشور وآخرون مرجع سابق، ص: ٣١٥.

(٢٣) عادل مساوي: علاقة المغرب مع إفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية، أطروحة دكتوراه في العلاقات الدولية جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠٠٣.

(٢٤) الفصل ١٩ من الدستور المغربي.

(٢٥) من المعلوم أن المغرب عبّر آنذاك عن تحفظه على هذه الخطة، واتهم المبعوث الخاص للأمم المتحدة آنذاك السيد جيمس

معلومات إضافية

اتحاد المغرب العربي

١- التأسيس:

بيان زرالدة:

اجتمع قادة دول المغرب العربي بمدينة زرالدة بتاريخ ١٠/٦/١٩٨٨، وفرروا تكوين لجنة تضبط وسائل تحقيق وحدة المغرب العربي، التي اجتمعت بمدينة الجزائر بتاريخ ١٣/٧/١٩٨٨.

إعلان مراكش:

أصدر قادة دول المغرب العربي بتاريخ ١٧/٢/١٩٨٩ إعلاناً عن قيام اتحاد المغرب العربي. معاهدة إنشاء اتحاد المغرب العربي:

تم توقيع معاهدة إنشاء اتحاد المغرب العربي بمدينة مراكش بتاريخ ١٧/٢/١٩٨٩ من قبل دول المغرب العربي التالية:

- المملكة المغربية.
- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
- الجمهورية التونسية.
- الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى.
- الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

٢- أهداف الاتحاد

يهدف الاتحاد إلى:

- تمكين أرواح الأخوة التي تربط الدول الأعضاء وشعوبها بعضها ببعض.
- تحقيق تقدم ورفاهية مجتمعاتها، والدفاع عن حقوقها.
- المساهمة في صيانة السلام القائم على العدل والإنصاف.

- نهج سياسة مشتركة في مختلف الميادين.

- العمل تدريجيًا على تحقيق حرية تنقل الأشخاص، وانتقال الخدمات والسلع ورؤوس الأموال فيما بينها.

وتهدف السياسة المشتركة المشار إليها أعلاه إلى تحقيق الأغراض التالية:

في الميدان الدولي: تحقيق الوفاق بين الدول الأعضاء، وإقامة تعاون دبلوماسي وثيق بينها يقوم على أساس الحوار.

في ميدان الدفاع: صيانة استقلال كل دولة من الدول الأعضاء.

في الميدان الاقتصادي: تحقيق التنمية الصناعية والزراعية والتجارية والاجتماعية للدول الأعضاء، واتخاذ ما يلزم اتخاذه من وسائل لهذه الغاية، خصوصًا بإنشاء مشروعات مشتركة وإعداد برامج عامة ونوعية في هذا الصدد.

في الميدان الثقافي: إقامة تعاون يرمي إلى تنمية التعليم على كافة مستوياته، وإلى الحفاظ على القيم الروحية والخلقية والمستمدة من تعاليم الإسلام السمحة، وصيانة الهوية القومية العربية، واتخاذ ما يلزم اتخاذه من وسائل لبلوغ هذه الأهداف، خصوصًا بتبادل الأساتذة والطلبة، وإنشاء مؤسسات جامعية وثقافية، ومؤسسات متخصصة في البحث تكون مشتركة بين الدول الأعضاء.

وللمزيد من المعلومات يُرجى تصفح موقع اتحاد المغرب العربي الرسمي على الإنترنت ورابطه:

<http://www.maghrebarabe.org>

قضية لوكيربي:

في يوم الأربعاء ٢١ / ١٢ / ١٩٨٨ انفجرت الطائرة البوينغ ٧٤٧، التابعة لشركة PAN AMERICAN WORLD AIR LINES، أثناء تحليقها فوق قرية لوكيربي LOCKERBIE، الواقعة في مدينة دمفريز وغالواي الأسكتلندية غربي إنجلترا. وقد نجم عن الحادث موت ٢٥٩ شخصًا هم جميع من كان على متن الطائرة و١١ شخصًا من سكان القرية حيث وقعت. وبلا سابق إنذار صدر في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في ١٣ / ١١ / ١٩٩١ أمرًا بالقبض على مواطنين ليبين يُشتبه في مسؤوليتها عن تفجير الطائرة؛ كونهما يعملان بمكتب شركة الخطوط الجوية الليبية بمطار لوقا بمالطا.

عملت الدولتان على إصدار قرار من مجلس الأمن بدين ليبيا، وبالفعل تم إصدار قرار في ٣١ / ٣ / ١٩٩٢ يحمل الرقم ٧٤٨ بأغلبية ١٠ أصوات بينها دولة عربية، وامتناع ٥ أعضاء عن التصويت، يوجب على ليبيا الاستجابة لطلب الدولتين، ويهدد بفرض عقوبات عليها من بينها

المغرب العربي - د/ عادل مساوي
د/ عبد العلي حامي الدين

حظر الطيران منها وإليها، وقد رفضت ليبيا الاستجابة لهذا القرار، وتم فعلاً توقيع العقوبات في الموعد المضروب كأجل نهائي، وهو ١٥ / ٤ / ١٩٩٢، لم تستجب ليبيا لمطالب الدولتين التي اكتسبت طابع الدولية.

حصلت ليبيا على دعم الدول العربية ممثلة في جامعتها، التي شكَّلت لجنة سباعية دائمة لهذا الغرض، وحصلت على دعم دول عدم الانحياز، ولعل أهم دعم حصلت عليه كان من الدول الإفريقية، التي قررت في قمتها التي انعقدت في عاصمة بوركينا فاسو «واقا دوقو» في ١٠ / ٩ / ١٩٩٨ كسر الحظر المفروض على ليبيا، بحلول شهر سبتمبر من نفس العام ما لم يستجاب إلى مطالبها. عندها قبلت الدولتان في ٢٤ / ٨ / ١٩٩٨ بمحاكمة الليبيين في بلد ثالث (طلب ليبيا) هي هولندا؛ حيث وافقت ليبيا وبعد إجراءات استمرت فترة بدأت المحاكمة بهيئة مؤلفة من ٣ قضاة، وعقدت مداوالات استمرت ٨٤ يوماً من المرافعات القانونية. وفي ٣١ / ١ / ٢٠٠١ أدانت المحكمة أحد المواطنين استناداً على قرائن ظرفية، وبرأت الآخر. وعلى خلفية هذا الحكم دخلت الدولتان في مفاوضات مع ليبيا أسفرت عن الوصول إلى تسوية تدفع بموجبها ليبيا تعويضات إلى أسر الضحايا وتعلن مسؤوليتها عن أعمال موظفيها، وهذا ما تم بالفعل. وعلاقة الدولتين وليبيا الآن على درجة من الوثام لم تُعرف منذ زمن.

الموسوعة الحرة ويكيبيديا، <http://ar.wikipedia.org/wiki>

إجمالي الناتج المحلي لبلدان المغرب العربي:

١٩٩٨	١٩٩٧	١٩٩٦	١٩٩٥	١٩٩٤	١٩٩٣	١٩٩٢	
٣٦١٢٤	٣٣٥١٤	٣٦٦٧٢	٣٢٩٨٥	٣٠٣٥٢	٢٦٨٠٢	٢٨٤٥١	المغرب
-	٢٩٢٨٩	٢٩٢٦١	١٩٨٢٠	١٩٠٧٦	٢٢١٢٢	٢٥٠٢٥	ليبيا
٤٦٦٠٢	٤٧٠٧٢	٤٦٠٦١	٤١٢٥٦	٤٢٠٦٣	٤٩٧٦٢	٤٩١١٦	الجزائر
٩٠٣	٩٩٢	١٠٩٤	١٠٦٨	١٠٢٧	٩٤٤	١١٩١	موريتانيا
٢٠٠٢١	١٨٨٩٩	١٩٥٨٧	١٨٠٣٠	١٥٦٣٣	١٤٦٠٨	١٥٤٩٧	تونس
١٠٣٦٥٠	١٢٩٧٦٦	١٣٢٦٧٥	١١٣١٥٩	١٠٨١٥١	١١٤٢٣٨	١١٩٢٨٠	الإجمالي

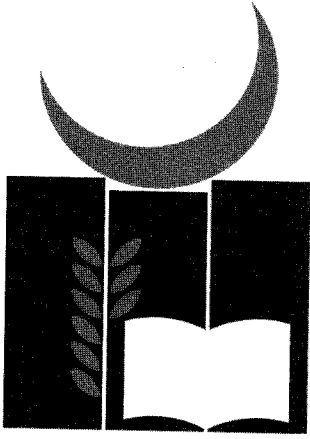
Source: United Nations Conference on Trade and Development

مؤشر كثافة التبادلات الثنائية بين بلدان اتحاد المغرب العربي:

تونس	المغرب	موريتانيا	ليبيا	الجزائر	استيراد الدولة من:
-	٤,٤	٣,٤	٠,١	-	استيراد من الجزائر (١٩٩٥) من:
٣٣,٧	١٩,٣	٣,٦	-	٠,١	استيراد من ليبيا (١٩٩٧) من:
٠,٥	٥٧,٣	-	٠,٠	٣,٣	استيراد موريتانيا (١٩٩٥) من:
٣,٦	-	٠,٧	٨,٠	٣,٩	استيراد المغرب (١٩٩٦) من:
-	٥,٧	١,٩	١٤,٦	٣,٠	استيراد تونس (١٩٩٧) من:

Source: United Nations Conference on Trade and Development

calculations of the secretariat



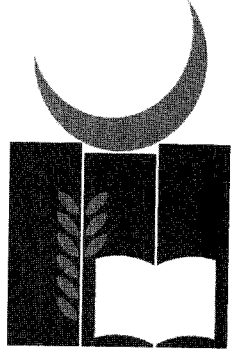
الباب الرابع

قضايا العمل الإسلامي

أ.د/ ناصر العمر دور العلماء في قيادة الأمة

د/ عبد العزيز كامل ما بعد الحزبية

أحمد فهمي الإسلاميون والطريق إلى السلطة



دور العلماء في قيادة الأمة

أ. د/ ناصر بن سليمان العمر - السعودية

المشرف على موقع المسلم في الشبكة العالمية

ملخص البحث:

للعلماء دور عظيم في قيادة الأمة، ينبع من علمهم المقترن بالعمل، فهم «ورثة الأنبياء»، يرثونهم في العلم والعمل، يقتدون بهم في السر والعلن، يلتزمون منهجهم في الغضب والرضا، فيدعون عن ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصرون بنور الله تعالى أهل العمى.

ويقدر أهمية العلماء الربانيين وحاجة الأمة إليهم تبين حثًا خطر غياب دورهم أو تغييبهم، فإن الثغرة التي هم عليها لا يسدها غيرهم، فعليه أن يتقدموا لسد هذه الثغرة، وأن يتولوا زمام المبادرة بأنفسهم، وأن يكونوا قريبين من الناس قبل الفتن وفي أثنائها، وأن لا ينتظروا أن تأتيهم الفرص وهم قاعدون.

إن العلماء متى تأخروا تقدم غيرهم ممن ليس أهلاً لسد مكانهم، ولا يبدؤ للناس من قادة برشدونهم ويوجهونهم حتى إذا لم يجد الناس عالماً اتخذوا رؤوساً جهالاً فسألوهم فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا.

وعلى العلماء أن يحذروا من تغييب دورهم بأنفسهم، وقد يقع ذلك من حيث يظن العالم أن هذا هو مقتضى الثبات، وعدم التأثير بالواقع، بينما هو في حقيقته نوع من الانغلاق والانكفاء على الذات، فالمراد من العالم أن يقوم بما يستطيع، وهو معذور فيما لا يحسن، فإن قدر يكون المرجو منه شمولية الأهداف والمشاريع، وإصلاح واقع الأمة بكل مجالات ذلك الواقع واتجاهاته.

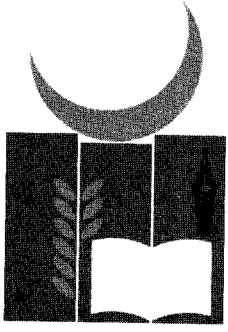
ويظل المطلوب من العلماء كثيرًا، والمهمة الملقة على عانقهم عظيمة، ولا بد أن توجهاتهم تكون موقّنة لما اخرج من حال الأمة، ملمة لما تبشر منها، موجهة لها إلى حيث تعظم الحاجة، وعلى الشباب والدعاة عدم إغفال رأي أهل العلم، والحرص على استنباط الصواب بمشورتهم، ولعل مما يتوجب على أهل العلم أن يتعدى دورهم حال النوازل أكثر من مجرد إصدار بيان -على أهمية البيان للأمة- إلى اقتراح المشاريع والبرامج العملية التي يرونها كفيلاً بمعالجة النازلة، أو احتواء آثارها، والمشاركة في تلك البرامج والمشاريع، ومراقبة خط سير الأمة على المنهج الأثوم. حتى لا تدفع النوازل الطارئة إلى خروج عن الصراط المستقيم، فضلًا عن الاستعداد لكل منافق قد يظن بقرنه أثناء النازلة.

أفكار ومقتطفات

- العلم الذي هو سبب التشريف وعلّة التكريم قد يكون سبباً لشقاء الدنيا والآخرة، وموجباً للذم والمهانة عند الله وعند الناس إذا لم يقترن به من العمل ما ينفع صاحبه وأمته من بعده.
- مَنْ يجتهدُ فيما يطيق من العمل الصالح ونفع الأمة بما معه من العلم هو في أشرف المنازل وأسنائها، حتى ولو لم يكن من المتبحرين في علوم الشريعة أو الخائضين في لَجَّتْهَا.
- أهم صفات العلماء الربانيين الذين يُنتظر منهم أن يقودوا الأمة - ولا سيما عند الاختلاف والاضطراب - هي صفة «الخشبية».
- ليس المراد بالثبات أن يقعد العالم في بيته معتزلاً عن قضايا الأمة وهمومها، وإنما المراد هو الاضطلاع بدور الريادة والقيادة مع التمسك بأمر الله قدر المستطاع، فإن قدر وإلا عُذر، فإن الثبات على المبدأ هو التحرك به لا الانعزال والانطواء.
- لو تأملت حال مجددي الأمة على مر العصور تلمس طابع التفاعل مع المجتمع والتفعيل لقواه المختلفة أمراً مطرداً، وهذا أمر طبيعي.
- واقع الأمة يتطلب تفعيلاً لها من قِبَل المبصرين لما يجب أن تكون عليه؛ وفقاً لمنهج الله الذي ارتضى لعباده، وهذا يحثُّ على أهل العلم والفضل التقاءً واتفاقاً على مشاريع مختلفة؛ باختلاف المتفقيين عليها وباختلاف أولويات واقعهم، فضلاً عن نبذ التنافر والتنافر الذي لا يخفى أثره.
- هذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها «شيخ الإسلام ابن تيمية».
- قد يكون من الغش لأنفسنا وإخوتنا وللأمة اجتماعنا لعلاج داء يسير مع من يحملون داءً عضالاً قاتلاً كان البدء به أحرى.
- إن المؤثرين من العلماء والدعاة إن اقتصروا على قدراتهم الذاتية فسوف يكون مآلهم الانغلاق على مشروع أو مشروعين.
- لتنوّع الظروف والمجتمع الذي يقوم فيه شأن الإصلاح أثر في اختلاف الأولويات والوسائل، وهو في الجملة من اختلاف التنوع لا التعارض؛ مما يوجب على أهل الإصلاح التعاضد عند الاختلاف واجتناب سوء الظن والتعليظ في النقد.

قضايا العمل الإسلامي

- «والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا؛ فأما أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا» شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٥/٥٣٧).
- بعض حركات المقاومة أو الجهاد الإسلامي لها أثر ملموس في إنهاك المحتل، ولكن كثيرًا منها ربما افتقر إلى رؤية سياسية واضحة، أو برنامج سياسي مصاحب لعمل المقاومة، وهذا الخلل قد يستغله غيرهم فيقطف ثمرتهم.
- قد يرغب كثير من الناس في عمل الخير والبذل، لكن تشبته عليهم السبل، فيخطئون الصواب، أو يقدّمون ما من شأنه التأخير، إما جهلاً منهم بمقاصد الشريعة وغايتها الكبرى، أو أحكامها، أو لرأي قاصر وفقاً لما يُسّرّ لهم من وسائل الملاحظة والإدراك.
- إن الواقع يقتضي نزول جماعات من أهل العلم إلى حيز العمل الدعوي فيتبنون المشاريع التي توجّه الشباب، وترشد سير الدعوة، وتُعنى بالتربية التي تُخرّج الأجيال وتحفظهم من الضياع والانحراف في مسالك الغلو أو الجفاء.
- الأمة أحوج ما تكون عند النازلة إلى أهل العلم الراسخين والعلماء الربانيين، ولعل مما يتوجب على أهل العلم أن يكون دورهم حال النوازل أكثر من مجرد إصدار بيان؛ مهما وسعهم ذلك - على أهمية البيان للأمة.
- كثير من المرجفين والمنافقين يفتنمون النوازل فيروجون لفكر منحرف يحاولون استبدال منهج الله به، فإن كان المصلحون لهم بالمرصاد أمكنهم الاستفادة من إفرازات أهل النفاق الضارة، ومخالفاتهم في تأجيج الحق وإظهاره.
- إن من المهم التأكيد على أن بعض المصلحين قد يجب عليه أو يناسبه العمل من خلال مؤسسات شعبية مستقلة عن أجهزة الدولة الرسمية، أو يختار المسلك الآخر بالعمل ضمن مؤسسة رسمية؛ مع محافظته على استقلاله، وعدم انجراره ضمن أعمال لا يدين الله بها، وسلوك هذا المسلك أو ذاك إنما هو وفقاً لحال المصلح ومقتضيات المصلحة التي يقدرها.



دور العلماء في قيادة الأمة

أ. د/ ناصر بن سليمان العمر - السعودية

المشرف على موقع المسلم في الشبكة العالمية

من هم العلماء المعنيون بالفضل والتشريف؟

إن «ورثة الأنبياء» هم الذين يرثونهم علمًا وعملاً، ويقتدون بهم في السرِّ والعلن، ويلتزمون منهجهم في الغضب والرضا والمنشط والمكروه، ولا يكونون كمن ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، أو كمن ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَأَتَعَ هُونَهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والعلم -الذي هو مصدر تشريف الله للعلماء- علمان ينبغي أن يجتمعا في العالم، وكذلك العمل، فأما العلم فعلمٌ بواقعه الذي يعايشه، وعلمٌ بحكم الله الواجب فيه، وكذلك العمل يجب أن يكون عملاً بمقتضى العلمين. والعلم الذي هو سبب التشريف وعلّة التكريم قد يكون سبباً لشقاء الدنيا والآخرة، وموجباً للذم والمهانة عند الله وعند الناس إذا لم يقترن به من العمل ما ينفع صاحبه وأمته من بعده، بل قد يكون صاحبه من أول من تسعّر بهم النار. (٣)

ولذلك فإنّ من الأهمية بمكان التأكيد على أن من يجتهد فيما يطبق من العمل الصالح، ونفع الأمة بما معه من العلم هو في أشرف المنازل وأسنائها، حتى ولو لم يكن من المتبحرين في علوم الشريعة أو الخائضين في لجاتها، ولهذا لما ذكر معروف الكرخي في مجلس الإمام أحمد «فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال له أحمد: أمسك عافاك الله! وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟!». (٤) ولعلّ

منزلة العلماء في الأمة:

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويصّرون بنور الله تعالى أهل العمى، فكم قتيلٍ لإبليس قد أحيوه؟! وكم ضالٍّ تائه قد هدوه! فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تعالى تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. (١)

ويكفي في بيان شرفهم وعظم مسؤوليتهم وأهمية دورهم ما وصفهم الله به في مواضع من كتابه بالخشية والرفعة، والأمر بالرجوع إليهم، وما خصهم به النبي صلى الله عليه وسلم من كونهم «ورثة الأنبياء» (٢)، فحيثما وقعت الفتن واختلطت الأمور، واحتاج الناس إلى المصلح والقائد ولم يجدوا أنبياء لله ورسله؛ فليقتصدوا ورثتهم الذين يقولون بقولهم ويدلّون على هديهم، وليست تلك المنزلة لغيرهم، وإن سُئلت عن السبب ف﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؟!

قضايا العمل الإسلامي

لا بد من الاحتساب من قبل العلماء الراسخين على مَنْ يَدْعُونَ العلم وينتسبون إليه من غير أهله، وتبيين حالهم للناس، وعدم ترك المجال لهم ليقودوا الأمة ويتصدروها، وإن من غش الأمة ترك الاحتساب على أولئك المتعلمين.

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان شيخنا رضي الله عنه شديد الإنكار على هؤلاء، فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجمعلت محتسباً على الفتوى؟! فقلت له:

أ يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟!» (٧)، فانظر إلى فقه هذا الإمام الرباني.

ولا بد أيضاً من التصدي لمن يسعى إلى زعزعة ثقة الأمة بعلمائها بوسائل شتى، لا سيما ممن يسيطرون على كثير من

وسائل الإعلام على اختلافها، فإن الحرب الشرسة التي يقودها هؤلاء على أهل العلم ومحاولة التهوين من شأنهم والحط من قدرهم، لا بد وأن تواجه، وأن تُقاوم من أهل العلم، بل من الأمة أجمع، بما يتناسب مع هذه الحملات والتشويه.

إننا لا نقول بعصمة العلماء من الخطأ.. كلا، وإنما مَنْ يقرر أخطاءهم أو يناقشها ليس هم أولئك الجهلة أو المنحرفين، وإنما العلم يُردُّ بالعلم، وتُقارَع الحجة بمثله.

ومن الأمور المهمة في هذا السياق أن يحذر العلماء من أن يقوموا هم بتغييب دورهم بأنفسهم.

وقد يقع ذلك من حيث يظن العالم أن هذا هو مقتضى الثبات وعدم التأثر بالواقع، بينما هو في حقيقته نوعٌ من الانغلاق والانكفاء على الذات، وهو مذمومٌ بلا شك، فليس المراد بالثبات أن يقعد العالم في بيته معتزلاً عن قضايا الأمة وهمومها، وإنما المراد هو الاضطلاع بدور الريادة والقيادة مع التمسك بأمر

أهم صفات العلماء الربانيين الذين يُنتظر منهم أن يقودوا الأمة - ولا سيما عند الاختلاف والاضطراب - هي صفة «الخشية»، والتي جعلها الله من أخص صفاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولذلك قال الإمام أحمد لابنه عبد الله لما سأله عن معروف هل معه من العلم شيء؟ قال: معه رأس العلم: الخشية. (٥)

ومرئ ذلك أن أهل الخشية من العلماء هم الذين يصدرون فيما يقولون ويفعلون عمّا أذاه إليه اجتهادهم، دون مdahنة لأحد أو خوف من أحد، ومن غير أن يتطلعوا لعرص زائل مهما بلغ، فإن مقتضى خشية الله في قلوبهم أن لا يلتفتوا إلى أهوائهم ولا أهواء غيرهم من الخاصة أو العامة.

ومتى ما كانت مواقف العالم كذلك كانت أقرب إلى الصدق والثبات، وأحرى أن تظمن لها النفوس وتجتمع عليها القلوب.

تغييب دور العلماء:

إنه بقدر أهمية العلماء الربانيين وحاجة الأمة إليهم يتبين خطر غياب دورهم أو تغييبه، فإن الثغرة التي هم عليها لا يسدها غيرهم، ومن أجل تجب ذلك فإنني أؤكد على أمور مهمة، هي:

أنه يجب على العلماء أن يتقدموا لسد الثغرة، وأن يتولوا زمام المبادرة بأنفسهم، وأن يكونوا قريبين من الناس قبل الفتن وفي أثنائها، وأن لا ينتظروا أن تأتيهم الفرص وهم قاعدون.

فإنهم متى ما تأخروا تقدم غيرهم ممن ليس أهلاً لسد مكانهم، ولا بد للناس من قادة يرشدونهم ويوجهونهم «حتى إذا لم يجد الناس عالماً اتخذوا رؤوساً جهالاً فسألوهم فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا». (٦)

العلم علما ينبغي أن يجتمعا
في العالم. وكذلك العمل، فأما
العلم: فعلم بواقعه الذي يعايشه،
وعلم بحكم الله الواجب فيه،
وكذلك العمل يجب أن يكون
عملاً بمقتضى العلمين

مجال تفعيل دور العالم في الأمة وعدم غياب ذلك الدور أو تغييبه البعد عن المسلك الفردي في العمل والإصلاح والتأثير؛ وذلك أن الجهد الفردي - مهما كانت قدرات صاحبه ومواهبه - لا يمكن أن يوازي جهده حينما يكون مضمومًا إليه جهود وخبرات الآخرين ومواهبهم وطاقاتهم، حتى ولو كانوا أقل منه كطلابه أو عامة الناس من أصحاب التخصصات المتنوعة التي تحتاجها الأمة.

وبما أننا مثلنا على الدور الإيجابي للعلماء الريانيين بمواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإننا ننبه أيضًا إلى أنه كان له - رحمه الله - إخوة من العلماء والعباد، وطلاب ومحبون من العامة والأمرء، بتعاضده معهم - بعد توفيق الله تعالى - أفلح في تحقيق مشاريع كثيرة؛ بعضها متعلق بالدعوة وإظهار الحق، وبعضها متعلق بالجهاد، وأخرى متعلقة بإنكار المنكرات، وكثير منها لم يكن ليتأتى له - على الرغم من القدرات العلمية التي حباها الله - لو سلك نهج العمل الفردي.

ولو تأملت حال مجدد الأمة على مر العصور تلمس طابع التفاعل مع المجتمع والتفعيل لقواه المختلفة أمرًا مطردًا، وهذا أمر طبيعي، فكيف يتأتى لأمة خاملة منهكة أن تنهض دون أن تستجمع قواها؟ ولو كان أحد يستغني عن الآخرين في نشر الإسلام ونصره إذا لاستغنى الأنبياء عليهم السلام، ولكن هذا لم يكن، ومن تأمل سيرة أكثر الأنبياء تبعًا، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وجد ذلك جليًا، وفي عصورنا المتأخرة نجد تعاون الإمامين محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله - مثالًا يُقتدى.

العلماء.. والمشاريع المشتركة:

إن واقع الأمة يتطلب تفعيلًا لها من قبل المبصرين لما يجب أن تكون عليه وفقًا لمنهج الله الذي ارتضى لعباده، وهذا يُحتم على أهل العلم والفضل الثناء واتفاقًا على مشاريع مختلفة باختلاف المتفقين

الله قدر المستطاع، فإن قدر وإلا عُذر، فإن الثبات على المبدأ هو التحرك به لا الانعزال والانطواء.

إن المراد من العالم أن يقوم بما يستطاع، وهو معذور فيما لا يُحسن، ﴿لَا يُكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما إذا استطاع العالم وقدر فإن المرجو منه شمولية الأهداف والمشاريع، والمنتظر منه إصلاح واقع الأمة بكل مجالات ذلك الواقع واتجاهاته.

وتأمل حال شيخ الإسلام ابن تيمية تلمس أثره ظاهرًا في التأصيل للمسائل العلمية والعملية، الدقيقة والجلية، وكذلك في تبني مشروعات عملية؛ منها التعبدي الخاص به، ومنها ما يتعلق بإنزال التأصيل العلمي الذي يقرره إلى أرض الواقع، فتراه مثلاً يقرر مسائل الاعتقاد، ثم يدعو إليها وينظر عليها، وتراه كذلك يؤصل للسياسة الشرعية، ثم لا يألو جهدًا في مناصحة الأمرء والولاة والقضاة، وأكثر من ذلك تراه يتولى زمام الدعوة إلى شن الحروب على العدو المتغلب، وينخرط في برامج تدريبية تؤهل الناس إلى ذلك، ثم يحرض الناس على اختلاف طبقاتهم للمشاركة في وقعة شقحب، بل يقود الجيوش والمعارك، ثم يوجه الدولة نحو خطر أهل النفاق المظاهرين للعدو من رافضة جبل كسروان، مع جهوده وطلابه في إنكار المنكرات، وفي أثناء ذلك كله يبين قراءته للأحداث، وي طرح رؤيته لتوقع سيرها، وقد كانت عنده من الوضوح بمكان يجعله يقسم على بعضها متفائلًا بتحقيق النصر وهزيمة العدو، على رغم اضطراب الأوضاع في عصره بما يشبه حال الناس اليوم، فما أشبه عصره بعصورنا في كثير من القضايا كشيوع الجهل، وانتشار المنكرات العقديّة والعملية والأخلاقية، وضعف الأمة وانكسار شوكتها، وتغلب العدو المغولي المحتل عليها، وتنازع الملك بما يشبه الانقلابات العسكرية المعاصرة، وإغارة الأمرء على الأقاليم. ومن الأمور المهمة جدًا - من وجهة نظري - في

قضايا العمل الإسلامي

- النصح للمسلم من حقوقه؛ فلا ينبغي أن يُغفل، ولا سيما المخالط القريب، ويتأكد ذلك عندما يكون الاختلاف معه على أمر ربما لم يكن المشروع المتفق عليه بأولى من دعوته إلى ذلك الأمر المختلف فيه. بل قد يكون من الغش لأنفسنا ولإخوتنا وللأمة اجتماعنا لعلاج داء يسير مع من يحملون داءً عضالاً قاتلاً كان البدء به أحرى.

- ومما ينبغي أن يُراعى كذلك النظر في أهداف المشروع المنشودة ومحلها من حيز الإمكان، فإن بعض المشاريع غير ممكنة؛ ومع ذلك يوجد من يروج لها، ولذا فلا بد من النظر في مدى واقعية الأهداف في نفسها، وكذلك في الأدوات والوسائل التي يُراد أن يتوصل بها إليها، وتشمل هذه المجتمعين أنفسهم، فقد لا أكون مناسباً للقيام بعمل ما يُحسنه غيري، وكذلك العكس، بل قد يكون الاجتماع على بعض المشاريع مع بعض الناس من قبيل العبث وتضييع الجهود والأوقات، بل قد يُفضي إلى نقيض الهدف المنشود، فإن طلب المقصود من غير طريقه يُتعد من طريق المقصود.

ولعل مما ينبغي أن يُلاحظ كذلك هو أن المؤثرين من العلماء والدعاة إن اقتصروا على قدراتهم الذاتية؛ فسوف يكون مآلهم الانغلاق على مشروع أو مشروعين، بل لن يستطيع كثير منهم أن يكونوا مؤثرين حقيقة، وعلاج هذا الإشكال يتطلب منهم توسعة نطاق قدراتهم عن طريق إنشاء مكاتبهم الخاصة التي تقوم على رؤيتهم، فتضاعف جهودهم، وتحفظ أوقاتهم، وتعينهم على القيام بما لم يكونوا ليقوموا به منفردين، ويفتحون من خلالها مشاريع متنوعة منضبطة بمنهجهم يسهم فيها طلابهم، ومثل هذه المكاتب قد تسهم في كثير من لجان التنسيق للأعمال المشتركة والمشاريع الكبرى التي تتطلب تضافر جهود المصلحين، ومن ثمّ متابعتها حتى تستوي على سوقها، فإن استوت شرع في غيرها، وهذا عمل مؤسسي رائد.

عليها، وباختلاف أولويات واقعهم، فضلاً عن نبذ التنافر والتنافر الذي لا يخفى أثره.

وينبغي أن نراعي في هذا أموراً، منها:

- «الاجتماع على كلمة حق سواء» مقصدٌ ينبغي أن نسعى إليه كما ينبغي أن نجتهد في نبذ الفرقة والاختلاف، فإن من جملة أسباب ما تعيشه الأمة تفرق الناس شيئاً وأحزاباً متناقضة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا التفرق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها»^(٨)، وإذا كنا نعتقد أن اختلاف حكام الإسلام وتشرذمهم قد أضعف الأمة، وأغرى أعداءها بها، فكلمة شيخ الإسلام هذه تذكّرنا بأن اختلاف المشايخ والعلماء مصيبة لا تقل عن تلك.

- قد لا يتأتى الاتفاق على كل الفروع، ومع ذلك فقد يتأتى الاجتماع على مشاريع مشتركة، وهذا الاتفاق على مشروع لا يعني إقرار المتفقين بعضهم بعضاً على التصورات والآراء غير التي يتبناها المجتمعون في مشروعهم المشترك. فلا ينبغي أن يحسب هذا على هذا، أو يخلط بينهما على سبيل الإطلاق، ولا سيما إذا اقتضى الاجتماع في مشروع ما معالجة واقع معين كفتنة داهمة، أو نازلة عامة. ومن نظر إلى الشريعة السليمة وجد بعض الواجبات مناطة بمجموع الأمة، تتطلب اجتماعاً ولو مع مخالف في أصل من الأصول، فالجمعة والجماعة مثلاً مأمور بها ولو مع مخالفين، بل قد تكون واجبة ولو خلف إمام مبتدع في بعض الأحوال، وكذلك الجهاد، وللإمام أحمد كلام رصين في ذلك كما في المغني (كتاب الجهاد)، وكثير من التشريعات ذات الطابع الجماعي، فلا غرو إذاً إذا تعين واجب على مجموع الأمة، أو تكفل اجتماع بواجب كفائي أو عيني حال على بعض الأمة؛ من أن تلزم المشاركة فيه، رغم الخلاف مع بعض المشتركين في أصول أو فروع أخرى دون إقرار بما هو مختلف فيه.

علماء الدعوة في الديار النجدية، وفي إفريقيا ظهر اسم عبد الحميد بن باديس بالجزائر مؤسس جمعية علماء المسلمين، التي كان لها أثرها في الوقوف في وجه المستعمر الفرنسي، والشيخ عز الدين القسام في الأرض المباركة، وغيرهم من منتسبي العلم في السودان ونيجيريا وأقصى إفريقيا، فاستحق صنع أولئك أن يخلد ذكرهم، وقد قيل:

إن الزعامة والطريق مخوفة

غير الزعامة والطريق أمان

٢ - اتجاه التغيير القسري وله عدة أساليب:

أ - أسلوب الانقلابات من أبناء الشعب على الحكام والأنظمة المستبدّة، وقد يقود هذا الفرض أنواع من النظم المتباينة، فقد جلب ذلك الديمقراطية لفرنسا إثر ثورتها المشهورة في الغرب، وللشيوعية الماركسية إثر ثورتها في الشرق، فهذا المسلك مرفوض في الجملة لمفاسده الظاهرة؛ فإن استقر الأمر بعده وارتفعت المفاسد وجيء بالأصلح ارتفع سبب المنع، وأصبح نظامًا شرعيًا ملتزمًا بالكتاب والسنة كان له حق السمع والطاعة؛ كما ذكر العلماء في حكم المتغلب على بلد من البلدان.

ب - أسلوب الاستعانة بعدو خارجي للبلد لتغيير النظم القائمة؛ كما حصل في العراق وأفغانستان، وهذا الأسلوب مرفوض في الجملة؛ فقد استقر قول أهل السنة على منع الخروج على الحاكم المسلم بالقوة، ولو كان فاسقًا، إن لم يكن خلعه بواسطة أهل الحل والعقد؛

لما يترتب على ذلك من مفسد تربو على المصالح كما دلت على ذلك النصوص الشرعية والشواهد التاريخية والواقعية.

وأما ما يسمى بالشرعية الدولية فهي وإن رفضت هذا المسلك نظرًا إلا أن دولها الكبرى تمارسه

وإذا نظرت في واقع الناس وجدت كثيرًا منهم لا يتصور عمله بغير تلك المكاتب في ظل الواقع المعاصر، ولذا تجد مسؤولي الدول والقيادات السياسية وغيرهم يعنون بمثل هذا الشأن، بل عموم المسلمين من أصحاب الأموال وأرباب التجارات يدركون ذلك؛ فينشؤون لأعمالهم المكاتب المتخصصة، وقد يكون لأحدهم أكثر من مكتب، أما إذا جاء أمر الشرع والدين وجدت الوعي بذلك قد يضعف، وللأسف إلا عند بعض المنحرفين من الخرافيين والآيات الرافضية وأضرابهم.

بيان أحوال الناس في تغيير الواقع السياسي المعاصر لبلدانهم:

يمكن تقسيم أحوال الناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

١ - اتجاه يتسم بأسلوب مواجهة المحتل الخارجي سواء كان ذلك بالجهاد الشرعي أو المقاومة القومية، وهذا المسلك مقبول إجمالاً لدى الأمم؛ لأحقية الشعوب في الدفاع عن نفسها وأرضها ومالها. وقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج للتغيير الشرعي

بمناهضة المحتل؛ كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية والعز بن عبد السلام في صد التتار المنتسبين إلى الإسلام، وكذلك المنذر بن سعيد البلوطي وإخوانه من علماء الأندلس في حرب الصليبيين، ولما أخذت الفرنجة بيت المقدس قام العلماء بالتحريض على الجهاد، فكان

ممن خرج إلى الأمصار ابن عقيل رحمه الله، وغير واحد من أعيان الفقهاء، وفي العصر الحديث لمعت أسماء في سماء ميادين الجهاد من أبرزها الإمام محمد بن سعود، والإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمهما الله- في أرض الجزيرة، ومن بعدهما

وقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج للتغيير الشرعي بمناهضة المحتل؛ كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية والعز بن عبد السلام في صد التتار المنتسبين إلى الإسلام

قضايا العمل الإسلامي

واضحة، أو برنامج سياسي مصاحب لعمل المقاومة، وهذا الخلل قد يستغله غيرهم فيقطف ثمرتهم، كما قطف الشيوعيون ثمار الثورة على القيصيرية في روسيا، والعلمانيون ثمار الجهاد في الجزائر. ولعل مما يكفل نوعًا من الأمان لحركات المقاومة وجود رؤية سياسية واضحة لها، أو على الأقل وجود تعاون مشترك واتفق على مشاريع سياسية مع القوى التي ارتضت مسالك أخرى في التغيير.

ومما يحسن التنبيه عليه أنه في بعض الأحوال - نظرًا للملايسات واقع ما - ليس بالضرورة أن يكون دور العلماء أكثر من التوجيه والإرشاد، والتقويم وفقًا لأحكام الشريعة وقواعدها مع السعي إلى جمع الكلمة مهما أمكن من أجل تكامل الجهود. بيد أنه لا بد لجمهورهم من مباشرة العمل، وإلا سيكون ثم نوع قصور في التصور فضلًا عن الإصلاح، وقد قيل

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيتها

أدوار مهمة أخرى:

ويظل المطلوب من أولي الأمر من العلماء كثيرًا، والمهمة الملقاة على عاتقهم عظيمة، سواء تجاه جماهير ما يعرف بالصحة أو دعواتها ورجالاتها، فقد يرغب كثير من الناس في عمل الخير والبذل، لكن تشبه عليهم السبل، فيخطئون الصواب، أو يقدمون ما من شأنه التأخير، إما جهلاً منهم بمقاصد الشريعة وغايتها الكبرى، أو أحكامها، أو لرأي قاصر وفقًا لما يُسّر لهم من وسائل الملاحظة والإدراك، فتتكرر الجهود وتتبعثر الاجتهادات، وربما سلكت بعضها مسالك آتمة جهلاً، فيأتي توجيه أهل العلم وأصحاب النظر مقومًا لما اعوج منها، ململمًا ما تبعثر منها، موجّهاً إلى حيث تعظم الحاجة. كما كان شأن أهل العلم والنظر قديمًا.

ومع أن المطلوب من الشباب والدعاة عدم إغفال رأي أهل العلم، والحرص على استنباط الصواب

بأشع صورته وسط تواطؤ عالمي مشين، والواقع المعاصر أكبر برهان.

٣- اتجاه التغيير الإصلاحي، وهو أوسع أبواب التغيير السياسي المتاح، وللناس فيه أساليب متعددة، ومن أنسبها في عصرنا الحاضر:

- أسلوب العمل الشعبي المتوجه إلى المجتمع أو الجمهور، وهو من أبرز اتجاهات الإصلاح المعاصرة كعمل مؤسسات المجتمع المدني المستقلة التربوية والاحتسابية والدعوية ونحوها، مع أهمية مراعاة البعد عن الفوضى، أو تقديم المفسد على المصالح.

ومما تقدم يتبين أنّ لتنوع الظروف والمجتمع الذي يقوم فيه شأن الإصلاح أثرًا في اختلاف الأولويات والوسائل، وهو في الجملة من اختلاف التنوع لا التعارض؛ مما يوجب على أهل الإصلاح التعاضد عند الاختلاف، واجتناب سوء الظن والتغليظ في النقد.

بل إن اختلاف الأسلوب والوسيلة قد يكون سائغًا، لاختلاف التكوين النفسي أو العلمي أو الخُلقي، وإن كان ذلك في مجتمع واحد.

والمعيار لذلك الاختلاف هو العلم بالشريعة المقرون بفقته الواقع، كما قال شيخ الإسلام: «والواجب أن يُعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، فأما أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم، ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا» (الفتاوى الكبرى ٥/٥٣٧).

ومن مجمل العرض الأنف يجد أهل العلم أمامهم مسالك مختلفة للإصلاح ربما كان لكثير منهم دور فيها، ويبقى التعويل في زيادة فاعلية أثرهم على مجريات الأحداث على ما مضت الإشارة إليه من اتفاق أصحاب المسالك المختلفة على مشاريع مشتركة تتضافر عليها جموعهم.

فعلى سبيل المثال قد تجد أن بعض حركات المقاومة أو الجهاد الإسلامي لها أثر ملموس في إنهاك المحتل، ولكن كثيرًا منها ربما افتقر إلى رؤية سياسية

دور العلماء في قيادة الأمة - أ. د/ ناصر العمر

- المشاركة في تلك البرامج والمشاريع، ولا سيما إذا وُجِّهت لهم الدعوات بالمشاركة.

- مراقبة خط سير الأمة على المنهج الأقوم، حتى لا تدفع النوازل الطارئة إلى خروج عن الصراط المستقيم برود فعل غير محسوبة، تدفع إليها الحماسة المجردة والعاطفة غير المنضبطة بعقل العقل الشرعي.

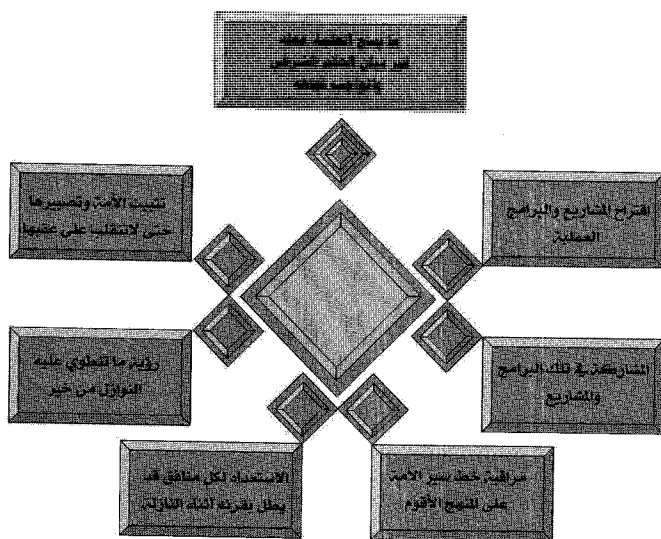
- الاستعداد لكل منافق قد يطل بقرنه أثناء النازلة، فكثير من المرجفين والمنافقين يغتمون النوازل فيروجون لفكر منحرف يحاولون استبدال منهج الله به، فإن كان المصلحون لهم بالمرصاد أمكنهم الاستفادة من إفرازات أهل النفاق الضارة ومخالفاتهم في تأجيح الحق وإظهاره.

- رؤية ما تنطوي عليه النوازل من خير، ثم تبصير الناس به، والعمل على الاستفادة منه، حتى لا يدب في نفوس الناس اليأس أو يستحكم القنوط.

- وأخيراً تثبيت الأمة وتصويرها حتى لا تنقلب على

بمشورتهم، إما عن طريق ضم نخبة منهم في مجالس استشارية، وإن تعذر فلا مناص لهم من وصولهم. مع ذلك فإن الواقع يقتضي كذلك نزول جماعات من أهل العلم إلى حيز العمل الدعوي فيتبنون المشاريع التي توجه الشباب، وترشد سير الدعوة، وتُعنى بالتربية التي تُخرِّج الأجيال وتحفظهم من الضياع والانحراف في مسالك الغلو أو الجفاء.

ويتأكد هذا عند حلول النوازل التي أمر الله تعالى بالرد إلى أهل العلم فيها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، فالأمة أحوج ما تكون عند النازلة إلى أهل العلم الراسخين والعلماء الربانيين، ولعل مما يتوجب على أهل العلم أن يكون دورهم حال النوازل أكثر من مجرد إصدار بيان - مهما وسعهم ذلك - على أهمية البيان للأمة.



عقبها أو تجزع مما ألمَّ بها، بل عليهم بث التفاؤل الإيجابي، وحسن الظن بالله؛ مهما كان الظاهر خلاف ذلك، فهذا منهج القرآن وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]،

ومما يسعهم غير بيان الحكم الشرعي والواجب تجاهه:

- اقتراح المشاريع والبرامج العملية التي يرونها كفيلة بمعالجة النازلة أو احتواء آثارها.

قضايا العمل الإسلامي

وإن من المهم التأكيد على أن بعض المصلحين قد يجب عليه أو يناسبه العمل من خلال مؤسسات شعبية مستقلة عن أجهزة الدولة الرسمية، أو يختار المسلك الآخر بالعمل ضمن مؤسسة رسمية مع محافظته على استقلاله، وعدم انجراره ضمن أعمال لا يدين الله بها، وسلوك هذا المسلك أو ذاك إنما هو وفقاً

لا يُقَدِّم العالم على رضى الله،
رضى أحد كائنًا من كان، محبًّا
كان أم مبغضًا، قائدًا أم منقادًا

لحال المصلح ومقتضيات المصلحة التي يقدرها. وإن هذا الاستقلال الذي ننشده للمصلح - كما كان أو داعية - هو سبب نجاح تلك المؤسسات وقبولها لدى الخاصة والعامة؛ مع ما تبذله تلك المؤسسات وقادتها من المصلحين من حسن التواصل مع الآخرين حكماً ومحكومين؛ مما يجعلها محل الثقة ومرتكز التأثير، وهذا ما ننشده في أهل الإصلاح، وفقنا الله وإياهم لما يحب ويرضى، وجعلنا للمتقين أئمة، ونصر بنا المسلمين والملة. وصى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الهوامش:

- (١) من مقدمة الإمام أحمد في الرد على الزنادقة.
- (٢) جزء من حديث صحيح، رواه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٨٩٨) عن أبي الدرداء.
- (٣) كما في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي في الزهد (٢٥٥٧).
- (٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٢٣٥-٢٣٦).
- (٥) المرجع السابق.
- (٦) جزء من حديث صحيح رواه البخاري في كتاب العلم برقم (١٠٠).
- (٧) إعلام الموقعين (٤/٢١٧).
- (٨) ينظر مجموع الفتاوى (٣/٤٢١).
- (٩) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري، كتاب الجهاد والسير (٤٦٢٢).

﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». (٩)

وقد مضى ذكر بعض ما يُعْغَل به دور أهل العلم فلا حاجة إلى إعادته، وأهمية الحرص على وسائل تفعيل أهل العلم حال النوازل ظاهرة، ولعل من ذلك تفعيل المؤسسات ذات الطابع العلمي والدعوي الرسمية في الدول، دون حصر المسؤولية فيها؛ فقد أناطها الله بعموم العلماء.

عامل هام لتحقيق ريادة العلماء للأمة:

إن قيام العلماء بقيادة الأمة والنهوض بها يتطلب تحقيق عوامل مهمة نخص بالذكر عاملاً واحداً فيها: وهو استقلال العلماء:

أعني به الاستقلال بمفهومه العام الذي يركز على تجريد النية لله عن كل ما سواه، ومن ذلك الحكومات والشعوب، فلا يُقَدِّم العالم على رضى الله، رضى أحد كائنًا من كان، محبًّا كان أم مبغضًا، قائدًا أم منقادًا، وإنما هو مجتهد في إخلاص قصده لربه وتحقيق مطلوبه وفق ما يشرع، رضى من رضى وسخط من سخط، يتحرى في كل عمل صالح أنفعه وأحبه لربه، وهو مع ذلك ليس بمعزل عن التواصل مع الحكام والمحكومين، والناس أجمعين يدعوهم بدعوة المرسلين، ويتغني لهم رحمة أرحم الراحمين.

فالاستقلال الذي ندعو إليه هو استقلال عن كافة الأهواء البشرية والتجرد لرب البرية سبحانه وتعالى، والقيام له بالقسط؛ ولو على حساب النفس وحظوظها أو الوالدين أو الأقربين، وهذا لا يتعارض مع المشاركة في أعمال الدولة ومؤسساتها ومؤسسات المجتمع، بل قد يكون واجباً عينياً على بعض العلماء، حتى لا تخلو الدولة من العلماء الربانيين والدعاة المهتمين والرجال الصالحين.

معلومات إضافية

شيخ الإسلام ابن تيمية

المولد والنشأة:

ولد في حران في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين، ثم انتقل به والده - رحمه الله - إلى دمشق المحروسة، فنشأ بها أتم إنشأه وأزكاه، وأبنته الله أحسن البنات وأوفاه، وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة ودلائل العناية فيه واضحة.

ولم يزل منذ إبان صغره مستغرق الأوقات في الجهد والاجتهاد، وختم القرآن صغيراً، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعريضة حتى برع في ذلك، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث.

في ذكر قوة قلبه وشجاعته:

كان رضي الله عنه من أشجع الناس وأقواهم قلباً، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبر غير واحد أن الشيخ - رضي الله عنه - كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقبتهم، وقطب ثباتهم إن رأى من بعضهم هلعاً أو رقة أو جبانة شجعه وبثته وبشّره، ووعدّه بالنصر والظفر والغنيمه، ويثبّن له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة.

ولقد شجّن أزماناً ولم يولهم دبره فرازاً، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مراراً، وأوسعوا حيلهم عليه إعلاتاً وإسرازاً فجعل الله حفظه منهم له شعازاً ودثاراً.

ابن تيمية وشذرات مما زكّاه به كبار علماء عصره تتناول بعض الجوانب من حياته:

- قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ): «هو الشيخ الإمام الرائي إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر وفريع الدهر، شيخ الإسلام، وعلامة الزمان ترجمان القرآن، علم الزهاد، أوحد العباد وقامع المبتدعين... صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها».

- قال العلامة كمال الدين ابن الزملكاني: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسماع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء، من سائر الطوائف، إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهيبهم منه ما لم يكونوا قد عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله».

قضايا العمل الإسلامي

والمنسويين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.. واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها».

شيوخه:

بلغ عدد شيوخه أكثر من مائتي شيخ، من أبرزهم والده عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٦٨٢)، والمحدث أبو العباس أحمد بن عبد الدائم (ت ٦٦٨)، ابن أبي اليسر، والشيخ شمس الدين عبد الرحمن المقدسي الحنبلي (ت ٦٨٩)، وابن الظاهري الحافظ أبو العباس الحلبي الحنفي (ت ٦٩٠).

تلاميذه:

أما تلاميذه فلا يُحصىون كثرة، فمن تلاميذه البارزين:

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية، (ت ٧٥١).
- الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي (ت ٧٤٤).
- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، (ت ٧٤٢).
- الحافظ المؤرخ أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨).
- أبو الفتح ابن سيد الناس محمد بن محمد اليعمري المصري (ت ٧٣٤).
- الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي (ت ٧٣٩).

من مؤلفاته:

- كتاب الإيمان (مجلد).
- كتاب الاستقامة (مجلدين).
- كتاب جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (أربعة مجلدات).
- كتاب في الوسيلة (مجلد).
- كتاب تليس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (ستة مجلدات).
- شرح العمدة (أربعة مجلدات).
- كتاب درء تعارض العقل والنقل (أربعة مجلدات).
- قواعد في إثبات المعاد (مجلد).

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (أربع مجلدات).
- دفع الملام عن الأئمة الأعلام (مجلد).
- كتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (مجلدين).
- كتاب في محنته في مصر (مجلدين).
- قواعد في السنة والبدعة، وفي أن كل بدعة ضلالة.
- السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية.

وفاته:

بقي الشيخ رضي الله عنه إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام، وتوفي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم، وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وهو على حاله مجاهدًا في ذات الله تعالى صابرًا محتسبًا، لم يجبن ولم يهلع، ولم يضعف ولم يتتبع، بل كان رضي الله عنه إلى حين وفاته مشغلاً بالله عن جميع ما سواه.

الإمام محمد بن عبد الوهاب:

نسب الشيخ وسيرته:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد... ينتهي نسبه إلى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ويتضح من سرد نسب الشيخ المتقدم أنه يلتقي مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم في إلياس بن مضر.

مولده ونشأته العلمية:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ألف ومائة وخمس عشرة (١١١٥)، من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، في بلدة العيننة على الصحيح.

تعلم القرآن وحفظه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين، وكان حاد الفهم وقاد الذهن، ذكي القلب، سريع الحفظ، قرأ على أبيه في الفقه، وكان رحمه الله في صغره كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث، وكلام العلماء في أصل الإسلام، فشرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه، ومعرفة نواقض المضلة عن طريقه، وجدّ في طلب العلم، وأدرك وهو في سن مبكرة حظًا وافيرًا من العلم، حتى إن أباه كان يتعجب من فهمه، ويقول: لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام.

رحلة الشيخ وطلبه للعلم:

نشأ في حجر والده الشيخ عبد الوهاب، وكان فقيهاً، قاضياً، فتعلم من والده بعض العلوم الشرعية. حفظ القرآن الكريم ولما يبلغ العاشرة من عمره، وقدمه أبوه للصلاة بالناس جماعة وهو في الثانية عشرة من عمره، وتزوج في تلك السنة، وكان مثابراً على طلب العلم.

توجه الشيخ للرحلة في طلب العلم؛ فرحل إلى مكة والمدينة والبصرة غير مرة؛ طلباً للعلم.. ولم يتمكن من الرحلة إلى الشام وعاد إلى نجد يدعوهم إلى التوحيد. ولما رجع من رحلته في طلب العلم، وانتقل والده وأسرته إلى حريملاء، وهي بلدة قريبة من مدينة الرياض دون المائة كيلومتر؛ أخذ ينشر علمه ويعلم الناس ما وفقه الله إليه من علوم.

بعض مؤلفات الشيخ:

قام الشيخ رحمه الله تعالى بتأليف عدد من الكتب والرسائل المهمة، وقد امتازت مؤلفات الشيخ رحمه الله بالأسلوب القرآني المحض، وأدلتها كلها مأخوذة من القرآن والسنة، وكان ذا أسلوب واضح لا يوجد فيه أي تعقيد.

ومن مؤلفات الشيخ:

- ١- كتاب التوحيد.
- ٢- كتاب كشف الشبهات.
- ٣- كتاب أصول الإيمان.
- ٤- كتاب فضائل الإسلام.
- ٥- كتاب فضائل القرآن.
- ٦- كتاب السيرة المختصرة.
- ٧- كتاب السيرة المطولة.
- ٨- كتاب الرد على الرافضة.

أهداف الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

تتلخص في ستة أهداف، وهي:

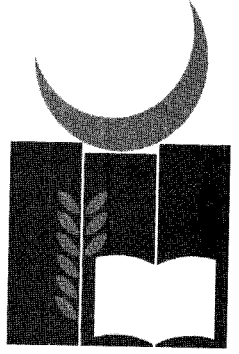
- ١ - إنكار الشرك بأنواعه؛ صغيره وكبيره.
- ٢ - إنكار جميع ما يخالف التوحيد وخلوصه، فينكر البدع، وتعظيم القبور.
- ٣ - ينكر التصوف الذي يخالف الإسلام.
- ٤ - يحارب الرشوة بأنواعها، أو التلاعب في حكم الله سواء بوصية أو غيرها.
- ٥ - يأمر بالمعروف.
- ٦ - ينهى عن المنكر، ويحاربه بالسيف والقلم.

وفاة الشيخ رحمه الله:

في عام ست ومنتين وألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم (١٢٠٦ هـ) توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وكان للشيخ من العمر نحو الثنتين وتسعين سنة، وتوفي ولم يخلف ديناراً ولا درهماً، فلم يوزع بين ورثته مال ولم يقسم.

من أراد التوسع:

فليراجع الكتب التالية: عنوان المجد لابن بشر (١/٢٢، ٢٣، ٢٢ - ٢٣)، وعلماء نجد للبسام (١/٣١٠ - ٣١١)، والدكتور العثيمين في كتابه: الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ٢٤)، وروضة الأفكار لابن غنام (١/٢٥)، وكتاب: عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/١٣٣ - ١٧٤).



ما بعد الحزبية من فقه الضرورة في العمل الإسلامي

د/ عبد العزيز كامل - مصر

باحث إسلامي وعضو هيئة تحرير مجلة البيان

ملخص البحث:

يعتبر التكتل بين مجموعات البشر من البديهيات في الفكر السياسي، فهو من طبائع الحياة الإنسانية وضرورتها، فلقد فرضت طبيعة العصر التوجه نحو التكتل وتكوين المجموعات السياسية والاقتصادية، والتحالفات العسكرية والاستراتيجية، حتى أطلق عليه عصر التكتلات. وقطعت غالبية المجتمعات والدول أشواطاً على طريق التكتل والتوحد، سواء تحت أيديولوجيات أو مصلحيات، وحدث التعايش والتعامل بينهما برغم التناقضات الجذرية بين مكوناتها. وعلى النقيض في المجتمعات والدول الإسلامية والعربية، فعلى الرغم من كثرة العوامل المشتركة بينها، إلا أنها لا تزال أبعد بكثير مما تفرضه الضرورة، من تقارب وتكتل وتجمع، مع أن الإسلام دعا إلى التوحد والتكتل لغايات سامية. وإنه لمن العجيب أن يشكك البعض في مشروعية عمل التكتلات والجماعات الإسلامية، مع أن الاجتماع والتعاون مطلب شرعي، والجماعة روح الديانة الإسلامية، خلاف ما أنتجته الجماعات من إيجابيات خلال ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن. من الطبيعي أن تكتنف النقائص بالعمل الإسلامي؛ لأنه دائماً ما يُمارس في ظروف شدة وأوقات أزمة، وأكثر ما قد ينتج عنه هو ظهور أنواع من التكتل الحزبي السلبي غير الشرعي، وهي الحزبية التي تُفَرِّق القلوب، وتشردم الصفوف، وتبديد الجهود، وهذه الحزبية أوجدتها غياب القيادة الواحدة، والمرجعية الواحدة والتوجه الواحد، أما الحزبية المطلوبة الإيجابية فهي التحزب والتجمع في ظل محبة الله وطاعته والانقياد لشرعته. لقد أوصلت الحسابات الحزبية غير الشرعية إلى ممارسات تخالف الشريعة، بل وتخالف العقيدة، ومع ذلك فالجماعات الإسلامية لا يزال لها دور رائد وموقع قائد في ميادين التمكين للدين، فالظروف التي تسببت في نشأتها لا زالت قائمة، ولذا عليها أن تتطوّر إلى تطوير أدائها وتعديله في إطار ضوابط الشريعة. والدعوة إلى تجاوز مرحلة الجماعات قبل إيجاد البدائل، هو بالإضافة إلى أنه غير مصلحي، فإنه غير واقعي، إلا أن الطرح البديل هو تصحيح الوجهة في اتجاه (ما بعد الحزبية)، وكذا التوجه نحو التطوير والتعديل في أطر العمل الجماعي، مع الاستمرار في التوسع خارج إطار الجماعات أو في تجمعات من نوع جديد.

أفكار ومقتطفات

- فرضت طبيعة العصر التوجه نحو التكتل، وتكوين المجموعات السياسية والاقتصادية والتحالفات العسكرية والاستراتيجية، حتى سمي هذا العصر بعصر التكتلات.
- هناك تكتلات سياسية صرفة، ظلت تتوالى في أشكال مختلفة بين مجموعات من الدول، ولعل منظمة الأمم المتحدة ذاتها هي أبرز الأشكال المعاصرة لهذا التكتل، الذي يبدو للناس تنظيمًا للشئون الدولية، في حين أنه في حقيقته حماية لمصالح الدول الخمس الكبرى التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية، والتي تتمتع منذ أكثر من نصف قرن بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن.
- أصبح حلف شمال الأطلسي (الناتو) رأس حربة في كل حروب الولايات المتحدة ضد العالم الإسلامي، وآخر ذلك تسلمه لمهام استكمال العدوان على أفغانستان المحتلة.
- يلاحظ أن حلف الناتو كتكتل عسكري نصراني دولي قد اتخذ من الصليب شعارًا له في شكل نجمة رباعية (صليب) يخترق الأطراف الأربعة للكرة الأرضية.
- إن الإسلام قد دعا إلى التوحد والتعاقد والتعاون لغايات سامية، تجمع مصالح الدين والدنيا، وتحقق الأغراض الشريفة لاستخلاف الإنسان في الأرض.
- يمثل نظام الخلافة الإسلامية من الناحية النظرية التجسيد الصحيح لدور الإنسان في الاستخلاف في الأرض، جامعًا بين ما يُصلح الدين والدنيا معًا.
- لقد كان للمسلمين إذن كيان عالمي سياسي حتى أوائل القرن الميلادي المنصرم في شكل اتحاد تقوده تركيا، وهو اتحاد كان قوة وحماية للمسلمين طيلة تلك القرون.
- منذ أن مُزّق العالم الإسلامي ودُمّرت وحدته، وأعداؤه لا يدخرون جهدًا في إيصاله إلى المزيد من التمزق والتفريق والضعف، فما من محاولة للنهوض على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو العسكري، إلا وتواجه بالتآمر المفضوح والتحرش المعلن.
- كانت نشأة الجماعات الإسلامية في العديد من بلاد المسلمين بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية في أوائل القرن الميلادي المنصرم؛ دليلًا على أن هذه الأمة ستظل حية، قد توعك أو تُنهك، ولكنها لا تُدول أو تزول.
- قامت جماعات العمل الإسلامي -ولا تزال- بدور تاريخي، حفظ سفينة أمتنا من الغرق بإذن الله، فالتحديات التي واجهت الأمة طوال قرن مضى في المشارق والمغرب، ومن الداخل والخارج؛ كانت

قضايا العمل الإسلامي

تكفي لأن تحوّل هذه الأمة إلى أثر بعد عين، ولكن الله تعالى استتقذ أمة الإسلام بجهود المخلصين من أبنائها الذين اتّذبوا لإقامة شريعة التعاون على البر والتعاقد على التقوى.

- إن القاعدة الشرعية التي تنص على أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ تُضفي أقوى أنواع المشروعية والمصدقية على الأعمال الجماعية المنضبطة بالأحكام الشرعية.

- إذا أخذ العمل الإسلامي صورة (ولايات حزبية) متعددة، لكل منها شخص رأس، ولكل منها منهج يوالي الأتباع عليه ويعادون؛ فإن هذا هو ما يُحدث الحزازات، وينشئ العصبية، ويغذي المشاحنات.

- أعادت الجماعات أو المجموعات المهمة بالعلم والتعليم والبحث الشرعي، صياغة الفكر الإسلامي إلى النهج الصحيح في مواطن كثيرة من العالم الإسلامي.

- كانت أكثر الجماعات الكبيرة -ولا تزال- محاضن للتربية والتوجيه لأفرادها ولمن حولها، بدرجات متفاوتة، وهو ما ساهم في تنشئة شريحة جادة في الأجيال المتعاقبة.

- حين كانت الأحزاب والتنظيمات العلمانية بأطرافها تُخرج الأجيال الممسوخة والعميلة داخل بلاد المسلمين؛ كانت الجماعات الإسلامية تُخرج أجيالاً مغيرة، تنشئ التغيير وتنشط في الإصلاح.

- برزت للجماعات الإسلامية، باختلاف أطرافها، جهود في العمل الخيري الرسمي وغير الرسمي، انعكست إيجابياتها في النهوض بالمستوى الجماعي والتربوي في دوائر أوسع من دائرة الجماعات.

- وُجدت على الساحة الإسلامية بعض الجماعات التي أدخلت العمل السياسي ضمن أولوياتها، وقد نشأ ذلك مبكراً في كل من مصر وتركيا والسودان وباكستان، ثم تتابع في بلدان أخرى كالكويت واليمن والجزائر والمغرب، وإندونيسيا وماليزيا وغيرها.

- الأخبار التي تحتل الصدارة في أحوال الدنيا يومياً، أصبحت هي أخبار الأماكن الساخنة في العالم الإسلامي، المستهدَف من كل الطامعين والطامحين.

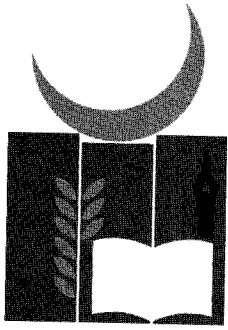
- كان لا بد من إنشاء وتقوية معالِب وأنياب دفاعية، تذود بها الأمة عن أرضها وعرضها ومقدراتها في مواطن الخطر. لقد نشأت ثم تطورت ثم توسعت جماعات إسلامية مجاهدة في فلسطين وكشمير وأفغانستان والشيشان والبوسنة والفلبين.

- لقد أوجدت جهود الجماعات المدافعة عن حياض الأمة في كثير من الأحيان ظروفاً سياسية جديدة، أصبح من الممكن أن يبني عليها السياسيون؛ لحفظ الثمار من خطف الأغيار.

- الظرف الطبيعي في حياة الأمة وفق ما حدده الشريعة، وحكاه التاريخ، يقتضي أن تكون للمسلمين جماعة واحدة، ذات قيادة واحدة، ومرجعية واحدة، وخطة واحدة وتوجه واحد، يسير بها في اتجاه ثابت نحو هدف متفرد، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، وقوة الحق هي الأولى.

- الأمر الذي يففل عنه البعض، ويتجاهله الآخرون، هو أن العمل الإسلامي كله بجهوده الجماعية والفردية، والعلنية والسرية، السلمية والنضالية، هو عمل يُمارس في ظروف شدة وأوقات أزمة.
- أصل ولاية أولياء الله، هي الحزب والتجمع في ظل محبته وطاعته والانقياد لشريعته، والمنتخبون على هذا الأمر والمتناصحون به والمتناصرون عليه والمتنافسون فيه، هم حزب الله.
- إن الذي أعنيه في هذه المقولة التي عُنُوْتُ بها المقال (ما بعد الحزبية) هو الحزبية السلبية غير الشرعية، التي تفرق القلوب، وتفسد النوايا وتشرذم الصفوف وتبده الجهود، وهذه الحزبية -على سوء غرسها وخبث ثمارها- أوجدها غياب القيادة، وتفرق المرجعية، وتعدد الوجهات.
- كم أجهضت الحزبية المقيمة من مشاريع ١٩؟ وكم شوهدت من أفكار ١٩؟ وكم هدمت من رموز ١٩؟ وأمانت من طاقات ١٩؟ وأهدرت من قدرات ١٩؟
- بالحزبية الجانحة؛ كل مشروع ناجح للآخرين هو خصم من نجاحنا، وكل فكرة رائدة لغيرنا هي زائدة عن الحاجة، وكل رمز صاعد نحو الريادة من خارج الحزب؛ هو خطر شديد على بقاء ونقاء الحزب! وكل طاقة عمل مع غيرنا، فهي تعمل لغير صالحنا...!
- قد بُلي العمل الإسلامي في الجزائر ببعض الحزبيين الذين أثروا نصرة العلمانيين على الإسلاميين، لا لشيء إلا لاختلاف الانتماء الحزبي مع أن الراية والغاية يُفترض أنها واحدة.
- نُكِبَ العمل الإسلامي في مصر واليمن والسودان وفلسطين بيلابا حزبية مشابهة، كانت الحزبية فيها دائماً تشق الصفوف وتضعف الأداء وتفرق الجهود.
- قد يقال: إن التحزب على مبدأ أو فكرة أو شخص أو جماعة، هو من المظاهر والظواهر الطبيعية في الحالة المجتمعية، طوال تاريخ الأمم والأفراد والجماعات والمجتمعات، ولا يمكن تلافي الخطأ فيها أو التلافي على الصواب فيها بشكل مطلق. ويجب عن هذا بأن حتمية الوقوع القدرى شيء، وتوسيع الوجود الشرعي شيء آخر.
- الذين يتنادون بتجاوز عمل الجماعات في عصرنا الراهن متحدثين عن مرحلة (ما بعد الجماعات)، إنما هم كمن يدعو لهدم بناء قديم عريق عاسر، بدعوى إنشاء بنية جديدة ومعاصر، دون أن يكون لهم في مشروع البناء الجديد رأس مال لتأمين التكلفة، أو مهندسون للتخطيط، أو عمال للبناء، فتكون النتيجة هي الاستقرار في العراء، والتقدم إلى الوراء.
- صحيح أن العمل الجماعي في ذاته ليس غاية وإنما وسيلة، ولكن من قال: إن الوسائل يُضحى بها قبل تأمين البدائل ١٩؟

- من الممكن أن يتحسن أداء الجماعات الإسلامية أضعافاً مضاعفة، إذا تخلت عن جعل الحسابات الحزبية ميزاناً توزن به الأشياء، ومعياراً للولاء والبراء.
- ما المانع من أن يعمل العاملون في مواقعهم التي يُسروا لها في أجواء جديدة ونظيفة، يحل الاحترام فيها محل الصدام، والتناصر محل التنافر؟! وما المانع أن يستشعر كل عامل أنه مكمل للآخر، والآخر مكمل له، حيث تحتاج قضية العمل للإسلام إلى مجموع جهود العاملين لرايته، العاملين لنصرته.
- إن العاملين في مجال العلم والدعوة في الأمة هم القلب النابض في ذلك الجسد، والسياسيون والمثقفون هم العقل المفكر فيه، والمجاهدون والمحتسبون هم اليد التي يبطش بها والرَّجُل التي يمشي بها والعين التي يبصر بها.
- لا يمكن أن نتصور ساحة إسلامية نضج العمل الإسلامي فيها، دون أن تكون قد تجاوزت مرحلة العصبية، فقد آن الأوان للإسلاميين أن يُفطموا من المشاعر الحزبية الطفولية غير البريئة.



ما بعد الحزبية من فقه الضرورة في العمل الإسلامي

د/ عبد العزيز كامل - مصر

باحث إسلامي وعضو هيئة تحرير مجلة البيان

مقدمة:

التجمع والتكتل بين مجموعات البشر من طبائع الحياة الإنسانية وضرورتها، وأهميته في اكتساب القوة أو الحفاظ عليها من البدهيات في الفكر السياسي والتخطيط الاستراتيجي، وقد فرضت طبيعة العصر التوجه نحو التكتل وتكوين المجموعات السياسية والاقتصادية، والتحالفات العسكرية والاستراتيجية، حتى سُمِّي هذا العصر بـ «عصر التكتلات».

وقد قطعت كل المجتمعات والدول - ما عدا المجتمعات والدول الإسلامية - أشواطاً على طريق التكتل والتوحد والتعاون، سواء تحت أيديولوجيات أو مَصْلِحِيَّات، متقاربة أو متباعدة، وحدث التعايش والتعامل بينها على الرغم من التناقضات الجذرية بين مكوناتها في كثير من الأحيان.

أما المجتمعات والدول الإسلامية والعربية، وعلى الرغم من كثرة العوامل المشتركة بينها في النواحي الدينية والثقافية والجغرافية والمصلحية، إلا أنها لا تزال أبعد بكثير مما تفرضه الضرورة - دينياً ودنيوياً - من تقارب وتعاضد وتجمع.

لقد أخذت التكتلات أشكالاً متعددة في العالم المحيط بنا، فهناك تكتلات بين الدول، وتكتلات بين القوى داخل الدول، وهناك تيارات ومؤسسات تتعامل بمنطق التكتل والتكامل: محلياً أو إقليمياً أو عالمياً.

فعالمياً وعلى المستوى السياسي والاقتصادي؛ نشأ العديد من أشكال التكتل والتجمع، فقد شكل الأوروبيون الاتحاد الأوروبي، الذي جاء نتاج عملية تعاون واندماج، بدأت عام ١٩٥١م بين ست دول، وظلت الدول الأوروبية تلحق بهذا الاتحاد، ولم يمض نصف قرن حتى بلغ عدد دول الاتحاد الأوروبي ٢٧ دولة، تتعاون فيما بينها على ثلاثة أسس:

أولها: وحدة المجتمع الأوروبي، بما في ذلك وحدة السوق والعملة.

والأساس الثاني: وحدة المصالح السياسية الخارجية والدفاعية.

والأساس الثالث: التعاون في المجال الأمني والشؤون الداخلية.

وداخل الاتحاد الأوروبي توجد المجموعة الأوروبية التي تأسست عام ١٩٥٧، وقد بدأت بتدعيم التعاون في مجالات الطاقة والتعدين والذرة وغيرها، ثم كوَّنت فيما بينها السوق الأوروبية المشتركة. وشكَّلت الدول الغربية فيما بينها أيضاً

والتكتلات والتحالفات العسكرية أيضًا من سمات هذا العصر، ولعل من أبرزها حلف شمال الأطلسي (الناتو) الذي تأسس في عام ١٩٤٩م، بناء على معاهدة شمال الأطلسي التي وُقِّعت في واشنطن ذلك العام، وكان الهدف من تأسيس ذلك الحلف -الذي اتخذ من العاصمة البلجيكية (بروكسل) مقرًا لقيادته-

العمل على تنسيق التكتل بين دول المعسكر الغربي الرأسمالي ضد المعسكر الشرقي الشيوعي؛ حيث تصدرت أمريكا زعامة العالم الغربي في ذلك الحلف؛ لمواجهة المد الشيوعي الذي جسَّده (حلف وارسو) المنشأ عام ١٩٥٥م، وكان ذلك الحلف

في السنوات الأخيرة اتجهت أوروبا إلى التوحد عسكريًا، مع مشاركتها المركزية لأمريكا في حلف شمال الأطلسي، فهناك توجه قوى لتكوين تحالف عسكري أوروبي مستقل

الشيوعي يضم دول شرق ووسط أوروبا مع روسيا. لكن هذا الحلف تفكك مع تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١م.

لقد بقي حلف شمال الأطلسي قوة عسكرية وحيدة ذات صفة عالمية، وظل يتطور ويتوسع، فقد ضم عند تأسيسه عام ١٩٤٩م اثني عشر دولة هي: أمريكا، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، كندا، بلجيكا، الدانمارك، هولندا، البرتغال، النرويج، إيسلندا، لكسمبرج. ثم انضمت لهذا الحلف كل من: اليونان، ألمانيا الغربية، أسبانيا، وتركيا التي تُعد الدولة الإسلامية الوحيدة في هذا التحالف؛ حيث قُبلت عضويتها فيه لأسباب مصلحية عسكرية، يفيد منها التحالف أكثر مما تستفيد تركيا؛ ولهذا فإن الإجماع الأوروبي قد انعقد على عدم قبول تركيا في الاتحاد الأوروبي؛ لحرمانها من الاستفادة من مزايا هذا الاتحاد القائم على تعاون أوروبي نصراني.

وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، انضم العديد من دول الكتلة الشرقية الأوروبية إلى حلف شمال الأطلسي، فالتحقت به جمهوريات: التشيك، والمجر، وبولندا، وبلغاريا

منظمة التجارة العالمية، التي تطورت عن اتفاقية (الجات) في أكتوبر عام ١٩٤٧م بين بعض الدول؛ للتخفيف من القيود التي تعترض التجارة الدولية، ولتخفيض الرسوم الجمركية.

ثم أعلنت منظمة التجارة العالمية في ديسمبر ١٩٩٥م، لتحل محل اتفاقية (الجات)، وأصبح أعضاؤها ١٤٧ دولة، وللولايات المتحدة والدول الغربية دور رئيس فيها.

وهناك أيضًا تكتل الدول الصناعية السبع الكبرى: أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وكندا واليابان، ثم انضمت إليها روسيا في

أواخر عهد الاتحاد السوفيتي. وقد كانت نشأة هذه المجموعة ردًا على توحد الموقف العربي في حرب أكتوبر ١٩٧٣م باستخدام سلاح البترول؛ حيث تزعمت فرنسا الدعوة لتكتل العالم الصناعي (المسيحي في غالبيته) لمواجهة أي تحديات من الدول المصدرة للنفط، وعلى رأسها الدول العربية.

وقد بدأ نشاط الدول الثماني الصناعية في المجال الاقتصادي، ثم توسع إلى الجانب السياسي؛ ولأن السياسة والاقتصاد متداخلان فيما بينهما؛ فإن كل أشكال التنسيق والتعاون الاقتصادي ينعكس في النهاية على التوجهات السياسية. ومع ذلك؛ فهناك تكتلات سياسية صرفة، ظلت تتوالى في أشكال مختلفة بين مجموعات من الدول، ولعل منظمة الأمم المتحدة ذاتها هي أبرز الأشكال المعاصرة لهذا التكتل، الذي يبدو للناس تنظيمًا للشئون الدولية، في حين أنه في حقيقته حماية لمصالح الدول الخمس الكبرى التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية، والتي تتمتع منذ أكثر من نصف قرن بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن، ولها حق الاعتراض (الفيتو) على أي إجراء عالمي يتعارض مع مصالحها.

إلى التوحد والتعاقد والتعاون لغايات سامية، تجمع مصالح الدين والدنيا، وتحقق الأغراض الشريفة لاستخلاف الإنسان في الأرض، ولهذا جاءت الدعوة في نصوص الوحي موجّهة للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يفرقوا، وبأن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وبأن يكونوا كالبنيان المرصوص، وبألا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، ونحو ذلك من الهدايات الإسلامية في الاجتماع والاعتصام والتكتل على الخير، كل هذا ليكون شعار تعاونهم هو (البر والتقوى)... بينما شعار تجمع غيرهم في الغالب هو (الإثم والعدوان).

لقد ترجم هذا على أرض الواقع بنشوء الكيانات الإسلامية الجامعة، بدءاً من دولة المدينة التي أقام الرسول صلى الله عليه وسلم دعائها؛ حيث أصبحت وعاءً يجمع غايات ومقاصد الشريعة كلها؛ لتصب في مصلحة الأمة الإسلامية بل الخليقة الإنسانية، ثم تتابعت بعد دولة المدينة كيانات إسلامية ذات أدوار عالمية، وهي ما عُرف بدول الخلافة الإسلامية؛ حيث يمثل نظام الخلافة الإسلامية - من الناحية النظرية - التجسيد الصحيح لدور الإنسان في الاستخلاف في الأرض، جامعاً بين ما يُصلح الدين والدنيا معاً، وقد كانت مرحلة الخلافة الراشدة أصدق تمثيل لذلك، ثم تبعتها الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية، ثم تفرقت الكيانات الإسلامية الجامعة لتتوحد من جديد تحت راية الخلافة العثمانية، التي كانت من أبرز الكيانات العالمية في التاريخ، حيث غطت أراضي شاسعة في القارات الثلاث الكبرى: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وامتدت لأكثر من خمسة قرون من عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م إلى عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م.

لقد كان للمسلمين إذن كيان عالمي سياسي حتى أوائل القرن الميلادي المنصرم، في شكل اتحاد تقوده تركيا، وهو اتحاد كان قوة وحماية للمسلمين طيلة تلك القرون.

وأستونيا وليتوانيا، ورومانيا وسلوفاكيا، وسلوفينيا. ومرة أخرى برهن الغرب على عصبيته الصليبية؛ حيث استبعد الدول التي تضم شعوباً إسلامية من العضوية، وهي: ألبانيا والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود. وقد أصبح حلف شمال الأطلسي (الناتو) رأس حربية في كل حروب الولايات المتحدة ضد العالم الإسلامي، وآخر ذلك تسلمه لمهام العدوان على أفغانستان المحتلة، يلاحظ أن حلف (الناتو) كتكتل عسكري نصراني دولي، قد اتخذ من الصليب شعاراً له في شكل نجمة رباعية (صليب) يخترق الأطراف الأربعة للكرة الأرضية!

وفي السنوات الأخيرة اتجهت أوروبا إلى التوحد عسكرياً، مع مشاركتها المركزية لأمريكا في حلف شمال الأطلسي، فهناك توجه قوي لتكوين تحالف عسكري أوروبي مستقل؛ حيث تُفوقُ قوةُ جيوش دول الاتحاد الأوروبي في مجموعها قوة جيش الولايات المتحدة، فمجموع عدد جيوش الاتحاد الأوروبي تصل إلى نحو مليوني جندي مسلح، لكنها تعمل - حتى الآن - داخل أراضيها فقط، ويخطط الأوروبيون لتوحيد هذه الجيوش في حلف واحد، ويرتبون لأن تكون له مهام في كل أنحاء العالم؛ حيث يجري الترتيب لتشكيل قوات تدخل أوروبية تابعة للاتحاد الأوروبي بدءاً من عام ٢٠٠٧م؛ لتستطيع هذه القوات التدخل والوصول إلى أي مكان في العالم في وقت قصير، وقد بدأت بواكير نشاط هذا الحلف العسكري الوليد تحت اسم قوات (سفور)؛ حيث حلت محل قوات (الناتو) في كل من جمهوريتي البوسنة والهرسك والجبل الأسود الإسلاميتين في أوروبا.

تكتلات التعاون... بين (البر والتقوى)....

(والإثم والعدوان):

إذا كانت التحالفات والتكتلات بين غير المسلمين، تدفع إليها أطماع السيطرة المادية، والجشع الدنيوي، والاستعلاء العنصري والثقافي، فإن الإسلام قد دعا

تُوعك أو تُنهك، ولكنها لا تدول أو تزول، فقد أثبتت أمتنا خيريتها في ذلك الظرف الحرج، من خلال انتداب جموع متنوعة من أفراد شعوبها للقيام بالعديد من المهمات والواجبات التي يُفترض أن تقوم بها القيادة السياسية الموحدة، أو حتى القيادات الجادة المتعددة. ولكن بشغور الزمان من تلك القيادة، كان من المحتم أن تقوم الأمة بنفسها بأداء المستطاع من تلك المهمات والواجبات، عن طريق عدد من الجماعات التي تنوعت فصائلها وتعددت وظائفها، فمن جماعات نذبت نفسها للحفاظ على ثوابت الأمة الاعتقادية والمنهجية من خلال الاهتمام بالعلم الشرعي تعلّمًا وتعلّمًا، ومن جماعات تفوقت في العمل الاجتماعي والتقويم السلوكي، وأخرى تفرغت لتأسيس فكر سياسي قابل للتعامل مع مرحلة انفصال السلطان عن القرآن، إلى نوع آخر من الجماعات التي هبّت للدفاع عن الأمة والدُّود عن حياضها، بصد حملات العدوان عليها من الخارج، في وقت عجزت فيه الجيوش الرسمية المحترقة أو المخترقة عن الصمود في أكثر ساحات النزال.

نستطيع أن نقول -باطمئنان-: إن تلك الجماعات التي مارست العمل الإسلامي بكافة صورته، كان وجودها واستمرارها ضرورة لوجود واستمرار الحياة الإسلامية في ظرف غياب الدولة الإسلامية بالمعنى الشامل، صحيح أن المسلمين دخلوا منذ غياب سلطانهم القوي عن الأرض في ظرف استثنائي طويل، لا يزالون يعيشون تحته حتى الآن، لكن لا أحد يدري عن الحال الذي كان يمكن أن تكون عليها الأمة لو لم يُقسّم الشرفاء منها الأدوار المهمة فيما بينهم؛ لسداد ثغرات الواجبات العينية والكفائية، التي تتأكد على الأمة في ظروف الأمن أو الخوف.

لا أريد هنا أن أخوض في التفاصيل التاريخية لنشأة تلك الجماعات؛ حيث الغوص في الظروف المكانية والزمانية والإنسانية التي أنتجت كلاً منها، ولكنني سأترك هذا للذاكرة العامة التي تستحضر

وقد جمع الله بدولة الخلافة العثمانية شتات المسلمين، ووحد صفوفهم في مواجهة تحديات وتعديات الأوروبيين والروس والهندوس وأحفاد المَجوس؛ حيث ظل هؤلاء جميعًا يتناوشون هذا الكيان الإسلامي في مواجهات متواصلة، كانت تُردُّ وتُردُّ في الغالب، حتى تكاثرت الجراح في النهاية على ذلك الجسد، واجتمعت عليه العلل، إلى أن صار الأوروبيون يطلقون عليه وصف (الرجل المريض)؛ ولم تدع ذئاب أوروبا ذلك الجسد المنهك للموت؛ فضلاً عن التعافي، بل تكتلت وتحالفت للانقضاض عليه وتقسيم أجزائه حيًّا، بدءاً من الأطراف وانتهاء بالقلب في اسطنبول، التي احتل الإنجليز عاصمتها، بعد أن كانوا قد تقاسموا مع الفرنسيين والإيطاليين والألمان والهولنديين وغيرهم أوصال العالم الإسلامي والعربي، الذي كان تحت حماية تلك الدولة العثمانية.

ومنذ أن مُزق العالم الإسلامي، وأعداؤه لا يدخرون جهداً في إيصاله إلى المزيد من التمزق والتفريق والضعف، فما من محاولة للنهوض على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو العسكري، إلا وتواجه بالتأمر المفصوح والتحرش المعلن. لكن هذه الأمة - رغم كل مظاهر الضعف الذاتي والاستضعاف الخارجي الذين عرضا لها في الأزمنة الأخيرة - ظلت تمانع وتدافع، وتخرج منها أصوات الداعين للعودة، ومحاولات الناهضين من الكبوة، وقد تمثل ذلك في نشأة حركات وجماعات في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي منذ الربع الأول من القرن العشرين، حاولت العودة بالأمة إلى طريق النهوض والتوحد من جديد.

نشأة الجماعات الإسلامية

كانت نشأة الجماعات الإسلامية في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي، بعد سقوط أو إسقاط دولة الخلافة الإسلامية في أوائل القرن الميلادي المنصرم، دليلاً على أن هذه الأمة ستظل حية، قد

الخطوط العريضة من ذلك، أو للدراسات المتعددة التي وُضعت من أجل بيان ذلك. والذي ساعتمده هنا هو الكلام بالوصف العام الذي ينظم الاتجاه المتشابه من تلك الجماعات في سلك واحد، وإن اختلفت الأسماء والأزمة والأمكنة.

لقد قامت جماعات العمل الإسلامي - ولا تزال - بدور تاريخي، حفظ سفينة أمتنا من الغرق بإذن الله، فالتحديات

التي واجهت الأمة طوال ما يزيد عن قرن مضى، في المشارق والمغارب ومن الداخل والخارج، كانت تكفي لأن تحول هذه الأمة إلى أثر بعد عين، ولكن الله تعالى استتقذ أمة الإسلام بجهود المخلصين من أبنائها الذين انتدبوا لإقامة شرعة التعاون على البر، والتعاقد على التقوى، ومن العجب أن أقوامًا شككوا في مشروعية عمل تلك الجماعات أو جُذواها، مع أن الاجتماع والتعاون مطلب شرعي ومقصد حياتي، والجماعة روح الديانة الإسلامية في شرائعها وشعائرها، كما لا يخفى على أدنى تأمل.

صحيح أن (الجماعة) في النصوص الشرعية لها معناها الخاص في بعض الأحيان، بحيث يُقصد بها الولاية الإسلامية العامة التي تُفترض طاعتها على مجموع الأمة، إلا أن الجماعة بذلك المعنى الخاص، لا يمكن التوصل إليها حال غيابها إلا من خلال سلسلة من الأعمال الجماعية الأدنى، التي يمكن أن تُتوج في النهاية بالعودة إلى الجماعة العامة أو الدولة الموحدة، وهنا فإن القاعدة الشرعية التي تنص على أن: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، تُضفي أقوى أنواع المشروعية والمصادقية على الأعمال الجماعية المنضبطة بالأحكام الشرعية. لقد قال

الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾

لا يُنصوَر في عمل كبير، ديني أو دنيوي، أن يقوم بغير تلاحق الجهود وتنسيقها وتوزيعها في عمل جماعي منظم الخطى، منظم التنفيذ والأداء

وَتَذَهَبَ رِيحًا ﴿ [الأنفال: ٤٦]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» (١)،

وقال: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد». (٢)

وهذه النصوص - وغيرها كثير - تجعل إنشاء الصفوف الإسلامية وتقويتها وتقريبها

من الأعمال المشروعة استحبابًا أو وجوبًا، وإذا كان توحيد الصفوف في حال وجود الولاية العامة والكيان الممكن مطلوبًا، فإنه في زمن الضعف أولى، وفي حالة الفرقة أو جب وأكد، فالتعاون في العمل الإسلامي واجب لا تتم واجبات كثيرة وكبيرة أخرى إلا به.

لقد تواترت فتاوى أهل العلم والعمل قديمًا وحديثًا، على القول بمشروعية التعاون الجماعي، حتى أصبح العمل والفتوى، على إيجاب أو استحباب التضامن مع الجماعات الإسلامية الساعية في نشر الدين، أو المتصدية لأعداء الدين في مشارق الأرض ومغاربها، وتكاثرت عن أهل العلم التصريح بجواز دعمها حتى بأموال الزكاة، وهو ما يدل على أن إجماعًا معاصرًا قد انعقد على مشروعية العمل الجماعي من حيث الأصل، وإن اختلفت الأنظار في بعض الوسائل والممارسات.

وقد أطلق الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز - رحمه الله - على العمل الجماعي وصف (التعاون الشرعي)، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه». (٣)

وقال - رحمه الله - : «وجود هذه الجماعات

وقبل الانهماك في الحديث عما عَوْنَتْ به لهذا الدراسة - وهو قضية (ما بعد الحزبية) - أحب أن أشير بصورة إجمالية إلى أهم الإيجابيات التي أوجدها العمل الجماعي على الساحة الإسلامية، خلال ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن، سواء كانت هذه الجماعات رسمية أو غير رسمية، سلمية أو مقاومة، فكرية أو وظيفية.

وأهم هذه المجالات ما يلي:

١- في المجال العلمي والمنهجي :

أعدت الجماعات أو المجموعات المهمة بالعلم والتعليم والبحث الشرعي، محاضن الفكر الإسلامي إلى النهج الأصيل في مواطن كثيرة من العالم الإسلامي، فأوجدت بذلك مساحة لإحلال السُّنة مكان البدعة، والحقيقة مكان الخرافة، والأصالة مكان الزيف، وهو ما أعاد للأمة قسطًا كبيرًا من هويتها التي كانت مهددة بالضياع، في ظل إصرار الحكومات العلمانية على رعاية الأفكار التغريبية أو الإلحادية أو التحريفية التخريفية في بلاد المسلمين، وقد أثمرت هذه الجهود العلمية انبعاث روح جديدة لحبّ الإقبال على العلم، فكثر الطلب في الجامعات والمعاهد والمدارس الإسلامية، وكثرت دور النشر المتخصصة في إحياء التراث ونشره.

صحيح أن المجموعات العاملة في مجال العلم والتعليم، ليست كلها جماعات بالمعنى التقليدي أو التنظيمي، ولكنها في النهاية تمثل جهودًا منسقة، تدخل ضمن إحدى صور العمل الجماعي الذي تتوزع فيه المهام، وتتكامل الأدوار.

ولا شك أن النهضة العلمية قد أثمرت أيضًا نهضة فكرية وثقافية وإعلامية؛ حيث ساهم بعث المنهج الصحيح في ضبط الكثير من الأنشطة الفكرية والثقافية بكل ما يبني عليها من تحركات عملية.

الإسلامية فيه خير للمسلمين، ولكن عليها أن تجتهد في إيضاح الحق مع دليله، وألا تتنافر مع بعضها، وتحرص على ترك ما يشوش بينها وبين غيرها، ولا مانع أن تكون هناك جماعات إذا كانت تدعو إلى كتاب الله وستة رسول الله صلى الله عليه وسلم». (٤)

إذن هناك تعاون شرعي، الأصل فيه ضم الجهود في عمل الخير بعضها إلى بعض، دون إلزام ديني بالطاعة لشخص معين، كمضاهاة للطاعة الواجبة للإمام الشرعي العام للأمة (ال خليفة أو السلطان)، الذي وردت النصوص الشرعية بوجوب بيعته، وتحريم الخروج عليه أو التأخر عن طاعته.

إنه لا يُتصور في عمل كبير ديني أو دنيوي، أن يقوم بغير تلاقي الجهود وتنسيقها، وتوزيعها في عمل جماعي منظم التخطيط، منتظم التنفيذ، يقوم على متابعتة رأس من الناس، أو عدد من الرؤوس المتعاونين.

أما إذا أخذ العمل الإسلامي صورة (ولايات حزبية) متعددة ومتباعدة، لكل منها رأس مفرد ومنهج منزحل، يوالي الأتباع عليه ويعادون، فإن هذا هو ما يُحدث الحزازات؛ وينشئ العصبية، ويغذي المشاحنات؛ حيث يؤدي التكتل على ذلك الوجه إلى ألوان من التشرذم والتفرق والتنافس في غير عمل الآخرة.

لا شك أن العمل الجماعي إذا خلا من تلك الآفات، فإنه من الضرورات التي لا يتم الكثير من الواجبات إلا بها، وعلى رأسها واجب حماية الدين والتصدي لأعداء الأمة في زمن الانكشاف العام الذي تعيشه؛ حيث لا جماعة واحدة، ولا كيان ممكن جامع، ولا شوكة قادرة على مواجهة كل التحديات، في حين أن أشكال التعاون على الإثم والعدوان، أو الإلحاد والكفران، أو الابتداع والتحريف، نراها ممثلة في أركان الأرض الأربعة، بعضها في شكل دول، أو تحالفات بين عدة دول، بكل ما للدول من إمكانيات - كما سبق التمثيل -، وبعضها في شكل جماعات وميليشيات وجمعيات، تتعاون فيما بينها.

الواجب في مثل تلك الظروف بين الأمرين: الكفائي والعيني، ولا يمكن ولا يتصور لأدوار واجبة مثل هذه أن تقوم على غير العمل الجماعي.

ولقد أوجدت جهود الجماعات المدافعة عن حياض الأمة في كثير من الأحيان ظروفًا سياسية جديدة، أصبح من الممكن أن يبنى عليها السياسيون؛ لحفظ الثمار من خطف الأغيار، والحيلولة دون إضاعة جهود المجاهدين وتضحيات المضحين.

ولا تزال الضرورة قائمة بناء على ما سبق، يمكن التأكيد على أن أوضاع العالم الإسلامي، على كافة المستويات المنهجية والثقافية والاجتماعية والسياسية والدفاعية، ربما أصبحت أسوأ بكثير لو لم توجد هذه الجماعات، وتستمر في القيام بأدوارها المتنوعة ووظائفها المتعددة؛ وذلك على مدى ما مضى من عقود طويلة وحتى الآن.

ماذا مثلاً.. لو لم ينشأ في فلسطين عمل (جماعي)، أثمر وجود منظمة حماس وغيرها من المنظمات التي تتبنى النهج الإسلامي، بديلاً عن النهج العلماني صاحب الجرائم وصانع الهزائم أمام شرذم اليهود؟! وماذا لو لم تنشأ الجماعات المجاهدة ضد الغزو الروسي في أفغانستان لتدمره وتدحره، ثم تنشأ بعد ذلك في أفغانستان أيضًا جماعات الطلبة التي استنقذت ثمرة الجهاد السابق من الضياع، ثم صمدت وتصدت للغزو الأمريكي، وماذا لو لم تشكل على وجه السرعة جماعات المقاومة المسلحة في العراق؛ لتواجه الكارثة التي حلت على ذلك البلد؟! وعلى سائر الأمة؛ جراء الغزو الأمريكي المدعوم بتحالف شبه دولي؛ حيث تحولت تلك الجماعات الصغيرة إلى مجموعات وتكتلات كبيرة، استطاعت بفضل من الله أن تلحق بالأمريكيين وحلفائهم هزيمة قاسية، في مدة قياسية لا تتعدى أربع سنوات، مع ما لأمريكا من قدرات أعجزت جيوش العالم وتكتلاته السياسية والعسكرية على مدى ما يزيد عن نصف قرن. ومثل هذا يقال عن أنشطة الجماعات الأخرى في المجالات الأخرى.

وهنا لا يصلح أن يظل المسلمون معزولين عن التعامل السياسي مع هذا الواقع، فهما ومدارسه وممارسه، وهذا ما حاولت الجماعات المهتمة بالشأن السياسي سد الثغرة فيه، وقد وُفِّقَتْ إلى حد كبير في إيجاد الأرضية التي يمكن أن تبني عليها الأجيال المقبلة عبر تجارب من النجاحات والإخفاقات المورثة للخبرة، وبخاصة بعد أن بدأت بوادر ظهور مشروعات لإنشاء كيانات سياسية إسلامية في عديد من البلدان.

٤- في مجال المدافعة والممانعة :

حيث برزت حركات وجماعات تتبنى نهج الدفاع عن الأمة في أزمنة وأمكنة الخطر، في صورة كفاح مسلح، أو دعم له ووقوف وراءه. وقد فرضت على المسلمين ظروف في كثير من مناطق العالم توجب عليهم النفي العام لصد الصائليين المعتدين، ولهذا كان لا بد من إنشاء وتقوية مخالب وأنياب دفاعية من الشعوب، تزدود بها الأمة عن أرضها وعرضها في مواطن التحدي.

لقد نشأت، ثم تطورت، ثم توسعت جماعات إسلامية مجاهدة في فلسطين وكشمير وأفغانستان والشيشان والبوسنة والصومال والفلبين وغيرها في العقود الماضية، وكان نشؤها من الضرورات المفروضة؛ لكبح جماح الأعداء عن المزيد من قهر الأمة، أو على الأقل تقليل الشر الناشئ عن عدوانهم الواقع والمتوقع، وصرف أنظارهم إلى خارج أوطان المسلمين.

وقد استجدت أوضاع أخرى في كل من العراق وأفغانستان بعد الغزو الأمريكي الأخير، وكذلك يُتوقع أن تنشأ أوضاع أخرى مشابهة في السودان والصومال وبعض بلدان الشام والخليج العربي، وهنا لا مجال للجدال في مشروعية العمل الجماعي المسلح للتصدي للمعتدين على حرمت الأمة إذا تقاعست الحكومات عن ذلك؛ حيث يتقلب هذا

إذ الكل حُرِّف في اختيار الاجتهاد الذي يراه: في نوعية العمل، وفي كيفية التنفيذ، وطبيعة العلاقات وسقف الخيارات، دون أن يكون هناك سلطان يَزَعُ الله به ما لا يَزَعُ بالقرآن، ويُوَحِّد الأمة في الأحكام على المحكمات، وفي النوازل على اجتهادات أهل الشأن والعلم والفقهاء قبل سائر الاجتهادات.

ما أزعجه أن أكثر الآفات التي لحقت بالعمل الإسلامي في ظل الظروف المشار إليها، إنما أنتجها

غياب القيادة الواحدة الراشدة، وضعف المرجعية الجامعة الموحدة الصفوف، سواء كانت هذه القيادة أو المرجعية علمية أو عملية؛ حيث برزت قيادات متنازعة، أشاعت نوعاً من التحزب حول أشخاصها وأفكارها فتعددت بذلك المرجعيات، التي لا يصلح أكثرها لأن يكون مرجعاً أصلاً، وظهرت أنواع من التكتل الضار، مُشَكِّلةً (حزبية سلبية) تُفَرِّق ولا تجمع، وتُبَدِّد ولا تبني.

وعندما أتحدث عن الحزبية (السلبية) فأنا أعني ما أقول، فالتحزب منه ما هو سلبي مرفوض، ومنه ما هو إيجابي مفروض، فأصل ولاية أولياء الله، هي التحزب والتجمع في ظل محبته وطاعته والانقياد لشريعته، والمتحزبون على هذا الأمر والمتناصحون به والمتنافسون فيه وكذلك المتنافسون فيه هم حزب الله، فله حزب وعدهم بالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ﴿الْأَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولثلا يدعي مدع أنه وحزبه يمثلون حزب الله لمجرد النسبة أو التسمية أو الادعاء، جاءت آيات القرآن فاصلةً في تحديد الأمور المؤهلة لوصف (حزب الله)، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

إن مثل هذه النجاحات على الامتداد الزمني والمكاني خلال العقود السابقة، كُتِّشِر إلى حقيقة بارزة، وهي أن الجماعات الإسلامية - كانت ولا تزال - ضرورة يفرضها الظرف الاستثنائي الطويل الذي دخلت فيه الأمة منذ أكثر من قرن، ولم تخرج منه لآن، وهو الظرف الذي شَغَرَ فيه الزمان عن الكيان القوي الممكن الذي يحفظ للمسلمين عزهم وكرامتهم ومكانهم اللائق بهم تحت الشمس، كخير أمة أخرجت للناس.

الحزبية... النقص المنغص:

إن الظرف الاستثنائي المشار إليه، والذي كان أبرز أسباب نشأة الجماعات، هو نفسه الذي أوجد عدداً من النقائص والمنغصات في عملها؛ حيث لا يمكن أن تستوي الظروف الطبيعية والظروف الاستثنائية في النتائج، فالظرف الطبيعي في حياة الأمة وفق ما حددته الشريعة وحكاها التاريخ، يقتضي أن تكون للمسلمين جماعة واحدة، ذات قيادة واحدة، ومرجعية واحدة، وخطة واحدة وتوجه واحد، يسير بها في اتجاه ثابت نحو هدف متفرد، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، وقوة الحق هي الأولى.

إن الأمر الذي يغفل عنه البعض ويتجاهله آخرون، هو أن العمل الإسلامي كله بجهوده الجماعية والفردية، والعلنية والسرية، السلمية والنضالية، كان ولا يزال يُمارس في ظروف شدة وأوقات أزمة، ولهذا فمن الطبيعي أن تكتنفه النقائص وتلحق به العيوب أكثر مما يحدث في الظروف الطبيعية. فغياب القيادة الواحدة، ومن ثم الجماعة الواحدة والمرجعية الواحدة والتوجه الواحد - ولو على سبيل الأمر الغالب - في تاريخنا المعاصر، أفضى إلى حتمية الاختلاف المستمر المثمر للتنازع والمُظْهِر للفرقة؛

إفساد تلك الآثار، إنما تأتي من قبل الحزبية السلبية غير الشرعية الناشئة عن اتباع الهوى، وتجارب العمل الإسلامي تشهد بذلك، فكم عطلت الحزبية من مشاريع؟! وكم شوّهت من أفكار، وهدمت من رموز، وأماتت من طاقات، وأهدرت من قدرات؟!!

فوفقاً للحزبية الجانحة: كل مشروع ناجح للآخرين هو خصم من نجاحنا، وكل فكرة رائدة لغيرنا هي زائدة عن حاجتنا، وكل رمز صاعد نحو الريادة من خارج الحزب، هو خطر شديد على بقاء ونقاء الحزب، بل يكاد بعضهم أن يقول: من ليس معنا فهو ضدنا...! وهكذا، فبدلاً من أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً - كما يحب الله ورسوله - تجعله الحزبية المقيبة كالبنيان المتمايل يهد بعضه بعضاً.

لقد أهانت الحزبية المذمومة مثلاً، مفهوم الجهاد في حرب أفغانستان الأولى؛ حيث تقاطلت بعض الأحزاب الجهادية على مرأى ومسمع من العالم في بداية التسعينيات، بما أضحك علينا الأمم، وأدمى قلوب المؤمنين، وخطف منهم الفرح والسعادة بالانتصار العظيم على الروس، وهو الذي شاركت فيه الأمة كلها؛ فكلفها عشرات الآلاف من أرواح المجاهدين ومئات الملايين من نفقات المحسنين، وما لا يقدر بثمن من أوقات وطاقات المتعاطفين والمتعاونين.

والكل يعلم أن الحزبية السوداء، هي التي أشعلت الفتنة أو استجابت لها، حتى أذهلت وأشغلت الحكماء والعلماء عن إطفاء نارها.

وقد لعبت الحزبية دوراً أسوأ لما نهضت حركة طالبان في أفغانستان أيضاً، فتجهّم الحزبيون لها، وتهاجموا عليها، وضمنوا عليها بالولاء الذي متّوا به على الأعداء، ثم تطور الأمر إلى صورة أخس، عندما انضمت بعض الجماعات الحزبية إلى خندق الكفار

ضد إخوانهم وهم تحت النار!!

وقد بلّى العمل الإسلامي في الجزائر ببعض

يَسَاءَ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٦﴾

فحزب الله أهل لمحبه؛ لأنهم يوالون المؤمنين إلى حد الذلة لهم، ويعادون الكافرين إلى درجة العزة عليهم، والترفع عن التبعية لهم، وهذه من أخصّ الصفات المطلوبة في مواقف الإسلاميين بدلاً من المواقف المستمدة من تقلبات التحزب المذموم.

إن (حزب الله) بهذا السلوك، يُوجد مفهومًا إيجابيًا للتحزب على الحق، وهو مفهوم يُتّازع بالتحزب الذميم الذي تشوبه الآفات والمخالفات، التي تبدأ من الميل لهوى النفس، لتمر على استرضاء أهواء الناس، ثم تنتهي إلى الركون إلى أعداء الله، والولاية والانقياد لزعيمهم وموجههم إبليس - عليه لعنة الله - حينها تكون الولاية للشيطان وحزبه، ويكون التجمع على طريقته ودربه، ويكون التحزب تحت رايته الضالة وغايته الخاسرة ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فالحزبية إذن من الأوصاف النسبية الإضافية، ولكن الذي أعنيه في هذه المقالة التي عُنُوْتُ بها لهذه المقالة «ما بعد الحزبية» هو الحزبية السلبية غير الشرعية، التي تُفترق القلوب، وتُفسد النوايا، وتُشرذم الصفوف، وتُبدد الجهود، وهذه الحزبية - على سوء غرسها وخبث ثمارها - زاد ضررها غياب القيادة، وتفرّق المرجعية، وتعدّد الجهات، فجزء كبير منها نشأ واستمر بسبب تلك الظروف القهرية، لكن جزءاً آخر - ولعله الأكبر - راجع إلى تجاوزات شرعية وتنافسات دنيوية، وأهواء شخصية، كان من الممكن تداركها، لو صحت النوايا وقوّم الأداء بضوابط الشريعة على الخاصة والعامة.

مضار الحزبية السلبية:

إذا كان للعمل الجماعي ثماره الطيبة، وآثاره النافعة فإن الآفة الأولى التي تهدد هذه الثمار، وتعمل على

في النهاية تحكي عمق المأزق الذي عاشه، ولا يزال يعيشه العمل الإسلامي في بقاء تلك الازدواجية العكسية بين الحزبية وخلاص النية.

لقد أوصلت الحسابات الحزبية غير الشرعية، إلى ممارسات تخالف الشريعة، بل وتخالف العقيدة، ومع ما قد يقال من أن التحزب على مبدأ أو فكرة أو جماعة، هو من المظاهر والظواهر الطبيعية في الحالة المجتمعية طوال تاريخ الأمم، وأنه أمر لا يمكن تلافيه أو التلاقي على الصواب فيه، فإنه يُجاب عن ذلك بأن حتمية الوقوع القدرى شيء، وتسويغ الوجود كأمر شرعي شيء آخر، فبحسب الميزان الشرعي، لا يمكن الاحتجاج بالأقدار في وزن وتقييم الأعمال.

لقد أوصلت الحسابات الحزبية غير الشرعية، إلى ممارسات تخالف الشريعة، بل وتخالف العقيدة

هل الحل في الحل:

إن الجماعات الإسلامية -في رأيي- لا يزال لها دور رائد، وموقع قائد، في ميادين التمكين للدين، فلا زالت الظروف التي نشأت لأجلها قائمة، ولا زالت الأمة في حاجة إلى تنوع تخصصاتها، وتميز عطائها، وانتشار أنشطتها، وإن التنادي بتجاوز مرحلة عمل الجماعات في عصرنا الراهن، إنما هو كدعوة لهدم بناء قديم عريق عامر بدعوى إنشاء بنية جديدة ومعاصر، دون أن يكون لنا في مشروع البناء الجديد رأس مال لتأمين التكلفة، أو مهندسون للتخطيط، أو عمال للبناء، فتكون النتيجة هي الاستقرار في العراق، أو التقدم إلى الوراء!

صحيح أن العمل الجماعي في ذاته ليس غاية إنما وسيلة، ولكن من قال: إن الوسائل يُضَحَّى بها قبل تأمين البدائل؟!!

إن حجج المنادين بتجاوز مرحلة الجماعات، تتلخص في أن مشكلاتها أصبحت أكثر من حلولها، أو أن أدوارها قد استنفدت، أو أن وسائلها قد عفا عليها الزمن، وأن أطرها لم تعد مناسبة في زمن تطور

الحزبيين الذين آثروا نصررة العلمانيين على الإسلاميين، لا لشيء إلا لاختلاف الانتماء الحزبي مع أن الراية والغاية يُفترَض أنها واحدة.

وكذلك نُكِبَ العمل الإسلامي في مصر واليمن والسودان وفلسطين ببلايا حزبية مشابهة، كانت الحزبية فيها دائماً تشق الصفوف وتُضعِف الأداء وتُفرِّق الجهود.

وها نحن نشهد على الساحة العراقية التي تشهد أعظم ملحمة جهادية في هذا العصر على الإطلاق، غربان البين الحزبية تنعق في سماء بغداد بنشيد نشار، يريد تفريق قلوب المجاهدين، وتمزيق صفوفهم (بتقسيمات

وتصنيفات، تشطر المجموعات المجاهدة إلى وطنية وغير وطنية، ومحلية ووافدة، وشريفة وغير شريفة، ومثالية وواقعية) في عملية هدم متعمد، تهدد جلال الموقف ودقة الظرف وضخامة الانتصار الأشبه بالمعجزات، في زمن انتهاء المعجزات، وهو ما يكاد أن يكرر فاجعة المسلمين في جهاد الأفغانين.

لا يعني الكلام عن الأثر المدمر للحزبية العبثية في ساحات النضال السياسي، والقتال أو النزاع الجهادي، أن نغفل آثارها القاتمة والقاتلة في الساحات الدعوية بل والعلمية!! فلا تزال المنازعات الحزبية تزامح صلاح النية في الأعمال الدعوية وأحياناً العلمية، فلكل جماعة مثلاً مساجدها وروادها وعلماؤها ودعاتها -في بعض البلدان- بحيث يكاد يُفرض حظر تجول في الساحات الدعوية لبعض الاتجاهات من اتجاهات أخرى، وفي بعض الأحيان يكاد الاقتصار على تلقّي منهج الجماعة أو الحزب، أن يكون أشبه بالتلقّي عن المصادر المعصومة؛ حيث يعد السماع أو الاطلاع على غيرها، أو التلقّي عن الآخرين خرقاً لقواعد الانتماء، وتجاوزاً لحدود السمع والطاعة! والحكايات في هذه الأمور لا تكاد تنتهي، وهي

إلى عدم الاختلاف، وتكثف التشنيع على المتفرقين والمفرقين. فما المانع من أن يعمل العاملون في مواقعهم التي يُسروا لها في أجواء جديدة ونظيفة، يحل الاحترام فيها محل الصدام، والتناصر محل التنافر؟! وما المانع أن يستشعر كل عامل أنه مُكَمَّل للآخر والآخر مكمل له؟! حيث تحتاج قضية العمل للإسلام إلى مجموع جهود الحاملين لرايته، العاملين لنصرته.

إن مفهوم الشمولية في العمل الإسلامي، كان من المفترض أن يكون من المفاهيم التي استقرت وأصبحت من البديهيات، بعد أن ظهر للجميع أن من المستحيل أن تقوم جماعة واحدة أو توجه واحد بحمل كل أعباء الدعوة دون تعاون الآخرين. ولكن... قاتل الله الحزبية، التي تصور لكل جهة أنها وحدها القادرة على تصنيع سفينة النجاة وتدريب ربابها،

وتركيب آلاتها وجمع ركابها، والتحكم في مسارها وتوجيه هوائها، وتسيير الماء من تحتها!!
صحيح أن السفينة لا ينبغي لها إقبطان واحد في ظروف العافية والاستقرار، إلا أن هناك ظرفاً استثنائية قد يُفقد فيها القائد أو يمرض، وعندها لا بد من إلابتعاون الكل في توازن تام وتجرد كامل، حتى لا تغرق السفينة بالجميع.

إننا في حاجة ملحة إلى تجاوز الحزبية إلى الشمولية في مرحلة الخطر التي نعيشها، فما المانع من أن يتواضع السياسيون للشرعيين، فيستمدون منهم ضوابط ما يفعل وما لا يفعل في السياسة وفق موازين الشريعة؟ وما العائق من أن يفتح الشرعيون على فهم مُجربيات السياسة ومخرجاتها، التي تؤثر حتمًا على مسيرة المسلمين في العمل للدين؟

لماذا لا يستشعر السياسيون أنهم في حاجة إلى تضحيات الجهاديين، التي لولاها -بعد فضل الله- ما نفعت السياسة ولا أفلح الساسة؟!... وما الذي

أشكال العمل المؤسسي في المجتمعات المتقدمة. قد يكون بعض هذه الأقوال صحيحًا، ولكن السؤال يظل... ما هو البديل الجاهز في ظل الظروف الحرجة التي تمر بها الأمة، وتحتاج فيها إلى كل جهد فردي، فضلاً عن أداء جماعي في خدمة دين الناس ودينهم، والدود عنهم في كافة المجالات العلمية والتعليمية، والإعلامية والاجتماعية، والسياسية والجهادية؟!

إن الدعوة إلى تجاوز مرحلة الجماعات قبل إيجاد البدائل، هو بالإضافة إلى أنه غير مصلحي، فإنه غير واقعي، فلا توجد جهة في العالم الآن تملك أن تُوقف تجمع الجماعات، وليست هناك صلاحيات لأي جهة كانت أن تُصدر أمرًا بحل جماعة كذا، أو تحويل مسار جماعة كذا، فالدعوة إلى حل الجماعات، و(تسريح) أعضائها هو حل مستحيل،

وبالإضافة إلى أنه غير مستساغ فإنه غير مستطاع.

إن الطرح البديل -في نظري- هو تصحيح الوجهه في اتجاه (ما بعد الحزبية)، وكذا التوجه نحو التطوير والتعديل في أطر العمل الجماعي، مع الاستمرار في التوسع خارج إطار الجماعات أو في تجمعات من نوع جديد، فهي ثلاث ركائز مطلوبة:

الركيزة الأولى:

تقليل تحكم الحزبية السلبية في توجيه عمل الجماعات، وهو ما أعنيه بالدعوة إلى (ما بعد الحزبية)؛ حيث من الممكن أن يتحسن أداء الجماعات الإسلامية أضعافاً مضاعفة، إذا تخلت عن جعل الحسابات الحزبية ميزاناً لتقويم الأشياء، والحزازات الحزبية معياراً للولاء والبراء.

إن تقليل خطر الاختلاف، حزبياً كان أو غيره، ليس مستحيلاً، بل هو داخل في حدود المستطاع؛ لأنه أمر شرعي وديني، فقد تكاثرت الدعوة في نصوص الشريعة

جميع العاملين في الحقول الإسلامية
لا يستغنون عن جود الأغنياء، وعطاء
الفقراء، وحكمة العلماء، وحكمة
الساسة، ودُرْبَةِ المفكرين والإعلاميين
والحقوقيين

التي يمشي بها والعين التي يُبصر بها. إننا لا يمكن أن نتصور ساحة إسلامية نضج العمل الإسلامي فيها، دون أن تكون قد تجاوزت مرحلة الحزبية، وقد آن الأوان للإسلاميين أن يُفطّموا من هذه الطفولية الحزبية القميئة غير البريئة.

الركيزة الثانية:

الانطلاق بلا تردد، إلى تطوير أداء الجماعات وتعديله في إطار ضوابط الشريعة، فقد ضيّعت بعض التجمعات عمرًا في الأوهام، من خلال الالتزام بقوالب حزبية، صنعت منها ما يشبه الثوابت الشرعية، مع أنها لم تكن أكثر من اجتهادات لأفراد، تحولت إلى سياسات نمطية يحظر الخروج عنها، ويحذر من تجاوز خطوطها، مع أنها اجتهادات، ربما انكشف خطؤها وانحرف خطها.

إن بعض التجمعات الإسلامية مثلاً، كانت ولا تزال تنظر إلى الاهتمام بالشأن السياسي على أنه رجس من عمل الشيطان، وقد نقل موجهوها عزوفهم عن الشأن السياسي برؤيته إلى

لماذا لا نتقاسم الأدوار، بدلاً من تقائل الأفكار؟ لماذا لا نتكامل حتى لا نتأكل، ونتصارع بلا تصارع، وتحل بيننا روح النصيحة بدل حب النقد والفضيحة؟!

الأتباع، حتى صار الواحد منهم يتفاخر بمقاطعته متابعة وفهم أخبار العالم، مع أن أكثر تلك الأخبار اليوم، هي أخبار إخوانهم من المسلمين المحاربين والمستضعفين والمحاصرين، أو أولئك المناهضين والمقاومين، وفي مقابل هؤلاء أسرف آخرون في الانغماس في (ساس، ويسوس، وسائس، ومسوس) إلى الحد المُتسّي للعرض الأصلي من تناول الإسلاميين للشأن السياسي، كأحد وسائل خدمة الدين، لا نصرة الحركة أو الحزب.

وقد يلهي هذا الاستغراق في شؤون السياسة عن أمور ضرورية، من فهم العلم الذي لا غنى عنه في ضبط ممارسة أي شيء بما في ذلك السياسة، وقد

يضير الجهاديين إذا تلمذوا على العلماء الربانيين واستفادوا من السياسيين الفاقهين؛ ليدركوا أبعاد التفاعلات المحلية والإقليمية والدولية التي يعملون في معتركها، ويجولون في مسارها ويكتوون بنارها... ثم... أليس أولئك جميعًا في حاجة إلى جهود المرين، الذين يقومون بتربية طلاب العلم وأرباب السياسة ومحبي الجهاد، ويزكون فيهم روح التأخي والتناصر والتعاضد، وأليس جميع العاملين في الحقول الإسلامية لا يستغنون عن جود الأغنياء، وعطاء الفقراء، وحكمة العلماء، وحنكة الساسة،

ودُرْبة المفكرين والإعلاميين والحقوقيين؟! لماذا لا نتقاسم الأدوار، بدلاً من تقائل الأفكار؟ لماذا لا نتكامل حتى لا نتأكل، ونتصارع بلا تصارع، وتحل بيننا روح النصيحة بدل حب النقد والفضيحة؟! إن التكامل مع التصحيح، هو أهم السبل لإعزاز الدين وإكمال مسيرة التمكين. لبيق أهل العلم والدعوة

في خطهم، والجهاديون على دربهم، والسياسيون في حال سبيلهم، ما دامت النصيحة سبيل الجميع إسداءً وقبولاً، وما دام السعي إلى التصحيح والتقويم مائلاً وقائماً عند

كلّ منهم، وليعملوا جميعًا ففي كل خير، ما دام بعضهم يؤدي دورًا مكملًا لأدوار الآخرين، وما دام اختلاف الجميع لا يُخرج من إطار الاجتهاد إلى دائرة الأصول.

إن هذا التكامل نفسه يضيف بُعدًا وجدانيًا تضامنيًا مع رفاق الدرب وأصحاب الطريق، ويشعر بعضوية عامة لجماعة الإسلام العامة والكيان الإسلامي الواحد، فإذا كانت الأمة الإسلامية كالجسد الواحد - وهي كذلك - فإن العاملين في مجال العلم والدعوة فيها، هم القلب النابض في ذلك الجسد، والسياسيون والمثقفون هم العقل المفكر فيه، والمجاهدون والمحتسبون، هم اليد التي يبطش بها والرّجل

الحزب، وأرحب من الجماعة، وأوسع نطاقاً من حدود الحركة. ومشاركة الآخرين في أنواع الخير يجلب تأليف القلوب وتدريب القدرات وتبادل الخبرات.

٥- تضمين البرامج التربوية النظرية، برامج عملية في الانفتاح على الآخرين من المسلمين، والتواصل معهم، في إطار الجوامع المشتركة التي مساحتها أكبر بكثير من أطر المسائل المختلف فيها.

الركيزة الثالثة:

توسيع العمل خارج إطار الجماعات الموجودة، وإنشاء

صِيغ جديدة من العمل الإسلامي، تسع الشريحة الأوسع انتشاراً وأقل تأثيراً، وهي شريحة الإسلاميين غير المنتمين، فغير المنتمين للجماعات قد يكون من الأفضل أن يظلوا خارج إطارها وإسارها، لكن من غير المعقول ولا المقبول أن يظلوا - وهم الأكثرية - خارج عملية التغيير الإسلامي، فالحاجة ماسة إلى استيعابهم في صِيغ عمل جديدة ومفيدة للأمم، والدعوة لتجاوز مرحلة الجماعات القائمة، الأولى منها تركيز الجهود على (جماعة) غير المنتمين، فهي أرض فضاء خارج مدينة الجماعات المكتظة، يمكن تخطيطها، ثم بناؤها على طُرُز جديدة بدل الانشغال بكيفية إزالة المدن القديمة الأهلة.

إن كل فكرة يمكن أن ينادى بها لتطوير عمل الجماعات المتممة، يمكن تفعيلها من دون عقبات في مجموعات غير المنتمين، فهؤلاء يمثلون حقلاً كبيراً، يمكن حرثه وغرسه دون خوف من هواجس الآفات التنظيمية والحزبات الحزبية. إنه إطار حر لا ابتكار صِيغ مرنة من التعاون الشرعي والعمل الجماعي غير التقليدي، فالعمل للدين مطلوب في كل الأحوال، ولو كان من غير طرق الانتماء، وكثيراً ما نرى أفراداً، الواحد منهم بجماعة بل بأمة، وهو يعمل دون تقييد جماعي، وقد يكون الارتباط

رأينا من يعقدون خصومة بين العلم الشرعي وبقية أنواع النشاطات، وربما ظن بعضهم أن الإقبال على طلبه مضيعة للوقت، والأولى الانصراف إلى الدعوة أو الجهاد أو السياسة أو رعاية المشاريع.

لا يُطلَب من الجميع - بداهة - أن يكونوا ساسة أو علماء أو مجاهدين، فكل مُيسَّر لما خُلق له، ولكن المطلوب من الجميع أن يتحرروا من القوالب النمطية، التي صنعتها الحزبية لترفع بها أقواماً وتضع آخرين بغير ميزان الشريعة. إن المراد

هو ألا تُخْتَزَل أعمال الدعوة الإسلامية في نشاط واحد، يرى نفسه، ويعمى عن غيره، فمن مقتضيات التطور نحو الشمول والتكامل في العمل الإسلامي: الإقرار بجهود وفضائل بقية العاملين، فهذا قمين بأن يقيم الجسور، ويقرب المسافات بين الجماعات، ويهدم أسوار العزلة فيما بينها.

وهناك خطوات عملية يكمن بها تطوير العمل الجماعي القائم، والسير به نحو الترشيد والتكامل، ومن هذه الخطوات:

- ١- الانتماء الإسلامي العام أساس العلاقة بين العاملين للإسلام، بدلاً من بناء العلاقات على أسس الانتماءات الحزبية.
- ٢- إحياء عقيدة الولاء لكل مسلم على قاعدة الحب في الله والبغض في الله، وجعل الانتماء الإسلامي العام أساس العلاقة بين العاملين للإسلام، بدلاً من بناء العلاقات على أسس الانتماءات الحزبية.
- ٣- إعطاء الاختلافات حجمها الطبيعي، بلا إفراط ولا تفريط، حتى لا تجري المبالغة في اتخاذ المواقف على أمور ربما لا تخرج عن حيز الاجتهادات، أو يُصار إلى التهوين من شأنها على حساب الدين.
- ٤- تقليل الالتزام الصارم بالعمل داخل الأطر الحزبية المعينة، فمساحة العمل الإسلامي أكبر من

الانتماء الإسلامي العام أساس
العلاقة بين العاملين للإسلام،
بدلاً من بناء العلاقات على أسس
الانتماءات الحزبية

الجماعي معرقلاً له. كما أن هناك تجمعات قد تُقزّم طاقات أفراد داخلها، ربما كانوا عمالقة خارجها، إذا أحسنت الاستفادة منهم.

وكما أن الأمة في حاجة إلى جهد كل جماعة تعمل للإسلام، فهي في حاجة أيضاً إلى جهد كل فرد فيها، فواجب وفرض أن يوجد دور لكل فرد، وهذا لن يكون إلا بتعديل وتطوير عمل الجماعات القائمة، وابتكار وتفعيل أطر جديدة من الأعمال، بحيث ينطلق الجميع من منهجية واحدة؛ على الأصول الاعتقادية الصحيحة كحد أدنى في الاتفاق والوفاق.

الهوامش:

- (١) رواه مسلم (١٧١٥).
- (٢) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٥٨).
- (٣) رواه البخاري (٦٠٢٦).
- (٤) فتاوى ابن باز - الجزء الخامس.

معلومات إضافية

نماذج من (الجماعات) الحركات الإسلامية في الوطن العربي:

الإخوان المسلمون:

بدأت حركة الإخوان المسلمون -كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة- في مصر كحركة شبابية؛ أسس الشيخ حسن البنا بناءها الفكري سنة ١٩٢٨.

وتحقت تنظيم عملي سنة ١٩٤٤، ثم تمددت الحركة ليصير لها فروع في البلدان العربية، مثل سوريا وفلسطين والأردن، والسودان والجزائر واليمن.

يدعو الإخوان المسلمون الأنظمة العربية إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، ويرون أن سبب تأخر المسلمين وانحطاطهم هو عدم تطبيقها، وقد ظهرت هذه المبادئ في الإنتاج الفكري للإخوان، وكتابات مُنظري الجماعة الذين أثروا في مسارها كسيد قطب وعبد القادر عودة ومعاصرين مثل يوسف القرضاوي وفتحي يكن، ومحمد أحمد الراشد، وفيصل مولوي.

ساهم تنظيم الإخوان في حرب ١٩٤٨ في فلسطين، كما ساندوا حركة يوليو/ تموز ١٩٥٢ ليصطدموا بعد ذلك معها. وعرف تاريخ الإخوان مواجهات أخرى غيرت مسار الجماعة في بلدان أخرى مثل أحداث حماة في سوريا.

وللإخوان المسلمين وبعض من يتبنى أفكارهم الإصلاحية حضور بارز في المشهد السياسي العربي في عدد من البلدان كمصر والمغرب والأردن وغيرها.

ويعرف الإخوان في سوريا خلال الأونة الأخيرة حالة من الحراك ضمن خط المعارضة لتغيير النظام في سوريا.

موقع جماعة الإخوان المسلمين:

www.ikhwanonline.com

الجماعة الإسلامية في لبنان

في عام ١٩٦٤ برزت «الجماعة الإسلامية» بشكل رسمي، وافتتحت مركزها في بيروت، وأصدرت مجلة «الشهاب» في ١ كانون الأول ١٩٦٦، وكان أول أمين عام للجماعة هو الأستاذ فتحي يكن، إضافة إلى بقية المؤسسين: فايز إيعالي، محمد كريمة، محمد دريعي، وإبراهيم المصري. وأصدرت الجماعة مجموعة من النشرات الدعوية توضع فيها رسالتها، كان أبرزها

«الجماعة الإسلامية... مبادئ وأهداف» جاء فيها: «من مبررات قيام الجماعة الإسلامية جهل المسلمين بالإسلام، ويُعدهم عنه، وتخليهم عن قيادته، وبالتالي ارتماؤهم في أحضان الاتجاهات المادية والمذاهب الوضعية، مما جعل بلادهم ومجتمعاتهم تؤول إلى قيادات غير إسلامية، فكان من نتيجة ذلك تأزم أوضاعهم السياسية، وتردي حياتهم الاقتصادية، وتكاثر الآفات والانحرافات».

أهداف الجماعة:

أولاً: تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس نقية صافية متصلة بالعصر ومشكلاته.

ثانياً: تنظيم الذين استجابوا للدعوة إلى الإسلام، وتثقيفهم به وتأهيلهم ليكونوا الطليعة.

ثالثاً: مواجهة تحدي الحضارة الغربية.

رابعاً: السعي إلى بناء مجتمع جديد يكون الإسلام فيه هو الميزان بتصرفات الأفراد.

خامساً: السعي لجمع شمل المذاهب الإسلامية بالرجوع إلى الأصول الإسلامية.

مرحلة التأسيس:

في بداية السبعينيات كانت الجماعة منتشرة في مختلف المناطق الإسلامية (السنّية) اللبنانية، انشغلت الجماعة ببناء الهيكلية التنظيمية، فقد كان لها مكاتب مركزية تُعنى بالإشراف على المكاتب المحلية، وكانت أهم الميادين التي عُتبت بها الجماعة:

- قسم الأسر: للتربية والتأهيل.

- قسم نشر الدعوة: للتبليغ والعمل الدعوي.

- قسم الطلاب: للعمل في الثانويات والجامعات.

- قسم الفتوة: للعمل الكشفي والتربية البدنية والمخيمات الصيفية.

عقد السبعينيات:

في عام ١٩٧٢ باشرت الجماعة أول تجربة انتخابية نيابية من خلال ترشيح المحامي محمد علي ضناوي في مدينة طرابلس.

وفي عام ١٩٧٥ بدأت الحرب اللبنانية الطويلة، وابتتها الجماعة بتشكيل بنية عسكرية تولت الدفاع عن المناطق الوطنية والإسلامية عبر تنظيم «المجاهدون»، وكان لهذا التنظيم وجود عسكري في كل من طرابلس والشمال، ثم في بيروت، وفي صيدا أواخر عام ١٩٧٦.

الموقع الرسمي للجماعة الإسلامية في لبنان بالإنترنت:

<http://www.al-jamaa.net>

حزب العدالة والتنمية:

ولد حزب العدالة والتنمية -حالياً-، حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية - سابقاً-، من رحم مقاومة المستعمر الفرنسي، عندما هبَّ الشعب المغربي للجهاد بالغالي والنفيس، وكان من هؤلاء المجاهدين في تلك الفترة الرائعة من تاريخ المغرب، الدكتور عبد الكريم الخطيب ومجموعة من إخوانه.

وبناءً على أحكام القانون رقم ٠٤-٣٦ المتعلق بالأحزاب السياسية تم اعتماد النظام الأساسي لحزب العدالة والتنمية:

بعض مواد:

المادة ١: اسم الحزب «حزب العدالة والتنمية».

المادة ٢: رمز الحزب «المصباح».

المادة ٣: يعمل حزب العدالة والتنمية لتحقيق الأهداف التالية:

١- الإسهام في تنظيم المواطنين وتمثيلهم من أجل مجتمع أفضل، تتوفر فيه العدالة بين الأفراد والجماعات، وتحقق فيه التنمية الشاملة.

٢- دعم دولة الحق والقانون، وتعزيز الاختيار الديمقراطي في إطار المرجعية الإسلامية للمملكة وثوابتها ومؤسساتها.

٣- الإسهام في ترسيخ ثقافة الوسطية والاعتدال.

٤- العمل على صيانة الوحدة الوطنية شعباً وأرضاً، وتفعيل وحدة المغرب ووحدة المغرب الكبير، ودعم التوجهات الوجدوية بين الشعوب العربية والإسلامية.

٥- مناصرة الشعوب المستضعفة والقضايا العادلة.

المادة ١٧: الدكتور عبد الكريم الخطيب هو الرئيس المؤسس لحزب العدالة والتنمية.

المادة ١٨: الرئيس المؤسس هو الرئيس العام الشرفي لجميع هيئات الحزب الوطنية والمركزية.

المادة ١٩: الأستاذ ابن عبد الله الوكوتي هو الرئيس الشرفي للمجلس الوطني لحزب العدالة والتنمية.

المادة ٢١: تصنيف هيئات الحزب كما يلي:

- الهيئات الوطنية.

- الهيئات المركزية.

- الهيئات المجالية.

المادة ٢٢: الهيئات الوطنية للحزب هي:

- المؤتمر الوطني.

- الأمانة العامة.

المادة ٨٣: تتحدد الموارد المالية للحزب فيما يلي:

- واجبات انخراط الأعضاء.

- دعم الدولة.

- الهبات والوصايا والتبرعات التقديرية العينية.

- العائدات المرتبطة بالأنشطة الاجتماعية والثقافية للحزب.

المادة ٩١: يوجد المقر المركزي للحزب بمدينة الرباط، ويمكن نقله منها بقرار من المجلس الوطني.

المادة ٩٤: يشرع في تنفيذ هذا النظام الأساسي بعد مصادقة المؤتمر الاستثنائي عليه بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠٠٦.

صادق عليه المؤتمر الوطني الاستثنائي بتاريخ ١٧ جمادى الثانية ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٣ يوليو ٢٠٠٦ - الرباط.

الموقع الرسمي لحزب العدالة والتنمية على شبكة الإنترنت:

<http://www.pjd.ma>

حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين:

تندرج حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، كحركة إسلامية جماهيرية مجاهدة مستقلة، ضمن حركات الأحياء الإسلامي المعاصر، بما تحمله من خصائص الحركات الاجتماعية التغييرية والثورية.

تأسيس وتطور الحركة:

تعتبر المرحلة التمهيدية هي المرحلة التي احتضنت ميلاد الحركة، وتمثلها المرحلة المصرية منذ عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨١، وتبرز بصمات فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقافي، مؤسس وأمين عام الحركة، وهو من قرية زرنوقة بالقرب من يافا في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، والذي سُردت عائلته من القرية بعد تأسيس الدولة العبرية عام ١٩٤٨، وهاجرت إلى قطاع غزة؛ حيث استقرت في مدينة رفح. ولد الشقافي في مخيم للاجئين عام ١٩٥١، وفقد أمه وهو في الخامسة عشرة من عمره، ودرس في جامعة بيرزيت بالضفة الغربية، وتخرج في دائرة الرياضيات، وعمل لاحقاً في سلك التدريس بالقدس في المدرسة النظامية، ثم في مدرسة الأيتام، وفي أثناء عمله درس مرة أخرى الشهادة الثانوية، ثم التحق بكلية الطب بجامعة الرقازيق في مصر، وعاد إلى أرض الوطن ليعمل طبيباً في مستشفى المطلع بالقدس، ثم طبيباً للأطفال في قطاع غزة.

اعتبر الشقافي حسن البناء عيماً إسلامياً مؤسساً لاتجاه ابعائي إسلامي قام بالتوفيق بين اتجاهين إسلاميين: أحدهما سلفي، والآخر إصلاحى، وتكمن أهمية البناء للحركة في ثلاثة جوانب قام بالتركيز عليها، وهي: الابعات، والتنظيم والتنشئة، كما استفاد الشقافي أيضاً من تجربة عز الدين القسام، فانتقى أصحابه وأتباعه من أهل الدين والعقيدة، مثلما انتقى القسام أصحابه بعناية فائقة، ومن بين الفقراء، وبنى أساليب تنظيمية صارمة، كما رفض الشقافي وحرسته مبدأ الحوار مع سلطات الاحتلال، كما فعل القسام من قبل عندما رفض الحوار مع بريطانيا.

ويمكن تسمية المرحلة منذ عام ١٩٨٤، وحتى عام ١٩٨٧ مرحلة التأسيس للعمل المسلح الذي استمر طوال تاريخ الحركة بعد ذلك، فكانت العملية الأولى المسلحة هي اغتيال أحد طلاب المدرسة اليهودية في الخليل في أغسطس من عام ١٩٨٣، والتي أدت إلى قيام إسرائيل بحملة اعتقالات واسعة في صفوف الجهاد الإسلامي وقيادتها ومنهم الشقافي وحوالي ٢٥ آخرين، مما دفع إلى التعاطف الشعبي مع الحركة والالتفاف حولها، وهذا هو الأمر الذي مهد إلى مرحلة الجهاد المسلح الشرعي في مواجهة الاحتلال.

أهداف الحركة:

تتمثل في التالي حسب صياغات الحركة:

- * تحرير كامل فلسطين، وتصفية الكيان الإسرائيلي، وإقامة حكم الإسلام على أرض فلسطين
- * تعبئة الجماهير الفلسطينية وإعدادها إعداداً جهادياً، وعسكرياً، وسياسياً، بكل الوسائل التربوية والتنظيمية والتنظيمية الممكنة.
- * استنهاض وحشد جماهير الأمة الإسلامية في كل مكان.

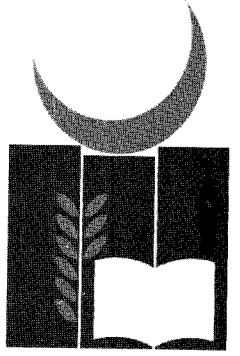
- * العمل على توحيد الجهود الإسلامية الملتزمة باتجاه فلسطين، وتوطيد العلاقات مع الحركات الإسلامية والتحررية الصديقة في كل أنحاء العالم.
- * الدعوة إلى الإسلام ببعيدته، وشريعته وآدابه، وإبلاغ تعاليمه نقيه شاملة لقطاعات الشعب المختلفة، وإحياء رسالته الحضارية للأمة الإنسانية.
- * وسائل الحركة لتحقيق أهدافها حسب صياغات الحركة:
- * ممارسة الجهاد المسلح ضد أهداف ومصالح الاحتلال الإسرائيلي.
- * مد أسباب الاتصال والتعاون مع الحركات الإسلامية والمنظمات الإسلامية والشعبية، والقوى التحررية في العالم لدعم الجهاد ضد الكيان الصهيوني.
- * السعي للقاء قوى شعبنا الإسلامية والوطنية العامة على أرض المعركة ضد الكيان الصهيوني، على أرضية عدم الاعتراف بهذا الكيان.
- * اتخاذ كافة الوسائل التعليمية والتنظيمية، والتثقيفية والاجتماعية، والاقتصادية والإعلامية والسياسية والعسكرية، مما يبيحه الشرع، وتنضجه التجربة من أجل تحقيق أهداف الحركة.
- * استخدام كل طرائق التأثير والتبليغ المتاحة من وسائل الاتصال المعروفة والمستجدة.
- * انتهاج مؤسسات الحركة وتنظيماتها من أساليب الدراسة والتخطيط والبرمجة والتقويم والمراقبة بما يكفل استقرار الحركة وتقدمها.

هذه المعلومات مأخوذة من:

حركة الجهاد الإسلامي، دليل الحركات الإسلامية في العالم

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، العدد الأول

يناير ٢٠٠٦.



الإسلاميون والطريق إلى السلطة

أحمد فهمي - مصر

باحث سياسي في مجلة البيان

ملخص البحث:

أدى تعدد الاجتهادات في مناهج العمل الإسلامي إلى تباين الآراء والتقويمات حول هذه المناهج، وتناوبها التي تحققت عبر سنوات طوال من الممارسة في العالم العربي، وكان الجدل في مراحلها الأولية حول المناهج يتركز في مدى ارتباطها بالكتاب والسنة من ناحية، وصلاحياتها للظروف والبيئة المعاصرة من ناحية أخرى.

وأدت النشأة القوية لما اصطلح على تسميته بـ «الصحوة الإسلامية» مطلع السبعينيات إلى احتلال القوى الإسلامية مكانة قوية ومؤثرة داخل المجتمعات العربية، ودفع ذلك إلى وضع عدة تصورات واستراتيجيات من قبل الحكومات العربية، وبمعاونة غربية؛ من أجل احتواء المارد الإسلامي وإبقائه دائراً في فلك مصالحها.

رغم ما قد يبدو من إنهاك وإرهاق تتعرض له السلطات في بعض الدول نتيجة محاولاتها الدؤوب لاحتواء التحركات، والإنجازات السياسية للإسلاميين، فإن البديل - المنع - يعني احتقانا إسلامياً جماهيرياً قد يؤدي بالنظام.

ولا يخفى الدور الغربي في المسألة؛ حيث يعاني الغرب - بصفة عامة - من عجزه عن تفسير «ظاهرة الانبعث الإسلامي» في أيّ من جوانبها السياسي أو الديني أو الاجتماعي.

ونشطت عملية البحث عن بدائل أخرى يمكن أن تحظى بالشعبية، وتصبح نداءً للتيارات الإسلامية، فانطلقت موجة من الكتابات التي تعيد صياغة الديمقراطية في العالم العربي وفق الرؤية الأمريكية الجديدة.

ومع استغراق الحركات الإسلامية لعقود طويلة في تعقيدات العمل السياسي، تغيرت الحسابات وأصبح مصطلح «الدولة الإسلامية» نقطة ضعف في برنامج تلك الحركات؛ حيث توازنات اللعبة السياسية لم تعد تتحمل هذا القدر من الصراحة والوضوح في الخطاب الإسلامي، وقد اضطرت الحركات السياسية الإسلامية - مع التزامها بقواعد الديمقراطية - أن تتجاوز بعض الثوابت الدينية على أعتاب المراحل السياسية التي تريد اجتيازها.

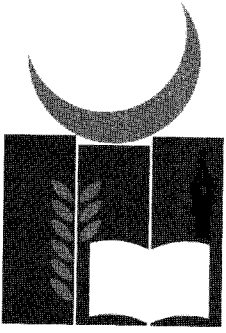
لقد تأسست الحركات الإسلامية السياسية من أجل إقامة الإسلام وتحكيم الشريعة، وهذا الهدف لا ينبغي الخجل منه، أو الرضا بتحويله إلى نقطة ضعف ومصدر انتقاد، وعندما تتخلى الحركة عن هدفها الرئيس وتتوارى منه؛ فإن زوالها يصبح خيراً من بقائها، كما أن ثنائية العلاقة بين العمل الدعوي والسياسي يجب الحفاظ عليها في حالة توازن يكون للدعوي فيها حق الصدارة.

أفكار ومقتطفات

- برزت أطروحات تحدث عن إعادة بلورة أهداف الممارسة السياسية للإسلاميين؛ ليصبح هدف المشاركة هو «المدافعة» وليس «المغالبة».
- أغلب الحركات لم تنشأ باعتبارها جماعات سياسية، وإنما بوصفها جماعات دعوية تبني العمل لإعادة المنهج الإسلامي إلى واقع الحياة، ومن ثم كانت المشاركات السياسية تخریبًا تاليًا على هذه الحقيقة.
- أدت النسأة القوية لما اصطلح على تسميته بـ «الصحوة الإسلامية» مطلع السبعينيات إلى احتلال القوى الإسلامية مكانة قوية ومؤثرة داخل المجتمعات العربية، ودفع ذلك إلى وضع عدة تصورات واستراتيجيات من قبل الحكومات العربية، وبمعاونة غربية؛ من أجل احتواء المارد الإسلامي وإيقاته دائرًا في فلك مصالحها.
- رغم ما قد يبدو من إنهاك وإرهاق تتعرض له السلطات في بعض الدول؛ نتيجة محاولاتها الذؤوب لاحتواء التحركات والإنجازات السياسية للإسلاميين، فإن البديل - المنع - يعني احتقانًا إسلاميًا جماهيريًا قد يؤدي بالنظام.
- الدول التي تسمح بالممارسة السياسية للإسلاميين، تركز جهود المنع لديها ليس في أصل وجود الحركات الإسلامية أو أصل مشاركتها، ولكن في ضبط مستوى نفوذها وانتشارها، واكتساحها في الانتخابات عند حد معين لا يتم تجاوزه.
- لم تستمر معادلة التوازن بين الحكومات والحركات على النحو الذي كانت تأمل فيه الأولى؛ لأن الحركات الإسلامية تمتلك رؤية وأهدافًا ومنهجًا تسمى لتحقيقها.
- نشطت عملية البحث عن بدائل أخرى يمكن أن تحظى بالشعبية، وتصبح نداءً للتيارات الإسلامية؛ فانطلقت موجة من الكتابات التي تعيد صياغة الديمقراطية في العالم العربي؛ وفق الرؤية الأمريكية الجديدة.
- إن ما يتأكل من تعاليم الإسلام وثوابته، سوف يبعث اللذ عز وجل من عباده من يجددها ويعيدها إلى ما كانت عليه، فيذهب عن المسلمين غم التنازلات، ويبقى لهم غم المكاسب.
- إن الانهام بالفشل النقل من مستوى المشاركة في الانتخابات والحياة السياسية، إلى مستوى تسلط السلطة، وهذا الارتقاء في حد ذاته شهادة ضمنية بتقدم الإسلاميين السياسيين لا تراجعهم.

- هذه الرؤية الغربية في التأكيد على «إفلاس» الإصلاح الإسلامي، وتراجع التيارات السياسية الإسلامية ليست بجديدة، فقد ظلت الأحكام باندثار الحركات الإسلامية تصدر بانتظام منذ الأربعينيات من القرن الماضي.
- الأحزاب الإسلامية مهما كانت عيوبها ونقائصها، وهي كثيرة، تحتل اليوم موقع حركة المعارضة الأقوى في معظم بلدان العالم الإسلامي، رغم أنها محظورة.
- إن الإشكال عند خصوم الحركات الإسلامية - وربما عند هذه الحركات نفسها - ليس هو أنها اندثرت أو في طريقها إلى الاندثار، بل هو أنها تزداد قوة؛ رغم الهجمة الدولية والمحلية ضدها.
- مع الاستغراق لعقود طويلة في تعقيدات العمل السياسي، تغيرت الحسابات، وأصبح مصطلح «الدولة الإسلامية» نقطة ضعف في برنامج تلك الحركات، سواء دُكر صراحة أو لم يُذكر.
- سبب تحول مطلب «الدولة الإسلامية» إلى نقطة ضعف أن توازنات اللعبة السياسية لم تعد تتحمل هذا القدر من الصراحة والوضوح في الخطاب الإسلامي، وقد اضطرت الحركات السياسية الإسلامية مع التزامها بقواعد الديمقراطية أن تتجاوز بعض الثوابت الدينية على أعتاب المراحل السياسية التي تريد اجتيازها.
- كان للسياسيين بُعد آخر في التعامل مع إشكالية الدولة لدى الحركات الإسلامية، ومع تحقيق مفاجآت انتخابية في عدد من الدول بدءاً بالجزائر عام ١٩٩١م، وانتهاءً بحركة حماس عام ٢٠٠٥م، تبلورت استراتيجية «النصر الخائق» لمواجهة المفاجآت الإسلامية، وتعني هذه الاستراتيجية: تحويل النصر الذي يحققه الإسلاميون إلى حبل مشنقة يضعهم أمام خيارين: التنازل أو الانهيار.
- ابتكر الليبراليون من خصوم الإسلام السياسي معالجة جديدة للوضع الناتج عن تولي الإسلاميين للسلطة، وهي اعتبار هذا الحدث بمثابة «أزمة وطنية» تستدعي تضافر القوى السياسية مجتمعة لمواجهة الحدث قبل وبعد وقوعه.
- تعطي قائمة الخطوط الحمراء التي على أي حكومة إسلامية أن تواجهها، دلالات على محدودية الدور التغييري الذي يتوقع أن تلعبه هذه الحكومة لو وجدت.
- أبرز الخطوط الحمراء: رئاسة الدولة - الحصول على نسبة الثلثين في البرلمان، أي التمكن من تغيير الدستور - القرار العسكري والجيش - الجانب الأهم من السياسة الخارجية - الإعلام الرسمي - الأمن الداخلي والمخابرات - مستويات التغيير الجذرية في مجالات مثل: التعليم، القوانين، القضاء، ونحو ذلك.

- الحركات الإسلامية السياسية تأسست من أجل إقامة الإسلام وتحكيم الشريعة، وهذا الهدف لا ينبغي الخجل منه، أو الرضا بتحويله إلى نقطة ضعف ومصدر انتقاد، وعندما تتخلى الحركة عن هدفها الرئيس وتتوارى منه فإن زوالها يصبح خيرًا من بقائها.
- ثنائية العلاقة بين العمل الدعوي والسياسي يجب الحفاظ عليها في حالة توازن يكون للدعوي فيها حق الصدارة.
- يفتح خصوم الإسلاميين أمامهم مسارات تقربهم من السلطة؛ بشرط التخلي عن ثوابتهم الدينية.
- المحتوى الديني الذي تحمله الحركات السياسية الإسلامية هو الذي يدفعها لممارسة دور سياسي، فما معنى التخلي عنه لأجل مواصلة هذا الدور؟
- في بعض الدول العربية قد يكون من الأوفق التحول من هدف «المغالبة»، الذي يسعى مباشرة إلى السلطة، إلى هدف «المدافعة»؛ الذي يعرقل جهود الفساد والإفساد، وينأى بالأمة عن دينها ويصعب مهام التغيير لاحقًا.
- يجب أن تتجاوز بعض الحركات الإسلامية السياسية هدف «المشاعبة»، الذي تقبع عنده مكثفية بإثارة الأزمات والجدالات المحدودة الأثر والتأثير.



الإسلاميون والطريق إلى السلطة

أحمد فهمي - مصر

باحث سياسي في مجلة البيان

أجهضت إلى معايير للتقويم؛ تتمتع بمصداقية تتجاوز مستويات الجدل «التراشقي النظري» بين مختلف التيارات الإسلامية، والذي كان يميز المحاولات النقدية قبل مرحلة الحصاد.

وكانت التيارات الإسلامية السياسية هي الأكثر قابلية للتقويم في تلك المرحلة؛ باعتبار تميز العمل السياسي بنتائجه النمطية الدقيقة القابلة للقياس العلمي، لكن نتج عن ذلك ظاهرة سلبية هي: تزايد جهود التقويم للعمل السياسي الإسلامي، وتكاثرها إلى الحد الذي يسلب تلك الجهود فاعليتها البناءة، وتراوحت التقويمات بين تضخيم الإنجازات بما يتجاوز المستهدف، وبين تهميش دور الجماعات السياسية نفسها، والدعوة إلى حلها وتفكيكها.

تبرز أهم النتائج ذات الدلالة في مسيرة الإسلاميين إلى السلطة فيما يلي:

أولاً: محاولات إجهاض العمل السياسي الإسلامي بلغت حدًا غير مسبوق، وصارت من ثوابت الأنظمة العربية.

ثانياً: تواضع النتائج المتحققة عن بلوغ المستهدف.
ثالثاً: عجز أغلب الحركات الإسلامية السياسية عن ممارسة دور تغييري فعال من خلال مستويات تمثيلها النيابي.

أدى تعدد الاجتهادات في مناهج العمل الإسلامي إلى تباين الآراء والتقويمات حول هذه المناهج، ونتائجها التي تحققت عبر سنوات طوال من الممارسة في العالم العربي، وفي المراحل الأولية كان النقاش والجدل حول المناهج يتركز في مدى ارتباطها بالكتاب والسنة من ناحية، وصلاحيتها للظروف والبيئة المعاصرة من ناحية أخرى.

وبعد عقود من ممارسة العمل الإسلامي وفق هذه المناهج، دخلت الحركات الإسلامية في مرحلة الحصاد بعد إتمام دورات نمو وتطبيق كاملة، تشتمل على هذه المكونات:

- ١- الطرح الفكري والمنهجي.
- ٢- الكيان التنظيمي التنفيذي.
- ٣- الجهد التراكمي لتطبيق الظروف.
- ٤- عنصر الزمن.

فترأى تجارب إسلامية كثيرة في معظم البلاد العربية، هذه التجارب أفسحت المجال لإجراء عمليات تقويم أكثر دقة ومصداقية لمناهج العمل الإسلامي، حيث تحولت الأهداف التي تحققت أو

الأنظمة الملكية الدستورية	الأنظمة الجمهورية
مثالها: الكويت - الأردن - المغرب.	مثالها: مصر - اليمن - الجزائر.
تحتضن الحركات الإسلامية بوجود رسمي من خلال أحزاب سياسية.	بعضها لا يسمح بوجود أحزاب سياسية إسلامية مثل مصر.
منصب رأس الدولة بعيد عن المنافسة السياسية.	منصب رأس الدولة خاضع - قانوناً - للمنافسة.
رأس الدولة غالباً يتحكم في تعيين رئيس الحكومة.	حزب الأغلبية يشكل الحكومة.
لا تملك الأغلبية النيابية تغيير شكل النظام.	تملك الأغلبية النيابية تغيير شكل النظام.
المجلس النيابي تأثيره أقل في إدارة شؤون الدولة خاصة الخارجية.	المجلس النيابي له تأثير أكبر في إدارة شؤون الدولة.

نضيف إلى عناصر المقارنة السابقة، ملاحظة تاريخية مهمة، وهي أن أغلب الأزمات والمواجهات الحادة بين الحركات الإسلامية السياسية والسلطات وقعت في دول الأنظمة الجمهورية (مصر - الجزائر)، وهذه الملاحظة تدفع لتبني القول بأن الصراع في هذه الدول بين الإسلاميين السياسيين والحكومات هو صراع وجود، لا بد أن ينتهي بانتصار طرف على الآخر وإزاحته، بينما في المقابل لا تصل الأزمة في دول الملكية الدستورية إلى هذا المستوى، فالنظام آمن ومستقر إلى حد كبير.

هذا الاستقرار في الدول الملكية قدّم إغراءات ولمحات لكل من الحركات والأنظمة في الدول الجمهورية، فسعت النخب الحاكمة في بعضها

رابعاً: لا تزال قطاعات عريضة من الأمة تعقد آمالاً على الحركات الإسلامية السياسية، وتمثل ذلك في تزايد - أو ثبات - معدلات التأييد لها في أغلب الدول العربية.

خامساً: تراجع احتمالات تسلم الإسلاميين للسلطة في أغلب الدول العربية، في ضوء تجربة حركة حماس.

وكرت التساؤلات حول جدوى المشاركات السياسية في أنظمة لا يمكن أن تسمح بفوز ساحق لحزب إسلامي، كما برزت أطروحات تتحدث عن إعادة بلورة أهداف الممارسة السياسية للإسلاميين؛ ليصبح هدف المشاركة هو «المدافعة» وليس «المغالبة».

من خلال هذه الدراسة المختصرة نبين أبرز ملامح مسيرة الإسلاميين إلى السلطة، من خلال استلهاهم تجارب الحركات الإسلامية في عدد من البلاد العربية في السنوات الأخيرة، وسيتم استعراض الملامح البارزة في هذه المسيرة من خلال الفقرات التالية:

المواجهة بين الأنظمة والحركات السياسية، هل هي صراع وجود؟

- إشكالية الدولة الإسلامية.
- خارطة العمل السياسي.
- توصيات.

أولاً: المواجهة بين الأنظمة والحركات هل هي صراع وجود؟

بداية يجب تقسيم الأنظمة العربية بصورة إجمالية إلى قسمين: أولهما الأنظمة الملكية وما شابهها، وثانيهما: الأنظمة الجمهورية، التي تحاول أن تستلهم التجربة الديمقراطية الغربية بصيغة «عالم - ثالثة».

والفرق بين القسمين يبدو جلياً في عدة نقاط، يمكن بيانها من خلال الجدول التالي:

الإخوان المسلمين، وهذا يجعل العلاقة بينها وبين الأنظمة محكومة بالإطار العام لمنهج الجماعة، ومرتبطة أيضًا بخلفيات تاريخية معروفة، ما يعني أن قدرة تلك الحركات على ممارسة أداء مرن «تقدمي» تظل محكومة بهذا الإطار المنهجي التاريخي، مهما حاولت.

ثالثًا: تتميز أغلب الحركات الإسلامية السياسية بأنها الأقدر على الحشد الجماهيري، وهو ما يجعلها عنصرًا خطرًا في مقابل النخب الحاكمة المفتقرة إلى التأييد الشعبي.

رابعًا: لم تمارس هذه الحركات العمل السياسي إثر ضغوط جماهيرية على الأنظمة أثمرت السماح لها بالعمل السياسي، بل كانت مشاركتها مترتبة في غالبية الدول على توجه جديد للأنظمة نتج عن اعتبارات سياسية داخلية وخارجية، وقد تكون الجزائر استثناءً من حيث الضغط الجماهيري.

لقد أدت النشأة القوية لما اصطُح على تسميته بـ «الصحوة الإسلامية» مطلع السبعينيات إلى احتلال القوى الإسلامية مكانة قوية ومؤثرة داخل المجتمعات العربية، ودفع ذلك إلى وضع عدة تصورات واستراتيجيات من قبل الحكومات العربية، وبمعاونة غربية من أجل احتواء المارد الإسلامي وإبقائه دائرًا في فلك مصالحها، وكان فتح المجال السياسي أمام هذه الحركات في بعض الدول أحد وسائل استيعاب الصحوة الإسلامية، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن عملية الاحتواء نجحت بالفعل، أو على الأقل كما كان مخططًا لها.

وإذا كانت الحركات السياسية تمتلك قدرات ملحوظة على تعبئة الجماهير، فإن احتواء الحركات السياسية يمثل ضربة مزدوجة للأنظمة التي تخشى الجماهير والحركات في آنٍ واحد، رغم ما قد

إلى تنفيذ عملية تحول طويلة الأجل إلى الملكية الدستورية، وبدأ ذلك بمحاولة توريث الحكم.

وبالنسبة للحركات الإسلامية، سعى بعضها إلى تقديم ضمانات وتطمينات غير رسمية للأنظمة تفيد بعدم استهداف رأس النظام وإطارة العام بالتغيير، على الأقل في المرحلة الحالية، وهي تحاول بذلك أن تزيد من المساحة المتاحة أمامها للتحرك السياسي

داخل الدولة؛ عن طريق المساومة على تقليص حجم التغيير الذي تبني الدعوة إليه داخل الدولة.

مع الإشارة إلى أنه ليس بالضرورة أن يكون رئيس الجمهورية هو القوة الأولى داخل النظام، فقد تكون هناك

قوى أخرى مسيطرة تقدم إليها الضمانات وليس إلى الرئيس، كما هو الحال في الجزائر.

إلا أن هذا التصنيف للعلاقة بحسب طبيعة النظام الحاكم، لا يقدم إجابة وافية عن سؤال: هل الصراع بين الإسلاميين السياسيين والحكومات وجودي، لا ينتهي إلا باختفاء أحدهما؟

وتقدم المحاور التالية إجابة عن هذا السؤال:

١- لماذا سمحت الأنظمة بمشاركة الإسلاميين؟

عندما نتبع تاريخ نشأة الحركات الإسلامية السياسية يمكن ملاحظة بعض الملامح المهمة، ومنها:

أولاً: أغلب هذه الحركات لم تنشأ باعتبارها جماعات سياسية، وإنما بوصفها جماعات دعوية، تبنى العمل لإعادة المنهج الإسلامي إلى واقع الحياة، ومن ثم كانت المشاركات السياسية تخريبًا تاليًا على هذه الحقيقة.

ثانيًا: أغلب تلك الحركات ينتمي إلى جماعة

تتميز أغلب الحركات الإسلامية السياسية بأنها الأقدر على الحشد الجماهيري، وهو ما يجعلها عنصرًا خطرًا في مقابل النخب الحاكمة المفتقرة إلى التأييد الشعبي

الأكثر تعبيراً عن استراتيجية صناعة العدو؛ إذ تقدم تلك النتائج مؤشرات ذات مصداقية عن نمو أو تراجع «الخطر الإسلامي»، ومن ثم ترسخ أهمية الدور الذي تقوم به الأنظمة في مواجهة «الخطر»، وصار معتاداً الرواج الذي تشهده إصدارات مراكز الدراسات العربية والغربية - عطفاً على اهتمام وسائل الإعلام - والتي تتحدث عن دلالات فوز الإسلاميين وآفاق المستقبل.

لا يعني هذا التحليل بالضرورة أن الحركات الإسلامية السياسية «مُسيِّرة وليست مُخَيِّرة» في مسارها السياسي، فإن التقاء المصالح بالصورة التي عُرضت سابقاً هو عَرَضٌ مؤقت، ينتهي عندما تُؤمِّن الأنظمة مصالحها، بينما تواصل الحركات الإسلامية مسيرتها.

ويمكن توضيح ذلك من خلال ملاحظة نقطة التدخل «المانعة»، والتي تمارسها الأنظمة ضد الإسلاميين السياسيين، وهي تختلف من دولة لأخرى، إلا أن الدول التي

تسمح بالممارسة السياسية للإسلاميين، تتركز جهود المنع لديها ليس في أصل وجود الحركات الإسلامية أو أصل مشاركتها، ولكن في ضبط مستوى تفوقها

وانتشارها، واكتساحها في الانتخابات عند حد معين لا يتم تجاوزه، وعند هذه النقطة تبدأ منحنيات الصراع والمواجهة بين الحركات والحكومات، وبعض تلك الحركات يؤثر السلامة، ولا يتجاوز نقطة المنع، وبعضها يشاغب حيناً ويهدأ حيناً، وبعضها يتجاوز الخطوط الحمراء، ومن ثم تكون المواجهة أكثر حدة.

وبعض الدول تتناقض في تحديد خطوطها الحمراء في التعامل مع الحركات الإسلامية السياسية، فبينما لا تعترف أصلاً بهذه الحركات بل تعتبرها محظورة

يبدو من إنهاك وإرهاق تتعرض له السلطات في بعض الدول؛ نتيجة محاولاتها الدؤوب لاحتواء التحركات والإنجازات السياسية للإسلاميين، فإن البديل - المنع - يعني احتقاناً إسلامياً جماهيرياً قد يؤدي بالنظام.

وساعدت المشاركات السياسية للإسلاميين على استنزاف الجهود والطاقات الإسلامية في دوامات السياسة التي تؤدي إلى استهلاك تلك الطاقات دون تحقيق ما يناسبها من عوائد، أو تحقيق عوائد محدودة مؤقتة قابلة للزوال مع تغير نتائج الانتخابات، كما أدت إلى تحييد تيارات إسلامية - دعوية وعلمية - أخرى، أو قبولتها، وإعادة تصنيفها من خلال ميزان - متغير - للاعتدال والتطرف، تمت صياغته وفق مقتضيات العمل السياسي وليس الدعوي، ما يعني أن العمل الدعوي أصبح خاضعاً للسياسي، بينما انطلق الثاني أساساً لدعم الأول وخدمته.

هدف آخر سعت بعض الحكومات العربية إلى تحقيقه من خلال السماح للإسلاميين بالمشاركة،

وهو «صناعة العدو»، حيث تقدم هذه الحكومات مسوغاً رئيساً لتلقيها الدعم الغربي، هو: الخطر الإسلامي، أو الإرهاب والتطرف، والدولة الدينية الأصولية، وبتات الدعم مرتهاً بأمرين: وجود العدو،

وقيام النظام بمواجهته، وتوسعت الحكومات في استخدام استراتيجية «العدو الإسلامي» في كافة القضايا والمجالات، حتى في القضية الفلسطينية، وفي لقاء بين الرئيس السوري السابق حافظ الأسد ووزير الخارجية الأمريكي الأسبق وارن كريستوفر، قال الأسد مهذباً: «إذا استمرت الولايات المتحدة على هذا الانحياز لإسرائيل ضد العرب وقضيتهم المركزية في فلسطين، فإنك ستأتي لي مرة لتجدني مطلقاً لحيتي، وأحمل سبحة بين يدي».⁽¹⁾

وبذلك أصبحت نتائج الانتخابات هي المظهر

توسعت الحكومات في استخدام استراتيجية «العدو الإسلامي» في كافة القضايا والمجالات، حتى في القضية الفلسطينية

٢- الدور الغربي :

يعاني الغرب بصفة عامة من عجزه عن تفسير «ظاهرة الانبعاث الإسلامي» في أي من جوانبها، السياسي أو الديني أو الاجتماعي، وتعاني أغلب التصورات المطروحة من افتقار - كلي أو جزئي - إلى المصدقية والموضوعية، وأول الأخطاء الاعتقاد بأن ترك الدين في العالم الإسلامي هو السياق الطبيعي لتطور المجتمعات، وأن الدين يحتاج إلى تفسير ومبررات، ولذلك تركزت الجهود في البحث عن أسباب نشأة وظهور الحركات الإسلامية وانتشارها، ولم يسأل أحد عن: لماذا فشلت جهود العلمنة بتوابعها في تغييب الدين كليًا من حياة الناس؟

هذه الأفكار المشوشة - رغم ثروة المعلومات الحقيقية التي يمتلكها الغرب عن الحركات الإسلامية - جعلت التصورات والتحليلات والتوقعات الغربية بخصوص الإسلاميين قصيرة الصلاحية، وكثيرًا ما يثبت خطأها، وساهمت في تراجع مستوى الآمال المعقودة - من قبل الغرب - على حدوث تحولات حقيقية في مسارات الحركات، ونشطت عملية البحث عن بدائل أخرى؛ يمكن أن تحظى بالشعبية، وتصبح نداءً للتيارات الإسلامية. فانطلقت موجة من الكتابات التي تعيد صياغة الديمقراطية في العالم العربي وفق الرؤية الأمريكية الجديدة، ويعطي الدكتور وحيد عبد المجيد - الباحث والأكاديمي المصري - نموذجًا لذلك، فيتحدث عن «الثنائية» التي بات الناخب في مصر محصورًا بينها، إما حزب الحكومة وإما الإخوان، ويقارن بين وضعين؛ أولهما تسود فيه هذه الثنائية، والثاني تسود فيه بدائل متعددة، ويقول: «وبدهي القول أن الوضع الثاني أفضل مقارنة بالوضع الأول. فالاختيار بين بدائل عدة هو شرط جوهرى لسلامة التطور الديمقراطي، كما أن وجود أكثر من خيارين يضمن أن يأتي التصويت الانتخابي أكثر موضوعية مقارنة بالاختيار بين بدليلين؛ جرّب الناخبون أحدهما لفترة طويلة، وتراجعت ثقتهم فيه،

قانونًا (مصر) فإنها تسمح بمشاركتها في الانتخابات النيابية وما دونها، وتستخدم الصحف الرسمية عبارات موحية ودالة على هذا التناقض، عندما تتحدث عن نواب جماعة الإخوان المسلمين، فتصفهم اختصارًا بـ «نواب المحظورة»؛ حيث تجمع هذه العبارة بين قمة «المشروعية» للنواب؛ حسب النظام الديمقراطي عضويتهم في مجلس الشعب، وبين الحظر القانوني الذي يفترض أن يعاقب مخالفوه، أي «نواب المحظورة» الذين يترشحون باسم جماعتهم، ويتم الحديث عنهم بهذه الصفة حتى في وسائل الإعلام الرسمية، في الوقت الذي يُحاكم فيه قضائيًا أعضاء آخرون في الجماعة «المحظورة»؛ لأنهم ينتمون ويدعون إليها.

لم تستمر معادلة التوازن بين الحكومات والحركات على النحو الذي كانت تأمل فيه الأولى؛ لأن الحركات الإسلامية تمتلك رؤية ومنهجًا وأهدافًا تسعى لتحقيقها، فكان لا بد من تجاوزها للمشاركة الشكلية، والسعي إلى السلطة الحقيقية داخل الدول التي تسمح بالممارسات السياسية؛ ولأن تلك الدول تستهدف المحافظة على «السمت» الديمقراطي لنظامها، فقد ضاعف تزايد شعبية الحركات الإسلامية من الضغوط عليها، ولم يعد سهلاً ضبط مستوى الترشح والفوز في الانتخابات، وفي بعض الدول لم تقدم الحركات تنازلات بالدرجة الكافية للسماح لها بتجاوز حد الأمان.

ومع تفاوت مستوى التنازلات التي تقدمها الحركات الإسلامية في كل دولة، وتزايد احتمالات خروج الأمر عن السيطرة الانتخابية في بعض الدول، دخلت الرؤية الأمريكية للحركات الإسلامية السياسية في مرحلة «ضبابية» أو مرحلة سيولة، ونعتقد أن الفترة الحالية بالغة الأهمية؛ حيث يحاول الأمريكيون بلورة رؤية جديدة للإسلاميين السياسيين في دهاليز السياسة الأمريكية ومراكز الدراسات والأبحاث.

اجتهادات دينية مرجوحة، وأحياناً بدون اجتهاد معتبر، إلا أنه يبقى قاعدتان مهمتان أشار إليهما النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد، وهما يسقطان الرهان الغربي على أي تنازلات أو تحولات يمكن أن تطرأ على الإسلاميين السياسيين، كما أنهما يثبتان العجز الغربي عن فهم مسارات العمل الإسلامي التي يحكمها في الأساس قواعد ربانية شرعية:

القاعدة الأولى في حديثه صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٣)، والقاعدة الثانية في حديث «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٤).

وفيد الحديث الأول أن الله عز وجل له حكمة وإرادة في أن يستفيد الإسلام أحياناً من رجل فاجر، فكيف بأناس يسعون لنصرة الدين وإقامة أحكامه، وإن أتت بعض اجتهاداتهم بخلاف الصواب، لا بد أن يستفيد الدين - إن شاء الله - من جهودهم.

وفيد الحديث الثاني أن ما يتآكل من تعاليم الإسلام وثوابته، سوف يبعث الله عز وجل من عباده من يجددها ويعيدها إلى ما كانت عليه، فيذهب عن المسلمين غم التنازلات، ويبقى لهم غم المكاسب.

وهذا التفسير لا يقدم تسويغاً للتنازل والنكوص، فكل حركة بما كسبت رهينة، ولكنه يعطي لمحات عن طبيعة العمل الإسلامي والقواعد التي تحكمه بعيداً عن لعبة السياسة.

٣- هل يتقدم الإسلاميون السياسيون أم يتراجعون؟

في نفس سياق «التفسيرات الخاطئة المتعمدة» يصر كثير من الباحثين الغربيين على أن التيارات الإسلامية السياسية تحقق تراجعاً ملحوظاً، وكتب المتخصصان الأمريكيان في شؤون الشرق الأوسط، راي تقي، ونيكولاس غفوسديف، كتاباً هاماً تحت عنوان «نشأة الإسلام الراديكالي وانهاره»، يقولان

أو أصابهم الملل لطول بقائه في الحكم»، ويكرر الدكتور عبد المجيد أسلوب «التفسير الخاطيء المتعمد» الذي يضطر إليه خصوم الحركة الإسلامية بسبب عدائهم لها، فيقعون في مأزق تفسيرات متعصبة تُعجزهم عن بلوغ مستوى متعمق من فهم الحركات الإسلامية السياسية، فيقول: «يحصد البديل الثاني - الإسلاميون - الذي لم يُجرب أصواتاً يقترح أصحابها لمصلحته لمجرد الرغبة في التغيير، وليس اقتناعاً به أو ثقة في قدرته على أن يأتي بما هو أفضل».

ويعتبر الباحث أن الناخب مضطر لأن يختار الإسلاميين، ويصف هذا الوضع بأنه «خطر» لأنه: «يصعب تصور ما الذي يمكن أن يحدث عندئذ؛ بسبب غياب تقاليد مرعية وقواعد محترمة لانتقال السلطة، والتصرف فيها. وإذا أتاحت الظروف الدولية تدخلاً واسعاً في العملية الانتخابية لمنع فوز هذا البديل، لا بد أن يزداد الوضع احتقاناً، وتقل فرص التطور الديمقراطي السلمي بسلاسة في الفترة التالية»^(٢).

من تداعيات «التفسيرات الخاطئة» أن «القلق» الغربي من الإسلاميين السياسيين كاد ينحصر في تساؤل: ماذا ستفعلون إذا تسلمت السلطة؟ وهناك مناظرة ضمنية غير معلنة - وغير مباشرة - بين الولايات المتحدة والغرب عموماً، وبين التيارات الإسلامية السياسية، محورها الرئيس هذا التساؤل، وي طرح الغرب في مناظرتهم باقة من التساؤلات الفرعية بعضها دعائي وبعضها حقيقي، منها: الموقف من الاتفاقات الدولية مثل اتفاقية التمييز العنصري، وكامب ديفيد، ومكافحة التعذيب، والموقف من المرأة، والموقف من الأقباط، أو الأقليات الدينية عموماً، والموقف من الديمقراطية وتطبيقها بعد تسلم الحكم.

ويحاول بعض الإسلاميين السياسيين تقديم تصريحات مطمئنة وتنازلات سياسية مبنية على

الحكومة، تعطي مثلاً للسباق الغربي في التفسير والتحليل والتوقع.

هذه الرؤية الغربية في التأكيد على «إفلاس» الإصلاح الإسلامي، وتراجع التيارات السياسية الإسلامية ليست جديدة، فقد «ظلت الأحكام باندثار الحركات الإسلامية تصدر بانتظام منذ الأربعينيات من القرن الماضي، فعلى سبيل المثال نجد مقولة أوليفر روي عن الإفلاس الفكري لحركات الإصلاح الإسلامي أقرب إلى تكرار حرفي لحكم هاميلتون جيب على حركات الإصلاح الإسلامي في الأربعينيات، وأحكام مالكوم كير المشابهة في الستينيات، وبعد كل مرة يصدر فيها حكم كهذا بنهاية الإسلام السياسي وسيادة العلمانية، تظهر أحداث جسام تبين العكس، فمثلاً أصدر أحد كبار المنظرين الأمريكيين عام ١٩٨٣م كتاباً أكد فيه أن الجزائر هي البلد الإسلامي الوحيد الذي تجاوز مرحلة هيمنة الشريعة الإسلامية، ودخل مرحلة العلمانية الكاملة بغير رجعة، بخلاف كل الدول الإسلامية الأخرى، مما يجعلنا نرى في الجزائر، حسب زعم هذا الكاتب، مستقبل الدول الإسلامية الأخرى، ولهذا تواجه مثل

هؤلاء المحللين مفاجآت عند كل منعطف حين يكتشفون تزايد نفوذ هذه الحركات، فالأحزاب الإسلامية مهما كانت عيوبها ونقائصها، وهي كثيرة، تحتل اليوم موقع حركة المعارضة الأقوى في معظم بلدان العالم

الإسلامي، رغم أنها محظورة، كما هو الحال في مصر وتونس، أو تواجه عداءً سافراً كما هو الحال في تركيا، وحين تحقق هذه الأحزاب نتائج باهرة في الانتخابات، وتفشل الأحزاب المدعومة من الدولة؛ رغم الضغوط والمناورات والتحليل، والموارد غير المحدودة التي تضعها الدولة تحت تصرفها، فإن الحديث عن الفشل والإفلاس يجب أن يوجّه

فيه: «لم تثبت الحركات الإسلامية الراديكالية أنها بدائل قابلة للحياة، حتى عندما نجحت بتولي الحكم، واليوم وفي كل مكان في الشرق الأوسط كما في البلقان والاتحاد السوفيتي السابق، فالأسلمة - الإسلام السياسي الراديكالي - هي في تراجع كأيدولوجية حاكمة».^(٥)

وكتب المفكر العربي إدوارد سعيد: «الإسلام السياسي لم ينجح في مهمته أينما حاول تسلّم السلطة من خلال الأحزاب الإسلامية»^(٦)، والملاحظ هنا أن الاتهام بالفشل انتقل من مستوى المشاركة في الانتخابات والحياة السياسية، إلى مستوى تسلّم السلطة، وهذا الارتقاء في حد ذاته شهادة ضمنية بتقدم الإسلاميين السياسيين لا تراجعهم.

تنوعت توقعات الفشل التي تستشرف مستقبل إدارة الإسلاميين للسلطة، فبعضها يعتبر أنه «يمكن للحركات الإسلامية خسارة شرعيتها بسهولة؛ عندما لا يمكنها تأمين النظام العادل والأخلاقي الذي وعدت به»، وبعضها يتوقع حدوث الخلل من داخل الحركات نفسها، ويقول مؤلفا الكتاب السابق

إنه: «عندما تكون هذه الحركات في إطار معارضة صرفة، فإنه من السهل إيجاد أرضية مشتركة بين مختلف الجماعات لجهة قبول مبادئ مثالية... ومع تقدم الحركة الإسلامية تدريجياً في اتجاه بلوغ السلطة، أو بعد تسلّم

في سياق التفسيرات الخاطئة المتعمدة، يصر كثير من الباحثين الغربيين على أن التيارات الإسلامية السياسية تحقق تراجعاً ملحوظاً

ناجح لمقاليد الحكم، فإن الانشقاقات التي لا بد وأن تحدث بين أولئك الذين يحافظون على التقيد الصارم بالأيدولوجية ستؤدي إلى نتائج ستكون مضادة لأولئك الذين هم أكثر براجماتية بتقييماتهم أو من هم مستعدون لإجراء تسويات»^(٧)، ولعل التوقعات الغربية بتخلخل حركة حماس داخلياً بعد فوزها في الانتخابات، وتسلمها رئاسة

إجماليين من قبل الحركات الإسلامية فيما يتعلق بمطلب «الدولة الإسلامية»، في الموقف الأول: تراجع ذكر «الدولة الإسلامية» في خطاب وبرامج كثير من تلك الحركات، ويقول الدكتور عمرو حمزاوي كبير باحثي معهد كارنيجي الأمريكي: إن الإخوان خطابهم غير واضح بخصوص الدولة الإسلامية، وفي خلال السنوات الثلاث الأخيرة لم يعد هناك إشارة واضحة حول ذلك في برنامجهم الانتخابي وبياناتهم، وحزب الإصلاح في اليمن والعدالة والتنمية في المغرب، والحركة الدستورية في الكويت لا تشير إلى إقامة دولة إسلامية. (٩)

لكن هذا «الإقصاء اللفظي» - غير المصحوب بإقصاء أيديولوجي - لم يُقنع بعض الباحثين، وظلوا يتعاملون مع الإخوان المسلمين على أنهم يهدفون إقامة دولة ذات طابع خاص، أو كما يُعبر بعض منظري الجماعة «دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية»، ويتساءل د/ وحيد عبد المجيد عن مرجعية هذه الدولة، فيقول: «ما هي هذه المرجعية وكيف تعمل؟ فهل ستكون مثلاً في صورة هيئة أو مجلس؟، وكيف سيتم اختيار أعضائها في هذه الحالة؟، وعلى أي أساس أو بأي معيار؟، وكيف ستكون علاقة هذه المرجعية بالأزهر؟، وهل سيكون لهذه المؤسسة الدينية العريقة صلة بالمرجعية؟». (١٠)

وتساءل آخرون عن الفارق بين المجتمع الإسلامي الذي تهدف إليه الحركات الإسلامية وبين الدولة الإسلامية، وأيهما يسبق الآخر، فيقول عبد الوهاب الأفندي أحد المتخصصين في نقد الحركة الإسلامية: «تجعل هذه الحركات هدفها إقامة الدولة الإسلامية التي دونها لا يكون المجتمع فاضلاً، ولكنها في الوقت نفسه تقول: إن الدولة الإسلامية لن تتحقق إلا بوجود المجتمع الفاضل، فنحن أمام دوران في حلقة مفرغة، بحثاً عن المجتمع الفاضل الذي دونه لن تكون دولة فاضلة، والعكس بالعكس». (١١)

الموقف الآخر الذي اتخذته حركات إسلامية في

إلى هؤلاء الخاسرين، لا إلى الحركات الإسلامية ويمكن أن يقال: إن الإشكال عند خصوم الحركات الإسلامية - وربما عند هذه الحركات نفسها - ليس هو أنها اندثرت أو في طريقها إلى الاندثار، بل هو أنها تزداد قوة رغم الهجمة الدولية والمحلية ضدها. (٨)

ثانياً: إشكالية الدولة الإسلامية:

تبت غالبية الحركات الإسلامية السياسية في بداية تأسيسها هدف إقامة الدولة الإسلامية، أو الحكم الإسلامي، أو تطبيق شرع الله، وهي كلها عبارات تؤدي إلى نفس المعنى بصورة عامة.

لكن مع الاستغراق لعقود طويلة في تعقيدات العمل السياسي، تغيرت الحسابات، وأصبح مصطلح «الدولة الإسلامية» نقطة ضعف في برنامج تلك الحركات، سواء دُكر صراحة أو لم يُذكر.

سبب تحول مطلب «الدولة الإسلامية» إلى نقطة ضعف، أن توازنات اللعبة السياسية لم تعد تتحمل هذا القدر من الصراحة والوضوح في الخطاب الإسلامي، وقد اضطرت الحركات السياسية الإسلامية، مع التزامها بقواعد الديمقراطية، أن تتجاوز بعض الثوابت الدينية على أعتاب المراحل السياسية التي تريد اجتيازها.

سبب آخر لصيرورة «الدولة الإسلامية» مصدر انتقاد للإسلاميين السياسيين، وهو غموض الإطار العام لهذه الدولة، وكنهها وماهيتها، ومرجعيتها، وكيفية إدارة الدولة الإسلامية من قبل الإسلاميين في ظل أوضاع دولية مترصدة ومتربصة.

وتراوحت التفسيرات التي يقدمها الباحثون الغربيون والليبراليون العرب لهذا الغموض، ما بين ضحالة التصور الإسلامي للدولة، وبين ممارسة الحركات الإسلامية السياسية لنوع من «التقية الشنية» ستخلعها عندما تصل إلى السلطة، ومن ثم تنقلب على الديمقراطية التي أوصلتها إلى الحكم.

هذه التفسيرات «الضاغطة» أنتجت موقفين

«المعتدلين» الذين يخترقون الحركات الإسلامية السياسية القديمة، ويمارسون ضغوطاً إضافية عليها لدفعها إلى دائرة التنازلات القريبة من السلطة. ومنها: أن المواجهة مع الحركة الإسلامية المنتصرة لا يشترط أن تقترن بالقوة، بل يمكن وضع الحكومة الجديدة التي يشكلها الإسلاميون الفائزون في الانتخابات تحت حصار - عقابي - ضاغط وخانق، يجعل فوزهم الانتخابي مقترناً بإخفاق سياسي؛ يضعف أسهمهم لدى متخبيهم «النصر الخانق».

وابتكر الليبراليون من خصوم الإسلام السياسي معالجة جديدة للوضع الناتج عن تولي الإسلاميين للسلطة، وهي اعتبار هذا الحدث بمثابة «أزمة وطنية» تستدعي تضافر القوى السياسية مجتمعة لمواجهة الحدث قبل وبعد وقوعه، يقول د/ وحيد

عبد المجيد: «في كل الأحوال لا يصح الرهان على النوايا، عندما يتعلق الأمر بمستقبل الأوطان. فإذا كان وصول الإخوان إلى الحكم وارداً، يصبح من الضروري إيجاد توافق عام على

مقومات الدولة ونظامها السياسي، وعلى عدم تغيير هذه المقومات بدون حوار وطني يقود إلى توافق عام آخر». (١٣)

وقد نُفذت هذه المعالجة الجديدة في فلسطين، وبرزت حكومة «الوحدة الوطنية» على أنها حل متوازن ينقذ حركة حماس من مأزق الحصار، ويمنح خصمها الرئيس الممثل في حركة فتح بعض النفوذ المفقود، ولكنه في الوقت نفسه يفرغ النصر الذي حققته حماس من معناه ويسقط دلالاته.

بذلك يمكن تلخيص المسارات المتوقعة أمام الإسلاميين حال تحقيقهم فوزاً كاسحاً في الانتخابات البرلمانية وتسلمهم للسلطة، فيما يلي:

١- التنازل عن قائمة من الثوابت؛ يحددها خصوم الداخل والخارج.

مواجهة «التفسيرات الضاغطة» لمفهوم الدولة في برنامجها، يتضح في خطاب حزب العدالة المغربي الذي حسم الإشكال منذ البداية بإعلانه أنه ليس حزباً دينياً، بل «حزب سياسي وطني؛ يقوم على أساس المواطنة»، وقال الأمين العام للحزب سعد الدين العثماني في بحث بعنوان «الإسلام والدولة المدنية.. إزالة التعارض»: «إن الدولة الإسلامية هي دولة دنيوية تخضع لاعتبارات المصالح العامة والوطنية، ويجب أن يتم التعامل معها في إطار نسبي موضوعي، وإنه ينبغي التعامل مع السياسة على أنها فن الممكن». (١٢)

هذه «الإزاحة» التي أجراها حزب العدالة لمفهوم الدولة في الإسلام أراحته من جدل واسع مع الليبراليين والباحثين الغربيين حول مفهوم الدولة، لكنها في الوقت نفسه نقلت هذا الجدل إلى ساحة الإسلاميين، الذين باتوا يتساءلون عن موقع الإسلام من هذه الدولة.

بعيداً عن الباحثين والكتاب، كان للسيااسيين بُعد آخر في التعامل مع إشكالية الدولة لدى

تساءل آخرون عن الفارق بين المجتمع الإسلامي الذي تهدف إليه الحركات الإسلامية وبين الدولة الإسلامية، وأيهما يسبق الآخر؟

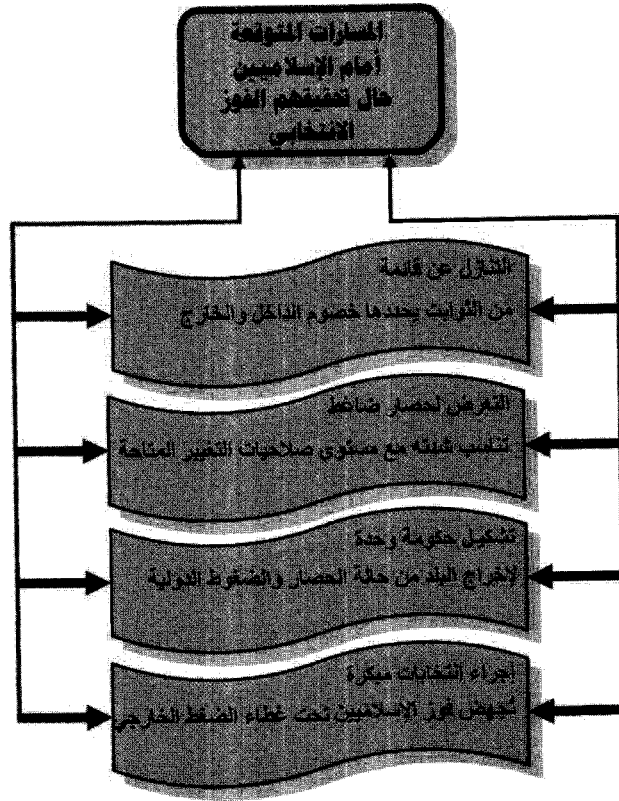
الحركات الإسلامية، ومع تحقيق مفاجآت انتخابية في عدد من الدول بدءاً بالجزائر عام ١٩٩١م وانتهاءً بحركة حماس عام ٢٠٠٥م، تبلورت استراتيجية «النصر الخانق» لمواجهة المفاجآت الإسلامية، وتعني هذه الاستراتيجية: تحويل النصر الذي يحققه الإسلاميون إلى حبل مشنقة يضعهم أمام خيارين: التنازل أو الانهيار. قدمت تجربة جبهة الإنقاذ الجزائرية دروساً مهمة لخصوم الحركات السياسية الإسلامية، أبرزها: أنه لا يجب أن تصل إلى السلطة حركة سياسية تصر على حمل ثوابتها الدينية كاملة.

ومنها: وجوب إخضاع الإسلاميين السياسيين لضغوط مركزة ومكثفة تستهدف «حرق الثوابت»، وإخراج جيل جديد من الإسلاميين السياسيين

قضايا العمل الإسلامي

أن تظل العلاقة بين مؤسسات الدولة في حالة سيولة قابلة لإعادة التشكيل حسب مقتضيات الحال، ونفس الأمر ينطبق على توزيع الصلاحيات بين هذه المؤسسات. وتعطي قائمة الخطوط الحمراء التي على أي حكومة إسلامية أن تواجهها، دلالات على محدودية

٢- التعرض لحصار ضاغط، تتناسب شدته مع مستوى صلاحيات التغيير المتاحة أمام حكومة الإسلاميين.
٣- تشكيل حكومة وحدة وطنية لإخراج البلد من حالة الحصار والضغط الدولية، ليتحول النصر الإسلامي إلى خانة: «مع إيقاف التنفيذ».



الدور التغيير الذي يتوقع أن تلعبه هذه الحكومة لو وجدت.

وأبرز الخطوط الحمراء: رئاسة الدولة - الحصول على نسبة الثلثين في البرلمان؛ أي التمكن من تغيير الدستور - القرار العسكري والجيش - الجانب الأهم من السياسة الخارجية - الإعلام الرسمي - الأمن الداخلي والمخابرات - مستويات التغيير الجذرية في مجالات مثل: التعليم، القوانين، القضاء، ونحو ذلك.

٤- إجراء انتخابات مبكرة تُجهض فوز الإسلاميين تحت غطاء الضغط الخارجي.

ثالثاً: خارطة العمل السياسي:

تتمتع الأنظمة العربية في معظمها بدرجة عالية من الأمان، تجعلها قادرة على تحمل فوز الإسلاميين المفاجئ - أو المبرمج - في أي انتخابات قادمة، وبالإضافة إلى تقسيم الأنظمة إلى: ملكية دستورية، وجمهورية، حيث تحظى الأولى بمستويات أمان أعلى، فإن النمط الأخير من الأنظمة يحرص على

فما معنى التخلي عنه لأجل مواصلة هذا الدور؟ وقد بات واضحاً أن حصار الإسلاميين والضغط عليهم لن يتوقف حتى بعد الوصول إلى السلطة، فلا مجال إذن للقول بأنه يمكن استرجاع «الفاقد الإسلامي» في هذه المرحلة.

٤- معايير النصر والهزيمة السياسية تحتاج إلى إعادة صياغة في ضوء تحول الفوز الانتخابي إلى مأزق، واعتبار ترشيح عدد كبير من الإسلاميين بمثابة تحدي للأئمة يستوجب المواجهة الشرسة.

٥- تخريجاً على النقطة السابقة، نقول: إنه في بعض الدول العربية قد يكون من الأوفق التحول من هدف «المغالبة» الذي يسعى مباشرة إلى السلطة، إلى هدف «المدافعة» الذي يعرقل جهود الفساد والإفساد، وينأى بالأمة عن دينها، ويصعّب مهام التغيير لاحقاً، هذه المدافعة يمكن التعبير عنها في أحد جوانبها وفي صورتها النموذجية بمصطلح «الثلاث الضامن» أو المعطل، الذي يستهدفه حزب الله اللبناني، فهو نموذج قابل للاسترشاد به من قبل الحركات الإسلامية السياسية، كون أغلب الدول تشترط أغلبية الثلثين لاتخاذ القرارات المصيرية مثل تغيير الدستور، هذا «الثلاث» يعطي الإسلاميين السياسيين تأثيراً أكبر في مجريات الأمور، ولا يحملهم تبعات الوصول إلى السلطة سعيًا ومشاركة وتسلماً.

٦- في المقابل يجب أن تتجاوز بعض الحركات الإسلامية السياسية هدف «المشاغبة»، الذي تقبّع عنده، مكتفية بإثارة الأزمات والجدالات المحدودة الأثر والتأثير، والسعي لتحقيق هدف «المدافعة» التي سبقت الإشارة إليه.

في جميع الأحوال تبقى الحركات الإسلامية السياسية إنجازاً حقيقياً للأمة، لا يجب على منتقديها الإسراف في نقدها وتجهيلها، بل استفراغ الوسع في مناصحتها، وترشيدها، وفتح قنوات الاتصال معها.

حتى في حالة تمكن الحكومة الإسلامية من امتلاك القرار في أحد المفردات السابقة، فإن تنفيذ الرؤية الإسلامية التي تحملها هذه الحكومة يحتاج إلى قوة سياسية هائلة لا يكفي الفوز الانتخابي لتوفيرها.

أما إذا كانت حكومة الإسلاميين وفق النمط «المعتدل» الجديد، فإن تجاوزها للخطوط الحمراء لن يصنع فرقاً كبيراً.

مع ملاحظة وجود مسارين عند التعامل مع القضايا الشائكة والحساسة، وهما: مسار الإصلاح من الفساد، ومسار الأسلمة، وأكثر الحركات الإسلامية -خاصة الموصوفة بـ«المعتدلة»- تراهن على مسار «الإصلاح من الفساد»؛ باعتباره مدخلاً يمكن الولوج منه لاحقاً إلى الأسلمة، أو الاكتفاء به واعتباره هدفاً في حد ذاته للحركة، وباعتبار أن مسار الأسلمة يشمل ضمن معانيه محاربة الفساد.

رابعاً: توصيات:

يمكن تلخيص أهم التوصيات الموجهة إلى الإسلاميين السياسيين في طريقتهم إلى السلطة فيما يلي:

١- الحركات الإسلامية السياسية تأسست من أجل إقامة الإسلام وتحكيم الشريعة، وهذا الهدف لا ينبغي الخجل منه، أو الرضا بتحويله إلى نقطة ضعف ومصدر انتقاد، وعندما تتخلى الحركة عن هدفها الرئيس وتتوارى منه فإن زوالها يصبح خيراً من بقائها.

٢- ثنائية العلاقة بين العمل الدعوي والسياسي يجب الحفاظ عليها في حالة توازن يكون للدعوي فيها حق الصدارة، بمعنى أن السياسي يجب أن يوظف لخدمة الدعوي وليس العكس.

٣- يفتح خصوم الإسلاميين أمامهم مسارات تقربهم من السلطة، بشرط التخلي عن ثوابتهم الدينية. والمحتوى الديني الذي تحمله الحركات السياسية الإسلامية هو الذي يدفعها لممارسة دور سياسي،

الهوامش:

- (١) مجلة الشراع ٢/٧/٢٠٠٦م.
- (٢) مقال: دولة الإخوان المسلمين، مدنية أم دينية؟، د/ وحيد عبد المجيد، صحيفة الحياة اللندنية ٨/٣/٢٠٠٦م.
- (٣) رواه ابن حبان والطبراني، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/٢٠٥.
- (٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/١٥٠.
- (٥) نشأة الإسلام السياسي الراديكالي وانتهياره، راي تقي ونيكولاس غفوسديف ص ١٨.
- (٦) المرجع السابق ص ٢٢٩.
- (٧) المرجع السابق ص ٢٣٣-٢٣٤.
- (٨) عبد الوهاب الأفندي، الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي، عدد من الكُتاب، مركز الإمارات للدراسات، ص ٣٠-٣١.
- (٩) قناة العربية، برنامج بانوراما، العربية نت.
- (١٠) مقال: دولة الإخوان المسلمين، مدنية أم دينية؟، صحيفة الحياة ٨/٣/٢٠٠٦م.
- (١١) عبد الوهاب الأفندي، الحركات الإسلامية، وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي، عدد من الكُتاب، مركز الإمارات للدراسات، ص ٣٠.
- (١٢) محمد أبو رمان، العربية نت ٦/٢/٢٠٠٦م، مقال: الإسلام السياسي بين المشرق والمغرب.
- (١٣) مقال: دولة الإخوان المسلمين مدنية أم دينية؟ الحياة ٨/٣/٢٠٠٦م.

معلومات إضافية

الإسلاميون... نتائج انتخابية:

- يمكن تصنيف الحركات الإسلامية الموجودة في بعض البرلمانات العربية إلى ثلاثة أنواع:
- ١- حركات دخلت البرلمان تحت شعار أحزاب أو جمعيات إسلامية، كما هو الحال في الأردن والبحرين والكويت ولبنان.
 - ٢- حركات دخلت البرلمان تحت شعار أسماء لا تحيل في الوهلة الأولى على البعد الإسلامي، كما هو الحال في الجزائر وفلسطين والمغرب واليمن والسودان.
 - ٣- حركات حصلت على نواب بواسطة الترشح المستقل، كما هو الحال في مصر.
- وانطلاقًا من هذا التقسيم الثلاثي، يمكن رصد وجود التشكيلات الإسلامية في البرلمانات العربية تناميًا واطرادًا، أو تقاعسًا وغيابًا.

نماذج برلمانية:

في البرلمان الأردني:

يعرف البرلمان الأردني باسم «مجلس النواب»، ويتكون من ١١٠ مقاعد، وتم آخر تجديد لأعضائه في ١٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٣، وسيتم تجديد في سنة ٢٠٠٧.

ويمثل الإسلاميون في مجلس النواب الأردني -أساسًا- حزب جبهة العمل الإسلامي المتأسس سنة ١٩٩٢، وعدد نوابه في البرلمان الحالي ١٧ نائبًا.

ويمثل هؤلاء نسبة ١٥,٥٪ من مقاعد المجلس، ويشكلون بذلك أكبر كتلة حزبية في المجلس. وعضو الحزب د/ عبد اللطيف عريبات، كان رئيس مجلس النواب الأردني سابقًا.

في مجلس الأمة الكويتي:

يعرف البرلمان الكويتي باسم «مجلس الأمة»، ويضم ٥٠ مقعدًا، وينتخب كل ٤ سنوات، وكانت آخر انتخابات عرفها المجلس بتاريخ ٥ يوليو/ تموز ٢٠٠٣، ويتوقع تجديد النواب في سنة ٢٠٠٧.

قضايا العمل الإسلامي

وقد حصل الإسلاميون في الكويت على ١٨ مقعدًا في آخر انتخابات، أي نسبة ٣٦٪ من مقاعد المجلس.

وهم موزعون إلى جناحين:

سني منقسم إلى:

- الحركة الدستورية الإسلامية (إخوان مسلمون) ٥ مقاعد في المجلس السابق.

- جمعية إحياء التراث (سلفيون تقليديون) ١٠ مقاعد.

- الحركة السلفية (سلفيون جدد) ٦ مقاعد.

شيعي يمثله التحالف الإسلامي الوطني ٥ مقاعد.

في البرلمان اللبناني:

يعرف البرلمان اللبناني باسم «مجلس النواب»، ويضم ١٢٨ عضوًا منتخبيين لمدة خمس سنوات، وكان آخر انتخاب له في منتصف سنة ٢٠٠٥، ويتوقع أن يحدد في سنة ٢٠٠٩.

وفي أول انتخاب نيابي بعد اتفاق الطائف تم تجديد المجلس الرابع عشر سنة ١٩٩٢؛ لتأخذ الجماعة الإسلامية السنية ٣ مقاعد، وتأخذ جمعية المشاريع الخيرية السنية كذلك مقعدًا واحدًا، ويحصل حزب الله الشيعي على ١٢ مقعدًا.

وغداة انتخاب المجلس الخامس عشر سنة ١٩٩٦ لم تحصل الجماعة الإسلامية إلا على مقعد واحد، في حين لم تفرز جمعية المشاريع الخيرية بأي مقعد، وتراجع رصيد حزب الله ليصبح ٥ مقاعد.

وفي انتخاب المجلس السادس عشر سنة ٢٠٠٠ لم تفرز الجماعتان السنيتان بأي مقعد، وحصل حزب الله على ٨ مقاعد. وفي الانتخاب الأخير لمجلس النواب في منتصف سنة ٢٠٠٥ رفع حزب الله حصته إلى ١٤ مقعدًا، وظلت الجماعتان السنيتان غائبتين عن المشهد البرلماني.

في البرلمان الجزائري:

ينتخب «المجلس الشعبي الوطني» كل خمس سنوات، وهو أحد غرفتي البرلمان الجزائري، ويضم المجلس الآن ٣٨٩ مقعدًا، وآخر انتخابات عرفها كانت ٣٠ مايو/ أيار ٢٠٠٢، ويتوقع أن يجري تجديد أعضائه سنة ٢٠٠٧.

وفي الانتخابات النيابية التي جرت في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩١ حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجولة الأولى على ١٨٨ مقعدًا، وكان يتوقع أنه لو جرت الجولة الثانية لحصلت

الجهة على ٢٥٠ مقعدًا، ولكن قادة الجيش جمدوا نتائج الانتخابات، وحلوا جبهة الإنقاذ واعتقلوا قادتها.

وفي انتخابات ١٩٩٥ النيابية لم تشارك جبهة الإنقاذ المحظورة، وحصلت حركة مجتمع السلم (الإخوان المسلمون) على ٦١ مقعدًا، وحصل حزب النهضة الإسلامي على ٣٤ مقعدًا.

وفي تشريعات ٢٠٠٢ حصلت حركة مجتمع السلم على ٣٨ مقعدًا، وحصلت حركة النهضة على مقعد واحد.

في البرلمان الفلسطيني:

يعرف البرلمان الفلسطيني باسم المجلس التشريعي، ويبلغ عدد مقاعده ١٣٢ مقعدًا وينتخب أعضاؤه لخمس سنوات. وتم آخر تجديد له في ٢٥ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٦.

وكانت نتيجة الاقتراع الأخير فوز حماس التي شاركت بلائحة اسمها التغيير والإصلاح ونالت ٧٦ مقعدًا، وحصلت حركة فتح على ٤٥ مقعدًا، ثم جاءت القوى السياسية الأخرى بعد ذلك بنسب ضئيلة.

في البرلمان المغربي:

يعرف البرلمان المغربي باسم «مجلس النواب»، ويضم ٣٢٥ مقعدًا، وينتخب كل ٥ سنوات وآخر انتخاب عرفه المجلس جرى في ٢٧ سبتمبر / أيلول ٢٠٠٢، ويتوقع أن يجري تجديد أعضائه في ربيع سنة ٢٠٠٧.

ويعرف حزب الإسلاميين في مجلس النواب المغربي باسم حزب العدالة والتنمية.

وهو اتحاد بين حركة الإصلاح والتجديد، وبين الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية، وأخذ هذا الاتحاد نهاية عام ١٩٩٨ اسم «حزب العدالة والتنمية». وحصل في انتخابات ٢٠٠٢ على ٤٢ مقعدًا، وهو ثالث قوة برلمانية بعد الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، وحزب الاستقلال، وكان عدد مقاعده في انتخابات ١٩٩٧ لا تتعدى ١٤ مقعدًا.

في البرلمان اليمني:

يعرف البرلمان اليمني باسم «مجلس النواب»، ومدة انعقاد المجلس ست سنوات تبدأ من تاريخ أول اجتماع له، ويدعو رئيس الجمهورية الناخبين إلى انتخاب مجلس جديد قبل انتهاء مدة المجلس بستين يومًا على الأقل، فإذا تعذر ذلك لظروف القاهرة ظل المجلس قائمًا، ويأشر سلطاته الدستورية حتى تزول هذه الظروف، ويتم انتخاب المجلس الجديد.

قضايا العمل الإسلامي

ويُعرف حزب الإسلاميين في مجلس النواب اليمني باسم «التجمع اليمني للإصلاح» المسمى اختصارًا بحزب الإصلاح.

وقد تأسس سنة ١٩٩٠ ويحتل الرتبة الثانية في المشهد الحزبي اليمني. ويرأسه شيخ كونفدرالية قبيلة حاشد عبد الله بن حسين الأحمر، كما يرأس مجلس النواب كذلك. وقد فاز حزب الإصلاح في آخر انتخابات بـ ٤٦ مقعدًا، ثم انضم إليه بعض المستقلين فصار عدد مقاعده ٥٠ مقعدًا.

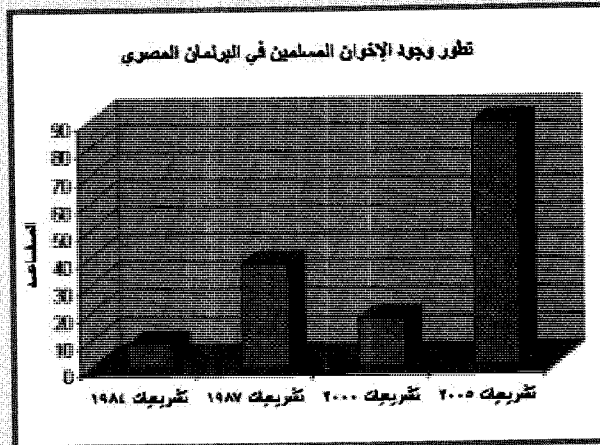
وقد عرفت مقاعد حزب الإصلاح في مجلس النواب تراجعًا: ففي انتخابات أبريل/ نيسان ١٩٩٣ حصل على ٧٠ مقعدًا، ثم حصل على ٥٤ مقعدًا في انتخابات أبريل/ نيسان ١٩٩٧، أما في انتخابات أبريل/ نيسان ٢٠٠٣ فكان حظه ٤٦ مقعدًا.

في البرلمان المصري:

يعرف البرلمان المصري باسم مجلس الشعب ومجموع أعضائه ٤٥٤، يتم اختيار عشرة منهم بقرار رئاسي، وانتخاب ٤٤٤ عضوًا من قبل الشعب. وكان آخر انتخاب للمجلس في نهاية سنة ٢٠٠٥، ومن المقرر أن يكون الانتخاب التالي بعد خمس سنوات.

ويعود حضور الإسلاميين في مجلس الشعب المصري إلى منتصف الثمانينيات؛ حيث شارك الإخوان المسلمون -المحظورون سياسيًا- في الانتخابات النيابية التي جرت عام ١٩٨٤ تحت غطاء حزب الوفد وحصلوا على ٨ مقاعد.

ثم شاركوا في تحالف سنة ١٩٨٧ مع حزب العمل وحزب الأحرار، وكان نصيبهم ٣٧ مقعدًا في المجلس، وتعرض الإخوان عام ١٩٩٥ لتضييق واعتقالات واسعة لمنع نجاحهم في الانتخابات، وتكرر الأمر نفسه عام ٢٠٠٠، وإن تمكن الإخوان برغم ذلك من إحراز ١٧ مقعدًا في المجلس النيابي في تلك السنة.

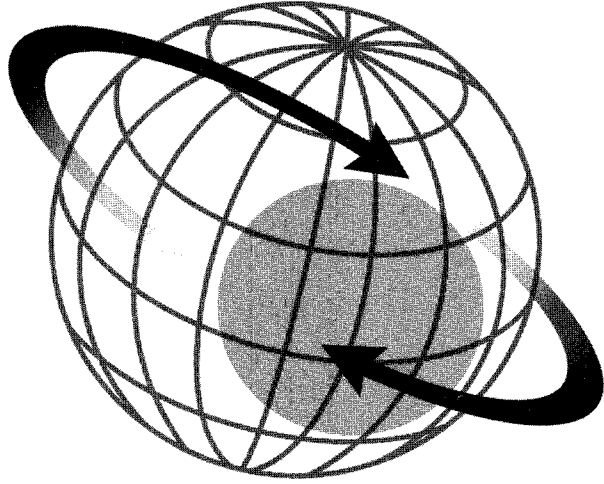


وفي الانتخابات الماضية ٢٠٠٥ حصد الإخوان ٨٨ مقعدًا، أي نسبة ٢٠٪ من مقاعد البرلمان.

ظل الوجود الإخواني في البرلمان المصري محكومًا بدرجة التضييق، أو التوسيع المسموح به لعمل الجماعة السياسي. وقد وصل الإخوان في البرلمان المصري في آخر انتخابات تشريعية إلى أعلى مستوى تمثيلي لهم في تاريخ التشريعات بمصر.

أهم المصادر:

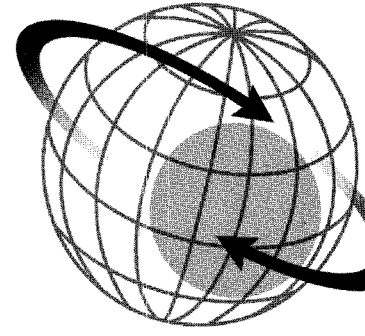
- التقرير الاستراتيجي العربي (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية) ١٩٩٣.
- ملف الأهرام الاستراتيجي (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية) المجلد ٦ سنة ٢٠٠٠.
- التقرير الاستراتيجي العربي (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية) ٢٠٠٢-٢٠٠٣.
- مدخل الانتقال إلى الديمقراطية في الوطن العربي، نشر مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ٢٠٠٣.
- موقع المعرفة، الجزيرة، ملفات خاصة ٢٠٠٦.
- الديمقراطية والتنمية الديمقراطية في الوطن العربي، نشر مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ٢٠٠٤.
- موقع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (إدارة الحكم في الدول العربية)
- موقع المركز الأوروبي لدراسة التعاون المتوسطي الأوروبي-العربي.



الباب الخامس العلاقات الدولية

عامر عبد المنعم الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العال
مع العالم الإسلامي

بشير عبد الفتاح التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية



الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي

عامر عبد المنعم - مصر

مدير تحرير سلسلة رؤى معاصرة التي تصدر عن المركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص البحث:

للدين دور حيوي في تشكيل السياسات الدولية، وللمعقائد دورها في التحالفات العسكرية والنكتلات السياسية والتقسيمات الجغرافية، ومنذ اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية لم ينخلع الغرب عن دينه، وأصبح الدين مكونًا هامًا في تشكيل أوروبا.

وكان الدين محركًا رئيسيًا للكثير من الحروب والاعتداءات التي قام بها الأوروبيون ضد الأمة الإسلامية وبقيت العالم، مما يعني أن الصراع الديني بين الغرب والمسلمين صراع طويل ومستمر.

من دراسة تاريخ الغرب مع الدين يتبين أن الغرب كيان يميل بطبيعته إلى الصراع، فهو يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة تبدلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبًا داخل أوروبا. وواجه المسلمون المذهب الأرثوذكسي الذي اعتنقته الإمبراطورية البيزنطية، ثم الكاثوليكية في الحروب البابوية الصليبية، تلاها الكاثوليكية والبروتستانتية في الحملات الاستعمارية، والآن لا زالت الأمة الإسلامية تواجه الحروب العدائية التي يقودها البروتستانت المتحالفين مع اليهود في حروب أكثر اتساعًا وأشد دمارًا.

تلك الحروب التي تقام ضد العالم الإسلامي إنما هي نتاج طبيعي للأفكار العدائية المنبثقة من العقيدة التي ترى أن خلاص الغرب المثلين إنما يكمن في شن حروب نهاية الزمان.

ولا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستارًا للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين.

وإن لم نفهم طبيعة الأفكار الدينية في تشكيل وتوجيه الغرب لن نستطيع العالم الإسلامي أن يضع نفسه على الطريق الصحيح لمواجهة العدوان، ولن نستطيع كذلك فهم البوصلة التي تحدد توجهات السياسات الغربية.

وإن لم يحذ المسلمون الآن حذو من سبقهم من سلف الأمة الذين عرفوا كيف يتعاملون مع أوروبا، بما حماها وبما بقي العالم من شروء الغرب، ودان لهم العالم قرونًا طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتعبية التي أنهكت قوة المسلمين وكتلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.

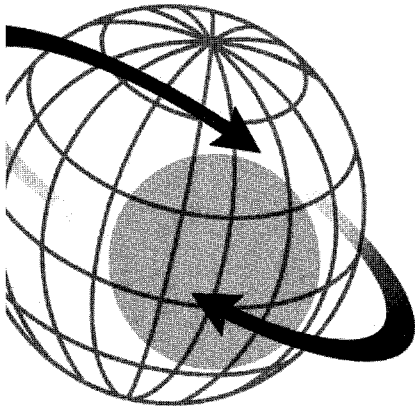
أفكار ومقتطفات

- إن الغرب الذي نتحدث عنه يتكون من القارة الأوروبية وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا. يبلغ عدد سكان الغرب نحو ٨٨٦ مليون نسمة، أي بنسبة ١٣,٨٪ من سكان العالم الذي يبلغ ٦,٥٣٩ مليار نسمة.
- أعطت الحضارة الإغريقية، أقدم حضارة أوروبية، بُعدًا فكريًا للصراع وتأصيله؛ من خلال الصراع بين الآلهة المزعومة والحروب التي تتشارك فيها الآلهة مع البشر، ثم جاءت الحضارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية المحرفة التي اعتنقها الرومان، وتوارثها الغربيون بعد ذلك مرجعية أخلاقية لهذه الروح.
- لم تكن كراهية الإسلام والنزعة العدائية المهيمنة على الغرب كافية لكسر المسلمين طوال فترات ازدهار الحكم الإسلامي. لكن مع شيوع الضعف في الأمة الإسلامية تمكن الغرب من الخروج من القارة الأوروبية، والسيطرة على البحار والمحيطات التي هيأت له فرصة الهيمنة على العالم.
- وفق تفسيرات الكتاب المقدس لمعركة هرمجدون فإن ميدان المعركة سيكون واسعًا لدرجة أنه سيفضي مئات الأميال شمال القدس وجنوبها، وسترفع بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألحمة الخيول.
- في عام ٣١٣م أتاح قسطنطين حرية العبادة للنصارى، و«اعترف بشرعية الكنيسة النصرانية، كما أرجع للنصارى الملكية التي سُلبت منهم». وفي عام ٣٢٤م جعل القسطنطينية عاصمته ومركزًا للحكومة الرومانية. وفي عام ٣٢٥م ترأس قسطنطين أول مجلس عالمي للكنيسة النصرانية في نيقية، وهي الآن في شمال غرب تركيا.
- كان للمذكرة الشهيرة التي علقها لوتر على باب كنيسة فنسبرج ١٥١٧م ضد فساد الكنيسة بداية للانقسام الكبير داخل المسيحية، والذي كان انقلابًا نتج عنه ولادة المذهب البروتستانتي وتقسيم الغرب.
- قامت الكالفينية بتحويل أمريكا إلى مجتمع رأسمالي يقبض العمل الديني بوصفه واجبًا دينيًا، ويقبض الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة.
- تميزت الانطلاقة البروتستانتية بارتباطها بالمرق الأنجلوساكسوني. هذا المرق الذي استطاع في القرون الثلاثة الأخيرة أن يملك زمام جزء كبير من قيادة الغرب، ويسمى للسيطرة على العالم، خاصة بعد خلو الساحة من أي خصم قوي.

العلاقات الدولية

- كان وصول البيوريتان الإنجليز إلى الشاطئ الأمريكي في الرحلة الأمريكية الشهيرة على مركب ماي فلاور هو البداية لتأسيس الدين في العالم الجديد.
- مع تدفق المزيد من المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا لم يعد الانغلاق البروتستانتي البيوريتاني ملائمًا، خاصة مع تمرد المستعمرات، وعدم قبول المستعمرين الجدد الخضوع لكنيسة إنجلترا. حدثت تنازلات فرضها الواقع، وخففت من مسألة التعصب ضد المذاهب الأخرى، واضطرت الكنيسة إلى ضم أشخاص ما كان يسمح لهم سابقًا.
- لم يختف الميل إلى استغلال الدين عند الرؤساء الأمريكيين، حتى الأشد علمانية منهم، فالرئيس كلينتون صاحب الفضيحة الأخلاقية الشهيرة، والذي يعد من أعداء الأصوليين قال في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٩٧: « استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، دعونا نوجه أبصارنا إلى أرض ميعاد جديدة».
- بدأ الأنجلوساكسون يتحركون بقوة، وبدا واضحًا أن الدول الخمس التي تنتمي إلى هذا العرق، وتعتنق ذات المذهب تشكل عصبية فاعلة على صعيد العلاقات الدولية. وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة، كندا، أستراليا، ونيوزيلندا.
- لقد أنشأ المحور البروتستانتي الأحلاف العسكرية المغلقة، أو بمشاركة دول أخرى دون التنازل عن القيادة والسيطرة.
- بإمكان إيشلون اعتراض وتعقب أكثر من ثلاثة بلايين عملية اتصال يوميًا، وتشمل كل شيء من المكالمات الهاتفية العادية والجوالة، واتصالات الإنترنت، وانتهاء بالاتصالات التي تتم عبر الأقمار الاصطناعية.
- الدولة الإسلامية عبر التاريخ كانت على دراية كاملة بمنافسيها، وعرفت كيف تتعامل معهم بالأسلوب الذي يجدي.
- كانت الخلافة هي القوة الوحيدة التي استطاعت أن تردع أوروبا، وتمنعها من ممارسة ظلمها والتنفيس عن غريزة العداة ضد الآخرين قرونًا طويلة. ومع حالة انكسار الأمة الإسلامية بدأ الغرب في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين.
- رغم أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا الآن، يبقى أن التنصير المدعوم عسكريًا وماليًا نجح في القرنين الماضيين في الوصول إلى العديد من مناطق العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وتنافست الطوائف النصرانية لاقتسام العالم، وأصبحت الإرساليات التنصيرية في كل الدول تقريبًا.

- إن التيار الغربي المتطرف سيعمل على زيادة الاعتداءات الغربية التي ستتصاعد وستتسع رقعتها، لكونها ضرورة ولازمة لإقامة مملكة الرب، كما يزعمون.
- إن وعد بلفور جاء تنويجًا للأفكار البروتستانتية المتطرفة، وترجمة مباشرة لعقيدة الأنجلوساكسون في بريطانيا وأمريكا، وليس فقط تحقيقًا لأمنيات اليهود.
- قد يختلف المتدينون الغربيون، وينقسمون إلى مذاهب دينية شتى، ولكن في المعركة مع الإسلام يتحدون جميعًا ضد المسلمين.
- إذا كان الأمويون والعباسيون قد فهموا نزعة العدوان الأوروبية وفهروها بالجهاد، وحصروا الغربيين في أوروبا، فإن العثمانيين أفضل من استثمر هذه الخلافات عن علم ودراية وتخطيط. فقد استغلوا الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية في روما والكنيسة الأرثوذكسية في الدولة البيزنطية مما جعلهم يفتحون القسطنطينية ويسقطون الإمبراطورية البيزنطية.
- لم يعد من المقبول ما يدعو إليه بعض المحسوبين على الأمة بأن نتجرد من ديننا في مواجهتنا مع الغرب في وقت يهاجمنا الغربيون بكل أسلحتهم.
- عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا ولا يردعهم أن نواجههم فرادى.
- إن إعادة بناء رأس للأمة هو التحدي الحقيقي لحصد نتاج حالة المقاومة واليقظة التي باتت ظاهرة مشهودة في أنحاء الجسد الإسلامي.
- إن الغرب كيان يميل إلى الصراع، يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة تبدلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبًا داخل أوروبا.
- لا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستارًا للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين.
- إن لم نحد حذو من سلف من أبناء الأمة الإسلامية الذين دان لهم العالم قرونًا طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتبعية التي أنهكت قوة المسلمين وكبّلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.



الصعود الديني في الغرب وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي

عامر عبد المنعم - مصر

مدير تحرير سلسلة رؤى معاصرة التي تصدر عن المركز العربي للدراسات الإنسانية

ومنذ اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين النصرانية في القرن الرابع الميلادي، فإن الغرب لم ينخلع عن دينه، وأصبح الدين مكوناً هاماً في تشكيل أوروبا. ورغم ما أصاب النصرانية من انشقاق، فإن العداء للإسلام كان القاسم المشترك في كل العصور، وإن تفاوتت درجة العداوة من مذهب لآخر، حسب فترات الصعود والهبوط.

لقد كان الدين محرّكاً رئيسياً للكثير من الحروب والاعتداءات التي قام بها الأوروبيون ضد الأمة الإسلامية وبقية العالم، بداية من هجمات البيزنطيين، ثم الحروب الصليبية، مروراً بالحملات الاستعمارية التي سبقتها حركة الكشوف الجغرافية التي كان من أهدافها نشر الدين خارج أوروبا، وتنصير الشعوب ونهب ثرواتها، وانتهاء بالحروب الاستباقية التي تشن مؤخراً لمنع المسلمين من استعادة قوتهم ولاستمرار خضوعهم للغرب.

إن الصراع الديني بين المسلمين وبين الغرب طويل ومستمر. لقد واجه المسلمون الدولة البيزنطية الأرثوذكسية، وساهموا في انهيارها، ثم واجهوا أوروبا الكاثوليكية في الحروب الصليبية وهزموها،

أولاً: تأثير الصعود الديني الغربي على العلاقة مع العالم الإسلامي.

ثانياً: الدين وتشكيل أوروبا.

ثالثاً: البروتستانتية وتأسيس أمريكا.

رابعاً: أسطورة الشعب المختار.

خامساً: علاقة الدين بالأحلاف العسكرية.

سادساً: التعاون الاستخباري، وأثر المذهب الديني.

سابعاً: كيف نتعامل مع ظاهرة الصعود الديني في الغرب.

يلعب الدين دوراً حيوياً في تشكيل السياسات الدولية، وتعد العقائد من العوامل التي تقف وراء الكثير من التحالفات العسكرية والتكتلات السياسية والتقسيمات الجغرافية. وتشير مجريات التاريخ إلى أن كل صعود لمذهب نصراني في الغرب يرتد على الأمة الإسلامية في صورة اعتداءات وحروب. ومع كل صحوة دينية في الغرب يزداد الغرب عدوانية تجاه العالم الإسلامي.

هو المحرك والمحرض أم كان وسيلة لتحقيق الأهداف السياسية.

وعندما نتطرق إلى الدين في الغرب فإننا لا نُغفل طبيعة العقلية الغربية التي تميل إلى المواجهة وحب الصراع مع الآخرين، وهذه الطبيعة هي التي صبغت النصرانية بصبغتها المعاصرة والمحرفة، وقدمت للعالم ديانة محاربة تتناقض مع أصلها. تؤكد دراسة التاريخ أنه لا توجد حضارة سعت إلى إفناء واستئصال الحضارات الأخرى كما حدث مع الحضارة الغربية. إن فكرة الصراع قد جعلت الغرب في مواجهة مستمرة مع باقي شعوب الأرض، وفي خصام غير مبرر مع الكون والنفس والآخر.

وقد تطورت فكرة الصراع عبر تاريخ الغرب، وأخذت أبعادًا مختلفة، وفق كل نقلة حضارية. تلونت هذه الفكرة بألوان عديدة من

المشروعية الزائفة. فقد أعطت الحضارة الإغريقية، أقدم حضارة أوروبية بعدًا فكريًا للصراع، وتأصيله من خلال الصراع بين الآلهة المزعومة والحروب التي تشارك فيها الآلهة مع البشر، ثم جاءت الحضارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر، والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية المحرفة، التي اعتنقها الرومان، وتوارثها الغربيون بعد ذلك، مرجعية أخلاقية لهذه الروح، وإعطاء المبادأة بالعدوان صفة العدالة فيما عرف بنظرية «الحرب العادلة»، التي أثرت في الحضارة الغربية الحديثة، وقدمت أحد المبررات الأخلاقية الشاذة لفكرة الإبادة. (٣)

إن الشعوب تختلف تبعًا للمؤثرات الحضارية والدينية والاجتماعية، وفي هذا السياق فإن طبيعة العقلية الغربية مختلفة عن باقي الشعوب. وهذه العقلية هي التي تجعل الغربيين في حالة صراع دائم لا ينتهي، وهي التي تجعل الغرب ينزع إلى المواجهة

وقاوموا الاستعمار حتى طردوه، إلا أن المواجهة مع البروتستانتية الأنجلوساكسونية^(١)، المذهب النصراني الثالث لم تنته بعد؛ إذ جاء الهجوم الغربي في فترة ضعف الأمة وانكسارها.

ويلاحظ أن الغرب لم ينل من المسلمين، وسيطر على العالم الإسلامي إلا بعد ضعف وانهيار الخلافة الإسلامية التي كانت صمام الأمان للمسلمين، والحاجز الذي يحميهم ويحمي شعوب العالم من نزعة القتل والعدوان المرتبطة بالحضارة الغربية.

يركز هذا البحث على دور الدين في الغرب، وتأثيره على العلاقة مع العالم الإسلامي.

وتأتي أهمية الموضوع لقللة الدراسات التي تتناول البعد الديني، وأثره في إدارة الغرب لعلاقاته مع العالم بالعموم، ومع الأمة الإسلامية بشكل خاص.

يهدف البحث أيضًا إلى مقاومة فكرة تبسيط دور الدين في السياسة الغربية، وتغليب فكرة أن الغرب انسلك عن الدين تمامًا للتخديم على اتجاهات فكرية معادية للدين في العالم الإسلامي، وبعضها يعمل لصالح الغرب فيما نعلم.

ما المقصود بالغرب؟

إن الغرب الذي نتحدث عنه يتكون من القارة الأوروبية وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا. يبلغ عدد سكان الغرب نحو ٨٨٦ مليون نسمة أي بنسبة ١٣,٨٪ من سكان العالم الذي يبلغ ٦,٥٣٩ مليار نسمة. (٢)

لا يهتم الباحث في هذه الدراسة بحالة التدين الشخصي، أو ما يتعلق بالشعائر التعبدية للأفراد أو الجماعات، وإنما يركّز على البعد الديني المرتبط بالسياسة واتخاذ القرار، وعلاقة الحكومات والسلطات الحاكمة بالدين، سواء كان الدين

إن تصور الدين في الغرب قد
خُرف بحيث أصبح يدور حول
إضفاء صفات التبرير لنزعات
العدوان المرتبطة بالعقلية الغربية

أن القتل كان عمداً بالاتفاق مع الروم، حيث استعدوا لرد الفعل بكامل قوتهم.

كان قتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم موقفاً معادياً؛ لاختبار الدولة الوليدة ومعرفة مدى طموحها. وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم رسالة الروم، وردَّ عليها على الفور؛ بخروج جيش من المسلمين لمبادلة الرسالة برسالة متحدية؛ فيما عرف بغزوة مؤتة. لقد «كانت غزوة مؤتة قبل فتح مكة بحوالي أربعة شهور، ولا زالت الجزيرة العربية - عدا الجماعة المسلمة في يثرب المطهرة - في جاهليتها».^(٥)

ومع انطلاقة الإسلام، والجيل الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع المسلمون أن يواجهوا الإمبراطورية الرومانية، ويتزعموا منها الشام وشمال إفريقيا، وحالوا دون سيطرة الغرب على حوض البحر الأبيض المتوسط. وواصل المسلمون تقدمهم حتى طوقوا أوروبا، وحصروها في الضفة العليا للبحر المتوسط. ووصل العثمانيون إلى قلب أوروبا، وظلت قوة المسلمين تخيف الغرب، حتى سقوط الأندلس.

لم تكن كراهية الإسلام والنزعة العدائية المهيمنة على الغرب كافية لكسر المسلمين طوال فترات ازدهار الحكم الإسلامي. لكن مع شيوع الضعف في الأمة الإسلامية تمكَّن الغرب من الخروج من القارة الأوروبية، والسيطرة على البحار والمحيطات التي هيأت له فرصة الهيمنة على العالم.

وقد استخدمت البابوية الدين لتحقيق عدد من أهدافها السياسية، وشارك الملوك الأوروبيون في الحروب ضد المسلمين؛ لتوكيد سلطانهم السياسي، والحصول على احترام شعوبهم.

بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية لعب الدين في الغرب دوراً دعائياً في شن الحروب، وكانت الشعارات الصليبية هي الغطاء لشن الحروب في ثلاث حقب تاريخية:

والصدام لحسم خلافاته. وبسبب هذه النزعة العدائية شهد التاريخ الغربي صراعات بين الأوروبيين بعضهم وبعض، وكذلك شهد أكثر هذه الحروب دموية، وهما الحربان العالميتان الأولى والثانية، ووصل ولع بعض الساسة الغربيين لسفك الدماء إلى درجة الإبادة كما حدث للهنود الحمر، وللأقليات العرقية الأوروبية.

وبسبب هذه النزعة العدوانية يجب الأخذ في الاعتبار أن هناك خلافات واسعة بين تصور الدين في الغرب، وتصور نفس الدين عند أتباع نفس المذاهب في باقي العالم. إن تصور الدين في الغرب قد حُرِّف بحيث أصبح يدور حول إضفاء صفات التبرير لنزعات العدوان المرتبطة بالعقلية الغربية.

ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن ظاهرة الصعود الديني في الغرب، لا نعمم نفس الاستنتاجات على معتققي نفس المذاهب في باقي العالم؛ فالنصرانية مثلاً في العالم العربي وفي أمريكا الجنوبية ليست محاربة، وليست عدوانية، كما نرى في الغرب المعاصر.

أولاً : تأثير الصعود الديني الغربي على

العلاقة مع العالم الإسلامي:

صراع الغرب مع العالم الإسلامي، في حقيقته، يميل لأن يكون صراعاً دينياً. فالغرب بأذر الإسلام بالعداء منذ البداية، ولم يقبل انتشار الديانة الجديدة. فلم يكن قتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملك الروم على يد الغساسنة إلا علامة على التبرص والمبادأة بالعدوان، قبل أن يقوى عود الدولة الوليدة، و«لم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره».^(٤)

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يبعث الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث الحارث بن عمير الأزدي إلى الشام لتوصيل الدعوة إلى ملك الروم، فقتله الغساسنة المتحالفون مع الروم استهزاء بالإسلام. ويبدو من سير الأحداث بعد ذلك

الأولى: الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢٩١):

كان بابا روما هو قائدها الروحي؛ إذ استطاع حشد الدول الأوروبية وتوحيد القارة، بزعم استرجاع القدس من المسلمين. بالنسبة للبابا «فقد كانت المعضلة التي لا تزال تطلب حلاً هي كيف يمكن للسلطة الروحية أن تسود على السلطة الزمنية»^(٦) لذا سرعان ما اقترح البابا أوربان الثاني حرباً مقدسة لتخليص قبر المسيح - كما يدعي - من أيدي المسلمين.

كانت الحملات الصليبية دينية سياسية، وتهدف إلى السيطرة على بيت المقدس؛ بالإضافة إلى إكراه الشعوب الأوروبية على الخضوع للبابا، ومن لم يقبل من المسيحيين الأوروبيين سلطة البابا قضي عليه، مثل الولدانسيين الذين عاشوا في الوديان شرق جبال الألب، والألبين الذين عاشوا في الوديان الواقعة غرب جبال الألب.^(٧)

ودامت هذه الحروب قرنين من الزمان، ولم تنته هذه الهجمة إلا على يد صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين في حطين. على الصعيد المقابل، تحققت بعض أهداف البابوية؛ إذ كانت الكنيسة هي «أول الرابيين من هذه الحرب الصليبية التي كان من نتائجها المباشرة أن زادت قوة البابا وسيادته ونفوذه وثروته»^(٨)، وأصبح البابا هو الزعيم السياسي للغرب حتى القرن السادس عشر.

الثانية: الحملات الاستعمارية في القرن الخامس عشر الميلادي:

والتي جاءت عقب هزيمة المسلمين في الأندلس لتفتح الطريق أمام الصليبيين للغزو الكبير من غرب العالم الإسلامي. فقد واصل الأوروبيون محاصرة المسلمين في القارة الإفريقية للقضاء على أي قوة لهم، ربما تفكر في الانتقام لطرده المسلمين من الأندلس. وانطلق البرتغاليون كقوة بحرية تنافس أسبانيا. وتدقق الأوروبيون لاستعمار إفريقيا وآسيا والأمريكتين. كانت الكشوف الجغرافية هي البداية الحقيقية للاستعمار. اتجه

هنري الملاح إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي، وكان هدفه هو «إخضاع إفريقيا، وحتى بلاد غانة، وإقامة إمبراطورية مسيحية برتغالية في إفريقيا، ومنها يبدأ في نشر المسيحية في أنحاء إفريقيا».^(٩)

هنري الملاح هو ابن الملك يوحنا الأول الذي طرد أهل المغرب العربي من سبتة عام ١٤١٥م، وقد تعلم الأمير هنري تعليماً دينياً، حتى إنه كانت قد أثرت عليه روح صليبية تجاه المسلمين، ويتضح هذا في الكتاب الذي أرسله إلى البابا نيقولا الخامس عام ١٤٥٤م؛ إذ يقول فيه: «إن سروري العظيم أن تعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جون بوصفه جندياً قادراً من جنود المسيح ليقتضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة».^(١٠)

ونفس الدوافع كانت وراء رحلة كريستوفر كولومبس إلى أمريكا، ومن تبعه من المستعمرين، ومنها البحث عن الذهب لتمويل الجيوش الأوروبية لاسترداد القدس من المسلمين.

اختلطت الدوافع الدينية في الحملات الاستعمارية بدوافع اقتصادية، فكانت حملات دينية لتنصير العالم، وأيضاً لنهب ثروات الشعوب وتحويلها إلى أوروبا.

الثالثة: الحروب الاستباقية:

ويبدو أن الدافع الديني كان حاضرًا أيضًا في الحروب الاستباقية التي شهدها العالم في العقود الأخيرة. لقد اتخذ الغرب الإسلام عدوًا فور انهيار الاتحاد السوفيتي، وتعددت تصريحات ومواقف الغربيين من السياسة والنخب وواضعي الاستراتيجيات التي تؤكد ذلك.

استخدم الأمريكيون الدين لإعطاء صبغة عقائدية للروح العدوانية، ووجد الأمريكيون المحاربون بغيتهم في تفسيرات شاذة ومحرفة لبعض ما ورد في الكتاب المقدس؛ لإضفاء المشروعية الأخلاقية على الرغبة في الصراع مع الآخرين.

بحور الدم حتى تصل إلى قرب ألجمة الخيول. ولن ينتهي الصراع هناك: فستدمر كل مدن الأمم بفعل الأسلحة المدمرة، والتي سوف تحرق الأرض وتمزقها إربًا. ولن يعود المسيح إلى الأرض إلا إذا بدت، وكأن الحياة فيها ستندم، عندئذ يعود لإنقاذ من تبقى، وعندئذ يبدأ حكم القديسين في الألف سنة الموعودة» (١٢)، أي أن المسيح لن ينزل إلى الأرض إلا بعد تخريبها؛ في ظنهم.

لقد بذل بعض دعاة الأصولية الأمريكية جهودًا كبيرة لإعطاء تأويلات معاصرة لهذه الأفكار، سواء في سفر الرؤيا أو غيره. ومن هذه التأويلات أن «المرحلة الأولى من هذه الحرب ستبدأ حينما

كان وصف الرئيس الأمريكي بوش لحروب أمريكا بأنها صليبية دليلاً على استخدام العقيدة في تحريك الحروب ضد المسلمين. قبل أحداث سبتمبر قال جورج دبليو بوش في خطاب تنصيبه: «إنه حظي باختيار الله له لتوجيه قوات أمريكا العسكرية؛ لتكون أداة إلهية مكرسة لجلب الحرية والديمقراطية للأمم العالم». (١١)

لم يُخف المحافظون الجدد الذين وصلوا إلى قمة السلطة في الولايات المتحدة ميولهم الدينية، ولم يخجلوا من إعلان مواقفهم، وهم يستخدمون تحريفات لأسفار الرؤيا؛ لإضفاء الشرعية على حروبهم المدمرة.



يشن التحالف العربي الإفريقي الذي يُدعى (ملك الجنوب)، هجوماً شاملاً ضد إسرائيل. أما المرحلة الثانية، فهي غزو كامل لإسرائيل والشرق الأوسط، تقومه روسيا، والتي تُدعى (ملك الشمال) في دانيال [٤٠-٤٥] والدول التابعة لها». (١٣)

تشكل مثل هذه الأفكار التي تدعو للحرب عقلية الأصوليين الأمريكيين، منذ نزول الأجداد على الأرض الأمريكية، وبسببها تم القضاء على الأمة الهندية. يكشف التاريخ الأمريكي عن إبادة ملايين

يعتقد المحافظون الجدد وبعض الأصوليين البروتستانت أن الحروب ودمار العالم شرط للعودة الثانية للمسيح، كما ورد في سفر الرؤيا، وهم يعملون من أجل المعركة الكبرى بين قوى الشر وقوى الخير، والتي يطلقون عليها «هرمجدون»، ويدعون أن مكانها يقع في منطقة جبل مجيدو في القدس.

وفق تفسيرات الكتاب المقدس لمعركة هرمجدون فإن ميدان المعركة «سيكون واسعاً لدرجة أنه سيغطي مئات الأميال شمال القدس وجنوبها، وسترتفع

فهم النصرانية، وكيف أصبح الدين والسلطة الدنيوية سيران جنبًا إلى جنب، يستغل كل منهما الآخر، رغم ما قد يبدو للبعض من انفصالهما.

ثانياً: الدين وتشكيل أوروبا:

اعتنق الرومان النصرانية لتوحيد الإمبراطورية بعد التمزق الذي أصابها، فقد كانت في صراع مع مواطنيها النصراني، وكانت هذه الملاحظة تستنزف قوتها وتهدد استقرارها، وتضعف الإمبراطورية في مواجهة خصومها المحيطين بها. كان اعتناق روما للنصرانية وصياغتها بما يخدم الإمبراطورية هو الخيار الأمثل. وقد ساعد دمج الديانة بسلطة الدولة في مد عمر الإمبراطورية، وإطالة بقائها فترة ليست بالقصيرة.

أصبحت النصرانية ديانة الإمبراطورية مع تنصر الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير (٢٧٥م-٣٣٧م)، والذي ترتب عليه تغير سياسة الإمبراطورية من مطاردة المسيحية واضطهاد أتباعها إلى الرعاية والتشجيع، وقد أفاد هذا التحول في تقوية الحكم المترامي الأطراف، وساعد قسطنطين في بسط سلطته على أوروبا.

في عام ٣١٣م أتاح قسطنطين حرية العبادة للنصارى، و«اعترف بشرعية الكنيسة النصرانية، كما أرجع للنصارى الملكية التي سلبت منهم.. وفي عام ٣٢٤م جعل القسطنطينية عاصمته ومركزًا للحكومة الرومانية. وفي عام ٣٢٥م ترأس قسطنطين أول مجلس عالمي للكنيسة النصرانية في نيقية، وهي الآن في شمال غرب تركيا». (١٦)

ساهمت الديانة في وحدة الشعوب الأوروبية الخاضعة للإمبراطورية، و«كان الدين الكاثوليكي هو أساس التجانس والانصهار، والرباط الوحيد بين دول ومقاطعات أوروبا الغربية، قبل تكوين

الهنود الحمر على أيدي المهاجرين الأوائل. وإذا تركنا التاريخ القديم للمهاجرين الأمريكيين نجد أن التاريخ الحديث لا يقل بشاعة، خاصة مع التطور الذي صاحب صناعة السلاح والتدمير.

منذ إمساك الأمريكيين الأنجلوساكسون البروتستانت بقيادة الغرب بلغ مجموع العمليات العسكرية الأمريكية «منذ عام ١٩٧٥ وحتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أي خلال ٢٦ عامًا ما يفوق ١٦٠ عملية» (١٤). بواقع عملية عسكرية كل شهرين. وهذه العمليات تشمل القتال، أو الانتشار تحت شعارات أخرى.

ربما كانت الحرب الباردة توجد مبررًا لهذه العمليات العسكرية، لكن ما يثير الاندهاش أن معدل الحروب الأمريكية تسارع بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فالعمليات «التي نفذت منذ سقوط حائط برلين فقط عام ١٩٨٩، كانت مائة عملية بين ذلك الحين، وحتى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بمعدل عملية واحدة كل شهر

تقريبًا، أي ستة أضعاف معدل العمليات التي أنجزت بين عامي ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٩». (١٥)

ويتضح من هذه المراحل الثلاث أن الدين كان مؤثرًا في القرارات السياسية، حتى وإن تداخلت معه عوامل أخرى، اقتصادية أو اجتماعية. ويتبين أن كل مرحلة من تلك المراحل كانت تمثل صعودًا دينيًا في الغرب. في المرحلة الأولى كانت الكاثوليكية هي دين الغرب، والثانية تقاسمها الكاثوليك والبروتستانت، والثالثة كانت البروتستانتية الأنجلوساكسونية هي المذهب المسيطر.

ولكي نفهم علاقة الدين بالسياسة في الغرب، نحتاج إلى العودة إلى التاريخ، لنرصد التحولات التي أحدثها الدين في تشكيل الغرب، وأيضًا لنقف على حقيقة التغيرات التي أحدثها الساسة الغربيون في

إذا تركنا التاريخ القديم للمهاجرين الأمريكيين نجد أن التاريخ الحديث لا يقل بشاعة، خاصة مع التطور الذي صاحب صناعة السلاح والتدمير

على مقاليد الأمور، وهيمت على الشعوب الأوروبية دينيًا وسياسيًا. وكان البابا هو القائد الديني والديوي المهيمن على الغرب.

سيطرت الكنيسة على الأراضي وصادرت الممتلكات، وأصبحت مثالاً للمادية والطمع، ووضعت يدها على الثروة، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس في العالم المسيحي، ويقدر البعض أن «ما يقارب من ثلث الأراضي في البلاد كان بين أيدي الكنيسة». (٢٠)

أمام هذا الفساد الديني جاءت شرارة الاحتجاج من ألمانيا، حيث بدأ الراهب الألماني مارتن لوثر يهز عرش البابوية، ويعترض على انحرافات الكنيسة، ويرفع صوته متحديًا للبابا، معلنًا ضرورة الإصلاح الكنسي. وكانت المذكرة الشهيرة التي علقها لوثر على باب كنيسة فتنبرج ١٥١٧م ضد فساد الكنيسة، بدايةً للانقسام الكبير داخل المسيحية، والذي كان انقلابًا نتج عنه ولادة المذهب البروتستانتي، وتقسيم الغرب. فقد تضمنت هذه المذكرة ٩٥ بندًا، تفند أخطاء الكنيسة، وتتقدم ممارساتها المتعلقة بصكوك الغفران، واحتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس، والانحرافات الأخلاقية، وجمع الأموال وغيرها.

بعد لوثر، ظهر جون كالفين الذي ترك العمل بالقانون ليحدث نقلة واسعة لحركة الاحتجاج البروتستانتي بإقامة حكم ديني لمدة ربع قرن في مدينة جنيف السويسرية، طبق فيها أفكاره بشكل عملي. ما كان لهذه الحركة الانشاقية داخل الكنيسة الغربية أن تنتشر لولا انضمام النبلاء والأمراء لحركة الاحتجاج، وكان لغضبهم أسباب أخرى، تتعلق برغبتهم في الاستيلاء على أموال الكنيسة الكاثوليكية ومصادرة ممتلكاتها. هؤلاء النبلاء هم الذين وقفوا مع مارتن لوثر في ألمانيا، وهم الذين ساندوا جون كالفين في حكم جنيف، والذي انتشر مذهبه بعد ذلك في الشمال الغربي لأوروبا.

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي بروز دور جون

الدولة القومية، وكانت الإمبراطورية الرومانية تحكم جنسيات مختلفة تجمع بينها الرابطة الكاثوليكية. ولم يكن الأوروبيون يكتثرون لوجود أسر حاكمية تنحدر من جنسيات وأصول مختلفة، طالما كانوا يتبعون المذهب الكاثوليكي». (١٧)

ولم يكن الأجنبي هو «المختلف جنسًا أو لغة، وإنما هو الكافر الذي يتبع دينًا آخر، أو المنشق عن الكنيسة الكاثوليكية. ولذلك فعندما أرادت قبائل الجرمان الاستيلاء على أجزاء من الإمبراطورية الرومانية اعتنقوا الكاثوليكية، مما سهّل لهم الاندماج مع أهالي البلاد المفتوحة والسيطرة عليها» (١٨)، أي أن لجوء السلطات الدنيوية إلى الدين لم يكن لأسباب إيمانية بالضرورة، وإنما لدوافع نفعية ومصالحية أحيانًا كثيرة؛ لاستخدام الدين كواجهة لتوطيد السيادة، وكمظلة أخلاقية توفر المشروعية للأهداف السياسية.

دب التنازع والشقاق والضعف داخل الإمبراطورية الرومانية، مع سقوط آخر إمبراطور روماني في عام ٤٧٦م، حينها «انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: الإمبراطورية الشرقية، والإمبراطورية الغربية. هذه الأخيرة استولى عليها رؤساء القبائل الجرمانية، وتقسمت إلى ممالك صغيرة، بينما بقيت الإمبراطورية الشرقية فيما يعرف بالإمبراطورية البيزنطية حتى عام ١٤٥٣م، حينما استولى العثمانيون على عاصمتها القسطنطينية». (١٩)

وقد اعتنقت الإمبراطورية البيزنطية المذهب الأرثوذكسي الذي لازل حتى اليوم يشكل ديانة روسيا واليونان وصربيا والبلقان. وفي المقابل بقيت الكنيسة الغربية في روما على التزامها بالمذهب الكاثوليكي، وتبعها النصارى في وسط وجنوب غرب أوروبا، وبشكل أساسي في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال.

مع سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية دخلت أوروبا فيما عرف بعصور الظلام التي استمرت نحو ألف عام. في هذه القرون سيطرت الكنيسة الكاثوليكية

تواصل الصراع بين بابوية تكافح للحفاظ على سيطرتها وزعامتها الدينية والسياسية؛ وكنائس بروتستانتية تفرض وجودها كحركة إصلاحية داخل المسيحية، وتطور الصراع إلى صدام وحروب بين الكاثوليك والبروتستانت استمرت عقودًا طويلة أشهرها حرب الثلاثين عامًا. فقد قامت هذه الحرب «بين عامي ١٦١٨ - ١٦٤٨، وحدثت وقائعها بشكل عام في أراضي ألمانيا، وقد تدخل في هذه الحرب معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذلك العصر» (٢٦).

بعد هذه الحروب الدامية خرج الأوروبيون من القرن السابع عشر مستنزفين، وتقسمت أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت. جمد الطرفان صراعاتهم مؤقتًا داخل أوروبا، وتنافسًا خارجها فيما عُرف بالكشوف الجغرافية التي كانت مقدمة لخروج الجيوش الأوروبية حاملة الستار الديني والمطامع الاقتصادية لاستعمار العالم.

كان التنافس بين أتباع المذهبين واضحًا في الحركة الاستعمارية حول العالم، لكنه بدأ أكثر جلاءً في القارتين الأمريكيتين؛ حيث اتجه الإنجليز البروتستانت بشكل أساسي إلى أمريكا الشمالية، بينما اتجه الأسبان والبرتغاليون الكاثوليك إلى أمريكا الجنوبية.

تميزت الانطلاقة البروتستانتية بارتباطها بالعرق الأنجلوساكسوني. هذا العرق الذي استطاع في القرون الثلاثة الأخيرة أن يملك زمام جزء كبير من قيادة الغرب، ويسعى للسيطرة على العالم، خاصة بعد خلو الساحة من أي خصم قوي.

ثالثًا: البروتستانتية وتأسيس أمريكا:

مع اكتشاف الأمريكيتين تدفق الأوروبيون إلى الأراضي الجديدة. تركزت هجرة الأنجلوساكسون على شرق القارة الشمالية، وأقام «البيوريتان» أول مستعمرة لهم على خليج ماساتشوستس في عام ١٦٣٠م.

كالفين فيما بعد على حساب مارتن لوثر، وانتشار أفكاره على نطاق واسع.

إن لوثر هو قائد الثورة ضد البابوية لكن جون كالفين كان له التأثير الأكبر في بلورة العقيدة التي يعتنقها معظم البروتستانت. من أسباب ذلك أن لوثر ربط ثورته بالقومية الألمانية، بينما لم يكن جون كالفين قومياً، فقد حرص على نشر أفكاره خارج بلده فرنسا، وحكم «كالفين» جنيف التي أرسل منها مبعوثيه إلى الدول الاسكندنافية وهولندا وإنجلترا لنشر أفكاره. و«على العكس من لوثر، الذي اقترح أنه ينبغي على المسيحيين أن يقبلوا النظام الاجتماعي الموجود، دعا كالفين أتباعه لأن يكونوا فاعلين، وأن يعيدوا تشكيل المجتمع والحكومة لكي تعمل وفقاً للقوانين الإلهية التي وردت في الكتاب المقدس» (٢١).

وعلى الصعيد السياسي والاقتصادي، استطاع كالفين أن يزاوج بين العقيدة الجديدة والرأسمالية، من خلال الاعتماد على رجال الأعمال في حكمه. وهذه الأفكار كانت مناسبة للمجتمع الأمريكي، لقد «كانت الجمهورية الأمريكية - في الأساس - جمهورية مُلاك» (٢٢).

وقامت الكالفينية بتحويل أمريكا إلى مجتمع رأسمالي «يقدم العمل الدنيوي بوصفه واجبًا دينيًا، ويقدم الثروة بوصفها ثمرة من ثمار النعمة» (٢٣).

بل إن داعية التلفزيون الإيفانجليكي (٢٤) جاري باوير يرى «أن انتشار الرأسمالية الأمريكية والدين الأمريكي عبر العالم، يعد مؤشرًا على اقتراب نهاية التاريخ، وعلى اقتراب تفويض يسوع المسيح بتنصيب كل الأمم قبل نهاية الزمان» (٢٥).

ومن العوامل الفاصلة التي أعطت البروتستانتية دفعة قوية قرار الملك هنري الثامن بقطع علاقة كنيسة إنجلترا مع البابوية، وتنصيب نفسه رئيسًا للكنيسة الإنجليزية، بسبب رفض البابا تطلق زوجته، والسماح له بالزواج بأخرى، الأمر الذي فتح المجال للمذهب الجديد ليكون العقيدة المهيمنة على بريطانيا ثم أمريكا الشمالية بعد ذلك.

أمريكا لم يعد الانغلاق البروتستانتي البيوريتاني ملائمًا، خاصة مع تمرد المستعمرات، وعدم قبول المستعمرين الجدد الخضوع لكنيسة إنجلترا. حدثت تنازلات فرضها الواقع، وخفتت من مسألة التعصب ضد المذاهب الأخرى، واضطرت الكنيسة إلى ضم أشخاص ما كان يسمح لهم سابقًا بمقتضى المعايير البيوريتانية القديمة.

وتطورت الأفكار البروتستانتية لاحتواء الآخرين، دون تنازل البروتستانت عن القيادة السياسية والدينية، إلى أن تحقق لهم الاستقلال الكامل عن بريطانيا. ولعبت الكنائس ورجال الدين في الثلاث عشرة مستعمرة بأمريكا الشمالية دورًا حيويًا في الثورة الأمريكية وحروب الاستقلال.

تداخلت الدوافع الدينية مع القضايا السياسية والاقتصادية. ومع ذلك «أدى عاملان محددان لهما علاقة مباشرة بالمؤسسات الدينية إلى التوتر بين المستعمرين وبريطانيا:

أولاً: خوف بعض المستعمرين من قيام بريطانيا بتعيين أسقف بروتستانتي إنجليزي للمستعمرات. كان هناك أناس كثيرون يخشون مثل هذا التحكم الخارجي في المؤسسات الدينية.

ثانيًا: تسبب قانون كويك عام ١٧٧٤ في حدوث ضجة بين العديد من المستعمرين، فبعد كسبهم كويك من الفرنسيين؛ نتيجة للحرب الهندية والفرنسية، توصل البريطانيون إلى اتفاق مع سكان كويك الكاثوليك الفرنسيين؛ منح هذا الاتفاق درجة من الاستقلال للكاثوليك، كما منحهم نفس الوضع الذي يتمتع به الكاثوليك في البلاد الكاثوليكية في أوروبا. ورأى العديد من المستعمرين البريطانيين هذا كتأسيس لدين مُعادٍ في المنطقة». (٣١)

استغل القادة الوطنيون الدين لإعطاء الثورة على

البيوريتان أو التطهريون (اسم مشتق من puritan، وهي كلمة تعني الطهر والنقاء في اللغة الإنجليزية) وهم «البروتستانت الذين أرادوا تطهير كنيسة إنجلترا، خلال الحكم العدائي للملك جيمس الأول وشارلز الأول؛ حيث رأى كثير من البيوريتان أنه من الأفضل لهم الذهاب إلى مكان آخر لممارسة معتقداتهم». (٢٧)

كان وصول البيوريتان الإنجليز إلى الشاطئ الأمريكي في الرحلة الأمريكية الشهيرة على مركب

ماي فلاور هو البداية لتأسيس

الدين في العالم الجديد. لقد كان البيوريتان ينظرون إلى أنفسهم من منطلق خاص بهم. فعلى غرار الخروج الجماعي في العهد القديم، والذي هرب فيه بنو إسرائيل من مصر، ورحلوا إلى الأرض الجديدة،

نظر البيوريتان لأنفسهم على أنهم الشعب المختار الجديد، ونظروا إلى العالم الجديد على أنه إسرائيل الجديدة.

اعتقد البيوريتان «أنهم يقومون بالدور الأخير في التاريخ البشري، وراحوا يؤيدون هذا المعتقد باستشهادات كثيرة من الكتاب المقدس، فاعتبروا أمريكا كنعان الجديدة، وعلى هذه الأرض الأمريكية ستقام الألفية التي يسود فيها السلام». (٢٨)

تجاوز تأثير البيوريتان مستعمرة خليج ماساشوستس، وتمدد وتوسع إلى معظم المستوطنات الأخرى. والثابت تاريخيًا أن «أكبر تأثير على التطور السياسي والديني لأمريكا جاء من بيوريتاني مستعمرة ماساشوستس» (٢٩)، كانت المستعمرات تابعة سياسيًا للتاج البريطاني في البداية، فقد «سيطرت الإمبراطورية البريطانية في نهاية القرن السابع عشر على جميع المستعمرات». (٣٠)

ومع تدفق المزيد من المهاجرين الأوروبيين إلى

رغم الفصل بين الدولة والكنيسة في الدستور الأمريكي، فإن الإشارات الدينية والتصريحات العقائدية تكاد تكون سمة مميزة لكثير من خطابات الرؤساء الأمريكيين

مع سقوط نيكسون الرئيس الأمريكي في فضيحة التجسس، وسقوط هيبة الأسرة والمجتمع مع شيوع الانحلال والفساد الأخلاقي؛ بسبب الموجة الليبرالية والشيوعية، وأيضًا سقوط صورة الترابط الاجتماعي مع ثورة السود التي قادها مارتن لوثر كنج، والتي نجحت في إلغاء التمييز العنصري، ويضاف إلى ذلك سقوط الهيبة العسكرية؛ بسبب النتائج الكارثية لحرب فيتنام. يضيف البعض إلى ما سبق فوز جون كينيدي كأول رئيس كاثوليكي يصل إلى هذا المنصب الذي يحتكره البروتستانت، وقد قتل كينيدي ولم يكمل مدته، ولا تزال علامات الاستفهام الكثيرة تحيط بهذا الاغتيال.

بدأت التوجهات الدينية الأمريكية تظهر بوضوح حتى باتت من أبرز معالم السياسة الأمريكية، خصوصًا مع فوز الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في السبعينيات وهو الذي عُرف بالتدين، وفوز رونالد ريجان في الثمانينيات والذي عُرف باهتمامه بالتقاليد المحافظة ودور الدين في استعادة هيبة أمريكا عالميًا، وبلغت القمة مع بداية الألفية الثالثة عندما سيطر المحافظون

إن سيطرة المحافظين الجدد على السلطة والتحكم في مفاصلها لم يتم من فراغ، وإنما جاء بعد فترة من العمل المنظم، كان أهم أسلحتهم التي أجادوا استخدامها هو الإعلام

الجدد على السلطة في كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتنصيب جورج دبليو بوش رئيسًا. إن سيطرة المحافظين الجدد على السلطة، والتحكم في مفاصلها لم يتم من فراغ، وإنما جاء بعد فترة من العمل المنظم، كان أهم أسلحتهم التي أجادوا استخدامها هو الإعلام. فقد «أسس القادة المحافظون شبكات الراديو والتلفزيون الخاصة بهم من أجل بث البرامج الدينية. أصبح الملايين من المحافظين والأصوليين البروتستانت مشاهدين بشكل منتظم، ثم أعضاء، وأخيرًا من مانحي المعونات لتلك البرامج» (٣٣)، وقد

الاستعمار البريطاني الهوية الدينية؛ خاصة أن العنصر البروتستانت في سكان المستعمرات كان هو الغالب. مع ما قد يبدو من تيارات علمانية تختلف بنسب متفاوتة حول بعض القضايا، فإن البعد الديني العام في الولايات المتحدة كان واضحًا في الوثائق التأسيسية للأمة كوثيقة الاستقلال والدستور الأمريكي، وتم تعزيزه من خلال الخطب الرئاسية.

رغم الفصل بين الدولة والكنيسة في الدستور الأمريكي فإن الإشارات الدينية والتصريحات العقائدية تكاد تكون سمة مميزة لكثير من خطابات الرؤساء الأمريكيين منذ الآباء المؤسسين للدولة الأمريكية وحتى الآن.

ومنذ إعلان الاتحاد فإن العائلات الأمريكية البروتستانتية الكبرى كانت موجودة ومؤثرة في المناصب السياسية؛ حيث «ترتكز السيطرة الثقافية

الواضحة للبروتستانت على قاعدة متينة من العائلات والمؤسسات الأمريكية الأكثر ثراء وعراقة.

عادة ما كان البروتستانت هم الأوائل في الاستيطان في كل مكان - تقريبًا - داخل المستعمرات الأمريكية، وكان

من الطبيعي للغاية أن يستحوذ ورثتهم على معظم مواقع النفوذ والتأثير». (٣٢)

ظل الدين مكونًا هامًا للمجتمع الأمريكي منذ التأسيس وحتى الآن، وكان منحى الأصولية الأمريكية يزيد وينقص، لكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو التركيز على تصاعد الاهتمام الديني مؤخرًا، والذي بدأ منذ السبعينيات، نظرًا لما ترتب عليه من تأثير مباشر ومتواصل على العالم الإسلامي.

تنامت الحركة الأصولية كرد فعل للتطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها أمريكا خلال فترة الستينيات، وشهدت تلك الفترة سقوط هيبة الدولة

وجاء جيمي كارتر الذي أعلن عن نفسه بوصفه «ولد من جديد» (٣٨)، وهو رجل دين «قام بالتدريس في مدرسة الأحد بشكل منتظم في الكنيسة المعمدانية الأولى بواشنطن خلال سنوات حكمه بالبيت الأبيض». (٣٩) بعد كارتر رأينا «الأصوليين المسيحيين، وهم يكتبون البرنامج الانتخابي للأجندة الاجتماعية لرونالد ريجان، وقد حاول ريجان بكل جهده تحقيق العديد من هذه الأهداف. والآن لدينا جورج بوش الذي قام بفضل المناخ العام الذي هيأه الأصوليون المسيحيون، بشن حملته الانتخابية بقوله: إنه كان يستجيب لاستدعاء إلهي». (٤٠)

ولم يخف الميل إلى استغلال الدين عند الرؤساء الأمريكيين، حتى الأشد علمانية منهم، فالرئيس كليتون صاحب الفضيحة الأخلاقية الشهيرة، والذي يعد من أعداء الأصوليين قال في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٩٧: «استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، دعونا نوجه أبصارنا إلى أرض ميعاد جديدة». (٤١) توضح مثل هذه الإشارات الرمزية المستقاة من العقيدة البروتستانتية أن القادة الأمريكيين بمختلف اتجاهاتهم يشعرون بالاستثنائية، وبالتميز عن باقي شعوب العالم؛ إذ تسيطر عليهم مشاعر الأفضلية المستمدة من أسطورة الشعب المختار التي شغلت الغربيين في السابق، ولا زال تأثيرها ساريًا، وإن كان بصيغ أخرى.

رابعًا: أسطورة الشعب المختار:

سيطرت فكرة الشعب المختار على الأوروبيين، وبسبب هذه الفكرة تعاملوا مع باقي الشعوب بعنصرية وبنظرة فوقية متعالية، إن فكرة الشعب المختار قديمة، تنازعها اليهود وأتباع المذاهب النصرانية. عندما اعتنقت أوروبا النصرانية، اعتبرت الكنيسة كل من يتبعها هم شعب الله المختار، ولا خلاص لأحد إلا بالخضوع لسلطة البابا، فالكاثوليك حتى زمن هنري الثامن اعتقدوا أنهم قد «أخذوا من اليهود مكانة شعب الرب». (٤٢)

استفاد المحافظون الجدد من تنامي التيار المحافظ، وحاولوا الركوب على هذه الموجة الدينية.

قاد هذه الحركة الدينية مجموعة من الوعاظ التلفزيونيين البارزين، وأهمهم جيرى فالويل، وبيلي جراهام، وأورال روبرتس، وبات روبرتسون، وجيمي سواجارت وآخرون.

مع تزايد الأنصار، واتساع القاعدة الشعبية زاد نفوذ الوعاظ الأصوليين الذين ييشون ببرنامجهم عبر التلفزيون، وتوسعت شعبيتهم، «الأمر الذي أتاح لبيلي جراهام الحصول على أول لقاء مع رئيس أمريكي، خلال فترة حكم ترومان في عام ١٩٥٠م. وبعد هذا اللقاء الأول كانت تتم دعواته بشكل متكرر إلى البيت الأبيض لمقابلة الرؤساء المتعاقبين: أيزنهاور، وجونسون، ونيكسون». (٣٤) واستمر بيلي جراهام كرجل الدين للرؤساء جميعهم حتى بداية فترة جورج بوش الأخيرة.

يرجع لهؤلاء الوعاظ الفضل في إحياء الحركة الأصولية الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين. وشكّلوا ما أطلق عليه الكنيسة الإلكترونية التي كانت مع نهاية عقد التسعينيات تضم «شبكة تكونت من ١٣٠٠ محطة راديو وتلفزيون، تدعي أن لديها جمهورًا يصل إلى ١٣٠ مليون مشاهد، وتفتخر بأن أرباحها تتراوح ما بين ٥٠٠ مليون دولار إلى البلايين من الدولارات». (٣٥)

سعى القادة الدينيون إلى التأثير على السلطة ولم يصطدموا معها، و«أظهر الأصوليون الأمريكيون مستوى عالٍ من النضوج، وتبنوا سياسة ترمي، ليس فقط لعدم تحدي النظام، ولكن في الواقع أن يصبحوا جزءًا منه، ومن ثم استخدامه لمصلحتهم». (٣٦) بالمقابل حرص القادة السياسيون على التواصل مع قادة المحافظين، للحصول على الأصوات في الانتخابات. فقد «جلب نيكسون رجال الكنيسة للبيت الأبيض خلال فترة رئاسته، حيث كانت تقام الصلوات بشكل معتاد في الحجرة الشرقية». (٣٧)

الزمان وإقامة حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص في الأيام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن في لندن بالتأكيد». (٤٩) بل إن هذه النسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطوري تمثلت فيما يسمى حركة الإسرائيليين البريطانيين، في القرن التاسع عشر بزعمها «أن البريطانيين كانوا نسلًا حقيقيًا جينيًا للقبائل الأسطورية العشر المفقودة من بني إسرائيل». (٥٠)

ثم تطورت فكرة الشعب المختار، وتحولت من العرق والمذهب إلى العرق والمذهب والجغرافيا مع انتقال البيوريتان الإنجليز إلى أمريكا؛ حيث انتقلت من بريطانيا إلى أمريكا، إلى المستعمرين الجدد، إلى الأراضي الأمريكية، حيث توافد البيوريتان الذين أسسوا أمريكا، واتفقوا على أنها كنعان الجديدة، وأن الأنجلوساكسون الأمريكيين هم شعب الله المختار المؤيد لإقامة مدينة الرب على الأرض.

لقد «تغلغل معنى الشعب الإلهي المختار في الخيال الأمريكي، واتخذ مسميات مختلفة. أسلوب الحياة الأمريكي، والقدر المبين، وتحولت الفكرة مع العلمانية المعاصرة إلى الاستثنائية الأمريكية؛ حيث يشعر الشعب الأمريكي دائماً أنه «استثناء من كل قواعد الكون، وأنه قادر على القيام بما يراه الآخرون مستحيلًا. ولذلك نشأت فكرة الاستثنائية في العقل الجمعي الأمريكي، وما يصاحب ذلك من الرغبة المستمرة في التجريب حتى إن كان ذلك يعني العبث بشعوب العالم». (٥١)

وهكذا فإن «تاريخ إنجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة». (٥٢) مع هذا، ورغم الخلافات التي قد تبدو بين الإنجليز وإخوانهم الأمريكيين حول بعض القضايا، فإن العرق والمذهب جعلاهما يسيران جنبًا إلى جنب في مواجهة التحديات الدولية.

وبسبب هذا الاختيار اضطهد الكاثوليك اليهود، ثم مارسوا أشد أنواع الاضطهاد ضد البروتستانت، وابتدعوا فكرة حرق الهراطقة، والتي بلغت ذروتها في محاكم التفتيش، التي اكنوى بها - بجانب المسلمين - اليهود والنصارى الخارجون على قوانين البابوية.

هذه الفكرة هي التي جعلت الأسباب يرتكبون جرائم الإبادة في المستعمرات، والتي «جعلت أحد الباباوات يتساءل: ما إذا كان الهنود يتمتعون بروح كالبيض؟». (٤٣)، وتعتبر «فكرة الشعب المختار أكثر الأفكار دموية في التاريخ، فقد أوحى إلى البيوريتان البروتستانت الإنجليز الذين وصلوا إلى أمريكا باستئصال الهنود». (٤٤)

مع ولادة البروتستانتية ادعى البروتستانت أن صفة الاختيار انتقلت إليهم، ودارت الدائرة على الكاثوليك مثلما تم مع اليهود؛ إذ «بعد الإصلاح الديني صارت ممارسة الكاثوليكية جريمة خطيرة في إنجلترا، وكانت عقوبة أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا هي الشنق والسحل وتقطيع الأطراف الأربعة». (٤٥)

وأسند البروتستانت الشر كله للكاثوليك، وأصبح «المذهب الكاثوليكي الروماني مؤامرة يقودها البابا لصالح الديانة الوثنية، والحكومة الفردية المستبدة الطاغية». (٤٦)

ومع الزمن انتقلت صفة الشعب المختار من الديانة إلى العرق، ففي القرن السابع عشر «كان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار». (٤٧) بل إن الإنجليز اعتقدوا أن «من يتحدى الرب يتحدى إنجلترا، ومن يتحدى إنجلترا يتحدى الرب». (٤٨)

إن «كون إنجلترا الشعب المختار لم تكن تعني فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى، وإنما كانت بالنسبة للإنجليز الذين كان لهم نفوذهم في السياسات الإنجليزية أمرًا لا يقل عن تحقيق نهاية

خامساً: علاقة الدين بالأحلاف العسكرية:

منذ اشتداد عود البروتستانتية، واستقرارها كمذهب قائد ومتحكم في دول شمال غرب أوروبا، ثم انتقالها إلى أمريكا برزت تكتل عقائدي ومحور ديني، يرتكز على المذهب والعرق الأنجلوساكسوني.

ومع توحيد بريطانيا وتحولها إلى المذهب البروتستانتية، ثم صعودها الإمبراطوري في القرنين التاسع عشر والعشرين، أصبح الأنجلوساكسون هم قادة الغرب. وعندما بدأت الشمس تغرب عن المستعمرات البريطانية، وتراجعت السطوة الإنجليزية بانتهاج الحرب العالمية الثانية، انتقلت قيادة الغرب إلى الولايات المتحدة التي يقودها الأنجلوساكسون الجدد، وقام البريطانيون اضطراراً بتسليم نفوذهم في قارات العالم إلى الأمريكيين.

مع انتقال قيادة الغرب من أوروبا إلى أمريكا بدأ التحرك البروتستانتية الأنجلوساكسوني أكثر انسجاماً وتنظيماً على الصعيد الدولي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. فقد بدأ الأنجلوساكسون يتحركون بقوة، وبدأ واضحاً أن الدول الخمس التي تنتمي

إلى هذا العرق، وتعتنق

ذات المذهب تشكل عصبه

فاعلة على صعيد العلاقات

الدولية. وهذه الدول هي

الولايات المتحدة الأمريكية،

المملكة المتحدة، كندا،

أستراليا، ونيوزيلندا. ورغم

الصبغة البروتستانتية للدول

الاسكندنافية، وألمانيا - بنسبة أقل - فإنهم ليسوا

أعضاء في المحور الذي تحدث عنه؛ لكونهم لا

يتمون للعرق الأنجلوساكسوني. وذات الأمر ينطبق

على أيرلندا التي تنتمي إلى العرق الأنجلوساكسوني،

ولكنها تدين بالكاثوليكية.

بمتابعة التطورات العالمية منذ الأربعينيات، نجد

أن حكومات الدول الخمس التي تشكل المحور الأنجلوساكسوني البروتستانتية تتعاون بدرجة ملفتة للنظر في كل الحروب، وتتساند داخل المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة وغيرها، وتتخذ معاً في التحالفات والحروب.

لقد أنشأ المحور البروتستانتية الأحلاف العسكرية المغلقة، أو بمشاركة دول أخرى دون التنازل عن القيادة والسيطرة. فقد أسست الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا حلف الأنزوس في سبتمبر ١٩٥١م بزعم الدفاع عن منطقة المحيط الهادي؛ وُقِّعت الاتفاقية في سان فرانسيسكو، وأصبحت سارية في ٢٩/٤/١٩٥٢، وكانت تهدف إلى حماية مصالح الدول الثلاث في منطقة الباسيفيك. يتكون مجلس إدارة هذا الحلف من وزراء الخارجية للدول الثلاث. (٥٣)

ثم أنشئ حلف جنوب شرق آسيا امتداداً لحلف الأنزوس، الذي أسسته الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا، وانضمت إليه كل من فرنسا وباكستان والفلبين وتايلند. وقد انسحبت باكستان بعد ذلك عندما رفض الحلف مساعدتها في حربها مع الهند عام ٧١. (٥٤)

وبذات الدوافع وقف الأنجلوساكسون وراء حلف بغداد الذي أنشئ في ١٩٥٥ لمواجهة الاتحاد السوفيتي، وضم العراق (في عهد عبد الكريم قاسم) وتركيا بجانب بريطانيا، والذي رفضت

الدول العربية خاصة مصر وسوريا الانضمام إليه؛ «لقناعة هذه الدول الصحيحة بأن مصدر الخطر الحقيقي على المنطقة يتأتى من إسرائيل وحلفائها، الذين يقفون وراء الحلف، وليس من الاتحاد السوفيتي الذي كان قد بدأ يصبح المزود الوحيد للدول العربية لمواجهة إسرائيل بالسلاح والعتاد،

مع انتقال قيادة الغرب من أوروبا إلى أمريكا بدأ التحرك البروتستانتية الأنجلوساكسوني أكثر انسجاماً وتنظيماً على الصعيد الدولي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي

العلاقات الدولية

يعد النظام الاستخباراتي «إيشلون» من المشروعات المشتركة التي يظهر فيها روح التنسيق المذهبي، فهو أهم المحطات التجسسية، التي تربط أجهزة الاستخبارات في دول المحور الأنجلوساكسوني، وهو أكبر نظام تجسس في العالم. هذا النظام يعترض المكالمات والفاكسات ورسائل البريد الإلكتروني، والاتصالات الهاتفية من خلال أكبر شبكة من الأقمار الاصطناعية وتكنولوجيا التجسس المتطورة. ومن الثابت أن عمليات «إيشلون»

رغم أن أجهزة الاستخبارات الغربية تتعاون فيما بينها، إلا أن دول المحور الأنجلوساكسوني لها ارتباطاتها المغلقة

تغطي كافة أنحاء العالم، وطبقًا للتقارير، ومنها التقرير الذي أصدرته اللجنة التي شكّلها الاتحاد الأوروبي، فإن «بإمكان إيشلون اعتراض وتعقب أكثر من ثلاثة بلايين عملية اتصال يوميًا، وتشمل كل شيء من المكالمات الهاتفية العادية والجوالة، واتصالات الإنترنت، وانتهاء بالاتصالات التي تتم عبر الأقمار الاصطناعية». (٥٧)

ومن اللافت للنظر أن محطات إيشلون تنتشر في الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا. وإزاء تمدد هذه الشبكة وإمكاناتها شعرت الدول الأوروبية بالخطر والانعراج، وتم تشكيل لجنة خاصة لدراسة الأضرار المترتبة على هذا النظام التجسسي. وقامت اللجنة بعد فترة من البحث والدراسة بإصدار تقرير في ٢٠٠١ أكد خطورة هذه الشبكة على الشعوب الأوروبية، وتعارضها مع الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان وتهديد الحياة الخاصة. ومن أبرز ما ركز عليه التقرير الأضرار الاقتصادية المترتبة على ما يجمعه هذه النظام التجسسي من بيانات ومعلومات اقتصادية حول الصفقات والأسواق بما يؤثر على المنافسة بين الشركات الأوروبية والأمريكية، وحث التقرير من عواقب تسريب هذه المعلومات إلى الشركات في الدول الخمس التي تدير هذه المحطة التجسسية،

والذي أقيم الحلف واقعيًا لمواجهة دون سواه. ولم تنضم حكومة الولايات المتحدة إلى الحلف بصورة كاملة - في البداية - رغم أن دورها في التحريض على إنشائه أوضح من أن يُشرح، واقتصرت مشاركتها على الانضمام إلى عضوية لجنة مكافحة النشاط الهدام، وكذلك اللجنة الاقتصادية والعسكرية التابعة للحلف، وقد استمر ذلك حتى عام ١٩٥٩، وبعد ثورة العراق أصبحت أمريكا عضوًا عاملًا كامل العضوية في هذا الحلف». (٥٥)

وخشية النفوذ السوفييتي تحالف المحور البروتستانت مع الدول الكاثوليكية، واتحدوا لمواجهة الاتحاد السوفييتي، وأنشأوا حلف الأطلنطي لمواجهة الشيوعية.

وكانت المظلة العسكرية لحلف الأطلنطي هي المدخل لهيمنة المحور الأنجلوساكسوني على دول أوروبا والغرب عمومًا، وتسخير الحلف وفقًا للسياسة العسكرية التي يضعها هذا المحور الديني، فمن وجهة نظر الولايات المتحدة «كانت الحرب ضد السوفييت حربًا صليبية خيرة صالحة ضد الشيوعية». (٥٦)، ورغم ما قد يبدو من خلافات بين الأمريكيين وباقي دول الحلف؛ فإن الولايات المتحدة - بسبب نفوذها والتأييد البريطاني - تجر الحلف للمشاركة في حروبها، وقد نجحت في توريث الحلف في معاركها بدرجات متفاوتة.

سادسًا: التعاون الاستخباري وأثر المذهب الديني:

رغم أن أجهزة الاستخبارات الغربية تتعاون فيما بينها، إلا أن دول المحور الأنجلوساكسوني لها ارتباطاتها المغلقة، الخاصة بها، والتي تعمل لتحقيق الاستراتيجيات التي تخدم مصالح هذا الحلف العقائدي.

تقدر نسبة البروتستانت في دول المحور الأنجلوساكسوني بنحو ٣, ٣٪ من سكان العالم، وتضم هذه النسبة طوائف بروتستانتية لا تتبنى الأفكار المتطرفة في تفسير الأطروحات الرؤيوية، وإذا أخذنا ما حصلت عليه إدارة بوش في انتخابات الرئاسة كمؤشر وهو نصف الأصوات + بضعة مئات، سنجد أننا أمام مجموعة محاربة تتراوح بين ١٪ : ٢٪ من سكان العالم، لكن يبدو من المشهد أن هذه المجموعة تحظى بتأييد الحكومات الغربية في حروبها ضد المسلمين، وإن كان بنسب متفاوتة للأسباب التي أشرنا إليها سابقاً المرتبطة بالنزعة العدوانية لهذه الحكومات بدافع من طبيعة الصراع قبل أن تكون بسبب العقائد التي يتبعونها.

إن دراستنا للغرب وفهم طبائع وعقائد الغربيين تساعد في بلورة استراتيجيات التعامل مع هذا الكيان بما يفيد الأمة، ويوفر الجهود التي تبذل في اتجاهات شتى لا تفيد. وهذه الاستراتيجيات تحتاج إلى جهود جماعية لوضع تخطيط مؤسس على علم ودراسة.

وفي هذا الاتجاه فإننا نطرح بعض الأفكار التي تساعد في تشكيل استراتيجية واقعية للتعامل مع الغرب على النحو التالي:

١- تشكل الأفكار البروتستانتية المتطرفة خطراً على المسلمين، بسبب العقيدة القائمة على إشعال الحروب من أجل العودة الثانية للمسيح. ولهذا فإن التيار الغربي المتطرف سيعمل على زيادة الاعتداءات الغربية التي ستتصاعد وستتسع رقعتها؛ لكونها ضرورة ولازمة لإقامة مملكة الرب كما يزعمون. وهذه العقيدة لا تعرف الحوار مع الآخرين؛ لكونها عقيدة محاربة تؤمن بالسلاح كحل وحيد في تعاملها مع الغير.

٢- يستفيد اليهود من تفوق الأنجلوساكسون البروتستانت، لكن رغم التأثير الصهيوني فإن اليهود ليسوا هم الذين يحركونهم، وإنما تلقت أهداف الطرفين، فالأنجلوساكسون يعتقدون أن

واقترح التقرير الكثير من التوصيات لمواجهة هذا التجسس. (٥٨)

سابعاً: كيف نتعامل مع ظاهرة الصعود

الديني في الغرب:

يعاني العالم الإسلامي من إشكالية عدم وضوح الرؤية في التعامل مع الغرب منذ ضعف وسقوط الخلافة. فالدولة الإسلامية عبر التاريخ كانت على دراية كاملة بمنافسيها، وعرفت كيف تتعامل معهم بالأسلوب الذي يجدي. لقد كانت الخلافة هي القوة الوحيدة التي استطاعت أن تردع أوروبا، وتمنعها من ممارسة ظلمها والتنفيس عن غريزة العداة ضد الآخرين قرونًا طويلة. ومع حالة انكسار الأمة الإسلامية، بدأ الغرب في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين.

عقب غياب الخلافة الإسلامية، فُتح الباب أمام الحملات التنصيرية لنشر التعاليم النصرانية في العالم، ورغم أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً الآن، إلا أن التنصير المدعوم عسكرياً ومالياً نجح في القرنين الماضيين في الوصول إلى العديد من مناطق العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وتنافست الطوائف النصرانية لاقتسام العالم، وأصبحت الإرساليات التنصيرية في كل الدول تقريباً.

تشير الإحصاءات إلى أن نسبة المسيحيين في العالم تبلغ ٣٣, ٠٣٪ (منهم ١٧, ٣٣٪ كاثوليك، و٥, ٨٪ بروتستانت، و٣, ٤٢٪ أرثوذكس، و١, ٢٣٪ إنجليكان) وتبلغ نسبة المسلمين ٢٠, ١٢٪، والهندوس ١٣, ٣٤٪، والبوذيون ٥, ٨٩٪، السيخ ٣٩, ٠٪، اليهود ٢٣, ٠٪، ديانات أخرى ١٢, ٦١٪، بلا دين ١٢, ٠٣٪، ملاحظة ٣٦, ٢٪. (٥٩)

وفي إحصائية أخرى، تمثل المسيحية ٣٣٪ من سكان العالم، يليها الإسلام بنسبة ٢١٪، ثم الذين لا يعتقدون أي دين ١٦٪، الهندوس ١٤٪، ديانات بدائية ٦٪، البوذيون ٦٪، ديانات صينية تقليدية ٦٪، اليهود ٢٢, ٠٪، السيخ ٣٦, ٠٪. (٦٠)

٣- قد يختلف المتدينون الغربيون، وينقسمون إلى مذاهب دينية شتى، ولكن في المعركة مع الإسلام يتحدثون جميعاً ضد المسلمين. قد يختلفون في طرق إخضاع المسلمين والسيطرة عليهم، لكنهم يتفقون على منع إقامة الدولة الإسلامية الكبرى مرة أخرى. وبالتالي فإن اختلافاتهم أحياناً ليست إلا خلافات في الوسائل، وليست خلافات متعلقة بالغايات.

رغم كل ذلك، علينا أن نستفيد من الخلافات المذهبية بين الغربيين، في حدود الممكن واغتنام الفرص، حتى وإن كانت محدودة، والتي تنتج عن التناقضات بين مذاهب ومصالح تلك الدول. لكن يجب تحديد نقاط التواصل مع الدول والكيانات، كل وفق معتقداته وتماص مصالحه مع الأمة. إن الدول الأرثوذكسية مثل روسيا وحلفائها في البلقان تختلف عن الدول

علينا أن نستفيد من الخلافات المذهبية بين الغربيين، في حدود الممكن واغتنام الفرص، حتى وإن كانت محدودة، والتي تنتج عن التناقضات بين مذاهب ومصالح تلك الدول

الأوروبية الكاثوليكية. وكلا المجموعتين تختلفان بقدر ما عن الدول البروتستانتية، خاصة المحور الأنجلوساكسوني، مع مراعاة أن التعميم ليس صائباً في كل الأحوال داخل كل مجموعة، ولا يتخذ منحنى واحداً في كل الأوقات.

إن فهم الخلافات المذهبية بين الدول الغربية يفيد في تحديد شكل التعامل مع هذه الدول، وإذا كان الأميون والعباسيون قد فهموا نزعة العدوان الأوروبية وقهروها بالجهاد، وحصروا الغربيين في أوروبا؛ فإن العثمانيين أفضل من استثمار هذه الخلافات عن علم ودراية وتخطيط. فقد استغلوا الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية في روما والكنيسة الأرثوذكسية في الدولة البيزنطية؛ مما جعلهم يفتحون القسطنطينية ويسقطون الإمبراطورية البيزنطية.

وبسبب إدراك التناقضات واصل العثمانيون زحفهم غرباً مستغلين الخلاف على الزعامة بين الملوك

اليهود سيعتقون المسيحية بعد عودة المسيح، ويرون أن الدفع باليهود إلى فلسطين يسرع من تنفيذ خطة الرب.

يرى البروتستانت أن لليهود دوراً حاسماً في تحقيق نبوءة نهاية الزمان كما أشار لها (الكتاب المقدس) بعودتهم إلى فلسطين، واستقرارهم مرة أخرى في الأرض التوراتية، وإعادة بناء القدس وبناء الهيكل الثالث في الموضع الذي يشغله المسجد الأقصى وقبة الصخرة. إنهم يعتقدون أن إنشاء إسرائيل مقدمة ضرورية لسيناريو النهاية، ومن أجل هذا قادر موز

البروتستانت حركة إعادة اليهود إلى فلسطين بحماس يفوق حماس اليهود أنفسهم. فقد «حاجج الداعية البريطاني إيرل شافتسبري في سنة ١٨٣٩م أن اليهود لا بد أن يعودوا إلى فلسطين قبل المجيء الثاني للمسيح، وفي ظل تأثيره أقامت

الحكومة البريطانية قنصلية في القدس، وكان القنصل الإنجليزي المعين بروتستانتياً متديناً، وكان هو أول من عزز فكرة فرض الحماية البريطانية على فلسطين؛ للدفاع عن عشرة آلاف يهودي كانوا يعيشون فيها بالفعل، وليكون لبريطانيا قاعدة استراتيجية في قلب الإمبراطورية العثمانية». (٦١)

إن وعد بلفور جاء تويجاً للأفكار البروتستانتية المتطرفة، وترجمة مباشرة لعقيدة الأنجلوساكسون في بريطانيا وأمريكا، وليس فقط تحقيقاً لأمنيات اليهود. ولأن هذه الاتجاهات نابعة من العقيدة فإن بعض هذه الأفكار الرئويوية تظهر في الثقافة والفنون؛ حيث «تشكل مادة لكثير من الأفلام السينمائية والروايات - غزو الفضاء، ونجوم وشهب تدمر الأرض، ناطحات سحاب تمحوها النيران، مدن تجتاحها العناكب الضخام، أناس مشوهون لبقائهم على قيد الحياة بعد حروب نووية». (٦٢)

البعض، وإنما علينا أن نقوي الذات، ونبني قوتنا، فالعالم لن ينصلح حاله إلا بعودة المسلمين كأمة قائدة، ولن يتحرر المسلمون بالارتقاء في أحضان الأقطاب الأخرى.

٥- لن تستعيد الأمة قوتها إلا بإعادة الاعتبار إلى العقيدة كمصدر رئيس للنهضة. علينا مواجهة الغرب بعقيدتنا. لم يعد من المقبول ما يدعو إليه بعض المحسوبين على الأمة بأن تتجرد من ديننا في مواجهتنا مع الغرب في وقت يهاجمنا الغربيون بكل أسلحتهم.

يجب نقل الأمة من حالة الدفاع إلى حالة المواجهة لكسر الهجمة الغربية، وهذه النقلة تحتاج إلى تضافر جهود الأمة في شتى المجالات. وتتيح التطورات الجارية

عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا، ولا يردعهم أن نواجههم فرادى

إمكانية حدوث ذلك؛ خاصة مع فشل العسكرية الأمريكية في فرض مشروعها الإمبراطوري بقوة السلاح؛ بسبب اتساع مناطق القتال مع المسلمين التي أضعفت الغزاة وولدت الطاقات الكامنة في الأمة.

ولكي تستطيع الأمة ذلك فإنها تحتاج إلى رأس قيادي، فهذا الجسد الضخم مزقه الأعداء؛ بسبب غياب الرأس التي تخطط وتقود. والرأس لا تعني دولة بمفردها أو جماعة إسلامية مهما كانت قوتها، عالم اليوم لا يعرف الأقطار المعزولة ولا الكيانات الصغيرة، ولا الجماعات المحاصرة. إن الأعداء يواجهوننا جميعًا، ولا يردعهم أن نواجههم فرادى.

إن المعركة التي يخوضها الغرب تهدف أساسًا لمنع المسلمين من تكوين هذه الرأس. إذن فإن إعادة بناء رأس للأمة هو التحدي الحقيقي لحصد نتاج حالة المقاومة واليقظة التي باتت ظاهرة مشهودة في أنحاء الجسد الإسلامي.

الأوروبيين، خاصة الفرنسيين والأسبان والإنجليز، ثم الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت. إن فهم التناقضات بين الأوروبيين وحده ما كان يجدي لولا قوة العثمانيين عقديًا واقتصاديًا وعسكريًا. إن قوتهم هي التي كانت تدفع ملوك وأمراء أوروبا للاستقواء بالخليفة المسلم في صراعاتهم مع بعضهم البعض، وكان منهم من يدفع الجزية كل عام للخليفة، ويقدم الهدايا استرضاءً للباب العالي.

وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من الخلاف بين أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية من ناحية، وبين

الأرثوذكسية الشرقية المتمثلة في روسيا التي انتقلت إليها زعامة الأرثوذكس بعد سقوط القسطنطينية من ناحية أخرى.

وهذا الخلاف تاريخي

منذ اجتياح الحملة الصليبية الرابعة للإمبراطورية البيزنطية واحتلال الصليبيين الكاثوليك للقسطنطينية (١٢٠٤م) ونهبها، واستباحة سكانها الأرثوذكس. منذ ذلك الوقت فشلت كل محاولات الكاثوليك للسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية أو المصالحة معها، والتي كان آخرها زيارة البابا بندكت السادس عشر لتركيا في ديسمبر ٢٠٠٦، والتي كان الهدف الرئيسي منها المصالحة بين الفاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية.

٤- بشكل استراتيجي، لا بد من تغيير الاتجاه «غربًا»؛ لأنه يتناقض مع مصالح الأمة الإسلامية وعقيدتها؛ لكون ذلك يصب في استمرار التبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول الغربية، ويعمق أزمة الأمة. إن تغيير الاتجاه أصبح واجبًا تفرضه العقيدة وتقتضيه المصلحة. وليس المقصود هنا استبدال الشرق بالغرب - وإن كان هذا مفيدًا مرحليًا - إنما بإعادة اكتشاف طاقات الأمة الكامنة والاعتماد على الذات في كل المجالات، والجهاد من أجل ذلك. لا يشغلنا تقوية الأقطاب كما يدعو

الخلاصة:

إن الغرب كيان يميل إلى الصراع، يتحرك بدافع من اتجاهات عدوانية أضفى عليها المشروعية الأخلاقية من خلال عقيدة؛ تبذلت عبر التاريخ، وانقسمت مذهبياً داخل أوروبا. لقد واجه المسلمون المذهب الأرثوذكسي الذي اعتنقته الإمبراطورية البيزنطية، ثم الكاثوليكية في الحروب البابوية الصليبية، تلاها الكاثوليكية والبروتستانتية في الحملات الاستعمارية، والآن لازالت الأمة الإسلامية تواجه الحروب العدائية التي يقودها البروتستانت المتحالفون مع اليهود في حروب أكثر اتساعاً وأشد دماراً.

ما نراه اليوم من حروب ضد العالم الإسلامي إنما هو نتيجة للأفكار العدائية المنبثقة من العقيدة التي ترى أن خلاص الغرب المتدين إنما يكمن في شن حروب نهاية الزمان.

لا يمكن فهم التحركات الغربية دون فهم طبيعة العقلية الغربية التي تتخذ من الدين ستاراً للتنفيس عن عقدة الصراع مع الآخرين، التي ارتبطت بالشعوب الغربية تجاه بعضهم البعض وتجاه الآخرين، وإن لم نفهم طبيعة الأفكار الدينية في تشكيل وتوجيه الغرب لن نستطيع أن نضع أيدينا على الطريق الصحيح لمواجهة العدوان، ولن نستطيع فهم البوصلة التي تحدد توجهات السياسات الغربية.

علينا أن نتعلم من تجربة المسلمين الأوائل الذين عرفوا كيف يتعاملون مع أوروبا، بما حمى الأمة وباقي العالم من شرور الغرب.

إن لم نحذ حذو من سلف من أبناء الأمة الإسلامية الذين دان لهم العالم قروناً طويلة، فلا مخرج للأمة من حالة الانهزام والحصار والتبعية التي أنهكت قوة المسلمين وكبلتهم، وجعلتهم عرضة لمذابح لا تتوقف.

الهوامش:

- (١) صفة للعرق الأنجلوساكسوني الذي استوطن إنجلترا ثم انتقل إلى أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلاندا، ويتكون الأنجلوساكسون من قبائل الأنجلز والساكسون التي غزت بريطانيا في القرن الخامس الميلادي، واستقرت بها.
- (٢) الإحصاءات الواردة هي من موقع <http://geohive.com>، وقد تم جمعها في شهر سبتمبر عام ٢٠٠٦م.
- (٣) لمزيد من التفاصيل انظر عامر عبد المنعم، الغرب أصل الصراع، العدد الثاني من سلسلة رؤى معاصرة، القاهرة، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٦م.
- (٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، الجزء الثالث، ط١، القاهرة، مكتبة الصفا ٢٠٠٢، ص ٢١٠.
- (٥) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة ١٩٨٩، ص ١١.
- (٦) أندرو ملر، مختصر تاريخ الكنيسة، ط٤، القاهرة، مكتبة الأخوة ٢٠٠٤، ص ٢٦١.
- (٧) المرجع السابق، ص ٣٢٧.
- (٨) المرجع السابق، ص ٢٦٨.
- (٩) د/ عبد العزيز سليمان نوار، ود/ محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتي نهاية الحرب العالمية الأولى، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٩٩، ص ٦٠.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٥٩.
- (١١) مايكل نورثكوت، الملاك بوجه العاصفة، ط١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٢٢.
- (١٢) المرجع السابق، ص ٨٩.
- (١٣) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي، ط١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ١٦٥.
- (١٤) بيتر سكاون، أمريكا: الكتاب الأسود، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ٢٠٠٣، ص ٧٢.
- (١٥) المرجع السابق، ص ٨٥.
- (١٦) الموسوعة العربية العالمية : (<http://www.mawsoah.net>)
- (١٧) د/ عبد العزيز صقر، الدين والدولة في الواقع الغربي، ط١، القاهرة، دار ومكتبة العلم للجميع ١٩٩٨، ص ٤٠.
- (١٨) المرجع السابق، ص ٤٠.
- (١٩) الموسوعة العربية العالمية. مرجع سابق.
- (٢٠) ويل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد السادس ص ٢٧٧.
- (٢١) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي، ط١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ٥٤.

- (٢٢) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط ١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٧٢.
- (٢٣) المرجع السابق، ص ٧٦.
- (٢٤) الإيفانجيليكي - حسب جورج م. مارسدن في كتابه «كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيفانجيليكية» - هو الأصولي المقاتل في مواجهة علم اللاهوت الليبرالي في الكنائس، أو ضد التغيرات في القيم الثقافية والأعراف، ويطلق المصطلح أيضًا على أتباع الدعاة التلفزيونيين من المحافظين الجدد مثل بيلي جراهام الذين حولوا الجماعات الدينية إلى قوى سياسية لها نفوذ على صنع القرار السياسي، وتأثير قوي في الانتخابات الأمريكية.
- (٢٥) مايكل نورثكوت، المرجع السابق، ص ٥٣.
- (٢٦) ويكيبيديا (<http://ar.wikipedia.org>)
- (٢٧) مايكل كوربت وجوليا كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، ط ١، الجزء الأول، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٢، ص ٤٣.
- (٢٨) المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٢٩) المرجع السابق، ص ٥١.
- (٣٠) المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٣١) المرجع السابق، ص ٦٨.
- (٣٢) جورج مارسدن، كيف نفهم الأصولية البروتستانتية والإيفانجيليكية، ط ١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٥، ص ٢٥.
- (٣٣) د/ محمد عارف، صعود البروتستانتية في أمريكا وتأثيره على العالم الإسلامي، ط ١، القاهرة، الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ٦٥.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ٦٦.
- (٣٥) المرجع السابق، ص ٨٨.
- (٣٦) المرجع السابق، ص ٧٠.
- (٣٧) المرجع السابق، ص ١٨٧.
- (٣٨) مصطلح يشبه التوبة عند المسلمين، يطلق علي من ينضم إلى حركة المحافظين الجدد، وهو يعني أنه دخل في الإيمان من جديد.
- (٣٩) د/ محمد عارف، صعود، مرجع سابق، ص ١٨٧.
- (٤٠) المرجع السابق، ص ١٨٧.
- (٤١) مايكل كوربت وجوليا كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، ط ١، الجزء الأول، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٢، ص ٥٠.
- (٤٢) كليفورد لونجلي، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، دار الشروق، الجزء الثاني ص ٢٧.
- (٤٣) روجيه جارودي، الإرهاب الغربي، ط ١، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٤، ص ٦٧.
- (٤٤) المرجع السابق، ص ١٧.
- (٤٥) كليفورد لونجلي، ص ١٥.
- (٤٦) المرجع السابق، ص ٧٥.
- (٤٧) المرجع السابق، ص ٢٥.
- (٤٨) المرجع السابق، ص ٢٥.
- (٤٩) المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٥٠) المرجع السابق، ص ١٠٦.
- (٥١) د/ باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية، ط ١، القاهرة، المركز العربي للدراسات الإنسانية ٢٠٠٥، ص ٥٦.
- (٥٢) كليفورد لونجلي، ص ١٣٥.
- (٥٣) (<http://uk.encarta.msn.com>)
- (٥٤) د/ محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، الكويت، العدد ٧ من سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨، ص ٤٦.
- (٥٥) المرجع السابق، ص ٥٠.
- (٥٦) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط ١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٤٩.
- (٥٧) ويكيبيديا.
- (٥٨) The existence of a global system for the interception of private and commercial communications (ECHELON interception system (INI) ٢٠٩٨ / ٢٠٠١
- تقرير البرلمان الأوربي صدر في ١١ يوليو ٢٠٠١.
- (٥٩) الكتاب السنوي لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية fact book
- (٦٠) المصدر: (<http://www.adherents.com>)
- (٦١) مايكل نورثكوت، الملاك يوجه العاصفة، ط ١، القاهرة، الشروق الدولية ٢٠٠٦، ص ٨٤.
- (٦٢) المرجع السابق، ص ٢١.

معلومات إضافية

مارتن لوثر (Martin Luther):

مصلح ديني مسيحي شهير، ومؤسس المذهب البروتستانتي المسيحي.

مولده:

ولد في إيسلين في شمالي ألمانيا يوم ١٠ نوفمبر ١٤٨٣، وتوفي في نفس البلدة في ١٨ فبراير ١٥٤٦. كان أبوه عامل مناجم. وتعلم في مدارس مجدبورج وايزناخ.

تعليمه:

في سنة ١٥٠١ دخل جامعة ارفورت، وحصل على الإجازة الجامعية في سنة ١٥٠٥، ويقول عن نفسه: إن قسوة أبيه عليه حملاه على دخول الدير الأوغسطيني في ارفورت سنة ١٥٠٥. وفي سنة ١٥٠٧ رُسم قسيساً، وفي سنة ١٥٠٨ قام بتدريس الفلسفة في [جامعة فتنبرج]، وتولى شرح كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» لأرسطو، واستمر في ذلك عامي ١٥٠٨ - ١٥٠٩.

بداية دعوته:

في سنة ١٥١١ سافر إلى روما، وهذه الرحلة هي التي غيرت مجرى حياته، ولما عاد منها بدأ سيرته مصلحاً للدين المسيحي. وكان البابا في روما، في أشد الحاجة إلى المال، ولم يجد سبيلاً للحصول عليه إلا عن طريق إصدار وبيع صكوك الغفران، وكان يطلب إلى الناس شراءها ليغفر الله ذنوب أقربائهم، أو من يشاؤون ممن يعذبون في المطهر؛ بسبب ما اقترفوه من ذنوب. وكان يشرف على هذه العملية راهب دومينيكي يدعى يوحنا تتسل، وذلك في سنة ١٥١٦، فراح يروج لها بطرق ظاهرة أثارت ثائرة مارتن لوثر، فأصدر لوثر بياناً يحتوي على ٢٥ قضية ضد صكوك الغفران. ولصق البيان على باب كنيسة فتنبرج، في يوم ٣١ أكتوبر ١٥١٧، فسافر تتسل إلى فرانكفورت، وأصدر من هناك بياناً فُتد فيه قضايا لوثر الـ ٢٥، وقام بإحراق بيان لوثر علناً، فانتقم الطلاب في فتنبرج فأحرقوا بيان تتسل.

المواجهات:

في سنة ١٥١٨ انضم ملانكتون إلى لوثر. وتدخل البابا ليو العاشر (Leo X) في النزاع، فاستدعى لوثر إلى روما سنة ١٥١٨؛ لاستجوابه في أمر قضاياها تلك. فتدخلت الجامعة كما تدخل نائب سكسونيا، وأخفقت المفاوضات التي أجراها الكردينال كاجتان وملتس.

وفي سنة ١٥٢٠ نشر لوثر نداء الشهير الموجه إلى «النبلاء المسيحيين في ألمانيا» وتلاه برسالة عنوانها: «في الأشر البابلي للكنيسة». وفي كليهما هاجم المذهب النظري لكنيسة روما، فأصدر البابا ليو العاشر مرسوماً ضد لوثر يحتوي على ٤١ قضية. لكن لوثر أحرق المرسوم علناً أمام جمع حاشد من الأهالي والطلاب والعلماء في مدينة فتنبرج.

وامتد الهيجان إلى سائر ألمانيا فدعا الإمبراطور كارل الخامس (شارلكان) إلى عقد مجمع في مدينة فورمس في سنة ١٥٢١ وأصدر المجمع قراراً بتدمير كتب لوثر، وأمر لوثر بالمثل أمام هذا المجمع، وصدر قرار بنفيه من سائر بلاد الإمبراطورية الألمانية.

وفي سنة ١٥٢٢ لما قامت الاضطرابات الشهيرة، عاد مارتن لوثر إلى فتنبرج، وأعلن سخطه على الثائرين، كما أعلن سخطه على الطغاة. وفي نفس السنة كتب ردّه الحاد على ملك إنجلترا هنري الثامن، حول الطقوس السبعة.

تلخص إصلاحات لوثر في الكنيسة الكاثوليكية، وإنشاؤه الكنيسة البروتستانتية على أسس:

- ١- إلغاء غفران القسيس للذنوب، وحرق صكوك الغفران، وبالتالي إلغاء تكسب الكنيسة من الشعب.
- ٢- المطالبة بزواج الكهنة والقسس، وقام بالزواج من إحدى الراهبات.
- ٣- إلغاء القداس الإلهي، وغفران القسيس لذنوب الميت؛ حيث لا يغفر الذنوب إلا الله.
- ٤- إلغاء تحويل القسيس للخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه؛ باعتبارها عملية نصب.

جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤م) :

ساعد على تأسيس البروتستانتية في جنيف وسويسرا، ووجّه جهوده لتحويل الفرنسيين ومواطني الدول الأخرى في أوروبا الغربية إلى البروتستانتية. وقد وضعت تعاليم كالفن الأسس للكنيسة المشيخية التي يقوم مجلس من الشيوخ بإدارة كنائسها، وقدم كالفن بطريقة منظمة تعاليم البروتستانتية في كتابه مبادئ الدين النصراني، الذي نشر لأول مرة عام ١٥٣٦م، وقد سُمي أتباع كالفن في فرنسا الهجنوت. وقد حاول ملوك فرنسا الكاثوليك بدعم من أسبانيا قمع الهوغونيين في سلسلة من الحروب الدينية بين عامي ١٥٦٢-١٥٩٨م، وقتل الآلاف منهم، ولكن البروتستانتية استمرت أقلية دينية حتى في فرنسا.

حركة الإصلاح في إنجلترا:

أسست حركة الإصلاح في إنجلترا عن طريق الدولة. وقد كان السبب المباشر في انشقاق إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية رفض البابا كلمنت السابع، زواج الملك هنري الثامن من

زوجته الأولى كاترين الأرجوانية التي لم تلد له ابناً. وقد أراد الملك الزواج من آن بولين على أمل أن تُنجب له وريثاً للعرش.

في عام ١٥٣٤م أجاز البرلمان الإنجليزي قانون سيادة أصبح بموجبه الملك رئيس الكنيسة في إنجلترا. وقد ظل الملك هنري الثامن كاثوليكياً في الأساس. ولكن البروتستانتية تقدمت كثيراً في عهد ابنه إدوارد السادس. وأسست الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ - ١٦٠٣م) شكلاً معتدلاً من البروتستانتية عرفت فيما بعد بالأنجليكانية. وقد سمي أتباع جون كالفن بالتطهريين. عادى التطهريون الإنجيلية؛ لأنها أسقفية يديرها الأساقفة، بينما يفضل التطهريون الشكل المشيخي لإدارة الكنيسة (من جانب كبار الشيوخ النصارى).

وفي أسكتلندا قدم جون نوكس تعاليم كالفن ونظام الكنيسة المشيخية: وفي عام ١٥٦٠م اتخذ الأسكتلنديون البروتستانتية ديناً للدولة، وقد أجبرت إنجلترا أيرلندا على تبني البروتستانتية ديناً للدولة. ولكن الأيرلنديين ظلوا مخلصين للكاتوليكية. استعمر البروتستانت أيرلندا الشمالية المعروفة بالستر، ولا يزال الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت دائراً فيها حتى اليوم.

الحروب الصليبية :

شهدت مدينة «كليرمون» الفرنسية حدثاً خطيراً في (٢٦ من ذي القعدة ٤٨٨هـ - ٢٧ من نوفمبر ١٠٩٥م) كان نقطة البداية للحروب الصليبية؛ حيث وقف البابا «أوربان الثاني» في جمع حاشد من الناس يدعو أمراء أوروبا إلى شنّ حرب مقدسة من أجل المسيح، وخاطب الحاضرين بلغة مؤثرة تكسوها الحماسة، ودعاهم إلى تخلص الأرض المقدسة من سيطرة المسلمين، ونجدة إخوانهم في الشرق، ودعا المسيحيين في غرب أوروبا إلى ترك الحروب والمشاحنات، وتوحيد جهودهم إلى قتال المسلمين في الشرق.

وكي يُقبل الناس على الاشتراك في هذه الحروب وعدهم البابا بمنح الغفران لكل من يشترك في هذه الحرب، وتعهد بأن الكنيسة ستبسط حمايتها على أسر المحاربين وأمتعتهم؛ فلا تتعرض زوجاتهم أو أطفالهم أو أملاكهم لأية أخطار، وقد لقيت خطبة «أوربان» الحماسية - بما انطوت عليه من امتيازات ومكاسب دينية وديوية - استجابة هائلة على الفور من الحاضرين، وأيقظت في نفوسهم روح المغامرة والكسب؛ فصاحوا جميعاً صيحة مدوية هزت أرجاء الفضاء قائلين: «هذه مشيئة الله»، وكانت هذه الصيحة المشئومة إيذاناً بفتح أول صفحة في كتاب «الحروب الصليبية»، وبداية صراع دام عدة قرون.

أول متطوع في الحروب الصليبية:

ولم يكد البابا «أوربان الثاني» يفرغ من خطبته التي دعا فيها إلى محاربة المسلمين حتى جثا «أدهمار» أسقف بوي أمام قدمي البابا، راجياً أن يكون له شرف المساهمة في تلك الحرب المقدسة، وبذلك افتتح هذا الأسقف قائمة المتطوعين التي لم تتوقف بعد ذلك، واختاره البابا

ليكون مندوبًا عنه يقود الصليبيين في رحلتهم إلى المشرق، إشارة بأن تلك الحروب إنما تتم تحت إشراف الكنيسة وهيمنتها.

وأمر البابا رجال الكنيسة الذين كانوا يحضرون خطبته أن يعودوا إلى بلادهم، ويشروا بالحروب الصليبية، وعهد إلى أحد رؤساء الأديرة بأن يدعو إلى الحرب في «نورمانديا» و«إنجلترا»، وبعث بأسقفين إلى «جنوة» لإثارة حماس أهلها، وحدد البابا الخامس عشر من أغسطس من سنة ١٠٩٦م (وهو يوافق ٢١ من شعبان ٤٨٨) موعدًا لرحيل الحملة إلى الشرق؛ حيث تكون المحاصيل قد جمعت، ويكون التجمع واللقاء في مدينة القسطنطينية الحصينة.

ولم تلبث دعوة البابا أن لقيت رواجًا وانتشارًا في أوروبا، وتأثر بها العامة والدهماء، وراودتهم أحلامهم في حياة ينعمون فيها بالرخاء في الشرق، متأثرين بما يروجه رجال الكنيسة، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم «بطرس الناسك».

بطرس الناسك:

يذكر المؤرخون أن بطرس الناسك كان رجلًا قصير القامة، أسمر اللون، يمشي حافي القدمين، مرتديًا ملابس رثة، وكان راهبًا هجر الدير بتكليف من البابا؛ لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا بهيئته المزرية داعيًا إلى حملة البابا، وفي كل مكان يحل به كان يسحر ألباب الناس، ويخلب أفئدتهم ببيانه الساحر وفصاحته؛ حتى تجمع حوله أعداد هائلة من الأتباع، بلغوا خمسة عشر ألفًا، منهم فلاحون وأهل مدن، وفئات من صغار النبلاء، وبعض المجرمين وقطاع الطرق، ولم يكن يجمع هؤلاء الشراذم إلا الحماسة والرغبة في قتال المسلمين، والاستيلاء على الأرض.

لم تصبر هذه الجموع الغوغاء حتى موعد الرحيل الذي حدده البابا للحملة، ولم تغلح محاولات البابا في إثنائهم عن الرحيل، ولم تجد دعوته استجابة من هؤلاء الغوغاء، ولم تستطع اللوائح التي وضعها «أوربان» علاج الموقف.

وتحركت هذه الجموع تحمل محاصيلها فوق عربات ثقيلة تجرها الثيران، وفي صحبتهم الزوجات والأطفال، حتى وصلوا «كولونيا» في (١٥ من ربيع الآخر ٤٨٩هـ - ١٢ من أبريل ١٠٩٦م)، وظلوا بها فترة من الوقت يتزودون بالموث، ويتقنون بانضمام الألمان إليهم حتى تضاعف عددهم.

والتر المفلس:

وفي الوقت الذي كان فيه بطرس الناسك ماضيًا في دعوته في الغرب الأوروبي ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه «والتر المفلس»، التفت حوله بعض الناس، وعبر بهم أرض «هنغاريا» ثم أراضي الدولة البيزنطية، وطوال الطريق كانوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي حتى بلغوا

القسطنطينية في (رمضان ٤٨٩هـ = يوليو ١٠٩٦) وسمح لهم الإمبراطور البيزنطي ألكسوس كوفين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول «بطرس الناسك».

الطريق إلى القسطنطينية:

غادر بطرس الناسك «كولونيا» في (٢٣ من ربيع الآخر ٤٨٩هـ - ٢ من أبريل ١٠٩٦م) متجهاً إلى المجر، على رأس حشوده الجرارة من الغوغاء والدهماء، وأثناء عبورهم المجر عند بلدة «سملين»، وقع خلاف بين المجر وجنود الحملة بسبب الحصول على المؤن، وتطور الخلاف إلى مذبحه ارتكبتها الصليبيون أسفرت عن مقتل أربعة آلاف من أهل المجر الأبرياء، وتحولت «سملين» إلى خرائب تتصاعد منها دخان الحرائق التي أشعلها جنود الرب، ضد إخوانهم المسيحيين الذين زعم الصليبيون أنهم جاءوا لنجدتهم.

وعندما وصل «بطرس الناسك» الذي كان يمتطي حماره في مقدمة جيشه إلى مدينة «نيس» التي تقع على الحدود البيزنطية خاف قائد الحامية البيزنطية على مدينته من التصرفات الحمقاء لهذه الجموع، فاتخذ تدابير لمواجهةهم عند الضرورة بأخذ بعض الرهائن منهم، لكن الصليبيين عاودوا أعمال السلب والنهب وتخريب القرى والمدن، ولم يجد البيزنطيون بُدّاً من مهاجمة بطرس الناسك، وقتل كثير من رجاله، وأسر عدد آخر، والاستيلاء على الأموال والتبرعات التي كان الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا، لكن ذلك لم يؤثر في مسيرة الجيش الصليبي، وسار صوب مدينة «صوفيا»، وهناك لقيه مندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وأبلغوا «بطرس» ومن معه باستيلاء الإمبراطور، وبأوامره التي تقضي بالآيماكت الصليبيون في أي مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام.

على أسوار القسطنطينية:

وصلت الشراذم المتبقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية في (شعبان ٤٨٩هـ - يوليو ١٠٩٦م)، وأرسل الإمبراطور البيزنطي في طلب بطرس الناسك، وعرض عليه أن ينتظر بقواته خارج المدينة حتى تأتي القوات الصليبية الرئيسية في الموعد الذي حدده البابا لتجمع القوات الصليبية، لكن بطرس رفض عرض الإمبراطور ونصائحها التي أسداها إليه، وأغرته كثرة أتباعه وأنصاره.

وواصل الصليبيون أعمالهم الهمجية في القسطنطينية، وارتكبوا كثيراً من المخازي، ومارسوا السلب والنهب، واضطر الإمبراطور البيزنطي أن يتخلص من هذا الشر المستطير بتقلهم بسرعة عبر المضائق إلى آسيا الصغرى، وفي الوقت نفسه كرر نصائحه للصليبيين بالتروي والانتظار عند أحد المراكز الحصينة بالقرب من «السنفور»، حتى تأتيهم الإمدادات والجيش النظامية المدربة من الغرب، لكنهم لم ينصتوا إلى نصائحه، ولم يستطيعوا ضبط أنفسهم، والكف عن السلب والنهب، والاعتداء على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة.

نهاية محتومة:

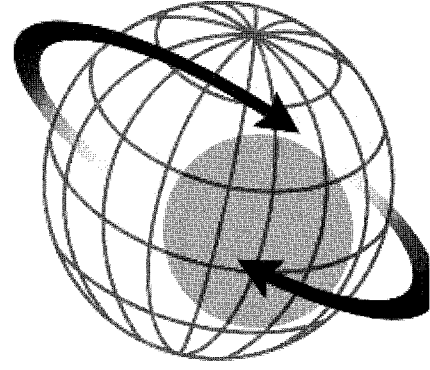
أخذ الصليبيون يوسعون دائرة أعمالهم الهمجية، وواصلوا زحفهم إلى «نيقية» قاعدة السلطان السلجوقي «قلج بن أرسلان»، وكان عدد الصليبيين خمسة وعشرين ألفاً، منهم خمسمائة من الفرسان -على أكثر تقدير-، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام، ولا توحيد صفوفهم قيادة مؤهلة، ولم يجد الأتراك السلاجقة صعوبة في الإيقاع بهذا الجيش الهمجي والإجهاز عليه تماماً، حتى إنه لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف، وعندما وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى الإمبراطور أرسل بعض سفنه تحمل إمدادات إلى الصليبيين، لكن ذلك كان بعد فوات الأوان، فحملت فلولهم إلى القسطنطينية وظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول الحملة الرئيسية التي شاءت لها الأقدار أن تؤسس الإمارات الصليبية في الشرق، وتستولي على بيت المقدس.

وهكذا انتهت حملة الرعاع فوق تراب الشرق، وضاع الحلم الذي راودهم، وحرك فيهم مشاعر الطمع والاستمتاع بخيرات الأرض التي تفيض باللبن والعسل.. لكن الهزيمة لم تمنع من تكرار المحاولة، وبدأت سلسلة الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي.

أحمد تمام

http://www.islamonline.net/Arabic/history/article_07/11/1422

التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية



بشير عبد الفتاح - مصر

باحث سياسي وصحفي بالأهرام

ملخص البحث:

يعود النزوع الأمريكي نحو الهيمنة على العالم إلى أكثر من قرن مضى، مع تنامي شعور الأمريكيين بتعاظم قوة بلادهم، وتفنتت دوائر سياسية وبحثية أمريكية عديدة في تبرير ذلك النزوع المستمر نحو الهيمنة على العالم بشتى الطرق الحضارية وغيرها.

وتعتبر دول أمريكا اللاتينية من أبرز نماذج التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية، وتجلت ملامح هذا التمرد في مناسبات عدة، كفتح هذه الدول لأبوابها أمام الوجود الصيني اقتصاديًا وثقافيًا، بالرغم من الاستياء الأمريكي، وأيضًا رفضها لإبرام اتفاقية إقامة منطقة التجارة الحرة في أمريكا الوسطى، ولم تستطع واشنطن مناهضة هذا التيار المعارض للهيمنة الأمريكية.

ولكوريا الشمالية تاريخ طويل مع التمرد على الهيمنة الأمريكية، فلقد جاء بحث كوريا الشمالية عن ركائز قوة تخول لها الوقوف أمام ما تعتبره تهديدًا أمريكيًا، فكان اتجاهها نحو امتلاك السلاح النووي والصواريخ الباليستية، ولقد أسهمت إدارة بوش سياساتها العدوانية ونزوعها نحو الهيمنة في تعزيز دوافع كوريا الشمالية نحو امتلاك هذه القوة.

ولقد برزت في الأفق مساعي بعض زعماء دول أمريكا اللاتينية للتقارب مع الدول العربية والإسلامية، في حين أن التوجه العربي الإسلامي نحو العالم اللاتيني فيما مضى كان اضطراريًا اقتضته الظروف في حينها، فالحضور العربي مع دول أمريكا اللاتينية كان متواضعًا على المستويين الرسمي والشعبي.

والهيمنة الأمريكية على العالم العربي والإسلامي تعود بجذورها إلى التغلغل الأمريكي في العالم العربي والإسلامي منذ أربعينيات القرن الماضي، وحاولت الإدارة الأمريكية تطويع الإسلام بتغييره؛ لأنها اعتبرتة جهاديًا ومعاديًا للغرب وحضارته، واستبداله بإسلام أقرب ما يكون إلى المسيحية الغربية الإصلاحية.

ظهرت نوايا واشنطن السيئة تجاه الإسلام والمسلمين؛ إذ إنها تريد تبديد قدرة المسلمين على التصدي لهيمنتها على العالم، ولذا فإنه يتعين على المسلمين استنهاض الهمم، وتوحيد الجهود، وحشد الطاقات للمواجهة، كما أن الدفاع لن يكون بالقوة العسكرية أو الاقتصادية فحسب، وإنما هو بالأساس جهاد ديني وحضاري، فعلينا أن نعيد الوحدة والاعتدال والشفافية والوسطية إلى ديننا؛ حتى تتنامى مناعته الذاتية ضد مساعي الاختراق والتشويه الأمريكية.

أفكار ومقتطفات

- النزوع الأمريكي نحو الهيمنة على العالم يعود إلى أكثر من قرن مضى، مع تنامي شعور الأمريكيين بتعاضم قوة بلادهم. وقد تفننت دوائر سياسية وبحثية أمريكية عديدة في تسويق وتبرير ذلك النزوع المستمر نحو الهيمنة على العالم بذرائع مختلفة.
- تمثل دول أمريكا اللاتينية أبرز نموذج للتمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية.
- ملمح آخر من ملامح تمرد دول أمريكا اللاتينية على مساعي الهيمنة الأمريكية يتمثل في رفض تلك الدول لإبرام الاتفاقية التي تقضي بإقامة منطقة التجارة الحرة في أمريكا الوسطى.
- إن اتفاقية التجارة الحرة هذه لن تخدم سوى الأمريكيين وحقنة الأثرياء في تلك الدول والمستفيدين من تغلغل النفوذ الأمريكي فيها، كرجال الأعمال وكبار المستثمرين.
- الفنزويلي هوجو شافيز حامل لواء الثورة البوليفارية لتحرير فنزويلا وأمريكا اللاتينية؛ معذراً من سطوة الهيمنة الأمريكية والتدخل الأمريكي السافر في شؤون دولها، واستغلال مواردها لخدمة التطلعات الإمبريالية الأمريكية نحو الهيمنة والانفراد بقيادة العالم تحت مظلة العولمة المؤمركة.
- إن المحرك الرئيسي والعامل المشترك الأكبر الجامع لصعود اليسار في غالبية دول أمريكا اللاتينية كان هو تدني شعبية الولايات المتحدة في تلك الدول بشكل ملحوظ خلال العقدين الأخيرين.
- يدرك حكام وشعوب أمريكا اللاتينية - باستثناء المنتفعين منهم بالنفوذ الأمريكي في بلادهم، وهم شريحة محدودة من رجال الأعمال والتجار وذوي التوجهات الليبرالية المؤمركة - أن واشنطن قد صارت أكثر نزوعاً باتجاه تجاهل مصالح دول أمريكا اللاتينية.
- تشغل واشنطن بتأمين وارداتها من مصادر الطاقة من دول أمريكا اللاتينية، إضافة إلى تأمين الممرات المائية الاستراتيجية لسفنها وبوارجها، وتعزيز حضورها الاستراتيجي في جيوب القارة الأمريكية الجنوبية، وتقويض أية محاولات لنشر الأفكار أو التوجهات السياسية المناهضة لواشنطن في ربوع القارة.
- جاء بحث كوريا الشمالية عن ركائز قوة تخول لها الوقوف أمام ما تعتبره تهديداً أمريكياً، عبر ابتزاز واشنطن وحلفائها سياسياً واقتصادياً وأمنياً، فكان نزوعها نحو امتلاك السلاح النووي والصواريخ الباليستية متوسطة وطويلة المدى.

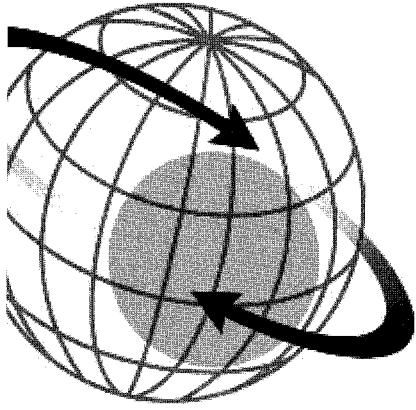
العلاقات الدولية

- كان من بين أسباب تجرؤ كوريا الشمالية على تطوير برنامج نووي عسكري وتحدي المجتمع الدولي، عدم حرص الولايات المتحدة ذاتها على استقرار نظام منع الانتشار النووي .
- لم تلوح بيونج يانج أيضًا بنيتها إجراء تجربة تفجير نووي تحت الأرض إلا بعد أن اشتدت وطأة القطيعة التي ضربتها حولها واشنطن وحلفاؤها في شبه الجزيرة الكورية.
- من جانبهم، عمدت كل من اليابان وكوريا الجنوبية والصين إلى التأكيد على رفضهم لأي تصعيد عسكري ضد بيونج يانج، وطالبوا بالتخفيف من وطأة العقوبات المفروضة عليها؛ تحاشيًا للتداعيات السلبية الخطيرة التي من المتوقع أن تنجم عن ذلك.
- في خضم الغضب العالمي العارم على سياسات الولايات المتحدة، والتي تنزع باتجاه الهيمنة على مراكز العالم الحيوية ومقدراته، واستباحة التدخل في شؤون دوله الداخلية، برزت مساعي بعض زعماء دول أمريكا اللاتينية للتقارب مع الدول العربية والإسلامية.
- يمكن إرجاع الفتور العربي والإسلامي في التقارب مع دول أمريكا اللاتينية إلى حزمة من العوامل التي أتصور أنه يأتي في مؤخرتها العامل الجغرافي؛ في حين يأتي في صدارتها المتغير الأمريكي في تلك العلاقة.
- تشكل علاقة التبعية التي تخيم على معظم علاقات الدول العربية والإسلامية مع واشنطن، حائلًا دون تحقيق التقارب المنشود بين الجانبين العربي واللاتيني.
- إن الولايات المتحدة قد استهوت الطرفين العربي الإسلامي واللاتيني كل على حدة بدرجات متفاوتة، ربما تكون أقل لدى الجانب اللاتيني خلال الآونة الأخيرة.
- إن الدول اللاتينية تجمع بينها وشائج تقارب عديدة من النواحي الثقافية والاقتصادية والسياسية، عبر منظمة الميركوسور؛ بغية التصدي للهيمنة الأمريكية، بينما الدول العربية والإسلامية منقسمة فيما بينها، ولم تفلح وشائج الترابط القوية المتعددة التي تجمع بينها في التآلف بين كلمتها وتوحيد مواقفها .
- الجاليات العربية والإسلامية في أمريكا اللاتينية، والتي يناهز تعدادها العشرين مليونًا، لم تفلح رغم الإنجازات الهائلة التي حققتها في المهجر اللاتيني على مختلف الأصعدة، في أن تكون جسرًا حضاريًا وسياسيًا واقتصاديًا بين بلدانها الأصلية وبلدان المهجر.
- ثمة عامل آخر يقف بين العرب والمسلمين من جهة واللاتينيين من جهة أخرى يتمثل في الصورة الذهنية النمطية المشوهة لكليهما عن الآخر.

- تستبد بالذهن العربي فكرة أن دول أمريكا اللاتينية والجنوبية ما هي إلا أشباه دول أو جمهوريات موز خاضعة للهيمنة الأمريكية تعبت بها كيف شاءت.
- علي الجانب اللاتيني، تسود فكرة مشوهة عن العرب والمسلمين منذ أن وطأت أقدامهم تلك البلاد في القرن التاسع عشر بأنهم ضعفاء تابعون.
- علي العرب والمسلمين التحرر من الحصار الأمريكي، والتخلي عن الدوران في فلك الإدارة الأمريكية، والبحث عن مصالحهم وما ينفع أمتهم.
- الهيمنة الأمريكية على العالم العربي والإسلامي تعود بجذورها إلى التغلغل الأمريكي في العالم العربي والإسلامي منذ أربعينيات القرن الماضي.
- بقيادة أمريكا للتحالف الدولي ضد العراق عام ١٩٩١، ترسخ النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط، ومع احتلال أمريكا لأفغانستان في العام ٢٠٠١، ثم للعراق في العام ٢٠٠٣، أتمت إدارة بوش هيمنتها على المنطقة، والاستئثار بمقدراتها من النفط والغاز إلى جانب المزايا الجيو-استراتيجية.
- اتخذت واشنطن من قوتها الناعمة المتمثلة في العولمة المؤمركة أداة لبطش هيمنتها الثقافية والحضارية على العالم العربي والإسلامي.
- اعتبرت قمة حلف الناتو في العام ١٩٩٢ أن الإسلام سيكون هو العدو الجديد للغرب ولحلف الأطلسي بعد انهيار المعسكر الاشتراكي.
- عمدت السلطات الأمريكية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى محاصرة الإسلام الأمريكي المحافظ.
- دعا بوش إلى مواصلة الحرب على من أسماهم «بالفاشيين الإسلاميين». وقد أعاد استخدام ذات المصطلح ست مرات خلال ثلاثة أسابيع.
- يرى منظرو الإدارة الأمريكية أن هناك ظاهرة مهيمنة في العالمين العربي والإسلامي، وبين الجاليات الإسلامية في الغرب عنوانها «الفاشية الإسلامية»، ومن ثم راحوا يروجون لفكرة الحرب العادلة؛ لتسوية الحرب على الإرهاب الإسلامي؛ باعتبارها دفاعاً عن النفس وعن القيم الإنسانية.
- يتعين على المسلمين استنهاض الهمم وتوحيد الجهود وحشد الطاقات من أجل التصدي لهذا الخطر المحدق.
- قبل أن نعد السلاح، علينا أولاً أن نعيد الوحدة والاعتدال والشفافية والوسطية إلى ديننا، حتى تنامي مناعته الذاتية ضد مساعي الاختراق والتشويه الأمريكية.

العلاقات الدولية

- إن وحدة المسلمين وتماسكهم لهُمَا السبيل الأمثل لتفويت الفرصة على أعدائهم كي لا يستغلونهم في القضاء على بعضهم البعض ومحاربة الإسلام بذريعة تحديثه وتطويره.
- يتعين على الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية التحرر من الدوران في فلك الولايات المتحدة، واتخاذها مصدرًا للشرعية والاستقواء، على اعتبار أن أمريكا هي القائد الأوحـد للعالم.
- إذا كنا نرفض تدخل الآخرين في شؤوننا ومطالبتهم بتغيير الإسلام أو إصلاح الخطاب الديني، فإننا في ذات الوقت يجب أن نتصدى للجمود الفكري والتفسيرات الخاطئة للنصوص، وأن نقدم الإسلام للآخر على حقيقته.
- يمكن أن يتم تأهيل مسلمي الغرب والاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم لإنجاح المشروع الحضاري العالمي للإسلام.



التمرد الدولي على الهيمنة الأمريكية

بشير عبد الفتاح - مصر

باحث سياسي وصحفي بالأهرام

الدولي على الهيمنة الأمريكية، وقد تجلى ذلك التمرد في مناسبات عدة كما كان له ملامح شتى، أبرزها جنوح تلك الدول إلى فتح أبوابها أمام الوجود الصيني اقتصاديًا وثقافيًا خلال الآونة الأخيرة بالرغم من الاستياء الأمريكي، وخلال قمتهم التي عقدت بمدينة «مونتييري» المكسيكية في شهر يناير ٢٠٠٤، وحضرها ٣٤ من رؤساء دول وحكومات أمريكا اللاتينية، شن رؤساء تلك الدول هجومًا حادًا على الرئيس بوش وأعضاء إدارته، وأكدوا رفضهم للأجندة الأمريكية الرامية إلى مقاطعة كوبا وحصارها، كما أظهروا اعتزازهم باستقلاليتهم وصمودهم في وجه التدخلات الأمريكية في شؤونهم الداخلية، على نحو ما فعلت المكسيك، حينما رفضت تأييد الغزو الأمريكي للعراق في مجلس الأمن عام ٢٠٠٣، ما أثار غضب الأمريكيين. وعندما نفّذت واشنطن سياسة الإجراءات الأمنية المشددة ضد طالبي زيارتها من عدد من الدول العربية والإسلامية واللاتينية مؤخرًا، وكان من بينها مواطني البرازيل، ردّت البرازيل بإجراءات مماثلة ضد الأمريكيين؛ مشرطة أخذ بصمات أصابع الأمريكيين وتصويرهم قبل دخولهم إليها، بل واعتقلت طيارًا أمريكيًا رفض هذه الإجراءات. (٢) وفي العام ٢٠٠٥ أيضًا، فشلت إدارة بوش في الحصول على الأغلبية بين دول منظمة

على الرغم من أن الحديث عن الهيمنة الأمريكية على العالم قد اكتسب زخمًا هائلًا في أعقاب الانهيار المدوي لما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي السابق، وإعلان الرئيس الأمريكي بوش الأب لنظام عالمي جديد تقوده بلاده منفردة، إلا أن النزوع الأمريكي نحو الهيمنة على العالم يعود إلى أكثر من قرن مضى مع تنامي شعور الأمريكيين بتعاضد قوة بلادهم.

وقد تفننت دوائر سياسية وبحثية أمريكية عديدة في تسويق وتبرير ذلك النزوع المستمر نحو الهيمنة على العالم بذرائع مختلفة، منها الحضاري الديني، أو السياسي والأمني. (١) غير أن إمعان إدارة الرئيس بوش الابن في استعمال كل أسباب القوة لبطس هيمنتها على العالم قد قُوبل بموجة عاتية من الرفض الدولي على الصعيدين الرسمي والشعبي، على نحو يمكن وصفه بالتمرد على المساعي الأمريكية لفرض تلك الهيمنة.

دول أمريكا اللاتينية :

تمثل دول أمريكا اللاتينية أبرز نموذج للتمرد

العلاقات الدولية

اللاتينية وأمريكا الجنوبية بشكل عام مثل البرازيل والأرجنتين بالانضمام إليها.

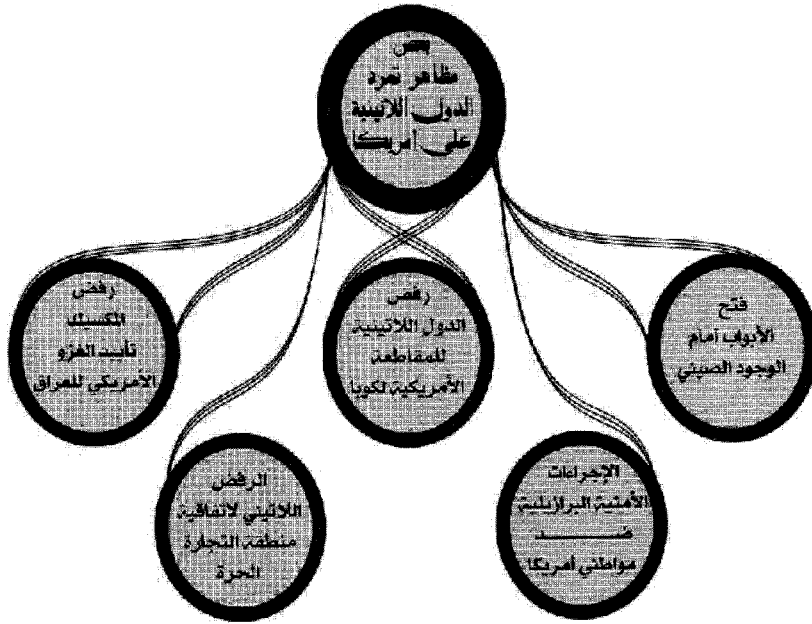
وفى الوقت الذي لجأت فيه إدارة الرئيس بوش لممارسة الضغوط على دول أمريكا اللاتينية لحملها على توقيع الاتفاقية، قُوبلت الضغوط الأمريكية بتحدُّ ومعارضة من جانب تلك الدول على المستويين الرسمي والشعبي، خاصة وأن اتفاقية التجارة الحرة هذه لن تخدم سوى الأمريكيين وحنفئة الأثرياء في تلك الدول والمستفيدين من تغلغل النفوذ الأمريكي فيها كرجال الأعمال وكبار المستثمرين. (٤)

كراهية أمريكا كمحفز لصعود اليسار:

على الرغم من أن بدايات التغلغل اليساري في دول أمريكا اللاتينية تعود إلى أواسط القرن الماضي، إلا

الدول الأمريكية، التي تضم ٣٤ دولة من أمريكا الشمالية والجنوبية، لاثنتين من المرشحين اللذين حظيا بتأييد واشنطن لرئاسة المنظمة. (٣)

ملمح آخر من ملامح تمرد دول أمريكا اللاتينية على مساعي الهيمنة الأمريكية يتمثل في رفض تلك الدول لإبرام الاتفاقية التي تقضي بإقامة منطقة التجارة الحرة في أمريكا الوسطى، والتي بموجبها يتم إلغاء حواجز تجارية بين الولايات المتحدة وستة دول هي كوستاريكا، السلفادور، غواتيمالا، هندوراس، نيكاراغوا وجمهورية الدومينيكان. وهي الاتفاقية التي تشكل أهمية استراتيجية لإدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش تفوق أهميتها الاقتصادية؛ خاصة أن الصادرات الأمريكية لهذه المنطقة لا تتجاوز ٢٪ من إجمالي الصادرات السنوية للولايات



أن تلك الدول لم تشهد صعودًا لأنظمة وحكومات يسارية على نحو ما شهدته هذه الأيام، مع تنامي التوقعات بانتقال العدوى لتشمل دول أخرى مثل البيرو، التي يقود فيها هذه الأيام الجنرال المتقاعد أولاتنا هو ماللا صديق شافيز الحميم، حركة تغيير شاملة تتماشى وسياسات شافيز الرامية إلى التصدي

المتحدة؛ حيث إن الإدارة الأمريكية تراهن على إقامة مثل هذه المنطقة من أجل توفير مناخ ملائم لدعم القيم الأمريكية فيها، وتشجيع الأنظمة الليبرالية الموالية لواشنطن، ومناهضة تيار المعارضة للهيمنة الأمريكية الذي بدأ يسود في أمريكا اللاتينية، خصوصًا بعد أن فشلت في إقناع القوى الاقتصادية الكبرى في أمريكا

يناير ٢٠٠٦ بمنصب رئيس البلاد. وفي كوستاريكا، فاز الرئيس الأسبق أوسكار أرياس بمنصب الرئيس، ورغم أن أرياس يتبنى موقفاً مؤيداً لاتفاقية التجارة الحرة بين بلاده وواشنطن، فهو يترأس حزب التحرير الوطني، وهو حزب يساري، إلا أن تاريخه القديم في الرئاسة يؤكد أنه لن يكون في كل الأحوال من أصدقاء واشنطن. (٦)

وفي الاكوادور، فاز المرشح اليساري، رافايل كوريا، بمنصب الرئاسة في الانتخابات التي جرت يوم ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٦، لينضم عضو جديد إلى نادي الرؤساء المشاكسين للولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية، حيث أكد الرئيس الجديد عقب فوزه بأنه سينضم إلى كاسترو وشافيز في مناهضة الهيمنة الأمريكية، وسيقوم بإغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية في بلاده؛ ولن يقوم بتوقيع معاهدة التبادل التجاري الحر مع الولايات المتحدة المستوردة لأكثر من ٦٩٪ من نفط الاكوادور. (٧) وفي نيكاراغوا انتزع دانيال أورتيجا، الناشط اليساري ذو التوجهات المناهضة لواشنطن منذ الحرب الباردة، زعيم جبهة ساندينستا للتحرير الوطني، منصب الرئيس في الانتخابات التي جرت في نوفمبر ٢٠٠٦، وهو الذي قال ذات مرة في أحد خطبه: «إن أسوأ ما يمكنك أن تعيشه هو أن تكون جازاً للولايات المتحدة». (٨)

والملفت في صعود هؤلاء القادة اليساريين أمران: أولهما: أنهم وصلوا إلى سدة الحكم بأسلوب ديمقراطي شهدت له واشنطن نفسها. وثانيهما: أن هناك حزمة من المبادئ التي تقرب بينهم، كما كانت مصدر الجذب الرئيسي الذي استقطب الناخبين وحشد الجماهير من حولهم، وهي المبادئ التي تتفق إلى حد كبير وأفكار الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز حامل لواء الثورة البوليفارية لتحرير فنزويلا وأمريكا اللاتينية محذراً من سطوة الهيمنة الأمريكية والتدخل الأمريكي السافر في شؤون دولها، واستغلال مواردها لخدمة التطلعات الإمبريالية الأمريكية

للهيمنة الأمريكية على أمريكا اللاتينية والعالم أجمع، ثم المكسيك، التي يواجه حليف واشنطن الرئيسي فنسنت فوكس تحديات هناك يجسدها صعود نجم الزعيم اليساري أندريس مانويل لوبيز أوبرادور عمدة مدينة مكسيكو سيتي. فبعد أن كان الحضور اليساري مقصوراً على فنزويلا وكوبا فقط؛ حيث هوجو شافيز وفيديل كاسترو، تمكنت قيادات يسارية أخرى من الوصول إلى الرئاسة في دول أخرى عديدة.

ففي البرازيل، نجح مرشح حزب العمال البرازيلي إيناسيو لولا دا سيلفا في الوصول لمنصب الرئاسة عقب انتخابات عام ٢٠٠٢، كما تمكن من الفوز بفترة رئاسة ثانية في انتخابات ٢٩ أكتوبر من العام ٢٠٠٦. وفي الأرجنتين، استطاع المرشح البيروني اليساري نيباتور كيرشتر من الفوز في الانتخابات الرئاسية التي أجريت عام ٢٠٠٣. وفي فنزويلا، تمكن شافيز من الفوز بمرحلة رئاسية جديدة في انتخابات ديسمبر ٢٠٠٦ بعد أن حصد ٦٢٪ من الأصوات، مؤكداً إصرار الشعب الفنزويلي على تحدي الهيمنة الأمريكية. (٥)

وفي الأوروغواي، تم انتخاب المرشح اليساري تابيري فاسكينز رئيساً للبلاد في العام ٢٠٠٥. وفي ٢٩ ديسمبر من نفس العام، نجح مرشح الحركة نحو الاشتراكية في بوليفيا، إيفو موراليس -كابوس إدارة بوش، والمناهض للهيمنة الأمريكية والرأسمالية العالمية، الهندي الأحمر الاشتراكي، والحليف القوي لشافيز وفيدل كاسترو- في الوصول إلى الرئاسة على حساب الرئيس كارلوس ميسا، وفي مايو ٢٠٠٦ قام بتأميم قطاعي النفط والغاز في بلاده. ويسعى موراليس بدعم من كوبا والبرازيل وفنزويلا إلى منافسة غواتيمالا المدعومة من الولايات المتحدة في الحصول على مقعد غير دائم في مجلس الأمن الدولي. وفي تشيلي فازت مرشحة اليسار ميشيل باشلي، الطيبة اليسارية، في انتخابات ١٥

بما يخدم المصالح الأمريكية، وعزل بعض تلك الدول مثل كوبا؟! (١٠)

وإلى جانب هذا الإرث التاريخي من العداء الأمريكي اللاتيني ل واشنطن، يدرك حكام وشعوب أمريكا اللاتينية، باستثناء المتفعين منهم بالنفوذ الأمريكي في بلادهم، وهم شريحة محدودة من رجال الأعمال والتجار وذوي التوجهات الليبرالية المؤمركة، أن واشنطن قد صارت أكثر نزوعًا باتجاه تجاهل مصالح دول أمريكا اللاتينية في أعقاب انتهاء الحرب الباردة، ثم انغماسها في الحرب ضد الإرهاب؛ حيث تعتقد أجنحة عديدة في واشنطن أن أهمية أمريكا اللاتينية قد تراجعت بالنسبة ل واشنطن، ومن ثم لم تعد تستجدي الاهتمام الأمريكي المفرط والحرص الشديد على استرضاء شعوبها وحكامها؛ لذا يرى معظم مواطني هذه الدول أن واشنطن لم تعد تركّز في علاقاتها مع تلك البلدان في حقبة القطبية الأحادية إلا على التقليل من تبعات الجوار الجغرافي مع تلك الدول على المصالح الأمريكية؛ حيث تهتم واشنطن بمنع تصدير المخدرات والمواد المحرمة من تلك البلدان إلى الأراضي الأمريكية، وكذا تحجيم عمليات الهجرة غير المشروعة، وليس أدل على ذلك من توقيع الرئيس بوش في شهر نوفمبر ٢٠٠٦ على مشروع إقامة جدار عازل بين بلاده وتلك الدول بطول الحدود الجنوبية للولايات المتحدة مع المكسيك. كما تنشغل واشنطن بتأمين وارداتها من مصادر الطاقة من دول أمريكا اللاتينية، إضافة إلى تأمين الممرات المائية الاستراتيجية لسفنها وبوارجها، وتعزيز حضورها الاستراتيجي في جيوب القارة الأمريكية الجنوبية. (١١)

كوريا الشمالية:

يمكن القول: إن لكوريا الشمالية تاريخًا ليس بالقصير من التمرد على نزوع الولايات المتحدة نحو عزلها ومحاصرة نظامها الحاكم في إطار مساعي واشنطن باتجاه الهيمنة على الأوضاع في جنوب

نحو الهيمنة والانفراد بقيادة العالم تحت مظلة العولمة المؤمركة. (٩)

وإذا كان صعود اليسار في معظم بلدان الفناء الخلفي للولايات المتحدة خلال السنوات العشر الماضية، يتصل بعوامل ثقافية كتجذر الإرث اليساري في تلك البلدان منذ منتصف القرن المنصرم، علاوة على اعتبارات اقتصادية واجتماعية تتجلى في تدني مستوى المعيشة والتفاوت الطبقي الفجّ في تلك البلدان جزاء إخفاق تجارب التنمية الليبرالية المدعومة أمريكيًا خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، فإنه يمكن القول: إن المحرك الرئيسي والعامل المشترك الأكبر الجامع لصعود اليسار في غالبية دول أمريكا اللاتينية كان هو تدني شعبية الولايات المتحدة في تلك الدول بشكل ملحوظ خلال العقد الأخيرين على نحو ما أجمعت عليه استطلاعات الرأي التي أجريت في الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية على حد سواء.

فجذور العداء لأمريكا في تلك البلدان تعود إلى ما بعد الاحتلال الأسباني، وفرض أمريكا وصايتها على تلك البلدان بجعلها فناء خلفيًا وعمقًا استراتيجيًا لها دون سواها، هذا في الوقت الذي استباح الأمريكيون هذه البلاد، فطفقوا يعبثون بأمنها ومواردها وأنظمة الحكم فيها، حتى لم يتورعوا عن الإطاحة بتلك التي لا تروق لهم أو تناهض مصالحهم، في حين يدعمون تلك الموالية لهم، فكم تدخلت أمريكا عسكريًا بشكل غير مباشر لإسقاط أنظمة حاكمة في تلك البلدان على نحو ما جرى في تشيلي عام ١٩٧٣، ثم بشكل مباشر في جرينادا عام ١٩٨٥، أو المزج بين الأسلوبين معًا عبر ممارسة الضغوط الخارجية ودعم حركات التمرد في الداخل، مثلما جرى في نيكاراغوا مع نهاية ثمانينيات القرن المنصرم، ثم دعم الانقلاب العسكري ضد الرئيس هوجو شافيز المنتخب ديمقراطيًا في فنزويلا عام ٢٠٠٢، ودعم الحروب الأهلية والإقليمية بين دول أمريكا اللاتينية

باليستية متوسطة وطويلة المدى قادرة على حمل رءوس نووية، وتوصيلها إلى الأراضي الأمريكية. فقد كان من بين أسباب تجرؤ كوريا الشمالية على تطوير برنامج نووي عسكري وتحدي المجتمع الدولي، عدم حرص الولايات المتحدة ذاتها على استقرار نظام منع الانتشار النووي، حيث سمحت لحلفائها الذين يؤدون دورًا في الاستراتيجية الأمريكية في بقاع العالم المختلفة بامتلاك وتطوير أسلحة نووية. كما هددت

إن إدارة بوش قد أسهمت بسياساتها العدوانية ونزوعها نحو الهيمنة، في تعزيز دوافع كوريا الشمالية نحو امتلاك السلاح النووي

واشنطن باستخدام السلاح النووي في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ضد ثمان دول حول العالم؛ اعتبرتها واشنطن أعداء لها كان من بينها كوريا الشمالية. واتجهت واشنطن أيضًا لإنتاج أسلحة نووية تكتيكية يمكن التحكم في أثرها التدميري، وذلك بعد أن رفضت التصديق على معاهدة الحد من إجراء التجارب النووية. (١٥)

فضلاً عن ذلك، رفضت واشنطن حزمة مطالب قدّمتها كوريا الشمالية كشرط لوقف نشاطها النووي أهمها: استبدال هدنة الحرب الكورية بمعاهدة سلام، وتقديم واشنطن وحلفائها الآسيويين ضمانات أمنية بعدم مهاجمة كوريا الشمالية، ثم تقديم مساعدات اقتصادية لبيونج يانج، ورفع الحظر الاقتصادي عنها، وإسقاط ديونها الخارجية، وشطب اسمها من قائمة الدولة الراعية للإرهاب، وأن تستبدل الولايات المتحدة سياستها العدائية تجاه نظام كيم يونج إيل بقبول ذلك النظام وعدم التدخل في شؤونه، كما أعلن بوش في يناير ٢٠٠٢ إدراجه لكوريا الشمالية ضمن محور الشر الثلاثي إلى جانب العراق وإيران،.. كما جاء إعلان بيونج يانج عن امتلاكها بالفعل للسلاح النووي في شهر مارس ٢٠٠٦ ردًا على المناورات والتدريبات العسكرية المشتركة بين واشنطن وسول، كما لم تلوح بيونج يانج أيضًا بنيتها إجراء تجربة

آسيا وشبه الجزيرة الكورية. فمنذ الحرب الكورية التي انتهت عام ١٩٥٣، وكوريا الشمالية تُحمّل واشنطن مسؤولية التوتر في شبه الجزيرة الكورية، بل والقارة الآسيوية بأكملها؛ حيث تعتبر بيونج يانج أن وجود ٣٧ ألف جندي أمريكي في المنطقة الحدودية بين الكوريتين يمثل تهديدًا لها وتحالفًا من قبل واشنطن مع الشطر الجنوبي ضد الشمال، وليس أدلّ على ذلك من المناورات العسكرية المشتركة

التي يتم إجراؤها بشكل دوري بين سول وواشنطن، وكذا الزيارات المتكررة لكبار المسؤولين الأمريكيين لسول وطوكيو. (١٢)

من هنا، جاء بحث كوريا الشمالية عن ركائز قوة تُحوّل لها الوقوف أمام ما تعتبره تهديدًا أمريكيًا، عبر ابتزاز واشنطن وحلفائها سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، (١٣) فكان نزوعها نحو امتلاك السلاح النووي والصواريخ الباليستية متوسطة وطويلة المدى منذ أواسط الخمسينيات من القرن الماضي بدعم تكنولوجي سوفيتي. (١٤)

ويمكن القول: إن إدارة بوش قد أسهمت بسياساتها العدوانية ونزوعها نحو الهيمنة، في تعزيز دوافع كوريا الشمالية نحو امتلاك السلاح النووي، ففيما أدت سياسة الترغيب والحوار التي اتبعتها إدارة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، إلى إيجاد مناخ من الثقة بين بلاده وبيونج يانج على النحو الذي أفضى إلى التوصل إلى اتفاق الإطار لعام ١٩٩٤، الذي أسهم في إبطاء مسيرة تقدم البرنامج النووي لكوريا الشمالية، عمدت سياسات الترهيب التي اتبعتها إدارة بوش بعد ذلك حيال بيونج يانج إلى دفع الكوريين الشماليين باتجاه التصعيد فيما يخص برنامجهم النووي حتى وصلوا إلى مرحلة إجراء التجارب النووية، وإجراء تجارب ناجحة على صواريخ

العلاقات الدولية

إجراءاتها الأمنية الاحترازية في مواجهة التحالف الأمريكي الياباني الكوري الجنوبي. وليس أدلّ على ذلك من أن إجراء كوريا الشمالية لتجربتها النووية قد جاء بعدما زادت التهديدات الأمريكية لها، (٢٠) وهي التهديدات التي لم تختلف عن تلك التي تعرّضت لها العراق في بواكير الأزمة التي أدّت في النهاية إلى احتلال الأمريكيين والبريطانيين للأراضي العراقية في مارس من العام ٢٠٠٣م، وبالتالي أدركت كوريا الشمالية الدرس العراقي.

وأما الاعتبار الآخر: فيتمثل في تضاؤل احتمالات لجوء المجتمع الدولي إلى الخيار العسكري ضد بيونغ يانغ؛ استناداً إلى عاملين: أولهما: معارضة الدول الحليفة لأمريكا والمحيطة بكوريا الشمالية لأي عمل عسكري ضد الأخيرة. وثانيهما: أن العقلية الحاكمة في كوريا الشمالية انتحارية ولن تردع بامتلاك أمريكا لقدرات عسكرية تستطيع إزالتها من الوجود، وقد تلجأ، في حال شعرت بخطر محقق، إلى استخدام الأسلحة النووية للدفاع عن نفسها. الأمر الذي يجعل من الخيار العسكري ضد كوريا الشمالية، يعني شيئاً واحداً هو حرب نووية في شبه الجزيرة الكورية، تمتد أصداؤها إلى العالم أجمع. (٢١) وهذا ما أجبر واشنطن على الرضوخ للواقع الجديد ودعوة بيونغ يانغ خلال شهر نوفمبر ٢٠٠٦ لاستئناف المفاوضات السداسية مجدداً، وعلى أسس جديدة تتفق وتطور موازين القوى الجديدة مع الدولة الشيوعية، التي انضمت إلى النادي النووي. (٢١)

صعوبة التلاقي بين أمريكا اللاتينية والعالم العربي الإسلامي:

في خضمّ الغضب العالمي العارم على سياسات الولايات المتحدة والتي تنزع باتجاه الهيمنة على مراكز العالم الحيوية ومقدراته، واستباحة التدخل في شؤون دوله الداخلية، برزت مساعي بعض زعماء دول أمريكا اللاتينية للتقارب مع الدول العربية والإسلامية.

تفجير نووي تحت الأرض إلا بعد أن اشتدت وطأة القطيعة التي ضربتها حولها واشنطن وحلفاؤها في شبه الجزيرة الكورية. (١٦)

وفى يوم التاسع من أكتوبر ٢٠٠٦، أجرت كوريا الشمالية تجربتها النووية الأولى لتصبح بذلك ثامن دولة تجري تجارب نووية في العالم، وسط توقعات بأن تلحقها تجارب أخرى. ومن جانبه وبعد ضغوط أمريكية مكثفة، نجح مجلس الأمن الدولي بعد ستة أيام فقط من إجراء تلك التجربة في إصدار قراره بالإجماع رقم ١٧١٨، القاضي بفرض عقوبات على بيونغ يانغ تتضمن حظراً على أية صادرات أو واردات منها وإليها؛ من شأنها أن تعينها على مواصلة برامج إنتاج وتطوير الأسلحة التقليدية أو النووية أو حتى برامج تطوير الصواريخ الباليستية. (١٧)

بيد أن تلك الاستجابة السريعة من قبل مجلس الأمن لم تكن لتقوض عزيمة بيونغ يانغ، خصوصاً وأن القرار الأممي تحاشى التلويح باستخدام القوة ضدها، وحصر الإجراءات العقابية في حزمة من إجراءات اقتصادية وفنية، تعانيتها بيونغ يانغ منذ سنوات طويلة، تفننت خلالها في التحايل عليها وتحيدها. (١٨) ومن جانبهم، عمدت كل من اليابان وكوريا الجنوبية والصين إلى التأكيد على رفضهم لأي تصعيد عسكري ضد بيونغ يانغ، وطالبت بالتخفيف من وطأة العقوبات المفروضة عليها؛ تحاشياً للتداعيات السلبية الخطيرة التي من المتوقع أن تنجم عن ذلك، خصوصاً تعرّض طوكيو وسول لخطر الهجمات الإرهابية من قبل كوريا الشمالية... وكذا من حدوث اضطرابات اقتصادية إثر تدفق مئات الآلاف من اللاجئين الكوريين الشماليين إلى اليابان وكوريا الجنوبية. (١٩)

وتستند بيونغ يانغ في تحديدها لواشنطن إلى اعتبارين مهمين: أولهما: أنها تعتبر أن إصرارها على امتلاك السلاح النووي وأدوات توصيله من الصواريخ الباليستية متوسطة وطويلة المدى، إنما يأتي في إطار

استضافتها العاصمة البرازيلية في شهر مايو من العام ٢٠٠٤، حيث جاءت القمة نتاجاً لمبادرة ودعوة لاتينية صرّفة؛ إذ كانت بداية الدعوة للقمة إبان جولة الرئيس البرازيلي لولا داسيلفيا الشرق أوسطية في العام ٢٠٠٣، التي تعكس رغبة الدول اللاتينية وخاصة البرازيل في تجديد الدعوة للحوار بين الجانبين العربي واللاتيني. وفي ذات السياق، جاءت زيارة وزير الخارجية الأرجنتيني رافئيل بلسا أول سبتمبر ٢٠٠٤ لمصر لتعبر عن هذا المعنى، حيث أعلن أنه تم الاتفاق على عقد القمة العربية اللاتينية في مدينة ساو باولو البرازيلية، في أبريل ٢٠٠٥. وفي الوقت الذي حرص الزعماء والقادة اللاتينيون على الحضور والمشاركة الفاعلة في كافة فعاليات القمة، لم يكن على رأس الوفود العربية المشاركة من ٢٢ دولة عربية سوى خمس رؤساء دول فقط هم الجزائر، قطر، جيبوتي، العراق، فلسطين وجزر القمر، في حين غاب رؤساء دول عربية محورية كان من الممكن أن يمثل حضورهم قوة دفع مهمة لمسيرة التقارب بين الجانبين العربي واللاتيني.

وبالرغم من ذلك، أكدت القمة -التي جمعت ٤٣ دولة يزيد عدد سكانها عن ٦٠٠ مليون نسمة- شدة دعمها للقضايا العربية كافة. (٢٦)

ومثلما كان الحضور العربي متواضعاً على المستويين الرسمي والشعبي، جاء تواضع الطموحات العربية من القمة، فبينما كانت تسعى دول أمريكا اللاتينية إلى اتخاذ القمة منطلقاً لتأسيس كيان عربي إسلامي لاتيني مترابط الوشائج الاقتصادية والسياسية والحضارية، يستطيع التحدث باسم الطرفين العرب والمسلمين واللاتينيين في كافة المحافل الدولية، ويكون نواة لتجمع عالم ثالثي موسع يعمل على مناهضة الهيمنة الأمريكية على العالم، من خلال

وقد بدأت تلك المساعي بمواقف جادة وإيجابية من قِبَل دول أمريكا اللاتينية في دعم القضايا العربية والإسلامية داخل المنظمات الدولية، ثم اكتسبت تلك المساعي طابعاً أكثر جدية مع الزيارات التي قام بها بعض القادة اللاتينيين إلى الدول العربية مؤخراً.

حماس لاتيني وتردد عربي:

يلحظ المتتبع لتطور العلاقات بين العالم العربي والإسلامي من جهة ودول أمريكا اللاتينية من جهة أخرى، أن التوجه العربي الإسلامي نحو العالم اللاتيني فيما مضى كان ظرفياً واضطرابياً اقتضته ظروف اقتصادية وأوضاع سياسية طارئة في حينها (٢٣)، أما في العصر الحديث فقد أُلْمَ الفتور بالعرب والمسلمين حيال دول أمريكا اللاتينية بالرغم من الوجود الضخم لأبناء الجاليتين العربية والإسلامية في تلك البلدان. (٢٤)

على الجانب الآخر، عمدت بعض دول أمريكا اللاتينية إلى تحري بعض السبل لتوثيق العلاقات الهشة بين الجانبين؛ فشرعت في بعض المبادرات

كالزيارات الرسمية التي قام بها مسؤولون وقادة لاتينيون إلى دول عربية وإسلامية؛ محاولين الخروج بتلك العلاقات من الحصار التي وضعت فيه داخل المنظمات الدولية، أو المنظمات الإقليمية المتخصصة، أو بعض التجمعات مثل الأوبك. غير أن تلك المساعي والمبادرات من الجانب اللاتيني لم تقابل بالإيجابية المطلوبة من الجانب العربي أو الإسلامي. (٢٥)

ويمكن التحقق من مصداقية هذا الطرح من خلال تحليل مواقف الجانبين العربي واللاتيني خلال مناسبات ثلاث مهمة: الأولى: كانت فعاليات القمة العربية اللاتينية التي

التوجه العربي الإسلامي نحو العالم اللاتيني فيما مضى كان ظرفياً واضطرابياً اقتضته ظروف اقتصادية وأوضاع سياسية طارئة في حينها

العلاقات الدولية

المؤتمر باهتمام رسمي أو حتى إعلامي من قبل الدول العربية والإسلامية. (٢٩)

هذا، ويمكن إرجاع الفتور العربي والإسلامي في التقارب مع دول أمريكا اللاتينية إلى حزمة من العوامل التي أتصور أنه يأتي في مؤخرتها العامل الجغرافي، في حين يأتي في صدارتها، المتغير الأمريكي في تلك العلاقة، حيث تشكل علاقة التبعية التي تخيم على معظم علاقات الدول العربية والإسلامية مع واشنطن، حائلاً دون تحقيق التقارب المنشود بين الجانبين العربي واللاتيني، لا سيما بعد تنامي أجواء التمرد داخل تلك الدول على الولايات المتحدة وسياساتها؛ مع صعود زعماء مناهضين لواشنطن إلى سدة الحكم في دول لاتينية عديدة مؤخراً؛ حيث تخشى واشنطن من أي تسسيق أو تحالف مستقبلي بين الرافض العربي الإسلامي لسياساتها والتمرد اللاتيني عليها .

من جهة أخرى، يمكن القول: إن الولايات المتحدة قد استهوت الطرفين العربي الإسلامي واللاتيني، كُـلٌّ على حدة بدرجات متفاوتة، ربما تكون أقل لدى الجانب اللاتيني خلال الآونة الأخيرة، فشغلته عن أن يرى بقية العالم، ويدرك أن هناك أمماً وشعوباً ودولاً أخرى تستجدي الاهتمام وتستحق التواصل معها. فشانهم شأن معظم دول العالم، انصرف العرب والمسلمون واللاتينيون

بجُلِّ اهتمامهم وتركيزهم باتجاه الولايات المتحدة، إن اتفاقاً أو اختلافاً، على اعتبار أنها قلب العالم وقائده الأوحده المهيمن وعقله المحرك، ولم يعد لديهم من الاهتمام ما يوجهونه إلى غيرها. يضاف إلى ما سبق أن الدول اللاتينية تجمع بينها وشائج تقارب عديدة من النواحي الثقافية، الاقتصادية والسياسية عبر منظمة الميركوسور بغية التصدي للهيمنة الأمريكية، بينما الدول العربية والإسلامية منقسمة فيما بينها ولم تفلح

توثيق عرى التعاون العلمي والاقتصادي والسياسي والثقافي بين دول الجنوب في مواجهة استغلال دول الشمال، انحصرت التطلعات العربية من القمة في استجداء بعض الصفقات التجارية المنفردة مع دول أمريكا اللاتينية، فضلاً عن الحصول على بعض التنديد والشجب اللاتيني للممارسات الإسرائيلية في الشرق الأوسط. كذلك، آثرت وفود الدول العربية تجنب انتقاد الولايات المتحدة وسياساتها، وتركوا تلك المهمة لزعماء أمريكا اللاتينية الذين قاموا بها خير قيام. (٢٧)

والمناسبة الثانية: كانت قمة أبوجا الإفريقية اللاتينية، التي استضافتها العاصمة النيجيرية أبوجا في ديسمبر من العام ٢٠٠٥، بدعوة من النياد واللجنة الاقتصادية الإفريقية، بغرض توثيق عرى التعاون بين الجانبين الإفريقي واللاتيني في مختلف المجالات. ورغم أنها كانت القمة الأولى من نوعها، وتعرض بيانها الختامي لقضايا عربية مهمة كالشأن السوداني، إلا أنها حظيت بمشاركة أربعين رئيس دولة وحكومة، كان معظمهم من الجانب اللاتيني والإفريقي، ولم يظهر من الجانب العربي سوى الرئيس الليبي معمر القذافي تقريباً، ولم يحرص العرب والمسلمون على استثمارها لمتابعة تفعيل مقررات قمة برازيليا، وتحقيق المزيد من التقارب مع دول أمريكا اللاتينية. (٢٨)

أما المناسبة الثالثة: فهي المؤتمر الدوري لمسلمي أمريكا

اللاتينية، الذي يعقد بشكل دوري منذ العام ٢٠٠١ بمشاركة ممثلي ٣٥ مركزاً ثقافياً وجمعية إسلامية في أمريكا اللاتينية تحت رعاية المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو»، وذلك في إطار تنفيذ استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب التي أعدتها المنظمة، وصادق عليها مؤتمر القمة الإسلامي. غير أن مثل هذه المناسبة الدورية لم تلق اهتمام حكام العرب والمسلمين، كما لم يحظ

تشكل علاقة التبعية التي تخيم على معظم علاقات الدول العربية والإسلامية مع واشنطن، حائلاً دون تحقيق التقارب المنشود بين الجانبين العربي واللاتيني

إلا أن رواسب تلك الصورة لا تزال تغطي على أذهان الكثيرين من أبناء تلك البلدان، ومن ثم تُوجد حاجزاً بينهم وبين العرب والمسلمين حتى يومنا هذا. (٣٠)

وظني أن السبيل الأمثل لتجسير الفجوة بين العرب والمسلمين ودول أمريكا اللاتينية يبدأ بالتححرر أولاً، كأن يتحرر الطرفان من الصورة الذهنية النمطية المشوهة عن بعضهما البعض، من خلال إعادة التعارف المبني على التقويم الموضوعي لُمُقَدَّرَات كل طرف بعيداً عن أية مؤثرات، وإدراك نقاط التلاقي وتنميتها، والعمل في نفس الوقت على تجاوز الخلافات وتقليصها إلى أدنى حد ممكن.

كذلك، على العرب والمسلمين التححرر من الحصار الأمريكي والتخلي عن الدوران في فلك الإدارة الأمريكية والبحث عن مصالحهم وما ينفع أمتهم، وأن يستغل العرب والمسلمون واللاتينيون رفضهم المشترك للوصاية الأمريكية، ومساعي واشنطن للهيمنة على العالم، كمنطلق للعمل المشترك الذي تتسع قاعدته للرافضين لتلك الهيمنة الأمريكية من كل بقاع العالم. على أن تسير تلك التحركات بالتوازي مع تكثيف العلاقات الدبلوماسية وتعزيز الروابط الاقتصادية والتجارية ومد جسور التواصل الحضاري والثقافي بين الجانبين، وهي إجراءات لا شك ستتيح فرصاً هائلة للجاليات العربية والإسلامية في بلدان أمريكا اللاتينية للقيام بدور مهم وفعال بعد أن تتم معالجة جوانب القصور التي تعرقل اضطلاعها بهذا الدور من خلال تذويب الخلافات فيما بينها وتوثيق عُرى التواصل بينها وبين بلدانها الأصلية، التي يتعين عليها دعم تلك الجاليات بشتى السبل وفتح قنوات اتصال مستمرة وفاعلة معها من أجل التنسيق المشترك بشأن ما ينفع العرب والمسلمين.

العرب والمسلمون والهيمنة الأمريكية:

يمكن القول: إن الهيمنة الأمريكية على العالم العربي والإسلامي تعود بجذورها إلى التغلغل الأمريكي في العالم العربي والإسلامي منذ أربعينيات

وشائج الترابط القوية المتعددة التي تجمع بينها في التأليف بين كلمتها وتوحيد مواقفها على أي صعيد. أما الجاليات العربية والإسلامية في أمريكا اللاتينية، والتي يناهز تعدادها العشرين مليوناً، فلم تفلح رغم الإنجازات الهائلة التي حققتها في المهجر اللاتيني على مختلف الأصعدة، في أن تكون جسراً حضارياً وسياسياً واقتصادياً بين بلدانها الأصلية وبلدان المهجر لأسباب شتى، أبرزها: عدم وجود رغبة حقيقية أو حماس لدى تلك الجاليات في الاضطلاع بهذا الدور، فضلاً عن عدم تشجيع الدول العربية والإسلامية لها في هذا الصدد، وغياب التنسيق فيما بينها؛ بسبب خوفها من توتر علاقاتها المضطربة بالبلدان التي تعيش فيها، في الوقت الذي أصاب الجفاء علاقاتها ببلدانها الأصلية.

ثمة عامل آخر يقف بين العرب والمسلمين من جهة واللاتينيين من جهة أخرى يتمثل في الصورة الذهنية النمطية المشوهة لكليهما عن الآخر، والتي لعبت الدعاية الغربية، والأمريكية منها على وجه الخصوص، دوراً مهماً في إذكائها؛ حيث تستبد بالذهن العربي فكرة أن دول أمريكا اللاتينية والجنوبية ما هي إلا أشباه دول أو جمهوريات موز خاضعة للهيمنة الأمريكية تعبت بها كيف شاءت، وما شعوبها إلا أسارى للفقر والعنف والجريمة والفساد. وعلى الجانب اللاتيني، تسود فكرة مشوهة عن العرب والمسلمين منذ أن وطأت أقدامهم تلك البلاد في القرن التاسع عشر بأنهم ضعفاء تابعون، حيث كانوا يسمون بـ «التوركوس» نسبة إلى تركيا أو الدولة العثمانية التي كانوا يتبعونها حينئذ، وكانوا يُعتبرون أدنى التجمعات البشرية في أمريكا الجنوبية منزلة؛ بسبب الحرف اليدوية والتجارة المتقلبة التي كانوا يعكفون على ممارستها، كما يرون عرب ومسلمي اليوم مجرد دُمى في أيدي الأمريكيين. وبالرغم من أن الجاليات العربية والإسلامية بذلت جهوداً حثيثة لتغيير تلك الصورة بفعل نجاحاتها وإسهاماتها الحضارية والاقتصادية في مجتمعات أمريكا اللاتينية،

بحوزته من رصيد حضاري وروحي ثري بمقدوره أن يفنّد النموذج الحضاري الأنجلو-أمريكي ويظهر عليه، خصوصًا في ظل الولع الغربي بالإسلام في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رغم محاولات التشويه الغربية المتعمدة له، حتى إن الغرب بدأ يخشى من أسلمة مجتمعاته بسبب تنامي أعداد المسلمين فيها، ولم يتورع أولئك المنظرّون عن استحضار الميراث التاريخي الغربي من العداء للإسلام، والذي استند إلى صور ذهنية مشوهة ومغلوبة عن الإسلام والمسلمين.

ولما كانت تلك الصور الذهنية الزائفة لم تعد تؤتي أكلها، ولا تنطلي على بعض قطاعات من مواطني الغرب في الوقت الراهن، فقد لجأ هؤلاء المنظرّون إلى تخويف الغرب من الإسلام والمسلمين؛ باعتبارهما مصدرًا للإرهاب المُقوّض للحضارة الغربية، حيث اعتبرت قمة حلف الناتو في العام ١٩٩٢ أن الإسلام سيكون هو العدو الجديد للغرب ولحلف الأطلسي بعد انهيار المعسكر الاشتراكي. نفس الشيء تقريبًا أشار إليه صموئيل هنتنجتون في مقاله عن «صدام الحضارات» في صيف العام ١٩٩٣.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أصبح الإسلام هو العدو الأول للأمريكيين، حتى تعززت فكرة «الإسلاموفوبيا» في الغرب عمومًا، وفي أمريكا على وجه التحديد، ومن ثم استغلّتها إدارة بوش لتسويق حربها ضد ما أسمته بالإرهاب الإسلامي حول العالم، حيث دعا الرئيس الأمريكي بوش الابن إلى حرب صليبية جديدة ضد الإسلام والمسلمين. وبدوره، اعتبر صموئيل هنتنجتون أن تلك الأحداث بمثابة تأكيد لنبوءته بشأن صدام الحضارات وعداء الإسلام للغرب. كما جاء احتلال أمريكا لأفغانستان عام ٢٠٠١، ثم العراق ٢٠٠٣، ثم غضبها الطرف عن الانتهاكات الإسرائيلية في فلسطين ولبنان، وتحرش واشنطن وتل أبيب بإيران وسوريا في إطار محاربة «الإرهاب الإسلامي».

القرن الماضي، ثم مع أزمة السويس عام ١٩٥٦، حينما وضعت اللبنة المهمة للوجود الأمريكي في المنطقة، ودعم الدولة العبرية الناشئة من أجل إرساء دعائم الهيمنة الأمريكية على المنطقة من خلال ملء الفراغ الناجم عن رحيل القوى الاستعمارية وأفول العصر البريطاني في الشرق الأوسط.

وبقيادة أمريكا للتحالف الدولي ضد العراق عام ١٩٩١، ترسخ النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط. ومع احتلال أمريكا لأفغانستان في العام ٢٠٠١، ثم للعراق في العام ٢٠٠٣، أتمت إدارة بوش هيمنتها على المنطقة والاستئثار بمقدراتها من النفط والغاز إلى جانب المزايا الجيو-استراتيجية، خصوصًا بعد أن سيطرت على مناطق الشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، والقوقاز وبحر قزوين، والخليج العربي. (٣١)

وإلى جانب اعتمادها على قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، اتخذت واشنطن من قوتها الناعمة المتمثلة في العولمة المؤمركة أداة لبسط هيمنتها الثقافية والحضارية على العالم العربي والإسلامي، واعتمدت في بث أفكارها على الوسائل التكنولوجية المتقدمة من تليفزيون وأقمار صناعية وشبكة الإنترنت. الأمر الذي أوجد تيارًا -داخل العالم العربي الإسلامي- رافضًا للعولمة وينظر إليها على أنها صورة جديدة للاستعمار الحضاري الغربي للعالم الإسلامي، ومن ثم بدأ يشحذ الهمم لاستنفار المسلمين بغية التصدي للاستعمار الجديد المتمثل في الهيمنة الأمريكية. (٣٢)

أمريكا وتغيير الإسلام:

منذ أن جنح الأمريكيون نحو تكثيف إجراءاتهم لفرض هيمنتهم على العالم في أعقاب تفكك المعسكر الاشتراكي، بدأ منظرّو تلك الهيمنة وعرابوها في واشنطن شن هجومهم على الإسلام والمسلمين؛ على اعتبار أن الإسلام يمثل التحدي الحضاري الحقيقي أمام تلك الهيمنة؛ نظرًا لما

فيما درجت على التفتن في عرقلة نشاط المنظمات والجمعيات الإسلامية المحافظة وتشديد الرقابة والقيود عليها، خصوصاً في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. (٣٤)

الإسلام الفاشيستي:

ورد مصطلح «الفاشية الإسلامية»، للمرة الأولى - كما كتب جيفري نينيرج في صحيفة لوس أنجلوس تايمز - في أغسطس ٢٠٠٦، في تقرير اللجنة اليهودية الأمريكية الذي كتبه روبرت ويستريشن الأستاذ في الجامعة العبرية بعنوان «العداء الإسلامي للسامية»، في أبريل ٢٠٠٢، ويحتوي فصلاً عنوانه «الفاشية الإسلامية»، يقارن فيه بين الإسلام والفاشية والنازية، لكنه أصبح يشكل رؤية معتمدة للإدارة الأمريكية عن الإسلام، وهي رؤية اختزالية تُظهر العالم الإسلامي عدوانياً، يتطلع إلى ما أسماه السيناتور الجمهوري، ريك سانتوم «الحلم الفاشي الإسلامي المتطلع لإنشاء خلافة إسلامية عالمية، تكون فيها السيادة على العالم بأسره بيد المتطرفين والفاشيين الإسلاميين». (٣٥)

وفي أغسطس من العام ٢٠٠٦، أطلق الرئيس بوش وصفاً جديداً على الإسلام والمسلمين واصفاً إياهم «بالفاشيست»، حيث دعا بوش إلى مواصلة الحرب على من أسماهم «بالفاشيين الإسلاميين». وقد أعاد استخدام ذات المصطلح ست مرات خلال ثلاثة أسابيع كان أبرزها حينما هاجم المطالبين بضرورة سحب القوات الأمريكية من المستنقع

العراقي، قائلاً: إن سحب هذه القوات من العراق في الوقت الراهن من شأنه أن يفسح المجال أمام الفاشيين الإسلاميين هناك لمواصلة إرهابهم. ويرى مُنظرو الإدارة الأمريكية أن هناك ظاهرة مسيطرة في العالمين العربي والإسلامي، وبين الجاليات الإسلامية في الغرب عنوانها «الفاشية الإسلامية» ومن ثم راحوا

وفيما فشلت محاصرة واشنطن عسكرياً واقتصادياً للإسلام والمسلمين في التغلب على ما تعتبره تحدياً حضارياً إسلامياً، تولدت الدعوة الأمريكية لتطويع الإسلام وترويضه بحيث ينصاع ويرضخ للهيمنة الأمريكية، وساعدت أجواء الإسلاموفوبيا، التي اجتاحت العالم بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاها من أعمال عنف، نسبت للمسلمين، في بريطانيا وأسبانيا ومناطق عديدة من العالم، على توفير المناخ الملائم لتسويق تلك الدعوة. وركزت الدعوة على تغيير الإسلام الذي يعتبرونه جهادياً ومعادياً للغرب وحضارته واستبداله بإسلام أقرب ما يكون إلى المسيحية الغربية «الإصلاحية»، فكانت البداية بمطالبة واشنطن للدول الإسلامية بتغيير الخطاب الديني الإسلامي، وتقليص مساحة التعليم الديني في المدارس والجامعات، وتحجيم دور الأزهر، وإفساح المجال أمام الاتجاهات الإسلامية التحررية الجديدة «كالإسلام البهائي» وغيره من المداخل التي سعت واشنطن لاختراق الإسلام السني الواسطي وتشويهه من خلالها. (٣٣)

وعمدت السلطات الأمريكية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى محاصرة «الإسلام الأمريكي المحافظ» من خلال دعم تأسيس المنظمات

الإسلامية الموعلة في العلمانية والتطرف، والتي تتبنى أفكاراً دخيلة على الشريعة مثل إباحة الإجهاض، زواج المثليين جنسياً، والعلاقات الجنسية غير المشروعة، ومساواة

الرجل بالمرأة في كل شيء بما في ذلك الإمامة في الصلاة للرجال والنساء. ومن أبرز تلك المنظمات والحركات منظمة «صحوة الإسلام»، و«جولة حرية المرأة»، و«اتحاد المسلمين التقدميين بأمريكا الشمالية»، وهي منظمات منحتها السلطات الأمريكية تراخيص التأسيس وتصاريح مزاولة النشاط مقدماً

في أغسطس من العام ٢٠٠٦. أطلق الرئيس بوش وصفاً جديداً على الإسلام والمسلمين واصفاً إياهم «بالفاشيست»

المادي الموعول في العلمانية، فإن وحدة المسلمين وتماسكهم لهما السبيل الأمثل لتفويت الفرصة على أعدائهم؛ كي لا يستغلونهم في القضاء على بعضهم البعض ومحاربة الإسلام بذريعة تحديثه وتطويره.

وليس أدل على سلامة هذا الطرح من إقبال الآلاف من غير المسلمين في الغرب، وفي أمريكا تحديداً على إعادة اكتشاف الإسلام واعتناقه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رغم الحصار الحضاري والاقتصادي والهجمة العسكرية الشرسة التي تشنها حكوماتهم على الإسلام والمسلمين.

وأحسب أنه من الأمور الملحة في هذا السياق أيضاً، أن يتخلى المسلمون عن سياسة الشكوى الدائمة من الغبن والتهميش، وكونهم ضحية مغلوقة على أمرها، كما يتعين على الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية التحرر من الدوران في فلك الولايات المتحدة،

واتخاذها مصدرًا للشرعية والاستقواء، على اعتبار أن أمريكا هي القائد الأوحده للعالم، ولن يفضي الخروج عليه إلا إلى التهلكة، وكذا أن تتخلص الشعوب الإسلامية من إفسار الأمركة الثقافية والانبهار الأعمى

بالمجزات المادية الأمريكية، ثم الشروع بعد ذلك في مراجعة الذات والبحث عن ركائز القوة ومكامن الضعف، فننمي الأولى ونعالج الثانية. وإذا كنا نرفض تدخل الآخرين في شؤوننا ومطالبتهم بتغيير الإسلام، أو إصلاح الخطاب الديني، فإننا في ذات الوقت يجب أن نتصدى للجمود الفكري، وأن نقدم الإسلام للآخر على حقيقته التي تستند إلى الوسطية والتسامح وعدم الغلو. وأن نُبرز حقيقة معنى الجهاد بما يضع أسسًا إسلامية صحيحة للعلاقة مع الآخرين.

ويمكن في هذا الإطار، الاستفادة من الإخفاق الأمريكي في فرض الهيمنة على العالم أجمع، ثم

يروجون لفكرة الحرب العادلة؛ لتسويق الحرب على الإرهاب الإسلامي؛ باعتبارها دفاعًا عن النفس، وعن القيم الإنسانية، فبعد عام على احتلال كل من أفغانستان والعراق، طلع دونالد رامسفيلد بنظريته حول حرب الأفكار، التي ادعى فيها أنه أراد وضع حربه من أجل الديمقراطية والتنمية في مقابل جهادية أسامة بن لادن وفُسطاطيه. (٣٦)

تحركات ضرورية:

أما وقد ظهرت نوايا واشنطن السيئة حيال الإسلام والمسلمين، والتي وصلت إلى حد اختراق الإسلام ومحاوله تشويهه، والنيل من وحدته وتماسكه ووسطيته من خلال أطروحاتها المغرضة؛ حتى تتبدد قدرة المسلمين على التصدي لهيمنتها على العالم، فإنه يتعين على المسلمين استنهاض الهمم

وتوحيد الجهود وحشد الطاقات من أجل التصدي لهذا الخطر المحدق، وعليهم أن يضعوا في حساباتهم الدفاع عن أنفسهم ودينهم وأوطانهم لن يكون بالقوة العسكرية أو الاقتصادية فحسب، وإنما هو بالأساس

على المسلمين أن يضعوا في حساباتهم
أن الدفاع عن أنفسهم ودينهم وأوطانهم
لن يكون بالقوة العسكرية أو الاقتصادية
فحسب، وإنما هو بالأساس جهاد
ديني وحضاري

جهاد ديني وحضاري، فقبل أن نعد السلاح، علينا أولاً أن نعيد الوحدة والاعتدال والشفافية والوسطية إلى ديننا؛ حتى تتنامى مناعته الذاتية ضد مساعي الاختراق والتشويه الأمريكية، ومن بعد ذلك يأتي توئيد المسلمين وتآلفهم، وتجاوز الخلافات المذهبية، أو المصلحية التي تمزق كياناتهم فتجعلهم لقمة سائغة في أفواه أعدائهم المتربصين بهم.

وإذا كانت وسطية الإسلام واعتداله وتحريره من الوصاية بوسعها أن تضيع الفرصة على من ينصبون أنفسهم محدثين ومجددين له من ذوي الفكر

التمرد الدولي على تلك الهيمنة، خصوصًا من قبل المقاومة الإسلامية التي أنهكت الأمريكيين في أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين.

الهوامش:

- (١) انظر: السيد يسن، الإمبراطورية الكونية.. الصراع على الهيمنة الأمريكية، (القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٤).
- (٢) إسلام أون لاين نت، ١٩ / ١ / ٢٠٠٤.
- (٣) مجلة «المجلة»، ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٤) جريدة الشرق الأوسط، ١٤ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٥) جريدة الشرق الأوسط، ٢٨ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٦) مجلة الجزيرة، ٢١ / ٢ / ٢٠٠٦.
- (٧) جريدة الأهرام، ٥ / ١٢ / ٢٠٠٦.
- (٨) مجلة المستقبل، ١٩ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٩) ملف الأهرام الاستراتيجي، مارس ٢٠٠٦.
- (١٠) مجلة الجزيرة، مرجع سابق.
- (١١) جريدة الخليج الإماراتية، ١٨ / ٩ / ٢٠٠٣.
- (١٢) ملف الأهرام الاستراتيجي، مرجع سابق.
- (١٣) للمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى موقع وزارة الخارجية الأمريكية على الإنترنت، تقارير حول كوريا الشمالية.
- (١٤) د/ السيد عوض عثمان، جريدة الخليج الإماراتية، ٩ / ١ / ٢٠٠٣.
- (١٥) بشير عبد الفتاح، جريدة الخليج الإماراتية، ٩ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (١٦) إسلام أون لاين نت، ١٧ / ١٠ / ٢٠٠٦.
- (١٧) موقع الجزيرة نت، ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (١٨) أسامة الهتمي، مفكرة الإسلام، ٢٥ - ١٠ / ٢٠٠٦ م.
- (١٩) د/ السيد عوض عثمان، مجلة الديمقراطية، عدد يناير، ٢٠٠٦.
- (٢٠) حسن حردان، جريدة الحياة، ١٤ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٢١) جريدة الحياة اللندنية، ٢٩ / ١١ / ٢٠٠٦.
- (٢٢) للمزيد من التفاصيل عن أوضاع الجاليات العربية في أمريكا اللاتينية انظر: الوطن العربي وأمريكا اللاتينية، تأليف عدد من الباحثين اللاتينيين، ترجمة د. عبد الواحد أكمر، إشراف مارياروزا، صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥.
- (٢٣) ملف الأهرام الاستراتيجي، يوليو ٢٠٠٤.
- (٢٤) موقع إسلام أون لاين نت، ١٢ / ٥ / ٢٠٠٥.
- (٢٥) المصدر السابق، ٧ / ٥ / ٢٠٠٥.
- (٢٦) كتاب الوطن العربي وأمريكا اللاتينية، مرجع سبق ذكره.
- (٢٧) العرب أون لاين، ١ / ١٢ / ٢٠٠٥.
- (٢٨) إسلام أون لاين نت، ١٦ / ٩ / ٢٠٠٣.
- (٢٩) هاني حداد، إسلام أون لاين نت، ٢٢ / ٩ / ٢٠٠٤.

من هنا تبدو أهمية بلورة مشروع حضاري إسلامي عالمي، يستمد من فكرة الإسلام الحضاري التي استفادت منها التجربة الماليزية في التنمية، بحيث يمد جسور التواصل مع قوى عالمية أخرى رافضة للهيمنة الأمريكية في آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية، وهو أمر ليس بالعسير، لاسيما وأن الإسلام دين عالمي لديه تصور شامل ومتكامل لكافة شؤون الحياة، بما يعيننا على فهم الذات والتعايش مع الآخرين. (٣٧)

وعلى خلاف المساعي الأمريكية الرامية للاستفادة من مسلمي الغرب في تغيير الإسلام واختراقه وتشويهه بغية تطويعه للهيمنة الأمريكية، يمكن أن يتم تأهيل مسلمي الغرب والاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم لإنجاح المشروع الحضاري العالمي للإسلام، فبوسعهم لعب دور مهم كجسر للحوار مع الغرب وتعريفه بالإسلام على النحو الأفضل. وأحسب أن مسلمي الغرب قادرين على ذلك، فهم الأكثر معرفة بالغرب والأقدر على التفاوض معه وإقناعه، ولدى مسلمي الغرب معين لا بأس به من الإنتاج الفكري والفقه الإسلامي. وظني أن مسلمي أمريكا يفوقون نظراءهم في أوروبا أو أي بلد آخر قدرة على الاضطلاع بهذه المهمة، فهم إلى جانب كونهم الأكثر تأهيلاً وعلماً وجاهزية للقيام بدور فاعل في هذا الخصوص من كافة النواحي، فإنهم أيضًا الأكثر وعياً واستشعارًا لأهمية وجدوى تلك المهمة من أجل صالح الإسلام والمسلمين. (٣٨)

العلاقات الدولية

(٣٠) د/ صوفي أبو طالب، أثر العولمة على الهوية الثقافية، ورقة مقدمة للمؤتمر الحادي عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية تحت عنوان: «نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي». د.ت، موقع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) التقرير الاستراتيجي العربي، ٢٠٠٤.

(٣٣) إسلام أون لاين نت، ٧/٨/٢٠٠٥.

(٣٤) المصدر السابق، ٥/٤/٢٠٠٥.

(٣٦) بشير عبد الفتاح، جريدة نهضة مصر، ٢٥/٣/٢٠٠٥.

(٣٧) فرج أبو العشة، جريدة الراية القطرية، ٢١/٩/٢٠٠٦.

(٣٨) رضوان السيد، جريدة الحياة، ١٢/٩/٢٠٠٦.

ويمكن الاستزادة في هذا الموضوع بالرجوع إلى:

- مراد هوفيان، في حوار لإسلام أون لاين، نشر بتاريخ ١٤/١/٢٠٠٤.

- موقع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مؤتمر حول الإسلام والتفاعل الحضاري.

معلومات إضافية

هوجو شافيز (Hugo Chavez)

(من مواليد ٢٨ يوليو ١٩٥٤) هو رئيس دولة فنزويلا الحالي، وترتيبه الثالث والخمسون في تاريخها. يعرف بحكومته ذات السلطة الديمقراطية الاشتراكية، واشتهر لمنااداته بتكامل أمريكا اللاتينية السياسي والاقتصادي مع معاداته للإمبريالية، وانتقاده الحاد لأنصار العولمة من الليبراليين الحديثين وللسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية.

لشافيز سجل عسكري متميز مع الجيش الفنزويلي. قام بمحاولة انقلاب فاشلة عام ١٩٩٢م ضد حكومة كارلوس أندريس بيريز وتوجهاتها الليبرالية الحديثة، وأودع إثرها السجن. بعدما أطلق سراحه عام ١٩٩٤ أسس حركة الجمهورية الخامسة التي تعرف اختصاراً بـ (MVR)، وهي حركة يسارية تعلن أنها الناطق السياسي باسم فقراء فنزويلا. اختير شافيز كرئيس للبلاد في انتخابات عام ١٩٩٨ بسبب الوعود التي أطلقها لدعم فقراء البلاد الذين يشكلون الأكثرية من السكان، كما أعيد انتخابه عام ٢٠٠٠، أطلق شافيز حملات عدة في بوليفيا بهدف محاربة الأمراض والأمية وسوء التغذية والفقر وأمراض اجتماعية أخرى.

أثارت حملات الإصلاح الواسعة التي أطلقها شافيز الجدل في فنزويلا وخارجها، متلقية النقد والترحيب، وتراوحت الآراء بين كونه أممًا للفقراء باحتياجاتهم، وبين أنه أساء إدارة الاقتصاد. وعلي الصعيد العالمي عُرف شافيز بعدة دعوات لخلق علاقات وطيدة بين الدول الأكثر فقراً في العالم، بدءاً بدعوته للتكامل في أمريكا الجنوبية وإلى دعوته لحلف إفريقي - كاريبي - جنوب أمريكي، كما أنه صرّح في عدة مناسبات بدعمه لكفاح الشعب الفلسطيني واللبناني ودعم الجمهورية الإيرانية، وتدد بإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. كما تتمتع حكومته بعلاقات جيدة بالدول العربية. إبان العدوان الإسرائيلي سحب السفير الفنزويلي من إسرائيل ليقطع بعدها العلاقات معها؛ لقوله: إنه لا فائدة من التعامل مع إسرائيل.

في مايو ٢٠٠٦، تم اختيار شافيز كأحد أكثر ١٠٠ شخصية مؤثرة في مجلة التايم. فاز بفترة رئاسية ثانية لمدة ست سنوات أخرى، وذلك بنسبة ٦١,٣٥٪ من أصوات الناخبين

هوجو شافيز، الموسوعة الحرة على الإنترنت «wikipedia» وموقعها

<http://ar.wikipedia.org/wiki>

التجربة النووية لكوريا الشمالية :

كوريا الشمالية تدخل ضمن مجموعة «محور الشر»:

مع أن كوريا الشمالية لم تتهم رسميًا بأي عمل إرهابي نُفذته بشكل مباشر منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وعلى الرغم من استنكارها لتفجيرات أمريكا وتوقيعها على معاهدات بهذا الشأن في الأمم المتحدة، فإن ذلك لم يمنع بوش من ضم كوريا الشمالية لما وصفه بأنه «محور الشر» الثلاثي (يوم ٢٩ / ١ / ٢٠٠٢) بالنسبة لبلاده. وفي اليوم التالي (١ / ٣٠) صدرت دراسة تفصيلية عن مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية في واشنطن (من إعداد أنثوني كورديسمان) تنقل الرؤية الأمريكية لـ «محور الشر» حسب تصور حكومة بوش، الذي تناول كوريا الشمالية والعراق وإيران.

ما جاء فيها باختصار عن بيونغيانغ نقلاً عن البنتاجون والمخابرات الأمريكية فيما يلي:

أولاً: يعتبر البنتاجون حكومة بيونغيانغ مصدرًا ممكنًا لتحدٍّ أمني للولايات المتحدة، باستمرارها في الحفاظ على جيش قوي موجه نحو الحدود الجنوبية، وبرنامج صواريخ وأسلحة الدمار الشامل كدعائم لاستراتيجيتها الأمنية. بسبب امتلاكها احتياطيًا كبيرًا من الأسلحة الكيماوية يمكن توجيهها عسكريًا عبر الصواريخ الباليستية (منها سكود) والطائرات والمدركات والأساليب غير التقليدية.

ثانيًا: ليس هناك خلاف بين الأوساط الأمنية الأمريكية حول امتلاك بيونغيانغ لمخزون كبير من الأسلحة التقليدية والبيولوجية؛ لكن الخلاف يدور حول قدرتها على توجيه ضربات نووية. وكان أول تقرير حول برنامجها النووي قد ظهر في عام ١٩٩٣، حيث أجريت محادثات أنهيت باتفاقية جنيف لعام ١٩٩٤، وجمدت بيونغيانغ إنتاج البلوتونيوم. لكن ما تم إنتاجه قبل ذلك يمكن استخدامه لتصنيع قنبلة أو قنبلتين نوويتين و١٠ رؤوس نووية أخرى.

article19.shtml/02/http://www.islamonline.net/Arabic/politics/2002

تُخذ برازيلي:

باشرت الشرطة الفدرالية البرازيلية السبت ٣ / ١ / ٢٠٠٤ أخذ بصمات وصور المواطنين الأمريكيين الذين يدخلون الأراضي البرازيلية عبر كل مطارات البلاد، عملاً بقرار صادر عن قاضٍ فدرالي.

وكانت سلطات الهجرة في مطار ساو باولو الدولي أول من طبق هذا الإجراء في مقبل شهر يناير ٢٠٠٤ بناء على قرار صادر عن محكمة ماتو جروسو (وسط) الفدرالية تطبيقاً لـ «مبدأ المعاملة بالمثل».

وعبرت واشنطن على لسان المتحدث باسم الخارجية الأمريكية ريتشارد باوتشر «عن موقفها الجديد»، حين اعتبر المسئول الأمريكي أن هذه الإجراءات التي تطبقها البرازيل ردًا على إجراءات مماثلة اتخذتها الولايات المتحدة.. «غير مناسبة وجائرة ولا تخدم مصالح البرازيل ولا مصالح الولايات المتحدة»، وقال باوتشر في تصريحاته في مؤتمر صحفي عقد بالخارجية الأمريكية مساء الثلاثاء ٦/١/٢٠٠٤: «ما نراه هو برنامج وضع بتسرع، ولم يتم التحضير له بشكل جيد كما تسبب بتأخير كبير للرعايا الأمريكيين، مؤكدًا أن هذا التأخير ليس في مصلحة الولايات المتحدة ولا المسافرين الأمريكيين» وأضاف مهددًا «وبصراحة ليس في مصلحة البرازيل، فيما يتعلق بجذب رجال الأعمال والسياح».

article14.shtml/07/01-http://www.islamonline.net/Arabic/news/2004

اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الوسطى:

دخلت اتفاقية التجارة الحرة حيز التنفيذ بين الولايات المتحدة الأمريكية والسلفادور في ١ آذار/ مارس ٢٠٠٦ ثم هندوراس ونيكاراغوا في ١ نيسان / أبريل ٢٠٠٦، وغواتيمالا في ١ تموز/ يوليه ٢٠٠٦. وتواصل الحكومة الأمريكية العمل مع الباقين لتنفيذ الاتفاقية والعمل على جذب كوستاريكا وجمهورية الدومينيكا لضمان التنفيذ الكامل للاتفاقية.

ومن أهم بنود اتفاق التجارة الحرة في أمريكا الوسطى:

خفض التعريفات الجمركية، وتعزيز الحماية الأمريكية لبراءات الاختراع والعلامات التجارية والأسرار التجارية، والتسهيلات الجمركية، والفوائد للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة المصدرة، كما تضمنت الأحكام التي تعالج الفساد والشفافية، وحقوق العمال وحماية البيئة، وبناء القدرات التجارية، وتسوية المنازعات.

والسؤال: لماذا أقدمت الولايات المتحدة على اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الوسطى؟

لخلق ثاني أكبر سوق لصادرات الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية. والوصول إلى أسواق جديدة لها لتسويق المنتجات الاستهلاكية والصناعية والزراعية. كما لم يسبق له مثيل، فالولايات المتحدة الأمريكية تصدر ما يقرب من ١٦ بليون دولار من السلع إلى خمس من دول أمريكا الوسطى، ووصل حجم الصادرات إلى هذه الجمهوريات في ٢٠٠٤ أكبر بكثير من الصادرات إلى كل من روسيا والهند وإندونيسيا، وهذا مما يعني أن نمو الصادرات الأمريكية بسبب اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الوسطى «تفوق صادرات الولايات المتحدة. من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٤ في المنطقة عمومًا بنسبة ١٦٪ مقارنة بأقل من ٥٪ لإجمالي صادرات الولايات المتحدة».

العلاقات الدولية

أهم توصيات «اتفاق التجارة الحرة في أمريكا الوسطى»:

يتطلب إصلاحات هامة في النظم القانونية وبيئة الأعمال التجارية التي تشجع المنافسة والاستثمار، وحماية حقوق الملكية الفكرية، وتعزيز الشفافية وحكم القانون في النظم الديمقراطية التي تجسدت في المنطقة خلال العقد الماضي.

كما أن الاتفاق هو أداة هامة لدعم مصالح الأمن القومي الأمريكي. فهو يشجع توثيق التعاون الاقتصادي بين بلدان أمريكا الوسطى والولايات المتحدة، مما يشجع التكامل الإقليمي والمساهمة في زيادة الاستقرار والسلام في المنطقة.

EXPORT.GOV U.S. Government Export Portal www.export.gov/fta

دخل الفرد في دول أمريكا اللاتينية مقارنة بدول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (%)

٢٠٠٠	١٩٩٩	١٩٩٨	١٩٩٧	١٩٩٦	١٩٩٥	١٩٩٤	١٩٩٣	١٩٩٢	١٩٩١	١٩٩٠	١٩٨٠
١٣,٠	١٣,١	١٤,٠	١٣,٩	١٣,٠	١٢,٥	١٢,٣	١٢,٨	١١,٩	١١,٧	١٠,٨	١٨,٧

نمو الاستثمار الأجنبي المباشر (نسبة مئوية من إجمالي الناتج المحلي):

بوليفيا	أمريكا الشمالية والكاريبي	منخفضة الدخل	مرتفعة الدخل: OECD
١٩٨٠	٣,٢٩	٠,٤١	١,٤٤
١٩٩٠	٠,٦٩	٠,٤٨	٣,٠١
١٩٩١	١,٠١	٠,٦٣	٢,٢١
١٩٩٢	١,٧٣	٠,٨٢	١,٩٥
١٩٩٣	٢,٢٠	١,٠٢	٢,٠٩
١٩٩٤	٢,٢١	٠,٩٩	٢,١٩
١٩٩٥	٥,٩٠	١,٤٣	٢,٢٧
١٩٩٦	٦,٤٦	١,٩١	٢,٧٥
١٩٩٧	٩,٢٨	١,٨٨	٣,٤١
١٩٩٨	١١,٤٠	٢,٠١	٥,٩٢
١٩٩٩	١٢,٣	١,٩١	٧,٣٢
٢٠٠٠	٨,٨٨	١,٦١	٩,٦٨

المصدر: قاعدة بيانات مؤشرات التنمية العالمية

يوضح الجدول (٢) أن دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مرتفعة الدخل تتمتع باستثمارات أجنبية مباشرة تبلغ حوالي ١٠٪ من إجمالي الناتج المحلي سنة ٢٠٠٠، مقارنة مع متوسط أمريكا اللاتينية والذي يقل عن ٥٪. أما بوليفيا فتتمثل حالة استثنائية بسبب كميات الغاز الكبيرة التي يتم استغلالها هناك.

هل فشل نظام اقتصاد السوق في أمريكا اللاتينية؟

بول هولدين، مركز المشروعات الدولية الخاصة، غرفة التجارة الأمريكية، واشنطن.

<http://www.cipe-arabia.org/files/html/art0909.htm>

